

قصص الأنبياء

المستمى

عز الدين الحلبي

تأليف

أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري

المعروف بالثعلبي

المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية

الطبعة الرابعة

تمتاز بضبط الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة

دار القلم

بيروت - لبنان

قصص الأنبياء

المستمى

عزائير الجليلي

مؤلف

أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري



المعروف بالثعلبي

المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية

الطبعة الرابعة

تمتاز بضبط الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة

دار الفکر

بيروت - لبنان

كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق :

[قرآن كريم]

131468

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حق حمده ، والصلاة على محمد وآله .

قال الأستاذ أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي رحمه الله تعالى : هذا كتاب
بشتمل على قصص الأنبياء المذكورة في القرآن بالشرح ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

باب في ذكر بعض وجوه الحكمة في تقصيصه تعالى

أخبار الماضين على سيد المرسلين

قال الله تعالى (وكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) .
قالت الحكماء : إن الله تعالى قص على المصطفى صلى الله عليه وسلم أخبار الماضين من
الأنبياء والأمم الخالية لخمسة أمور : أي حِكْمَ .

الحكمة الأولى منها : أنه إظهار لنبوته صلى الله عليه وسلم ودلالة على رسالته ، وذلك أن
النبي صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يختلف إلى مؤدب ولا إلى معلم ، ولم يفارق وطنه مدة
يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه علم الأخبار ، ولم يعرف له طلب شيء من العلوم إلى
أن كان من أمره ما كان ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ولقنه ذلك ، فأخذ يحدث الناس
بأخبار ما مضى من القرون ، وسير الأنبياء الماضين والملوك المتقدمين . فمن كان من قومه
عاقلا موقفا صدق بما يوحى الله إليه وإخباره إياه بذلك فأمن به وصدقه ، وكان ذلك معجزة
له ، ودليلا على صحة نبوته . ومن كان منهم عدوا معاندا حسده وجحده وأنكر ما جاء به ،
وقال كما أخبر الله تعالى (وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة
وأصيلا) قال الله تعالى تكذبا لهم وتصديقا للنبي عليه الصلاة والسلام (قل أنزله الذي
بتعلم السر في السموات والأرض) .

والحكمة الثانية : أنه إنما قص عليه القصص ليكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل
والأنبياء المتقدمين والأولياء الصالحين فيما أخبر الله تعالى عنهم وأثنى عليهم ، ولتنهي أمته
عن أمور عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها عليها ، واستوجبوا من الله بذلك العذاب والعقاب ،

فتمم الله له بذلك معالي الأخلاق ، فلما امتثل أمر الله تعالى واستعمل أدب الأنبياء أثنى الله عليه ، فقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ولذلك قالت عائشة رضي الله تعالى عنها حين سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان خلقه القرآن .

والحكمة الثالثة : أنه إنما قص عليه القصص تثبيتاً له وإعلاماً بشرفه وشرف أمته وعلو أقدارهم ، وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله ، علم أنه عوفي هو وأمته من كثير مما امتحن الله به الأنبياء والأولياء وخفف عنهم في الشرائع ورفع عنهم الأثقال والأغلال التي كانت على الأمم الماضية ، كما قال بعض المتأولين في تفسير قوله تعالى (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) إن النعمة الظاهرة تخفيف الشرائع ، والباطنة تضعيف الصنائع ، قال الله تعالى (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) . وقال تعالى (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) . وقال تعالى (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) . فلما قص الله تعالى هذه القصص على نبيه رأى فضل نفسه وفضل أمته ، وعلم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم يخص بها أحداً من الأنبياء والأمم ، فوصل قيام ليله بنهاره ، وصيامه بقيامه ، لا يفتر عن عبادة ربه أداء لشكره حتى تورمت قدماءه وقيل يارسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً . ثم افتخر عليه الصلاة والسلام فقال : بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ .

والحكمة الرابعة : أنه إنما قص الله تعالى عليه القصص تأديباً وتهديباً لأمته ، وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم ، والأعداء وعقابهم ، ثم ذكر في غير موضع تحذيره إياهم عن منع الأعداء ، وحثهم على صنع الأولياء ، فقال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ) . وقال (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ) . وقال (وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) ونحوها من الآيات . وكان الشبلي رحمه الله تعالى يقول في هذه الآيات : اشتغل العام بذكر القصص ، واشتغل الخاص بالاعتبار من القصص .

والحكمة الخامسة : أنه قص عليه أخبار الأنبياء والأولياء الماضين ، إحياء لذكورهم وآثارهم ليكون المحسن منهم في إبقاء ذكره مثبتاً له تعجيل جزاء في الدنيا حتى يبق ذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة ؛ كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام في إبقاء الثناء الحسن فقال (واجعل لي لساناً صديقاً في الآخِرِينَ) والناس أحاديث ، يقال : مات ميت والذكر يحييه ؛ وقال : ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر . وأنشدنا ناصر بن محمد المرؤزي قال : أنشدني الدردي :

ولما المرءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

مجلس في صفة خلق الأرض

قال الله تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) الآية، ونظائرها كثيرة في القرآن. واعلم أن الكلام في نعت خلق الأرض على سبعة أبواب :

الباب الأول : في بدء خلق الأرض وكيفيتها

روت الرواة بألفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهره خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر إليها نظره هيبه فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فغلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار، وأرعد من خشية الله، فمن ذلك اليوم برعد إلى يوم القيامة، وخلق الله من ذلك الدخان السماء، فذلك قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ) أي قصد وعمد إلى خلق السماء وهي بخار، وخلق من ذلك الزبد الأرض، فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء مكة، فدحا الله الأرض من تحتها، فلذلك سميت أم القرى، يعني أصلها، وهو قوله تعالى (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا). ولما خلق الله الأرض كانت طبقة واحدا، ففتقها وصيرها سبعا، وذلك قوله تعالى (أَوْ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكا فهبط إلى الأرض، حتى دخل تحت الأرضين السبع، فوضعها على عاتقه، إحدى يديه في المشرق والأخرى في المغرب، باسطين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها، فلم يكن لقدميه موضع قرار، فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثورا له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمي الملك على سنامه، فلم تستقر قدماه، فأحدر الله يا قوته خضراء من أعلى درجة من الفردوس، غلظها مسيرة خمس مئة عام، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه، فاستقرت عليها قدماه، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالحسكة تحت العرش، ومنخر ذلك الثور في البحر، فهو يتنفس كل يوم نفسا، فإذا تنفس مد البحر، وإذا رد نفسه جزر، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرة خضراء، غلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين، فاستقرت قوائم الثور عليها، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ) الآية .

روى أن لقمان لما قال له هذه الكلمة انفطرت من هيبها مرارته ومات، وكانت آخر مواعظته. فلم يكن للصخرة مستقر، فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم، اسمه لوتيا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت، فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال، قال :

والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة ، وثقل الدنيا وما عليها
حرفان من كتاب الله تعالى ، قال لها الجبار : كوني فكانت ، فذلك قوله عز وجل :
(إِنَّمَا أَمْرُنَا لَيْشَاءَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ولذلك قال بعض حكماء
الشعراء : لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال كعب الأحبار : إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض ، فوسوس
إليه وقال له : أتدرى ما على ظهرك يا لوتيا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها ؟
لو نفضتها أو ألقيتهم عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك . قال : فهم لوتيا أن يفعل ذلك ،
فبعث الله تعالى إليه دابة ، فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه ، ففج الحوت إلى الله
تعالى منها ، فأذن الله تعالى لها فخرجت . قال كعب الأحبار : فوالذي نفسي بيده إنه
لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك ، عادت كما كانت . وهذا الحوت الذي أقسم
الله تعالى به فقال (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) ثم قالوا إن الأرض كانت تتكفا على
الماء كما تتكفا السفينة على الماء ، فأرساها الله تعالى بالجبال ، وذلك قوله تعالى (والجبال
أرساها) وقوله تعالى (والجبال أوتادا) وقوله تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن
تمتد بكم) يعني : لكيلا تتحرك بكم .

قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : أول ما خلق الله الأرض عجبت وقالت :
يارب تجعل علي بن آدم يعملون علي الخطايا ، ويلقون علي الجبائث ، فاضطربت ، فأرساها
الله تعالى بالجبال فأقرها ، وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء ، خضرة السماء منه ،
يقال له جبل قاف ، فأحاط بها كلها ، وهو الذي أقسم الله به فقال (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) :
وقال وهب : إن ذا القرنين أتى على جبل قاف ، فرأى حوله جبلا صغارا ، فقال له
من أنت ؟ قال : أنا قاف ، قال : فأخبرني ما هذه الجبال التي حولك ؟ فقال : هي عروقي ،
فإذا أراد الله أن يزلزل أرضا أمرني ، فحركت عرقا من عروقي ، فنزلت الأرض المتصلة
به ، فقال يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله تعالى ، فقال : إن شأن ربنا لعظيم ، تقصر
عنه الصفات ، وتنقضي دونه الأوهام ، قال : فأخبرني بأدنى ما يوصف منها ، قال : إن
ورائي أرضا مسيرة خمس مئة عام من جبال الثلج يحطم بعضها بعضا ، ومن وراء ذلك جبال
من البرد مثلها ، لولا ذلك الثلج والبرد لاحتقرت الدنيا من حر جهنم . قال : زدني ،
فقال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله تعالى ترعد فرائصه ، فيخلق الله من كل
رعدة مئة ألف ملك ، وهم صفوف بين يدي الله تعالى منكسور عوسهم ، لا يؤذونهم
في الكلام إلى يوم القيامة ، فإذا أذن الله تعالى لهم في الكلام قالوا : لا إله إلا الله ، وهو

قوله تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) يعنى : لا إله إلا الله .

وروى يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما خلق الله تعالى الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال وألقاها عليها فاستقامت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال : الحديد ، فقالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار ، فقالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء ، فقالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح ، فقالت : يا رب هل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم الإنسان ، يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله .

الباب الثانى : فى حدود الأرض ومسافها وأطباقها وسكانها

روى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ إِلَى الَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةٌ خَمْسِمِائَةَ عَامٍ ، وَهِيَ سَبْعَةُ أَطْبَاقٍ : الْأَرْضُ الْأُولَى هَذِهِ ، فِيهَا سَكَّانُهَا . وَالْأَرْضُ الثَّانِيَةُ مَسْكَنُ الرِّيحِ ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الرِّيَّاحُ الْمُخْتَلِفَةُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ) وَفِي الْأَرْضِ الثَّلَاثَةِ خَلَقَ وَجُوهُهُمْ مِثْلُ وَجُوهِ بَنِي آدَمَ ، وَأَفْوَاهُهُمْ مِثْلُ أَفْوَاهِ الْكِلَابِ ، وَأَيْدِيهِمْ كَأَيْدِي الْإِنْسِ ، وَأَرْجُلُهُمْ كَأَرْجُلِ الْبَقْرِ ، وَأَذَانُهُمْ كَأَذَانِ الْمَعَزِ ، وَأَشْعَارُهُمْ كَأَصْوَابِ الضَّأْنِ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، لَيْسَ لَهُمْ أَنْوَابٌ ، أَيْلُنَا نَهَارُهُمْ وَنَهَارُهُمْ لَيْلُنَا . وَالْأَرْضُ الرَّابِعَةُ فِيهَا حِجَارَةٌ الْكَبِيرِيَّةُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِأَهْلِ النَّارِ تُسَجَّرُ بِهَا جَهَنَّمُ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ فِيهَا لِأَوْدِيَّةٌ مِنْ كَبِيرِيَّةٍ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا الْجِبَالُ الرَّوَاسِي لَأَتَمَّاعَتْ » قال وهب بن منبه : هى مثل الكبريت الأحمر ، الصخرة منها مثل الجبل العظيم ، وهى التى قال الله تعالى فيها (وَقودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) .

أخبرنا أبو بكر بن عبدوس بن المزني قال : أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يونس المقرئ قال : حدثنا محمد بن منصور قال : حدثنا أحمد بن الليث قال : حدثنا أبو حفص عمر بن حفص القشيري قال : حدثنا علي بن الحسين قال : سمعت منصور بن عمار يقول : بينما أنا أردت الحج ، إذ دفعت إلى الكوفة ليلا ، وكانت ليلة مدلهمة ، فأنفردت من أصحابي ثم دنوت إلى زقاق باب دار ، فسمعت بكاء رجل وهو يقول فى بكاء : إلهى وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، ولكني عصيتك إذ عصيتك بجهلى ، وخالفتك إذ خالفتك لشقوتي ، فالآن من عذابك من ينقذني ، وبجبل من أتصل إذا انقطع حبلك عني ؟ واذنوباه واغوثاه يا الله . قال منصور : فأبكاني والله ، فوضعت فى على شق الباب ، وقلت :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) الآية، قال: فسمعت عند ذلك اضطرابا شديدا، ثم خمد الصوت، فوضعت حجرا على الباب لأعرف الموضع، فلما أصبحت، غدوت إليه فإذا بأكفان أصلحت وعجوز تدخل الدار باكية وتخرج باكية، فقلت لها: يا هذه ما هذا الميت لك؟ فقالت إليك عني يا عبد الله لا تجدد علي أحزاني، فقلت إني أريد هذا لوجه الله الكريم، لعلك تستودعيني دعوة، فإني منصور بن عمار واعظ أهل العراق، قالت: يا منصور هذا ولدي، قلت: فما كانت صفته؟ قالت: كان من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكتسب ما يكتسب فيجعله أثلاثا، ثلثا لي، وثلثا للمساكين، وثلثا يفطر عليه، وكان يصوم النهار ويقوم الليل، حتى إذا كان آخر ليلة أخذ في بكائه وتضرعه، فمر رجل في هذه الليلة وتلا آية من كتاب الله تعالى، فلم يزل حبيبي يضطرب، حتى أصبح وقد فارق الدنيا رحمه الله تعالى.

وقال منصور بن عمار: دخلت يوما خربة، فوجدت شابا يصلي صلاة الخائفين، فقلت لنفسي إن لهذا الفتى لشأنا عظيما لعله من أولياء الله تعالى، فوقفت حتى فرغ من صلاته، فلما سلم سلمت عليه فرد علي، فقلت له: ألم تعلم أن في جهنم واديا يسمى لظي، نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولي، وجمع فأوعى. فشقق شهقة وخر مغشيا عليه، فلما أفاق قال: زدني، فقلت (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) الآية، فخر ميتا، فلما كشفت ثيابه عن صدره، رأيت عليه مكتوبا بقلم القدرة (فهو في عيشة راضية في جنة عالية قُطوفها دانية). فلما كانت الليلة الثانية نمت، فرأيت في المنام جالسا على سرير وعلى رأسه تاج، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: آتاني ثواب أهل بدر وزادني، فقلت له لم؟ قال: لأنهم قتلوا بسيف الكفار وأنا قتلت بسيف الملك الجبار. والأرض الخامسة فيها عقارب أهل النار كأمثال البغال لها أذنان كأمثال الرماح لكل ذنب منها ثلثمائة وستون فقارا، في كل فقار ثلثمائة وستون فرقا من السم كل فرق منها ثلثمائة وستون قلة من سم لو وضعت قلة من ذلك السم في وسط الأرض لمات جميع أهل الدنيا من نتنه وفسد منه كل شيء، وفيها أيضا حيات أهل النار كأمثال الأودية، لكل حية منها ثمانية عشر ألف ناب، كل ناب منها كالنخلة الطويلة، في أصل كل ناب ثمانية عشر ألف قلة من السم، لو أمر الله حية منها أن تضرب بناب من أنيابها أعظم جبل في الأرض لهدته حتى يعود رميا، وإنها لتلقى الكافر، فتقسمه فتقطع مفاصله. والأرض السادسة فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الحبيثة، واسمها سجين، قال الله تعالى (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَسِيِّئٌ سَاجِدِينَ). والأرض السابعة جعلها الله مسكنا لإبليس وجنوده

وفيها عشه ، في أحد جانبيه سموم ، والآخر زمهرير وقد احتوشته جنوده من المردة ،
وعتاة الجن ، ومنها بيت سراياه وجنوده ، فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة لبي آدم .
وروى سلمة بن كهيل عن أبي الزرقاء عن عبد الله قال : الجنة اليوم في السماء السابعة ،
فإذا كان غد جعلها الله حيث يشاء ، والنار اليوم في الأرض السفلى ، فإذا كان غد جعلها
الله حيث يشاء . وأما بعد قعر الأرض فكافيك به حديث قارون حيث خسف الله به وبداره
وبأمواله ، ففي الخبر إنه يخسف به كل يوم مقدار قامة ، فلا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة .
وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « بينا رجل يتبختر في برديه ويتنظر في عطفه
وقد أعجبت نفسه ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » .

الباب الثالث : في ذكر الأيام التي خلق الله تعالى فيها الأرض

قال الله تعالى (قُلْ أُنِنِّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ) الآية ، قال
أبو إسحاق قال : شبك بيدي إبراهيم بن يحيى ، قال : شبك بيدي صفوان بن سليم ، قال : شبك
بيدي أيوب بن خالد الأنصاري ، قال : شبك بيدي عبد الله بن أبي رافع ، قال : شبك بيدي
أبو هريرة ، قال : شبك بيدي أبو القاسم محمد صلى الله عليه وسلم فقال « خلق الله الأرض
يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والأشجار يوم الاثنين ، والظلمات يوم الثلاثاء ،
والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة » .

الباب الرابع : في ذكر أسمائها وألقابها

قال وهب بن منبه : الأولى من الأرض تسمى أديما ، والثانية بسيطا ، والثالثة ثقيلًا ،
والرابعة بطيحا ، والخامسة مثاقلة ، والسادسة ماسكة ، والسابعة ثرى .
وأما سماؤها المذكورة في القرآن ، فهي سبعة أيضا : سماها الله فراشا فقال (الذي جعل
لكم الأرض فراشا) وسماها قارا فقال (أم من جعل الأرض قارا) وسماها رتقا
فقال (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا) وسماها بساطا فقال
(والله جعل لكم الأرض بساطا) وسماها مهادا فقال (ألم يجعل الأرض مهادا)
وسماها ذات الصدع فقال (والأرض ذات الصدع) يعني بالنبات ، وسماها كيفاتا فقال
(ألم يجعل الأرض كيفاتا) قال خالد بن سعيد : كنت أمشي مع الشعبي بظهر الكوفة ،
فنظر إلى بيوت الكوفة فقال : هذه كيفات الأحياء ، ثم نظر إلى المقبرة فقال : هذه
كيفات الأموات .

ويحكى أن عبد الله بن طاهر لما قدم نيسابور صحبه من أولاد الجوس شاب متطيب ، يدعى
محقق الكلام ، وأظهر مسألة تحريق الأنفس بالنار ، وكان يزعم أن الجسد كثيف متن
في حال الحياة ، فإذا مات فلا حكمة في دفنه ، والتسبب إلى زيادة نته ، وأن الواجب إحراقه

وإذراء رماده ، فقيل لبعض الفقهاء : إن الناس قد افتتنوا بمقالة هذا المجوسى ، فكتب
الفقيه إلى عبد الله بن طاهر : أن اجمع بيننا وبين هذا المجوسى لنسمع منه ، فاجتمعوا عند
عبد الله . فلما تكلم المجوسى بمقالته تلك ، قال له الفقيه : أخبرنا عن صبي تدعيه أمه
وحاضنته أيهما أولى به ؟ فقال له الأم ، فقال : إن هذه الأرض هي الأم منها خلق الخلق ،
فهي أولى بأولادها أن يردوا إليها ، فأفحم المجوسى . وأنشد في معناه لأمية بن أبي الصلت :
والأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وسئل يحيى بن معاذ الرازى : إن ابن آدم يدري أن الدنيا ليست بدار قرار ، فلم يطمئن
إليها ؟ قال : لأنه منها خلق فهي أمه ، وفيها نشأ فهي عشه ، ومنها رزق فهي عيشه ، وإليها
يعود فهي كفاته ، وهي ممر الصالحين إلى الجنة .

الباب الخامس : فى ذكر ما زين الله به الأرض

وهي سبعة أشياء : الأزمنة ، وزين الأزمنة بأربعة أشهر ، قال الله تعالى (إن عِدَّةَ
الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا
أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) فالأربعة الأشهر الحرم منها ثلاثة سرد وواحد فرد ، فالثلاثة السرد
ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم ، والفرد رجب . والأمكنة ، وزينها بأربعة أشياء : مكة والمدينة
وبيت المقدس ومسجد العشاء . وزينها أيضا بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وزين الأنبياء
بأربعة : إبراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى الوجيه ومحمد الحبيب صلوات الله عليهم
أجمعين ، وهم أهل الكتب وأصحاب الشرائع وأولو العزم . وزينها أيضا بآل محمد صلى الله
عليه وسلم . وزينهم أيضا بأربعة : على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم .

وروى يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال « صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
صلاة الفجر ، فلما انفتل من الصلاة أقبل علينا بوجهه الكريم فقال : يا معاشر المسلمين :
مَنْ افْتَقَدَ الشَّمْسَ فَلَيْسَتْ بِكَ بِالْقَمْرِ ، وَمَنْ افْتَقَدَ الْقَمَرَ فَلَيْسَتْ بِكَ بِالزُّهْرَةِ ،
وَمَنْ افْتَقَدَ الزُّهْرَةَ فَلَيْسَتْ بِكَ بِالْفَرْقَدَيْنِ ، فقيل يا رسول الله : ما الشمس وما
القمر وما الزهرة وما الفرقدان ؟ فقال : أنا الشمس وعلى القمر وفاطمة الزهرة
والحسن والحسين الفرقدان فى كتاب الله تعالى لا يفترقان حتى يردا على الخوض .
وزينها أيضا بالصحابة ، وزينهم أيضا بأربعة : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وهم الخلفاء
الراشلون ، والأئمة المرضيون ، رضى الله عنهم أجمعين .

وروى عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يجمع

حُبَّ هَوْلَاءِ الأَرْبَعَةِ إِلَّا فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ ، قال أنس : قد اجتمع حبهم في قلبي والحمد لله .
وزينها أيضا بالمؤمنين ، وزينهم بأربعة : العلماء والقراء والغزاة والعباد . وزينها أيضا بأنواع
الحيوانات والنباتات والجمادات .

الباب السادس : في عاقبتها وما لها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعدّها بسبعة أشياء : أحدها التبديل ، وهو قوله تعالى (يَوْمَ تَبْدَلُ
الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ) وفي الخبر « يُؤْتَى بِأَرْضٍ بِيضَاءَ مِنْ فِضَّةٍ كَالْحَبِزِ النَّقِيِّ الْحَوَارِي
لَمْ يُعْصَ اللهُ عَلَيْهَا قَطُّ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَلَا وَصَمَ فِيهَا وَلَا قَصَمَ ، مُسْتَوِيَةٌ كَالصُّلْبِ
المُهَنْدِيَةِ . » والثاني الزلزلة قال الله تعالى (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زَلْزَالَهَا) الآية . وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبِضَ الْعِلْمُ ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ
وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْمَرْجُ ، قِيلَ : وَمَا الْمَرْجُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : الْقَتْلُ ، فَإِذَا
أَكَلَتْ أُمَّتِي الرَّبَا كَانَتْ الزَّلْزَلَةُ ، وَإِذَا جَارُوا فِي الْحُكْمِ اجْتَرَأَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ ، وَإِذَا
ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ كَانَ الْوَبَاءُ وَالْمَوْتُ ، وَإِذَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ قُحِطُوا ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ
يَمُتْطَرُوا » وفي الحديث إن الأرض تزلزلت على عهد عمر رضى الله عنه ، فأخذ بعضادتي
منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أهل المدينة ، إنكم رجفتم ، وإن الرجفة من
كثرة الربا والزنا ، ونقصان الثمر من قلة الصدقة ، وإنكم أحدثتم أشياء حتى أعجلتم ، فهل
أنتم منتهون ؟ أو يفر عمر من بين أظهركم . والثالث البروج ، قال الله تعالى (وَتَرَى الأَرْضَ
بَارِزَةً) يعنى لفصل القضاء . والرابع الرج ، قال الله تعالى (إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًا) .
قال المفسرون : كما يرتج الصبي في المهد حتى ينكسر كل شيء عليها فرقا من ربه .
والخامس الرجف ، قال تعالى (يَوْمَ تَبْرُجُ الأَرْضُ وَالجِبَالُ) . والسادس المد حتى
تتخلى وتلقى ما في بطنها ، قال تعالى (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) .
والسابع الدك ، قال تعالى (إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) وقال تعالى (فَدُكَّتَا
دَكَّةً وَاحِدَةً) . ويحكى أن الربيع بن خيثم كان إذا قرأ هذه الآية أخذ يجلد ذراعيه
ويقول : بالحماه وياهدماه أين أنما يومئذ ؟ .

الباب السابع : في وجوه الأرض المذكورة في القرآن

وهي سبعة : أولها مكة خاصة ، قال الله تعالى في الرعد والأنبياء (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي
الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) يعنى أرض مكة . والوجه الثاني أرض المدينة ، قال الله
تعالى (أَلَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) يعنى : أرض المدينة ، وقال تعالى

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ) وقال تعالى (وإن كادُ والَيْسْتَفْزُونَكَ مِنِ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) . والثالث أرض الشام ، وذلك قوله تعالى (ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ) الآية : يعنى بلاد الشام ، وقال تعالى (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) . والرابع أرض مصر ، قال تعالى (وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) أى أرض مصر ، وقوله تعالى (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) وقوله (فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ) أى أرض مصر . وقوله تعالى (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ) وقال (وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ) أى أرض مصر . والخامس أرض المشرق ، فذلك قوله تعالى (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) والسادس الأرضون كلها ، وذلك قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) وقوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ مِثْلُكُمْ) يعنى بالأمم فى التصاوير أمثالكم فى التسخير ، وقال تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) وقال تعالى (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا) . والسابع أرض الجنة ، فذلك قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) وقوله تعالى (وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .

مجلس فى ذكر خلق السموات وما يتصل به

وترتيب الكلام فى هذا المجلس أيضا على سبعة أبواب ، لقول وهب بن منبه : كادت الأشياء أن تكون سبعا ، فالسموات سبع ، والأرضون والجبال سبع ، والبحار سبع ، وعمر الدنيا سبعة آلاف ، والأيام سبعة ، والكواكب سبعة ، وهى السيارة ، والطواف بالبيت سبعة أشواط ، والسعى بين الصفا والمروة سبعة ، ورمى الجمار سبعة ، وأبواب جهنم سبعة ، ودركاتها سبعة ، وامتحان يوسف عليه السلام سبع سنين ، قال تعالى (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) . وإيتاؤه ملك مصر سبع سنين (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) . وكرامة المصطفى صلى الله عليه وسلم سبع ، قال الله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) . والقرآن سبعة أسباع ، وتركيب ابن آدم على سبعة أعضاء ، وخلقته من سبعة أشياء ، قال الله تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) إلى قوله (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) . ورزق الإنسان وغذاؤه من سبعة أشياء ، قال الله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) إلى قوله (مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) . وأمر بالسجود على سبعة أعضاء .

الباب الأول : في بدء خلق السموات

يروى في الأخبار المشهورة المأثورة : أن الله سبحانه وتعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة مثل السموات السبع والأرضين السبع ، ثم نظر إليها نظرة هيبه فصارت ماء ، ثم نظر إلى الماء فغلي وارتفع وعلاه زبد ودخان ، فخلق من الزبد الأرض ومن الدخان السماء ، وذلك قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) أي قصد ، ثم فتقها بعد أن كانت طبقة واحدة ، فصيرها سبع سموات ، قال الله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) .

الباب الثاني : في جواهرها وأجناسها

قال الربيع بن أنس : سماء الدنيا موج مكشوف . والثانية من صخرة ، والثالثة من حديد ، والرابعة من نحاس ، والخامسة من فضة ، والسادسة من ذهب ، والسابعة من ياقوتة بيضاء .

الباب الثالث : في هيئتها وحدودها

قال الله تعالى (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) . قال ابن عباس رحمه الله تعالى خلق الله السموات مثل القباب ، فسماء الدنيا قد شدت أقطارها بالثانية ، والثانية بالثالثة ، وكذلك إلى السابعة ، والسابعة بالعرش ، فذلك قوله تعالى (بغير عمد ترونها) وعمادها من فوقها . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتفكرون فقال : فيم أنتم تفكرون ؟ قالوا : نتفكر في الخالق ، فقال لهم : تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة ، تفكروا في أن الله خلق السموات سبعا والأرضين سبعا ، وتحت كل أرض خمس مئة عام ، وبين السماء والأرض خمس مئة عام وتحت كل سماء خمس مئة عام ، وما بين كل سماء بين خمس مئة عام ، وفي السماء السابعة بحر عمقه مثل ذلك كله وفيه ملك قائم لا يجاوز الماء كعبه . »

الباب الرابع : في أسمائها وألقابها

قال وهب بن منبه : أولها سماء الدنيا دیناح ، والثانية ديقا ، والثالثة رقيق ، والرابعة فيلون ، والخامسة طفطاف ، والسادسة سمساق ، والسابعة إسماقاتل .
وأما أسماءها المذكورة في القرآن فسبعة : أولها البناء ، قال الله تعالى (والسماء بناء) .
والسقف ، قال الله تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) والطرائق ، قال الله تعالى

(وجعلنا فوقكم سبع طرائق) والطباق ، قال الله تعالى (الذى خلق سبع سموات طباقاً) والشداد ، قال الله تعالى (وبنينا فوقكم سبعاً شداداً) والرتق والفتق ، قال الله تعالى (كانتا رتقاً ففتقناهما) والدخان ، قال الله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) .

وروى أن الملائكة قالت : يارب لو أن السماء والأرض حين أمرتهما عصتاك ، ما كنت صانعا بهما ؟ قال : كنت أمر دابة من دوابى فبتلعهما ، قالت : يارب فأين تلك الدابة ؟ قال : فى مرج من مروجى ، قالت : يارب : فأين ذلك المرج ؟ قال : فى علم من علومى ، قالت الملائكة : سبحان ذى البسط القوى .

وقد ورد عن الضحاك بن مزاحم الهلالي حديث غريب حسن ، جامع لما تقدم من الأبواب فى صفة السموات وحدودها وهيئتها وما فيها وأهلها وسكانها وأسمائها وألقابها ، وهو ما أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين العدل ، حدثنا محمد بن جعفر قال : أخبرنا الحسن بن علويه قال : حدثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدثنا إسحاق بن بشر عن جوير عن الضحاك ومقاتل قالا : خلق الله عز وجل سماء الدنيا وزينها ، وهى ماء ودخان ، وغلظها مسيرة خمس مئة عام ، وبينها وبين الأرض مسيرة خمس مئة عام ، ولونها كلون الحديد المجلى واسمها برقيعا ، وبينها وبين السماء الثانية مسيرة خمس مئة عام ، وفيها ملائكة خلقوا من نار وريح ، وعليهم ملك يقال له الرعد ، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر يقول : سبحان ذى الملك والملكوت . وخلق السماء الثانية على لون النحاس ، وغلظها مسيرة خمسمائة عام ، وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام ، وفيها ملائكة على ألوان شتى صفوف ، لو قيست شعرة بين مناكبهم لما انقاست ، رافعون أصواتهم ، يقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، واسمها قيدوم ، وخلق الله فيها ملكا يقال له حبيب ، نصفه من نار ونصفه من ثلج ، وبينهما رتق ، فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج يطفى النار ، وهو يقول : يا من أَلَّفَ بين الثلج والنار أَلَّفَ بين قلوب عبادك . ومنها إلى السماء الثالثة مسيرة خمس مئة عام ، ولون السماء الثالثة كلون الشبة ، وغلظها مسيرة خمس مئة عام واسمها الماعون ، وفيها ملائكة ذووأجنحة ، الملك منهم له جناحان وله أربعة أجنحة وله ستة أجنحة ووجوه شتى رافعون أصواتهم بالتسبيح يقولون : سبحان الحى الذى لا يموت أبدا ، صفوف قيام كأنهم بنيان مرصوص ، لو قيست شعرة بين مناكبهم ما انقاست ، لا يعرف أحد منهم لون صاحبه من خشية الله تعالى . وخلق الله السماء الرابعة وبينها وبين السماء الثالثة مسيرة خمس مئة عام ، وغلظها خمسمائة عام ، ولونها كلون الفضة البيضاء واسمها فيلون ، وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة السماء الثالثة . وكذلك أهل كل سماء أكثر عددا من السماء التى تليها إلى الضعف . فى السماء الرابعة ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وهم كل يوم فى زيادة ، وذلك

قوله تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) قال : وهم قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة ، يبعث الله تعالى الملك منهم في أمر من أموره ، فينطلق الملك ثم ينصرف ، فلا يعرف صاحبه الذى إلى جانبه من شدة العبادة ، وهم يقولون : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، ربنا الرحمن الذى لا إله إلا هو . قال : وخلق الله السماء الخامسة وغلظها مسيرة خمس مئة عام ، ولونها على لون الذهب واسمها اللاحقون ، ومنها إلى السماء السادسة مسيرة خمس مئة عام ، وفيها ملائكة يضعفون على ملائكة الأربع سموات ، وهم ركوع وسجود لم يرفعوا أبصارهم ، لا يرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة قالوا : ربنا لم نعبدك حق عبادتك . وخلق الله السماء السادسة وغلظها مسيرة خمس مئة عام ، ومنها إلى السماء السابعة مسيرة خمس مئة عام ، وفيها جند الله الأعظم الكروبيون لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، وعليهم ملك جنده سبعون ألف ملك ، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك ، وهم الذين يبعثهم الله في أموره إلى أهل الدنيا ، رافعون أصواتهم بالتهليل والتسبيح ، واسمها عاروس ، وهى من يا قوتة حمراء . ثم خلق الله السماء السابعة وغلظها مسيرة خمس مئة عام ، فيها جنود الله تعالى من الملائكة ، وعليهم ملك وهو على خمس مئة ألف ملك ، كل منهم له من الجنود مثل قطر السماء وتراب الثرى والسهل والرمل وعدد الحصى والورق ، وعدد كل خلق في سبع سموات وسبع أرضين ، ويخلق الله سبحانه وتعالى في كل يوم ما يشاء ، واسمها الرقيع وهى من درة بيضاء ؛ ومن السماء السابعة إلى مكان يقال له مرهوثا مسيرة خمس مئة عام ، وعليه جنود الله من الملائكة ، وهم رؤساء الملائكة وهم أعظمهم ، سوى الروح وحملة العرش ، الملك منهم له وجوه شتى وأجنحة شتى وأنوار شتى في جسده ، لا يشبه بعضهم بعضا ، رافعون أصواتهم بالتهليل ، ينظرون إلى العرش لا يطفرون ، لو أن الملك منهم نشر جناحيه لطبق الدنيا بريشة من جناحه ، ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومن فوق ذلك غمامة وغلظها كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، ومن السماء السابعة إليها كما بين سبع سموات وسبع أرضين ، والعرش فوق ذلك فى عليين ، لا يعلم منتهاه إلا الله تعالى .

الباب الخامس : فى ذكر الأيام التى خلق الله الأشياء فيها

روت الرواة أن الله تعالى ابتداء خلق الأشياء يوم الأحد إلى يوم الخميس ، وخلق فى يوم الخميس ثلاثة أشياء : السموات والملائكة والجنة إلى ثلاث ساعات بقيت من يوم الجمعة . فخلق فى الساعة الأولى الأوقات والآجال ، وفى الثانية الأرزاق ، وفى الثالثة آدم عليه الصلاة والسلام ، وذلك قوله عز وجل (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) الآية .

الباب السادس : في ذكر ما زين الله به السموات

وهي عشرة أشياء : الشمس ، قال الله تعالى (وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) وقال تعالى (سِرَاجًا وَمَهَاجًا) . والقمر ، قال الله تعالى (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا) . والكواكب ، قال الله تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ) وهي على ضربين : منها معلق كتعليق القناديل في المساجد ، ومنها مركب كتركيب الفص في الخاتم ، وهي مع كثرتها مختلفة الصور ، ما خلق الله تعالى منها كوكبا على مثال كوكب . وفي بعض الأخبار : ما يكون من حيوان في الأرض ولا دابة تدب دون العرش إلا وفي خلق الكواكب مثلها .

والعرش ، قال الله تعالى (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) . روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : في العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى البر والبحر ، وقال : هذا تأويل قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ) وإن ما بين القائمة من قوائم العرش والقائمة الثانية لحفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام ؛ والعرش يكسى كل يوم سبعين ألف لون من النور ، لا يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله تعالى ، والأشياء كلها في العرش كحلقة ملقاة في فلاة ، وإن لله ملكا يسمى حزقيائيل له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمس مئة عام ، فخطر له خاطر هل يقدر أن ينظر إلى العرش فزاده الله تعالى في الأجنحة مثلها ، فكان له ستة وثلاثون ألف جناح ما بين الجناح إلى الجناح مسيرة خمس مئة عام ، ثم أوحى الله تعالى إليه : أيها الملك طرفطار مقدار عشرين ألف سنة فلم يبلغ قائمة من قوائم العرش ، ثم ضاعف الله تعالى له في الأجنحة والقوة ، وأمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف سنة ، فلم يبلغ رأس قائمة من قوائم العرش ، فأوحى الله تعالى إليه : أيها الملك لو طرت إلى أن ينفخ في الصور مع أجنحتك وقوتك ما تبلغ ساق عرشي ، فقال الملك : سبحان ربي الأعلى ، فأنزل الله سبحانه وتعالى (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اجعلوها في سجودكم » .

وقال كعب الأحبار : لما خلق الله تعالى العرش قال : لم يخلق الله تعالى شيئا أعظم مني فاهتز ، فطوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح ، في كل جناح سبعون ألف ريشة ، في كل ريشة سبعون ألف وجه ، في كل وجه سبعون ألف فم ، في كل فم سبعون ألف لسان ، يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا والملائكة أجمع ، فالتفت الحية بالعرش فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية . والكرسي ، قال الله تعالى (وَسَبِّحْ كُرْسِيِّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) . وروى عن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكرسي لؤلؤة طولها حيث لا يعلمه العالمون ، وقد جعل الله آية الكرسي أمانا لأهل الإيمان من شر الشيطان » .

وروى إسماعيل بن مسلم عن أبي المتوكل الباجي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوماً ففتح الباب ، فإذا التمر قد أخذ منه ملء الكف ، ثم دخل يوماً آخر ، فإذا هو قد أخذ منه مثل ذلك ، فذكر ذلك أبو هريرة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « أيسرك أن تأخذه » ؟ قال : نعم ، قال : إذا فتحت الباب فقل : سبحان من سخرك لمحمد ، فذهب وفتح الباب فقال ذلك ، فإذا هو قائم بين يديه ، فقال له : يا عدو الله أنت صاحب الفعل ؟ قال : نعم ، ثم قال : لأعود ، ما كنت أخذت منه إلا لأهل بيت فقراء من الجن ، فتركه ثم عاد ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : أيسرك أن تأخذه ؟ قال : نعم ، قال : فإذا فتحت الباب فقل مثل ذلك أيضاً ، ففتح الباب وقال : سبحان من سخرك لمحمد ، فإذا هو قائم بين يديه ، فقال له : يا عدو الله أليس قد عاهدتني أن لا تعود ؟ فقال : دعني هذه المرة فإني لأعود ، فتركه ثم عاد ، فأخذه الثالثة ، فقال : أليس قد عاهدتني أن لا تعود ، لأدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا تفعل ، فإنك إن تدعني علمت كلمة إذا قلتها لم يقربك أحد من الجن لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى ، قال له : لتفعلن إن تركتك ؟ قال : نعم ، قال : فما هي ؟ قال : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى ختمها ، فتركه فذهب فلم يعد بعد ذلك ، فذكر ذلك أبو هريرة للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : أما علمت يا أبا هريرة هذه ؟ إنه كذلك صدق الحديث .

واللوح والقلم ، قال الله تعالى (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) وقال تعالى (ن والقلم وما يسطرُونَ) وقال ابن عباس : إن مما خلق الله تعالى لوحاً محفوظاً من درة بيضاء ، دفتاه من ياقوتة حمراء ، كتابته نور وقلمه نور ، عرضه كما بين السماء والأرض ، ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويفعل ما يشاء ، فذلك قوله تعالى (كل يوم هو في شأن) .

ويروى أن أول ما خلق الله القلم ، فنظر إليه نظرة هيبية ، وكان طوله كما بين السماء والأرض ، فانشق نصفين وقال : اكتب ، فقال : يارب وما أكتب ؟ قال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قال له : اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة .

ويحكى أن ابن الزيات دخل على بعض الخلفاء فوجده مغموماً فقال له : روح عنى يا ابن الزيات ، فأنشأ يقول :

المهم فضل والقضاء غالبٌ وكائن ما خط في اللوح

فالتمس الروح وأسبابه أيا ما كنت من الروح

والبيت المعمور؛ وروى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ، قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم « إن في سماء الدنيا بيتنا يقال له البيت المعمور بجبال الكعبة ، وإن في السماء السابعة بحراً من نور يقال له الحيوان ، يدخل فيه جبريل عليه السلام كل غداة ، فينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انفضاضاً فيخرج منها سبعون ألف قطرة من نور فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكاً ، فيؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلون فيه ، فيأتونه فيدخلونه ويصلون فيه ، ثم يخرجون فلا يعودون إليه إلى يوم القيامة . »

وسدرة المنتهى : قال الله تعالى (عند سدرة المنتهى عند ما جنة المأوى) قال كعب وغيره : دخل حديث بعضهم في بعض : هي شجرة في السماء السابعة مما يلي الجنة ، أصلها ثابت في الجنة وعروقها تحت الكرسي وأغصانها تحت العرش ، إليها ينتهي علم الخلائق ، كل ورقة منها تظل أمة من الأمم ، يغشاها ملائكة كأنهم فراش من ذهب ، وعليها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومقام جبريل عليه السلام وسطها ، والله أعلم .

والجنة : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجنة كيف هي ؟ قال : من يدخل الجنة حتى لا يموت ، ومنعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، قيل يا رسول الله كيف بناؤها ؟ قال : لبننة من ذهب ولبننة من فضة ، مياطها مسك أذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . »

وروى مجاهد عن مسروق عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إن السماء أظنت وحق لها أن تشتط ، ليس منها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم أو قاعد يذكر الله تعالى . ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصحراء تجارون إلى الله تعالى . »

الباب السابع : في ذكر ما لها وآخر حالها

اعلم أن الله تعالى وعد السماء بسبعة أشياء : أحدها : المور ، قال الله تعالى (يوم تمور السماء موراً) : يعنى تدور كدوران الرحي من هول يوم القيامة . والثاني : أخبر أنها تصير كالمهل ، فقال تعالى (يوم تكون السماء كالمهل) يعنى دردى الزيت . والثالث : أخبر أنها تصير وردة كالدهان قال الله تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) . والرابع : الانشقاق قال الله تعالى (إذا السماء انشقت) . والخامس : الانفطار ، قال الله تعالى (إذا السماء انفطرت) و (السماء منقطر به) والانفطار أكثر من الانشقاق ،

والسادس: الانفراج ، قال الله تعالى (وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ) . والسابع: الكَشَطُ ، قال الله تعالى (وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) أى نزعَت من مكانها وطويت طيا ، قال الله تعالى (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السُّجُلِ لِّلْكُتُبِ) الآية . وأحسن الشاعر حيث قال :

إذا قيل من ربُّ هذى السما فليس سواه له مضطربٌ
ولو قيل رب سوى ربنا لقال العباد جميعا كذبٌ

مجلس في ذكر خلق الشمس والقمر

وصفة سيرهما ، وبدء أمرهما ومعادهما

وهو ما أخبرنا به أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون الثقة الأمين بقراءتي عليه في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، قال : أخبرني أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الشرقي الحافظ قال : حدثنا أبو الحسن أحمد بن يوسف السلمى قال : حدثنا أبو عصمة يحيى بن أبي مریم الحراساني قال : أنبأنا مقاتل عن عكرمة عن ابن عباس ، رضى الله عنهما قال : بينما هو جالس ذات يوم من الأيام إذ أتاه رجل فقال : يا ابن عباس إني سمعت العجب من كعب الأحبار يذكر في الشمس والقمر ، وكان ابن عباس متكئا فاحتفز ثم قال : وماذا قال؟ قال زعم كعب الأحبار : أنه يجاء بالشمس والقمر يوم القيامة كأنهما ثوران عقيران فيقذفان في النار ، قال عكرمة : فطارت من ابن عباس شظية ووقعت أخرى غضبا ، ثم قال : كذب كعب الأحبار قالها ثلاثا ، بل هذه يهودية يريد إدخالها في الإسلام ، والله تعالى أكرم وأجل من أن يعذب أهل طاعته ، ألم تر إلى قوله تعالى (وَنَحَرَّ لَكُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ) يعنى دأبهما في طاعته ، فكيف يعذب عبيدني أني عليهما أنهما دائبان في طاعته؟ قاتل الله هذا الخبر ، وقبح حديثه ، ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذين العبيدين المطيعين لله تعالى ، ثم استرجع مرارا ثم أخذ عودا من الأرض ، فجعل ينكت به في الأرض وظل كذلك ما شاء الله ، ثم إنه رفع رأسه ورمى بالعود وقال : ألا أحدثكم بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الشمس والقمر وبدء خلقهما ومصير أمرهما؟ قلنا بلى يرحمك الله تعالى ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك ، فقال : إن الله تعالى لما أتقن خلقه إحكاما ولم يبق إلا آدم خلق شمسين من نور عرشه ، فأما ما كان من سابق علم الله تعالى أن بدعها شمسا ، فإنه خلقها مثل الدنيا من مشارقها ومغاربها ، وأما ما كان من سابق علم الله أن يطمسها ويحوّلها قمرا ، فإنه خلقها دون الشمس في العظم ، ولكن إنما يرى صغرها من شدة ارتفاع السماء وبعدها عن الأرض ، فلو ترك الله تعالى الشمس كما كان في بدء الأمر لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ، ولا يدري الأجر مني بعمل ولا مني يأخذ أجرته ، ولا يدري الصائم إلى مني بصوم وإلى مني يفطر ، ولا

تدري المرأة كيف تعتد ، ولا يدري المسلمون متى وقت صلاتهم ومتى وثقت حجهم ، ولا يدري المدينون متى يحل دينهم ، ولا يدري الناس متى يزرعون ومتى يسكنون راحة لأبدانهم . وكان الله أنظر لعباده وأرحم بهم ، فأرسل جبريل عليه السلام ، فأمر جناحه على وجه القمر ، وهو يومئذ مثل الشمس ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور ، فذلك قوله تعالى (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً) فالسواد الذي في جوف القمر مثل الخطوط فيه إنما هو أثر المحو . ثم خلق الله تعالى الشمس من ضوء نوره ، ثم خلق الله تعالى للشمس عجلة فيها ثلثمائة وستين عروة ، ووكل بالشمس وعجلتها ثلاثمائة وستين ملكا من الملائكة من أهل سماء الدنيا ، قد تعلق كل منهم بعروة من تلك العرا ، وخلق الله تعالى مشارق ومغارب في أقطار الأرض وكنى السماء ثمانين ومائة عين في المشرق من طينة سوداء وثمانين ومائة عين في المغرب مثل ذلك من طينة سوداء يفور غليانها كغليان القدر إذا ما اشتد غليانها وذلك قوله تعالى (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) ومعنى حمئة سوداء من طين ، فكل يوم وليلة لها مطلع جديد ومغرب جديد ، ما بين أولها مطالعا وأولها مغربا أطول ما يكون النهار في الصيف ، وآخرها مطالعا مشرقا ومغربا أقصر ما يكون النهار في الشتاء ، فذلك قوله تعالى (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) يعني آخرها ههنا وأولها ههنا ، وترك ما بين ذلك من المشارق والمغارب ، ثم جمعها بعد ذلك فقال (رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) فذلك عدة تلك العيون كلها . ثم خلق الله تعالى بحرا دون سماء الدنيا بمقدار ثلاثة فراسخ ، فهو موج مكفوف قائم في الهواء بإذن الله تعالى لا يقطر منه قطرة والنجوم كلها ساكنة في ذلك البحر ، وهو جار في سرعة السهم وانطلاقه ، فهو في الهواء مستو كأنه جبل ممدود ما بين المشرق والمغرب ، وتجري الشمس والقمر والخمس في سرعة دوران الرحي من أهوال يوم القيامة وزلازها في ذلك البحر ، فذلك قوله تعالى (كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) والفلك في دوران العجلة في لجة غمرة ماء ذلك البحر ، والذي نفس محمد بيده لو بدت الشمس من دون ذلك البحر لأحرقت كل شيء على وجه الأرض حتى الصخور والنجارة ، ولو بدا القمر من دون ذلك البحر لافتتن به أهل الأرض حتى يعبدونه من دون الله تعالى إلا ما شاء الله أن يعصمه من أوليائه وأهل طاعته . قال ابن عباس رضي الله عنه : قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ذكرت مجرى الخمس مع الشمس والقمر وقد أقسم الله تعالى بالخمس في القرآن مثل ما كان ذكرك اليوم ، فما الخمس ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : يا علي هن الكواكب الخمسة : البرجيس وهو المشتري ، بزحل ، وعطارد ، وبهرام ، والزهرة ، فهذه الكواكب الخمسة الطالعات الجاريات مع الشمس والقمر في الفلك . وأما سائر الكواكب فكلها معلقة في السماء كتعليق القاديل في المساجد وهي تدور مع السماء دورانا بالتسبيح والتقديس والصلاة لله تعالى ، ثم قال النبي صلى الله

عليه وسلم : وإن أحببت أن تستبينوا ذلك فانظروا دوران الفلك مرة من ههنا ومرة من ههنا ، وإن لم تستبينوا الفلك فالحجرة وبياضها مرة من ههنا ومرة من ههنا ، فذلك دوران الشمس والقمر ودوران الكواكب معا كلها سوى هذه الخمسة ودورانها اليوم كما ترون فذلك صلاتها ، ودورانها يوم القيامة في سرعة دوران الرحي من أهوال يوم القيامة ، فذلك قوله تعالى (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) يعني تدور دورانا (وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا) ، فإذا طلعت الشمس فإنها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها ومعها ثلاثمائة وستون ملكا ناشري أجنحتهم يجرونها في الفلك بالتسبيح والتقديس لله تعالى على قدر ساعات النهار ، والقمر كذلك على قدر ساعات الليل ما بين الطول والقصر في الشتاء كان ذلك أو في الصيف أو ما بينهما من الخريف والربيع ، فإذا أحب الله أن يبتلي القمر والشمس ويرى العباد آية من الآيات يستعذبهم رجوعا عن معاصيه وإقبالا على طاعته تحركت الشمس عن العجلة ، وقال مرة نخرت الشمس عن العجلة فتقع في غمر ماء ذلك البحر وهو الفلك ، فإذا أراد الله تعالى أن يعظم تلك الآية ليشتد خوف العباد وقعت الشمس كلها فلا يبقى على العجلة شيء منها ، فذلك حين يظلم النهار وتبدو النجوم ، وذلك هو المنهي من كسوفها ، فإذا أراد الله أن يجعل آية دون آية وقع النصف منها أو الثلث أو الثلثان في الماء ويبقى سائر ذلك على العجلة وهو كسوف دون كسوف ابتلاء الشمس والقمر ، وذلك تخويف للعباد واستعتاب من الله تعالى ، فأى ذلك كان صارت الملائكة الموكلة بعجلتها فرقتين : فرقة منهم يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة ، والفرقة الأخرى تقبل على العجلة فتجرها إلى الشمس ، وهم في ذلك يقودونها في الفلك على مقادير ساعات النهار أو ساعات الليل ليلا كان أو نهارا لكيلا يزيد في طولها شيء ، وقد ألهمهم الله تعالى علم ذلك وجعل لهم تلك القوة ، فالذي ترون من خروج الشمس والقمر بعد الكسوف قليلا قليلا من ذلك السواد الذي يعلوه فهو من غمر ماء ذلك البحر وهو خروجها من ذلك الماء ، فإذا أخرجوها كلها اجتمعت الملائكة كلهم فاحتملوها حتى يضعوها على العجلة وذلك حين تنجلي للعالم حتى يحمدوا الله تعالى على ما قوامهم لذلك ، ويتعلقون بعرا العجلة حتى يجروها بإذن الله تعالى في لجة ذلك البحر حتى إذا بلغوا بها المغرب أدخلوها من بعض تلك العيون فتسقط من أفق السماء في العين ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : عجبت من خلق الله ، وما بين من القدرة فيما لم يخلق أعجب منه . ومن ذلك قول جبريل عليه السلام لسارة (أتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) وذلك أن الله تعالى خلق مدينتين إحداهما بالشرق والأخرى بالمغرب على كل مدينة منهما عشرة آلاف باب ، ما بين كل باب إلى الآخر مسيرة فرسخ ؛ فأهل المدينة التي بالشرق من بقايا عاد من نسل مؤمنهم الذين كانوا آمنوا بهود عليه السلام ، واسمها بالسريانية برفيشا ، وبالعبرانية جابلق ، واسم المدينة التي بالمغرب بالسريانية برجيسا وبالعبرانية جايرسانيوت ، على كل

باب من هاتين المدينتين كل يوم عشرة آلاف رجل في الحراسة عليهم السلاح ومعهم الكراع ، لانتوبهم تلك الحراسة بعد ذلك اليوم إلى يوم ينفخ في الصور ، والذي نفس محمد بيده ، لولا كره هؤلاء القوم وضجيج أصواتهم لسمع أهل الدنيا وقع هذه الشمس حين تطلع وحين تغرب . ومن ورائهم ثلاث أم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وهم : منشك وتارس وتاويل ، ومن ورائهم يأجوج ومأجوج ، وإن جبريل عليه السلام انطلق بي إليهم ليلة أسرى بي إلى السماء ، فدعوت يأجوج ومأجوج إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته ، فأبوا أن يجيبوني ، فهم في النار مع من عصى الله من ولد آدم وولد إبليس ، ثم انطلق بي إلى هاتين المدينتين ، فدعوتهم إلى الله تعالى وإلى دينه وعبادته ، فأجابوا وأنابوا ، فهم إخواننا في الدين ، من أحسن منهم فهو مع المحسنين ، ومن أساء فهو مع المشركين ، ثم انطلق بي إلى الأمم الثلاث ، فدعوتهم إلى دين الله وعبادته فأبوا على وكفروا بالله وكذبوا برسله ، فهم مع يأجوج ومأجوج ، وسائر من عصى الله تعالى في النار ، فإذا ما غربت الشمس رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة ، وتحبس نحو العرش ، فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع من مغربها أم من مطلعها وتكسى ضوءا ، وإن كان القمر فنورا على قدر ساعات الليل والنهار ، ثم ينطلق بها إلى ما بين السماء السابعة وما بين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة ، فتتحد حيال المشرق من سماء إلى سماء ، فإذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الفجر عن الصبح ، فإذا انحدرت من بعض تلك النواحي فذلك حين يضيء الصبح فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين يضيء النهار ، فتلك مطالعها ومغاربها ما بين أولها عينا إلى آخرها عينا في الطلوع والغروب ، فذلك تمام ستة أشهر ، ثم إذا رجعت كذلك من عين إلى عين في الطلوع والغروب إلى آخرها عينا فذلك تمام السنة ، فعدة أيامها ولياليها ثلثمائة وستون ليلة . وخلق الله تعالى عند المشرق حجابا من الظلمة ، فوضعه على البحر السابع مقدار عدة الليالي في الدنيا منذ خلقها الله تعالى إلى يوم تنصرف ، فإذا كان عند غروب الشمس أقبل ملك من الملائكة الذين قد وكلوا بالليل ، فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل المغرب ، فلا تزال تلك الظلمة تخرج من خلال أصابعه قليلا قليلا وهو يراعى الشفق ، فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة جميعا ، ثم ينشر جناحيه فيبلغان أقطار الأرض وكنى السماء ، ويحاوزان ما شاء الله خارجا في الهواء ، فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسييح والتقديس حتى يبلغ المغرب على قدر ساعات الليل ، فإذا بلغ المغرب أسفر الصبح من المشرق فضم جناحيه ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض فيقبضها بكفيه ، ثم يقبض عليها بكف واحد نحو قبضته التي تناولها من الحجاب بالمشرق ثم يضعها عند المغرب على البحر السابع ، فمن هناك ظلمة الليل إذا ما نقل ذلك الحجاب إلى المشرق وإلى المغرب ، فإذا نفخ في الصور انقضت أيام الدنيا ، فنور النهار من ضوء الشمس ، وظلمة الليل من قبل ذلك الحجاب ، فلا تزال الشمس والقمر كذلك من مطلعهما إلى مغربهما إلى ارتفاعهما

إلى السماء السابعة إلى محبسهما تحت العرش ، حتى يأتي الوقت الذي وقته الله تعالى لتوبة العباد ، وتكثر المعاصي في الأرض ، ويذهب المعروف ولا يأمر به أحد ، ويفشو المنكر فلا ينهى عنه أحد ، فإذا فعلوا ذلك حبست القمر مقدار ليلة تحت العرش ، وكلما سجدت واستأذنت ربها من أين تطلع ، فلا يؤذن لها ولا يرد لها جواب حتى يوافقها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع فلا يؤذن لهما ولا يرد لهما جواب ، حتى يجبسا مقدار ثلاث ليال للشمس وليتين للقمر ، فلا يعرف طول تلك الليلة إلا المهجدون في الأرض ، وهم يومئذ عصابة قليلة في الأرض في كل بلد من بلاد المسلمين ، في هوان بين الناس وذلة في أنفسهم ، فينام أحدهم تلك الليلة مقدار ما كان ينام قبأها من الليل ثم يقوم فيتوضأ ويدخل مصلاه فيصلى ورده ولا يصبح نحو ما كان يصبح كل ليلة قبل ذلك ، فينكر ذلك ويخرج فينظر إلى السماء ، فإذا هو بالليل مكانه والنجوم قد استدارت في السماء وصارت في أماكنها من أول الليل ، فينكر ذلك ويظن فيها الظنون ويقول : أخففت قراءتي أم قصرت صلاتي أم قمت قبل حيني ؟ قال : ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلى نحو صلاته ، ثم ينظر فلا يرى الصبح ، فيخرج أيضا فإذا هو بالليل مكانه ، فيزيده ذلك إنكارا ويخالطه الخوف ويظن في ذلك الظنون من سوء ، ثم يقول : لعل قصرت صلاتي أو خففت قراءتي أو قمت في أول الليل ، ثم يعود وهو وجل خائف مشفق لما يتوقع من هول تلك الليلة ، فيقوم فيصلى أيضا مثل ورده كل ليلة قبل ذلك ، ثم ينظر فلا يرى الصبح ، فيخرج الثالثة فينظر إلى السماء فإذا هو بالنجوم قد استدارت مع السماء فصارت في أماكنها من أول الليل ، فيشفق عند ذلك شفقة المؤمن العارف لما كان يحذر فيلحقه الخوف وتلحقه الندامة ، ثم ينادى بعضهم بعضا وهم قبل ذلك كانوا يتعارفون ويتواصلون ، فيجتمع المهجدون من أهل كل بلدة في تلك الليلة في مسجد من مساجدهم يجأرون إلى الله تعالى بالبكاء والصراخ بقية تلك الليلة ، فإذا ما تم لهما مقدار ثلاث ليال أرسل الله جبريل عليه السلام إليهما فيقول لهما : إن الرب تعالى يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه ، إنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور ، فيبكيان عند ذلك وجلا من الله تعالى وخوف يوم القيامة بكاء يسمعه أهل السبع سموات ومن دونها ، وأهل سرادقات العرش ومن فوقها فيكون جميعا لبكائهما لما خالطهم من خوف الموت وخوف يوم القيامة ، فترجع الشمس والقمر فيطلعان من مغربهما . قال : فيبينا المهجدون يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى والغافلون في غفلتهم ، إذ نادى مناد : ألا إن الشمس والقمر قد طلعا من مغربهما ، فينظر الناس فإذا هم بهما أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر مثلهما في كسوفهما قبل ذلك ، فذلك قوله تعالى (وَجَمِيعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ) وقوله تعالى (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) فيرتفعان كذلك مثل البعيرين القرنين ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقا ، ويتصارخ أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها والأحبة عن ثمرات فؤادها ، فاشتغل كل نفس بما كسبت ،

فأما الصالحون والأبرار فإنه ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم ذلك عبادة . وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم ويكتب عليهم حسرة ، فإذا ما بلغ الشمس والقمر سررة السماء وهي منتصفها ، جاءهما جبريل عليه السلام فيأخذ بقرونها ويردهما إلى المغرب فلا يغربهما من مغاربهما من تلك العيون ، ولكن يغربهما من باب التوبة ، فقال عمر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله : وما باب التوبة ؟ فقال : يا عمر خلق الله تعالى بابا للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والجوهر ، ما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب المسرع ، فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله تعالى الدنيا إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما ، ولم يتب عبد من عباد الله تعالى توبة نصوحا منذ خلق الدنيا إلى ذلك اليوم إلا وبلت تلك التوبة في ذلك الباب ، ثم ترفع إلى الله تعالى . فقال معاذ بن جبل : بأبي أنت وأمي يا رسول الله وما التوبة النصوح ؟ قال : أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله تعالى ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع . قال : فيغربهما جبريل عليه السلام من ذلك الباب ثم يرد المصراعين ، ثم يلتئم ما بينهما فيصير كأنه لم يكن فيما بينهما صدع قط ، وإذا أغلق باب التوبة لم يقبل للعبد بعد ذلك توبة ولا تنفعه حسنة يعملها في الإسلام إلا من كان قبل ذلك محسنا ، فإنه يجري عليه ما كان يجري عليه قبل ذلك اليوم ، فذلك قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) فقال أبي بن كعب : بأبي أنت وأمي يا رسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا ؟ فقال يا أبا : إن الشمس والقمر يكسيان النور والضوء بعد ذلك ثم يطلعان ويغربان كما كانا قبل ذلك ، وأما الناس فإنهم ما رأوا من فظاعة تلك الآية وعظمتها يلحون على الدنيا ويجرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الأشجار ويننون فيها البنيان . وأما الدنيا فلونتج للرجل منهم فيها مهر لم يركبه حتى تقوم الساعة من لدن طلوع الشمس من مغربها إلى أن ينفخ في الصور ، فقال حذيفة جعلني الله فداءك يا رسول الله فكيف بهم عند النفخ في الصور ؟ قال : يا حذيفة والذي نفسي بيده لينفخن في الصور ولتقومن الساعة والرجل قد لاأ حوضه فلا يشرع فيه الماء ، ولتقومن الساعة وقد أخذ لبن لقمته من تحتها فلا يشربه ، ولتقومن الساعة والثوب بين الرجلين فلا ينشرانه ولا يطويانه ولا يبيعانه ، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع لقمته إلى فيه فلا يطعمها ، ثم تلا هذه الآية (وَلْيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) فإذا قامت الساعة قضى الله تعالى بين أهل الدارين ويميز بين الفريقين أهل الجنة والنار ، وقبل أن يدخلوهما يدعو الله تعالى بالشمس والقمر ، فيجاء بهما أسودين لا ور لهما . مكدرين قد وقعا في الزلازل والبلايا وفرائصهما ترعد من هول يوم القيامة وهول ذلك اليوم ومن مخافة الرحمن تعالى ، فإذا كانا حذاء العرش خرا ساجدين لله تعالى ويقولان :

يا إلهنا قد علمت طاعتنا لك ودأبنا في طاعتك وسرعتنا للمضي في أمرك أيام الدنيا فلا تعذبنا بعبادة المشركين إيانا ، فقد علمت أنا لن ندعوهم إلى عبادتنا ولم نذهل عن عبادتك ، فيقول الله تعالى : صدقتم إني قد قضيت على نفسي أن أبدى وأعيد ، إني أعيد كما إلى ما بدأتم كما منه فارجعا إلى ما خلقتكما منه ، فيقولان ربنا مم خلقتنا ؟ فيقول : خلقتكما من نور عرشى فارجعا إليه ، فيلمع من كل واحد منهما برقة تكاد تخطف الأبصار نورا فيختلطان بنور العرش ، فذلك قوله تعالى (يُبْدِي وَيُعِيدُ) قال عكرمة : فقامت مع النفر الذين حدثوا عن كعب ما حدثوا به من أمر الشمس والقمر حتى أتيناها ، فأخبرناه بغضب ابن عباس وما وجدته من حديثه ، وبما حدثنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما مما بين مبدئهما إلى معادهما ، فقال كعب الأحبار : إني حدثت عن كتاب دارس منسوخ قد تداولته الأيدي ، وابن عباس حدث عن كتاب حديث العهد بالرحمن جل جلاله ناسخ للكتب ، وعن سيد الأنبياء والمرسلين خير البشر ، ثم قام فشئى إلى ابن عباس فقال : بلغنى ما كان من وجدك من حديثي وما حدثت به من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا وإني أستغفر الله من ذلك مع أنى لم أتقوله من تلقاء نفسي ، ولكن حدثت عن كتاب دارس ، فلا أرى ما كان فيه من تبديل الكفار واليهود ، وأنت حدثت ما حدثت عن كتاب حديث العهد بالرحمن ناسخ للكتب وعن سيد المرسلين ، وأنا أحب أن تحدثني بما حدثت به أصحابك من حديث الشمس والقمر ، فأحفظ عنك الحديث . فإذا حدثت بشئ من أمر الشمس والقمر فيما بعد هذا اليوم كان هذا الحديث الذى تحدثت به مكان حديثي الأول . قال عكرمة : فوالله لقد أعاد عليه ابن عباس الحديث ، وإني لأستقرئه في قلبى بابا بابا ، فما زاد شيئا ولا نقص شيئا ولا قدم ولا آخر ، فزادنى ذلك فى ابن عباس رغبة وللحديث حفظا ، والله أعلم .

مجلس فى قصة آدم عليه الصلاة والسلام

وهو يشتمل على أبواب كثيرة

الباب الأول : فى ذكر وجوه من الحكمة وخلق آدم عليه الصلاة والسلام

قال الحكماء : خلق الله تعالى الخلق ليظهر وجوده ، ولو لم يخلق لما عرف أنه موجود ، وليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة لأنها لا تتأنى إلا من قادر حكيم ، وليعبد فإنه يحب عبادة العابدين ويثيبهم عليها على قدر فضله لاعلى قدر أفعالهم وإن كان غنيا عن عبادة خلقه ، لاتزيد فى ملكه طاعة المطيعين ولا تنقص من ملكه معصية العاصين ، قال الله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) وليظهر إحسانه لأنه محسن فأوجدهم ليحسن إليهم وليفضل عليهم فيعامل بعضا بالعدل وبعضا بالفضل ، وخلق

المؤمنين خاصة للرحمة كما قال عز وجل (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) وقال تعالى (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) . قال جعفر بن محمد الصادق والضحاك بن مزاحم : أى للرحمة خلقهم وليحمدوه لأنه يجب الحمد .

ويروى أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم والحسن والقبيح والأسود والأبيض ، فقال يا رب هلا سويت بينهم ؟ فقال الله تعالى : إني أحب أن أشكر .

قال أبو الحسن الفتال : خلق الله تعالى الملائكة للقدرة وخلق الأشياء للعبارة وخلقك للمحنة ، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) .

قال العلماء : خلقكم لإظهار القدرة ، ثم رزقكم لإظهار الكرم ، ثم يميتكم لإظهار القهر والجبروت ، ثم يحييكم لإظهار العدل والفضل والثواب والعقاب . ومنهم من قال : خلق الخلق جميعهم لأجل محمد صلى الله عليه وسلم .

عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى آمن بمحمد وأمر أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة ولا النار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب ، فكتبت عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن . وقيل خلقهم لأمر عظيم غيبه عنهم ، لا يجليه حتى يحل بهم ما خلقهم له ، قال الله تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) .

وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : يا أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثاً فيلهو ولا أهمل سدى فيلغو . وقال الأوزاعي : بلغنى أن فى السماء ما كما ينادى كل يوم : ألا ليت الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا عرفوا ما خلقوا له . وقال بعضهم : إذا ماتوا ثم خلقوا علموا ماذا خلقوا له وجلسوا فتذاكروا ماذا عملوا . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول فى مناجاته : إلهى غيبت عني أجلى ، وأحصيت على عملى ، ولا أدرى إلى أى الدارين منقلبي ، لقد أوقفنى وقفة المحزونين أبدا ما أبقيتنى .

وقال أبو القاسم الحكيم : إن الله تعالى جعل ابن آدم بين البلوى والبلى ، فما دام الروح فى جسده فهو فى البلوى ، فإذا فارق الروح الجسد فهو فى البلى ، فأنى له السرور وهو بين البلوى والبلى .

وقال بعض الحكماء : يا ابن آدم انظر إلى خطر مقامك فى الدنيا إن ربك حلف فقال (لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) وإن إبليس حلف فقال (فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) وأنت يا مسكين بين الله تعالى وبين إبليس مطروح ساه لاه ، والله أعلم .

الباب الثاني : في خلق آدم عليه الصلاة والسلام وكيفيته وصفته

قال المفسرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة : إن الله تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام أوخى الله إلى الأرض : إني خالق منك خلقا منهم من بطبعي ومنهم من بعصيتي ، فمن أطاعني منهم أدخلته الجنة ، ومن عصاني أدخلته النار ، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها ، فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض : إني أعوذ بعزة الله الذي أرسلك أن تأخذ مني شيئا يكون فيه غدا للنار نصيب ، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا وقال : يا رب استعازت بك فكرهت أن أقدم عليها ، فأمر الله عز وجل ميكائيل عليه السلام ، فأتى الأرض فاستعازت بالله أن يأخذ منها شيئا ، فرجع إلى ربه ولم يأخذ منها شيئا ، فبعث الله تعالى ملك الموت ، فأتى الأرض فاستعازت بالله أن يأخذ منها شيئا ، فقال ملك الموت : وإني أعوذ بالله أن أعصي له أمرا ، فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى ومن سبختها وطينها وأحمرها وأسودها وأبيضها وسهلها وحزنها ، فكذلك كان في ذرية آدم الطيب والخبيث والصالح والطالح والحميل والقيح ، ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم ، قال الله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ) ثم صعد بها ملك الموت إلى الله تعالى ، فأمره أن يجعلها طينا ويحمرها ، فعجنها بالماء المر والعذب والملح حتى جعلها طينا وخمرها ، فلذلك اختلفت أخلاقهم ، ثم أمر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها ليخلق منها محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهبط جبريل عليه السلام في ملائكة الفردوس المقربين الكروبيين وملائكة الصفح الأعلى ، فقبض قبضة من موضع قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهي يومئذ بيضاء نقية ، فعجنت بماء التسنيم ورعرت حتى صارت كالدرة البيضاء ، ثم غمست في أنهار الجنة كلها ، فلما خرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى إلى تلك الدرة الطاهرة ، فانتفضت من خشية الله تعالى ، فقطرت منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبيا ، فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا صلى الله عليه وسلم ، ثم طيف بها في السموات والأرض ، فعرفت الملائكة حينئذ محمدا صلى الله عليه وسلم قبل أن تعرف آدم ، ثم عجنها بطينة آدم عليه الصلاة والسلام ، ثم تركها أربعين سنة حتى صارت طينا لازبا لينا ، ثم تركها أربعين عاما حتى صارت صلصالا كالفخار ، وهو الطين اليابس الذي إذا ضربته بيدك صلصل : أي صوت ليعلم أن أمره بالصنع والقدرة لا بالطبع والحيلة فإن الطين اليابس لا ينقاد ولا يتأني تصويره ، ثم جعله جسدا وألقاه على طريق الملائكة التي تهبط إلى السماء وتصعد منه أربعين سنة ، فذلك قوله تعالى (هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ

مِنَ الدَّهْرِ) الآية . قال ابن عباس : الإنسان آدم ، والحين أربعون سنة كان آدم جسدا ملقى على باب الجنة .

وفي صحيح الترمذى بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير أول البقرة «إن الله خلق آدم بيده من قبضة قبضها من جميع الأرض من السهل والجبل والأسود والأبيض والأحمر ، فجاءت الأولاد على ألوان الأرض» . وسأل عبد الله ابن سلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف خلق الله آدم عليه السلام ؟ فقال : «خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة ، وصدره وظهره من بيت المقدس ، وفخذه من أرض اليمن ، وساقيه من أرض مصر ، وقدميه من أرض الحجاز ، ويده اليمنى من أرض المشرق ، ويده اليسرى من أرض المغرب ثم ألقاه على باب الجنة ، فكلما مرَّ عليه ملائمة من الملائكة عجبوا من حسن صورته وطول قامته ، ولم يكونوا قبل رأوا شيئا يشبهه من الصور ، فترَّبه إبليس فرآه فقال : لأمر ما خلقت ، ثم ضربته بيده فإذا هو أجوف ، فدخل في فيه وخرج من دبره وقال لأصحابه الذين معه من الملائكة : هذا خلق أجوف لا يثبت ولا يتماسك ، ثم قال لهم : رأيتم إن فضل هذا عليكم فما أنتم فاعلمون ؟ قالوا : نطيع ربنا ، فقال إبليس في نفسه والله لئن فضل هذا على لأعصيته ولئن فضلت عليه لأهلكته ، فذلك قوله تعالى (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)» يعنى ما أظهرت الملائكة من الطاعة وأسرَّ إبليس من المعصية ، وقوله تعالى (إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وفي الخبر : إن جسد آدم عليه الصلاة والسلام كان ملقى أربعين سنة يمطر عليه مطر الحزن ، ثم أمطر عليه السرور سنة واحدة ، فلذلك كثرت الهموم في أولاده ، وتصير عاقبتها إلى الفرح والراحة ، وأنشدنا في هذا المعنى أبو عوانة المهرجاني :

يقولون إن الدهر يومان كله فيوم محبات ويوم مكاره

وما صدقوا فالدهر يوم محبة وأيام مكروه كثير البداه

وأنشد ابن الأعرابي فقال :

محن الزمان كثيرة لاتنقضى وسروره يأتيك بالفلتات

وأنشد أبو بكر الصولى لابن المعتز :

أى شيء يكون أعجب من ذا لو تفكرت في صروف الزمان

حادثات السرور توزن وزنا والبلايا تكال بالقفران

الباب الثالث : في صفة نفخ الروح

قال العلماء : فلما أراد الله أن ينفخ في آدم عليه السلام الروح أمرها أن تدخل في فيه ، فقالت الروح : مدخل بعيد القمر مظلم المدخل ، فقال للروح ثانية ، فقالت مثل ذلك ، وكذلك ثالثة ، إلى أن قال في الرابعة ادخلي كرها واخرجي كرها ، فلما أمرها الله تعالى بذلك دخلت في فيه ، فأول ما نفخ فيه الروح دخلت دماغه ، فاستدارت فيه مقدار مائتي عام ثم نزلت في عينيه . والحكمة في ذلك أن الله تعالى أراد أن يرى آدم بدء خلقه وأصله حتى إذا تابعت عليه الكرامات لا يدخله الزهو ولا العجب بنفسه ، ثم نزلت في خياشيمه فعطس ، فحين فراغه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه ، فلقنه الله تعالى أن قال : الحمد لله رب العالمين ، فكان ذلك أول ما جرى على لسانه ، فأجابه ربه عز وجل فقال : يرحمك ربك يا آدم للرحمة خلقتك ، قال تعالى « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » ثم نزلت الروح إلى صدره وشراسيفه ، فأخذ يعالج القيام فلم يمكنه ذلك ، وذلك قوله تعالى (وكان الإنسان عجولاً) وقوله تعالى (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) . فلما وصلت الروح إلى جوفه اشتهى الطعام ، فهو أول حرص دخل جوف آدم عليه الصلاة والسلام .

وفي بعض الأخبار : إن آدم عليه السلام لما قال له ربه يرحمك ربك يا آدم مدّ يده ووضعها على أم رأسه وقال : أوّه ، فقال الله : مالك يا آدم ؟ فقال : إني أذنبت ذنبا ، فقال من أين علمت ذلك ؟ فقال : لأن الرحمة للمذنبين ، فصارت تلك سنة في أولاده إذا أصاب أحدهم مصيبة أو محنة وضع يده على رأسه وتأوّه . ثم انتشرت الروح في جسده كله ، فصارت لحما ودما وعظاما وعروقا وعصبا ، ثم كساه الله تعالى لباسا من ظفر وجعل يزداد كل يوم حسنا ، فلما قارف الذنب بدل بهذا الجلد ، وبقيت منه بقية في أنامله ليتذكر به أول حاله .

قال عبد الله بن الحارث : كانت الدواب تتكلم قبل خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، وكان النسر يأتي الحوت في البحر فيخبره بما في البر ، ويخبره الحوت بما في البحر . فلما خلق الله تعالى آدم عليه السلام جاء النسر إلى الحوت فقال : لقد خلق الله اليوم خلقا ورأيت اليوم شيئا لينزلي من وكري وليخرجنك من البحر .

فلما أتم الله خلق آدم عليه الصلاة والسلام ونفخ فيه الروح قرّطه وشنّفه وسوّره وختمه ومنطقه وألبسه من لباس الجنة ، وزينه بأنواع الزينة يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس ونور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في جبينه كالقمر ليلة البدر ، ثم رفعه على سرير وحمله على أكتاف الملائكة وقال لهم : طوفوا به في سمواتي ليرى عجائبها وما فيها فيزداد يقينا : فقالت الملائكة لبيك ربنا سمعنا وأطعنا ، فحملته الملائكة على أعناقها وطافت به السموات مقدار مائة عام ، حتى وقف على كل شيء من آياتها وعجائبها ، ثم خلق الله فرسا من المسك

الأذفر يقال له الميمون ، له جناحان من الدر والجواهر ، فركبه آدم عليه الصلاة والسلام وجبريل أخذ بلجامه وميكائيل عن يمينه وإسرافيل عن شماله ، فطافوا به السموات كلها وهو يقول : السلام عليكم يا ملائكة الله ، فيقولون وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال الله تعالى : يا آدم هذه تحيتك وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بينهم إلى يوم القيامة ، ثم علمه الله تعالى الأسماء كلها . واختلف العلماء في هذه الأسماء ، فقال الربيع بن أنس : أسماء الملائكة كلهم ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أسماء ذريته ؛ وقال ابن عباس وأكثر الناس : علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة . ثم أمر الله الملائكة بالسجود له كما قال الله تعالى (فَإِذَا سُوِّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) وأكثر العلماء على أن الأمر بالسجود لآدم إنما توجه على الملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون سائر الملائكة ، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية ، لا بسجود صلاة وعبادة ، فلما أمرهم بالسجود سجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

الباب الرابع : في صفة خلق حواء عليها السلام

قال المفسرون : لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحيدا لم يكن له من يجالسه ويؤانسه ، فألقى الله تعالى عليه النوم ، فنام ، فأخذ الله ضلعا من أضلاعه من شقه الأيسر يقال له القُصْبِيُّ ، فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك ولا وجد له الماء ، ولو أولم آدم من ذلك لما عطف رجل على امرأة ، ثم ألبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع الزينة وأجلسها عند رأسه ، فلما هبَّ آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه ، فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه : ما هذه يا آدم ؟ قال : امرأة ، قالوا : وما اسمها ؟ قال : حواء ، قالوا : صدقت ، ولم سميت حواء بذلك ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي ، قالوا : ولماذا خلقها الله تعالى ؟ قال : لتسكن إلىَّ وأسكن إليها ، وذلك قوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) قال النبي صلى الله عليه وسلم « خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ضِلْعِ أَعْوَجَ ، فَإِنْ تَقَمَّهَا تَكْسِرُهَا وَإِنْ تَتْرُكُهَا تَسْتَمْتِعُ بِهَا عَلَى عَوَجِهَا » وقيل الحكمة في أن الرجال يزيدون على مرور الأيام والأعوام حسنا وجمالا ، لأنهم خلقوا من التراب ، والطين يزداد كل يوم حدة وجمالا . والنساء يزددن على مرور الأيام قبحا لأنهن خلقن من اللحم ، واللحم يزداد على مرور الأيام فسادا . وفي بعض الأخبار أن آدم عليه السلام لما رأى حواء مد يده إليها فقالت الملائكة : مه يا آدم ، فقال : ولم وقد خلقها الله تعالى لي ؟ فقالت الملائكة : حتى تؤدي مهرها ، قال : وما مهرها ؟ قالوا : أن تصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، قال : ومن محمد ؟ قالوا : آخر الأنبياء من ولدك ، ولولا محمد ما خلقت .

وروى سعيد بن جبیر عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « إذا أراد الله أن يخلق جاريةً بعث إليها ملكين أصفرين متكئين بالدر
 والياقوت فيضع أحدهما يده على رأسها ، ويضع الآخر يده على رجلها ويقولان
 باسم ربنا وربك الله ، ضعيفة خلقت من ضعيفة ، المنفق عليها معان إلى
 يوم القيامة . »

الباب الخامس

في ذكر امتحان الله تعالى آدم عليه السلام وما كان منه في ذلك

قال أهل التاريخ : لما أسكن الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام الجنة أباح لهما نعيم
 الجنة كلها إلا شجرة واحدة ، وذلك قوله تعالى (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ
 الْجَنَّةَ) إلى قوله (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) . واختلفوا في هذه الشجرة التي هي شجرة
 الجنة ما هي ؟ فقال على رضى الله عنه : هي شجرة الكافور . وقال قتادة : هي شجرة العلم وفيها
 من كل شيء علامة ؛ وقال محمد بن كعب ومقاتل : هي السنبلة ، وقيل هي الحنطة ، وقيل هي
 الكرمة . فوسوس لهما الشيطان حتى زين لهما الشجرة فأكلا منها ما ربهما عن أكله من ثمرة
 تلك الشجرة ، وحسن لهما معصية الله تعالى في ذلك حتى أكلا منها ، وكان وصول عدو الله
 إبليس إليهما وتزيينه ذلك لهما على ما ذكره أصحاب الأخبار ، أن إبليس أراد أن يدخل الجنة
 ليرسوس لآدم وحواء ، فمنعه الخزنة من ذلك ، فأتى الحية وكانت من أحسن الدواب التي
 خلقها الله تعالى ، لها أربعة قوائم كقوائم البعير ، وكانت من خزائن الجنة وكانت لإبليس
 صديقة ، فسألها أن تدخله الجنة في فيها ، فأدخلته في فيها ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون
 فأدخلته الجنة ، وكان قد دخل مع آدم الجنة ، ولما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم
 والكرامة ، فقال : طيب لو كان خلدا ، فاغتم ذلك الشيطان منه فأتاه من قبل الخلد ، وقيل
 إن إبليس لما سمع بدخول آدم الجنة حسده وقال : يا ويلاه أنا أعبد الله منذ كذا وكذا
 ألف سنة ولم يدخلني الجنة ، وهذا خلق خلقه الله تعالى الآن فأدخله الجنة ، فاحتال في إخراج
 آدم عليه السلام من الجنة ، فوقف على باب الجنة وتعبد ثلثمائة سنة هنالك حتى اشتهر بالعبادة
 وعرفوه بها ، وهو في كل ذلك ينتظر خروج خارج من الجنة يتوصل به إلى آدم ، فكث
 على باب الجنة ثلثمائة سنة لا يأذن الله تعالى في خروج خلق منها ، فبينما هو كذلك إذ خرج
 إليه الطاوس وكان سيد طيور الجنة ، فلما رآه إبليس قال له : أيها الخلق الكريم من أنت
 وما اسمك . فما رأيت من خلق الله أحسن منك ؟ قال : أنا طائر من طيور الجنة اسمي
 طاوس ، فبكى إبليس ، فقال له الطاوس : من أنت ومم بكاؤك ؟ فقال له إبليس : أنا
 ملك من الملائكة الكروبيين ، وإنما بكيت تأسفا على ما يفوتك من حسنك وكمال خلقتك ،
 فقال له الطاوس أبفوتني ما أنا فيه ؟ قال : بلى ، وإنك تفنى وتبيد وكل الخلائق يبيدون

إلا من تناول من شجرة الخلد فإنهم المخلدون من تلك الخلائق ، فقال الطاوس : وأين تلك الشجرة ؟ قال إبليس : هي في الجنة ، قال الطاوس : ومن يدلنا بمكانها ؟ قال إبليس : أنا أدلك عليها إن أدخلتني الجنة ، قال الطاوس : كيف لي بإدخالك الجنة ولا سبيل إلى ذلك لمكان رضوان فإنه لا يدخل الجنة أحد ولا يخرج منها أحد إلا بإذنه ، ولكن سأدلك على خلق من خلق الله تعالى يدخلها ، فإنه إن قدر على ذلك أحد فهو هو دون غيره ، فإنه خادم خليفة الله تعالى آدم ، قال : ومن هو ؟ قال : الحية ، قال له إبليس : فبادر إليها فإن لنا فيه سعادة الأبد لعلها تقدر على ذلك . فجاء الطاوس إلى الحية وأخبرها بمكان إبليس وما سمع منه ، وقال : إني رأيت بباب الجنة ملكا من الكروبيين من صفته كيت وكيت ، فهل لك أن تدخله الجنة ليدلنا على شجرة الخلد ، فأسرعت الحية نحوه ، فلما جاءته قال لها إبليس نحواً من مقالته للطاوس ، فقالت : كيف لي بإدخالك الجنة ورضوان إذا رأك لم يمكنك من دخولها ؟ فقال لها : أتحوّل ريحا فتجعلني بين أنيابك ، قالت : نعم ؛ فتحوّل إبليس لعنه الله ريحا ودخل في فم الحية فأدخلته الجنة . فلما دخل إبليس الجنة أراها الشجرة التي نهى الله تعالى عنها آدم ، وجاء حتى وقف بين يدي آدم وحواء عليهما السلام وهما لا يعلمان أنه إبليس ، ففاح عليهما نياحة أحزنتهما فبكيا ، وكان أول من ناح ، فقالا له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى عليكما ، تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعيم والكرامة ، فوقع ذلك في أنفسهما وانغما لذلك ، وبكى إبليس ومضى . ثم إن إبليس أتاهما بعد ذلك وقد أثر قوله فيهما ، فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ قال : نعم ، قال : كل من هذه الشجرة شجرة الحنطة ، فقال : نهاني ربي عنها ، فقال إبليس : (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) فأبى أن يقبل منه ، فأقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، فاغترا بذلك وما كانا يظنان أن أحدا يحالف بالله كاذبا ، فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ، ثم زينت لآدم حتى أكلها .

روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال : سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول : سمعت أبي يقول : سمعت جدي يقول : سمعت سعيد بن المسيب يحلف بالله ولا يستثنى ، أن آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل ، ولكن حواء سقته الخمر حتى إذا سكر قادتة إليها فأكل ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الخمرُ تجمعُ الحباثِثَ وأمُّ الذُّنوبِ » ويقال : لما قال الله تعالى لآدم وحواء (لا تقربا هذه الشجرة) قالوا نعم لا تقربها ولا تأكل منها ، ولم يستثنيا في قولهما بمشيئة الله تعالى ، فوكلهما الله تعالى إلى أنفسهما حتى أكلا المنهى عنها . وقال : سمعت الحسن بن محمد بن الحسين يقول : سمعت إبراهيم بن الأشعث يقول : سمعت إبراهيم بن أدهم يقول : لقد أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا . وقال الشبلي : أول الدنّ دردي ، هذا أبونا آدم باع ربه بكف من حنطة ، فلما أكل

من الشجرة المهي عنها ابتلاه الله بعشرة أشياء : الأولى معانته لإيهامه على ذلك بقوله (ألمْ
 أنهكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) :
 والثانية الفضيحة ، فإنه لما أصابا الذنب بدت لهما سواتهما وتهافت عنهما ما كان عليهما
 من لباس الجنة ، فتحير آدم وصار هاربا في الجنة فتلقته شجرة العناب ، فأخذت بناصيته
 وناداه ربه أفراراً مني يا آدم ؟ قال : بلى يارب ولكن حياء منك ، ولذلك قيل : كفى بالمقصر
 حياء يوم القيامة .

ويروى أن آدم لما بدت سواته وظهرت عورته طاف بأشجار الجنة يسأل منها ورقة
 يغطي بها عورته ، فزجرته أشجار الجنة حتى رحمته شجرة التين ، فأعطته ورقة ، فطفقا :
 يعني آدم وحواء (ينخسفان عليهما من ورق الجنة) فكافأ الله التين بأن سوى ظاهره وباطنه
 في الحلاوة والمنفعة ، وأعطاه الله ثمرة في كل عام . والثالثة أو من جلده وصبره مظلما
 بعد أن كان جلده كله كالظفر وأبقى عليه من ذلك قلدا يسيرا على أنامله ليتذكر بذلك أول
 حاله . والرابعة أخرجه من جواره ونودى إنه لا ينبغي أن يجاورني من عصاني ، فذلك قوله
 تعالى (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) الآية : يعني
 آدم وحواء وإبليس والحية والطاوس . فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند ، وقيل على
 جبل من أرض الهند يقال له نود ، وقيل : واسم : وحواء بجدة بلد من أرض الحجاز .
 وإبليس بالأبلة من أرض العراق وهي بالبصرة ، وقيل مَشَّان . والحية بأصبهان . والطاوس
 بأرض بابل .

ويقال : إن الحكمة في إخراج آدم من الجنة أنه كان في صلبه من لا يستحق الولاية ولا
 يصلح لحظيرة القدس ، فإذا أخرجهم من صلبه أعاده الله إليها خالدا فيها . ويقال إن الله
 تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها ، وذلك قوله تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
 خَلِيفَةً) ولم يقل في الجنة . أخبرني ناقل بن أذفر بن أحمد بإسناده عن عثمان بن علية قال :
 سمعت الوضين بن عطاء يذكر أن آدم قال : كنا نسلا من نسل الجنة فسبانا إبليس بالحطينة
 إلى الأرض ، فلا ينبغي لنا الفرح في الدنيا ، ولكن الحزن والبكاء ما دمنا في دار السباء حتى
 نرد إلى الدار التي سبينا منها . وقال الشاعر :

يا ناظرا يرنو بعيني راقدا	ومشاهد الأيام غير مشاهد
ممتك نفسك وصلة فأبجتها	سبل الرجاء وهن غير قواصدا
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى	درج الجنان بها وفوز العابد
ونسبت أن الله أخرج آدم	منها إلى الدنيا بذنب واحد

والخامسة : الفرقة ، فرق بينه وبين حواء مائة سنة هذا بالهند وهذه بجدة ، فجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه حتى قرب أحدهما من صاحبه فاذلغا فسميت المزدلفة ، واجتمعا بجمع فسمى جمعا ، وتعارفا بعرفة في يوم عرفة ، فسمى الموضع عرفات واليوم عرفة . السادسة : العداوة ، ألقى بينهم العداوة والبغضاء كما قال الله تعالى (بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) فالإنسان عدو الحية يشدخ رأسها حيث يراها ، والطاوس عدوه ، والحية عدوته تلدغه إذا أمكنها ، وإبليس عدو لهم جميعا . وفيه إشارة إلى أن الأحباب إذا اجتمعوا وتعاونوا على معصية أعقت معصيتهم عداوة ، كما قال الله تعالى (الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ) والسابعة : النداء عليهم باسم العصيان قال الله تعالى (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) .

وروي أن إبراهيم عليه السلام تفكر ذات ليلة من الليالي في أمر آدم فقال : يارب خلقت آدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وأسكنته جنتك بلا عمل ، ثم بزلة واحدة ناديت عليه بالمعصية وأخرجته من جوارك من الجنة ، فأوحى الله تعالى إليه : يا إبراهيم أما علمت أن مخالفة الحبيب على الحبيب أمر شديد ؟ والثامنة : تسليط العدو على أولاده ، وهو قوله تعالى (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمُ) الآية . والتاسعة : جعل الدنيا سجننا له ولأولاده وابتلاؤه بهواء الدنيا ومقاساة البرد والحر فيها ، ولم يكن له بهما عهد لتعود هواء الجنة ، وهو كما قال الله تعالى (لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الْجَنَّةُ تَجْسَجُ لَاحِرًا فِيهَا وَلَا قَرَّ » . العاشرة التعب والشقاء ، وذلك قوله تعالى (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) فهو أول خلق عرق جبينه من التعب والنصب .

(فصل) وابتليت حواء وبناتها بهذه الخصال ، وبخمس عشرة خصلة سواهن : الأولى الحيف ، يروي أنها لما تناولت الشجرة دميت الشجرة ، قال الله تعالى : إن لك على أن آدميك أنت وبناتك في كل شهر مرة كما آدميت هذه الشجرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحيف « إِنَّ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنَاتِ آدَمَ » . الثانية : ثقل الحمل . الثالثة : الطلق وألم الوضع ، قال الله تعالى (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) وفي الخبر : لولا الزلة التي أصابت حواء كان النساء لم يحضن ولكن حلمات ، وكن يحملن سرا ويضعن سرا . الرابعة : نقصان دينها . الخامسة : نقصان عقلها . عن أبي سعيد في حديث ذكره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ » ، فقلن له : وما نقصان عقلنا

وديننا يارسول الله ؟ قال : أليس شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل ، فذلك نقصان عقلها ، أو ليس إذا حاضت المرأة لم تُصَلِّ ولم تصم ؟ قلن بلى ، قال : فذلك نقصان دينها . السادسة : أن ميراثها على النصف من ميراث الرجل ، قال الله تعالى (للذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ) . السابعة : تخصيهم بالعدة . الثامنة : جعلهن تحت أيدى الرجال كما قال تعالى (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) وقال عليه الصلاة والسلام : « اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ عَوَارِعُكُمْ » . التاسعة : ليس لهن من الطلاق شيء ولا يملكن ذلك وإنما هو للرجال . العاشرة : حرمن الجهاد . الحادية عشرة : ليس منهن نبي . الثانية عشرة : ليس منهن سلطان ولا حاكم . الثالثة عشرة : لا تسافر إحداهن إلا مع ذى رحم محرّم . الرابعة عشرة : لا تنعقد بهن الجمعة . الخامسة عشرة : لا يسلم عليهن .

وعاقب إبليس لعنه الله تعالى بعشرة أشياء : أولها : عزله من الولاية ، وكان له ملك الأرض وملك سماء الدنيا وكان خازن الجنة . الثانية : أخرجه من جواره وأهبطه إلى الأرض . الثالثة : مسخ الله صورته فصيره شيطاناً بعد ما كان ملكاً . الرابعة : غير اسمه وكان اسمه عزازيل فسماه إبليس ، لأنه أبلس من رحمة الله تعالى . الخامسة : جعله إمام الأشقياء . السادسة : لعنه الله . السابعة : نزع منه المعرفة . الثامنة : أغلق عنه باب التوبة . التاسعة : جعله مريداً : أى خالياً من الخير والرحمة . العاشرة : جعله خطيب أهل النار .

وعاقب الحية بخمسة أشياء : قطع قوائمها وأمشاها على بطنها ومسخ صورتها بعد أن كانت أحسن الدواب ، وجعل غذاءها التراب ، وجعلها تنمو كل سنة بالشتاء ، وجعلها عدوة بنى آدم ، وهم أعداؤها حينما يرونها يقتلونها ، وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلها في الصلاة وفي حال الإحرام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « مَا سَأَلْنَا مِنْ مُنْذُ حَارَبْنَا مِنْ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا مِنْهُمْ خِيْفَةً مِنْهُ فَلَئْسَ مِنِّي » . يعنى الحيات ، أخبرنا ابن (١) قال : حدثنا عبد الله بن يونس قال : أخبرنا داود عن محمد بن أبي الأعين المعبدي عن أبي الأحوص الحسني ، قال : بينا ابن مسعود يخطب ذات يوم فاذا هو بحية تمشي على الجدار فقطع خطبته ثم ضربها بقضيب حتى قتلها ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ قَتَلَ حِيَّةً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ رَجُلًا مُشْرِكًا قَدْ جَلَّ دَمُهُ » .

الباب السادس : في حال آدم بعد هبوطه إلى الأرض وما كان منه

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أهبط آدم إلى الأرض على جبل سرنديب وذكر أن فروته أقرب من ذرا جبال الأرض إلى السماء وكانت رجل آدم على الجبل ورأسه

(١) بياض بالأصل .

في السماء يسمع دعاء الملائكة وتسييحهم ، وكان آدم يأنس بذلك فهابته الملائكة واشتكت إلى ربها ، فحطت قامته إلى ستين ذراعا ، وكان قبل ذلك يمس رأسه السحاب ، فصلع وأخذ أولاده الصلح ، فلما نقص من قامته ذلك قال : رب كنت جارك في دارك ليس لي رب سواك ولا رقيب دونك ، آكل فيها رغدا وأسلك حيث أحببت ، فأهبطني إلى هذا الجبل ، وكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ، ثم أهبطني إلى الأرض وحططني إلى ستين ذراعا ، فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهبت عني رائحة الجنة ، فأجابه الله تعالى « بمعصيتك يا آدم » فقال آدم : ذلك بك يا رب .

وقال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة واستقر جالسا على الأرض عطس عطسة فسال أنفه دما ، فلما رأى سيلان الدم من أنفه ولم يكن رأى قبل ذلك دما هاله ما رأى ولم تشرب الأرض الدم ، فاسود على وجهها كاللحم ، ففرغ آدم من ذلك فرعا شديدا ، فذكر الجنة وما كان من الراحة فخر مغشيا عليه وبكى أربعين عاما ، فبعث الله إليه ملكا فمسح ظهره وبطنه ، وجعل يده على فؤاده فذهب عنه الحزن والغشى ، فاستراح مما كان يصيبه من الغم . قال شهر بن حوشب : بلغني أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أهبط إلى الأرض مكث ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى . وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعم الجنة مائتي سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة ، فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول توبته كما قال تعالى (فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ) الآية ؛ واختلفوا في تلك الكلمات ما هي ؟ فقال ابن عباس : هي أن آدم عليه السلام قال : يا رب ألم تخلقني بيدك ؟ قال بلى ، قال : ألم تنفخ في من رؤحك ؟ قال بلى ، قال : ألم تسبق لي رحمتك قبل غضبك ؟ قال بلى ، قال : ألم تسكني جنتك ؟ قال بلى ، قال : فلم أخرجني منها ؟ قال : لشؤم معصيتك ، قال : أي رب أرايت إن أنا تبت وأصلحت ترجمني إلى الجنة فهي الكلمات . وقال عبد الله بن عمر : إن آدم قال : يا رب أرايت ما أتيت به شيء ابتدعته من تلقاء نفسي ، أو شيء قدرته عليّ قبل أن تخلقني بيدك ؟ قال : لا بل شيء قدرته عليك قبل أن أخلقك ، قال : يا رب فكما قدرته عليّ فاغفر لي . وقال محمد بن كعب القرظي : هن قول : لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، عملت سوءا وظلمت نفسي ، فتاب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، رب عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم ، لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، رب عملت سوءا وظلمت نفسي فارحمي إنك أنت خير الراحمين . وقال سعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة : هي قوله تعالى (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا)

الآية ، ثم أنزل الله تعالى يا قوته من يواقيت الجنة ووضعها موضع البيت على قدر الكعبة لها بابان : باب شرقي ، وباب غربي ، وفيها قناديل من نور ، ثم أوحى الله تعالى إلى آدم : إن لي حرما بحيال عرشي فأنه فطف به كما يطاف حول عرشي ، وصلّ عنده كما يصلي عند عرشي ، فهناك أستجيب دعائك ، فانطلق آدم من أرض الهند إلى أرض مكة لزيارة البيت ، وقبض الله له ملكا يرشده ، فكان كل موضع يضع عليه قدمه عمرانا وما تعداه مفاوز وقفاراً . فلما وقف بعرفات وكانت حواء طلبته وقصدته من جدة ، فالتقيا بعرفات يوم عرفة ، فسمى ذلك الموضع عرفات ، فلما انصرفا إلى منى قبل لآدم تمنّ ، فقال : أتمنى المغفرة والرحمة ، فسمى ذلك الموضع منى وغفر ذنبيهما وقبل توبتهما ، ثم انصرفا إلى أرض الهند . قال مجاهد : حدثني ابن عباس : أن آدم حج من أرض الهند : أربعين حجة على رجله فقيل لمجاهد : يا أبا الحجاج ألا كان يركب ؟ قال : وأى شيء كان يحمله ، فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام . وقال ابن عمر : لما حج آدم عليه السلام البيت وقضى المناسك كلها تلقته الملائكة يهتونه بالحج وقبول التوبة ، فقالوا بَرَّحَجُّكَ يَا آدَمَ ، فداخله من ذلك شيء ، فلما رأت الملائكة منه ذلك قالوا : يا آدم إنا قد حججنا هذا البيت قبلك بألني عام فتقاصرت إلى آدم نفسه . وقال أبو العالية : خرج آدم من الجنة ومعه عصا من شجرة الجنة وعلى رأسه تاج من شجر الجنة ، فلما صار إلى الأرض يبس ذلك الإكليل وتحات الورق فنبت منه أنواع الطيب ، فلذلك كان أصل كل طيب بالهند . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزل آدم من الجنة ومعه طيب ، فزرع آدم شجر الهند في أوديتها ، وكان أصله من الجنة ، فامتأ ما هنالك طيبا ، فمن ثم يؤتى بالطيب من الهند وأهله من ربح آدم عليه السلام ، وريحه من ربح الجنة ، وأنزل الله معه الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج ، وعصا موسى عليه السلام وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ، وقيل كانت من البان . وروى سفيان عن منصور بن معمر عن ربيعي بن خراش عن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لما أهبط آدم من الجنة إلى أرض الهند وعليه ذلك الورق الذي كان لباسه من الجنة ، فيبس وتطابير بأرض الهند ، فعبق شجر العود والصندل والمسك والعنبر والكافور من ذلك الورق ، فقالوا يا رسول الله : المسك هو من الدواب أم من الشجر ؟ قال : أجل ، إنما هي دابة تشبه الغزال رعت من ذلك الشجر ، فصبر الله المسك في صرتها ، فإذا رعت الربيع جعله الله مسكا وتساقط فينتفع به الآدميون ، قالوا : يا رسول الله ، فأين يقع ؟ قال : قال لي جبريل في ثلاث كور لا يكون في شيء من الأرض إلا فيها : أرض الهند ، وأرض السُّغْدَا ، وأرض التُّبَّت ، قالوا يا رسول الله العنبر إنما هي دابة في البحر ؟ قال : أجل كانت هذه الدابة بأرض الهند ترعى في البر ، فبعث

(١) في التاج : السغد : هي بساتين نزهة ، وأماكن مشهورة بسحر قنده . قاله ابن الأثير ، وهو أحد متزهات الدنيا على ما حكاه المؤرخون ، من فتوح قتيبة بن مسلم .

الله إليها جبريل عليه السلام فساقتها وما معها ، فقدفها في البحر ، وهي أعظم ما تكون من الدواب غلظها ألف ذراع ، وإنما ترى به كما ترى البقر أخثناءها ، فربما يخرج من جوفها العنبرة ، وزنها ألف رطل وخمسمائة رطل ونحو ذلك . ثم إن آدم وجد ضرباً بآنا في رأسه وجسده ، فشكا ذلك إلى الله تعالى ، فنزل عليه جبريل بشجرة الزيتون ، فأمره أن يأخذ ثمرها ويعصره ، فقال : إن في هذه الشجرة شفاء من كل داء إلا السام ، ودلته جبريل عليه السلام على شجرة الإهليلج الأبيض والأسود والأصفر ، فقال له : إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : كل من هذه ، فإنك لن تتداوى أنت وذريتك بدواء أفضل منها فيها شفاء من كل داء ، إن بقي في جوفك لم تخف منه ، وإن خرج أخرج الداء كله وأبرأه ، فأكله آدم فبرئ .

قال أهل الأخبار : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وأصاب جسده أذى الهواء وأحس به اشتكى وحشة بجسده ، وكان قد اعتاد هواء الجنة ، فشكا ذلك إلى جبريل ، فقال : إنك تشكو العرى ، فأنزل الله عليه ثمانية أزواج المذكورة في سورة الأنعام (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين) ، ثم أمره أن يذبح كبشاً منها فذبحه ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه آدم ، فجعل منه جبة لنفسه وجعل لحواء درعا وخماراً ، لبسها وبكيا على ما فاتهما من لباس الجنة ، فحواء أول من غزلت ، وآدم أول من نسج ولبس الصوف .

عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما تقول في حرفتي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما حرفتك ؟ فقال : أنا رجل حائك ، قال : حرفتك حرفة أيينا آدم عليه السلام . وكان أول من نسج آدم ، وكان جبريل يعلمه وآدم تلميذه ثلاثة أيام ، وإن الله عز وجل يحب حرفتك ، فإنها حرفة يحتاج إليها الأحياء والأموات ، فمن قال منكم القبيح فأبونا آدم خصمه ، ومن أنف منكم فقد أنف من آدم ، ومن لعنكم فقد لعن آدم ، ومن آذاكم فقد آذى آدم ، وهو خصمهم يوم القيامة ، فلا تخافوا وأبشروا فإن حرفتكم حرفة مباركة ، ويكون آدم قائداً لكم إلى الجنة .»

وعن أبي أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عليكم بلباس الصوف تجدون قلة الأكل ، عليكم بلباس الصوف تعرفون به في الآخرة ، وإن النظر في الصوف ليورث القلب التفكير ، والتفكير يورث الحكمة ، والحكمة تجرى في الجوف مجرى الدم ، فمن كثر تفكره قل طمعه ، وكل من قل تفكره كثرت طمعه وعظم بدنه وقسا قلبه ، والقلب القاسي بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار .»

قالوا : ثم إن إدم عليه الصلاة والسلام بعد ستر عورته اشتكى ، فقال له جبريل : ما الذي أصابك ؟ فقال : أجد في نفسي قلقاً واضطراباً لأجد إلى العبادة منه سبيلاً ، وإن

أجد بين لحمي وجلدي ديبيا كدييب النمل ، فقال له جبريل : ذلك يسمى الجوع ، قال :
وكيف الخلاص من ذلك ؟ قال : سوف أهديك إلى ذلك ، فغاب عنه ثم جاء بثورين أحمرين
والعلاء : يعنى السندان والمطرقة والمنفخة والكلبتين ، ثم جاءه بشر من جهنم ، فوقع
في يد آدم ، فطار منه شرارة فوقعت في البحر ، فدخل جبريل إليها وأتى بها ، فدفعها إلى
آدم فطارت منه أيضا حتى فعل ذلك سبع مرات ، فذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : **إِنَّ**
نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِّنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِّنْ نَّارِ جَهَنَّمَ بَعْدَ أَنْ غُسِلَتْ بِالْمَاءِ
سَبْعَ مَرَّاتٍ . فلما جاء بها في الثامنة نطقت النار فقالت : يا آدم إني لأطبعك ، وإني
منتقمة من عصاة أولادك يوم القيامة ، فقال جبريل : يا آدم إنها لن تطبعك ولكني أسجنها
لك ولأولادك ، ليكون لك ولأولادك فيها المنافع ، فسجنها في الحجر والحديد ، فذلك قوله
تعالى (**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ**) ... الآية . ويروى أن آدم لما أخذ النار
احترقت يده ، فخلى عنها ، فقال لجبريل : ما لها تحرق يدي ولا تحرق يدك ؟ قال : لأنك
عصيت الله وإني لم أعصه ، ثم أمره جبريل باتخاذ آلة الحرث ، فهو أول من عمل الحديد
ثم أتاه بصرة من حنطة فيها ثلاث حبات من الحنطة ، فقال يا آدم : لك حبتان ولحواء حبة ،
فلذلك صار للذكر مثل حظ الأنثيين ، وكان وزن الحبة مائة ألف درهم وثمانين ألف
درهم ، فقال آدم : ما أصنع بذلك كله ؟ فقال : يا آدم خذها فإنها سبب سد جوعتك وبها
أخرجت من الجنة وبها تحيا في الدنيا وبها تلتقى الفتنة أنت وأولادك إلى أن تقوم الساعة ،
ثم أمره أن يشد الثورين ويكسر من الخشب ويضعه عليهما ففعل ذلك وجعل يحرث الأرض
عليهما ، فهو أول من حرث الأرض ، وبكى الثوران على ما فاتهما من راحت الجنة ،
فقطرت دموعهما على الأرض فنبت منها الجاورس ، وبالا فنبت منه الحمص ، وراثا
فنبت منه العدس ، ثم كسر جبريل تلك الحبوب حتى كثرها ثم بنرها ، فنبتت من ساعته
فقال آدم عليه الصلاة والسلام : آكله ؟ فقال : لا ، اصبر حتى يدرك ، فلما سنبل وأفرك
قال : آكله ؟ قال لا ، وعلمه الحصاد ، فلما حصد قال : آكله قال لا ، وعلمه الدياس ،
فلما داس قال : آكله ؟ قال لا ، وعلمه التنقية ، فلما نقاه قال : آكله ؟ قال لا ،
وجاءه بحجرين وعلمه الطحن ، فلما طحنه قال : آكله ؟ قال لا ، وعلمه العجن ، ويقال
إن آدم عليه الصلاة والسلام لما نخل دقيقه أمره جبريل أن يبتئ النخالة في الأرض
المستحصدة ، فنبت فيها الشعير . فلما عجن قال آكله ؟ قال لا ، فأمره أن يحفر حفرة
ويضع الحطب فيها ويوقد عليها نارا ، ففعل ذلك ، ثم وضع عجينه عليه ، فخبز حتى
جعله خبز ملة ، فهو أول من خبز ، فلما أخرجه قال : آكله ؟ قال لا ، حتى يبرد ، فلما
برد أكله ، فلما أكله دمعت عينا آدم عليه السلام وقال : ما هذا التعب والنصب ؟ قال له :
هذا وعد الله الذي وعدك ، فذلك قوله تعالى (**إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا**

من الجنة فتشقى) أما آن لك أن تأكل من كدِّ يمينك وعرق جبينك أنت وذريتك ؟ فلما استوفى آدم من الطعام شكاً من بطنه ولم يدر ما هو ، فشكا ذلك إلى جبريل عليه السلام ، فقال : ذلك العطش ، قال : فبم أسكنه ؟ فغاب عنه ثم عاد إليه ومعه المعول وقال له : احفر الأرض ، فما زال يحفر حتى بلغ إلى ركبتيه ، فنبع الماء من تحت رجله ماء زلالاً أبرد من الثلج وأحلى من العسل ، وقال : يا آدم اشرب منه شربة ، فشربها فاطمأن ، ثم إنه بعد ذلك وجد تشكياً أشد من الأول والثاني ، فقال لجبريل : ما هذا الذى أجده ؟ قال : لأدرى ، فبعث الله إليه ملكاً ففتق قلبه ودبره ، ولم يكن قبل ذلك للطعام مخرج ، فلما خرج منه ما آذاه ووجد ريحه بكى على ذلك سبعين سنة .

قالوا : لما أنزل الله إلى آدم الحديد نظر إلى قضيب من حديد نابت على الجبل فقال : هذا من هذا ، فجعل يكسر أشجاراً قد عتقت ويبيست ، فأوقد على ذلك الحديد حتى ذاب وكان أول شيء ضرب منه مدينة ، فكان يعمل بها ثم ضرب التنور الذى ورثه نوح عليه الصلاة والسلام ، وهو الذى فار بالعذاب بالهند .

قالوا : لما أهبط الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام أخرج معه من الجنة قطعة من ذهب فلذلك يبتى الذهب لا يبلى بالثرى ولا يصدأ من الندى ولا تنقصه الأرض ولا تأكله النار ، لأنه من الجنة حمل .

قيل إن الله تعالى زود آدم حين أهبطه إلى الأرض من الثمار ثلاثين نوعاً : عشرة منها فى القشور ، وعشرة لها نوى ، وعشرة لا قشور لها ولا نوى . فأما التى هى فى القشور ؛ فالجوز واللوز والفسق والبندق والحشخاش والبلوط والشاه بلوط والنارنج والرمان والموز ، وأما التى لها نوى : فالخوخ والمشمش والإجاص والعناب والفرسك والرطب والغيراء والنبق والزعرور والمقل . وأما التى لا قشر لها ولا نوى : فالتفاح والسفرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والأترج والحرنوب والخيار والبطيخ .

وقال ابن جريج : أهبط الله تعالى آدم عليه السلام ومعه آنية فيها بزر عريشة من عنب وريحانة ، فغرس آدم العريش . فلما طلعت جاء إبليس فسرق ثمرها ، فقال له آدم : ويلك أخرجتنى من الجنة ولا تريد أن تجعل لى رزقا ؟ فقال له : إن لى فيها حقا ، قال : وما حقا ؟ قال : نشوها ولكم سائرها .

وقال ابن عباس : هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء : بالآسة وهى سيدة رياحين الدنيا ، وبالسنبله وهى سيدة طعام أهل الدنيا ، وبالعجوة وهى سيدة ثمار الدنيا .

وروى ابن عباس وعائشة وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن العجوة من غراس الجنة وفيها شفاء » ولأنها تزيق أول البكرة وعليكم بالتمر البرنى ككأوه فإنه يسبح فى شجره ويستغفر لآكله .

وقال ابن عباس : لما هبط آدم إلى الأرض كان أول شيء أكله من الثمار التين . وقال كعب : أول من ضرب الدينار والدرهم آدم ، وقال : لانصلح المعيشة إلا بهما . وقال ودب ابن منبه : : إن آدم لما هبط إلى الأرض ورأى سعتها ولم ير فيها أحدا غيره ، فقال : يا رب أما لأرضك هذه من عامر يسبحك ويحمدك ويقدمك غيري ، قال الله تعالى : سأجعل فيها من ولدك من يسبحني ويحمدني ويقدمني ، وسأجعل فيها بيوتا ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقي ويذكر فيها اسمي ، وسأجعل من ولدك يا آدم من يعبدني حق عبادتي ، وسأجعل من تلك البيوت بيتا أخصه بكرامتي وأؤثره باسمي ، فأسميه بيتي وأنطقه بعظمتي وعليه وضعت جلالتي ، وأجعل ذلك البيت حرما آمنا يحرم بحرمة ما حوله وما فوقه وما تحته ، فمن حرّمه بحرمة استوجب بذلك كرامتي ، ومن أخاف أهله فيه فقد خفر ذمتي وأباح حرمتي واستوجب بذلك عذابي وعقابي ، وسأجعل هذا البيت أول بيت وضع للناس يهبطن مكة مباركا يأتونه شعنا غبرا (وعلى كل ضامير يأتين من كل فج عميق) يرجون بالتلبية رجيجا ويضجون بالبكاء ضجيجا ويعجون بالتكبير عجيجا ، فمن اعتمره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارني واستضافني ، فحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلا بحاجته ؛ يا آدم تعمره ما دمت حيا ، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن . ثم إن الله تعالى مسح ظهر آدم بيده وأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة كالذر بنعمان من عرفة : قرية بمكة ، ثم أخذ عليهم الميثاق وكلمهم (وقال : ألسنتُ برَبِّكم ؟ قالوا بلى شهِدنا أن تقولوا يومَ القيامةِ إنا كُنّا عنْ هذا غافلين) . وسئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله خلق آدمَ ومسحَ ظهره ، فاستخرجَ ذُرِّيَّةَ منه » وقال : خلقتُ هؤلاءَ للجنةِ ويعملُ أهلُ الجنةِ يعملونَ ، ثم مسحَ ظهره فاستخرجَ ذُرِّيَّةَ ، وقال : خلقتُ هؤلاءَ للنارِ ، ويعملُ أهلُ النارِ يعملونَ ، فقال رجل يا رسول الله فقيم العمل ؟ فقال : إن الله تعالى إذا خلق العبدَ للجنةِ استعملهُ بعملِ أهلِ الجنةِ فيدخلُ الجنةَ ، وإذا خلق العبدَ للنارِ استعملهُ بعملِ أهلِ النارِ حتى يموتَ على ذلكَ فهو من أهلِ النارِ .

وقال وهب بن منبه رحمه الله : أوحى الله إلى آدم بعد ما تاب عليه : يا آدم ، إنى أجمع لك العلم كله في أربع كلمات : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين الناس . فأما التى لى : فتعبدنى لا تشرك بى شيئا . وأما التى لك : فأجزيك بعملك أحوج ما تكون إليه . وأما التى بينى وبينك : فنك الدعاء ونى الإجابة . وأما التى بينك وبين الناس : فإن ترضى لهم ما ترضى لنفسك ، فقال آدم : يا رب شغلت بطاب المعيشة والرزق عن التسبيح والعبادة ، ولست أعرف ساعات التسبيح فى أيام الدنيا ، فأهبط الله تعالى إليه

ديكاً فأسمعه أصوات الملائكة بالتسبيح ، فهو أول داجن اتخذه آدم من الخلق ، فكان الديك إذا سمع التسبيح في السماء سبح في الأرض فيسبح آدم بتسبيحه .

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى آدم لما أراد أن يهبطه إلى الأرض : يا آدم إني منزلك أنت وخربتك داراً مبنية على أربع قواعد : أما الأولى فإني أقطع ما تصلون . وأما الثانية فإني أفرق ما تجمعون . وأما الثالثة فإني أخرب ما تبنون . والرابعة أميت ما تلدون ، ولذلك قيل :
لدوا للموت وابنوا للخراب وكلكم بصير إلى ذهاب

الباب السابع : في ذكر هبوط إبليس لعنه الله إلى الأرض وحاله فيها بعد اللعنة

قال الله تعالى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو) الآية .

قال الشعبي : أنزل إبليس من السماء عليه عمامة ليس تحت ذقنه منها شيء ، أعور ، في إحدى رجله نعل .

وروى ابن المبارك عن خالد بن حميد بن هلال : إنما كره أن يتخصر في الصلاة لأن إبليس هبط متخصراً .

وروى حماد عن ثابت وحيد عن عبد الله بن عبيد بن عمير : أن إبليس قال : يا رب أخرجتني من الجنة من أجل آدم ، وإني لأستطيعه إلا بسطانك ، قال : فإنك مسلط عليه ، قال : يا رب زدني ، قال : لا يولد له ولد إلا ولدك مثلاً ، قال : يا رب زدني ، قال : صدورهم مساكن لك وتجري منهم مجرى الدم ، قال : يا رب زدني ، قال : (وأجائب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد وعيدهم ، وما يعيدهم الشيطان إلا غروراً) . قال آدم : يا رب قد سلطته علي وإني لأمتنع منه إلا بك ، قال : لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء ، قال : يا رب زدني ، قال : الحسنه بعشر أمثالها وأزيدها ، والسيئة بمثلها واحدة وأحوها ، قال : يا رب زدني ، قال : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) ... الآية . قال : يا رب زدني ، قال : التوبة لا أنزعها من ولدك ما كانت الروح فيهم ، قال : يا رب زدني ، قال : أغفر ولا أبالي ، قال : حسبي .

وروى أن إبليس قال : يا رب لعنتني وأخرجتني من الجنة وجعلتني شيطاناً رجيماً مذموماً مدحوراً ، وبعثت في بني آدم الرسل ، وأنزلت عليهم الكتب ، فما رسلي ؟ قال : الكهنة ، قال : فما كتبتي ؟ قال : الوشم ، قال : فما حديثي ؟ قال : حديثك الكذب ، قال : فما قراءتي ؟ قال : قراءتك الشعر ، قال : فما مؤذنتي ، قال : مؤذنتك الميزمار ، قال : فما مسجدي ؟ قال : مسجدك السوق ، قال : فما بيتي ؟ قال : بيتك الحمام ، قال : فما طعامي ؟ قال : طعامك ما لم يذكر اسمي عليه ، قال : فما شرابي ؟ قال : شرابك كل مسكر ، قال : فما مصابدي ؟ قال : مصابذك النساء .

وروى مقاتل وجوير عن الضحاك عن ابن عباس : أن إبليس لما خرج من الجنة التي الله عليه الخرق والغلظة ، فنكح نفسه فباض أربع بيضات فمنها ذريته .

وروى إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق : بلغني أن إبليس تزوج الحية التي دخل فيها حين كلم آدم عليه السلام بعد ما أخرج من الجنة فمنها ذريته .

الباب الثامن : في ذكر ما روى من الأخبار فيمن تراءى له إبليس فرآه عيانا وكلمه شفاها يروي أن آدم التي بإبليس في أرض فلاة ، فلامه على صنيعه وقال له : يا ملعون أي شيء هذا الذي أحلت لي ، غررتني وأخرجتني من الجنة ، وفعلت بي ما فعلت ، قال : فبكى إبليس وقال : يا آدم إني فعلت بك ما تقول وأنزلتك هذه المنزلة ، فمن فعل بي ما أنا فيه وأحلتني هذه المنزلة ؟

ويروي أن إبليس تصور لفرعون في صورة الإنس بمصر في الحمام ، فأنكره فرعون ، فقال له إبليس : ويحك أما تعرفني ؟ فقال : لا ، قال : فكيف وأنت خلقتني ، أليس القائل : أنا ربكم الأعلى ؟

ويروي أن سليمان عليه الصلاة والسلام سأل إبليس فقال : أي الأعمال أحب إليك وأبغض إلى الله تعالى ، فقال : لولا منزلتك عند الله تعالى ما أخبرتك ، إني لست أعلم شيئا أحب إلى وأبغض إلى الله تعالى من استغناء الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة .

ويروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامن آدمي إلا وقد عميل خطيئة أو هم بها إلا يحيى بن زكريا ، فإنه ما عميل خطيئة ولا هم بها ، ولقد قال : رب أرني إبليس كما هو ، واعزيم عليه أن لا يكتمنني شيئا سألته عنه ، فأوحى الله تعالى إلى إبليس أن ائت عبدي يحيى بن زكريا كما هبطت إلى الأرض ولا تكتمه شيئا سألتك عنه ، فأتاه وقال : يا يحيى أنا إبليس أمرني ربى أن آتيتك كما هبطت إلى الأرض ، فنظر إليه يحيى فإذا على رأسه خطاطيف تطير وحقواه مخوفتان بأكوار : كور ههنا وكور ههنا ، وفي رجلية خلاخيل ، فقال ما هذه الخطاطيف التي تطير على رأسك ؟ قال : بها أخطف عقول بني آدم ، فقال : فما هذه الخلاخيل التي في رجلية ؟ قال أحرکها لبني آدم حتى يفتني أو يفتني له ، قال : فأى ساعة أنت على ابن آدم أقدر ؟ قال حين يملى شيئا ورثيا ، قال : فهل وجدت في نفسي شيئا ؟ قال : لا ، قال : ولا على حال ؟ قال : نعم قدم إليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت فشبهته إليك حتى أكلت أكثر من عادتك فتناقلت عن وردك وعبادتك ، فقال يحيى : لاجرّم لأشبع أبدا ، فقال إبليس : لاجرّم لأنصح آدمينا أبدا .

وقيل لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا في جهازه وخرج الناس وخلا الموضوع ، قال ابن عباس : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لما وضعتُه صلى الله عليه وسلم على المغتسل ، إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت : يا علي لا تغسلوا محمدا فإنه طاهر مطهر ، قال : فوقع في قلبي من ذلك شيء ، وقلت : ويحك من أنت فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بهذا ، وهذه سنته ؟ وإذا بهاتف آخر يهتف بأعلى صوته : غسله يا علي فإن الهاتف الأول كان الشيطان حسد محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدخل قبره مغسلا ، قال علي : جزاك الله خيرا ، قد أخبرتني أن ذلك إبليس ، فمن أنت ؟ قال : أنا الخضر ، حضرت جنازة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويحكى أن قوما من بني إسرائيل تراءى لهم إبليس ، فقالوا له : قف موقفا كنت تقفه بين يدي الله تعالى حسبما كنت تقف قبل أن عصيت ربك ، فقال : إنكم لا تطيقون رؤية ذلك فألحوا عليه ، فوقف وقفة ، فلما نظروا إليه وإلى خشوعه وخضوعه ماتوا عن آخرهم . ويروى أن رجلا كان يلعن إبليس كل يوم ألف مرة ، فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص فأيقظه ، وقال : قم فإن الجدار ها هو يسقط ، فقال له : من أنت الذي أشفقت علي هذه الشفقة ؟ فقال له أنا إبليس ، فقال : كيف هذا وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة ، فقال : هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله تعالى ، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم ما ينالون .

الباب التاسع : في قصة قابيل وهايل

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا) إلى آخر القصة . قال أهل العلم بقصص النبيين وأخبار الماضين : إن حواء كانت تلد لآدم توءمين في كل بطن غلاما وجارية ، إلا شيئا فإنه ولدته منفردا ، وكان جميع من ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنا : أولهم قابيل وتوأمته إقليا ، وآخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث ، ثم كثر الله في نسل آدم كما قال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) . . . الآية .

قال ابن عباس : لم يمت آدم حتى رأى من ولده وولد ولده أربعين ألفا ، ورأى آدم فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد .

واختلف العلماء في وقت مولد قابيل وهايل ؛ فقال بعضهم : غشى آدم حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة ، فولدت له قابيل وتوأمته « إقليا » في بطن ، ثم هايل وتوأمته « لبودا » في بطن واحد .

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : إن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض ، فحملت له بقابيل وتوأمته ، فلم تجد عليهما وحمما ولا

نصبا ولا طلقا حين ولدتهما ولم تر معهما دما لطهارة لبنه ، فاما هبطا إلى الأرض واطمأنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوءمته لبودا ، فوجدت فيها الوحم والنصب والطاق والدم ، حتى إذا شب أولاده زوج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر ، وزوج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر ، وكان الرجل منهم يتزوج أى أخواته شاء إلا توءمته التى ولدت معه ، فإنها لا تحل له ، وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حواء . فلما ولد قابيل وتوءمته إقليا في بطن واحد ، وهابيل وتوءمته لبودا في بطن واحد ، وكان بينهما سنتان في قول الكلبي ، وأدركوا أمر الله تعالى أن ينكح ابودا أخت هابيل قابيل ، وينكح هابيل إقليا أخت قابيل ، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقا ، فذكر آدم ذلك لولده هابيل فرضى ، وسخط قابيل وقال : هى أختى ولدت معى في بطن ، وهى أحسن من أخت هابيل ، فأنا أحق بها ونحن من أولاد الجنة وهما من أولاد الأرض ، فأنا أحق بأختى ، فقال له أبوه : إنها لا تحل لك ، فأبى أن يقبل ذلك منه وقال : إن الله تعالى لم يأمره بذلك وإنما هو من رأيه ، فقال لهما آدم : قريبا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بها .

وقال معاوية بن عمار : سألت جعفرا الصادق أكان آدم زوج ابنته من ابنه ؟ فقال : معاذ الله ، لو فعل ذلك آدم لما رغب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كان دين آدم إلا دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إن الله تعالى أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ، وولد له بنت فسماها عناق ، فبغيت ، وهى أول من بغى في الأرض ، فسלט الله عليها من قتلها ، فولد لآدم على أثرها قابيل ثم ولد له هابيل ، فلما أدرك قابيل أظهر الله تعالى جنية من الجن يقال لها عمالة في صورة إنسية وخلق لها رحما ، وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه ، فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حوراء في صورة إنسية وخلق لها رحما وكان اسمها تركة ، فلما نظر إليها هابيل ورمتها أوحى الله إلى آدم أن زوجها من هابيل فتعل ، فقال قابيل : يا أبت ألسنت أكبر من أختى وأحق بما فعلت به منه ؟ فقال : يا بنى إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء ، فقال لا ، ولكنك آثرته على بهواك ، فقال له : إن كنت تريد أن تعلم ذلك فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أولى بها من صاحبه . قالوا : وكانت القرابين حينئذ إذا قبلت نزلت نار من السماء فأكلتها ، وإذا لم تقبل لم تنزل نار لأكلها وتأكلها السباع ، فخرجوا ليقربا ، وكان قابيل صاحب زرع ، فمقرب صبرة من الطعام من أردل زرع ، وأضممر في نفسه ما أبالى أيقبل منى أم لا ، لا يتزوج أختى أبدا ، وكان هابيل راعيا صاحب ماشية ، فقرب كبشا سمينا من خيار ماشيته ولبنا وزبدا ، وأضممر في نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره . وقال إسماعيل بن رافع إن هابيل نتج له كبش في غنمه ، فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه ، وكان يحمله على ظهره ، فلما أمر بالقربان قرب به . قال : فوضعا قربانهما على الجبل فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش

والزُّبْد واللبن ، ولم تأكل من قربان قبايل حبة لأنه لم يكن بزركى القلب ، وقبل قربان هايل لأنه كان زركى القلب ، فما زال الكبش يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم ، فذلك قوله تعالى (فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ) إلى قوله (مِنَ الْمُتَّقِينَ) فنزلوا عن الجبل وتفرقوا ، وقد غضب قبايل لما رده الله قربانه ، وظهر فيه الحسد والبغى ، وكان يضمهما قبل ذلك في نفسه إلى أن أتى آدم مكة ليزور البيت ، فلما أراد أن يأتي مكة قال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، فقال ذلك للأرض والجبال فأبيا ، فقال ذلك لقبايل ، فقال : نعم ترجع وتراه كما يسرك ، فرجع آدم وقد قتل قبايل هايل ، فذلك قوله تعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) يعني قبايل حين حمل أمانة أبيه ثم خانها . قالوا : فلما غاب آدم أتى قبايل إلى هايل وهو في غنمه فقال : لأقتلنك ؟ قال : ولم ؟ قال : لأن الله قبل قربانك ولم يقبل قرباني وتنكح أختي الحسنة وأنكح أختك الدميمة ، فيتحدث الناس أنك خير مني وأفضل ، ويفتخر ولدك على ولدي فقال له هايل : وما ذنبي ؟ (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لِيَنْ بَسِطْتَ إِلَى يَدِكَ لِيَتَقَبَّلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) .

قال عبد الله بن عمر : إن المقتول كان أشد ولكنه منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده . قال الله تعالى (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ) الآية : أي طأوعته وساعدته فقتله . قال السدي : لما قصد قبايل قتل هايل زاغ هايل في رعوس الجبال ، ثم أتاه يوما من الأيام وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات . وقال ابن جريج : لم يدر قبايل كيف يقتل أخاه ، فتمثل له إبليس وأخذ طيرا فوضع رأسه على حجر ثم شدخه بحجر آخر ، وكان لهايل يوم قتل عشرون سنة .

واختلفوا في مَصرعه وموضع قتله ، فقال ابن عباس : على جبل نود ، وقال بعضهم : على عقبة حراء . وحكى محمد بن جرير الطبري قال جعفر الصادق بالبصرة في موضع المسجد الأعظم ، فلما قتله تركه ولم يدر ما يصنع به ، لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم ، فقصدته السباع ، فحمله في جراب على ظهره سنة حتى ترواح ، وعكفت عليه الطير والسباع ينظرون أين يرمى به فتأكله ، فبعث الله غرابين فاقتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، ثم حفر له بمنقاره ورجليه حتى مكن له في الأرض ، ثم ألقاه في الحفرة وواراه وقبايل ينظر إليه ، فلما رأى ذلك قال (يَا وَيْلَتَا أَعَجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوَآةَ أَخِي ؟ فَأَصْبَحَ مِنَ النََّادِمِينَ) يعني على حمله ، لا على قتله . وروى عن الأوزاعي قال : حدثني المطلب بن عبد الله المخزومي : لما قتل ابن آدم أخاه رجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ، ثم شربت الأرض دمه كما تشرب الماء ، فنناداه

الله : أين أخوك هاويل ؟ قال : ما أدري ، ما كنت عليه وقيا ؟ فقال الله تعالى : إن دم أخيك لينادينى من الأرض ، فلم قتلت أخاك ؟ قال : فأين دمه إن كنت قتلته ؟ فحرم الله على الأرض من يومئذ أن تشرب دمًا بعده أبدا .

وعن الضحاك عن ابن عباس قال : لما قتل قابيل هاويل وآدم بمكة اشتاك الشجر ، وتغيرت الأطعمة ، وتحمضت الفواكه ، ومُرَّ الماء ، واغبرت الأرض ، فقال آدم : قد حدث في الأرض حدث ، فأتى الهند ، فإذا قابيل قد قتل هاويل ، فأنشأ يقول ، وهو أول شعر قيل : تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيح
تغير كل ذى طعم ولون^١ وقل بشاشة الوجه الصبيح

وروى عن ابن عباس أنه قال : من قال إن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله ورمى آدم بالمأثم ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم والأنبياء كلهم في النهى عن الشعر سواء ، قال الله تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) ولكن لما قتل قابيل هاويل رثاه آدم وهو سرياني ، وإنما يقول الشعر من تكلم بالعربية ، فلما قال آدم مراثيته في ابنه هاويل وهو أول شهيد على وجه الأرض ، قال آدم لشيث : يا بنى إنك وصيى ، فاحفظ هذا الكلام ليتوارثه الناس ، فلم يزل ينقل حتى وصل إلى يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام ، وكان يتكلم بالسريانية والعربية ، وهو أول من ركب الخيل وتكلم بالعربية وقال الشعر ، فنظر في المراثية فإذا هو سجع فقال : إن هذا ليقوم شعرا ، فردّ المقدم إلى المؤخر والمؤخر إلى المقدم ، فوزنه شعرا ، فإزاد فيه ولا نقص حرفا من ذلك فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌ قبيحُ^١
تغير كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه الصبيحُ
وقابيل أذاق الموت هاويل فواحزنا لقد فقد المليح
وماله لا أجود بسكب دمع وهاويل تضمنه الضريح
وجاءت شُعلة ولها رنين لها بلها وقابلها بصبيح
لقتل ابن النبي بغير جرم فقلبي عند قتله جريح
وجاورنا لعين ليس يفنى عدو لاجموت فنستريح

وقالت حواء :

دع الشكوى فقد هلكا جميعا بموت ليس بالثمن الرينع
وما يغنى البكاء عن البواكى إذا ما المرء غُيب في الضريح
فابك النفس وانزل عن هواها فلست مخلدا بعد الذبيح

فأجابهما إبليس لعنه الله شامتا بهما :

(١) الأشعار التي وردت في قصة قتل ابن آدم أخاه : كلها منحولة . فا كانوا يعرفون الشعر ولا الوزن ولا القافية حينئذ ، ولم يكن سائرهم العربية . والله أعلم .

تنح عن البلاد وساكنيها
وكنت بها وزوجك في رخاء
فما زالت مكابدتي ومكرى
فلولا رحمة الجبار أضحى
ففي الجنات ضاق بك الفسيح
وقلبك من أذى الدنيا مريح
إلى أن فانتك الثمن الربيع
بكفك من جنان الخلد ربيع

وقال سالم بن أبي الجعد : لما قتل قابيل هايل مكث آدم مائة سنة لا يضحك ، ثم أتى له فقيل له : حياك الله وأضحكك ولا أبكاك . قال : ولما مضى من عمر آدم مائة وثلاثون سنة ، وذلك بعد ما قتل قابيل هايل بخمس سنين ولد له شيث ، وتفسيره : هبة الله ، يعني أنه خلف الله من هايل ، وعلمه الله ساعات الليل والنهار وعبادة الخلق في كل ساعة منها ، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة ، وكان وصي آدم وولي عهده . وأما قابيل فقيل له اذهب ، فذهب طريدا شريدا فرعا مرعوبا لا يأمن من رآه ، فأخذ بيد أخته إقليا وذهب بها إلى عدن من أرض اليمن ، فأتى إليه إبليس وقال له : إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها ، فانصب أيضا أنت نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت النار ، فهو أول من نصب النار وعبدها . قال : وكان لا يمر بواحد من ولده إلا رماه ، وكان لقابيل ولد أعمى ومعه ابن له ، فقال ابن الأعمى لأبيه ، هذا أبوك قابيل ، فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله ، قال : فقال ابن الأعمى إنه أبوك ، فرفع يده فطمه فمات ، فقال الأعمى : ويل لي قتلت أبي برميتي وقتلت ابني بلطمتي . قال مجاهد : فعلقت إحدى يدي قابيل إلى فخذهما وساقهما ، وعلقت من يومئذ إلى يوم القيامة ، ووجهت إلى الشمس حيث دارت وعليه في الصيف حظيرة نار وفي الشتاء حظيرة ثلج . قالوا : واتخذ أولاد قابيل آلات اللهو من أنواع الطبول والمزامير والطنابير ، وانهمكوا في اللهو وشرب الخمر والزنا وعبادة النار والأوثان والفواحش حتى أغرقهم الله بالطوفان في زمن نوح عليه السلام ، وبقي نسل شيث عليه السلام ، والله أعلم .

الباب العاشر : في ذكر وفاة آدم عليه السلام

ذكر أهل التاريخ وأصحاب الأخبار أن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوما وأوصى إلى ابنه شيث ، وكتب وصيته ودفعها إلى شيث وأمره أن يخفي ذلك من ولد قابيل لأن قابيل كان قد قتل هايل حسدا منه له حين خصه آدم بتزويج أخته إقليا ، فخاف عليه أيضا أن يقتله حين خصه آدم بالعلم ، فأخفى شيث وولده ما عندهم من الوصية ، فلم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به .

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لما أخرج الله ذرية آدم من ظهره فجعل يعرضهم على آدم ، فإذا قوم عليهم النور ، فقال يا رب من هؤلاء الذين عليهم النور ؟ قال : هؤلاء الأنبياء والرسل ، وإذا فيهم رجل يزعموه هو أضوؤهم نورا ، فقال : يا رب من هذا ؟ فقال ذلك داود ، فقال

يَا رَبِّ كَمْ عُمرُهُ؟ قَالَ سِتُونَ سَنَةً ، قَالَ : يَا رَبِّ زِدْهُ فِي عُمرِهِ ، قَالَ : لَا ، إِلَّا أَنْ تَزِيدَهُ أَنْتَ مِنْ عُمرِكَ ، فَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِأَعْمَارِ بَنِي آدَمَ ، وَكَانَ عُمرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَوَهَبَ لَهُ مِنْ عُمرِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَكَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ كِتَابًا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ ، فَلَمَّا مَضَى مِنْ عُمرِهِ تِسْعُمِائَةً وَسِتُونَ سَنَةً جَاءَ إِلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَهُ ، فَقَالَ آدَمُ : عَجَلْتِ عَلَيَّ يَا مَلَكُ الْمَوْتِ ، قَالَ : مَا فَعَلْتِ بَلْ أَنْتِ اسْتَوْفَيْتِ أَجَلَكَ ، قَالَ آدَمُ : قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ، قَالَ : إِنَّكَ قَدْ وَهَبْتَهَا لِابْنِكَ دَاوُدَ ، قَالَ : مَا فَعَلْتِ وَلَا وَهَبْتِ لَهُ شَيْئًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَأَقَامَ الْمَلَائِكَةَ شُهودًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَكْمَلَ لآدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ وَأَكْمَلَ لِدَاوُدَ مِائَةَ سَنَةٍ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَّتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُودِ مِنْ يَوْمَئِذٍ .

قال ابن إسحاق وغيره : ثم إن آدم مات واجتمعت عليه الملائكة لأنه صني الرحمن ، فدفتته الملائكة وشيئ وإخوته في مشارق الفردوس عند قرية هي أول قرية كانت في الأرض وكُسفت عليه الشمس والقمر ستة أيام بلياليهن . فلما اجتمعت عليه الملائكة بعث الله إليه بحتوط وكفن من الجنة ، ووليت الملائكة غسله ودفنه ، فغسلته بالسدر والماء وترا ، وكفنوه في ثلاثة ثياب ، ثم لحدوا له ودفنوه ، ثم قالوا : هذه سنة ولد آدم من بعده . قال ابن عباس : فلما مات آدم قال شيث لجبريل صل على آدم ، فقال له جبريل : تقدم أنت فصل على أبيك ، فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة ، فأما خمس فهي الصلاة ، وأما خمس وعشرون فهي تفضيل لآدم . وقد اختلف في موضع قبره ، فقال ابن إسحاق : في مشارق الفردوس ، وقال غيره : دفن بمكّة ، وقيل في غار أبي قبيس ، وهو غار يقال له الغار الكبير .

وروى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : مات آدم على جبل نود بالهند ، وقال ابن عباس : لما كان أيام الطوفان حمل نوح تابوت آدم في السفينة ، فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس ، وكانت وفاة آدم يوم الجمعة ، وعاشت حواء بعده سنة ، ثم ماتت فدفنت مع آدم عليهما السلام ، والله أعلم .

باب في الخصائص التي خص الله بها آدم عليه السلام

قال الأستاذ : خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله خاتمة خلقه ، وخلقته في أحسن صورة ، وأقسم عليه فقال عز من قائل (وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونَ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) ولقنه الحمد حين عطس ثم قال له يرحمك ربك ، فسبّت له رحمته غضبه ، وأسكنه بعد خلقه الجنة بلا عمل ،

وأباح له جميع الجنة إلا شجرة واحدة ، وعلمه الأسماء كلها ، وأمر ملائكته بالسجود له وأمرهم بالتلقين ، وجعله أبا البشر ، وجعله خليفته في الأرض ، وعرف الملائكة فضله عليهم ، ولعن إبليس من أجله مع كثرة عبادته ، وعاتب الملائكة بسببه ، وهو أول حامد ، وأول نائب ، وأول مجتنب ، وأول مصطنع ، وأول خليفة لله في الأرض ، وهو المميز للأرواح الحبيثة من الطيبة ، وهو الباعث يوم القيامة بعث النار من ذريته ، فهذه ثلاث وعشرون خصلة من خصائصه صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ، والله أعلم :

مجلس في ذكر نبي الله إدريس عليه السلام

قال الله تعالى (واذكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) قال أهل العلم بأخبار الماضين وقصص النبيين : هو إدريس بن برد ، وقيل ياريد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ، واسمه أخنوخ ، وسمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث ، وأمه أشوت ، وكان إدريس أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، بعثه الله إلى ولد قابيل ثم رفعه إلى السماء ؛ وكان سبب رفعه إلى السماء على ما قاله ابن عباس وأكثر الناس ، أنه سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس ، فقال : يا رب إني مشيت في الشمس يوما فتأذيت ، فكيف بمن يحملها خمسمائة عام في يوم واحد ، اللهم خفف عنه ثقلها ، واحمل عنه حرها . فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها ما لا يعرف ، فقال : يا رب خففت عني حر الشمس ، فما حال الذي قضيت عليّ فيه ، فقال تعالى : إن عبدى إدريس سألتني أن أخفف عنك ثقلها وحرها فأجبتني إلى ذلك ، فقال : يا رب اجمع بينى وبينه واجعل بينى وبينه خلة ، فأذن الله له ، فكان إدريس يسأله ، وكان مما سأله أن قال : أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وأمكنهم عنده ، فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى فأزداد شكرا وعبادة ، فقال الملك (لا يُؤَخَّرُ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) قال : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى ، فقال : أنا مكلمه لك ، وما كان يستطيع أن يفعل لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك ، ثم حمله الملك على جناحه حتى رفعه إلى السماء ووضعته عند مطلع الشمس ؛ ثم إنه أتى إلى ملك الموت فقال له : لى إليك حاجة ، فقال له أفعل لك كل شىء أستطيعه ، فقال : لى صديق من بنى آدم تشفع بى إليك لتؤخر أجله ، فقال : ليس ذلك لى ، ولكن إن أحببت أعلمته أجله ومتى يموت ، فيتقدم فى نفسه ، قال نعم ، فنظر فى ديوانه فأخبره باسمه ، وقال : إنك كلمتني فى إنسان ما أراه يموت أبدا ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لى لأجده يموت عند مطلع الشمس ، قال : فإنى أتيتك وتركه هناك ، فقال له : فانطلق فلا أراك تجده إلا وقد مات ، والله ما بقى من أجل إدريس شىء ، فرجع الملك فوجده ميتا .

قال وهب بن منبه : كان يرفع له كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض جميعهم في زمانه ، فتعجبت منه الملائكة ، واشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن الله في زيارته فأذن له ، فأتاه في صورة بني آدم ، وكان إدريس يصوم الدهر ، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه ، فأبى أن يأكل ، وفعل ذلك ثلاث ليال ، فأنكره وقال له في الليلة الثالثة : إني أريد أن أعلم من أنت ؟ قال : أنا ملك الموت استأذنت ربي أن أزورك وأصاحبك فأذن لي في ذلك ، فقال له إدريس : لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قال : اقبض روحي ، فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحي ، فقبض روحي ثم ردها الله عليه بعد ساعة ، فقال له ملك الموت : فما الفائدة في سؤالك قبض الروح ؟ قال : لأذوق كرب الموت وعمه فأكون له أشد استعدادا ، ثم قال له : لي إليك حاجة أخرى ، قال : وما هي ؟ قال : ترفعي إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة ، فأذن له في ذلك ، فلما قرب من النار قال : لي إليك حاجة ، قال : وما تريد ؟ قال : تسأل رضوان يفتح لي أبواب الجنة حتى أراها ، ففعل ذلك ثم قال : فكما أريتني النار فأرني الجنة ، فذهب به إلى الجنة ، فاستفتحها ففتحت له أبوابها فدخلها ، فقال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرك ، فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها ، فبعث الله ملكا حكما بينهما ، فقال له الملك مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وقد ذقته ، وقال تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) وقد وردتها ، وقال تعالى (وَمَا لَهُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) فليست أخرج ، فقال الله تعالى لملك الموت دعه ، فإنه بإذني دخل الجنة وبأمرى لا يخرج ، فهو حي هناك ؛ فتارة يعبد الله في السماء الرابعة ، وتارة يتنعم في الجنة ، والله أعلم .

قصة هاروت وماروت

قال الله تعالى (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ) الآية . قال أهل التفسير : إن الشياطين كتبوا السحر والسيرنجيات على لسان آصف في مدة زوال ملك سليمان : هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك ، ثم دفنوها تحت مصلاه ولم يشعر بذلك سليمان ، فلما مات سليمان استخرجوها من تحت مصلاه وقالوا للناس : ما ملككم سليمان إلا بهذه . قال السدي : وذلك أن شيطانا تمثل على صورة إنسان ، فأتى نفرا من بني إسرائيل فقال : هل أدلكم على كنز لا ينفد أبدا ؟ قالوا نعم ، قال : فاحفروا تحت كرسي سليمان وذهب معهم فأراهم المكان ، وقام ناحية فقالوا له : ادن ، فقال لا ، ولكني ههنا فإن لم تجدوه هاقتلوني ، وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق ، فحفروا فوجدوا تلك الكتب ؛ فلما أخرجوها قال الشيطان : إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطيور بهذا ، ثم طار الشيطان وذهب . فأما علماء بني إسرائيل

وصلحواؤهم فقالوا: متعاذ الله أن يكون هذا علم سليمان ، فإن كان هذا علمه فقد هلك سليمان . وأما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم ، فأنزل الله هذه الآية ، إظهارا لعذر سليمان وبيانا لبراءته ، فهذه قصة الآية .

(وأما قصة هاروت وماروت) فقال المفسرون : إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك في زمن إدريس النبي عليه السلام ، عبروهم بذلك وأنكروا عليهم وقالوا : هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض واخترتهم فهم يعصونك ، فقال تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلمت مثل ما فعلوا ، قالوا : سبحانك ربنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك ، قال الله تعالى : اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض ، فاختروا هاروت وماروت ، وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم . قال الكلبي : قال الله تعالى : اختاروا ثلاثة منكم فاختروا عزا وهو هاروت وعزاييا وهو ماروت وعزريائيل ، وإنما غير اسميهما لما اقترفا من الذنوب كما غير الله اسم إبليس وكان اسمه عزازيل ، فركب الله تعالى فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم وأهبطهم إلى الأرض ، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر .

فأما عزريائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه استقال ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه وسجد أربعين سنة ثم رفع رأسه ، ولم يزل بعد ذلك مطأطئا رأسه حياء من الله تعالى . وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما ، فاذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم وصعدا إلى السماء . قال قتادة : فامر عليهما شهر حتى افتتنا ، وذلك أنه لختصم إليهما ذات يوم الزهرة ، وكانت من أجمل النساء . قال علي رضي الله عنه : كانت من أهل فارس ، وكانت ملكة في بلدها ، فلما رأياها أخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ، ثم عادت في اليوم الثاني ففعلتا مثل ذلك ، فقالت لا ، إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر . فقالا : لاسبيل إلى هذه الأشياء فإن الله قد نهانا عنها ، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي نفسها من الميل إليهما ما فيها ، فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا : الصلاة لغير الله أمر عظيم ، وقتل النفس عظيم ، وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها فرأهما إنسانا فقتلاه . قال الربيع بن أنس : وسجدا للصنم ، ففسخ الله الزهرة كوكبا . وقال علي رضي الله عنه والسدي والكاسبي : إنها قالت لا تدركاني حتى تعلماني الذي تصعدان به إلى السماء ، فقالا : نصعد باسم الله الأعظم ، فقالت : فما أنتما بمدركي حتى تعلمانيه ، قال أحدهما لصاحبه : علمها ، فقال : إني أخاف الله ، فقال الآخر : فأين رحمه الله تعالى ؟ فعلمها ذلك ، فتكلمت به وصعدت إلى السماء ففسخها الله تعالى كوكبا . قال الأستاذ: فعلى قول هؤلاء هي الزهرة بعينها . وقال آخرون: هو

هذا الكوكب الأحمر ، واسمها بالفارسية ناهيد ، وبالقبطية بادخت . يدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به يحيى بن إسماعيل بأسناده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى سهيلاً قال « لَعَنَ اللَّهُ سَهَيْلاً إِنَّهُ كَانَ عَشَاراً بِالْيَمَنِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ الزُّهْرَةَ فَإِنَّهَا فَتَنَتْ مَلَكَئِينَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ » .

وقال مجاهد : كنت مع ابن عمر ذات ليلة فقال لي : ارمق الكوكب : يعني الزهرة ، فإذا طلعت فأيقظني ، فلما طلعت أيقظته ، فلما نظر إليها سبها سباً شديداً ، فقلت : يرحمك الله تسب نجماً ساطعاً مطيعاً؟ فقال : إن هذه كانت بغياً فلقى الملكان منها ما لقيها ، وكذلك قال ابن عباس . وأنكر الآخرون هذا القول وقالوا : الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي جعلها الله تعالى قيوماً للعباد وأقسم بها فقال تعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِي الْكُنُوسِ) وإنما كانت التي فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زهرة بلجامها ، فلما زنت مسخها الله شهاباً ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الزهرة ذكر تلك المرأة الموافقة لهذا الاسم فلعبها ، وكذلك سهيل العشار كان رجلاً ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النجم الموافق اسمه لاسم هذا الرجل لعنه ، يدل عليه ما روى قيس بن عباد عن ابن عباس في هذه القصة قال : كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب ، قالوا : فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فعلما ما حل بهما ، فقصدتا إلى إدريس عليه السلام ، فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى وقالاه : إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض ، فاشفع لنا إلى الله تعالى ، قال : ففعل إدريس ذلك ، فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع ، فهما يبابل يعذبان .

واختلف العلماء في كيفية عذابهما ، فقال ابن مسعود : هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة . وقال مقاتل : كبلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما . وقال مجاهد : ملئ جب نارا فجعلنا فيه . وقال عمرو بن سعيد : هما معلقان منكسان في السلاسل بضربان بسياط الحديد .

وروى أن رجلاً قصدهما لتعلم السحر ، فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودة وجوههما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربعة أصابع وهما يعذبان بالعطش ، فلما رأى ذلك هاله مكانهما ، فقال : لا إله إلا الله ، فلما سمع كلامه قال : لا إله إلا الله من أنت ؟ قال : رجل من الناس ، قال له : ومن أي أمة أنت ، قال : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : أو بعث محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، فحمدنا الله تعالى وأظهرنا الاستبشار ، فقال الرجل : ومم استبشاركما ؟ قال : إنه نبي الساعة ، وقد دنا انقضاء عذابنا .

وروى هشام عن عائشة أنها قالت : قدمت امرأة من دومة الجندل جاءت تبغى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر وما تعمل به ، فقالت عائشة لعروة : يا بن أخي فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت تبكى حتى رحمتها ، ثم قالت : إني أخاف أن أكون قد هلكت ، ثم قالت : كان لي زوج غاب عني ، فدخلت على عجوز فشكوت لها ذلك ، فقالت : إن فعلت ما أمرك به جعلته يأتيك ، فلما كان الليل جاءني بكلين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت هي الآخر ، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل ، وإذا برجلين معلقين بأرجلهم ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلم السحر ، فقالا : إنما نحن فتنة فلا تكفري فارجعي من حيث أتيت ، فقلت لا ، قالا : فاذهي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت لأبول ففرغت فلم أفعل ، فرجعت ، فقالا : فعلت ؟ قلت نعم ، فقالا هل رأيت شيئا ؟ فقلت : لم أر شيئا ، فقالا : لم تفعل شيئا ، فارجعي إلى بلادك ولا تكفري ، فأبيت ، فقالا : اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت فاقشعر جلدي وخفت ، ثم رجعت إليهما فقلت : قد فعلت ، فقالا : ما رأيت ؟ قلت : لم أر شيئا ، قالا كذبت لم تفعل ، فارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك ، فقلت لا ، فقالا لي : اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه ، فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارسا مقنعا بحديد خرج مني حتى ذهب في السماء وغاب حتى ما أراه ، فجشمتها فقلت : قد فعلت ، قالا : فما رأيت ؟ قلت : رأيت فارسا مقنعا بالحديد خرج مني وذهب في السماء فلم أراه ، قالا : صدقت ، ذلك إيمانك خرج منك فاذهي ، فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئا ولا قالا لي شيئا ، فقالا : لا تريدن شيئا إلا كان . خذي هذا القمح فابذريه فبذرتة ، ثم قلت له اطلع فطلع ، فقلت له انحصد فحصد ، فقلت انفرك ففرك ، ثم قات انطحن فطحن ، ثم قلت انخبز فخبز . فلما رأيت أني لأرئد شيئا إلا كان سقط في يدي فرجعت وندمت ، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئا قط ولا أفعله أبدا .

قال الأوزاعي : بلغني أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا جبريلُ صِف لي النارَ ، فقال : إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت . ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ جمرها ولا يخمدها ، والذي بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لما تواجبوا جميعا ، ولو أن ذنوبا من شرابها صب في ماء الأرض جميعا لقتل من ذاقه ، ولو أن حلقة من السلسلة التي ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعا لذابت وما استقلت ، ولو أن رجلا دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه ، فبكى النبي صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل لبكائه وقال : أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبدا شكورا ، وبكى جبريل ، فقال : يا جبريلُ

أَتَبَكَّى وَأَنْتَ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، أَمِينُ اللَّهِ عَلَيَّ وَحَبِيْبِي ، قَالَ : أَخَافُ أَنْ أَتَبَلَى بِمَا أَتَبَلَى بِهِ هَارُوتُ وَمَارُوتُ ، فَهَذَا الَّذِي مَنَعَنِي مِنْ اتِّكَالِي عَلَى مَنزَلَتِي عِنْدَ رَبِّي فَأَكُونُ قَدْ أَمَنْتُ مَكْرَهُ ، فَلَمْ يَزَالَا يَبْكِيَانِ حَتَّى نَوْدِيَا مِنَ السَّمَاءِ : يَا جَبْرِيْلُ وَيَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَّنَكَمَا مِنْ غَضَبِهِ فَلَا يَعْذِبُكُمَا ، وَإِنْ فَضَّلَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ كَفَضَّلَ جَبْرِيْلُ عَلَى سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ .

مجلس في قصة نوح عليه السلام

قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام (واتلُ عليهم نبأ نوحٍ إذ قال لقومِهِ الآية). وهو نوح بن كَلَمَك بن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث عليه السلام ، وأمه قينوش بنت راكميل ، وقيل بنت كابيل بن مخوئيل بن أخنوخ ، أرسله الله تعالى إلى ولد قابيل ومن تابعهم من ولد شيث .

قال ابن عباس : وكان بطنان من ولد آدم أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان في رجال الجبل صباحة وفي نساءهم دمامة ، وكان في نساء السهل صباحة وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام ، فأجر نفسه منه وكان يخدمه ، واتخذ إبليس شيئا مثل الذي يزمر به الرعاة ، فجاء منه بصوت لم يسمع الناس مثله ، فبلغ ذلك من حولهم ، فأثوم مستمعين إليه ، واتخذوه عيدا يجتمعون إليه في السنة ، فتبرج النساء للرجال والرجال هن ، وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم فرأى النساء وصباحتهن ، فجاء إلى أصحابه فأخبرهم بذلك ، فتحولوا إليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهم ، وهو قوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .

قال ابن عباس : كان آدم أوصى أن لا يناكح بنو شيث بنى قابيل ، فجعل بنو شيث آدم في مغارة وجعلوا عليه حفاظا لئلا يقربه أحد من أولاد قابيل ، وكان الذي يأتونه ويستغفر لهم بنو شيث . فقال مائة من بنى شيث ، صباح الوجوه : لو نظرنا ما فعل بنو عمنا : يعنون بنى قابيل ، فهبطت المائة إلى نساء السهل صباح الوجوه من بنات قابيل ، فاحتبس النساء الرجال ثم مكثوا ما شاء الله . فقال مائة أخرى : لو نظرنا ما فعل إخوتنا ؟ فهبطوا من الجبل إليهم فاحتبسهم النساء ، ثم هبط بنو شيث كلهم فظهرت المعصية وتناكحوا واختلطوا وكثر بنو قابيل حتى ملثوا الأرض وأكثروا الفساد ، فبعث الله إليهم نبيهم نوحا وهو ابن خمسين سنة ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله تعالى ويخوفهم بأسه ويحذرهم سطوته ، كما أخبر الله تعالى بقوله (رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدتهم دعائي إلا فیرارا) وقال تعالى (وقوم نوح من قبل إلهم كانوا هم أظلم وأطغى) وقال تعالى (وقوم نوح من قبل إلهم كانوا قوما فاسقين) .

وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : إن نوحا كان يضرب ثم يلف في لبد ، ثم يلقى في بيته فيرون أنه قد مات ، ثم يخرج فيدعوهم حتى آيس من إيمان قومه ، فبعد ذلك جاء رجل ومعه ابنه يتوكأ على عصا ، فقال : يا بني انظر إلى هذا الشيخ إياك أن يغرّك ، فقال : يا أبت مكنى من العصا ، فأعطاه العصا ، فقال ضغنى في الأرض ، فوضعه فمشى إليه ، فضربه بالعصا ، فقال نوح : رب قد ترى ما يصنع بي عبادك ، فإن يكن لك في عبادك حاجة فاهدّم ، وإن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين ، فأوحى الله إليه (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) فأبسه من إيمان قومه ، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا أرحام النساء مؤمن ، فعند ذلك دعا عليهم وقال (رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي) الآية ، إلى قوله (وَلَا تَذَرُنَّ وِدَاوِلَا سُوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) وهى أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها من دون الله ، وقوله تعالى (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) وقوله تعالى (وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا) : أى هلاكاً ودماراً ، فأجاب الله دعاءه وأمره أن يصنع الفلك كما قال تعالى (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) الآية . قال نوح : يارب وما الفلك ؟ قال : بيت من خشب يجرى على وجه الماء حتى أغرق أهل المعصية وأريح أرضى منهم ، قال نوح : يارب أين الماء ؟ قال : يا نوح إني على ما أشاء قدير ، قال نوح : يارب وأين الخشب ؟ قال : اغرس الشجر ، فغرس الساج ، وأتى على ذلك أربعون سنة ، وكف في تلك المدة عن الدعاء ، فلم يدعهم ، فأعقم الله تعالى أرحام نساءهم فلم يولد لهم ولد ، فلما أدرك الشجر أمره ربه أن يقطع الشجر فقطعه وجففه ثم قال : يارب كيف أتخذ هذا البيت ؟ قال : اجعله أزور على ثلاثة صور : رأسه كرأس الديك ، وجوفه كجوف الطير ، وذنبه كذنب الديك مائلاً ، واجعلها مطبقة ، واجعل أبوابها في جنبها ، واجعلها ثلاث طبقات ، واجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً ، والذراع إلى المنكب ، هذا قول أهل الكتاب : ثم بعث الله جبريل يعلم نوحاً صنعة الفلك ، وكان نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيئ عدة الفلك من القار وغيره ، وكان قومه يمرون عليه وهو في عمله فيسخرون منه ويقولون : يا نوح قد صرت نجاراً بعد النبوة ، ثم يقولون : ألا ترون إلى هذا المجنون يتخذ بيتاً يسير به على الماء ويضحكون منه ، وذلك قوله تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) فيقول نوح (إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ لَهُ

عليه عذابٌ مُقيمٌ) وأوحى الله تعالى إلى نوح أن عجل صنعة الفلك ، فقد اشتد غضبي على من عصاني ، فاستأجر نوح أجراً يعملون معه ، وأولاده سام وحام ويافت ينحتون معه السفينة ، فجعل السفينة طولها سبعمائة وستون ذراعاً ، وعرضها ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثة وثلاثون ذراعاً ، هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك ، وطلأها بالقار داخلها وخارجها ، وشدها بالدر وهو مسامير الحديد ، وذلك قوله تعالى (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَنْوَابِ وَدُسْرٍ) وفجر الله له عين القار بجانب السفينة تغلي غليانا حتى طلأها به ؛ فلما فرغ من صنع السفينة أوحى الله إليه : أن احمل فيها من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كلها حتى لا ينقطع نسلهم ، وحشرها الله إليه من البر والبحر والسهل والجبل ، وقد جعل الله فوران التنور آية بينه وبين نوح ، وعهد الله إليه فقال : إذا رأيت التنور فار ، فاركب أنت ومن معك على الفلك واحمل فيها من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) أي عذابنا وهو الطوفان (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) الآية .

واختلف العلماء في قوله تعالى (وفار التنور) قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يعني طلع الفجر ونور الصبح . وقال ابن عباس : انبجس الماء من وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورا . وقال قتادة : التنور أشرف موضع في الأرض وأعلى مكان فيها . وقال الحسن : أراد بالتنور الذي يخبز فيه ، وكان تنورا من حجارة ، وكان لآدم ثم انتقل إلى نوح ، فقبل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك فنبع الماء من التنور ، فعلمت به امرأته فأخبرته ، واختلفوا في موضعه ، فقال مجاهد : كان ذلك في ناحية الكوفة .

وروى السدي عن الشعبي أنه كان يحلف بالله ما فار التنور إلا في ناحية الكوفة ، وقال : اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة ، وكان التنور عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران الماء علما لنوح ودليلا على هلاك قومه . وقال مقاتل : ذلك تنور آدم وإنما كان بالشام في موضع يقال له عين ورد . وقال ابن عباس : كان التنور بالهند ، والفوران هو الغليان ، فلما رآه نوح أيقن بنزول العذاب ، فحمل من كل زوجين اثنين من أنواع الحيوانات كما أمره الله تعالى .

قال ابن عباس : أرسل الله المطر أربعين يوما وليلة ، فأقبلت الوحوش والطيور والدواب إلى نوح حين أصابها المطر وسخرت له ، فحمل منها من كل زوجين اثنين ؛ فكان أول ما حمل نوح في الفلك من الدواب الذرة وآخر ما حمل الحمار ، فلما دخل الحمار بصدرة تعلق إبليس بذنبه فلم تستقل رجلاه ، فجعل نوح يقول ادخل ، فينهض فلا يستطيع ، حتى قال : ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك كلمة زل بها لسانه ؛ فلما قالها نوح خلى

الشیطان سبيله ، فدخل ودخل الشیطان معه ، فقال له نوح : ما أدخلك يا عدو الله ؟ فقال :
لم تقل ادخل ولو كان الشیطان معك ؟ قال : اخرج يا عدو الله ، قال : ما أخرج وما كان
بد لك أن تحملني معك ، وكان فيما يزعمون على ظهر الفلك .

قال مالك بن سليمان الهروي : إن الحية والعقرب أتيا نوحا فقالا : احملنا ، فقال : إنكم
سبب الضر والبلايا فلا أحملكما ، قالا : احملنا ونحن نضمن لك أن لانضر أحدا ذكرك ،
فن قرأ حين يخاف مضرتهما (سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّنَا كُنَّا لِنَكْتُمِبُكَ تَنْجِزِي
الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) ، لم يضراه .

عن وهب بن منبه قال : لما أمر الله تعالى نوحا أن يحمل من كل زوجين اثنين قال :
كيف أصنع بالأسد والبقر ، وكيف أصنع بالعنق والذئب ، وكيف أصنع بالحمام والهر ؟
قال الله تعالى له : من أتى بينهم العداوة ؟ قال : أنت يا رب ، قال : فأنا أولف بينهم حتى
لا يتضاروا ، فحمل نوح السباع والدواب في الطبقة الأولى ، فألقى الله على الأسد الحمى
وشغله بنفسه عن الدواب والبقر ولذلك قيل :

وما الكلب محموما وإن طال عمره لعمرك ما المحموم دوما سوى الأسد

وجعل الوحوش في الطبقة الثانية وركب هو ومن معه من أولاد آدم في الطبقة العليا
وجعل الذرة معه في الطبقة العليا شفقة عليها لئلا يقتلها شيء .

واختلفوا في أهل السفينة الذين ذكرهم الله تعالى في قوله تعالى (وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ
سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) . قال الضحاک : كان نوح إذا أراد أن ترسو السفينة قال :
بسم الله فرست ، وإذا أراد أن تجرى قال : بسم الله فجرت على الماء ، فذلك قوله تعالى
(بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا) الآية (وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) من هم
وكم هم ؟ قال قتادة : لم يكن في السفينة إلا نوح وامراته وثلاثة من بنيه سام وحام ويافث
ونسائهم ، فجميعهم ثمانية ، فأصاب حام امرأته في السفينة ، فدعا نوح ربه ، قال :
فتغيرت نطفته فجاء بالسودان .

قال الكلبي : أمر نوح أن لا يقرب ذكر أنثى ما دام في السفينة فوثب الكاب على الكلبة
فدعا عليه نوح ، فقال نوح : اللهم اجعله عسرا . وقال الأعمش : كانوا سبعة : نوح
وثلاثة بنين وثلاث كنانن له . وقال ابن إسحاق كانوا عشرة سوى نسائهم وهم : نوح وبنوه
سام وحام ويافث ، وستة إناث ممن كانوا معه وأزواجهم جميعا . وقال مقاتل : كانوا
سبعين ونوح وامراته وبنوه الثلاثة ونسائهم ، فكان الجميع ثمانية وسبعين نفسا نصفهم
نساء ونصفهم رجال . وقال ابن عباس : كانوا ثمانين إنسانا ، وحمل نوح جسد آدم معه
وجعله مضا حازما بين الرجال والنساء .

قالوا : فلما ركب نوح في الفلك وأدخل معه كل من آمن كان ذلك في شهر آب بالرومية ، فلما دخل وحمل معه من حمل تحركت ينابيع الأرض والغيوط الأكبر ، وأمطرت السماء كأفواه القرب كما قال تعالى (ففَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَّرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) يعني التقى ماء السماء وماء الأرض فجعل الماء ينزل من السماء وينبع من الأرض حتى كثر واشتد ، وكان بين إرسال الماء وبين احتمال الماء الفلك أربعين يوماً وليلة ، ثم احتمل الماء الفلك ، وكان كنعان بن نوح تخلف عن أبيه . قال قتادة : لم يركب السفينة فناده نوح (وَكَانَ فِي مَعَزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ) قال ساوي إلى جبل بعصميني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم (وكان عهد كنعان بالجبال أنها تحصن من المطر فظن ذلك كما كان ، فقال نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) وكثر الماء فارتفع فوق الجبال . قال ابن عباس : ارتفع على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً .

وروت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنه لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم المرأة أم الصبي » وذلك أنها خشيت عليه من الماء وكانت تحبه حباً شديداً ، فخرجت به إلى الجبل حتى بلغت قلته ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل وحملت الصبي ، فلما بلغ رقبته رفعت يديها حتى ذهب بهما الماء ، فلو رحم الله أحداً منهم لرحم هذه . قالوا : ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ودارت بالحرم أسبوعاً ، وقد رفع الله البيت الذي كان يحججه آدم صيانة له من الفرق ، وهو البيت المعمور ، وخبأ جبريل الحجر الأسود في جبل أبي قبيس . فلما طافت السفينة بالحرم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودي ، وهو جبل حصين من أرض الموصل ، فاستقرت عليه . قال مجاهد : تشاخصت الجبال وتناولت لئلا ينالها ماء ، فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً ، وتواضع لأمر ربه الجودي ، فلم يفرق ، فأرست السفينة عليه ، فذلك قوله تعالى (واستوت على الجودي) .

وقال ابن عباس : استوت السفينة على الجودي ، وقد باد ما على وجه الأرض من الكفار كل شيء فيه الروح والأشجار ، فلم يبق شيء من الحيوانات إلا نوح ومن معه في الفلك وإلا عوج بن عنتق ، فذلك قوله تعالى (وقيل بُعداً للقوم الظالمين) أي هلاكاً . قال ابن عباس : كان عوج يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ، فقال لنوح : احملني معك فقال : اخرج يا عدو الله ، فإني لم أؤمر بحملك ، وطبق الله الماء على وجه الأرض والجبال

وما بلغ ركبي عوج بن عنق . فلما استوت السفينة على الجودي (قيل يا أرض ابلعي ماءك) أي انشقي (ويا سماء اقلعي) أي احبسي ماءك (وغيض الماء) أي ذهب ونقص ، فصار ما نزل من السماء هذه البحور التي في الأرض ، لأنها آخرا ما بقي في الأرض من ماء الطوفان ، وبقي في الأرض أربعين سنة ثم ذهب .

وروى عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها ، فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كئيب من تراب ، فأخذ كفا من ذلك التراب ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : هذا سام بن نوح ، قال : ثم ضرب الكئيب بعصاه وقال له : قم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب ، فقال له عيسى : أهكذا هلكت ؟ قال : لا ، بل مت وأنا شاب ، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثم سبت ، فقال له : حدثنا عن سفينة نوح ، قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير ، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمر ذنب القيل ، فغمزه فوق منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث فأكلاه ، فلما كثرت الفأر في السفينة وجعل يقرض حبالها ، وذلك أنه توالد في السفينة أوحى الله تعالى إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد ، فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبلا على الفأر فأكلاه . فقال له عيسى : كيف علم نوح أن البلاد قد يبست ؟ قال : بعث نوح غرابا يأتيه بالخبر ، فوجد جيفة فوق عليها واشتغل عن الرجوع ، فدعا عليه نوح بالخوف فلذلك لا يألف البيوت ، ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمقارها وطين برجلها ، فلم أن البلاد قد جفت ، قال : فطوقها بالخرصة التي في عنقها ، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان ، فمن ثم تألف البيوت ، فقالوا : يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لارزق له ؟ ثم قال له عُدْ بإذن الله تعالى ، فعاد ترابا .

قال أهل التاريخ : أرسل الله الطوفان لثلاثة عشر يوما خلت من آب ومضى ستمائة سنة من عمر نوح ، ولتتمة ألبى سنة ومائة سنة وست وخمسين سنة من لدن أهبط آدم إلى الأرض وركب نوح ومن معه في السفينة لعشر خلون من رجب ، وخرجوا منها في العاشر من المحرم ، فلذلك سمي يوم عاشوراء ، وأقاموا في الفلك ستة أشهر . فلما هبط نوح ومن معه من الفلك سالمين ، صام نوح وأمر جميع من معه من الإنس والوحوش والدواب والطير فصاموا شكرا لله تعالى . ويقال : إن نوحا وقومه كانت قد أظلمت عليهم أعينهم في السفينة من دوام النظر إلى الماء ، فأمروا بالاكتحال يوم عاشوراء الذي خرجوا فيه من السفينة .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ اِكْتَحَلَ بِالْإِثْمِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ لَمْ تَرْمَدْ عَيْنُهُ أَبَدًا » . فلما خرج نوح ومن معه من السفينة اتخذ

في ناحية من أرض الجزيرة موضعا وابنتي هناك قرية سموها سوق ثمانين لأنه كان ابنتي فيها لمن آمن معه وهم ثمانون فهي اليوم تسمى سوق ثمانين ، فأوحى الله تعالى إلى نوح إنه لا يعود الطوفان إلى الأرض أبدا ، وعاش نوح بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة ، فكان جميع عمره ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم قبضه الله تعالى إليه ، هذا هو أكثر أقاويل العلماء وكذلك هو في التوراة . وقال عون بن أبي شداد : عاش نوح بعد الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاما ، وقبله ثلاثمائة وخمسين سنة ، فعلى هذا القول يكون مبلغ عمر نوح ألفا وثلاثمائة سنة .

ويروى أنه قيل لنوح لما احتضر كيف وجدت الدنيا ؟ قال : كبيت له بابان : دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . ولما حضرته الوفاة أوصى ابنه ساما وجعله ولي عهده ، وكان وليد له سام قبل الطوفان بثمان وسبعين سنة . وقيل لما حضرته الوفاة دعا ابنه ساما وهو بكره فقال : يا بني أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين . فأما اللذان أنهاك عنهما فالإشراك بالله والكبر ، فإنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من الشرك والكبر . وأما اللذان أوصيك بهما فإني رأيتهما يكثران الولوج إلى الله تعالى : قول لا إله إلا الله وسبحان الله ، فإن قول لا إله إلا الله لو جمعت السموات السبع والأرضون السبع لخرقتهما حتى تبلغ إلى ربها ، ولو جعلت لا إله إلا الله في كفة ميزان لرجحت بالسموات السبع والأرضين السبع وما فيها ، وأوصيك بسبحان الله ، فإنها صلاة الخلق وبها يرزقون .

ذكر خصائص نوح عليه السلام

وهي خمس عشرة خصلة : لم يسم أحد من الأنبياء باسمه ، وسمى بذلك لكثرة نوحه على نفسه ، وكان أول نبي من أنبياء الشريعة ، وأول داع من الله تعالى ، وأول نذير عن الشرك ، وأول من عذبت أمته لردهم دعوته ، وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه . ويقال إن الله تعالى أوحى إليه بعد الطوفان : إني خلقت خلقي وأمرتهم بطاعتي ، فأنهكوا مصيبي فاشتد لذلك غضبي ، فعذبت بذنوب العاصين من لم يعصني ، وعذبت بذنوب بني آدم جميع خلقي ، فبي حلفت إني لأعذب مثل هذا العذاب أحدا من خلقي بعدها ، ولكن أجعل الدنيا دولا بين عبادي ثم أجزيهم بأعمالهم إذا اجتمعوا عندي . وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمرا ، وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين ، وجعل معجزته في نفسه لأنه عمر ألف سنة ، ولم ينقص له سن ولم ينقص له قوة ، ولم يبالغ أحد من الرسل في الدعوة مثل ما بالغ ، وكان يدعو قومه ليلا ونهارا وإعلانا وإسرارا ، ولم يبق نبي من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والحفاء ما لقي ، فلذلك قال الله تعالى (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ لَإِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) وجعل ثاني المصطفى صلى الله عليه وسلم في الميثاق والوحي ، قال الله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ) وقال تعالى

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) . وفي البعث هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعطاه الفلك وعلمه صنعته وحفظه بما فيه وأجراه فوق الماء وسماه شكورا ، فقال تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) وأكرمه بالسلامة والبركة ، فقال تعالى (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّيْمِنٍ مَعَكَ) الآية .

قال محمد بن كعب القرظي : دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وجعل ذريته هم الباقين ، فهو أول البشر وأصل النسل .

وروى عن الحسن بن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وُلِدَ لِنُوحٍ ثَلَاثَةٌ سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ ، فَسَامٌ أَبُو الْعَرَبِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ ، وَحَامٌ أَبُو السُّودَانِ ، وَيَافِثٌ أَبُو التُّرْكِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ . »

قال عطاء : ودعا نوح على حام أن لا يعدو شعر ولده آذانهم ، وحيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . فلما هبط نوح وذريته من الفلك قسم الأرض بين ولده أثلاثا ، فجعل لسام وسط الأرض ، ففيها بيت المقدس والنيل والفرات ودجلة وسيحون وجيحون ، وذلك ما بين قيسون إلى شرقي النيل ، وما بين مجرى الجنوب إلى مجرى الشمال . وجعل لحام قسمه غربي النيل ، وما بين مجرى ربيع الجنوب وما وراءه إلى سيحون إلى مجرى ربيع الدبور . وجعل قسم يافث من قيسون فما وراءه إلى مجرى الصبا ، فذلك قوله تعالى (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامًا عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) .

مجلس في قصة هود عليه السلام

قال الله تعالى (وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) إلى (تَتَّقُونَ) وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وهو عاد الأولى كانوا ينزلون اليمن ، وكانت منازلهم منها بالشحر والأحقاف كما قال الله تعالى (واذكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ) الآية ، وهو رمال يقال لها رمل عالج ، وهو ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشقوا في الأرض وكثروا وقهروا أهلها لفضل قوتهم التي آتاهم الله تعالى ، وكان قد أعطاهم الله من القوة والقامة ما لم يعط غيرهم كما قال الله تعالى (واذكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً) أي عظما وطولا وقوة وشدة . قال أبو حمزة اليماني : كان طول كل رجل منهم سبعين ذراعا . وقال ابن عباس : ثمانين ذراعا . وقال الكلبي : كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا . وقال وهب : كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة ، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها

السباع ، وكذلك مناخرهم ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله تعالى ، فنها صنم يقال له صدى وصنم يقال له هرد وصنم يقال له هبا ، فبعث الله إليهم هودا نبيا ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص ابن لرم بن سام بن نوح . وقال محمد بن إسحاق بن يسار : وهود بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، وولد لشالخ عابر بعد أن مضى من عمره ثلاثون سنة ، فأمرهم هود أن يوحدوا الله تعالى ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ، ولم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك ، فأبوا ذلك عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ، وبنوا المصانع وبتشوا فيها بطش الجبارين ، كما قال الله تعالى (أَتَبْسُوتُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) فلما فعلوا ذلك أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى أضر بهم ذلك ، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد طلبوا من الله تعالى الفرج ، وكان طلبهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم ، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى مختلفة أديانهم ، وكلهم معظم لمكة عارف بحرمتها ومكانتها عند الله تعالى وأهل مكة يومئذ العماليق . وإنما سموا العماليق لأن أباهم عمليق بن سام بن نوح ، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجلا يقال له معاوية بن بكر ، وكانت أم معاوية اسمها ناهدة بنت الجبيرى رجل من عاد . فلما قحط المطر عن عاد جهدوا وقالوا : جهزوا منكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لكم ، فبعثوا منهم قيل بن عنز ولقيم بن هزال بن هزيل وعييل بن ضحج بن عاد الأكبر ومرثد بن سعد بن عفير وكان مسلما كتم إسلامه ، وجلهمة بن الجبيرى خال معاوية بن بكر ، ثم بعثوا أيضا لقمان ابن عاد بن ضد بن عاد الأكبر ، فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلا ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارج الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم ، وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر ، وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا . فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يستغيثون من البلاء الذى أصابهم شق ذلك عليه وقال : هلك أخوالى وأصهارى وهؤلاء مقيمون عندى وهم ضيقى ، والله ما أدرى كيف أصنع بهم ، فأستحيى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا إليه ، فيظنون أنه ضيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك من وراءهم قومهم جهدا وعطشا ، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينته الجرادتين ، فقالتا له : قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله ، لعل ذلك يحركهم ، فقال معاوية بن بكر :

ألا يا قيلُ وبيحك قم فهينمُ لعلَّ الله يمنحنا غماما
فنتسقى أرض عادٍ إن عادا قد أمسوا لا يببينون الكلاما

من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم عيآى
وإن الوحش يأتيهم جهاراً ولا يخشى لعادى سهامها
وأنتم ههنا فيما اشتبهتم نهاركم وليلكم تماماً
فقبّح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنّهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض : يا قوم إنما بعثكم قومكم يستغيثون بكم
من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم ،
فقال مرثد بن سعد وكان قد آمن بهود عليه السلام سرا : إنكم والله لا تُسْقَوْنَ بدعائكم ،
ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم ، فأظهر إسلامه عند ذلك . قال جلهمة بن
الحبيري خال معاوية حين سمع قوله وعرف أنه قد تبع دين هود عليه السلام :

أبا سعد فإنك من قبيل ذوى كرم وأمك من ثمود
فإنا لأنطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريد
أتأمرنا لنترك دين رقد ورمل وآل ضد والعبود
ونترك دين آباء كبرام ذوى رأى وتبع دين هود

تم قال لمعاوية بن بكر وأبيه بكر وكان شيخا كبيرا : احبسا عنا مرثد بن سعد حتى
لا يقدم معنا مكة ، فإنه قد تبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا إلى مكة يستسقون لعاد بها .
فلما دخلوا مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعوا الله
بشيء مما خرجوا إليه . فلما انتهى قام يدعو الله ووفد عاد قد أخذوا يدعون ، فجعل يقول
اللهم أعطني سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شيء مما يدعو به وفد عاد . وكان قبيل بن عنز
رأس وفد عاد قد أمرهم أن يؤمنوا عليه ، فقال وفد عاد : اللهم أعط قبلا ما سألك واجعل
سؤالنا مع سؤاله ، وكان تخلف عن وفد عاد لقمان بن عاد ولم يدخل فى دعوتهم ، فقال :
اللهم إني جئتك وحدى فى حاجتى فأعطني سؤلى . وقال قبيل بن عنز حين دعا واستسقى :
اللهم لم أجدى لمريض فأداويه ولا لأسير فأفاديه ، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم يا إلهنا
إن كان هود صادقا فاسقنا فإننا قد هلكنا ، فأنشأ الله سحابا ثلاثا : واحدة بيضاء ، وواحدة
حمراء ، وواحدة سوداء ، ثم ناداه مناد من السحاب ألا يا قبيل اختر لنفسك واحدة من
هذه السحاب الثلاث ، فقال قبيل : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء ،
فناداه المنادى يقول : اخترت يا قبيل رمادا رمدا لم تبق من آل عاد أحدا لا ولدا تركه
ولا ولدا إلا جعلتهم رميا همدا إلا بنى اللويذة المهدى . وبنو اللويذة رهط من هزال بن
هزبل بن بكر ، وكانوا سكانا بمكة مع أخوالهم ، لم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد
الآخرة . فساق الله السحابة السوداء التى اختارها قبيل بما فيها من النعمة إلى عاد حتى خرجت
عليهم من واد لهم يقال له المغيث . فلما رأوها استبشروا بها (وقالوا هذا عارض ممطرنا)

فقال الله تعالى (بل هو ما استعجلتكم به ريب فيها عذاب اليم . تدمر كل شيء بأمر ربها) أى كل شيء مرت به ، وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريب مهلكة امرأة من عاد يقال لها مهدد ، فلما تبينت ما فيها من العذاب صاحت ثم صعقت ، فلما أفاقوا قالوا : ما رأيت ؟ قالت : رأيت ريحا فيها كسهب النار أمامها رجال يقودونها .

أخبرنا الحسن بن محمد بن الحسين ، أنبأنا محمد بن جعفر ، أنبأنا الحسن بن علوة ، أنبأنا إسماعيل بن عيسى ، أنبأنا إسحاق بن بشر ، أخبرني المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : أوحى الله تعالى إلى الريح العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنقم لهم ، فخرجت بغير كيل ولا وزن على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض مما يلي المشرق والمغرب ، قال : فقال الخزان : يا رب لن يطبقوها ولو خرجت على حالها لأهلك ما بين مشارق الأرض ومغاربها ، فأوحى الله إليها أن ارجعي فاخرجي على قدر خرمة الخاتم وهي الحلقة ، قال : فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما : أى دائمة متتابعة ، فلم تدع أحدا من عاد إلا أهلكته ، وكان هود ومن معه قد اعتزلوا في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم وتلدّ به الأنفوس ، وإنما من عاد لطن فتحملهم ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة حتى هلكوا .

قال محمد بن إسحاق والسدي : بعث الله على عاد الريح العقيم ، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض ، فتبادروا البيوت ، فلما دخلوها دخلت عليهم الريح فأخرجتهم منها فهلكوا ، فلما أهلكهم الله تعالى أرسل عليهم طيورا سودا لتلقيهم في البحر فألقهم فيه .

قال ابن بشار : لما خرجت الريح على عاد من الوادي قال تسعة رهط منهم أحدهم الخلجان وكان رئيسهم وكبيرهم في ذلك الزمان تعالوا حتى نقوم على رأس الوادي فردها ، فجعلت الريح تدخل تحت الواحد منهم ، فتحمله ثم ترمي به فيندق عنقه ، وكانت الريح تقلع الشجرة العظيمة بعروقها وتهدم عليهم بيوتهم وتقلعهم فتتركهم كما قال الله تعالى (كأنهم أعجاز نخل خاوية) حتى لم يبق منهم إلا الخلجان ، فال إلى الجبل ، فأخذ بجانب منه فهزه ، فاهتز في يده ثم أنشأ يقول :

لم يبق إلا الخلجان نفسه يا لك من يوم دهاني أمسه

ثبت الوطاء شديدا بطشه لو لم يجثنى جثته وحبسته

فقال له هود : ويحك يا خلجان أسلم تسلم ، فقال له : ما لي عند ربك إذا أسلمت ؟ قال : الجنة ، قال : فما هؤلاء الذين أراهم في السحاب كأنهم البُخْت ؟ قال هود : ذلك الملائكة ، قال : إن أسلمت أيقيدني ربك منهم لقومي ؟ قال : ويحك هل رأيت ملكا يقيد من جنوده ؟ فقال : لو فعل ما رضيت ، فجاءت الريح فألحقته بأصحابه وأهلكته ، وألقى الله عادا سوى من بقى من قومهم بمكة ونواحيها .

أخبرنا الحسين بن محمد الدينوري ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إسحاق السني ، أخبرنا أبو يعلى الموصلي ، أخبرنا إسحاق بن أبي إسرائيل وعبد الله بن عمر القواريري ، أخبرنا جعفر ابن سليمان الضبيعي ، أخبرنا فرقد السبخي ، عن عاصم ، عن عمر والبجلي ، عن أبي أمامة الباهلي ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَبِيْتُ قَوْمٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَهَوًى ، فَيُصْبِحُونَ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ ، وَيُصِيبُهُمْ خَسْفٌ وَقَذْفٌ ، فَيَقُولُونَ لَقَدْ خَسِفَ اللَّيْلَةَ بَيْتِي فَلَانٌ ، وَلَيْرْسَلَنَ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمُ الَّتِي أَهْلَكَتْ عَادًا بِشُرْبِهِمُ الْحَمْرَ وَأَكْلِهِمُ الرِّبَا وَاتِّخَاذِهِمُ الْقَيْنَاتِ وَلِبْسِهِمُ الْحَرِيرَ وَقَطْعِهِمُ الْأَرْحَامَ » . قالوا : وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه ، فبينما هم عنده ، إذ أقبل رجل على ناقه له في ليلة مقمرة من أمصار عاد ، فأخبرهم بهلاك عاد ، فقالوا له : أين فارقت هودا وأصحابه ، قال : فارقتهم بساحل البحر ، فكأنهم شكروا فيما حدثهم به ، فقالت هرمة بنت بكر : صدق ورب الكعبة ، ومنور بن يعفر ابن أخي معاوية ابن بكر معهم . قالوا : وقد قيل لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد ، وقيل بن عز حين دعوا بمكة : قد أعطيتم مناكم فاخترتوا لأنفسكم . فقال مرثد : اللهم أعطني برا وصدقا فأعطي ذلك ، وقال قيل : أختار أن بصيني ما أصاب قومي ، فقيل له هلاك ؟ فقال : لا أبالي ، لاحاجة لي في البقاء بعد قومي . فأصابه الذي أصاب عادا من العذاب فهلك . وقال لقمان : يا رب أعطني عمرا ، فقيل له : اختر لنفسك بقاء سبع بعرات سمر من أظب عفر لا يمسهما القطر ، أو عمر سبعة أنسر إذا مضى نسر حوَّلت إلى نسر آخر ، فاستحقر بقاء الأبعاد واختار النور ، فعمر عمر سبعة أنسر ، فكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته ، فيأخذ الذكر منها لقوته ، فيريه حتى إذا مات أخذ غيره ، فلم يزل يفعل مثل ذلك حتى أتى إلى السابع ، وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة ، فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ للقمان : يا عم لم يبق من عمرك إلا هذا النسر ، فقال لقمان : يا بن أخي هذا لُبْدٌ ، ولُبْدٌ بلسانهم الدهر ، فلما انقضى عمر لبْد طارت النور غداة من رأس الجبل ، ولم ينهض لُبْدٌ فيها ، وكانت نسر لقمان لاتغيب عنه . قال : فلما رأى لبدا لم ينهض مع النور قام إلى الجبل لينظر ما فعل لبْد ، فوجد لقمان في نفسه وهنأ لم يكن يجده قبل ذلك ، فلما انتهى إلى الجبل رأى نسر لبدا واقفا بين النور ، فناداه : انهض لبْد ، فذهب لينهض فلم يستطع ، فسقط ومات لقمان معه . وفيه جرى المثل : أتى أْبْدٌ ، على لُبْدٍ . وقال النابغة الذبياني :

أضحت قفارا وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبْد

وقال محمد بن إسحاق : قال مرثد بن سعد حين سمع قول الراكب الذي أخبر بهلاك عاد :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا ما تبلثهم السماء

وسير وفدُهم شهرا ليُسقوا فأردفهم مع العطش العناء

بكفرهم بربهم جهارا
 الأنزع الإله حلوم عاد
 من الرب المهيمن إذ عصوه
 فنفسى وابنتاي وأم ولدي
 أتانا والقلوب معميات
 لنا صنم يقال له صمود
 فأبصره الذين له أنابوا
 وإني سوف ألحق آل هود
 على آثارهم عاد العفاء
 فإن قلوبهم قفر هواء
 وما تغنى النصيحة والشقاء
 لنفس نبينا هود فداء
 على ظلم وقد ذهب الضياء
 يقابله صدتي والهناء
 وأدرك من يكذبه الشقاء
 وإخوته إذا جنّ المساء

ثم إنه لحق بهود ومن آمن معه ، وبقى هود ما شاء الله ، ثم مات وعمره مائة وخمسون سنة . وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة : سمعت عليا رضي الله عنه يقول لرجل من أهل حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء وأراك وسيدر كثير بناحية كذا وكذا من حضرموت ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين إنك لتنته لي نعت رجل قد رآه ، قال لا ، ولكنني قد حدثت عنه ؛ فقال الحضرمي : وما شأنه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : فيه قبر النبي هود عليه السلام . أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبي العرابي ، أنبأنا المغيرة بن عمرو بن الوليد بمكة في المسجد الحرام بين الركن والمقام ، أنبأنا الفضل بن يحيى الجندی ، أنبأنا يونس بن محمد ، أنبأنا يزيد بن أبي حكيم عن سفيان الثوري عن عطاء عن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أنه قال : بين الركن والمقام وزمزم قبور تسعة وتسعين نبيا ، وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة . وفي رواية أخرى كان النبي من الأنبياء إذا هلك قومه ونجا هو والصالحون معه يأتي مكة هو ومن معه يعبدون الله تعالى حتى يموتوا . والله أعلم .

مجلس في قصة صالح عليه السلام

قال الله تعالى (وإلى ثمود أخاهم صالحا) وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جد يس ، وأراد ههنا القبيلة . قال أبو عمرو بن العلاء : سميت ثمودا لقلعة مأها ، والثمد : الماء القليل ، وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام . وكان من قصتهم على ما ذكره محمد بن إسحاق بن يسار والسدي والكلبي ووهب بن منبه وكعب وغيرهم من أهل الكتب دخل كلام بعضهم في بعض : أن عادا الأولى لما أهلكهم الله تعالى وانقضى أمرهم عمرت ثمود بعدهم ، واستخلفوا في الأرض ، فحلوا فيها وكثروا وعمروا حتى جعل بعضهم يبني المسكن من الحجر والمدر فيهدم وهو حي ، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا ، فنحتوا منها وجابوها وجوفوها ، وكانوا في سعة من معاشهم كما قال الله تعالى (واذكروا إذ جعلكم خلقتا من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون

مِنْ سُهُولِهَا قَصُورًا وَتَنَحُّتُونَ الْجِبَالَ بِيُوثًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) فخالفوا أمر الله وعبدوا غيره وأفسدوا في الأرض ، فبعث الله إليهم صالحا نبيا ، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ، وكانوا قوما عربا ، وكان صالح من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا ، فبعثه الله تعالى إليهم رسولا ، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته ، فلم يتبعه إلا قليل مستضعفون ، فلما ألح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ ، وأكثر عليهم التخويف والتحذير ، سألوه أن يرهم آية تكون مصداقا لما يقول ، فقال : اللهم أرهم آية ليعتبروا بها ، ثم قال لهم : أي آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا إلى عيدنا ، وكان لهم عيد يخرجون إليه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلهك وتدعو آلهتنا ، فإن استجيب لك اتبعنا ، وإن استعجب لنا اتبعنا ، فقال لهم صالح : نعم ، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم ذلك ، وخرج صالح معهم ، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به ، ثم قال جندع بن عمرو بن جواس وهو يومئذ سيد ثمود : يا صالح ، أخرج لنا من هذه الصخرة ، يعني الصخرة المنفردة عن الجبال في ناحية الحجر يقال لها الكاثبة ، ناقة مخرجة جوفاء وبراء عشاء ، والمخرجة : ما شاكلت البُخْت من الإبل ، فإن فعلت ذلك صدقناك وآمنا بك ، فأخذ عليهم صالح الميثاق أنه إن فعل ذلك صدقوه وآمنوا به . ثم إن صالحا عليه السلام صلى ودعا الله تعالى بذلك ، فتمخضت الصخرة تمخض النّوَج بولدها ، ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشاء جوفاء وبراء كما سألوه ، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى عظما وهم ينظرون ، ثم نُتِجَت سقبا مثلها في العظم ، فأمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه ، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا بصالح ويتابعوه ، فهاهم ذؤاب بن عمرو بن لييد والحباب صاحب أوثانهم ورياب بن صمعر ، وكانوا من أشراف ثمود ، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له شهاب ابن خليفة ، فأراد أن يسلم فهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال رجل من ثمود :

وكانت عصابة من آل عمرو إلى دين النبي دعوا شهابا

عزيز ثمود كلهم جميعا فهمت أن يجيب ولو أجابا

لأصبح صالح فينا عزيزا وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا

ولكن الغواة من آل حجر توالوا بعد رشدهم ذؤابا

فلما خرجت الناقة قال صالح : (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) ، فكثت الناقة ومعها سقبا في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء ، فكانت ترد الماء يوما ولهم يوم ، فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر بأرض الحجر يقال لها بئر الناقة ، فيرتفع الماء إليها ، فما ترتفع رأسها إلا وقد شربت جميع ما فيها ولا تدع قطرة ماء فيها ، فتفجع ثم تروح عليهم ، فيحلبون من لبنها ما شاءوا ، فيشربون ويدخرون ويملثون أوانيهم ، لكن تصدر من غير الفج الذي وردت منه ، لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث وردت لأنها

مضيق عليها . قال أبو موسى الأشعري : أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا . فإذا كان الغد من يومهم شربوا من الماء وقد أخرجه الله تعالى لهم من البئر وادّخروا ما شاءوا قدر كفايتهم في يوم الناقة ، وكانوا من ذلك في سعة ودعة ، وكانت الناقة في الصيف إذا كان الحر تطلع ظهر الوادي فتهرب منها أغنامهم وبقرهم وإبلهم ، وتهبط إلى بطن الوادي في حره وحدته ، فكانت المواشي تنفر منها إذا رأتها ، وإذا كان الشتاء سبقت الناقة في بطن الوادي فتهرب مواشيم إلى ظهر الوادي في البرد والحدة ، فأضر ذلك مواشيم للبلاء والاختبار ، فكان مراتعها الجبال ، فكبر ذلك عليهم حتى حملوا على عقر الناقة ، فاحتالوا في عقرها ، وكانت امرأة من ثمود يقال لها عنيزة بنت غنم بن مخلد وتكنى أم غنم ، وهي من بني عبيد بن المهمل ، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو ، وكانت عجوزا مسنة ولها بنات حسان ومال كثير من الإبل والبقر والغنم ، وامرأة أخرى يقال لها صدوق بنت الحيا بن مهر ، وكانت غنية جميلة ذات مواش كثيرة ، وكانتا هاتان المرأتان من أشد الناس عداوة بصالح ، وكانتا تحتالان في عقر الناقة من كفرهما بصالح بما أضرت مواشيمهما ، وكانت صدوق عند ابن خال لها يقال له صنيم بن هراوة بن سعد بن الغطريف بن هلال فأسلم وحسن إسلامه ، وكانت صدوق قد فوضت إليه مالها ، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح عليه الصلاة والسلام حتى نفذ المال ، فاطلعت صدوق على إسلامه فعانته على ذلك ، فأظهر لها دينه ودعاها إلى الله تعالى فأبت عليه وأخذت أولادها فغيبتهم في بني عمها الذين هي منهم ، فقال لها زوجها : ردّي على أولادي ، فلما ألحّ عليها قالت : حتى أحاكمك إلى بني عمي ، وذلك أن بني عم زوجها كانوا مسلمين فأبت أن تحاكمه إليهم ، فقال لها بنو عمها : والله لتعطنه ولده طائفة أو كارهة ، فلما رأت ذلك أعطته أولاده ، ثم إن صدوق وعنيزة احتالتا في عقر الناقة للشقاء الذي كتب عليهما ، فدعت صدوق رجلا من ثمود يقال له الحباب فأمرته بعقر الناقة وعرضت عليه نفسها إن هو فعل ذلك ، فأبى عليها ، ثم إنها دعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج وجعلت له نفسها إن هو عقر الناقة ، وكانت من أوفر الناس جمالا وأكثرهم مالا وأحسنهم كمالا ، فأجابها إلى ذلك ، ودعت عنيزة قدار بن سالف من أهل قرح ، واسم أمه قديرة ، وكان رجلا أشقر أزرق قصيرا ويزعمون أنه كان لزنية رجل يقال له صفوان ، ولم يكن لسالف ولكنه قد ولد على فراشه . فقالت له : يا قدار أعطيك من بناتي أيما شئت على أن تعقر الناقة وكان قدار عزيزا في قومه وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم « (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) رَجُلٌ عَزِيزٌ فِي قَوْمِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ » قالوا : فانطلق قدار ومصدع ، فاستعانوا بمن استعانوا من ثمود فاتبعهم سبعة نفر ، وكانوا تسعة رهط كما قال الله تعالى (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) فلقبهم هديات بن مبلغ خال قدار ، وكان عزيزا من أهل الحجر ،

وذعر بن غم بن داعرة أخی مصدع وخمسة لم تذكر أسماؤهم ، فاجتمعوا على عقر الناقة : قال السدي وغيره : أوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة ، فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل ذلك ، فقال : إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ، فقالوا : لاجرم لا يولد لنا في هذا الشهر ولد إلا قتلناه ، فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر تسعة بنين فذبحوا أولادهم ، وولد للعاشر ابن فأبى أن يذبح ابنه ، وكان بيكره لم يولد له قبل ذلك شيء ، وكان ابن العاشر أزرق أحمر ، فنبت نباتا سريعا ، وكان إذا مر بالتسعة ورأوه ندموا على ذبح أولادهم وقالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا ، فغضب التسعة على صالح لأنه كان سبب قتل أولادهم ، فتقاسموا بالله لنبيته وأهله ، قالوا : نخرج فترى الناس أنا قد خرجنا لسفر ، فنأى الغار فنكمن فيه ، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فنقتله ، ثم نرجع إلى الغار فنكمن فيه ثم ننصرف بعد ذلك إلى رحالنا فنقول : (ما شهدنا مهلك أهله وإنما لصادقون) فيصدقوننا ويظنون أننا قد خرجنا إلى سفر ، وكان صالح لا ينام الليل معهم في القرية ، وكان يأوى إلى مسجد يقال له مسجد صالح بيت فيه في الليل ، فإذا أصبح أتاهم ووعظهم وذكرهم ، فإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه . فلما دخلوا الغار وأضمرُوا أنهم يخرجون بالليل فيقتلونه سقطت عليهم صخرة من الغار فقتلتهم ، فانطلق رجال ممن كان قد اطلع على ذلك إلى الغار ، فإذا هم رضح ، فرجعوا يصيحون في القرية : يا عباد الله ما قنع صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم ، فأجمع أهل القرية على عقر الناقة .

وقال ابن إسحاق : إنما كان تقاسم التسعة على تبيت صالح عليه السلام بعد عقرهم الناقة وإنذار صالح إياهم بالعذاب ، وذلك أن التسعة الذين عقروا الناقة قالوا : هلم فلنقتل صالحا ، فإن كان صادقا كنا عجلنا قتله ، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا لبيته في أهله ، فرمته الملائكة بالحجارة ، فلما أبطثوا على أصحابهم أتى أصحابهم منزل صالح فوجدوهم مشدوخين قد رضحوا بالحجارة ، فقالوا لصالح : أنت قتلهم وهموا به ، فقامت عشيرته دونه وأخذوا السلاح ، وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدا ، فقد وعدكم بأن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقا لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

قال السدي وغيره : فلما ولد ابن العاشر يعني قدارا ، وكان يشب في كل يوم شباب غيره في الجمعة ، ويشب في الجمعة شباب غيره في الشهر ، ويشب في الشهر شباب غيره في السنة . فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب ، فأرادوا ماء يمزجون به شرابهم ، وكان ذلك اليوم شرب الناقة ، فوجدوا الماء قد شربته الناقة ، فاشتد عليهم ذلك وقالوا : ما نصنع باللبن لو كنا نأخذ الماء الذي تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحرثنا كان خيرا لنا ، فقال ابن العاشر : هل لكم أن أعقرها ؟ قالوا : نعم .

وقال كعب : كان سبب عقيرهم الناقة امرأة يقال لها ملكا كانت قد ملكت ثمود ، فلما أقبل الناس على صالح وصارت الرياسة إليه حسدته ، فقالت لامرأة يقال لها قطام ، وكانت معشوقة قدار بن سالف ، ولامرأة يقال لها قبال ، وكانت معشوقة مصدع بن مخرج ، وكان قدار ومصدع يجتمعان معهما كل ليلة يشربون الخمر ، فقالت لهما ملكا : إن أنا كما الليلة قدار ومصدع فلا تطيعاهما ، وقولا لهما إن الملكة حزينة لأجل صالح وناقته ، فنحن لانطيعكما حتى تعقرا الناقة ، فإن عقيرتماها أطعنا كما ، فلما أتياها قالتا لهما هذه المقالة ، فقالا : نحن نعقرها .

قال ابن إسحاق وغيره ، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما السبعة فرصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل شجرة أخرى ، فمرت الناقة على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها وخرجت أم غنم وعنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن النساء وجهها ، فترأت لقدار وأسفرت له عن وجهها وحرضته على عقير الناقة ، فشد عليها بالسيف فكشف عرقوبها فأرداها وطعن في لَبَّتِها فنحرها ، وخرج أهل البلدة واقتسموها وأكلوا لحمها ، وكانت لما عقرها رغت . فلما رأى سقبيها ذلك انطلق حتى أتى جبلا منيعا يقال له ضوء وقيل اسمه قارة ، وروى ذلك مسندا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث شهر بن حوشب عن عمر بن خارجة ، فأتى صالح عليه السلام فقيل له : أدرك ناقتك فقد عقرت ، فأقبل وخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه ويقولون : يا نبي الله إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا ، فقال لهم صالح : انظروا هل تدركون فصيلها ، فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب ، فخرجوا يطلبونه ، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه ، فأوحى الله إلى الجبل فتناول في السماء حتى ما تناله الطير ، وجاء صالح عليه السلام ، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ، ثم رغا ثلاثا وانفجرت الصخرة فدخلها ، فقال صالح عليه السلام : لكل أمة أجل فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ثم يأتيكم العذاب ذلك وعد غير مكذوب .

قال محمد بن إسحاق بن يسار : اتبع الفصيل أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة وفيهم مصدع وأخوه ذؤاب ولد مخرج ، فرماه بسهم مصدع فانتظم قلبه ثم جر برجله فأنزله وألحقوا لحمه مع لحم أمه ، فقال لهم صالح عليه السلام : انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله تعالى ونقمته ، فقالوا مستهزئين به : ومتى ذلك يا صالح ، وما آية ذلك ؟ وكانوا يسمون الأيام ، فيوم الأحد الأول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء دُبار ، والأربعاء جُبَّار ، والخميس مؤنس ، والجمعة العروبة ، والسبت شبار ، وفيه يقول الشاعر :

أؤمل أن أعيش وإن يومى بأول أو بأهون أو جبار .

أو المردي دُبار فإن أفتسه فؤنس أو عروبة أو شبار

قالوا : وكان عقير الناقة يوم الأربعاء ، فقال لهم صالح عليه السلام حين سألوه عن

وقت العذاب وآيته : إنكم تُصْبِحُونَ غُرَّةَ مَوْئِسٍ ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم العروبة ووجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم شبار ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرة كأنما طليت الخلق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم ، فأيقنوا بالهلاك وعرفوا أن صالحا قد صدقهم ، فطلبوه ليقتلوه ، فخرج صالح عليه السلام هاربا منهم حتى لحق إلى بطن من ثمود يقال لها بنوغم فنزل على سيدهم رجل منهم يقال له نفيل ويكنى أبا هذب وهو مشرك ، فغيبه عنهم فلم يقدرُوا عليه ، فغدوا على أصحاب صالح يعذبونهم ليدلوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له مبدع بن هرم : يا بني الله إنهم ليعذبوننا لندهم عليك ، أفندهم ؟ قال نعم ، فدلهم عليه مبدع فأتوا أبا هذب فكلموه في ذلك ، فقال : نعم هو عندي ، وليس لكم إليه سبيل ، فأعرضوا عنه وتركوه ، وشغلهم عنه ما أنزل الله تعالى بهم من عذابه ، فجعل بعضهم يخبر بعضا بما يرون في وجوههم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل . فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدم ، فصاحوا وضجوا وبكوا وعرفوا أن العذاب واقع بهم ، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب . فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودة كأنما طليت بالقار ، فصاحوا جميعا ألا قد حضركم العذاب . فلما كان ليلة الأحد خرج صالح عليه السلام من بين أظهرهم وخرج معه من آمن به حتى جاءوا الشام فنزلوا رملة فلسطين . فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا ، وكان حنوطهم الصبر والمر ، وكانت أكفانهم الأنطاع ، ثم ألقوا أنفسهم بالأرض فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة ، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب ، فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض ، فقطعت قلوبهم في صدورهم ، فلم يبق فيهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال الله عز وجل (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِمُؤَدَّ) ولم ينبج منهم إلا جارية مقعدة يقال لها ذريعة بنت شاف ، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجلها بعد ما عاينت العذاب أجمع ، فخرجت كأسرع شيء يكون حتى أتت قرحاً وهو وادي القرى ، حد ما بين الحجاز والشام ، فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود ، ثم استسقت من الماء فسقيت ، فلما شربت ماتت .

نقروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال : لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه « لا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَلَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا وَلَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِأَكْبَيْنَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ الَّذِي أَصَابَهُمْ » ، ثم قال : أَمَا بَعْدُ فَلَا تُسْئَلُوا رَسُولَكُمْ الْآيَاتِ ، هَؤُلَاءِ قَوْمٌ

صالح سألوا رسولهم الآية فبعت الله لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج وتصد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم ورودها ، وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتقى الفصيل حين ارتقى في الغار فعتوا عن أمر ربهم وعفروها ، فأهلك الله تعالى من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلا واحدا يقال له أبو رغال وهو أبو ثقيف كان في حرم الله تعالى ، فنبهه حرم الله من عذاب الله تعالى ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ودفن معه غصن من ذهب ، وأراهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أبي رغال ، فنزل القوم فابتدروه بأسيا فهم وبحثوا عليه ، فاستخرجوا ذلك الغصن من الذهب ، ثم تقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه وأسرع السير حتى جاوز الوادي .
وقال أهل العلم : توفي صالح عليه السلام بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، وذلك أنه انتقل من الشام إلى مكة بعد ما أهلك الله تعالى قومه ، وكان يعبد الله تعالى هناك حتى مات وكان قد أقام في قومه عشرين سنة .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا عبد الله بن محمد بن الحسن قال : حدثنا عبد الله بن هاشم حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا قتيبة أبو عثمان عن أبيه عن الضحاك ابن مزاحم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا علي أتدري ما أشقى الأولين ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال : عاقير الناقة ، قال : يا علي أتدري من أشقى الآخرين ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : قاتلِكَ . والله أعلم .

مجلس في قصة إبراهيم عليه السلام ، والنمرود

وهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن فينان ابن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وكان اسم أبي إبراهيم الذي سماه به أبوه تارح ، فلما صار مع النمرود قبا على خزائن آلهته سماه آزر . وقال مجاهد : إن اسم آزر ليس اسم أبيه ، وإنما هو اسم صنم ، وقال ابن إسحاق : ليس هو اسم صنم ، بل هو لقب عيب به ، وهو بمعنى معوج ، وقيل هو بالنبطية الشيخ الهرم ، وولد لناحور تارح بعد ما مضى من عمره سبع وعشرون سنة ، وهذا المجلس يشتمل على أبواب ، والله أعلم .

الباب الأول : في مولد إبراهيم عليه السلام

اختلف العلماء في الموضع الذي ولد فيه ، فقال بعضهم : كان مولده بالسوس من أرض الأهواز ، وقال بعضهم : كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوئا ، وقال بعضهم : كان مولده بالوركاء : ناحية في حدود كسكر ، ثم نقله أبوه إلى الموضع الذي كان به نمرود من ناحية كوئا . وقال بعضهم : كان مولده بخران ، ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل . وقال عامة السلف من أهل العلم : ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن

کنعان ، وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم عليه السلام ألف ومائتان وثلاث وستون سنة ، وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف وسبع وثلاثين سنة . ونمرود الذى ولد فى ملكه إبراهيم : هو نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كورش بن حام بن نوح . وفى الحديث : ملك الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، فاهما المؤمنان فسليمان ابن داود وذو القرنين عليهما السلام ، وأما الكافران فنمرود وبختنصر ، وكان نمرود أول من وضع على رأسه التاج وتجرى فى الأرض ، ودعا الناس إلى عبادته ، وكان له كهان ومنجمون ، فقالوا له : إنه يولد فى بلدك فى هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ، ويقال : إنهم وجدوا ذلك فى كتب الأنبياء . وقال السدى : رأى نمرود فى منامه كأن كوكبا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ، ففرغ من ذلك فرعا شديدا ، ودعا السحرة والكهنة والقافة ، وهم الذين يخطون فى الأرض وسألهم عن ذلك فقالوا : هو مولود يولد فى ناحيتك هذه السنة يكون هلاكك وهلاك أهل بيتك على يديه ، قال : فأمر نمرود بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية تلك السنة ، وأمر بعزل الرجال عن النساء ، وجعل على كل عشرة رجلا رقيبا أمينا ، فإذا حاضت المرأة خلى بينه وبينها إذا أمن الواقعة ، فإذا طهرت عزل الرجل عنها ، فرجع آزر أبو إبراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها فى طهرها فحملت بإبراهيم عليه السلام .

وقال محمد بن إسماعيل : بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنه إلا ما كان من أم إبراهيم ، فإنه لم يعلم بحبلها ، وذلك أنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحبل ولم بين فى بطنها .

وقال السدى : خرج نمرود بالرجال إلى العسكر ونحاهم عن النساء تخوفا من ذلك المولود أن يكون ، فكث كذلك ما شاء الله ، ثم بدت له حاجة إلى المدينة ، فلم يأتمن عليها أحدا من قومه إلا آزر ، فدعاه وقال له : إن لى إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ، ولم أبعثك إلا لثقتى بك ، فأقسمت عليك أن لاتدنو من أهلك ولا تواقعها ، فقال آزر : أنا أشح على دينى من ذلك ، فأوصاه بحاجته ثم بعثه ، فدخل المدينة وقضى حاجته ، ثم قال : لو دخلت إلى أهلى فنظرت إليهم ؟ فلما نظر إلى أم إبراهيم لم يتألك حتى وقع عليها ، فحملت بإبراهيم عليه السلام .

قال ابن عباس : لما حملت أم إبراهيم قال الكهان للنمرود : إن الغلام الذى أخبرناك به قد حملت به أمه فى هذه الليلة ، فأمر نمرود بذبح الغلمان ، فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها ، فوضعتة فى نهر يابس

ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ورجعت، فأخبرت زوجها بابنها، وأنها قد ولدت، وأن الولد في موضع كذا، فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سردابا عند نهر، فواراه وسد عليه بابه بصخرة مخافة السباع، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه.

قال السدي: لما عظم بطن أم إبراهيم خشى آزر أن تذبح، فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة، يقال لها وركاء، فأنزلها في سرب من الأرض وجعل عندها ما يصلحها وجعل يتعهدا ويكتم ذلك من أصحابه، فولدت إبراهيم عليه السلام في ذلك السرب، فشب فكان وهو ابن سنة كابن ثلاث سنين، وصار من الشباب بحالة أسقطت عنه طمع الذباحين، ثم ذكر آزر لأصحابه أن له ابنا كبيرا، فانطلق به إليهم.

قال ابن إسحاق: لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة وكانت قريبا منها، فولدت فيها إبراهيم عليه السلام، وأصلحت من شأنه ما يصلح بالمولود، ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة فتجده حيا يمص إبهامه.

قال أبو زريق: كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم عليه السلام وجدته يمص إبهامه، فقالت ذات يوم لأنظرن إلى أصابعه، فوجدته يمص من أصبع ماء، ومن أصبع لبنا، ومن أصبع عسلا، ومن أصبع سمنا.

قال ابن إسحاق: وكان آزر سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل، فقالت: ولدت غلاما فمات، فصدقها، وسكت عنها، وكان اليوم على إبراهيم عليه السلام في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيم عليه السلام في المغارة إلا خمسة عشر يوما حتى جاء إلى أبيه آزر فأخبره أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه، فسر آزر بذلك وفرح فرحا شديدا.

الباب الثاني: في خروج إبراهيم عليه السلام من السرب ورجوعه إلى قومه

ومحاجته إياهم في الدين وإلقائهم إياه في النار وما يتعلق بذلك

قال أهل العلم بسير الماضين: لما شب إبراهيم عليه السلام وهو في السرب، قال لأمه: من ربي؟ قالت: أنا، قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ قالت له: نمرود، قال: فمن رب نمرود؟ قالت له: اسكت، فسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت: رأيت الغلام الذي يحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك، ثم أخبرته بما قال لها، فأتاه أبوه آزر، فقال له إبراهيم عليه السلام: يا أبتاه من ربي؟ قال: أمك، قال: فمن رب أبي؟ قال: أنا، قال: فمن ربك، قال: نمرود، قال: فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال: اسكت، وذلك قوله عز وجل (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ). ثم قال لأبويه أخرجاني، فأخرجاه من السرب، فانطلقا به حتى غابت الشمس، فنظر إبراهيم عليه السلام إلى الإبل والبقر والغنم والخيل يراح بها، فسأل أباه ما هذه؟ فقال: إبل وخيل وبقر وغنم، فقال: ما لهذه بد من أن يكون لها رب خالق؟

ثم نظر وتفكر في خلق السموات والأرض وقال : إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لرَبِّي ، مالى إله غيره ، ثم نظر فإذا المشتري قد طلع ، ويقال الزهرة ، وكانت تلك الليلة في آخر الشهر ، فرأى الكوكب قبل القمر فقال : هذا ربى ، فذلك قوله تعالى (فلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ : هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ : هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ : هَذَا رَبِّي ، هَذَا أَكْبَرُ) لأنه رأى ضوءها أعظم (فلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إني بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إني وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) . قالوا : وكان أبوه يصنع الأصنام ، فلما ضم إبراهيم إلى نفسه ، جعل يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم لبيعتها ، فيذهب بها إبراهيم عليه السلام فينادى من يشتري ما يضر ولا ينفع ، فلا يشتري أحد منه ، فإذا بارت عليه ، ذهب بها إلى نهر فضرب رءوسها ، وقال لها : اشربى كسدت ، استهزاء بقومه ، وبما هم عليه من الضلالة والجهالة ، حتى فشا عيبه إياها واستهزأوه بها في قومه وأهل قريته ، فحاجه قومه في دينه ، فقال لهم (أأتُحاجُّونني في الله وَقَدْ هَدَانِ) الآيات - إلى قوله عز وجل (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) حتى خصمهم وغلبهم بالحجة ، ثم إن إبراهيم عليه السلام دعا أباه آزر إلى دينه فقال : (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) إلى آخر القصة ، فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه . ثم إن إبراهيم عليه السلام جاهر قومه بالبراءة مما كانوا يعبدون ، وأظهر دينه فقال (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَامُونَ ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) قالوا فن تعبد أنت؟ قال رب العالمين ، قالوا تعنى نمرود؟ فقال لا . (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) إلى آخر القصة ، ففشا ذلك في الناس حتى بلغ نمرود الجبار ، فدعاه فقال له : يا إبراهيم ! رأيت إلهك الذي بعثك وتدعو إلى عبادته ، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟ قال إبراهيم عليه السلام : ربى الذي يحيى ويميت ، قال نمرود : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : كيف يحيى ويميت؟ قال : آخذ رجلين قد استوجبا القتل في حكمى ، فأقتل أحدهما فأكون قد أمته ، ثم أعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته ، فقال له إبراهيم عند ذلك : إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتت بها من المغرب ، فبهت عند ذلك نمرود ، ولم يرجع إليه شيئا ، ولزمته الحججة ، فذلك قوله عز وجل (فَسُبِّحْتَ الَّذِي كَفَرَ) الآية . ثم إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرى قومه ضعف الأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ويعجزها ، إلزاما للحجة عليهم ، فجعل ينهز لذلك فرصة ، ويحتال فيه إلى أن حضره عيد لهم .

قال السدي : كان لهم في كل سنة عيد يخرجون إليه ويجتمعون فيه ، فكانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ، ثم عادوا إلى منازلهم ، فلما كان ذلك العيد قال أبو إبراهيم : يا إبراهيم لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فخرج معهم إبراهيم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال : إني سقيم أشتكى رجلى ، فتولوا عنه وهو صريع فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعفاء الناس (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) ، فسمعوها منه .

وقال مجاهد وقتادة : إنما قال إبراهيم عليه السلام هذا في سر من قومه ولم يسمع ذلك إلا رجل واحد منهم ، وهو الذي أفشاه عليه . قالوا : ثم رجع إبراهيم عليه السلام من الطريق إلى بيت الآلهة ، فإذا في البيت نهر ، مستقبل باب النهر صنم عظيم يليه أصغر منه إلى باب النهر ، وإذا هم قد جعلوا طعاما فوضعه بين يدي الآلهة وقالوا : إذا كان حين رجوعنا رجعنا وقد باركت الآلهة في طعامنا أكلنا ، فلما نظر إبراهيم عليه السلام إلى الأصنام وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء : ألا تأكلون ؟ فلما لم تجبه قال (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ؟ - فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ) وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر ، فعلق الفأس في عنقه ثم خرج ، فذلك قوله عز وجل (فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) فلما جاء القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم ورأوا بتلك الحالة (قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) هو الذي نظنه صنع هذا ، فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشرف قومه ، (قَالُوا : فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) عليه أنه هو الذي فعل ، وكرهوا أن يأخذوه بغير بيعة ، قاله قتادة والسدي ، وقال الضحاك : لعلهم يشهدون بما نصنع به ونعاقبه . فلما أحضروه قالوا له (أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ) قال إبراهيم (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) غضب أن تعبدوا معه هذه الأصنام الصغار وهو أكبر منها فكسرهن (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) قال النبي صلى الله عليه وسلم : لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات كلها في الله تعالى : قوله إني سقيم ، وقوله بلى فعلته كبيرهم هذا ، وقوله للملك الذي عرض لسارة هي أختي . فلما قال لهم إبراهيم ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون هذا الرجل في سؤالكم إياه ، وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرة ، فاسألوها وذلك قول إبراهيم عليه السلام (فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) فقال قومه ما نراه إلا كما قال . وقيل إنكم أنتم الظالمون بعبادتكم الأوثان الصغار مع هذا الكبير ، ثم نكسوا على رؤوسهم متحيرين في أمره ، وعلموا أنها لا تنطق ولا تبطش ، فقالوا : لقد علمت ما هؤلاء

بنطقون ، فلما انجبت الحجة عليهم لإبراهيم عليه السلام قال لم (أفنتعبون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبون من دون الله أفلا تعقون) فلما لزمهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) قال عبد الله بن عمر : إن الذي أشار عليهم بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار رجل من الأكراد ، قال شعيب الجبائي : اسمه هينون ، فحسف الله تعالى به الأرض ، وهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة :

قال : فلما أجمع نمرود وقومه على إحراق إبراهيم عليه السلام حبسوه في بيت وبنوا له بنيانا كالخظيرة ، فذلك قوله عز وجل (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الحميم) ثم جمعوا له من أصلب الحطب وأصناف الخشب حتى إن كانت المرأة تمرض فتقول : لئن عافاني الله تعالى لأجمعن حطبا لإبراهيم ، وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب مما تحب أن تترك لئن أصابته لتحتطين حطبا وتجعله في النار التي يحرق بها إبراهيم احتسابا في دينها .

قال ابن إسحاق : كانوا يجمعون الحطب شهرا حتى إذا كثر الحطب وجمعوا منه ما أرادوا أشعلوا النار في كل ناحية بالحطب ، فاشتعلت النار حتى إن كان الطير ليربها فيحترق من شدة وهجها ، ثم عملوا إلى إبراهيم عليه السلام فرفعوه على رأس البنيان وقيدوه ، ثم اتخنوا منجنيقا بإشارة إبليس لعنه الله تعالى ، حيث لم يتمكنوا من إلقاءه في النار من شدة حرها ، فاتخنوا المنجنيق ووضعوه فيه مقيدا مغلولا صلوات الله عليه ، فضجت السموات والأرض والجبال ومن فيها من الملائكة وجميع الخلق إلا الثقلين ضجة واحدة ، وقالوا : أي ربنا إبراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره يحرق في النار ؟ فأذن لنا في نصرته . فقال الله تعالى لهم : إن استعان بشيء منكم أو دعاه فلينصره ، فقد أذنت لكم في ذلك ، وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بيني وبينه . فلما أرادوا إلقاءه في النار أتاه ملك المياه ، فقال له : إن أردت أخذت النار ، فإن خزائن المياه والأمطار بيدي ، وأتاه خازن الريح فقال : إن شئت طيرت النار في الهواء ، فقال إبراهيم عليه السلام : لا حاجة لي إليكم ، ثم رفع رأسه إلى السماء فقال : اللهم أنت الواحد في السماء وفي الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري . وروى المعتمر عن أبي بن كعب عن أرقم أن إبراهيم عليه السلام حين أوثقوه ليلقوه في النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ، ثم رموا به بالمنجنيق إلى النار في موضع شاسع ، فاستقبله جبريل عليه السلام فقال يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، قال جبريل : فاسأل ربك ، فقال إبراهيم عليه السلام : حسبي من سؤالي ، علمه بحالي ، حسبي الله ونعم الوكيل . وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام إنما نجا بقوله : حسبي الله ونعم الوكيل ، قال الله عز وجل (يا نارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) .

قال السدي : كان جبريل عليه السلام هو الذي ناداها بأمر الله تعالى . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس : لو لم يقل وسلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم يبق حينئذ نار في الأرض إلا طففت ، ظنت أنها تعني .

قال كعب الأحبار : روى قتادة والزهرى : ما انتفع أحد من الأرض يومئذ بنار ولا أحرقت النار يومئذ شيئا إلا وثاق إبراهيم عليه السلام ، ولم يبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ ، فلذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وسماه فويسقا .

قال السدي : فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم ، فأقعدته على الأرض ، فإذا عين ماء وورد أحمر ونرجس ، قالوا : فأقام إبراهيم في النار سبعة أيام ، قال المنهال بن عمرو : قال إبراهيم خليل الله : ما كنت أياما قط أنعم مني عيشا في الأيام التي كنت فيها في النار .

قال ابن إسحاق وغيره : وبعث الله ملك الظل في صورة إبراهيم عليه السلام فقعده فيها إلى جنب إبراهيم وهو يؤنسه ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير وقال له : يا إبراهيم إن ربك يقول : أما علمت أن النار لا تنضر أحبابي ؟ وألبسه القميص ، ثم أشرف نمرود من

صرح له عال ، ونظر إلى إبراهيم عليه السلام ، وما يشك أنه قد هلك ، فرآه جالسا في روضة ورأى الملك قاعدا إلى جنبه ، وحوله نار تحرق ما جمعوا من الحطب ، فناداه نمرود يا إبراهيم كبير إلهك الذي بلغت قدرته أن حال بينك وبين النار حتى لم تضرك ، يا إبراهيم فهل تستطيع

أن تخرج منها ؟ قال نعم ، قال : فهل تخشى إن أقمت فيها أن تضرك ؟ قال لا ، قال : قم فاخرج منها ، فقام إبراهيم عليه السلام يمشي فيها حتى خرج منها . فلما خرج إليه قال له : يا إبراهيم من الرجل الذي رأيت معك في مثل صورتك قاعدا إلى جنبك ؟ قال : ملك الظل

أرسله إلى ربّي ليؤنسنى فيها ، فقال نمرود : يا إبراهيم إني مقرب إلى إلهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزمه فيما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده ، إني ذابح له أربعة آلاف بقرة ، فقال له إبراهيم : لا يقبل الله منك شيئا ما كنت على دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني ،

فقال يا إبراهيم لأستطيع ترك ملكي ، ولكن سوف أذبحها له ، فذبحها وقربها ومنع العذاب عن إبراهيم ، ثم إنه قال لإبراهيم : نعم الرب ربك يا إبراهيم .

قال الشعبي : أتى إبراهيم عليه السلام في النار وهو ابن ست عشرة سنة ، وذبح إسحاق وهو ابن سبع سنين ، وولده سارة رضي الله عنها وهي ابنة تسعين سنة ، وكان مذبحه من بيت المقدس على ميلين . ولما علمت سارة بما أراد بإسحاق بقيت يومين وماتت في اليوم الثالث .

قال ابن إسحاق : استجاب لإبراهيم عليه السلام رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله عز وجل به من جعل الله النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمرود وملتهم ، فأمن به لوط ، وكان ابن أخيه ، وهو لوط بن هاران بن تارخ ، وهاران هو أخو إبراهيم عليه السلام

وكلن لهما أخ ثالث يقال له ناحور بن تارخ ، فهاران أبو لوط ، وناحور أبو تنويل ، وتنويل أبو لابان ، ورفقا بنت تنويل امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب ، وليا وراحيل زوجتنا

يعثوب عليه السلام، وهما ابنتا لابان، وآمنت أيضا به سارة وهي بنت عمه، وهي سارة بنت هاران الأكبر عم إبراهيم عليه السلام.

وقال السدي: كانت سارة بنت ملك حران، وذلك أن إبراهيم ولوطا عليهما السلام انطلقا قبيل الشام، فلقى إبراهيم سارة وهي بنت ملك حران، وكانت قد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها إبراهيم عليه السلام على أن لا يضرها.

قال ابن إسحاق: خرج إبراهيم عليه السلام من كوثي من أرض العراق مهاجرا إلى ربه عز وجل، وخرج معه لوط وسارة عليهما السلام كما قال الله تعالى (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي) فخرج حتى نزل حران، فمكث بها ما شاء الله تعالى أن يمكث، ثم خرج منها حتى قدم مصر، ثم خرج من مصر إلى الشام، فنزل السبع من فلسطين وهي برية الشام، ونزل لوط بالموثفة وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة، فبعثه الله تعالى نبيا، فذلك قوله عز وجل (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) يعني الشام، وبركتها أن بعث منها أكثر الأنبياء، وهي الأرض المقدسة، وأرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام، وبها يهلك الله تعالى المسيح الدجال بياب لد، وهي أرض خصبة كثيرة الأشجار والأنهار والثمار، يطيب فيها العيش للغني والفقير.

قال أبي بن كعب: ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي بيت المقدس ثم يتفرق في الأرض، والله أعلم.

الباب الثالث: في ذكر مولد إسماعيل وإسحاق عليهما السلام

ونزول إسماعيل وأمه هاجر الحرم، وقصة بئر زمزم

قال أهل العلم بسير الماضين: لما نجي الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام آمن به من آمن وتابعوه على فراق قومهم وإظهار البراءة منهم، فقالوا: إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم أيها المعبودون من دون الله وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أيها العابدون حتى تؤمنوا بالله وحده، ثم خرج إبراهيم عليه السلام مهاجرا إلى ربه، وخرج معه لوط عليه السلام وتزوج إبراهيم عليه السلام بابنة عمه سارة، فخرج بها يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادته لربه حتى نزل حران، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث، ثم خرج منها مهاجرا حتى قدم مصر، وبها فرعون من الفراعنة الأولى، وكانت سارة من أحسن النساء وأجملهن، وكانت لاتعبي إبراهيم عليه السلام في شيء، وبذلك أكرمها الله تعالى. قال: فأتى الجبار رجل وقال له: إن ههنا رجلا معه امرأة من أحسن النساء، ووصف له حسنها وجمالها، فأرسل الجبار إلى إبراهيم عليه السلام، فجاءه، فقال له: ما هذه المرأة منك؟ فقال هي أختي، وتخوف إن قال هي امرأتي أن يقتله، فقال له: زينها وأرسلها إلى حتى أنظر إليها، فرجع إبراهيم إلى سارة عليها السلام وقال لها: إن هذا الجبار قد سأني عنك

فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله عز وجل ، وإنه ليس في هذه الأرض مسلم غيري وغيرك ، ثم أقبلت سارة إلى الجبار ، وقام إبراهيم عليه السلام يصلي ، فلما دخلت عليه ورآها أهوى إليها يتناولها بيده فيبست يده إلى صدره . فلما رأى الجبار ذلك أعظم أمرها ، وقال لها : سلى ربك أن يطلق يدي فوالله لا آذيتك ، فقالت سارة : اللهم إن كان صادقا فأطلق له يده ، فأطلق الله تعالى يده .

وفي بعض الأخبار المسندة أنه فعل ذلك ثلاث مرات يقصد أن يتناولها فتييس يده ، فلما رأى ذلك ردها إلى إبراهيم ووهب لها هاجر وهي جارية قبطية ، فأقبلت إلى إبراهيم ، فلما أحس بها إبراهيم انفتل من صلاته قال مَهْم؟ فقالت : كنى الله كيد الفاجر وأخدمني هاجر . قال محمد بن سيرين : : كان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فتلك أمكم يا بني ماء السماء .

وفي بعض الأخبار : أن الله تعالى رفع الحجاب بين إبراهيم وسارة ، حتى كان ينظر إليها من وقت خروجها من عنده إلى وقت انصرافها إليه كرامة لها وتطييبا لقلب إبراهيم عليه السلام . قالوا : وكانت هاجر ذات هيئة ، فوهبها سارة لإبراهيم ، فقالت : إني أراها امرأة وضيئة ، فخذها لعل الله تعالى أن يرزقك منها ولدا ، وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت ، فوقع إبراهيم على هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام .

روى محمد بن إسحاق عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا افتتحتُم مِصرَ فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمّة ورحمًا » قال ابن إسحاق : فسألت الزهري ما الرحم الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كانت هاجر أم إسماعيل منهم .

قالوا : ثم خرج إبراهيم من مصر إلى الشام ، وهاب ذلك الملك الذي كان بها وأشفق من شره ، فنزل السبع من أرض فلسطين واحترف بها بئرا واتخذ بها مسجدا ، وكان ماء تلك البئر معينا ظاهرا ، وكانت غنمه تردّها ، فأقام إبراهيم عليه السلام بالسبع مدة ، ثم إن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى ، فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيليا ببلد يقال لها قطة . فلما خرج من بين أظهرهم نصب ماء تلك العين وذهب ، فندم أهل السبع جميعا على ما صنعوا وقالوا : أخرجنا من بين أظهرنا رجلا صالحا ، فاتبعوا أثره حتى أدركوه وسألوه أن يرجع ، فقال : ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه ، قالوا : إن الماء الذي كنت تشرب وتشرب معك قد نضب وذهب ، فأعطاهم سبعة أعنز من غنمه وقال : اذهبوا بها معكم ، فإنكم إذا أوردتموها البئر ظهر الماء حتى يكون معينا ظاهرا كما كان فاشربوا منها ولا تقربنها امرأة حائض ، فخرجوا بالأعنز . قال : فلما وقفت على البئر ظهر الماء ، فكانوا يشربون منها وهي على تلك الحال حتى أتتها امرأة طامث ، فاغترفت منها فركد ماؤها إلى الذي هو عليه اليوم .

وأقام إبراهيم عليه السلام بيده ، وكان يضيف من نزل به ، وقد وسع الله تعالى عليه ، وبسط له من الرزق والمال والخدم .

فلما أراد الله تعالى هلاك قوم لوط عليه السلام ، بعث إليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم ، وأمرهم أن يبدعوا بإبراهيم عليه السلام ويبشروه وسارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، فلما نزلوا على إبراهيم عليه السلام وكان الضيف قد حبس عنه خمسة عشر يوما حتى شق عليه ذلك ، وكان لا يأكل إلا مع ضيف ما أمكنه ، فلما رآهم على صورة الرجال سر بهم ، ورأى ضيوفا لم يضيف مثلهم حسنا وجمالا ، فقال : لا يخرج هؤلاء القوم إلا أنا ، فخرج فجاء بعجل سمين حسيذ ، وهو المشوى بالحجارة ، فقربه إليهم ، فأمسكوا أيديهم عنه ، (فقال لهم) : ألا تأكلون ؟ (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه تكبرهم وأوجس منهم خيفة) حيث لم يأكلوا من طعامه ، فقالوا يا إبراهيم : لاناكل طعاما إلا بشئ ، قال : فإن لهذا ثمنا ، قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تذكرون اسم الله تعالى على أوله ، وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل عليهما السلام وقال : يحق لهذا أن يتخذه ربه خليلا ، ثم قالوا له : لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته سارة قائمة بخدمهم وإبراهيم قاعد معهم ، فلما أخبروه بما أرسلوا به وبشروه بإسحاق ويعقوب ضحكت سارة .

واختلف العلماء في العلة الجالبة لضحكها ما هي ؟ فقال السدي : إنما ضحكت سارة حيث لم يأكلوا من طعامهم ، وقالت : يا عجبا لأضيافنا هؤلاء إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمه لهم وهم لا يأكلون طعامنا ! وقال قتادة : ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم . وقال مقاتل والكلبي : ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهم فيما بين خدمه وحشمه . وقال ابن عباس : ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها ، وكانت هي بنت تسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة .

قال السدي : قالت سارة لجبريل عليه السلام لما بشرها بالولد على حالة الكبر : ما آية ذلك ؟ فأخذ بيده عودا يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر ، فقال إبراهيم : هو لله إذن ذبيح . وقال مجاهد وعكرمة : فضحكت ، أي حاضت في الوقت ، تقول العرب : ضحكت الأرنب إذا حاضت . وقال السدي وابن يسار وغيرهما من أهل الأخبار : فحملت سارة بإسحاق ، وقد كانت حملت هاجر بإسماعيل فوضعتا معا ، فشب الغلامان ، فبينما هما يتناضلان ذات يوم وقد كان إبراهيم عليه السلام سابق بينهما ، فسبق إسماعيل فأخذه وأجلسه في حجره ، وأجلس إسحاق إلى جانبه وسارة تنظر إليه ، فغضبت وقالت : عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته في حجرك ، وعمدت إلى ابني فأجلسته إلى جنبك وقد حلفت أن لا تنصني ، ولا تسوءني ، وأخذها ما يأخذ النساء من الغيرة ، فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقها ، ثم تاب إليها عقلها فبقيت متحيرة في ذلك ، فقال لها إبراهيم عليه السلام : اخفضيها واتقي أذنيها ، ففعلت ذلك فصارت سنة في النساء . ثم إن إسماعيل وإسحاق عليهما

السلام اقتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان ، فغضبت سارة على هاجر وقالت : لاتساكنيني في بلد واحد ، وأمرت إبراهيم عليه السلام أن يعزلها عنها ، فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن يأتي بهاجر وابنها مكة ، فذهب بهما حتى قدم مكة وهي إذ ذاك عِصَاهُ وسَلَمٌ وَسَمْرٌ ، وبجوالها خارج مكة ناس يقال لهم العماليق ، وموضع البيت يومئذ ربوة حمراء . فقال إبراهيم عليه السلام لجبريل عليه السلام : ههنا أمرت أن تضعها ؟ قال : نعم . فعمد بها إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه ، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ عريشا ، ثم قال (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَامِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) ثم انصرف ، فاتبعته هاجر وقالت : إلى من تكلنا ؟ فجعل لا يرد عليها شيئا ، فقالت : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، فقالت : إذن لا يضيعنا . ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وكان مع هاجر شنة فيها ماء ، فنقد الماء فعطشت وعطش الصبي ، فنظرت أي الجبال أدنى من الأرض ، فصعدت الصفا ، وتسمعت : هل تسمع صوتا أو ترى إنسيا ؟ فلم تسمع شيئا ولم تر أحدا ، ثم إنها سمعت أصوات سباع الوادي نحو إسماعيل ، فأقبلت إليه بسرعة لتؤنسه ، ثم سمعت صوتا نحو المروة فسعت وما تريد السعي كالإنسان المجهود ، فهي أول من سعى بين الصفا والمروة ، ثم صعدت إلى المروة فسمعت صوتا كالإنسان الذي يكذب سمعه حتى استيقنت ، وجعلت تدعو اسمع إيل : تعنى : الله قد أسمعتني صوتك فأغثنى فقد هلكت وهلك من معي ، فإذا هي بجبريل عليه السلام ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : سُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرْكَنِي وَابْنِي هَهْنَا ، قَالَ : وَإِلَى مَنْ وَكَلَكَمَا ؟ قَالَتْ : وَكَلْنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ : لَقَدْ وَكَلَكَمَا إِلَى كَرِيمٍ كَافٍ ، ثُمَّ جَاءَ بِهِمَا وَقَدْ نَفَدَ طَعَامُهُمَا وَشَرَابُهُمَا حَتَّى انْتَهَى بِهِمَا إِلَى مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَضْرَبَ بِقَدَمِهِ فَفَارَتْ عَيْنٌ ، فَلذَلِكَ يُقَالُ لَزَمْزَمَ رَكْضَةٌ فَجَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمَّا نَبَعَ الْمَاءَ أَخَذَتْ هَاجِرُ شَنَةَ لَهَا وَجَعَلَتْ تَسْتَقِي فِيهَا وَتَدْخُرُهُ ، فَقَالَ لَهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنهَا رِيٌّ ، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَحْبِسُهَا حَبْسًا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَوْلَا أَنَّهَا عَجَلَتْ لَكَانَتْ زَمْزَمٌ عَيْنًا مَعِينًا » وَقَالَ لَهَا جَبْرِيلُ : لَا تَخَافِي الظَّمَأَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ، فَإِنَّهَا عَيْنٌ يَشْرَبُ مِنْهَا ضَيْفَانُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ لَهَا : أَمَا إِنْ أَبَا هَذَا الْغَلَامِ سَبَجِيءٌ فَيَبْنِيَانِ لِلَّهِ تَعَالَى بَيْتًا هَذَا مَوْضِعُهُ . قَالُوا : وَمَرَّتْ رُفْقَةٌ مِنْ جَرْمِ تَرِيدِ الشَّامِ ، فَرَأَوُا الطَّيْرَ عَلَى الْجَبَلِ ، فَقَالُوا : إِنْ هَذَا الطَّيْرُ لِحَائِمٌ عَلَى مَاءٍ ، فَأَشْرَفُوا فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ ، فَقَالُوا لَهَا جَاجِرُ : إِنْ شِئْتَ كُنَّا مَعَكَ فَأَنْسَاكَ وَالْمَاءَ مَأْوِكَ ، فَأَذْنَتْ لَهُمْ ، فَزَلُّوا مَعَهَا ، وَهُمْ أَوَّلُ سُكَّانِ مَكَّةَ ، فَالذَّكَ كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ فِي تَلْبِيئِهَا :

لَاهُمْ إِنْ جَرَّمَا عِبَادَكَ النَّاسَ طَارِفٌ وَهُمْ تَلَادَكَ وَهُمْ قَدِيمًا عَمَرُوا بِلَادَكَ
لَكَانُوا هُنَاكَ حَتَّى شَبَّ إِسْمَاعِيلُ وَمَاتَتْ هَاجِرُ ، فَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ امْرَأَةً مِنْ جَرْمِ وَأَخَذَ

لسانهم فتعرب بهم ، فأولاده العرب المتعربة . ثم إن إبراهيم عليه السلام استأذن سارة أن يزور هاجر وابنها ، فأذنت له ، واشترطت عليه أن لا ينزل ، فقدم إبراهيم عليه السلام مكة وقد ماتت هاجر ، ويقال إنه قدمها راكبا البراق . فلما قدمها ذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ليس ههنا ، ذهب يتصيد ، وكان إسماعيل يخرج من الحرم يتصيد ثم يرجع ، وكان مولعا بالصيد فخص بالقنص والفروسية والرمى والصراع ، فقال لها إبراهيم عليه السلام : هل عندك ضيافة ، هل عندك طعام أو شراب ؟ قالت : ليس عندي شيء وما عندي أحد . فقال لها إبراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئني مني السلام وقولي له فليغير عتبة بابه . فذهب إبراهيم عليه السلام ودخل إسماعيل فوجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ فقالت : جاءني شيخ صفتة كذا وكذا كالمستخفة بشأنه ، قال : فما قال لك ؟ قالت قال : أقرئني زوجك السلام وقولي له فليغير عتبة بابه ، فطلقها وتزوج أخرى . فلبث إبراهيم عليه السلام ما شاء الله ، ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل ، فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل ، فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل ، فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد ، وهو يجيء الآن إن شاء الله تعالى ، فانزل يرحمك الله ، قال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم ، فجاءت باللبن واللحم ، فدعاهم بالبركة ، فلو جاءت يومئذ بنخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرًا ، ثم قالت له : انزل حتى أغسل رأسك وشعثك ، فلم ينزل ، فجاءته بالمقام فوضعت عند شقه الأيمن ، فوضع قدمه عليه ، فبقي أثر قدمه فيه ، فغسلت شق رأسه الأيمن ثم جمعت المقام إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر ، فقال لها : إذا جاء زوجك فأقرئني السلام وقولي له : قد استقامت عتبة بابك . فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم جاءني شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا ، فقال لي كذا وكذا ، وقلت له كذا وكذا وغسلت له رأسه وهذا موضع قدميه على المقام ، فقال : ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

قال أنس بن مالك : رأيت في المقام أثر أصابع إبراهيم عليه السلام وعقبه وأخص قدميه غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم .

وأخبرنا محمد بن أحمد بن عبدون قال : أخبرنا محمد بن حمدون بن خالد حدثنا محمد ابن إبراهيم ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا أبو يحيى بن جابر بن مسح القرشي قال : سمعت مسافر بن شيبه يقول : سمعت عبد الله بن عمر يقول : أشهد ثلاث مرات أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ بِأَقْبُوتَانِ مِنْ بَوَاقِيَتِ الْجَنَّةِ ، طَمَسَ اللَّهُ نُورَهُمَا ، وَلَوْلَا أَنْ طَمَسَ اللَّهُ نُورَهُمَا لِأَضَاءِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .»

الباب الرابع : في القول على بقية قصة زمزم

روت الرواة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال عبد المطلب بن هاشم : بينما أنا تائم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي : احفر طيبة ، قلت : وما طيبة ؟ فذهب عني ولم يجبني ، فلما كانت الليلة الثانية جاءني فقال : احفر درة ، قلت : وما درة ؟ فذهب عني ولم يجبني . فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فقال : احفر المذنونة ، قلت : وما المذنونة ؟ فذهب عني ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي فتمت ، فجاءني فقال : احفر زمزم ، فقلت : وما زمزم ؟ وكانت قد درست وغار ماؤها لما مضت أيام إسماعيل عليه السلام ، قال : بر يستقي الحجيج منه عند منحر قريش عند نقرة الغراب وقرية النمل ، فلما تبين له قام فدلّ على موضعه وعرف أنه قد صدق ، فغدا بمعوله ومعه الحارث ابنه وليس له ولد يومئذ غيره . فلما علمت به قريش قاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب إنها من آثار أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا فأشركنا فيها ، فقال : ما أنا بفاعل إن هذا شيء خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم ، قالوا له : فأنصفنا فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أخاصمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيل ، قال نعم ، وكانت في أطراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف ، فركب من كل قبيلة من قريش نفر ، قال : والأرض إذ ذاك مفاوز ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز نفذ ما كان معهم من الماء حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا : إنا بمفازة وإننا نخ على أنفسنا أن يصيبنا مثل ما أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم قال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : إن رأينا تبع لرأيك ، فأمرنا بما شئت ، قال : فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم لنفسه حفرة بما يجد من القوة ، فكل من مات منا دون صاحبه دفنه في حفرته . قال : فحفروا وجلسوا ينتظرون الموت ، ثم قال عبد المطلب : وما لنا لانضرب في الأرض ، فعسى الله تعالى أن يرزقنا ماء ، فارتحلوا ومن معهم من قريش ينتظرون إليهم ما هم فاعلون ؟ وتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما أن انبعثت به انفجرت من تحت حوافر دابة عبد المطلب عين ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب منه وشرب أصحابه حتى رَوُوا وملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلموا إلى الماء فقد سقانا الله تعالى وإياكم فشربوا وسقوا . ثم قالوا : قد والله قضى الله لك علينا يا عبد المطلب ، والله لانخاصمك في زمزم أبدا ، إن الذي سقاك هذا الماء في هذه القلاة فهو ساقيك زمزم فارجع ، فرجع ورجعوا معه حتى وافوا مكة واخلوا بينه وبين زمزم . ولما جن الليل رأى عبد المطلب في منامه كأن قائلا يقول له :

يا أيها المدلج احفر زمزم إنك إن حفرتها لم تندم
وهي تراث من أهلك الأعظم تسقى الحجيج حافلا لم ينقم

فلما سمعه عبد المطلب قال : وأين موضع زمزم ؟ قيل له : عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم . قال : فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عند الوثنين : إساف ونائلة ، اللذين كانت قريش تعبدهما وتنحرن عندهما ، فجاء بالمعول وقام ليحضر حيث أمر ، فقامت قريش إليه وقالوا : والله لا نتركك أن تحفرها ووثنانا ومنحرننا عندها . وكانت قريش حسدوه على ذلك ، لأنهم أخبروا أن جرهما لما سكنت مكة أودعت في زمزم أموالا وأسلحة للمصطفى صلى الله عليه وسلم لما أخبرت أن الله تعالى باعث في هذه القرية نبيا من صفته وحاله كيت وكيت ، ولم يكونوا عرفوا موضعها . فلما أخبر بذلك عبد المطلب نازعوه في ذلك ، فقال بعضهم لبعض : دعوه يحفر فرجما يخطئ الموضع ، فحفر غير بعيد فظهرت له العلامات فكبر ، فعرفوا أنه لم يخطئ ، فمادى حتى بلغ إلى تمثالين من ذهب ، وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم ، ووجد فيها سيوفا ودروعا ، فقالت له قريش : يا عبد المطلب ، لنا معك في هذا شركة ، قال : لا ، ولكن نضرب بالقداح عليه ، قالوا : وكيف نصنع ؟ قال : اجعلوا للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له ؛ قالوا أنصفت ، فجعل قدحين أصفرين للكعبة ، وقدحين أسودين لعبد المطلب ، وقدحين أبيضين لقريش ؛ ثم أعطوا القداح التي تضرب بها عند هبيل ، وقام عبد المطلب يدعو ، فخرج السهمان الأصفران على الغزالين للكعبة ، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش . قال : فعلق عبد المطلب الأسياف والأدرع بباب الكعبة ، وضرب في الباب الغزالين الذهب ، فكان أول ذهب حليت به الكعبة ، وكانت الرياسة والتقدمة لعبد المطلب قبل حفر زمزم ، فلما جفها وأخرج منها ما أخرج ازداد بذلك في قريش عيظا وجاها ومنزلة ، وعافت الحجيج المياه التي كانت بمكة ونواحيها وأقبلوا على زمزم لما كان من عدوبة ماؤها لكونها من أثر إسماعيل عليه السلام ، وافتخرت بذلك بنو عبد مناف على قريش وعلى سائر العرب ، والله أعلم .

الباب الخامس : في صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا

أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبي أحمد الفرائي ، أخبرنا الحسن بن المغيرة بن عمر بن الوليد المغربي بمكة ، حدثنا أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم بن المفضل ، حدثنا عبد الله بن أبي غسان اليماني ، حدثنا أبو همام ، حدثنا محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ابن عباس ، قال : قال اليماني : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان البيت قبل هبوط آدم عليه السلام ياقوتة من يواقيت الجنة ، والبيت المعمور الذي في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة حذاء الكعبة الحرام ، وإن الله تعالى أهبط آدم عليه السلام إلى موضع الكعبة وهو مثل الفلنك من شدة رعدته ، وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلأل كأنه لؤلؤة

بَيْضَاءُ ، فَأَخَذَهُ آدَمُ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ اسْتِثْنَاءً بِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَنِي آدَمَ مِيثَاقَهُمْ ، فَجَعَلَهُ فِي الْحَجَرِ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى آدَمَ الْعَصَا ، ثُمَّ قَالَ يَا آدَمُ تَخَطَّ ، فَتَخَطَّى فَإِذَا هُوَ بِأَرْضِ الْهِنْدِ فَكَثَّ هُنَاكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمَكُثَ ، ثُمَّ اسْتَوَحَّشَ إِلَى الْبَيْتِ ، فَقِيلَ لَهُ حُجَّ يَا آدَمُ ، فَأَقْبَلَ بِتَخَطُّي ، فَصَارَ مَوْضِعَ كُلِّ قَدَمٍ قَرْيَةً ، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ مَقَاوِزُ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَلَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَتْ : بَرَّ حَجُّكَ يَا آدَمُ ، لَقَدْ حَجَجْنَا هَذَا الْبَيْتَ قَبْلَكَ بِالْفَتَى عَامٍ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ حَوْلَهُ ؟ قَالُوا : كُنَّا نَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، فَكَانَ آدَمُ إِذَا طَافَ بِالْبَيْتِ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ ، وَكَانَ آدَمُ يُطَوفُ بِالْبَيْتِ سَبْعَةَ أَسَابِيعَ ، خَمْسَةَ أَسَابِيعَ بِاللَّيْلِ وَبِالنَّهَارِ أُسْبُوعَانِ ، فَقَالَ آدَمُ : يَا رَبِّ اجْعَلْ لِي هَذَا الْبَيْتَ عِمَارًا يَعْمُرُونَهُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ إِنِّي مُعْمِرُهُ بِبَنِي مِنْ ذُرِّيَّتِكَ اسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ اتَّخِذْهُ خَلِيلًا أَقْضِي عَلَى يَدَيْهِ عِمَارَتَهُ وَأَنْسِطُ لَهُ سِقَايَتَهُ ، وَأُورِثُهُ حِلَّهُ وَحَرَمَهُ وَمَوَاقِفَهُ وَأُعَلِّمُهُ مَشَاعِرَهُ وَمَنَاسِكَهُ ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ بِنَائِهِ نَادَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَنَى بَيْتًا فَحُجُّوهُ ، فَاسْمَعْ مَا بَيْنَ الْحَافِقِينَ ، فَأَقْبَلَ مِنْ يَحُجُّ هَذَا الْبَيْتَ مِنَ النَّاسِ يَقُولُونَ : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ : يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ لِمَنْ مَاتَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مِنْ ذُرِّيَّتِي لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا أَنْ تُلْحِقَهُ لِي فِي الْجَنَّةِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا آدَمُ مَنْ مَاتَ فِي الْحَرَمِ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا بَعَثْتُهُ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وروت الرواة بأسانيد مختلفة : أن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض كان رجلاه في الأرض ورأسه في السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم وتسييحهم ويأنس إليهم ، فهابته الملائكة واشتكت ذلك إلى الله عز وجل ، فنقصه الله تعالى إلى ستين ذراعاً بذراع آدم ؛ فلما فقد آدم عليه السلام ما كان يسمع من أصوات الملائكة وتسييحهم استوحش وشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فأنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن ، ثم قال : يا آدم إني أهبطه لك بيتاً تطوف به كما يطاف حول عرشي وتصلي عنده كما كنت تصلني عند عرشي ، فتوجه آدم عليه السلام إلى مكة ورأى البيت فطاف به وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : أوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام : إن لي حرراً بجبال عرشي ، فانطلق فابن لي بيتاً فيه ، ثم حف به كما رأيت الملائكة يحفون بعرشي ، فهناك استجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي ، قال آدم : رب كيف لي بذلك ولا أقوى عليه ولا أهتدي إليه ؟ فقيض الله له ملكاً ، فانطلق نحو مكة ، فكان آدم عليه السلام إذا مر

بروضة وبمكان يعجبه ، قال للملك : انزل بي ههنا ، فيقول له الملك : مكانك حتى قدم مكة ، فكان كل مكان نزل فيه عمرانا ، وكل مكان تعداه مفاوز وقفاراً ، ثم بنى البيت . فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات ، فأراه المناسك كلها التي يفعلها الناس كلها اليوم ، ثم قدم به مكة وطاف بالبيت أسبوعاً ، ثم رجع إلى أرض الهند فات على نور . قال أبو يحيى بائع القت : قال لي مجاهد : لقد حدثني عبد الله بن عباس أن آدم نزل حين نزل بالهند ، ولقد حج منها أربعين حجة على رجله ، فقلت له : يا أبا الحجاج ألا كان يركب ؟ قال : وأي شيء كان يحمله ؟ والله إن خطوته مسيرة ثلاثة أيام .

وقال وهب بن منبه : إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم يرفيها أحداً غيره ، قال : يا رب أما لهذه الأرض عامر يسبح بحمدك ويقدمك غيري ؟ قال الله تعالى : إني سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدي ويقدمني ، وسأجعل فيها بيوتاً ترفع بذكرى ويسبح فيها خلقي ويذكر فيها اسمي ، وسأجعل من تلك البيوت بيتاً أخصه بكرامتي وأوثره باسمي وأسميه بيتي ، أنطقه بعظمتي ، وعليه وضعت جلالتي ، ثم أجعل ذلك البيت حرماً آمناً يحرم بحرمة من حوله ومن تحته ومن فوقه ، فمن حرمة بحرمة استوجب بذلك كرامتي ، ومن أخاف أهله فقد ضيع ديني وخضر ذمتي وأباح حرمتي ، أجعله أول بيت وضع للناس يأتونه شعثاً غبراً (وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق) يضحجون بالتلبية ضجيجاً ، ويثجون بالبكاء أجيجاً ، ويعجبون بالتكبير عجيجاً ؛ فمن أثره لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارتي وضافني ، وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن ينعم ويتفضل ويسعف كلا بحاجته ، تعمره يا آدم ما كنت حياً ، ثم يعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن ، فهكذا كان بدء أمر الكعبة حرسها الله تعالى ، ثم كانت على ذلك إلى أيام الطوفان ، فلما كان أيام الطوفان رفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة ، وبعث جبريل عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود في جبل أبي قبيس صيانة له من الغرق ، فكان موضع البيت خالياً إلى زمان إبراهيم عليه السلام ، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ببناء بيت له يعبد فيه ويذكر اسمه ، فلم يدر إبراهيم في أي موضع يبنيه ، فسأل الله عز وجل أن يبين له ذلك .

واختلف العلماء في كيفية بيان ذلك ، فقال قوم : بعث الله إليه السكينة لتدله على موضع البيت كما حدث سماك بن حرب عن خالد بن عرعة أن رجلاً قام إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : ألا تخبرني عن البيت ؟ أهو أول بيت وضع للناس ؟ فقال : لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة ، ووضع فيه مقام إبراهيم عليه السلام ، ومن دخله كان آمناً ، وإن شئت أنبأتك كيف بُني : إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ابن لي بيتاً في الأرض ، فضاق بذلك إبراهيم ذرعاً ، فأرسل الله عز وجل السكينة وهي ريح

نحجوج ولها رأسان ، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهيا إلى مكة فتطوقت على موضع البيت كتطوق الحجفة ، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فبنى بيتا .
 وقال آخرون : أرسل الله تعالى إليه سبحانه على قدر الكعبة ، فجعلت تسير معه إلى أن قدم مكة ، فوقفت في موضع البيت ونودي : يا إبراهيم ابن علي ظلها لاتزد ولا تنقص .
 وقال بعضهم : إن الذي خرج مع إبراهيم عليه السلام من الشام لدلالته على موضع البيت جبريل عليه السلام ، وذلك قوله عز وجل (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) الآية .
 قالوا : فجعل إبراهيم بينه وإسماعيل يناوله الحجارة ، وكان إبراهيم عبرانيا وإسماعيل عربيا ، فألم الله تعالى أحدهما لسان صاحبه ، فكان إبراهيم عليه السلام يقول : هب لي كينا : يعني هات لي حجرا ، فيقول له إسماعيل : هاك فخذ ، فبنا الكعبة من خمسة أجبل : طور سينا وطوزيتا ولبنان والحدودي ، وبنيت قواعد من حراء . قال فبنى حجر فذهب لإسماعيل يبتغيه ، ثم رجع فوجده قد ركب الحجر في مكانه ، فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ، فقال له : أتاني به من لم يكن لي إليك ، ثم قال إبراهيم لإسماعيل : ائتني بحجر حسن أضعه على الركن ليكون علما للناس ، فناداه أبو قبيس : يا إبراهيم إن لك عندي وديعة فهالك فخذها ، فأخرج إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود من جبل أبي قبيس وركبه في موضعه .
 فلما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت وأتماه دعوا ربهما ، فذلك قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) إلى قوله (وأرنا منا سكتنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) فأجاب الله تعالى دعاءهما وأرسل جبريل عليه السلام إليهما ليعلمهما مناسك الحج ، فخرج بهما يوم التروية إلى منى ، فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى أصبح فصلى بهما الصبح ، ثم غدا بهما إلى عرفة فقام بهما هناك ، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر ، ثم راح بهما إلى الموقف من عرفة ، فوقف بهما على الموضع الذي يتف عليه الناس اليوم ، فلما غربت الشمس دفع بهما إلى المزدلفة ، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء ، ثم بات بهما حتى طلع الفجر ، ثم صلى بهما صلاة الغداة ، فوقف بهما على قزح حتى إذا أسفر الصبح أفاض بهما إلى منى ، فأراهما كيف يرميان الجمار ، ثم أمرهما بالذبح ، وأراهما المنحر من منى وأمرهما بالحلوق ، ثم أفاض بهما إلى البيت ، فأوحى الله تعالى إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) ثم أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ فقال عليك الأذان وعلى البلاغ ، فعلا ثيرا ونادى : يا عباد الله إن ربكم قد نبى بتا فحجوه وأجيبوا داعي الله ، فسمعه ما بين السماء والأرض وما بين الأبحر ، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه كل من آمن بالله ممن سبق في علم الله تعالى أن يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك .

وقال عبد الله بن الزبير لعبيد بن عمير : استقبل إبراهيم عليه السلام اليمن والمشرق والمغرب والشام فدعا إلى الحج ، فأجيب : لبيك اللهم لبيك ، وذلك قوله عز وجل (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلف ضامير يأتين من كل فج عميق) الآيات . فلم يزل البيت على ما بناه إبراهيم عليه السلام إلى سنة خمس وثلاثين من مولد نبينا صلى الله عليه وسلم ، وذلك قبل مبعثه بخمس سنين ، فهدمت قريش الكعبة ثم بنتها . وكان السبب في ذلك على ما ذكر محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار أن الكعبة كانت رضة فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقيفها ، وكان بمكة رجل قبضي نجار فيها لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانوا يهابونها ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا كشرت وفتحت فاما ، فكانوا يهابونها ، فينا هي ذات يوم على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، فبعث الله طائراً فاخطفها فذهب بها ، وقالت قريش : إنا لندرجو أن الله تعالى قد رضى ما أردناه من عمارة بيته ، وإن عندنا عاملاً رفيقاً وخشباً ، وقد كفانا الله تعالى الحية ، وذلك بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة .

فلما أجمعوا أمرهم على هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عمرو بن عمرو ابن مخزوم ، وتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً ، ولا تدخلوا فيها من مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس . ثم إن الناس هابوا هدمها ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدأ لكم في هدمها ، فأخذ المول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لا تريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا : ننتظره فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء فقد رضى الله تعالى بما فعلنا ، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم إلى الأساس ، فأفضوا إلى حجارة خضر كأنها أسنمة الإبل أخذ بعضها ببعض ، فأدخل رجل من قريش عتلة بين حجرين منها ليقلع أحدهما ، فلما تحرك الحجر تحركت مكة بأسرها ، فعلموا أنهم قد انتهوا إلى الأساس ، وقالوا : إن القبائل قد اجتمعت لبنائها ، فجعلت كل قبيلة تجمع على حدثها ثم بنوا ، فلما بلغوا في البناء إلى موضع الركن اختصموا فيه ، فكل قبيلة أرادت أن تضعه في صفة دون الأخرى ، حتى تحالفوا وتحالفوا وتواعدوا للقتال ، فحربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم في هذا الدم فسموا لعنة الدم بذلك ، فكثروا أربع ليالى أو خمس ليالى على ذلك ، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض الرواة أن أبا أمية بن المغيرة كان حينئذ أسن قريش كلها ، فقال لهم : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب

هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، فرضوا بذلك وتوافقوا عليه ، فكان أول من دخل عليهم : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا محمد الأمين قد رضينا به ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال : هلموا إلى ثوبا ، فأتوا به ، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ذلك حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده ثم بنوا عليه . قالوا فكانت الكعبة كذلك على ما بنته قريش إلى سنة أربع وستين من الهجرة حتى حاصر الحُصين بن نمير السكُوني عبد الله بن الزبير فقتلوا البيت بالمنجنيق ، وأخذوا يرتجزون ويقولون :

خطارة مثل الفنيق المزبد ترمى بها عيدان هذا المسجد
وقال آخر منهم :

كيف ترى صنيع أم فروة تأخذهم من الصفا والمروة

أم فروة : اسم منجنيق ، قالت حيطان الكعبة مما رميت به من حجارة المنجنيق ، وإنما مع ذلك احترقت ؛ وكان السبب فيه أنهم كانوا يوقدون حولها ، فأقبلت شرارة هب بها الريح فأحرقت باب الكعبة واحترق خشب البيت .

وقال الواقدي : حدثني عبد الله بن زيد قال : حدثني عروة بن أذينة ، قال : قدمت مكة مع أبي يوم احترقت الكعبة وقد خلصت إليها النار ، ورأيت الركن قد اسود وانصدعت منه ثلاثة أمكنة ، فقلت : ما أصاب الكعبة؟ فأشاروا إلى رجل من أصحاب ابن الزبير ، قالوا : احترقت بسبب هذا ، أخذ قبسا في رأس ربح له ، فطارت الريح به ، فضربت أستار الكعبة ما بين الركن اليماني والحجر الأسود .

وقال بعضهم : كان السبب في ذلك أن امرأة كانت تبخر البيت ، فطارت شرارة من النار فاحترق البيت ، وكان أول ما تكلم الناس في القدر يومئذ ، فقال قوم : هو من قدرة الله ، وقال قوم : ليس من قدرة الله . قالوا : فهدم عبد الله بن الزبير الكعبة حتى سواها بالأرض ، وكان الناس يطوفون بها من وراء الأساس ويصلون إلى موضعها ، وجعل الحجر الأسود عنده في تابوت في خرقة من حرير ، وجعل ما كان من حلي البيت وما وجد فيه من ثياب وطيب عند الحجبة في خزانة البيت ثم أعاد بناءه ، وقال : إن أمي أسماء بنت أبي بكر حدثتني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة : « لولا حدأة عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم فأزيد في الكعبة الحجر ، وإن قريشا أعوزتهم النفقة فأخرجوا الحجر من البيت ، ولجعت لها بابين : بابا شرقيا وبابا غربيا . فأمر به ابن الزبير فحضر ، فوجدوا قلاعاً أمثال الإبل ، فحركوا منها حفرة فبرقت برقة ، فقال : أقروها على أساسها ، فبناها ابن الزبير وأدخل فيها الحجر ، وجعل لها بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر ، فكانت الكعبة على ما بناها ابن الزبير إلى سنة أربع وسبعين حتى قتل الحجاج بن يوسف الثقفي عبد الله بن

الزبير ، وولى الحجاز من قبيل عبد الملك بن مروان ، فنقض الحجاج بنيان الكعبة الذى كان بناه ابن الزبير ، بأمر عبد الملك وأعادها إلى بنائها الأول بمشهد من مشايخ قريش ، فهى اليوم على ما بناها الحجاج ، إلا ما كان من قلع القرمطى صاحب البحرين لعنه الله - الحجر الأسود عام أوقع بالحجيج بمكة ، فذهب به مع من أسر من الحاج إلى البحرين ، ثم أُخذ منه ورداً إلى موضعه ، وذلك على يد شيخنا أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى البرمكى النيسابورى رحمة الله عليه .

الباب السادس : فى ذكر أمر الله تعالى خليله عليه السلام بذبح ولده

قال الله تعالى (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .
واختلف السلف من علماء المسلمين فى الذى أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه من ابنه بعد إجماع أهل الكتاب ، على أنه كان إسحاق عليه السلام ، فقال قوم : هو إسحاق ، وإليه ذهب من الصحابة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى بن أبى طالب ، ومن التابعين وأتباعهم كعب الأحبار وسعيد بن جبير والقاسم بن أبى برة ومسروق بن الأجدع وعبد الرحمن بن أبى سابط وأبو الهذيل والزهرى والسدى .

روى شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص قال : افتخر رجل عند عبد الله بن مسعود قال : أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله : ذلك يوسف بن يعقوب ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وروى سفيان عن زيد بن أسلم عن عبيد الله بن عبيد بن عمير عن ابيه عن جده قال . قال موسى عليه السلام : يا رب يقولون : يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فلم قالوا ذلك ؟ فقال : إن إبراهيم لم يعدل بى شيئاً قط إلا اختارنى عليه ، وإن إسحاق جاد لى بالذبح ، فهو بغير ذلك أجود ، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن .

وروى حمزة بن الزيات عن أبى إسحاق عن أبى ميسرة قال : قال يوسف عليه السلام لملك مصر : أترغب أن تأكل معى ، وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله . وقال الآخرون : هو إسماعيل ، وإلى هذا القول ذهب عبد الله بن عمر وأبو الطفيل عامر بن وائلة وسعيد بن المسيب والشعبى ويوسف بن مهران ومجاهد . وكان الشعبى يقول : رأيت قرنى الكبش منوطين بالكعبة .

وروى عمر بن عبيد عن الحسن البصرى أنه كان لا يشك فى أن الذى أمر بذبحه من بنى إبراهيم هو إسماعيل ، وهى رواية عطاء بن أبى رباح عن عبد الله بن عباس قالوا : المقدى إسماعيل ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود .

وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول : إن الذى أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنه إسماعيل ، وإنما لنجد ذلك فى كتاب الله تعالى فى قصة الحق عن

إبراهيم عليه السلام ، وما أمر به من ذبح ابنه أنه إسماعيل ، وذلك أن الله عز وجل يقول حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) وقال تعالى (فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) يقول بابن وابن ابن . فلم يكن يأمره بذبح إسحاق ، وله فيه من الله تعالى من الموعود ما وعده ، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل . قال محمد بن كعب القرظي : فذكرت ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة ، إذ كنت معه بالشام ، فقال لي عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام ، وكان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علماء اليهود ، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك وأنا عنده ، فقال له : أي ابني إبراهيم الذي كان أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين إن اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذي كان أمر الله بذبحه ، لما فيه من الفضل الذي ذكر أنه كان منه ، بصبره على ما أمر به ، فهم يحسدون ذلك ويؤمنون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا القولين ، ولو كان فيهما قول صح بالإجماع لم يعزه أبو عبد الله إلى غيره .

فأما الرواة التي روت عنه أن الذبيح إسحاق ، فأخبرني عبد الله بن الحسين بن محمد عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الَّذِي أَرَادَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَذْبَحَهُ إِسْحَاقُ » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « الَّذِي فَدَاهُ اللَّهُ بِذَبْحِ عَظِيمٍ إِسْحَاقُ » . وأخبرنا أبو عبد الله ، أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان أخبرنا يوسف ابن عبد الله بن ماهان ، أخبرنا موسى بن إسماعيل ، أنبأنا المبارك عن الحسن عن الأحنف ابن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَشْفَعُ إِسْحَاقُ بَعْدِي فَيَقُولُ يَا رَبِّ صَدَّقْتَ نَبِيَّكَ وَجَدْتَ بِنَفْسِي لِلذَّبْحِ فَلَا تُدْخِلِ النَّارَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا . قال : فيقول الله : وَعِزَّتِي لَا أُدْخِلُ النَّارَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا » . وأخبرنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد ابن إسحاق المزني قراءة عليه سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة ، أنبأنا جدِّي أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة إمام الأئمة ، أنبأنا علي بن حجر ، أنبأنا عمر بن حفص عن أبان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ خَبَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يَغْفِرَ لِنِصْفِ أُمَّتِي ، وَبَيْنَ أَنْ أَخْتَبِي شَفَاعَتِي ، فَاخْتَرْتُ شَفَاعَتِي وَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَعْمَ لَأُمَّتِي وَلَوْلَا الَّذِي سَبَقَنِي إِلَيْهِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ لَتَعَجَّلْتُ مِنْهَا دَعْوَتِي » . وذلك أن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كرب الذبيح قبل له يا إسحاق سل تعط ، فقال : أما والذي نفسي بيده لاتعجلها قبل نزع الشيطان ، اللهم من مات لا يشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة .

وأما الرواة التي روت عنه صلى الله عليه وسلم أن الذبيح إسماعيل ، فروى عمر بن عبد الرحمن الخطاني بإسناده عن الصباحي قال : كنا عند معاوية بن أبي سفيان ، فذكروا أن الذبيح إسماعيل أو إسحاق ، فقال : على الخير سقطتم ، كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رجل فقال : يا رسول الله أعد علي ما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل يا أمير المؤمنين ومن الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما حفر زمزم نذر لربه إن سهل الله عليه أمرها ليدبحن أحد ولديه ، قال : فخرج السهم على عبد الله ، فمنعه أخواله وقالوا له : افد ولدك بمائة من الإبل ، ففداه بمائة من الإبل . والثاني إسماعيل . فهذا ما ورد من الأخبار ، وفي القرآن ما يدل على صحة كل واحد من القولين . فأما الدليل على أنه إسحاق ، فهو أن الله تعالى أخبر عن إبراهيم عليه السلام حين فارق قومه مهاجرا إلى الشام مع سارة ولوط (وقال : إني ذاهب إلى ربي سيهدين) أنه دعا فقال (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) يعني ولدا صالحا من الصالحين ، وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن تصير له أم إسماعيل ، ثم أتبع ذلك الخبر عن إجابة دعوته وتبشير به إياه بغلام حلیم ، وعن رؤيا إبراهيم أن يدبح ذلك الغلام الذي بشر به حين بلغ معه السعى ، وليس في القرآن أنه بشر بولد ذكر إلا بإسحاق . وأما الدليل على أنه إسماعيل ، فما ذكرناه من حديث القرنين ، وقد صح الخبر أن قرني الكباش كانا معلقين بالكعبة إلى أن احترق البيت فاحترق القرنان في أيام ابن الزبير والحجاج ، وهذا أدل دليل على أن الذبيح إسماعيل .

قصة الذبيح وصفته وفعل إبراهيم بابنه عليهما السلام

قال السدي بإسناده : لما فارق إبراهيم الخليل عليه السلام قومه مهاجرا إلى الشام هاربا بدينه كما قال تعالى (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) دعا الله أن يهب له ابنا من الصالحين من سارة ، فقال (رب هب لي من الصالحين) . فلما نزل به أضيافه من الملائكة المرسلين إلى المؤتفة بشروه بغلام حلیم ، فقال إبراهيم لما بشر به : هو إذن لله ذبيح . فلما ولد الغلام وبلغ معه السعى قيل له : أوف بنذرك الذي نذرت قربانا إلى الله تعالى ، وكان هذا هو السبب في أمر الله خليله إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ، فقال إبراهيم عند ذلك لإسحاق : انطلق تقرب قربانا إلى الله تعالى ، وأخذ سكيننا وحبلنا ثم انطلق معه حتى ذهب به بين الجبال ، فقال له الغلام : يا أبت أين قربانك ؟ فقال : يا بني إني أرى في المنام أنني أذبحك (أي رأيت : لفظه مستقبل ومعناه الماضي) فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين .

قال ابن إسحاق : كان إبراهيم إذا زار هاجر وإسماعيل ، حمل على البراء ، فيغدو من الشام فقيل بمكة ويرجع من مكة فبييت عند أهله بالشام ، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعى وأخذ بنفسه ورجاه لما كان يأمل فيه من عبادة ربه وتعظيم حرمانه ، رأى في المنام أن

يذبحه ، فلما أمر بذلك قال لابنه : يا بني خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب
لنحتطب ، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما أمر به وقال : يا بني إني أرى
في المنام أني أذبحك الآية ، فقال له ابنه : الذي أراد أن يذبحه : يا أبت اشدد رباطي حتى
لا أضطرب ، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي فينتقص أجرى وتراه أي فتحزن
واشحد شفرتك وأسرع بمر السكين على حلقى ليكون أهون للموت على فإن الموت شديد ،
فإذا أتيت أي فأقرتها مني السلام ، فإن رأيت أن ترد قميصي إليها فافعل ، فإنه عسى أن
يكون أسئلي لها عني ، فقال له إبراهيم : نعم العون يا بني أنت على ما أمر الله به ، ففعل
إبراهيم ما أمره ابنه ، ثم إنه أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهو يبكي والابن يبكي حتى استتبع
الدموع تحت خده ، ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم يجزع ولم يعمل السكين شيئا . قال
السدى : وضرب الله تعالى صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال عند ذلك الابن : يا أبت
كبتى على وجهي ، فإنك إن نظرت إلى وجهي رحمتي وأدركتك على رقة تحول بينك
وبين أمر الله ، ففعل إبراهيم ذلك ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) . ثم
إنه وضع السكين على قفاه فانقلبت (وَنُودِيَ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا) الآية ،
هذه ذبيحتك فداء لابنك فاذبحها دونه ، فنظر إبراهيم عليه السلام ، فإذا هو يجربيل عليه
السلام ومعه كبش أعين أملح أقرن ، فكبر الكبش وكبر إبراهيم وكبر ابنه ، فذلك قوله
تعالى (وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ) قال سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس : خرج
عليه الكبش من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفا . وروى عنه أيضا أن الكبش الذي فدى
به عن إبراهيم عليهما السلام هو الكبش الذي قربه هابيل بن آدم ، فتقبل منه ، فأرسل إبراهيم
ابنه ، وأخذ الكبش وأتى به المنحرم مني فذبحه ، فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان
أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنه في ميازيب الكعبة قد وخش يعنى يبس .
وروى عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبيه أنه كان يقول : ما فدى إسماعيل إلا بكبش من
الأروى ، أهبط عليه بشير ، وهي رواية أبي صالح عن ابن عباس قال : كان وعلا .
وروى أبو هريرة عن كعب الأحبار وابن إسحاق عن رجال قالوا : لما رأى إبراهيم في المنام
أن يذبح ابنه ، قال الشيطان : والله لئن لم أفين عند هذا آل إبراهيم ، وإلا لم أفين أحدا منهم
أبدا ، فمثل لهم الشيطان رجلا ، فأتى أم الغلام فقال لها أتدرين أين ذهب إبراهيم بابنك ؟
قالت : ذهب به ليحتطب من هذا الشعب ، فقال : لا والله ما ذهب به إلا ليذبحه ، قالت :
كلا ، هو أرحم به مني ، وأشد حبا له من ذلك ، فقال لها : إنه يزعم أن الله أمره بذلك ،
فقالت له : إن كان أمره بذلك فقد أحسن في امتثال طاعة ربه ، وفي استسلامه لأمر الله تعالى ،
فخرج الشيطان من عندها هاربا حتى أدرك الابن وهو يمشي على أثر أبيه ، فقال له يا غلام
هل تدري أين يذهب بك أبوك ؟ قال : نحتطب لأهلنا من هذا الشعب ، قال : لا والله

ما يريد إلا ذبحك ، قال : ولم ؟ قال : يزعم أن الله أمره بذلك ، قال له : فليفعل ما أمره الله به ، فسمعا وطاعة لأمر الله تعالى ، فلما امتنع منه الغلام أقبل على إبراهيم فقال له : أين تريد أيها الشيخ ؟ قال : أريد هذا الشعب لحاجة لي ، فقال : والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك في منامك بأمرك بذبح ابنك هذا ، فعرفه إبراهيم ، فقال له : إليك عنى يا ملعون فوالله لأمضين لأمر ربى ، فرجع إبليس لعنه الله بغيظه لم يصب من إبراهيم وأهله شيئا مما أراد ، وقد امتنعوا منه بعون الله وتأييده .

وروى أبو الطفيل عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بذلك عرض له إبليس عند المشعر الحرام فسابقه ، فسبقه إبراهيم عليه السلام ثم ذهب إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم مضى إبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى ، فهذه قصة الذبح . وقال أمية بن أبى الصلت الثقفى فى ذلك شعرا :

ولإبراهيم الموفى بنذر احتسابا وحامل الأجزاء
بكره لم يكن ليصبر عنه لو رآه فى معشر أقتال
أبى آنى نذرتك لله شحيطا فاصبر فذلك حالى
واشدد العضد عند جذى للسكين جبد الأسير للأغلال
وله مدية تخايل فى اللحم غلاما جبينه كالهلال
بينما يخلع السراويل عنه فكه ربه بكبش جلال
فخذن ذا فدى لإبنك إنى للذى قد فعلما غير قالى
ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

الباب السادس : فى هلاك النروذ بن كنعان
وما أحل الله تعالى به من نعمته وقصة الصرح

قال الله تعالى (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) .
روت الرواة بأسانيد مختلفة أن أول جبار كان فى الأرض النروذ بن كنعان ، وكان الناس يخرجون إليه ويمتارون من عنده الطعام ، فخرج إليه إبراهيم يمتار مع من يمتار ، وكان النروذ إذا مر به الناس قال لهم : من ربكم ؟ قالوا : أنت ، حتى مر به إبراهيم فقال له من ربك ؟ قال : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، ورد إبراهيم بغير طعام ، فرجع إبراهيم إلى أهله ، فر بكثيب أعفر فقال : لآخذن من هذا فأتى به أهل فتطيب به

قلوبهم حين أدخل عليهم ، فأخذ إبراهيم منه فأتى به أهله ، فوضع متاعه ثم نام ، فقامت امرأته إلى متاعه ففتحتة ، فاذا هو بأجود دقيق رآته ، فأخذته وصنعت منه طعاما ، فلما أفاق قدمته إليه ، وكان عهد أهله أن ليس معهم شيء ولا عندهم طعام ، فقال لهم : من أين هذا ؟ فقالت من الطعام الذي جئت به ، فعلم إبراهيم أن الله رزقه فحمد الله وشكره ، ثم إن النمرود الجبار لما حاجه إبراهيم عليه السلام في ربه قال : إن كان ما يقول إبراهيم حقا فلا أنتهى حتى أعلم من في السماء ، فبنى صرحا عظيما عاليا ببابل ، ورام منه الصعود إلى السماء لينظر إلى إله إبراهيم فيما يزعم .

قال ابن عباس ووهب : كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع . وقال مقاتل وكعب : كان طوله فرسخين ، ثم عمد إلى أربعة أفراخ من النور فعلفها اللحم والخبز ورباها حتى شبت واستفحلت ، ثم قعد في تابوت ومعه غلام وقد حمل قوسه ونشابهه ، وجعل لذلك التابوت بابا من أعلاه وبابا من أسفله ، ثم ربط التابوت بأرجل النور وعلق اللحم على عصا فوق التابوت ثم خلى عن النور فطارت وصعدت طمعا في اللحم حتى أبعدت في الهواء ، فقال النمرود لفتاه : افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربنا منها ، ففتح الباب ونظر فإذا السماء على هيئتها ، ثم قال : افتح الباب الأسفل فانظر إلى الأرض كيف تراها ؟ ففتح فقال : أرى الأرض مثل اللحية البيضاء والجبال كالدخان ، وطار النور وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران ، فقال لغلامه : افتح البابين ، ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها ، وفتح الباب الأسفل ، فإذا الأرض سوداء مظلمة ، ونودي : أيها الطاغى الباغى : أين تريد ؟ قال عكرمة : فأمر عند ذلك غلامه فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطنًا بالدم فقال : كفيت شغل إله السماء .

واختلفوا في ذلك السهم من أى شيء تلتطخ ؛ فقال عكرمة : من سمكة في بحر معلق في الهواء بين السماء والأرض قربت نفسها لله تعالى ، وقال بعضهم : أصاب السهم طائرا من الطير فتلتطخ من دمه . ثم أمر النمرود غلامه أن يصوب العصا وينكس اللحم ، ففعل ذلك فهبطت النور بالتابوت ، فسمعت الجبال خفيق التابوت والنور ففرغت وظنت أنه أمر حدث في السماء ، وأن الساعة قد تامت ، فذلك قوله تعالى (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ) أى جزاء مكرهم (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) وقرأ على وعمر وابن مسعود (وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَذُلَّ مِنْهُ الْجِبَالُ) بالذال . ثم إن الله تعالى أرسل ريحا على صرح النمرود فألقت رأسه في البحر فخر عليهم الباقي وانقلبت بيوتها ، وأخذت النمرود رعدة ، وتبلبلت ألسن الناس حين سقط صرح النمرود من الفرع ، فتكلموا بثلاث وسبعين لسانا ، فلذلك سميت بابل لتبلبل الألسنة فيها ، فذلك قوله تعالى (فَخَرَّ عَلَىٰ سُرَّتِهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) وذلك أن الله

تعالى بعث إلى النمرود ملكا أن آمن حتى أتركك على ملكك ، قال : فهل ربٌ غيري ؟ فجاءه الثانية والثالثة فأبى عليه ، فقال له الملك : اجمع جموعك إلى ثلاثة أيام ، فجمع النمرود جموعه وجنوده ، فأمر الله تعالى الملك أن يفتح عليه بابا من البعوض ففعل ، فطلعت الشمس ذلك اليوم فلم يروها من كثرة البعوض ، فبعثها الله تعالى على النمرود وقومه ، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ، فلم يبق منهم إلا العظام ، والنمرود كما هو لم يصبه شيء من ذلك ، فبعث الله إليه بعوضة فدخلت في منخيره حتى وصلت إلى دماغه ، فكث أربعمئة سنة تضرب رأسه بالمطارق ، فأرحم الناس به من جمع يديه ثم يضرب بهما رأسه ، وكان جبارا أربعمئة سنة ، فعذبه الله أربعمئة سنة كمدة ملكه ، ثم إن البعوضة أكلت دماغه ، وأهلكه الله سبحانه وتعالى وخذله .

الباب السابع : في ذكر وفاة سارة وهاجر ، وذكر وفاة أزواج إبراهيم وولده

قال الله تعالى (أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته) الآية . قال أهل العلم بأخبار الماضين : ماتت سارة وهي ابنة ميثه وسبع وعشرين سنة بالشام بقربة الجبارة من أرض كنعان في جبرون في مزرعة اشتراها إبراهيم عليه السلام ودفنت بها ، وكانت هاجر ماتت قبل سارة بمكة فدفنت في الحجر . فلما ماتت سارة تزوج إبراهيم بامرأة من بعدها من الكنعانيين ، يقال لها قطور بنته يقطان ، فولدت له ستة نفر : يقشان وزمران ومدان ومد وأشيق ووشوخ ، وتزوج أيضا بامرأة أخرى من العرب اسمها حجون بنت أهيب ، فولدت له خمسة بنين : كيسان وفروخ وأهيم ولوطان ونافس ، فكان جميع بني إبراهيم مع إسحاق وإسماعيل ثلاثة عشر ، وكان إسماعيل بكره وأكبر أولاده ، فأنزل إسماعيل بأرض الحجاز وإسحاق بأرض الشام ، وفرق سائر ولده في البلاد ، فقالوا لإبراهيم : يا أبانا أنزلت إسحاق معك وإسماعيل بقربك ، وأمرتنا أن نزل بأرض الغربية والوحشة؟ قال : بذلك أمرت ، ثم علمهم اسما من أسماء الله تعالى ، فكانوا يستسقون به ويستنصرون .

الباب الثامن : في ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام

قال أهل التاريخ والسير : لما أراد الله تعالى قبض روح إبراهيم عليه السلام أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ هرم . قال السدي بإسناده : وكان إبراهيم كثير الإطعام يطعم الناس ويضيفهم ، فبينما هو يطعم الناس إذا هو بشيخ كبير يمشي في الحادة ، فبعث إليه بحمار فركبه ، فلما أتاه قدم إليه الطعام ، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة ويريد أن يدخلها فاه فيدخلها في عينه مرة وفي أذنه مرة ، ثم إذا أدخلها في فيه وحصلت في جوفه ، خرجت من دبره ، وكان إبراهيم قد سأل ربه ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت ، فقال للشيخ حين رأى حاله : ما بالك يا شيخ تصنع هكذا؟ فقال يا إبراهيم من الكبر ، قال : ابن كم أنت؟ قال : كيت وكيت ، فحسب إبراهيم عمره فوجدته يزيد على عمر إبراهيم بسنتين

فقال له إبراهيم : إنما بيني وبينك سنتان ، فإذا بلغت عمرك صرت مثلك ؟ قال : نعم ، فقال إبراهيم : اللهم اقبضني قبل ذلك ، فقام الشيخ فقبض نفسه ، وكان الشيخ ملك الموت ، وكان عمر إبراهيم مائتي سنة ، وقيل مئة وخمس وتسعون سنة ، ودفن عند قبر سارة في مزرعة جبرون .

الباب التاسع في ذكر خصائص إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم خليل الرحمن ، قال الله تعالى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) وهو سيد الفتيان . روى في الحديث « أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : يا سيد البشر ، قال : ذاك إبراهيم » وهو أبو الضيفان ، وكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع ضيف ، وربما مشى ميلين أو أكثر حتى يجد ضيفا ، وضيافته قائمة إلى يوم القيامة ، وهي الشجرة المباركة التي قال الله تعالى : (يُوَقَّدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ) الآية . وصح أنه دعا الله تعالى أن يجعل النبوة في نسله ، فاستجاب له وجعل النبوة في شعبي إسماعيل وإسحاق . عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ عَلَى ثَمَانِيَةِ آلَافِ نَبِيِّ : أَرْبَعَةٌ آلَافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ » . وهو المجمعول له لسان الصدق في الآخرين ، فليس من نبي تجرى السنة الخلق كلهم بتصديقه ، وتفضله وتبجله كل أمة غيره ، وذلك بدعائه عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) . وهو المبتلى بأنواع البلاء والمشهود له بالوفاء ، قال الله تعالى (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ) وقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) أي بما أمر به . وهو الأمة القانت ، قال الله تعالى (إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) إلى آخر الآية ؛ ومعنى الأمة أنه كان معلما للخير ، وقد اجتمع فيه من خلال الخير وأنواع الفضل ، ما يجمع في أمة كما قال الشاعر :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وهو الذي أوتي رشده من قبل بلوغه ، وهو إمام الموحدين ، وجعل له لسان الحججة في التوحيد ، فدعا الخلق إلى الحق بلسان الحججة من صغره إلى كبره ، قال تعالى (وتلك حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) ... الآية ، وأول من سماه الله حنيفا مسلما ، قال تعالى (ولكن كان حنيفاً مسلماً) وبرآه من دعاوى اليهود والنصارى ، وشهد له بالإسلام والإخلاص فقال تعالى (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً) ... الآية ، وهو أول من اختن . قال أبو منصور الجمشاري : حدثنا أبو عباس المعقلی ، أخبرنا عبد الحكيم ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا يحيى بن نصر ، قال : قرأ علي بن وهب ، أخبرنا ابن سمعان ، عن محمد بن المنكدر ، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : اختن إبراهيم عليه السلام بالقدوم ، وهو ابن مئة وعشرين سنة ، ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة . وأخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه ، أخبرنا محمد بن مخلد بن جعفر ، أخبرنا الحسن

ابن علوية ، أخبرنا إسماعيل بن عيسى ، أخبرنا إسحاق بن بشر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن إبراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول من ثرد الثريد ، وأول من لبس النعلين ، وأول من قسم النوى ، وأول من قاتل بالسيف ، وأول من اختن ، واختن على رأس مائة وعشرين سنة من ميلاده ، ختن نفسه في موضع يقال له القدوم بالقدوم ، وهو الفأس ، وذلك أنه كان وقع بينه وبين العمالقة وقعة عظيمة ، فقتل من الفريقين خلق عظيم ، فلم يعرف إبراهيم أصحابه ليدفنهم ، فجعل الختان علامة لأهل الإسلام ، فاختن يومئذ بالقدوم ، وهو أول من اتخذ السراويل .

أخبرنا الحسن الدينوري ، أخبرنا أحمد بن شداد بن عمر بن أحمد القطان ، أخبرنا محمد ابن إسماعيل بن حسان ، أخبرنا وكيع ، أخبرنا جرير بن حازم عن واصل مولى ابن عيينة قال : أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إنك أكرم أهل الأرض علي ، فإذا سجدت فلا ترى الأرض عورتك ، فاتخذ السراويل . وهو أول من شاب ، فلما رآه هاله ذلك ، فقال : يا رب ما هذا ؟ قال : الوقار ، فقال : يا رب زدني وقارا . وهو أول من أقام المناسك ، وذلك بدعوته حيث قال : (وأرنا مناسكنا) فاستجيب له . وهو أول من ضحى ، وهو الذى بوأ الله له مكان البيت ، وأراه ذلك بعد دروسه حتى بناه ، قال الله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت)... الآية. وهو أول من أتى فى النار فى الله ، فجعلت النار عليه برداً وسلاماً . وهو أول نبي أحيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى)... الآية. وهو الذى كان إذا سافر وتمنى سارة واشتاق إليها رفع الله الحجاب بينه وبينها ، حتى يراها حيث كان . وهو الذى يكسى حلة بيضاء يوم القيامة ويوضع له منبر عن يسار عرش الرحمن . قال النبي عليه الصلاة والسلام « تُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا ، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ » . وهو الكفيل لأطفال المسلمين ، والقائد لأهل الجنة . وهو أول من قص شاربه ، وأول من قلم أظفاره ، وأول من استحدث ، وأول من نتف الإبط ، وأول من استاك ، وأول من فرق شعره ، وأول من تمضمض ، وأول من استنشق ، وأول من استنجى بالماء ، وأول من هاجر لله ، قال الله تعالى (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) ، وجعل مقامه قبله للناس ، قال الله تعالى (وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّئًا) وجعله إماماً للناس ، قال الله تعالى (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) ، وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ) . وأمر محمداً خير الأنبياء وأمهته خير الأمم باتباع ملته ، قال تعالى (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) وقال (قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) . وسماه حلماً منيباً أواماً ، قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) الحلیم : السيد الذى يملك

نفسه عند الغضب ، والأواه : الذي يكثر التأوه عند ذكر الذنوب ، والمنيب : المقبل بقلبه إلى ربه ، فهذه ستة وأربعون خصلة من خصاله التي أكرمها الله بها .
ويروى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم : يا إبراهيم إنك لما سلمت مالك إلى الضيفان ، وابنك إلى القربان ، ونفسك إلى النيران ، وقلبك إلى الرحمن ، اتخذناك خديلا .

وروى أبو إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال : قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله تعالى ؟ قال : ومئة صحيفة وأربعة كتب ، أنزل الله على آدم عشرة صحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشرة صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال : فقلت : يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المبتلى المستلط المغرور ، إني لم أبعثك لتجتمع الدنيا بعنصها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لأرُدُّها ولو كانت من كافر . وكان فيها أمثال :
على العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له أربع ساعات : ساعة يُناجى فيها ربه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى ، وساعة يُجاسِبُ فيها نفسه على ما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال والحرام في المطعم والمشرب وغيرهما . وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاده ، ومؤنة لمعاشه ، ولذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسان . ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه ، والله عن كل مخدور يُغنيه .

مجلس في ذكر بعض أخبار إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم عليهم السلام

وقد ذكرنا سير إبراهيم الخليل بابنه إسماعيل وهاجر إلى مكة وإسكانه إياهما بها ، ولما كبر إسماعيل وبلغ النكاح تزوج امرأة من جرهم ، فكان من أمرها ما قدمنا ذكره ، ثم طلقها بأمر أبيه ، ثم تزوج بامرأة أخرى ، يقال لها السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرمي ، وهي التي قال لها إبراهيم حين قدم مكة : إذا جاء زوجك فأقرئني مني السلام ، وقولي له : قد استقامت عتبة بابك ، فولدت السيدة لإسماعيل اثني عشر رجلاً : نابتا وقيدار وأديب وبسام ومسمع وذوما ومسا وحرا وفيما وبطزر وناقس وقيدما ؛ ومن نابت وقيدار ابني إسماعيل نشر الله تعالى العرب ، ثم نبأ الله تعالى إسماعيل فبعثه إلى العماليق وقبائل اليمن ، فلما حضرت إسماعيل الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق أن يزوج ابنته من عيص بن إسحاق ، وعاش إسماعيل مئة وسبعا وثلاثين سنة ، ودفن بالحجر عند قبر أمه هاجر .

وروى عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكّا إسماعيل إلى ربه تعالى حرّ مكة ، فأوحى الله تعالى إليه : إني فاتح لك بابا من الجنة يجرى عليك روحها إلى يوم القيامة ، وفي ذلك المكان دفن .
وأما حديث إسحاق عليه السلام ، فإنه نكح رفقا بنت بتويل ، فولدت له عيصا ويعقوب بعد ما مضى من عمره ستون سنة ، ولهما قصة عجيبة على ما ذكره السدي . قال : حملت رفقا في بطن واحد بغلامين ، فلما أرادت أن تضع اقتتل الغلامان في بطنها ، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص ، فقال عيص : والله لئن خرجت قبلي لأعرضن في بطن أمي فأقتلها ، فتأخر يعقوب وخرج عيص قبله ، فسمى عيصا لأنه عصى ، فخرج قبل يعقوب ، وسمى الآخر يعقوب لأنه خرج آخرًا بعقب عيص ، وكان يعقوب أكبرهما في البطن ، ولكن عيصا خرج قبله ، فلما كبر الغلامان كان عيص أحبهما إلى أبيه ، ويعقوب أحبهما إلى أمه ، وكان عيص صاحب صيد . فلما كبر إسحاق وعمي قال لعيص : يا بني أطعمني لحم صيد واقرب مني أدع لك بدعاء دعائي به أبي ، وكان عيص رجلا أشعر ، ويعقوب رجلا أجرد ، فخرج عيص يطلب الصيد ، فسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب : يا بني اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة واشوها واللبس جلودها ، ثم قدمها إلى أبيك وقل له : أنا ابنك عيص ، ففعل ذلك وأتى إلى أبيه وقال : يا أبتاه كل ، فقال : من أنت ؟ قال : أنا عيص ، فسه وقال : المسّ مس عيص والريح ريح يعقوب ، فقالت له امرأته : هو ابنك عيص ، فادع له ، فقال : قدم طعامك ، فقدمه فأكل منه ، ثم قال له : ادن مني ، فدنا منه ، فدعا له أن يجعل في ذريته الأبياء والملوك ، ثم قام يعقوب من عنده ، وجاء عيص بعده ، فقال : يا أبت قد جئتك بالصيد الذي أردته ، فقال : يا بني قد سبقك أخوك يعقوب ، فغضب عيص وقال : والله لأقتلنه ، فقال : يا بني قد بقيت لك دعوة ، فهلمّ أدع لك بها ، فتقدم إليه فدعا له فقال : أن تكون ذريتك عدد التراب ولا يملكهم أحد غيرهم . ثم إن أمّ يعقوب قالت ليعقوب : الحق بخالك فكن عنده خشية عليه أن يقتله عيص ، فانطلق يعقوب إلى خاله ، وكان يسير في الليل ويكمن في النهار ، ولذلك سماه الله إسرائيل ، وهو أول من سرى بالليل ، فأتى يعقوب إلى خاله ، وكان إسحاق أمره أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين ، وأمره أن ينكح امرأة من بنات خاله ليان بن ناهر ، وإن يعقوب لما مكث عند خاله ، فخطب ابنته راحيل ، وكان له ابنتان : ليا وهي الكبرى ، وراحيل وهي الصغرى ، فقال له : هل لك من مال فأزوجك عليه ؟ فقال : لا ، ولكن أخدمك أجيرا حتى تستوفى صداق ابنتك ، فقال له : إن صداقها أن تخدمني سبع حجج ، فقال يعقوب : تزوجني راحيل ، لأنها أصغر ، ولأجلها أخدمك ، فقال له خاله : ذلك بيني وبينك ، فرعى له يعقوب سبع سنين ، فلما وفي له شرطه دفع له ابنته الكبرى ليا ، وأدخلها عليه ليلا ، فلما أصبح وجد غير ما شرط ، فجاءه يعقوب وهو في ناد من قومه فقال له : غررتني وخذعتني ، واستحللت عملي سبع سنين ، ودلست عليّ غير

امراتی ، فقال له خاله : يا بن أختی أردت أن لا يدخل علی فی ذلك العار ، وألبسه وأنا خالك ووالدك ، متى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى ؟ فهل فآخذنی سبع سنين أخرى حتى أزوجك الأخرى ، وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين إلى أن بعث موسى وأنزلت التوراة ، فرعى له يعقوب سبع سنين أخرى ، فدفع إليه راحيل ، فولدت له ليا أربعة أسباط : روبيل ، وكان أكبرهم ، ويهوذا ، وشمعون ، ولاوى ؛ وولدت له راحيل : يوسف وبنيامين ، وهو بالعربية شداد ، وإنما سمي بنيامين لأن أمه راحيل ماتت في نفاسها ، وبامين بالعربية الشكل ، وكان ليان دفع إلى ابنتيه حين جهزهما إلى يعقوب أمتين يقال لإحدهما زلفة وللأخرى بلهة ، فوطى الأمتين يعقوب فولدت كل واحدة منهما ثلاثة أسباط ، فولدت زلفة ليعقوب : دان ونفتالى وروبالون ، وولدت له بلهة : جاد ويشجر وآشر ، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلا : اثنان من راحيل ، وأربعة من ليا ، وثلاثة من زلفة ، وثلاثة من بلهة ، وهم الذين سماهم الله تعالى الأسباط ؛ وسموا بذلك لأن كل واحد منهم ولد قبيلة . والسبط في كلام العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان ، والأسباط من بني إسرائيل كالشعوب من العجم ، والقبائل من العرب . ثم إن يعقوب فارق خاله ليان وانصرف بولده وامراتيه وجاريتيه المذكورات إلى منزل أبيه من فلسطين على تخوف شديد من أخيه عيص ، فلم ير منه إلا خيرا ، فنازل أخاه وتألفه وتلطفه حتى ترك له البلاد وتنقل في الشام وصار إلى السواحل ، ثم عبر إلى الروم فاستوطنها ، فصار ذلك له ولولده من بعده . وقال ابن إسحاق : تزوج عيص بن إسحاق بنت عمه نسيمة بنت إسماعيل بن إبراهيم ، فولدت له الروم بن عيص ، فكل بني الأصفر من ولده ، وكان عيص فيما يذكر يسمى آدم لأدمته ولذلك سمي ولده بني الأصفر . قالوا : وعاش إسحاق بعد ما ولد له عيص ويعقوب مئة سنة ، وتوفى وله مئة وسبعون سنة ، ودفنه أبناؤه عند قبر أبيه عليهما السلام في مزرعة جبرون ، والله أعلم .

مجلس في قصة لوط عليه السلام

وهو لوط بن هاران بن تارح ابن أخي إبراهيم عليه السلام ، وإنما سمي لوطا لأن حبه لاط بقلب إبراهيم عليه السلام ، أي تعلق به ولصق . ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه حين ذكر عمره اللهم غفرا لولا ذاك أَلُوَطُ ، أي ألصق بالقلب ، وكان إبراهيم يحبه حبا شديدا . وكان من أمر لوط فيما ذكر أهل العلم بأخبار الأنبياء وذكر وهب في المبتدأ : أنه شخص من أرض بابل مع عمه إبراهيم مؤمنا به متبعا له على دينه ، مهاجرا معه إلى الشام ومعهما سارة بنت ناحور ، وشخص معه تارح أبو إبراهيم مخالفا لإبراهيم في دينه ومقيا على كفره إلى أن وصلوا إلى حران ومكثوا بها ، فمات تارح وهو آزر أبو إبراهيم بحران على كفره ، وشخص إبراهيم ولوط وسارة إلى الشام ، ثم مضوا إلى مصر ، فوجدوا بها فرعون من فراعنتها يقال له سنان بن عاران بن عبيد بن عوج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح

عليه اتصاله والسلام ، فرجعوا عودا إلى أرض الشام ، فنزل إبراهيم فلسطين ، وأنزل لوطا الأردن ، فبعثه الله تعالى إلى أرض سدوم وما يليها ، وكانوا أهل كفر بالله وركوب فواحش كما أخبر الله عنهم بقوله تعالى (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أتيتكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون) . قال عمرو بن دينار : ما كان يرى ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط ، وقال تعالى (أتيتكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر) . فكان قطعهم السبيل فيما ذكر أهل التأويل أن إتيانهم الفاحشة مع من ورد بلدهم وإتيانهم المنكر في ناديهم . قال المفسرون : هو أنهم كانوا يجلسون في مجالسهم على الطريق فيحذفون من مرتبهم ، ويتضارطون في مجالسهم ، وينكح بعضهم بعضا في الطريق . وقال مجاهد : كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم على الطريق .

وروى أبو صالح عن أم هاني قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال : كانوا يجلسون على الطريق فيحذفون من مرتبهم ويتسخررون به ، وهو المنكر الذي كانوا يأتونه ، وكان لوط ينههم عن ذلك ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ، ويتوعددهم على إصرارهم على ما هم عليه ويأمرهم بالتوبة منه ، ويخوفهم من العذاب الأليم ، فلا يزرجرهم عن ذلك وعده ، ولا يزيدهم وعظه إلا تماديا وعتوا واستعجالا بعذاب الله تعالى وإنكارا وتكذيبا ، ويقولون له (اثنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) حتى سأل لوط ربه أن ينصره عليهم ، فقال (رب انصرني على القوم المفسدين) فأجاب الله دعاه وبعث جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام لإهلاكهم وبشارة إبراهيم عليه السلام بالولد ، فأقبلوا مشاة في صورة رجال مرد حسان حتى نزلوا على إبراهيم عليه السلام ، فتصيفوه وبشروه باسحاق » وقد مضت القصة . فلما فرغوا من ذلك وأخبروا إبراهيم أن الله تعالى بعثهم لإهلاك قوم لوط ، ناظرهم إبراهيم وحاجهم في ذلك كما قال الله تعالى (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) وكان جداله إياهم على ما ذكر ابن عباس وغيره أنهم لما قالوا له (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) قال هم : أتهلكون قرية فيها أربع مئة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها ثلاث مئة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها مئتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها مئة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا ؟ قالوا : لا ، قال : أتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمنا ؟ قالوا : لا ، وكان إبراهيم بعدهم أربعة عشر بامرأة لوط ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وروى سعيد عن ابن عباس قال : قال الملك لإبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب ، فلما عرف إبراهيم حال قوم لوط ، قال للرسول : إن فيها لوطا ، قالها إشفاقا منه عليه ، فقالت له الرسل : (تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ، لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ) . قال قتادة : في هذه الآية لانرى المؤمن إلا يحوط المؤمن ، ثم مضت رسل الله تعالى نحو سدوم ؛ فلما انتهوا إليها لقوا لوطا في أرض له يعمل فيها . قال قتادة راويا عن حذيفة : إن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فأتوه فقالوا : إنا متضيفوك الليلة ، فانطلق بهم ، فلما مشى ساعة التفت لهم ، وقال : أو ما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرها ؟ قال : أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض ، وما أعلم على وجه الأرض أناسا أخبث منهم ، قال ذلك : أربع مرات ، فدخلوا معه منزله ، وعلم لوط أنه سيحتاج إلى المدافعة عن أضيافه ، وخاف عليهم من قومه ، فذلك قوله تعالى (ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال هذا يوم عاصيب) أى شديد . قال السدي بإسناده : لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط أتوها نصف النهار ، فلما بلغوا سدوم لقوا بنت لوط تستسقى الماء لأهلها ، وكان له ابنتان : اسم الكبرى ريثا ، والأخرى غيثا ؛ فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟ قالت : نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم ، ففرغت عليهم من قومها ، ثم أتت أباهما فقالت : يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم قط أحسن منهم ، لئلا يأخذهم قومك فيفضحوك ؛ وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجالا ، وقالوا له : خل معنا ، فلنضيف الرجال ، فذلك قوله تعالى (أو لم تنهك عن العالمين) فجاء بهم لوط إلى منزله ، ما يعلم بهم أحد إلا أهل بيت لوط ، فخرجت امرأته ، فأخبرت قومها بذلك وقالت : إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثلهم حسنا قط .

قال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أن العلم الذي كان بين امرأة لوط وقومه إذا أتتهم الضيفان يقول رسولها : هيثوا لنا ملحا ، تدعوهم بذلك إلى الفاحشة بأضياف لوط ، فبلغنا أن الله تعالى مسخها ملحا . قالوا : فلما أخبرت امرأة لوط قومها بأضياف زوجها جاءه قومه يهرعون إليه : أى يسرعون ويهرولون ، فلما أتوه قال لهم لوط : يا قوم (اتقوا الله ولا تحزنون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد) وقال لهم (هؤلاء بناتي هن أظهر لكم) قالوا (أو لم تنهك عن العالمين) أن تضيف الرجال ، وقالوا (لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) فلما لم يقبلوا منه ما عرض عليهم (قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) قالوا : فما بعث الله نبيا بعده إلا في شرف من قومه ومنعة من عشيرته . وقال صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية

وَرَحِيمَ اللَّهِ أُخِي لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْتِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ . قال ابن عباس وغيره :
 وغلقت بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون
 تسور الدار، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب والنصب والتعب بسببهم، قالوا له :
 يا لوط إن ركنك لشديد (وإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ - إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ
 لَنَّا بِصَلْوَا إِلَيْكَ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ) الآية ، ثم قالوا له : افتح الباب
 ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم ، فأذن
 له ، فقام في الصورة التي يكون فيها ، فنشر جناحيه ، وله جناحان وعليه وشاح من در
 منظوم، وهو براق الثنايا، أجلى الجبين، ورأسه حُبْك مثل المرجان كأنه الثلج بياضا، وقدماه
 إلى الحضرة ، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم ، فذلك قوله تعالى (وَلَقَدْ
 رَأَوْهُ عَنِ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) الآية ، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا
 يهتدون إلى بيوتهم ، ثم إنهم انصرفوا وهم يقولون : النجاء النجاء ، إن في بيت لوط
 أحر قوم في الأرض ، وقالوا للوط : جئنا بقوم سحرة سحرونا ، كن كما كنت حتى نصبح ،
 يتوعدونه ؛ فلما علم لوط أن أضيافه رسل ربه ، وأنهم أرسلوا بهلاك قومه ، قال لهم :
 أهلكوهم الساعة ، فقال له جبريل (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) ثم
 أمره أن يسرى بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته . فلما كان السحر خرج
 لوط وأهل بيته ومعه امرأته ، فذلك قوله تعالى (إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ، نِعْمَةٌ
 مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ) . فلما أصبحوا أدخل جبريل جناحه تحت
 أرضهم ، فاقتلع قرى قوم لوط الأربع ، وكان في كل قرية مائة ألف ، فرفعههم على
 جناحه بين السماء والأرض حتى سمع أهل الدنيا ضياح ديوكهم ونباح كلابهم ، ثم
 كفأها وقلبها ، فجعل عاليها سافلها ، كما قال الله تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا) ثم أتبع
 شاردهم ومسافرهم بالحجارة ، فذلك قوله تعالى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ
 مَنْضُودٍ . مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ) أي ممن يفعل كفعالهم .
 أخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه ، أخبرنا محمد بن جعفر الباقري ، أخبرنا الحسين بن
 علويه ، أخبرنا إسماعيل بن عيسى ، أخبرنا إسحق بن بشر ، أخبرني جويبر ومقاتل عن الضحاك
 عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم « إِنِّي لَأَسْمَعُ الْعَوَاصِفَ وَالْقَوَاصِفَ مِنَ الرَّعْدِ ، فَأَخْشَى أَنَّهَا الْحِجَارَةُ الَّتِي
 أُعِدَّتْ لِقَوْمِ لُوطٍ أَوْ مَنْ يَفْعَلُ بِفِعْلِهِمْ » .
 وأخبرنا أبو بكر بن محمد بن أحمد بن عقيل القطان ، أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن
 الحسين بن منصور ، أخبرنا أبو حاتم الرازي ، أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع الحمصي عن

صفوان بن عمرو ، قال : كنت عند عبد الملك بن مروان إلى أن أتى شعيب قاضي حمص ، وكان رجلا عالما ، فسأله عن عقوبة اللوطي ، قال : أن يرموه بالحجارة كما رجم قوم لوط ، فإن الله تعالى قال (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فِئَاءَ مَطَرِ الْمُنذَرِينَ) وقال تعالى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) فقبل عبد الملك ذلك منه واستحسنه. قالوا: وكان الرجل منهم يتحدث في قرينه التي يكون فيها ، فيأتيه الحجر فيقتله . قال : وسمعت امرأة لوط الهدة فالتفت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها ، فذلك قوله تعالى (إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) أي الباقيين في العذاب ، وقال تعالى (إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ) ... الآية .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين ، أخبرنا موسى بن محمد بن علي ، أخبرنا الحسين ابن علوية ، أخبرنا إسماعيل بن عيسى قال : أخبرنا المسيب قال : سمعت أباروق يقول : (إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) : أي خلقت فمسخت حجرا ، وكانت تسمى هلسفع ، وقال غيره : اسمها واعلة . قالوا : وكانت قرى قوم لوط خمسا : سدوم و عامورا ودومة وساعورا ، فأما سدوم فهي القرية العظيمة ، وكان في هذه القرية أربعة آلاف ، فاحتملها جبريل على جناحه فقلبا ، فلذلك سميت المؤتفكات : أي المنقلبات ، وأما القرية الخامسة فإنها تسمى صفرة ونجت من العذاب لأن أهلها آمنوا بلوط .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام « إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمَّاكَ بِأَسْمَاءَ فَفَسَّرَهَا لِي ، قال : وصفك في قوله تعالى (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ) قال : فأخبرني عن قُوَّتِكَ ؟ قال : يا محمد رفعتُ قرى قوم لوط من تخوم الأرض على جناحي في الهواء ، حتى سمعتُ ملائكةُ سماء الدنيا أصواتهم وأصوات الديكة ، ثم قلبتها ظهرا لبطن ، قال : فأخبرني عن قوله تعالى (مُطَاعٍ) قال : إن رضوان خازن الجنان ومالكا خازن النيران متى قلت لهما أو كلفتهما فتح أبواب الجنان أو النيران فتحاها ، قال : فأخبرني عن قوله تعالى (أَمِينٍ) قال : إن الله تعالى أنزل من السماء مئة وأربعة كتب على أنبيائه لم يأت من عليها غيري . »

أخبرنا عبد الله بن الحسين بن محمد الثقفي ، أخبرنا أبو عثمان بن أحمد بن سمعان البراري ، أخبرنا عبد الله بن قحطبة ، أخبرنا ياسر بن ثوبة ، أخبرنا محمد بن راموز ، أخبرنا أبو بكر بن عياش قال : سألت أبا جعفر : أعذب الله النساء من قوم لوط بعمل رجالهم ؟ فقال : الله تعالى أعدل من ذلك ، بل استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء ، فوجب عليهم العذاب جميعا .

أخبرنا ابن فتحويه ، أخبرنا مخلد بن جعفر ، أخبرنا الحسين بن علوية ، أخبرنا إسماعيل ابن عيسى ، أخبرنا إسماعيل بن بشر ، حدثني مقاتل بن سلمان قال : قلت لمجاهد : يا أبا الحجاج

هل بقي من قوم لوط أحد؟ قال: لا، إلا رجل بقي أربعين يوماً وكان بمكة، فجاءه حجر لبصبيه في الحرم، فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر: ارجع من حيث جئت، فإن الرجل في حرم الله، فوقف الحجر خارج الحرم أربعين يوماً بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته، فلما خرج أصابه الحجر خارج الحرم فقتله.

عن مقاتل عن أبي نصره عن أبي سعيد قال: ما عمل ذلك قوم لوط إنما كانوا ثلاثين رجلاً ونيفا لا يبلغون الأربعين فأهلكهم الله جميعاً. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَيْنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَتَعْمَنَّكُمْ الْعُقُوبَةُ جَمِيعاً».

مجلس في قصة يوسف بن يعقوب وإخوته عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ) ... الآية قال سعد بن أبي وقاص: قالت الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو حدثتنا، قال: فأنزل الله تعالى (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) ... الآية، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا! فأنزل الله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) ... الآية، فدلهم الله تعالى في هذه الآية على أحسن القصص.

واختلف العلماء في سبب تسمية الله تعالى قصة يوسف عليه السلام من بين الأقسام أحسن القصص؛ فقال بعض أهل المعاني: معنى الآية قصة حسنة، لفظه لفظ المبالغة، وحكمه حكم الصفة كقوله تعالى (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) قال الشاعر:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

أراد عزيزة طويلة، وأجراه الباقون على الظاهر فقالوا: هي أحسن القصص؛ ثم اختلفوا في وجهها، فروى مقاتل عن سعيد بن جبيرة قال: اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سلمان الفارسي فقالوا: يا سلمان حدثنا عن التوراة بأحسن ما فيها، فأنزل الله تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ) يعني أن قصص القرآن أحسن مما في التوراة، وقيل سمي الله هذه القصة أحسن القصص، لأنها ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم والعجائب واللطائف ما تضمنت هذه القصة، ولذلك قال الله تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ) وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ). وقيل سماها أحسن القصص، لحسن مجازاة يوسف إخوته وصبره على أذاهم وإغضائه عند الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه معه وكرمه في العفو عنهم حيث قال (لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغْفِرِ اللَّهِ لَكُمْ). وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطيور وسير الملوك والممالك

والعلماء والتجار والعقلاء والجهلاء وحال الرجال والنساء ومكرهن وحيثلن، وفيها أيضا ذكر العفة والتوحيد وعلم السير وتعبير الرؤيا وآداب السياسة والمعاشرية وتدبير المعاش، فصارت أحسن القصص لما فيها من المعاني الجزيلة والفوائد الجليلة التي تصلح للدين والدنيا وتجمع خيري الدنيا والعقبى. قال أهل الإشارة: سماها الله أحسن القصص لما فيها من ذكر المحب والمحبوب.

الباب الأول: في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام

هو: يوسف الصديق ابن يعقوب الصفيّ ابن إسحاق الذبيح ابن إبراهيم الخليل عليهم السلام. بذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم كريما وآبائه كرماء. عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنَّ الكَرِيمَ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنَ الكَرِيمِ ابْنَ الكَرِيمِ: يُوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ» : واختلفوا في معنى اسم يوسف؟ فقال أكثر الفقهاء: هو اسم عبري، فلذلك لا يجرى. وقال بعضهم: هو اسم عربي سمعت الأستاذ أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا الحسن الأقطع، وكان حكيمًا؟ فسئل عن يوسف فقال: الأسف في اللغة: الحزن، والأسيف: العبد، واجتمعا فيه، فلذلك سمي يوسف.

الباب الثاني: في صفة يوسف عليه الصلاة والسلام

وحليته ونعت خلقه وصفة صورته

قال الله تعالى (فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْرِمْتَهُ) ... الآية .

أخبرنا أبو عبد الله الثقفى، أخبرنا عمر بن أحمد بن عثمان، أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان، أخبرنا محمد بن حميد الرازى، أخبرنا سلامة بن الفضل عن محمد بن إسحاق عن روح ابن القاسم، قال: حدثني عمارة عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي، بِي إِلَى السَّمَاءِ فَرَأَيْتُ يُوْسُفَ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ هَذَا يُوْسُفُ، قَالُوا: فكيف رأيتَه يا رسول الله؟ قال: كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ». وأخبرني الحسن بن محمد، أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان، أخبرنا حامد بن سعدان، أخبرنا أبى، أخبرنا يعقوب، أخبرنا الوليد بن مسلم عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أُعْطِيَ يُوْسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الحُسَيْنِ». وعن أبى إسحاق ابن عبد الله بن أبى فروة قال: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس والقمر على الجدران. قال كعب الأحبار: إن الله تعالى مثل لآدم ذريته بمنزلة الذرّ، فأراه الأنبياء عليهم السلام نبيا نبيا، وأراه في الطبقة السادسة يزسف متوجا بتاج الوقار، متزرا بحلة الشرف، مرتديا برداء الكرامة، مقمصا بقميص البهاء، وفي يده قضيب الملك، وعن يمينه سبعون ألف ملك، وعن يساره سبعون ألف ملك، ومن خلفه أمم الأنبياء لهم زجّل بالتسبيح والتقديس، وبين يديه شجرة السعادة تزول معه حيثما

زال ونحول معه حيناً حال ؛ فلما رآه آدم قال : إلهي من هذا الكريم الذي أبحث له بمجبوحة الكرامة ، ورفعته الدرجة العالية ؟ قال : يا آدم هذا ابنك المحسود على ما آتيته ، يا آدم انحله ، قال آدم : قد انحلته ثلثي حسن ذريتي ، ثم إن آدم ضم يوسف إلى صدره وقبّله بين عينيه وقال : يا بني لا تأسف فأنت يوسف ، فأول من سماه يوسف آدم ، فقسم الله تعالى ليوسف من الجمال الثلثين ، وقسم بين العباد الثلث ، وكان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه الله تعالى بيده ، وصوره ونفخ فيه من روحه ، قبل أن يصيب المعصية ، وقد كان الله أعطى آدم الحسن والجمال والبهاء يوم خلقه ، فلما عصى نزع ذلك منه ، وأعطاه يوسف عليه السلام ، ثم لما تاب عليه وهبه ثلث الجمال الذي كان انتزعه منه ، وذلك أن الله تعالى أحب أن يرى العباد أنه قادر على ما يشاء ، فأعطى يوسف من الحسن والجمال ما لم يعطه أحدا من الناس ، ثم أعطاه العلم بتأويل الرؤيا ، وكان يخبر بالأمر الذي يرى في المنام أنه سيكون كذا وكذا من قبل أن يكون ذلك الأمر ، علمه الله ذلك كما علم الأسماء كلها لآدم ، فكان حسن يوسف كضوء النهار . وكان يوسف أبيض اللون جميل الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوى الحلقة ، غليظ الساقين والعضدين والساعدين ، خميص البطن ، أفتى الأنف صغير السرة ، وكان بخده الأيمن خال أسود ، وكان ذلك الخال يزين وجهه ، وكان بين عينيه شامة بيضاء كأنها القمر ليلة البدر ، وكانت أهداب عينيه تشبه قوادم النور ، وكان إذا تبسم رُئي النور من ضواحه ، وإذا تكلم رأيت شعاع النور يشرق من بين ثناياه ، لا يقدر بنو آدم ولا أحد على وصف يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ ويقال إنه ورث الحسن من جده إسحاق بن إبراهيم ، وكان أحسن الناس ، وإسحاق هو الضاحك بالعبرانية ، وهو ورث الحسن من أمه سارة ، فإن الله تعالى صورها على صورة الحور العين ، ولكن لم يعطها صفاءهن ، وأعطى يوسف من الحسن والجمال وصفاء اللون ونقاء البشرة ما لم يعطه أحدا من العالمين ، وإنه كان لياكل البقول والفواكه فترى حين يزدردها في حلقه وفي صدره ، حتى تصل إلى بطنه ، وورثت سارة الحسن من جدتها حواء .

وقال وهب : الحسن عشرة أجزاء : ليوسف تسعة ، وواحد بين سائر الناس .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام قال « هَبَطَ جبريلُ عليه السلامُ فقالَ : يا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لَكَ كَسَوْتُ حُسْنَ يَوْسُفَ مِنْ نُورِ الْكُرْسِيِّ ، وَكَسَوْتُ وَجْهَكَ مِنْ نُورِ عَرْشِي » . وقيل لبعض الحكماء : أيوسف أحسن ، أم محمد ؟ فقال : كان يوسف من أحسن الناس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أحسن الناس . ويدل عليه حديث جابر بن عبد الله قال : « نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه حلة حمراء ، ونظرت إلى القمر ليلة البدر ، فلهو أحسن في عيني من القمر » .

القول في القصة

قال أهل العلم بقصص الأنبياء وأخبار الماضين : كان ابتداء أمر يعقوب ويوسف عليهما السلام، وبدء محبة يعقوب له، وإيثاره على سائر ولده ، أن الله تعالى أنبت ليعقوب شجرة في صحن داره ، فكان كلما ولد له ولد ، أخرج الله تعالى من تلك الشجرة غصنا ، فكان كلما كبر الغلام وشب طال ذلك الغصن وغلظ ، فإذا بلغ ذلك الغلام قطع يعقوب ذلك الغصن ودفعه إليه ، فولد له عشرة بنين ، فأخرج الله تعالى من تلك الشجرة عشرة قضبان ؛ فلما ولد له يوسف لم يخرج الله تعالى من الشجرة شيئا ، فلما كبر وشب قال لأبيه : يا نبي الله إنه ليس أحد من إخوتي إلا وله غصن إلا أنا ، فادع الله تعالى أن ينحني بغصن من الجنة ، فرفع يعقوب يديه إلى السماء ، وقال : اللهم إني أسألك أن تهب ليوسف غصنا من الجنة يفتخر به على جميع إخوته ، فهبط جبريل عليه الصلاة والسلام ومعه قضيب من الجنة من الزبرجد الأخضر ، فقال ليوسف : خذ هذا ، فكان يوسف يأخذه ويخرج به مع إخوته ، قال : فرأى يوسف فيما يرى النائم، وهو إذ ذاك صبي كأن قضيبه غرس في الأرض فعلق وتدلّت أغصانه وأثمر من كل ثمرة، ثم أتى بأغصان إخوته فغرست حوله فلم تعلق ولم تفرع ولم تثمر ، وإذا بغصن يوسف أقصرها وأصغرها ، فلم يزل يتعالى في السماء ويطول حتى طال على أغصان إخوته ، ثم هبت الريح فاقتلعت أغصان إخوته من أصولها وألقها في البحر، وثبت غصن يوسف في الأرض قائما ، فانتبه فرعا مرعوبا ، فقال له أبوه : ما الذي دهاك يا بني ، فقص عليه رؤياه فبلغ إخوته ، فقالوا : يا بن راحيل لقد رأيت عجبا، يوشك أن تدعى أنك مولانا ونحن عبيدك ، فشق عليهم رؤياه وحسدوه بعض الحسد . قال وهب : رأى يوسف هذه الرؤيا : يعنى الغصن و هو ابن سبع سنين ، ثم إنه رأى وهو ابن اثني عشرة سنة الرؤيا التي قصها الله علينا في كتابه ، إذ قال تعالى (إذ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) الآية . وكان ينومه إلى جانبه ، فبينما يوسف نائم عند أبيه ليلة من الليالي إذ رأى الرؤيا التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز ، وكانت ليلة الجمعة ، فانتبه من منامه فرعا مرعوبا ، فالتزمه يعقوب وضمه إلى صدره ، وقبّل بين عينيه وقال : يا حبيب أبيه ، ما الذي أصابك ؟ فقال : يا أبت رأيت رؤيا أفزعني ، فقال : يا بني خيرا رأيت ، ما الذي رأيت ؟ قال يوسف : رأيت كأن أبواب السماء فتحت وقد أشرق منها النور ، فاستنارت النجوم ، وأشرقت الجبال ، وزخرت البحار ، وعلت أمواجها وسبحت الحيتان بأنواع اللغات ، ورأيت كأنى ألبست رداء أشرقت الأرض من حسنه ونوره ، ورأيت كأن مفاتيح خزائن الأرض ألقيت بين يدي ، فبينما أنا كذلك إذ رأيت أحد عشر كوكبا انقضت من السماء ومعها الشمس والقمر ، فخرّوا لي ساجدين ؛ فقال يعقوب (يا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) ... الآية ثم عبر رؤياه فقال (وكذلك يَجْتَنِيكَ)

رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (الآيَة . قال : فسمعت امرأة يعقوب ما قال يوسف لأبيه ، فقال لها يعقوب : اكنمي ما قال يوسف ولا تخبري أولادي بذلك ، فقالت ، نعم ، فلما أقبل أولاد يعقوب من مراعيهم أخبرتهم بالرؤيا التي أمرها يعقوب بكنمها فانتفخت أوداجهم ، واقشعرت جلودهم غضبا على يوسف وقالوا : ما عني بالشمس غير أينا ، ولا بالقمر غيرك ، ولا بالكواكب غيرنا ، ثم قالوا : إن ابن راحيل يريد أن يتملك علينا فيقول : أنا سيدكم وأنتم عبيدي ، فحسدوه على ذلك ، فلذلك قيل في الحكمة : لا تأمن قارئا على صحيفة ، ولا شابا على امرأة ، ولا امرأة على سر .

وروى الحكم بن ظهير عن إسماعيل السدي عن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله ، قال : « جاء رجل من اليهود ، يقال له نستار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أخبرني عن النجوم التي رآها يوسف ساجدة له ، ما أسماؤها ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبه بشيء ، حتى نزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها ، فأرسل إلى اليهودي ودعاه وقال له : إن أخبرتك بأسمائها أتسلم ؟ قال : نعم ، فقال له : جريان والطارق والذبال وذو الكتفين والفرغ ووثاب وعمودان وقابيس والمصبح والفليق والضبروح ، رآها يوسف في أفق السماء ساجدة له ، فلما قص رؤياه على أبيه قال : أرى شيئا مشتتا ويجمعه الله لك ، فقال اليهودي : هذه والله أسماؤها » ويقال كان بين رؤيا يوسف في الغصن ورؤياه في الكواكب سبع سنين ، فلما كان من أمر رؤيا يوسف ما كان ، وانضاف إلى ذلك تخصيص أبيه يعقوب إياه بالحبة والقربة حسده إخوته ، وحملهم الحسد على أن تأمروا بينهم في أن يفرقوا بينه وبين أبيه بضرب من الاحتيال ويهلكوه فيما بينهم كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أي خطأ بين في إثارة يوسف وأخاه علينا (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجهه أبيكم وتكونوا من بعده قوه) أي صالحين (أي تائبين ، فاستعدوا للتوبة قبل وقوع الذنب ، قال قائل منهم ، وهو يهودا ، وكان أفضلهم وأعقلهم : لا تقتلوا يوسف ، فإن القتل عظيم ، والقوه في غيابة الحب ، وهو البر غير المطوية يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قيل للحسن : أيحسد المؤمن ؟ فقال للسائل : ما أنساك بني يعقوب ! ، ولهذا قيل : الأب جلاب والأخ سلاب ، فعند ذلك أجمعوا رأيهم أن يدخلوا على يعقوب ويكلموه في إرسال يوسف معهم إلى البرية ، فقال لهم روبييل ، وهو أكبر ولد يعقوب : إن أباكم لا يأمنكم على يوسف ، ولكن انطلقوا بنا إلى يوسف حتى نلعب بين يديه ، فإذا نظر إلينا كيف نمرح ونلعب ، اشتاق إلى ذلك ، فأقبوا على يوسف وهو قاعد يسبح فجعلوا يتلاعبون ويتضحكون بين يديه ، فلما رأى يوسف ذلك اشتاق إلى اللعب معهم ، فأقبل عليهم وقال : يا إخوتاه

أهكذا تلعبون في مراعيكم؟ فقالوا: نعم يا يوسف، إنك لو رأيتنا ونحن نلعب في مراعينا لتنتيت أن تكون معنا، فشوقوه إلى ذلك حتى كان هو الطالب إليهم، فقال لهم: يا إخوتاه انطلقوا إلى أبي واسألوه أن يرسلني معكم، فأقبلوا إلى يعقوب ووقفوا بين يديه صفا، وكانوا يفعلون هكذا إذا أرادوا أن يسألوه حاجة، فلما رآهم بين يديه وقفا صفوفا، قال لهم: ما حاجتكم؟ قالوا: يا أبانا مالك لاتأمننا على يوسف وإنا له لناصهون؟ نحوطه ونحفظه حتى نرده إليك، أرسله معنا غدا يرتع ويلعب في الصحراء وإنا له لحافظون. فقال لهم يعقوب: إني ليحزني أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لاتشعرون بذلك. قال ابن عباس وغيره: إنما قال ذلك يعقوب، لأنه رأى في منامه كأن يوسف على رأس جبل، وكان عشرة من الذئاب قد شدوا عليه ليأكلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه، وكان الأرض قد انشقت فدخل فيها يوسف فلم يخرج منها إلا بعد ثلاثة أيام. فلما رأى يعقوب هذه الرؤيا خاف على يوسف من الذئب، فلذلك قال لهم: وأخاف أن يأكله الذئب.

أخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه، أخبرنا عبد الله بن شبة، أخبرنا أبو نعيم وعبد الرحمن ابن قريش، أخبرنا محمد بن عمرو بن الحكم الهروي، أخبرنا مالك بن سليمان القروي، أخبرنا عبيد الله بن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتلقنوا الناس الكذب فيكذبوا، فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الإنسان حتى لقنهم أبوهم، فلما لقنهم، وقال: إني أخاف أن يأكله الذئب، قالوا أكلكه الذئب، فقال بنوه (لئن أكله الذئب ونحن عصابة) أي عشرة رجال (إننا إذا لخاسرون) عجزة مغلوبون، ثم قالوا: يا نبي الله كيف يأكله الذئب؟ وفينا شمعون إذا غضب لايسكن غضبه حتى يصبح، فإذا صاح لاتسمعه حامل إلا وضعت ما في بطنها، وفينا يهوذا إذا غضب شق السبع نصفين، فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمأن إليهم، وأقبل يوسف حتى وقف بين يدي أبيه، ثم قال له: يا أبت أرسلني معهم، قال: أو تحب ذلك يا بني؟ قال: نعم، قال: إذا كان غد أذنت لك في ذلك. فلما أصبح يوسف لبس ثيابه وشد عليه مننطقته وأخذ قضيبه وخرج مع إخوته، ثم عمّد يعقوب إلى السلة التي حمل فيها إبراهيم زاد إسحاق، فحمل فيها زادا ليوسف وخرج ليشيعهم، فقالوا: يا نبي الله ارجع، فقال يعقوب: يا بني أوصيكم بتقوى الله وبحببي يوسف، أسألکم بالله، إن جاع فأطعموه، وإن عطش فاسقوه، وقوموا عليه ولا تتعبوه ولا تخدلوه، وكونوا متواصلين متراحين، قالوا: نعم يا أبانا كلنا لك ولد وهو أخونا كأحدنا، بل له الفضل علينا بحبك إياه، فقال: نعم يا بني، الله خليفتي عليكم مع أني خائف أن أكون قد ضيعته، ثم إنه أقبل على يوسف، فالتزمه وضمه إلى صدره، وقبّل بين عينيه، ثم قال: استودعتك الله رب العالمين وانصرف راجعا.

وروی السدی ورجاء عن ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإسحاق بن بشر بن جوير عن الضحاک عن ابن عباس ومقاتل عن ابن بحيرة عن كعب الأحبار عن سعيد بن أبي عروبة عن الحسن ، دخل كلام بعضهم في بعض قالوا : أرسل يعقوب يوسف مع إخوته ، فأخرجوه مظهرين له الكرامة ، فلما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وضربوه ، فجعل يستغيث بهم واحدا بعد واحد وهم يضربونه فلا يرى منهم رحمة ، وأخذوا ما كان زوده يعقوب وأطعموه الكلاب وضربوه حتى كادوا يقتلونه وعطش عطشا شديدا ، فقال لهم : اسقوني جرعة من ماء قبل أن تقتلوني فلم يسقوه ، فعند ذلك بكت الملائكة رحمة ليوسف . فلما رأى يوسف أن ليس أحد منهم يعطف عليه جعل يصيح ويقول : يا أبتاه يا يعقوب لو تعلم ما تصنع بابنك بنو الآباء ، فلما هموا يقتله قال لهم يهوذا ، وكان ابن خالة يوسف وأحسنهم فيه رأيا : أليس إنكم قد أعطيتموني موثقا أن لا تقتلوه ، فعند ذلك أجمعوا على إلقائه في الحب ، كما قال الله تعالى (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْحَبِّ) فانطلقوا به إلى الحب ليطرحوه فيه ، وكان ذلك الحب في الأردن بين مدين ومصر ، وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق في واد من أوديتها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ، وكانت بئرا وحشة مظلمة أسفلها واسع وأعلىها ضيق ، يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها ، لا يمكنه الصعود وكان ماؤها ملحا ، وكان الحب من حفر سام بن نوح ويسمى جبّ الأحزان . فلما أرادوا أن يلقيه فيه ، جعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر ، فربطوا يديه إلى عنقه ونزعوا قميصه ، فقال : يا إخوتاه ردوا عليّ قميصي أستبره عورتى ويكون لى كفنا بعد مماتى ، وأطلقوا يديّ أطرد بهما عنى هوامّ الحب ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تلبسك وتؤنسك ، فدلوه في البئر بجبل ، فلما بلغ نصفها قطعوا الحبل ليسقط فيموت فيه ، فأخرج الله تعالى على وجه الماء صخرة مملمة لينة ورفعها إلى يوسف فوقف عليها ، وجعل يوسف يبكى ، فنادوه فظن أنها رحمة لحقهم ، فأجابهم ، فهمتوا أن يرضخوه بالحجارة فيقتلوه ، فمنعهم يهوذا ، وقال : لقد أعطيتموني موثقا أن لا تقتلوه . قالوا : فلما ألقى يوسف في الحب أضاء له الحب وعذب ماؤه حتى كان يغنيه عن الطعام والشراب ، وبعث الله تعالى إليه ملكا فحل عنه قيده ، وكان إبراهيم حين ألقى في النار جرد من ثيابه وقذف في النار عريانا ، فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، وكان ذلك القميص عند إبراهيم ، فلما مات إبراهيم ورثه إسحق ، فلما مات إسحق ورثه يعقوب منه ، فلما شبّ يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في تعويذ ، وعلقه في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان لا يفارقه ، فلما ألقى في الحب عريانا جاءه الملك وكان عليه التعويذ ، فأخرج القميص وألبسه إياه وجعل يؤنسه بالنهار .

ويروى أن الملك أتاه بسفر جلة من الجنة فأطعمه إياها ، فلما أمسى يوسف نهض الملك ليذهب ، فقال له يوسف : إنك إذا خرجت عني أستوحش ، فقال له الملك : قل إذا هبت شيئا : يا صريخ المستصرخين ، يا غياث المستغيثين يا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعرف حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري . فلما دعا يوسف بهذا الدعاء بعث الله إليه سبعين ملكا فحضوا به وآنسوه في البئر ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الرابع أتاه جبريل عليه السلام وقال : يا غلام من طرحك ههنا في هذا الحب ؟ قال : إخوتي لأبي ، قال : ولم ؟ قال : حسدوني على منزلي من أبي ، قال : أتحب أن تخرج من هذا الحب ؟ قال : نعم ، قال قل : يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل مكسور ، ويا حاضر كل ملاء ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا قريبا غير بعيد ، ويا مؤنس كل وحيد ، ويا غالبا غير مغلوب ، ويا علام الغيوب ، ويا حيا لا يموت ، ويا محيي الموتى ، لا إله إلا أنت سبحانك ، أسألك يا من له الحمد يا بديع السموات والأرض يا مالك الملك ويا ذا الجلال والإكرام ، أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد ، وأن تجعل لي من أمري ومن ضيقى فرجا ومخرجا ، وترزقني من حيث أحسب ومن حيث لا أحسب ، فقالها يوسف ، فجعل الله له من الحب مخرجا ، ومن كيد إخوته فرجا ، وآتاه ملك مصر من حيث لا يحتسب ، وأوحى الله إليه وهو في البئر لتنبئ إخوتك بما عملوا وهم لا يعلمون أنك يوسف ، فذلك قوله تعالى (لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) .

وقال مجاهد : خرج يوسف من عند يعقوب وهو ابن ست سنين لم يثغر ، وجمع الله بينهما وهو ابن أربعين سنة .

أخبرنا أبو عبد الله الدينوري ، أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصرصري ، أخبرنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، أخبرنا عمران القزاز ، أخبرنا عبد الوارث ، أخبرنا يونس عن الحسن قال : ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان في العبودية والملك والسجن ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانية وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وخمس وعشرين سنة .

رجعنا إلى قصة يوسف عليه السلام وإخوته بعد ما ألقى في الحب ، فلما ألقوه في الحب عمداوا إلى سحلة من الغنم فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها وشووها وأكلوا لحمها ، ثم إنهم رجعوا إلى يعقوب وهو قاعد على قارعة الطريق ينتظرهم متى يأتون بيوسف ، فلما دنوا منه اضطرخوا صراخ رجل واحد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء ، فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة ، فلما وافوه اجتمعوا وتقدموا بين يديه وشقوا جيوبهم وبكوا ، ففرع يعقوب وقال : ما لكم يا بني ، وأين يوسف ؟ قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق : أي نتنصل ، وكذلك هو في قراءة عبد الله (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا

ولو كنا صادقين) وهذا قميصه ملطخ بدمه ، فذلك قوله تعالى (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) وإنما فعلوا ذلك ليكونوا في الظلمة أجراً على الاعتذار وتزوير ما مكروا فقد قالوا : لا تطلب الحاجة في الليل ، فإن الحياء في العينين ولا تعتذر بالنهار من قبح فعلك فتتلجلج في الاعتذار فلا تقدر على إتمامه .

وروى الشعبي قال : جاءت امرأة إلى شريح فجعلت تبكي ، فقال رجل : ألا ترى إلى هذه المرأة المسكينة كيف تبكي ؟ فقال شريح : قد جاء إخوة يوسف عشاء يبكون ، ثم إنه أنشد في معناه :

أغرّك من شيخ بكاء وممّلقه أم اللحية البيضاء للنتف مطلقه

فإن بنى يعقوب جاءوا أباهم عشاء وهم يبكون زورا ومخرقه

قال : فلما قالوا : (يا أبانا إننا ذهبنا نستبِقُ) أي ننتضل (وترَكنا يُوسُفَ عندَ متاعِنَا فأكله الذئبُ) الآية إلى قوله (بدمٍ كذبٍ) لأنه لم يكن دم يوسف وإنما كان دم شاة ، وقرأت عائشة (بدمٍ كذبٍ) بدال غير معجمة : أي طرى . فلما قالوا ذلك ليعقوب بكى بكاء شديدا وقال لهم : أروني قميصه فأروه ، فقال : تالله ما رأيت كاليوم ولا ذنبا أحلم من هذا أكل ابني ولم يشق له جيبا ولا خرق له شقا ، وصاح صيحة وخر مغشيا عليه فلم يبق إلا بعد ساعة طويلة ، فلما أفاق بكى بكاء شديدا ، ثم أخذ القميص وجعل يشمه ويقبله ويضعه على وجهه وعينه .

أخبرنا ابن فتحويه ، أخبرنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان ، أخبرنا عبيد الله بن ثابت ، أخبرنا أبو سعيد الأشج ، أخبرنا أسامة ، حدثني زكريا عن سماك عن الشعبي قال : كان في قميص يوسف ثلاث آيات لما جاءوا به إلى أبيه ، فقالوا : أكله الذئب ، فقال أبوه : لئن أكله الذئب ليشقن قميصه ، وجين سعى نحو الباب فشقت قميصه من خلف ، فعرف الوزير أنه لو كان هو الذي راودها لكان الشق من بين يديه ، وحين أتى على وجهه فارتد بصيرا .

قالوا : فلما أصبح إخوة يوسف من الغد رجعوا إلى مراعيهم ، فقال بعضهم لبعض : قد رأيت ما كان من تكذيب أبيكم البارحة ، فإن أردتم أن يصدقكم ويخرجكم من الملامة ، فمروا بنا على الحب فنخرج يوسف منه ونفرك بين أضلاعه ولحمه ونجىء به ، فقال لهم يهوذا : يا إخوتاه أين العهد الذي بيني وبينكم ، والله لئن فعلتم ما تقولون لأخبرن يعقوب بما كان منكم إليه ، ثم لاكونن لكم عدوا ما بقيت ، فتركوه ، ثم إنهم رجعوا إلى أبيهم عشاء ، فقال لهم يعقوب : إن كنتم صادقين أن الذئب أكله فأين الذئب اثرتني به ؟ فعمدوا إلى حباهم وعصيمهم ، فأخذوها ومضوا إلى الصحراء ، فاصطادوا ذنبا وشدوه وأوثقوه كتافا ، ثم حملوه إلى يعقوب وأوثقوه بين يديه ، فقال : حلوا عقاله ، فحلوه ،

فقال له يعقوب : اقبل ، فأقبل الذئب يتخطى القوم حتى وقف بين يدي يعقوب منكسا رأسه ، فقال يعقوب : أيها الذئب أكلت ولدي وقررة عيني وحبيب قلبي وثمره فؤادي ، لقد أورثتني حزنا طويلا وألما عظيما . قال : فتكلم الذئب وقال : لا وحق شيبتك يا نبي الله ما أكلت لك ولدا ، وإن لحومكم ودماءكم معشر الأنبياء محرمة علينا ، وإني لمظلوم مكذوب عليّ ، وإني لذئب غريب من بلاد مصر ، فقال له يعقوب : وما أدخلك أرض كنعان ؟ قال : جئت لأجل قرابة لي من الذئاب أزورهم وأصلهم ، فعند ذلك قال يعقوب لأولاده (بَلْ سَوَّيْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبْرًا جَمِيلًا) وهو الذي لاجزع فيه ولا شكوى (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) .

قال ابن عباس : إنما كان سبب بلاء يعقوب أنه ذبح شاة وهو صائم ، فاستطعمه جار له فلم يطعمه ، فابتلاه الله تعالى بأمر يوسف ، قال : فكث يوسف في الحب ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الرابع ودعا بالدعاء الذي علمه جبريل عليه السلام جاءت سيارة : أي رفقة مارة من قبل مدين تريد مصر ، فأخطثوا الطريق وضلوا عنها حتى نزلوا قريبا من الحب . قال : وكان الحب في قفر بعيد من العمران ، وإنما هو للرعاة والمجازرة ، وكان ماؤه مالحا فعذب حين أتى فيه يوسف ، فلما نزلت السيارة أرسلوا رجلا من العرب من أهل مدين يقال له مالك بن دعر ليطلب لهم ماء ، فذلك قوله تعالى (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ) قالوا : والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيبيئ الأرشية والدلاء ، فوصل الوارد إلى البئر فأدلى دلوه : أي أرسلها ، فتعلق يوسف بالحبل ، فلما وصل إلى فم البئر ورآه مالك بن دعر ، فرأى أحسن ما يكون من الغلمان ، فقال مالك : (يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ) يبشر أصحابه أنه أصاب عبدا (وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً) قال المفسرون : أسر مالك بن دعر وأصحابه أمر يوسف من التجار الذين معهم وقالوا لهم : هو بضاعة استبضعناها من بعض الناس إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه الشركة إن علموا حاله . قال : وكان يهودا يأتي يوسف بالطعام كل يوم سرا من إخوته ، فأتاه ذلك اليوم كما كان يفعل فلم يجده في البئر ، فنظر فإذا هو بمالك وأصحابه نزولا ويوسف معهم ، فرجع يهودا وأخبر إخوته بذلك ، فأتوا إلى مالك وقالوا له : هذا عبدنا أبق منا ، وكنتم يوسف حاله مخافة أن يقتلوه ، فقال مالك : أنا اشتريه منكم فباعوه منه ، فذلك قوله تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) أي باعوه بثمان ناقص ظلم حرام ، لأن ثمن الحر حرام ، ثم بين الثمن فقال : دراهم معدودة ، وإنما قال ذلك لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان وزنه أقل من أوقية أربعين درهما ، وإنما كانوا يعدونها عدا ، فإذا بلغ أوقية وزنوه ، لأن أقل أوزانهم وأصغرها يومئذ أوقية أربعون درهما .

واختلف العلماء في عدد الدراهم التي باعوا بها يوسف ، فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي : عشرون درهما ، واقتسموها بينهم درهين درهين . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهما . وقال عكرمة : أربعون درهما ، وإنما باعوه بهذا القدر لأنهم كانوا فيه من الزاهدين ، لم يعلموا كرامته على الله ولا منزلته عند الله .

ويقال إن السبب في استرقاق يوسف وبيعهم إياه ، أن إبراهيم دخل مصر في بعض الأزمنة ، فلما خرج منها شيعه زهادهم وعبادهم حفاة مشاة إلى أربعة فراسخ تعظيما له وإجلالا ، ولم يترجل لهم إبراهيم ، فأوحى الله إليه إنك لم تنزل لعبادي وهم يمشون معك حفاة ، لأعاقبتك بأن يباع ولد من أولادك في هذه المدينة .

ثم إن مالك بن دعر انطلق هو وأصحابه بيوسف ومعهم إخوته يقولون لهم : استوثقوا منه فإنه آبق سارق كاذب ، وقد برثنا إليكم من عيوبه ، فحمله مالك على ناقة وساروا به إلى مصر ، وكان طريقهم على قبر أمه ؛ فلما رأى قبر أمه لم يبالك أن رمى نفسه عن الناقة إلى القبر وهو يقول : يا أمي يا راحيل حلي عنك عقدة الردي ، وارفعي رأسك من الثرى وانظري إلى ولدك يوسف وما لقي بعدك من البلاء ، يا أماه لو رأيت ضغني وذلي لرحمتيني ، يا أماه لو رأيتني وقد نزعوا قميصي وشدونني ونخي الجب ألقوني وعلى حر وجهي لطموني وبالجملة رجوني ولم يرحموني ، وكما تباع العبيد باعوني ، وكما يحمل الأسير حملوني .

قال كعب الأحبار : فسمع يوسف مناديا من خلفه وهو يقول : اصبر وما صبرك إلا بالله . قال : فافتقده مالك على الناقة التي كان عليها فلم يجده ، فصاح في القافلة : ألا إن الغلام قد رجع إلى أهله ، فطلب القوم يوسف فرأوه ، فأقبل عليه رجل منهم ، فقال : يا غلام قد أخبرنا مواليك بأنك آبق سارق فلم نصدق حتى رأيناك تفعل ذلك ، فقال : والله ما أبقت ، ولكنكم مررتم على قبر أمي ، فلم أتمالك أن رميت نفسي على قبرها . قال : ففع مالك بن دعر يده ولطم حر وجهه وجره حتى حمله على ناقته . ؛ ويروى أنهم قيدوه فذهبوا به حتى قدموا مصر . قال مالك : ما نزلت منزلا ولا ارتحلت إلا استبان لي بركة يوسف ، وكنت أسمع تسليم الملائكة عليه صباحا ومساء ، وكنت أنظر إلى نعامة بيضاء تظله وتسير فوق رأسه إذا سار ، وتقف على رأسه إذا وقف . فلما قدموا مصر أمر دعر مالك بن دعر أن يغتسل ، فاغتسل وألبسه ثوبا حسنا وعرضه للبيع ، فاشتراه قطفير بن رحيب وهو العزيز بمصر ونواحيها ، وكان على خزائن الملك الأعظم ، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن ثروان بن أراشة بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ ابن سام بن نوح عليه السلام . ويروى أن هذا الملك ما مات حتى آمن بيوسف وتبعه على دينه ، ثم مات ويوسف حي ، ثم ملك بعده قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير بن السلواس بن قاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان كافرا فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى أن يسلم .

قال ابن عباس : لما دخلوا مصر تلقى قطفير السيارة وابتاع يوسف من مالك بن دعر بعشرين ديناراً وزوج نعال وثوبين أبيضين .

وقال وهب بن منبه : قدمت السيارة إلى مصر فدخلوا بيوسف إلى السوق يعرضونه للبيع ، فترافع الناس في ثمنه وتزايدوا حتى بلغ ثمنه وزنه مسكاً وورقاً وحريراً ، فابتاعه قطفير بهذا الثمن من مالك ، فلما اشتراه أتى به منزله وقال لامرأته : أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، واسمها راعيل بنت رعيائيل قاله إسماعيل بن يسار .

وأخبرني ابن فتحويه ، أخبرنا ابن أبي شيبة ، أخبرنا أبو حامد المسلمي ، أخبرنا أبو هاشم الرقاعي قال : اسم امرأة العزيز بكاء بنت فيوش ، قالوا : فقال لها (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) فتبناه . وقال ابن إسحاق : كان قطفير لا يأتي النساء ، وكانت امرأته راعيل حسناء ناعمة في ملك ودنيا .

أخبرنا أبو بكر الجوزقي ، أخبرنا أبو العباس الدعولي بسرحين ، أخبرنا علي بن الحسين الهلالي ، أخبرنا أبو نعيم ، أخبرنا زهير عن ابن إسحاق عن أبي عبيد عن عبد الله بن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف ، وقال لامرأته : أكرمي مثواه ؛ والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها استأجره ؛ وأبو بكر حين استخلف عمر .

قال الله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) يعني أرض مصر . قال أهل الكتاب : لما تم ليوسف في الأرض ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر وجعله على خزائنه ، فذلك قوله تعالى (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث) الآية . قالوا : فلما أتى العزيز بيوسف إلى منزله وقال لامرأته : أكرمي مثواه ، فتأملته امرأة العزيز ورأت حسنه وجماله وقع حبه في قلبها ، فراودته : أي طلبت منه متابعتها على هواها ، وذلك قوله تعالى (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) أي هلم تدعوه إلى نفسها ، فقال يوسف عند ذلك (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي) يعني زوجك قطفير سيدي إنه أحسن مثواي (إنه لا يفلح الظالمون) يعني إن فعلت هذا فختته في أهله بعد ما أكرمني واثمنني ، فأنا ظالم له ولا يفلح الظالمون ، قال الله تعالى (ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ومعنى الهم بالشئ : ما حدث المرء به نفسه ولم يفعل ذلك بعد . قال الشاعر :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

أما ما كان من هم يوسف بالمرأة وهمها به ، فاختلف أهل العلم في ذلك . قال السدي : وابن إسحاق : لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه ، جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها ، فقالت له يا يوسف : ما أحسن شعرك ! قال : هو أول شيء ينتثر من جسدي ، قالت : يا يوسف ما أحسن عينيك ! قال : هما أول ما يسيل في الأرض

من جسدي ، قالت : ما أحسن وجهك ، قال : التراب يأكله ، فلم تزل تأمره مرة وتعظمه أخرى وتدعوه إلى اللذة وهو شاب مستقبل مجد شبق الشباب ، وهي حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به ، ولم يتخوف منها حتى نخلوا في بعض البيوت وهم بها :

وروى إسحاق بن يسار عن جويبر عن الضحاك ومقاتل جميعا عن ابن عباس فيما كان من محاورتهما قال : قالت : يا يوسف ما أحسن شعرك ! قال : هو أول شيء يبلى إذا مات ، قالت : يا يوسف ما أحسن وجهك ! قال : ربي تعالى صورني في الرحم ، قالت : يا يوسف قد أنحلت جسمي بصورة وجهك ، قال : الشيطان يعينك على ذلك ، قالت : يا يوسف الجنية قد التهبت ناراً قم فأطفئها ، فقال : إن أطفأتها فمها احتراق ، قالت : يا يوسف الجنية قد عطشت قم فاسقها ، قال : من كان المفتاح بيده فهو أحق أن يسقيها مني . قالت : يا يوسف بساط الحرير قد بسط لك قم فاقض حاجتي . قال : إذن يذهب نصيبي من الجنة ، قالت : يا يوسف ادخل معي تحت الستر فأسترك به ، قال : ليس شيء يسترني من ربي تعالى إن عصيته . قالت : يا يوسف ضع يدك على صدري تشفني بذلك ، قال : سيدي أحق بذلك مني ، قالت : أما سيدك فأسقيه كأساً فيه زئبق الذهب فيتناثر لحمه ويتساقط عظمه ، ثم ألقه في الإستبرق وألقه في القيطون : يعني الخدع لا يعلم به أحد من الناس وأوليك ملكه قليله وكثيره ، قال : فإن الجزاء يوم الجزاء . قالت : يا يوسف إنى كثيرة الدر والياقوت والذمرد ، فأعطيك ذلك كله حتى تنفقه في مرضاة سيدك الذي في السماء ، فأبى يوسف .

قال ابن عباس : فجرى الشيطان فيما بينهما ، فضرب بإحدى يديه إلى جنب يوسف وباليد الأخرى إلى جنب المرأة حتى جمع بينهما ، قال ابن عباس : فبلغ من هم يوسف إلى أن حلّ الهيميان وجلس منها مجلس الرجل الخائن .

وروى جابر عن الضحاك عن ابن عباس : همت بيوسف أن يفتريها ، وهم بها : يعني تمنّاها أن تكون له زوجة .

وأما البرهان الذي رآه يوسف ، وكان سبب العصمه وصرف الفاحشة عنه فاختلّفوا فيه . أخبرنا أبو الحسين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الطبراني ، أخبرنا حسن بن عطية عن إسرائيل بن أبي حسين عن أبي سعيد قال ابن عباس في قوله تعالى (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) قال : مثّل له يعقوب فضربه بيده على صدره ، فخرجت شهوته من أنامله . وقال الحسن ومجاهد وعكرمة والضحاك : انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضاً على أصبعه ، قال : فكل بنى يعقوب ولد له اثنا عشر ولداً إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين رأى صورة أبيه ، فاستحيا منه . وقال قتادة : رأى يوسف صورة يعقوب ، فقال له يعقوب : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟ . وقال السدي : نودي يا يوسف لاتواقعها ، إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جرّ

السماء لا يطاق ، ومثلك إن واقعها مثله إذا مات ووقع في الأرض لا يقدر أن يدفع عن نفسه ، ومثلك ما لم توقعها مثل الثور الصعب الذي لا يعمل عليه ، ومثلك إن واقعها مثل الثور الذي يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه ، فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد الأصفهاني ، أخبرنا أحمد بن محمد بن يزيد السكوني ، أخبرنا محمد بن إبراهيم بن خالد بن عمر بن حفص البصري ببغداد ، أخبرنا خالد بن يزيد البصري ، أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا) فقد حل سراويله وقعد منها مقعد الرجل من المرأة ، فاذا بكف قد بدت فيها بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَعْلَمُونَ) فقام هاربا فارقا ؛ فلما ذهب عنهما الروع والرعب عادت وعاد ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذ الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) الآية ، فقام هاربا وقامت ؛ فلما ذهب عنها الرعب عادت وعاد ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته إذ الكف قد بدت بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) فقام هاربا وقامت ؛ فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته قال الله تعالى لجبريل عليه السلام : يا جبريل أدرك عبيد قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل عاضا على أصبعه أو كفه ، وهو يقول : يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء؟ قال الله تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .

أخبرنا يعقوب بن أحمد ، أخبرنا محمد بن عبد الله النعماني ، أخبرنا عبد الله بن أحمد ابن عامر الطبرستاني ، حدثني أبي قال : حدثني علي بن موسى الرضا ، حدثني أبي عن أبيه جعفر بن محمد الصادق ، حدثني أبي عن أبيه عن علي بن الحسين في قوله تعالى (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) قال : قامت امرأة العزيز إلى الصنم فظلت دونه بثرب ، قال : فقال لها يوسف : ما هذا؟ قالت : أستحي أن يرانا ، فقال لها يوسف : أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه ، ولا أستحي أنا ممن خلق الأشياء كلها وعلمها؟ . قالوا فلما رأى يوسف البرهان قام مبادرا إلى باب البيت هاربا مما أرادته فاتبعته المرأة ، فذلك قوله تعالى (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) يعني تبادر يوسف وراعيل إلى الباب ، أما يوسف ففرارا من ركوب الفاحشة ، وأما المرأة فطلبا ليوسف ليقضى حاجتها التي راودته عنها ، فأدركته فتعلقت بقميصه من خلفه ، فجذبه إليه مانعة له من الخروج فقدت : أي خرفت وشقت قميصه من دبر : أي من خلفه ، لأن يوسف كان الهارب والمرأة الطالبة . فلما خرجا ألقيا سيدها لدى الباب : أي وجدا زوجها قطفير عند الباب جالسا مع ابن عم لراعيل ، فلما رأته وهابته وقالت سابقة بالقول لزوجها (مَا جَزَاءُ مَنْ أُرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) يعني الزنا (إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) يعني الضرب بالسياط .

عن ابن عباس : وهذا كالمثل السائر : خذ اللص قبل أن يأخذك ، فقال يوسف : بل هي راودتني عن نفسي ، فأبيت وفررت منها فأدركتني وشقت قميصي ، قال نوف الشامي : ما كان يوسف يريد أن يذكرها ، فلما قالت (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) غضب وقال : هي راودتني عن نفسي (وشهد شاهد من أهلها) . واختلفوا في هذا الشاهد من هو ؟ فقال سعيد بن جبیر والضحاك : كان صبيا في المهد أنطقه الله تعالى ، يدل عليه حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تكلّم أربعة في المهد وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج الرأهب ، وعيسى بن مريم » وقال الحسن وعكرمة وقتادة : ما كان صبيا ولكن كان رجلا حكما وله رأى وكان من خاصة الملك . وقال السدي : هو ابن عم راعيل كان جالسا مع زوجها على الباب ، فحكم بما أخبر الله تعالى عنه (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر) عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام فقال (إنه من كيدك إن كيدك كن عظيم) ثم أقبل على يوسف فقال : (يا يوسف أعرض عن هذا) الحديث لا تذكره لأحد ، ثم قال لامرأته (وأستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) أي من المدنين حين راودت شابا عن نفسه وخت زوجك (فلما استعصم) كذبت عليه .

قالوا : فشاع أمر يوسف وراعيل وتحدث الناس بذلك ، وقال نسوة في المدينة ، وهن امرأة الساقى وامرأة الحجاز صاحب الدواة وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب : (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) أي عبدها الكنعاني (قد شغفتها حبا) أي دخل حبه في شغاف قلبها ، وهو حجابها وغلافه (إننا لتراها في ضلال مبين) أي خطأ بين حيث تراود عبدها عن نفسه . فلما سمعت راعيل بمكرهن : أي بقولهن وحديثهن ، وقال ابن إسحاق : يعني بكيدهن ، وذلك إنما قلنه مكرها بها لترهبين يوسف لما بلغهن من حسنه وجماله فاتخذت راعيل مائة ودعت أربعين امرأة منهن هؤلاء اللواتي عبرتها ، فذلك قوله تعالى (وأرسلت إليهن وأعندت لهن متكئا) أعدت : أي هيأت لهن مجلسا للطعام وما يتكئن عليه من النمارق والوسائد .

عن ابن عباس وسعيد بن جبیر وقتادة : يعني هيأت طعاما ، وقرأ مجاهد متكا خفيفا غير مهموز ، وهو كل طعام تحزه بالسكين . وقال وهب : أعدت لهن أترجا وبطيخا وموزا ورمانا ووردا ، وآتت كل واحدة منهن سكيئا ، وقالت ليوسف : اخرج عليهن ، وكانت قد أجلسته في مجلس غير المجلس الذي هن فيه جلوس ، فخرج عليهن يوسف

(فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ) وما لهن أمره وبهت ، وقطعن أيديهن بالسكاكين اللاتي معهن
وهن يحسبن أنهن يقطنن الأترج وغيره .

قال قتادة : ابن أيديهن حتى ألقينها ، فما أحسنن إلا بالدم ، ولم يجدن من حز الأيدي
لما لشغل قلوبهن بيوسف عليه السلام .

وقال وهب : بلغني أن سبعا من الأربعين امرأة متن في ذلك المجلس وجدا بيوسف عليه
السلام (وَقُلْنَا حَاشَ لَكَ) أي معاذ الله (ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم)

فقلت راعيل عند ذلك للنسوة (فذليكن الذي لمتنني فيه) أي في حبه وشغفي به ،
ثم إنها أبدت لهن الميل الذي عندها فقالت (وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

أي امتنع واستعصى ، فقالت النسوة ليوسف : أطع مولاتك ، فقالت راعيل (لئن لم
يفعل ما أمره لئسجنن وليكونا من الصاغرين) فاختر يوسف حين عاودته

المرأة في المراودة وتوعدته بالسجن على المخالفة فقال : (رَبِّ السُّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) أي أمل وأتابعهن (وَأَكُنْ مِنَ

الجاهلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . ثُمَّ
بَدَأَ لَهُمْ) أي العزيز وأصحابه (مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ) الدالة على براءة يوسف وهو

قد القميص من دبر وخمش الوجه وقطع النسوة أيديهن (لئسجنننه حتى حين) .

قال السدي : وذلك أن المرأة قالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس
يعتذر إليهم ويخبرهم أني راودته عن نفسه ، ولست أطيق أن أعتذر بعذر ، فإما أن تأذن لي

أخرج فأعتذر ، وإما أن تحبسه كما حبستني ، فحبسه بعد علمه ببراءته دفعا للهمة عن
امراته ، وذلك أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه وتكفيرا لزلته .

قال ابن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين هم بها فسجن ؛ وحين قال اذكرني
عند ربك ، فلبث في السجن بضع سنين ، وحين قال لإخوته إنكم لسارقون ، قالوا : إن

يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

ولما سجن يوسف دخل معه السجن فتيان وهما غلامان كانا للوليد بن الريان ملك مصر
الأكبر : أحدهما خبازه وصاحب طعامه واسمه مجلب ، والآخر ساقيه وصاحب شرابه

واسمه بيوص ، غضب عليهما الملك فحبسهما ؛ وذلك أنه بلغه عنهما أن خبازه يريد أن
يسمه ، وأن ساقيه وافقه على ذلك ؛ وكان السبب فيه أن جماعة من مصر أرادوا المكر بالملك

وإغتياله ، فدخلوا إلى هذين الغلامين ، وضمنوا لهما مالا ليسما الطعام للملك والشراب ،
فأجاباهم إلى ذلك . ثم إن الساقى نكّل عنه والخباز غش الملك وقبل الرشوة فسم الطعام ،

فلما حضر وقته وأحضر الطعام قال الساقى : أيها الملك لاتأكل فان الطعام مسموم ، وقال

الحباز لا تشرب لأن الشراب مسموم ، فقال الملك للساق اشرب ، فشرب فلم يضره ، فقال للحباز كل من طعامك فأبى ، فجرب ذلك الطعام في دابة من الدواب فأكلته فهلكت ، فأمر الملك بحبسهما . وكان يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله : إني أعبّر الأحلام ، فقال أحد الفتيين لصاحبه هلم نجرب علم هذا العبد العبراني فنترأى له ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا . قال عبد الله بن مسعود : ما رأى صاحبيا يوسف شيئا وإنما كان تحالما ليجرّبا علمه ؛ وقال قوم : بل كانت رؤياهما على صحة وحقيقة فسألاه عنها . وقال مجاهد : لما رأى الفتيان يوسف قالوا له : والله لقد أحبيناك حين رأيناك ، فقال لهما يوسف أنشد كما الله تعالى لا تحباني ، فوالله ما أحببني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء ، لقد أحببني عمّي فدخل عليّ من حبه بلاء ، ثم أحببني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء ، ثم أحببني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبه بلاء ، فلا تحباني بارك الله فيكما . قال : فأبيا إلا حبه وألفاه حيث كان ، وجعل يعجبهما ما يريان من فهمه وعقله ، وقد كانا رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف ، فقال الساق : أيها العالم إني رأيت كأنني في بستان ، فإذا أنا بأصل كرمة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها ، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها ، وسقيت الملك شربة ، فذلك قوله تعالى (قالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) يعنى عنبا بلغة عمان يدل عليه قراءة ابن مسعود أعصر خمرا : أى عنبا . وقال الحباز : إني رأيت كأنّ فوق رأسي ثلاث سلال فيها خبز تأكل الطير منه (نَبَّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) .

أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عقيل ، أخبرنا عبيد الله بن محمد بن إبراهيم بن قالويه ، أخبرنا محمد بن يزيد السلمى ، أخبرنا أبو الربيع الزهراني ، أخبرنا خلف ابن خليفة ، أخبرنا سليم عن الضحّاك بن مزاحم في قوله تعالى (إنا نراك من المحسنين) قال : كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه ، فإذا ضاق عليه وسع له ، وإن احتاج جمع له وسأل ربه . وقال قتادة : بلغنا أن إحسانه كان يداوى مريضهم ويعزى حزينهم ويجهد لربه . وقال : لما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قد انقطع رجاؤهم واشتد بلاؤهم وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا واصبروا تؤجروا إن في هذا لأجرا وثوابا ، فقالوا يا فتى بارك الله فيك ما أحسن وجهك وخلقتك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك إنا لانحب أن نكون في غير هذا المكان منذ رأيناك لما تخبرنا به من الأجر والكفارة والطهارة في ذلك ، فن أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم عليهم السلام ، فقال له عامل السجن : والله يا فتى لو استطعت خلّيت سبيلك ، ولكن سأحسن جوارك وأحسن إيثارك ، فكن في أي بيت شئت . قال : ففكره يوسف أن يعبر لهما ما سألاه ، لما علم في ذلك من المكروه على أحدهما

فأعرض يوسف عن سؤالهما وأخذ في غيره ، قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بناؤيله قبل أن يأتيكما فقالا له : هذا فعل الكهنة والسحرة ، فقال : ما أنا بكاهن ولا ساحر ولكن ذلكما مما علمني ربِّي ، ثم بين لهما دينه ومذهبه فقال (إني ترَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) الخ الآية ، فأراها يوسف فطنته ودرأيته ثم دعاها إلى الإسلام وأقبل عليهما وعلى أهل السجن ، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله ، فقال إلزاما للحجة (يا صاحبي السجن أَرَأَيْتَ لِمَ تُفْرَقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ) الآية . ثم فسر رؤياهما لما ألخا عليه : يا صاحبي السجن أما أحدكما وهو الساقى فيسقى ربه خمرا : يعنى الملك ويعود إلى منزلته التى كان عليها ، وأما العناقيد الثلاثة فإنها ثلاثة أيام يبنى فى السجن ثم يخرج . وأما الآخر فيصلب ، والسُّلال التى رآها فى المنام ثلاثة أيام يبنى فى السجن ثم يخرج فيصلب فتأكل الطير من رأسه .

قال ابن مسعود : ثم لما سمعنا قول يوسف عليه السلام قالا : ما رأينا شيئا إنما كنا نلعب ونجرب علمك هذا ، فقال يوسف (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) أى فرغ الأمر الذى عنه تسألان .

أخبرنا عبد الله بن حامد محمد بن الوزان ، أخبرنا محمد بن عبد الله الصفار ، أخبرنا أحمد بن مهران عن أبي رزين العقيلي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرؤيا على رجل طائرٍ ما لم تُعَسَّرْ فإذا أُعْبِرَتْ وَقَعَتْ ، وإن الرؤيا جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، وأحسبه قال : لا تقصها إلا على ذى رأى وعقل » وقال صلى الله عليه وسلم « الرؤيا لأول عابري » .

فقال يوسف عليه السلام عند ذلك للذى علم أنه ناج منهما وهو الساقى (اذْكَرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) يعنى الملك ، وقل له فى السجن غلام محبوس ظلما (فأنساهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) الآية . والبضع : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وأكثر المفسرين على أن البضع فى هذه الآية سبع سنين .

وقال وهب بن منبه : أصاب أيوبَ البلاء سبع سنين ، وعذبُ بُخْتَنَصَّرَ بالمسخ سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين .

وروى يونس عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْلَا كَلِمَتُهُ مَا لَبِثَ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثَ ، يعنى قوله : اذكرنى عند ربك ثم بكى » وقال الحسن : نحن إذا نزل بنا أمر فرعنا إلى الناس .

وقال مالك بن دينار : لما قال يوسف للساقى : اذكرنى عند ربك ، فقيل له : يا يوسف

اتخذت من دوني وكيلا، لأطيلن حبسك، فبكى يوسف وقال : يا رب أنسى قلبي كثرة البلوى فقلت ما قلت ، فويل لإخوتي .

ويحكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في السجن ، فلما رآه يوسف عرفه وقال : يا أخا المنذرين مالي أراك بين المخطئين ؟ فقال له جبريل عليه السلام : يا طاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك : ما استحيت مني أن استشفعت بالآدميين ؟ فوعزتي لألبثتك في السجن بضع سنين ، قال يوسف : يا أخي يا جبريل وهو في ذلك راض عني ؟ قال : نعم ، قال : إذا لأبالي .

وقال كعب الأحبار : قال جبريل ليوسف : إن الله تعالى يقول لك من خلقك ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن حببك إلى أبيك ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن آنسك في البئر وألبسك وأنت عريان ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن نجاك من كرب البئر ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن علمك تأويل الرؤيا ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف استغثت بآدمي مثلك ؟ قالوا : فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي : وهذه السبع سوى الخمس التي كانت قبلها ، وذلك أنه حبس خمس سنين قبل أن يستشفع بالساقى ، وهو قوله تعالى (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) ، فلما استشفع بالساقى وقال له ، اذكرني عند ربك بقى في السجن سبع سنين ، فلما انتهت محنته ودنا فرجه وراحته رأى ملك مصر الأكبر وهو الريان بن الوليد رؤيا عجيبة فهالته ، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان فدخلت في بطونهن فلم ير منها شيئا ، ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وأفركت ، وسبعا آخر يابسات قد استحصدت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبتها . فجمع السحرة والكهنة ومعبريه وقصها عليهم وقال (يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون) أي تفسرون (قالوا أضغاث أحلام) مختلطة مشتبهة التأويل أباطيل وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين (وقال الذي تنجا منهما) أي من الفتيين وهو الساقى (وادكر بعا أمة) أي وتذكر حاجة يوسف بعد حين . قال قال ابن عباس : بعد أمة : أي بعد سنين (أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أي إلى السجن . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يكن السجن في المدينة ، فبعثوه فأتى ليوسف فقال له : أيها الصديق : يعني فيما عبرت لنا من الرؤيا ، والصديق : هو كثير الصدق (أفتينا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف) إلى قوله (لعلهم يعلمون) أي فضلك وعلمك ، فقال له يوسف : تزرعون سبع سنين دأبا ، إلى قوله : وفيه يعصرون ؛ فرجع الساقى إلى الملك وأخبره بما أفناه به يوسف من تأويل رؤياه كالنهار ، وعرف الملك أن الذي قال كائن ، فقال الملك : ائتوني بالذي عبر رؤياي هذه ، فلما

جاء الرسول إلى يوسف أبي أن يخرج معه حتى يعرف عذره وبرأته ويعرف حجة أمره من قبل النسوة، فقال للرسول (ارجع إلى ربك) أي سيدك الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) :

قال ابن عباس : لوخرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك شأنه ما زالت في نفسه منه حاجة يقول : هو هذا الذي راود امرأتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد عجبنت من أخى يوسف وكبرمه وصنبره والله تعالى يتغفر له حين سئل عن البقرات السمان والعجاف ، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ، ولو كنت مكانه ولبيت في السجن ما لبيت لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولم أبتغ العذر ، والله إنه كان حديماً ذأأناة ، قال : فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته ، فدعا الملك النسوة اللاتي قطعن أيديهن وامرأة العزيز ، فقال هن (ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) فلما سمع ذلك يوسف قال (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) فقال له جبريل : ولا حين همت بها يا يوسف ؟ فقال يوسف عند ذلك (وما أبرئ نفسي) الآية .

فلما تبين للملك عذر يوسف وعرف أمانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله قال (اثبتوني به أستخلصه لنفسي) فلما جاء الرسول إلى يوسف قال له : أجب الملك الآن ، فخرج يوسف ودعا لأهل السجن بدعاء يعرف إلى اليوم ، وذلك أنه قال : اللهم عطف عليهم قلوب الأخيار ، ولا نعم عنهم الأخيار فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم في كل بلدة . فلما خرج يوسف من السجن كتب على بابه : هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشهادة الأعداء ، ثم إنه اغتسل وتنظف من درن السجن ، ولبس ثياباً جديداً حسناً وقصد إلى الملك . قال وهب : فلما وقف بباب الملك قال : حسبي ربي من دنياي ، حسبي ربي من خلقه ، عز جاره وجل ثناؤه ولا إله غيره . فلما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بك من شره وشر غيره . فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية ، فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان عمي إسماعيل ، ثم إنه دعا له بالعبرانية ثانياً ، فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان أبي يعقوب . قال وهب : وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلما كلم يوسف بلسان أجابه بذلك اللسان : فأعجب الملك ما رأى منه ، وكان يوسف ابن ثلاثين سنة ، فلما رأى الملك حداثة سنه وغزارة علمه قال لمن عنده : إن هذا علم تأويل رؤياي ولم تعلمه الكهنة والسحرة ، ثم إنه أجلسه وقال له : إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً ، فقال يوسف : نعم أيها الملك ،

رأيت سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عن نهر النيل ، فطلعن عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا ، فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد أعجبتك حسنهن إذ نصب النيل فغار ماؤه وبدا قعره ، فخرج من حمته ووحله سبع بقرات عجاف شعث غير ملصقات البطون ليس لهن ضرور ولا أخلاف ، ولهن أنياب وأضراس وأكف كأف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع ، فاختلطن بالسمان وافترسنهن افتراس السباع وأكلن لحمهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن ، فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبهن وهن مهازيل ثم لم يظهر فيهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن ! إذا سبع سنبلات خضر وسبع آخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء ، فبينما أنت تقول في نفسك : ما هذا ! هؤلاء خضر مشمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد وأصولهن في الماء : إذ هبت ريح فردت أوراق السود اليابسات على الخضر المشمرات فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سودا متغيرات ، فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا ، ثم إنك انتبهت مذعورا . فقال له الملك : والله ما شأن هذه الرؤيا وإن كانت عجبا بأعجب مما سمعته منك . فما ترى في رؤياي أيها الصديق ؟ فقال يوسف الصديق : إني أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زراعا كثيرا في هذه السنين المحصبة وتبنى الأهراء والخزائن ، وتجعل فيها الطعام بقصبه وسنبله ليكون أبقى له ، ويكون قصبه وسنبله علفا للدواب ، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمس ، فيكفيك الطعام الذي جمعه لأهل مصر ومن حولها ، ثم تأتيك الخلق من جميع النواحي فيمتارون منك بحمك ، فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك ، فقال له الملك : ومن لي بهذا ، ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني الشغل فيه ؟ فقال له يوسف : (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) أي كاتب حاسب ، وقيل حفيظ لما استودعني عليم بسني المجاعة وبلغة من يأتيني ، فقال له الملك : ومن أحق به منك ؟ وولاه ذلك كله ، وقال له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) .

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى بن مخلد بن علوية ، أخبرنا إسماعيل بن جعفر الباقري ، أخبرنا الحسين بن علوية ، أخبرنا إسماعيل بن عيسى قال : أخبرنا إسحاق بن بشر عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَحِمَ اللهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ : اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ لاسْتَعْمَلَهُ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَلَكِنْ لِأَجْلِ سُؤَالِهِ إِيَّاهُ أُخْرِعَهُ عَنْ ذَلِكَ سَنَةً ، فَأَقَامَ عِنْدَ الْمَلِكِ فِي بَيْتِهِ سَنَةً » وروى سفيان عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذلي قال : قال الملك ليوسف : إني أريد أن تحالطني في كل شيء غير أني أنف أن تأكل معي ، فقال له يوسف : إني أحق أن أنف بذلك منك ، لأنى أنا ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، فصار بعد ذلك يأكل معه .

قال ابن عباس : فلما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه بتاجه

وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ، وأمر له بسرير من الذهب مكلل بالدرّ والياقوت ، فضرب عليه قبة من إستبرق ، وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع وعليه ثلاثون فراشا وستون نمرقة . ثم أمره أن يخرج فخرج متوجا ولونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى فيه من بياض وجهه الناظر صفاء لونه ، ثم انطلق حتى جلس على السرير فدانت له الملوك ولزم الملك وفوض إليه أمر مصر وعزل قظفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه ، ثم مات قظفير عن قريب ، فزوج الملك يوسف براعيل امرأة قظفير ؛ فلما دخل عليها قال لها : أليس هذا خيرا مما كنت تريدني مني ؟ فقالت له : أيها الصديق لاتلمني فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما رأيت في ملك ودينا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في صورتك وهيئتك فغلبتني نفسي ، فلما بنى بها يوسف وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له ابنين إفرائيم وميشا ابني يوسف عليه السلام ، واستوثق ليوسف ملك مصر ، فأقام فيهم العدل ، فأحبه الرجال والنساء ، فذلك قوله تعالى (وكذلك تجزي المحسنين . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) يعني أرض مصر (يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) وللبحري في هذا المعنى :

أما في رسول الله يوسف أسوةً لمثلك محبوبا على الظلم والإفك
أقام جميل الصبر في السجن برهة قال به الصبر الجميل إلى الملك
وكتب بعضهم إلى صديق له هذه الأبيات :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ولؤلؤ مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسف خزائنه بعد الخلاص من السجن

قال : فلما اطمأن يوسف في ملكه ونحلت السنين المحصبة ودخلت المجذبة جاءت بهول لم تعهد الناس مثله فأصاب الناس الجوع . فلما كان بدء القحط نام الملك ، فبينما هو نائم إذ أصابه الجوع ، فهتف الملك : يا يوسف الجوع الجوع ، فقال يوسف : هذا أوان القحط والجوع ، فلما دخل أول سنة من سنني الجذب هلك فيها كل شيء أعدوه من السنين المحصبة ، فجعل أهل مصر يتتاعون من يوسف الطعام ، فباعهم في أول سنة بالنقود من الذهب والفضة حتى لم يبق في مصر درهم ولا دينار إلا قبضه ، وباعهم في السنة الثانية بالحلى والحلل والجواهر ، حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء ، وباعهم في السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع ، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق عبد ولا أمة إلا أخذه ، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها ولم يبق لأحد ملك ، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم ، فإن الرجل كان يشتري بولده الحنطة أو الشعير من شدة السنة ، فلم يبق لأحد ولد ذكر ولا أنثى إلا ممالك ، وباعهم في السنة السابعة برقابهم وأرواحهم حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد ولا أمة إلا صار

ملكا له ، فتعجب الناس من أمر يوسف وقالوا : تالله ما رأينا ملكا أجمل من هذا وأعظم
ثم قال يوسف للملك : كيف رأيت صنع ربي فيما خولني فما ترى في هذا ؟ فقال له الملك :
الرأى رأيتك ، وإنما نحن لك تبع ، فقال يوسف : فإني أشهد الله وأشهدك أني قد اعتقت
أهل مصر جميعا ، ورددت عليهم عقارهم وعبيدهم وأولادهم :

وروى أن يوسف كان لا يشبع من الطعام في تلك الأيام ، فقيل له : أتجوع ويديك
خزائن الأرض ؟ فقال : إني أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع :

وروى أن يوسف أمر طباطب الملك أن يجعل غذاءه نصف النهار مرة واحدة في اليوم
والليلة ، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع ، ويحسن إلى المحتاجين ،
ففعل الطباطب ذلك ، فمن ثم جعل الملوك غذاءهم نصف النهار ، وقصد الناس مصر من كل
ناحية يمتارون ، فجعل يوسف لا يمكن أحدا منهم وإن كان عظيما من أكثر من حمل بعير ،
تقسيفا بين الناس وتوسيفا عليهم ، فزاحم الناس عليه .

قالوا : وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام من القحط والشدة ما أصاب سائر البلاد ،
ونزل يعقوب من ذلك ما نزل بالناس ، فأرسل بنيه إلى مصر يطلبون الميرة ، وأمسك
عنده بنيامين أخا يوسف لأمه ، فجاء بنو يعقوب إلى يوسف عليه السلام وكانوا عشرة ،
وكان منزلهم بالقرب من أرض فلسطين من ثغور الشام ، وكانوا أهل بادية ومواش ، فلما
دخلوا عليه عرفهم يوسف وأنكروه . . . أراد الله تعالى أن يبلغ يوسف ما أراده :

قال ابن عباس : وكان بين أن قذفوه في الحب وبين أن دخلوا عليه مصر أربعون
سنة فلذلك أنكروه . وقيل إنه كان متزيا بزى فرعون مصر ، فكانت عليه ثياب الحرير
جالسا على سرير وفي عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج من ذهب فلذلك لم يعرفوه ، وقيل
كان بينهم وبينه سر فلذلك أنكروه .

قال بعض الحكماء : المعصية تورث النكرة . ولذلك قال الله تعالى (وجاء إخوة
يوسف قد دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) قالوا : فلما نظر إليهم
يوسف وكلموه بالعبرانية قال لهم : أخبروني من أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم ؟
فقالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار . فقال : لعلكم عيون جنتم
تنظرون عورة بلادى ؟ فقالوا : لا والله ما نحن بجواسيس ، وإنما نحن إخوة بنو أب واحد
شيخ كبير صديق لله نبي من أنبياء الله تعالى يقال له يعقوب ، قال : فكم أنتم ؟ قالوا :
نحن كنا اثني عشر فذهب منا أخ إلى البرية فهلك فيها ، وكان أحب إلى أبينا منا ، قال :
كم أنتم ههنا ؟ قالوا عشرة . قال فأين الآخر ؟ قالوا عند أبينا لأنه أخو الذي هلك من
أمه فأبونا يتسلى به قال فمن يعلم أن الذي تقولون حق ؟ فقالوا أيها الملك إننا في بلاد
لا نعرف فيها . فقال يوسف : فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين ، فإني أرضى
بذلك ، قالوا إن أبانا يحزن على فراقه وسراوده عنه . قال فضعوا بعضكم عندي رهينة حتى

تأتوني بأخيكم ، فافترعوا بينهم فأصاب القرعة شمعون ، وكان أترهم يوسف فخلّفوه عنده ، فذلك قوله تعالى (وَآلِمًا جَهَّزَهُمْ بِجِيَاهِهِمْ) قال اثتوني بأخٍ لكم من أبيكم) الآية إلى قوله (وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) فقال عند ذلك يوسف لفتيانه : أي لغلمايه الذين يكيلون الطعام أجعلوا بضاعتهم : أي ثمن طعامهم .

قال ابن عباس : كانت بضاعتهم النعال والأدم . وقال قتادة : كانت ورقا في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون :

واختلف العلماء في السبب الذي فعل ذلك يوسف بهم من أجله ؛ فقال الكلبي : تخوّف يوسف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به إليه مرة أخرى ، وقيل خشى أن يشقّ أخذ ذلك منهم على أبيه إذ كانت السنة سنة جذب ، وقيل رأى لؤما أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع احتياجهم إليه ، فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكريما وتفضلا ؛ وقيل فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم وأمانتهم تحملهم على رد البضاعة ولا يستحلون إمساكها فيرجعون إليه لأجلها . فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا قدمنا على خير رجل أنزلنا وأكرمنا كرامة ، لو كان رجل من ولد يعقوب ما أكرمنا كرامته ، فقال لهم يعقوب : إذا أتيتم ملك مصر فافترعوا عليه مني السلام وقولوا له إن أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا ، ثم إنه قال لهم : أين شمعون ؟ فقالوا : إن الملك ارتنه لناثيه بنيامين ، ثم أخبروه بالقصة ، فقال لهم : ولم أخبرتموه بذلك ؟ فقالوا له : إنه أخذنا وقال إنكم جواسيس حيث كلمناه بلسان العبرانية ، ثم قصوا عليه القصة و (قالوا يا أبانا مننع منّا الكيلُ فأرسل معنا أخانا) يعني بنيامين (نكثل وإنّا له لحافظون) فقال لهم يعقوب (هل آمنكم عليه إلاّ كما أمّنتكم على أخيه من قبل) ... الآية .

قال كعب : لما قال يعقوب (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) قال الله : وعزتي وجلالي لأردن عليك كليهما بعد ما توكلت عليّ . قالوا : (ولما فتحو مشاعهم) الذي حملوه من مصر (وجدوا بضاعتهم) : أي ثمن طعامهم (ردت إليهم) قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا وتمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزدداد كيل بعير ذلك كيل يسير) (فقال) لهم يعقوب (لن أرسله معكم حتى تؤثون موثقا من الله لناثني به إلاّ أن يحاط بكم) أي تهلكوا جميعا .

وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (لناثني به إلاّ أن يحاط بكم) إلى قوله (قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل) يعني حتى تحلفوا لي بحق محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين أن لا تغدروا بأخيكم ، ففعلوا ذلك ، فلما آتوه موثقهم قال يعقوب : الله على ما نقول وكيل : أي شاهد بالوفاء فلما أرادوا الخروج من عنده قال لهم : لا تدخلوا

مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وذلك أنه خاف عليهم العین ، لأنهم كانوا ذوی جمال وهیبة وصور حسان وقامات ممتدة وكانوا أولاد رجل واحد ، فأمرهم أن يتفرقوا فی دخرهم البلد لئلا یصابوا بالعین ، ثم قال لهم (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) وكان لمصر أربعة أبواب ، فدخلوا من أبوابها كلها (ما كان يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) صدق الله یعقوب علیه السلام فیما قال إلى قوله تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) ولما دخلوا على یوسف فی الكرة الثانية قالوا : یا أيها العزیز هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتیک به قد جئناک به ، قال لهم : أحسنتم وأصبتم وستحمدون على ذلك عندي ، ثم إنه أنزلهم وأكرمهم وأضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقی بنیامین على مائدة وحده وحيدا فبکی وقال : لو كان أخی یوسف حیا لأجلسنی معه ، فقال لهم یوسف : لقد بقی أخوكم هذا وحيدا فريدا ، ثم أجلسه یوسف معه على مائدته ، فجعل یؤاکله ، فلما كان اللیل أمر لهم یوسف بمثل ذلك وقال لهم : لیت كل اثنين منكم على فراش واحد ، فلما بقی بنیامین وحده قال یوسف : هذا ینام معی على فراشی ، فبات معه ، فجعل یوسف یضمه إليه ویشم ریحہ حتى أصبح ، فجعل روبیل یقول : ما رأینا مثل هذا . فلما أصبح قال لهم : إنی لأرى هذا الرجل الذي جئتم به لیس له أخ یؤنسه ، فان تشاءوا أضمه إلى لیكون منزله معی ، ثم إن یوسف أنزلهم منزلا وأجرى علیهم الطعام والشراب ، وأنزل أخاه لأمه معه ، فذلك قوله تعالى (آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) فلما خلا به قال له : ما اسمک ؟ قال : بنیامین ، قال له : وما بنیامین ؟ قال : المثلک ، وذلك أنه لما ولد فقد أمه ، قال : وما اسم أمک ؟ قال : راحیل بنت لیان بن ناحور ، قال : فهل لك من ولد ؟ قال : نعم ، قال : کم ؟ قال عشرة بنین ، قال : فما أسماؤهم ؟ قال : لقد اشتقت أسماءهم من اسم أخ لی من أمی هلك اسمه یوسف ، فقال یوسف : لقد اضطرك ذلك إلى حزن شدید ، فما أسماؤهم ؟ قال : بالعا وأخیر وأشکل وأحیا وخیر ونعمان وورد ورأس وحیثم وعیثم ، قال : فما هذه الأسماء ؟ قال : أما بالعا فإن أخی ابتلعتة الأرض ، وأما أخیر فإنه کان بکر أمی ، وأما أشکل فإنه کان أخی لأنی وأمی ومنی ، وأما أحیا فإلکونه کان حییا ، وأما خیر فإنه کان خیرا حیث کان ، وأما نعمان فإنه کان ناعما بین أبویه ، وأما ورد فإنه کان بمنزلة الورد فی الحسن ، وأما رأس فإنه کان منی بمنزلة الرأس من الجسد ، وأما حیثم فأعلمنی أبی أنه حی ، وأما عیثم فلو رأیت غرته لقرت عینی وتم سروری ، فقال له یوسف : أتحب أن أكون أخاک بدل أخیک ذلك الهالك ؟ فقال بنیامین : أيها الملك ومن یجد أخا مثلك ، ولكن لم یلدک یعقوب ولا راحیل . قال : فبکی یوسف علیه السلام ، وقام إليه وعانقه وقال (إنی أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ)

بمّا كانوا يعمَلون) ولا تعلمهم بشيء من هذا . ثم إن يوسف أوفى لآخوته الكليل وحمل لبنيامين بعيرا باسمه .

قال كعب : لما قال له إني أنا أخوك ، قال بنيامين : فاني إذن لا أفارقك ، قال يوسف : إني قد علمت باغتمام الوالد ، فإن حبستك زاد نعمة ولا يمكنني حبسك إلا بعد اشتهاك بأمر فظيع ، فقال : لأبالي افعَل ما تريد ، فقال يوسف : إني أدس صاعى هذا في رحلك ثم أنادى عليكم بالسرقة ليتبها لى ردك بعد تسريحك ، قال : افعَل ، فذلك قوله تعالى (فلَمَّا جَهَّزَهُم بِجِيزِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ) وكانت مشربة يشرب بها الملك ، وكانت كأسا من الذهب مكللا مرصعا بالجواهر جعلها يوسف مكبلا لا يكتال بها ، ثم إنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى ظعنوا ، ثم إن يوسف أمر بهم فأدرکوا وحسروا عن المسير (ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) فوقفوا ، فلما قرب منهم الرسول قال لهم : ألم نحسن منزلتكم ونكرم ضيافتكم ونوف كليلكم وفعلنا لكم ما لم نفعَل لغيركم ؟ قالوا : بلى وما ذاك ؟ قال : سقاية الملك فقدناها ولم نهم عليها غيركم (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) وإنا منذ قطعنا هذه الطريق لم نرد أحدا بسوء ، واسألوا عنا من مررنا به هل أضربنا أحدا أو أفسدنا شيئا ، وإنا قد رددنا الدراهم لما وجدناها في رحالنا ، فلو كنا سارقين ما رددناها . وفي الحديث أنهم لما دخلوا مصر كموا أفواه دوابهم لئلا تتناول من حروث الناس شيئا . فقال الرسول : إنه صاع الملك الأكبر الذى يتكهن فيه وإنه ائتمنى عليه ، فان لم أجده تخوفت أن تسقط منزلتى عنده وأفتضح فى مصر ، فمن رده علىّ فله حمل بعير من طعام وأنا به زعيم : أى كفيل ؛ قالوا : معاذ الله أن نسرق ، فقال المؤذن وأصحابه : فما جزاؤه : أى جزاء من وجد فى رحله إن كنتم كاذبين ، قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين ، فقال الرسول عند ذلك لا بد من تفتيش أمتعتكم ولستم بيارحين حتى أفتشها . ثم إنه انصرف بهم إلى يوسف فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه لإزالة التهمة ، وكان يفتش أمتعتهم واحدا واحدا .

قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعا ولا ينظر فى وعاء أحد إلا استغفر الله تعالى مما قذفهم به حتى لم يبق إلا الغلام فقال : ما أظن أن هذا الغلام أخذ شيئا ، فقالت إخوته : والله ما نتركك حتى تنظر فى رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا ، فلما فتحوا متاعه استخرجوا الصاع منه ، فلما أخرج الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء ثم أقبلوا على بنيامين فقالوا : أيش الذى صنعت بنا وفضحتنا وسودت وجوهنا يا بن راحيل لا يزال لنا منكم بلاء ، أخذت هذا الصاع ؟ فقال لهم بنيامين : بل بنو راحيل

الذين لا يزال لهم منكم بلاء ، ذهبتم بأخى إلى البرية فأهلكتموه ، إن الذى وضع الصاع فى رحلى هو الذى وضع الدراهم فى رحالكم ، ثم إنهم (قَالُوا) ليوسف : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ، وهذا من المثل السائر : عذره شر من جرمه .

واختلف العلماء فى السرقة التى وصفوا بها يوسف ، قال سعيد بن جبير وقتادة : السرقة التى وصفوا بها يوسف ، أنه سرق صنماً ، بلده أبى أمه من ذهب فكسره وألقاه فى الطريق . وقال ابن جريج : أمرته أمه وكانت مسلمة أن يسرق صنماً لحاله من ذهب فأخذه وكسره . وقال مجاهد : جاء سائل يوماً فسرق يوسف بيضة من البيت وأعطاهما السائل . وقال ابن عيينة : دجاجة فناولها السائل فعيروه بها . وقال وهب : كان ينجباً الطعام من المائدة للفقراء . وقال الضحاك وغيره : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ، أن عمته بنت إسحاق كانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت منطقة إسحاق عندها ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكانت راحيل أم يوسف ماتت فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً وكانت لاتصبر عنه ، فلما ترعرع وبلغ سنوات وقع حبه فى قلب يعقوب ، فأتاها وقال لها : يا أختها سلمى إلى يوسف فوالله ما أصبر عنه ساعة واحدة ، فقالت له : ما أنا بتاركته ، فلما ألح عليها يعقوب قالت : دعه عندي أياماً أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ، ففعل ذلك . فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمت يوسف بها تحت ثيابه ، ثم إنها قالت فقدت : منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ، فالتمست فلم توجد ، فلما فتشوا أهل البيت وجدوها مع يوسف ، فقالت : والله إنه ليسلم لى أصنع فيه ما شئت ، وكان ذلك حكم آل إبراهيم فى السارق ، فأتاها يعقوب فأخبرته بذلك ، فقال : إن كان هذا فهو مسلم لك لأستطيع غير ذلك ، فأمسكته بعله المنطقة ، فما قدر عليها يعقوب يأخذه منها حتى ماتت ، فهو الذى قال إخوته (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبديها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون .

قال الرواة : لما دخلوا على يوسف واستخرج الصواع من رحل بنيامين دعا يوسف بالصاع فنقره ، ثم أدناه من أذنه ، ثم قال : إن صاعى هذا ليخبرنى أنكم كنتم اثنى عشر رجلاً ، وإنكم انطلقتم بأخ فبعتموه ، فلما سمع بنيامين ذلك قام فسجد ليوسف ، وقال : أيها الملك : سل صواعك هذا عن أخى أحمى هو ؟ فنقره ثم قال له حى وسوف تراه ، فقال بنيامين : اصنع بى ما شئت فإنه إن علم بى سوف يستنقذنى . قال : فدخل يوسف إلى منزله ثم إنه بكى وتوضأ ، فقال بنيامين : أيها الملك إني أريد أن تضرب صواعك هذا فيخبرك بالحق من الذى سرقه فجمله فى رحله ، فنقره ثم إنه قال : إن صواعى غضبان وهو يقول : كيف تسألنى عن صاحبى الذى سرقنى وقد رأيت مع من كنت ؟ قال : وكان بنو يعقوب

إذا غضبوا لم يطاقوا . فغضب روبييل وقال : أيها الملك والله لئن لم تتركنا وأخانا لأصبحن صبيحة لا يبقى في مصر امرأة حامل إلا ألفت ما في بطنها ، وقامت كل شعرة في جسده فخرجت من ثيابه ، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا ومس أحدهم الآخر ذهب غضبه ، فقال يوسف لابنه : قم إلى جنب روبييل ومسه ، فقام الغلام إلى جنبه فمسه فسكن غضبه ، فقال روبييل : إن في هذا البيت لشيئا من ولد يعقوب ، فقال يوسف : من يعقوب ، فغضب روبييل وقال : أيها الملك : لا تذكر يعقوب فإنه إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، قال يوسف : أنت إذا كنت صادقا صادق .

فلما أراد يوسف أن يحتبس أخاه عنده وبصير بحكمه وأنه أولى به منهم واحتبسه ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه منه ، سألوه أن يخليه لهم ويعطوه واحدا منهم بدله ، (فقالوا يا أيها العزيز إن له أباشيخا كبيرا) كلفا بحبه (فخذنا مكانه) إننا نراك من المحسنين قال يوسف (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) ولم يقل من سرق تمرزا عن الكذب (إننا إذا لظالمون) إن أخذنا بريئا بمتهم (فلما استياسوا منه خلصوا نجيا) أي خلا بعضهم ببعض متناجين متشاورين (فقال كبيرهم) يعني في العقل وهو شمعون عن مجاهد . وقال قتادة والسدي : كبيرهم في السن وهو روبييل (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) في هذا الغلام لتردته (ومن قبل ما فرطتم في يوسف) أي من قبل هذا قصرتم في شأن يوسف (فكن أبرح الأرض) يعني أرض مصر (حتى يأذن لي أبي) فأرجع إلى الملك فأنجزه القتال (أو يحكمكم الله لي وهو خير الحاكمين ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا) أي نحن رأينا سرقة معه (وما كنا للغيب حافظين) حين سألتك أن ترسله معنا ، ولو علمنا الغيب أنه يسرق ما ذهبنا به معنا (وأسأل القرية) يعني وأسأل أهل القرية (التي كنا فيها والعير التي أقبلتنا فيها) يعني قوما محبوبهم من أهل كنعان (وإننا لصادقون) لك في قولنا ، فرجعوا إلى يعقوب بذلك القول ، فقال يعقوب (بل سألتم لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) وهو الذي لا جزع فيه (عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) يعني يوسف وبنيامين (إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم) يعقوب (وقال يا أسفا على يوسف) وذلك أنه لما بلغه خبر بنيامين تكامل حزنه وبلغ جهده وهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم (وقال يا أسفا على يوسف) والأسف أشد الحزن .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم تعط أمة من الأمم عند المصيبة إننا لله وإننا إليه راجعون إلا

أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَلَا تَرَى إِلَى يَعْقُوبَ حِينَ أَصَابَهُ عَلَى ابْنِهِ مَا أَصَابَهُ مِنْ الْحُزْنِ لَمْ يَسْتَرْجِعْ إِنَّمَا قَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يَوْسُفَ ؟

وقال الحسن : كان بين خروج يوسف من عند أبيه إلى يوم الالتقاء معه ثمانون سنة لم تجف عيناه من الدموع وما كان على وجه الأرض أكرم على الله تعالى من يعقوب ؛ فلما شكوا وبكى قال له ولده (تالله تفتنوا تذكروا يوسف حتى تكون حرضا) أى ريبا ذاهب العقل من الهم (أو تكون من الهالكين) فقال يعقوب لما رأى غلظتهم وجنوتهم (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) لا إليكم . وفى الحديث « أن يعقوب كبير وضعف حتى سقط حاجباه على عينيه وكان يرفعهما بخيرقة ، فقال له بعض جيرانه قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أخوك ، فما بلغ بك ما أرى ؟ فقال : طول الزمان وكثرة الأحران ، فأوحى الله تعالى إلى يعقوب أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال : يا رب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى ، قال : قد غفرت لك ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) .

أخبرنى الحسين بن فتحويه ، أخبرنا أحمد بن الحسن بن حامد ، أخبرنا الحسين بن أيوب ، أخبرنا عبد الله بن أبى زياد ، أخبرنا سيار بن حاتم عن عبد الله بن السمط قال : سمعت أبى يقول : بلغنا أن رجلا قال ليعقوب : ما الذى أذهب بصرى ؟ قال : حزنى على يوسف ، قال : فما الذى قوس ظهرى ؟ قال : حزنى على أخيه ، فأوحى الله تعالى إليه : يا يعقوب أتشكونى ؟ وعزنى وجلالى لا أكشف ما بك حتى تدعونى ، فقال عند ذلك (إنما أشكو بثي وحزنى إلى الله) فأوحى الله تعالى إليه وعزنى وجلالى لو كانا ميتين لأخرجتهما لك حتى تنظر إليهما ، وإنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين يستطعم فلم تطعموه منها شيئا ، وإن أحب الناس إلى من خلقى الأسياء ثم المساكين ، فاصنع طعاما وادع إليه المساكين ، فصنع طعاما ثم قال : من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله تعالى إلى يعقوب أتدرى لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة ؟ قال : لا يا إلهى ، قال : لأنك شويت عناقا وقترت على جارك وأكلت ولم تطعمه . ويقال إن سبب ابتلاء يعقوب بفقد يوسف أنه كان له بقرة ولد لها عجل فذبح عجلها بين يديها وكانت تخور فلم يرحمها يعقوب ، فأخذه الله بذلك فابتلاه بفقد أعز ولده إليه ، ثم إن يعقوب قال لبنيه (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله) الآية . قال السدى : لما أخبره ولده بنجر العزيز وقوله وفعله أحست نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف .

وروى أنه رأى ملك الموت فى المنام فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال لا ، وإنه :

والله حتى يرزق : وروى أنه رأى ملك الموت وقد زاره فقال له : السلام عليك أيها الكظيم ، فاقشعر جلدته وارتعدت فرائصه ورد عليه السلام ، ثم قال له : من أنت ومن أدخلك هذا البيت وقد أغلقت على نفسي بابي كيلا يدخل علي أحد وأشكو بني وحزني إلى الله ، فقال له : يا نبي الله أنا الذي أيتم الأولاد وأرمل الأزواج وأفرق بين الجماعات ، قال : فأنت إذن ملك الموت ، قال نعم ، فقال له : يا ملك الموت أنشدك الله إلا أخبرني هل تقبض روح من تأكله السباع ؟ قال نعم ، قال : فأخبرني عن الأرواح أتقبضها مجموعة أو متفرقة روحا روحا ؟ قال : أتقبضها روحا روحا ، قال : فهل مرت بك روح يوسف في الأرواح ؟ قال لا ، قال : فجئتني زائرا أم داعيا ؟ فقال : يا نبي الله ما جئتك إلا مسلما فإن الله تعالى لا يمتك حتى يجمع بينك وبين يوسف ، ولو كان في الصخرة التي عليها قرار الأرضين ، وما أذن الله لي في زيارتك إلا لأبشرك وأجيبك عما تسألني عنه ، وإن شئت أعلمتك لماذا ابتليت بفقد ولدك ، قال له : فأعلمني يا عزرائيل ، فقال : يا إسرائيل الله هل تذكر الحارية التي اشتريتها عام كذا في شهر كذا ثم فرقت بينها وبين أبويها ؟ قال : نعم يا ملك الموت كأنه كان بالأمس ، فقال له ملك الموت : فلأجل ذلك ابتليت بفقد الولد ؟ وهل تعلم لماذا ابتليت بفقد البصر ؟ قال لا ، قال : أمرت يوما بذبح جذعة فذبحتها وشويتها في يوم كذا في شهر كذا ، فرتميم العابد الصالح بك وهو صائم ما أنظر منذ أسبوع فاشتت قنطار الشوى فلم تطعمه شيئا ، فعند ذلك أعتق يعقوب من كان بحضرته من العبيد والإماء ، وأمر أن يذبح كل يوم من أغنامه كبشان ويفرق لحمهما على الفقراء والمساكين ، فقبل الله ذلك منه وشكره عليه وأتاه بالفرج ، فعند ذلك قال يعقوب (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) إلى قوله تعالى (إلا القوم الكافرون) .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله يعقوب عليه السلام ما ساء ظنه بالله تعالى في طول بلائه ساعة قط من ليل أو نهار :

فعند ذلك خرج إخوة يوسف راجعين إلى مصر وهذه كرة ثالثة ، فدخلوا على يوسف (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز) أي الملك بلغة مصر (متسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة) أي قليلة رديئة لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجاوز من البائع فيها . واختلف المفسرون في هذه البضاعة ما هي ؟ فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا لا تنفق إلا بوضيعة . وقال ابن أبي مليكة رضى الله عنه كانت خلقة الغرائر والحبال رثة المتاع . وقال عبد الله بن الحارث والحسن : كانت أمتعة الأعراب الصوف والسمن والأقط . وقال الضحاك : كانت النعال والأدم والسريق المقلبي (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين) قال الضحاك : لم يقولوا : إن الله يجزيك إن تصدقت علينا لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن . وقال عبد الجبار بن العلاء : سئل صفيان بن عيينة : هل

حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال سفيان :
 ألم تسمع قول الله تعالى (وتصدق علينا) أراهم سفيان أن الصدقة كانت لهم حلالا وإنما
 حرمت على نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم يوسف مجيبا لهم عند ذلك (هل
 علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) واختلف العلماء في السبب
 الذي حمل يوسف على هذا القول الذي كان بدء فرج يعقوب وراحته وآخر بلائه ومحنته .
 فقال محمد بن إسحاق : ذكر لنا أنهم لما كلموه بهذا الكلام غلبته نفسه وأدركته الرقة فرفض
 دمه باكيا ثم باح لهم بالذي كان يكتهم فقال (هل علمتم ما فعلتم) الآية . وقال الكاظمي :
 إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن دعر قال : إني وجدت غلاما في بئر من حاله
 كيت وكيت ، فابتعته من قوم بكذا وكذا درهما ، فقالوا له : أيها الملك نحن بعنا هذا
 الغلام ، فاغتاظ يوسف من ذلك وأمر بقتلهم ، فذهبوا بهم ليقتلوهم ، فولى يهوذا وهو
 يقول : كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا حتى كف بصره ، فكيف إذا أتاه خبر
 قتل بنيه كلهم ؟ ثم إنهم قالوا له : إن فعلت بنا ذلك فابعث بأمعتنا إلى أبينا فإنه بإمكان كذا
 وكذا فذلك الوقت رحمهم وبكى ، وقال لهم ذلك القول .

وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين قرأ كتاب أبيه إليه ، وذلك أن يعقوب لما قيل له
 إن ابنك سرق كتب إلى يوسف كتابا : من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن
 إبراهيم خايل الله إلى عزيز مصر المظهر العدل والموفى الكيل . أما بعد : فانا أهل بيت
 موكل بنا البلاء ، فأما جدى فابتلى بالتمرد فشدت يده ورجلاه وألقى في النار ،
 فجعلها الله عليه بردا وسلاما ؛ وأما أبى فشدت يده ورجلاه ووضع السكين على قفاه ليذبح
 ففداه الله بذبح عظيم ؛ وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادى إلى ، فذهب به إخوته
 إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم ، وقالوا قد أكله الذئب ، فذهبت عيناى من بكائى
 عليه ، ثم كان لي ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به ، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا
 إنه سرق وإنك حبسته لذلك ، وإنا أهل بيت لانسرق ولانلد سارقا ، فإن رددته على
 وإلادعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك . فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك نفسه
 من البكاء وعيل صبره فأظهر لهم أمره .

وقال بعضهم : إنما قال ذلك حين سأل أخاه بنيامين هل لك ولد ؟ قال نعم : ثلاثة بنين ،
 قال : فما سميتهم ؟ قال : سميت الأكبر منهم يوسف ، قال : ولم ؟ قال : محبة لك ولذكرك .
 قال : فما سميت الثانى ؟ قال ذئبا . قال : ولم والذئب سبع عاقر ؟ قال : لأذكرك به .
 قال : فما سميت الثالث ؟ قال دما ، قال ولم ؟ قال : لأذكرك به ؛ فلما سمع يوسف
 هذه المقالة خنقته العبرة ولم يتمالك أن قال لإخوته : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه
 إذ أنتم جاهلون ، قالوا له أثبتك لأنت يوسف . قال ابن إسحاق : لما قال يوسف

لإخوته : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ؟ كشف عنه الغطاء ورفع عنه الحجاب فعرفوه فقالوا (أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى) .

وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال لهم يوسف (هل علمتم ما فعلتم) الآية ، ثم تبسم ، وكان إذا تبسم كأن ثناباه اللؤلؤ المنظوم ، فلما أبصروا ثناباه شبهوه بيوسف ، فقالوا له مستفهمين : أئنك لانت يوسف .

وروى عطاء عن ابن عباس أنه قال : إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه ، وكان له في فرقه علامة ، وكان ليعقوب مثلها وكان لإسحق مثلها وكان لسارة مثلها شبه الشامة ، فلما رفع التاج عن رأسه ورأوا الشامة عرفوه ، وقالوا له (أئنك لانت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا) بأن جمعنا بعد ما فرقم بيننا (إنه من يتقى ويتصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ثم إنهم أقرؤا بفضل يوسف عليهم وجربتهم إليه ، فقالوا (تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لحاطئين) فقال يوسف وكان حلما كريما موقفا (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) قال السدى وغيره : فلما عرفهم يوسف بنفسه سأهم عن أبيه فقال : ما فعل أبي من بعدى ؟ قالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه .

قال الضحاك : كان ذلك القميص من نسج الجنة ، وكان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى ولا على سقيم إلا صح وعوفي ، فأعطاهم يوسف ذلك القميص ، وهو الذى كان لإبراهيم وقد مضت قصته ، فقال لهم (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين فلما فصلت العير) من مصر متوجهين إلى كنعان قال أبوهم يعقوب (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى تسفهون .

ويروى أن ريح الصبا استأذنت ربها أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير بالقميص فأذن لها فأتته بها . قال ابن عباس : وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثمان ليال . وقال مجاهد : وذلك أنه هبت ريح فصفت القميص ، فاحتمت الصبا ريح القميص إلى يعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس فى الأرض من رياح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فن ثم قال (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) فقال له بنو بنيه (تالله إنك لنى ضلالك القديم ، فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا بن يعقوب ، قال ابن مسعود : جاءه البشير من بين يدي العير ، وقال السدى : قال يهوذا ليوسف : أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب ، فأعطنى اليوم قميصك لأخبره أنك حى . فأفرحه كما أحرزته .

قال ابن عباس : حمله يهوذا وخرج ماشيا حاسرا حافيا ، وجعل يعدو حتى أتى أباه ، وكان معه سبعة أرغفة فلم يستوف أكلها حتى بلغ كنعان ، وكانت المسافة ثمانين فرسخا . فلما أتاه

بالقميص ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال الضحاک : رجع إليه بصره بعد العمى وقوته بعد الضعف وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان يعقوب عليه السلام أكرم أهل الأرض على ملك الموت ، وإن ملك الموت استأذن ربه في أن يأتي يعقوب ، فأذن له فجاءه ، فقال له يعقوب : يا ملك الموت أسألك بالذى خلقتك هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت من النفوس ؟ فقال لا ، ثم قال له ملك الموت : يا يعقوب ألا أعلمك كلمات ؟ قال بلى ، قال قل : يا ذا المعروف الذى لا ينقطع أبدا ولا يحصىه أحد غيرك . قال : فدعا بها يعقوب في تلك الليلة فلم يطلع الفجر حتى طرح القميص على وجهه فارتد بصيرا ، فقال لهم عند ذلك (ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون) ، قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إننا كنا خاطئين . قال سوف استغفر لكم ربى) . . . الآية .

قال أكثر المفسرين : أخر ذلك إلى السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء ، وذلك أن الدعاء فى الأسحار لا يجب عن الله تعالى . فلما انتهى يعقوب إلى الوعد قام إلى الصلاة بالسحر ، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عز وجل وقال : اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عنه ، واغفر لولدى ما جنوا على أخيهم يوسف ، فأوحى الله إليه إني قد غفرت لك ولهم أجمعين . وقال وهب : كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة .

أخبرنا الحسين بن محمد بن فتحويه ، أخبرنا عبد الله بن محمد بن شيبه ، أخبرنا أحمد ابن أبى السفر بن ثوبان البصرى ، أخبرنا إسحاق بن زياد الأرملى ، أخبرنا الفضل بن حميد البغدادى ، أخبرنا إسحاق بن زياد وابن ضمرة عن رجاء بن أبى سلمة عن عطاء الخراسانى قال : طلب الحوائج إلى الشباب أيسر منها إلى الشيوخ ، ألا ترى قول يوسف لإخوته : لا تريب عليكم اليوم ، وقول يعقوب : سوف استغفر لكم ربى .

وروى أن يعقوب قال للبشير : لما أخبره بحياة يوسف كيف يوسف ؟ قال له : إنه ملك مصر ، فقال يعقوب : ما أصنع بالملك على أى دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، فقال يعقوب : الآن تمت النعمة .

وقال الثورى : لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا ، فقال يوسف : يا أبت بكيت على حتى ذهب بصرى ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ قال : بلى يا بنى ولكن خشيت أن تسلب دينك ، فيحال بينى وبينك يوم القيامة .

قالوا : وكان يوسف قد بعث مع البشير جهازا ومائتى راحلة ، وسأله أن يأتيه بأهله ووالده أجمعين ، فتهيا يعقوب للخروج إلى مصر ، فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر الذى فوقه ، فخرج مع يوسف فى أربعة آلاف من الجند ، وركب أهل

مصر معهما يتلقون يعقوب ، وكان يعقوب يمشى متركنا على يهوذا ، فنظر يعقوب إلى الجند والناس ، فقال : يا يهوذا هذا فرعون مصر الأكبر؟ فقال : لا ، هذا ابنك ، فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدؤه بالسلام فنعه الله من ذلك ، وكان يعقوب أفضل وأحق بذلك منه ، فابتدأه يعقوب بالسلام ، فقال : السلام عليك يا مذهب الأحزان (فلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يَوْسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) ورفعهما على العرش وأبواه يعقوب ونخالته ليا ، فسمى الخالة أما كما سمي العم أبا في قوله تعالى (قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) وقال الحسن : نشر الله راحيل أم يوسف من قبرها حتى سجدت له تحقيقا للرؤيا ، فذلك قوله تعالى (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) وكانت تحية الناس يومئذ السجود ، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض ، فلما رأى يوسف أبويه وإخوته قد خروا له سجدا اقشعر عند ذلك جلده (وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) ... الآية .

قال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم اثنان وسبعون إنسانا ، ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الذرية والهَرَمِيّ والزَمْنِيّ ، وكانت الذرية ألف ألف سوى المقاتلة .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنا أن يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ورأى يوسف ومملكته فكان يطوف يوما من الأيام في خزائنه ، فرأى خزانة مملوءة قراطيس بيضاء ، فقال له : يا بني لقد تغيرت بعدى ، لك كل هذه القراطيس وما حملت بطاقة منها تكتب إلى كتابا ؟ فقال يوسف : هذه القراطيس كلها لك هكنت كلما زاد شوقى وكثر حنينى آخذ ورقة حتى أكتب إليك يا أبت ، فيمنعنى جبريل أن أكتب إليك ، فأتركها في هذه الخزانة حتى بلغت هذا المبلغ ، فسأل يعقوب جبريل عن ذلك فقال : منعنى ربى ، فسأل الله عن ذلك ، فأوحى الله إليه : لأنك قلت : أخاف أن يأكله الذئب ، فهلا خفتنى ، هذه العقوبة لأجل تخوفك من غيرى ؟

وروى صالح المرئى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال : إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله خلا ولده نجيا ، فقال بعضهم لبعض : أليس قد علمتم ما فعلتم بالشيخ يعقوب ويوسف ، قالوا بلى ، قالوا : فإن عفوا عنكم فكيف لكم بربكم ، فاستقام أمرهم على أن يأتوا الشيخ ، فأتوه وجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد ، فقالوا : يا أبانا أتيناك على أمر لم نأتك بمثله قط ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط ، والأنبياء أرحم البرية ، فقال : ما بكم يا بني ؟ فقالوا : ألسنت تعلم ما كان منا إليك وإلى أخينا يوسف ؟ قال بلى قد علمت قالوا : أفلسنا قد عفوتما عنا ؟ قالوا بلى ، قالوا : فان عفوكما لا يغنى عنا شيئا إذا كان الله تعالى لم يعف عنا ، قال : فما تريدون يا بني ؟ قالوا : نريد أن تدعو الله لنا ، فإذا جاءك

الوحي من عند الله سله هل عفا الله عنا ، فإن أجابك بأنه قد عفا عنا جميعا قرت أحننا واطمأنت قلوبنا ، وإلا فلا قرت لنا عين في الدنيا أبدا ، فقام الشيخ واستقبل القبلة وقام يوسف خلفه ، وقاموا كلهم خلفهما أذلة خاشعين ، فدعا يعقوب وأمن يوسف عليهما السلام ، فلم يُجَب فيهم قريبا من عشرين سنة . قال صالح المري : ثم نزل جبريل عليه السلام على يعقوب ، فقال : إن الله تعالى بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك ، وأنه قد عفا عما صنعوا ، وأنهم قد انعقدت موثيقهم بعدك على النبوة ، قالوا : فأقام يعقوب بمصر بعد موافاته بأهله وولده أربعة وعشرين سنة بأغبط حال وأهنا عيش وأتم راحة وأدوم سلام ، ثم حضرته الوفاة ، فلما احتضر جمع بين بنيه ، وقال : ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ثم قال : (يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمين) ثم إنه أوصى إلى يوسف أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة حتى يدفنه عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم ، ففعل ذلك ونقله إلى بيت المقدس في تابوت من ساج ، وخرج معه يوسف في عسكره وإخوته وعظماء أهل مصر ، ووافق ذلك يوم وفاة عيص ، فدفننا في يوم واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة ، لأنهما ولدا في بطن واحد وقبرا في قبر واحد .

فلما جمع الله ليوسف شمله وأقر له عينه وأتم له تفسير رؤياه ، وكان موسعا عليه في ملك الدنيا ونعيمها ، وعلم أن ذلك لا يدوم له وأنه لا بد من فراقه ، فأراد نعيم الجنة إذ هو أفضل منه ، فتاقت نفسه إلى الجنة فتمنى الموت ودعا به ، ولم يتمن نبي قبله ولا بعده الموت فقال (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) . . . الآية .

وروي أن يوسف لما حضرته الوفاة جمع إليه قومه من بني إسرائيل وهم ثمانون رجلا وأعلمهم بحضور أجله ونزول أمر الله تعالى به ، فقالوا : يا نبي الله نحب أن نعرفنا كيف تتصرف بنا الأحوال بعد خروجك من بين أظهرنا وإلى ما يؤول إليه أمرنا وديننا وملتنا ؟ فقال لهم : إن أمركم يستقيم على ما أنتم عليه ، وتستقيمون على دينكم إلى أن يبعث رجل جبار عات من القبط يدعى الربوبية فيقهركم ويذبح أبناءكم ويستحي نساءكم ويسومكم سوء العذاب ، فتمد أيامه مدة مديدة ، ثم يخرج من بني إسرائيل من ولد لاوي بن يعقوب رجل اسمه موسى بن عمران ، رجل طوال جعد الشعر ، آدم اللون ، فينجيكم الله من أيدي القبط على يده . قال : فجعل كل من بني إسرائيل يسمى ابنه عمران ويسمى عمران ابنه موسى . قال : وكان ليوسف ديك ، وكان عمره خمسمائة سنة ، فقال لهم يوسف : إنه يستقيم أمركم ما دام يصرخ فيكم هذا الديك ، فإذا ولد هذا الجبار يسكن فلا يصرخ مدة ولايته ، حتى إذا انقضت مدة ولايته وأذن الله تعالى بمولد هذا النبي فيصرخ هذا الديك ويعود إلى صراخه ، ويكون ذلك علامة انقضاء ملك الجبار وظهور نبي الله في الأرض

فما زالوا يراعون الحال إلى أن سكن صراخ الديك فوجأوا له واكتأبوا ، وأيقنوا بوهي أركان دينهم وإظلال ما آذنتهم به يوسف من مولد الجبار ، واعتزلوا لذلك واجمين إلى أن صرخ ذلك الديك فاستبشروا وتصدقوا وفرحوا واستيقنوا بالفرج والراحة . ثم مات يوسف عليه السلام ، وكان قد أوصى إلى أخيه يهوذا واستخلفه على بني إسرائيل ، فتوفاه الله طيبا طاهرا ودفن في النيل في صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاح الناس عليه كل يجب أن يدفن في محلهم لما يرجون من بركته حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفن في النيل حيث تتفرق المياه بمصر ، فيمر الماء عليه ثم يصل إلى جميع مصر ، فيكونون كلهم فيه شرعا واحدا ، ففعلوا ذلك ، وكان قبره في النيل إلى أن حمله موسى عليه السلام معه حين خرج من مصر ببني إسرائيل فنقله إلى الشام ودفنه بأرض كنعان خارج الحصن حيث هو اليوم فلذلك تنقل اليهود موتاهم إلى الشام من فعل ذلك فيهم .

وروى يونس بن عمران عن أبي موسى قال « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكرمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكرمتمنا فأحسنت سئل حاجتك ، فقال : ناقة نرحلها وعنزة تحلبها أهلي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعجز هذا أن يكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟ فقالوا : يا رسول الله وما عجز بني إسرائيل ؟ فقال : إن بني إسرائيل لما خرجوا ضلوا الطريق وأظلم عليهم الليل ، فقالوا ما هذا ؟ فقال علماءهم : إن يوسف لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا ، قال موسى : فمن يعلم موضع قبره ، قالوا : عجوز لبني إسرائيل ، فبعث إليها موسى ، فأتته فقال دليني على قبر يوسف ، فقالت له : وتُعطيني حكما قال : وما حكمك ؟ قالت : أن أكون معك في الجنة ، فكره أن يُعطيها حكما ، فأوحى الله إليه أن أعطيها حكما ، ففعل . »

وبروى من طريق آخر « أن هذه العجوز كانت مقعدة عمياء ، فقالت لموسى : ألا أخبرك بموضع قبر يوسف ؟ قال نعم ، فقالت : له لا أخبرك حتى تعطيني أربع خصال : تطلق رجلي ، وتعيد إلى بصرى وشبابي ، وتجعلني معك في الجنة ، قال : فكبر ذلك على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه أن أعطيها ما سألت فإنك إنما تعطي على فعل ، فانطلقت بهم إلى موضع عين في مستنقع ماء فاستخرجوه من شاطئ النيل في صندوق من مرمر ، فلما حملوا تابوته طلع القمر وأضاء الطريق مثل النهار فاهتدوا به وحملوه . »

وقال أهل التاريخ : عاش يوسف بعد موت يعقوب عليه السلام ثلاثا وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة ، صلوات الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

مجلس في قصة موسى بن ميثا بن يوسف عليه السلام

وهو موسى الأول ، وقد ذكرنا فيما مضى أن يوسف عليه السلام ولد له ابنان : أحدهما يقال له إفرايم ، والآخر ميثا ، وابنة يقال لها رحمة ، وهي امرأة النبي أيوب عليه السلام ، فولد لإفرايم نون ، وولد لنون يوشع ، وهو فتى موسى بن عمران وخليفته على بني إسرائيل وأما ميثا فولد له موسى ، فنبأه الله تعالى ؛ فزعم أهل التوراة أنه صاحب الحضرة . والعامه من العلماء أن صاحب الحضرة موسى بن عمران ، وكذلك روى عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أهل العلم بالتاريخ : لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام ، وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا ، وظهر فيهم ملوك فغيروا سيرتهم وأفسدوا في الأرض وفشا فيهم السحر والكهانة ، فبعث الله تعالى إليهم موسى بن ميثا رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره وإقامة سننه ، وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتي سنة ، فأطاعه قوم منهم وعصاه آخرون .

وقال وهب بن منبه وغيره : كان مما أوحى الله إليه : أن قل لقومك إني بريء ممن سحر أو سحر له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو تطير أو تطير له ، من آمن بي صادقا وتوكل على إني كنت له كافيا ومثيبا وكفيته هم دينه وديناه وكننت له خير معين وهاد وكننت عند ظنه بي . ومن عدل عني ووثق بغيري فأنا أغني الشركاء عن الشرك ، أكله إلى من وثق به دوني ، ومن وكلته إلى غيري فليستعد للفتنة والعذاب ، ومن تباعد عني كنت عنه أشد تباعدا ، ومن تقرب إلي كنت إليه أشد تقربا منه إلى ، وقل لعبادي لا تغفلوا عن ذكرى وليكثروا ذكر الموت عند كل شهوة ، فإنه يميت الشهوات واللذات كلها . قالوا : فلبث فيهم ما شاء الله أن يلبث ، يقيم أمرهم ويصلح أحوالهم ، ثم مات صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والله تعالى أعلم .

مجلس في ذكر بقية عاد ، وحمصة شديد وشداد ، وصفة إرم ذات العمد

قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العمد) ... الآية .
روى سفيان عن منصور عن أبي وائل قال : إن رجلا يقال له عبد الله بن قلابة خرج في طلب إبل له قد ضلت : أي شردت ، فبينما هو في بعض صحارى عدن في تلك القلوات إذ وقع على مدينة عليها حصن حول ذلك الحصن قصور عظيمة وأعلام طوال ، فلما دنا منها ظن أن فيها من يسأله عن إبله ، فلم ير فيها أحدا لا داخلا ولا خارجا ، فنزل عن ناقته وعقلها ، وسل سيفه ودخل من باب الحصن ، فإذا هو ببايين عظيمين لم ير في الدنيا أعظم

منهما ولا أطول ، وإذا خشبهما من أطيب عود وعليهما نجوم من ياقوت أصفر وياقوت
أحمر ضوءها قد ملأ المكان . فلما رأى ذلك أعجبه ، ففتح أحد البابين فإذا هي بمدينة
لم ير الرءون مثلها قط ، وإذا هو بقصور معلقة ، تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت ، وفوق
كل قصر منها غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، على كل باب من
أبواب تلك القصور مصراع مثل مصراع باب تلك المدينة من عود رطب قد نضدت عليه
اليواقيت ، وقد فرشت تلك القصور باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران . فلما رأى ذلك ولم
ير هناك أحدا أخذته الفزع ، ثم إنه نظر إلى الأزقة ، فإذا في كل زقاق منها أشجار قد
أثمرت وتحته أنهار تجري في قنوات من فضة أشد بياضا من الثلج ، فقال : هذه الجنة التي وصفها
الله لعباده في الدنيا ، والحمد لله الذي أدخلني الجنة ، ثم إنه حمل من لؤلؤها وبنادق المسك
والزعفران ، ولم يستطع أن يقلع من زبرجدها شيئا ولا من يواقيتها لأنها كانت مثبتة في أبوابها
وجدرانها ، وكان اللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران منثورة بمنزلة الرمل في تلك القصور
والغرف ، فأخذ منها ما أراد ، وخرج حتى أتى ناقته فركبها ، ثم إنه سار يقفو أثر ناقته حتى
رجع إلى اليمن فأظهر ما كان معه وأعلم الناس بأمره وباع بعض ذلك اللؤلؤ ، وكان قد
اصفر وتغير لونه من طول الزمان الذي مر عليه ، ففشا خبره حتى بلغ معاوية بن أبي سفيان ،
فأرسل رسولا إلى صاحب صنعاء ، وكتب إليه بإشخاصه ، فأشخص حتى قدم على معاوية ،
فخلاه به ، ثم سأله عما عاين ، فقص عليه أمر المدينة وما رأى فيها ، فاستعظم ذلك معاوية ،
وأنكر ما حدثه به ، وقال له : ما أظن ما تقوله حقا ، فقال له : يا أمير المؤمنين : إن
معنى من متاعها الذي هو مفروش في قصورها وغرفها ، فقال له : وما هو ؟ قال : اللؤلؤ
وبنادق المسك والزعفران ، فقال له : أرني إياه ، فعرض عليه مما حمله من تلك المدينة من
اللؤلؤ وبنادق المسك ، فشم البنادق فلم يجد لها ريحا ، فأمر ببندقة منها فدقت ، فسطع ريحها
مسكا وزعفرانا ، فصدقه عند ذلك ، ثم قال معاوية : كيف أصنع حتى أعرف اسم هذه
المدينة ولمن هي ومن بناها ؟ والله ما أعطى أحد مثل ما أعطى سليمان بن داود عليه السلام ،
وما أظن أنه كان له مثل هذه المدينة ، فقال له بعض جلسائه : ما كان لسليمان مدينة مثل
هذه ، وما يوجد خبر هذه المدينة في زماننا هذا إلا عند كعب الأحبار ، فإن رأى أمير المؤمنين
أن يبعث إليه ويأمر بإشخاصه ويغيَّب عنه هذا الرجل في موضع هنا بحيث يسمع كلامه
وحديثه ووصفه للمدينة حتى يتبين أمر هذه المدينة على مثل هذه الصفة ، فإن كعبا سيخبر
أمير المؤمنين بخبرها وأمر هذا الرجل إن كان دخلها ، لأن مثل هذه المدينة على مثل هذه
الصفة لا يستطيع هذا الرجل دخولها إلا أن يكون قد سبق له في الكتاب دخولها فيعرف ذلك .
فأرسل معاوية إلى كعب الأحبار ، فلما حضر قال له : يا أبا إسحاق إني دعوتك لأمر رجوت
أن يكون علمه عندك ، فقال : يا أمير المؤمنين على الخبير سقطت ، سل عما بدا لك ،

فقال له : أخبرنا يا أبا إسحاق : هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنية بالذهب والفضة ؟ وعمدها من زبرجد وياقوت ، وحصى قصورها وغرفها اللؤلؤ ، وأنهارها في الأزقة تجري تحت الأشجار ؟ فقال كعب : والذي نفس كعب بيده : لقد ظننت أني سأسأل قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ، ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين ولئن هي ومن بناها ؟ أما تلك المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين وعلى ما وصفت له ، وأما الذي بناها فشداد بن عاد ، وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد : فقال له معاوية : يا أبا إسحاق حدثنا بحديثها يرحمك الله ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين إن عادا كان له ابنان : سمي أحدهما شديدا ، والآخر شدادا ، فهلك عاد وبقي ولداه بعده ، فلما تجبرا وقهرا كل البلاد وأخذها عنوة وقهرا حتى دان لهما جميع الناس ولم يبق أحد في زمانهما إلا دخل في طاعتها ، لاني شرق الأرض ولا في غربها ، ولأنهما لما صفا لهما ذلك وقرّ قرارهما مات شديد بن عاد وبني شداد ، فلك وحده ولم ينازعه أحد ، وكانت له الدنيا كلها ، وكان مولعا بقراءة الكتب القديمة ، وكان كلما مرفيها على ذكر الجنة دعتة نفسه أن يجعل تلك الصفة لنفسه في الدنيا عتوا على الله تعالى وكفرا ، فلما قر ذلك في نفسه أمر بصنعة تلك المدينة التي هي إرم ذات العماد ، وأمر على صنعها مائة قهرمان ، مع كل قهرمان ألف من الأعوان ، ثم قال لهم : انطلقوا إلى أطيب بقعة في الأرض وأوسعها ، واعملوا لي فيها مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، وتحت تلك المدينة أعمدة من زبرجد وياقوت ، وعلى المدينة قصور ، ومن فوق القصور غرف ، واغرسوا تحت القصور غرائس فيها أصناف الثمار كلها ، وأجروا فيها الأنهار تحت الأشجار ، فإني أرى في الكتب صفة الجنة ، وإني أحب أن أتخذ مثلها في الدنيا وأتعجل سكنها ، فقالت له قهارمته : كيف لنا بالتجارة على ما وصفت لنا من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة فنبنى منها مدينة كما وصفت لنا ؟ فقال لهم شداد : ألسم تعلمون أن ملك الدنيا كلها بيدي ؟ قالوا بلى ، قال فانطلقوا إلى كل موضع به معدن من معادن الزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، وأي بحر فيه لؤلؤ ، فوكلوا به من كل قوم رجلا تخرج لكم ما في كل معدن من تلك الأرض ، ثم انطلقوا إلى ما في أيدي الناس من ذلك فخذوه سوى ما يأتيكم به أصحاب المعادن ، فإن معادن الدنيا فيها كثير من ذلك ، وفيها مما لا تعلمون أكثر وأعظم مما كلفتم به من صنعة هذه المدينة .

قال : فخرجوا من عنده ، وكتب معهم إلى كل ملك في الدنيا كتابا يأمره أن يجمع لهم ما في بلاده من الجواهر وأن يحفر معادنها ، فانطلق هؤلاء القهارمة وأعطوا كل ملك من الملوك كتابا يأخذ ما يوجد في مملكته ، فبقوا على تلك الحالة عشر سنين حتى جمعوا ما يحتاجونه إلى إرم ذات العماد من الزبرجد والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة ، وأخذوا موضعا كما أراد ووصف لهم ، فقال معاوية : يا أبا إسحاق : كم عدد أولئك الملوك الذين كانوا

نحت يد شداد؟ قال: كانوا مائتين وستين ملكا. قال: فخرج عند ذلك الفعلة والقهارمة فتفرجوا في الصخاري ليتخذوا ما يوافق غرضه، فلم يجدوا ذلك إلا في أرض أبين من بلاد عدن، فوقعوا بها على صحراء عظيمة نقية من التلال والجبال، وإذا هم بعيون مطردة فقالوا: هذه ضفة الأرض التي أمرنا بها، فأخذوا بقدر ما أمرهم به من العرض والطول ثم جعلوا لها حدودا محدودة، ثم عمدوا إلى مواضع الأزقة التي فيها الماء فأجروا فيها القنوات لتلك الأنهار، ثم وضعوا الأساس من صنور الجزع البماني، وعجنوا طين ذلك الأساس من دهن البان والمخلب. فلما فرغوا من وضع الأساس وأجروا فيها القنوات، أرسل الملوك إليهم الجواهر والذهب والفضة، فمنهم من بعث بالعمد مضروبة، ومنهم من بعث بالذهب والفضة مصنوعة مفروغا منها، فدفعوا كل ذلك إلى أولئك القهارمة والوزراء، فأقاموا فيها حتى فرغوا من بنائها على ما أراد شداد، فقال له معاوية: يا أبا إسحاق إني لأحسبهم أقاموا في بنائها زمانا من الدهر؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إني لأجد في التوراة أنهم أقاموا في بنائها ثلثمائة سنة، فقال معاوية: كم كان عمر شداد صاحبها؟ قال: كان عمره سبعمائة سنة، فقال له معاوية: يا أبا إسحاق لقد أخبرتنا خيرا عجيبا فحدثنا، فقال: يا أمير المؤمنين إنما سماها الله تعالى إرم ذات العماد من أجل العماد التي تحتها من الزبرجد والياقوت، وليس في الدنيا مدينة من الزبرجد والياقوت غيرها، فلذلك قال (التي لم يُخلَقْ مثلها في البلاد).

قال كعب: إنهم لما أتوه وأخبروه بفراغهم منها، قال: انطلقوا فاجعلوا عليها حصنا، واجعلوا حول الحصن ألف قصر، عند كل قصر ألف عثم، ويكون في كل قصر من تلك القصور وزير من وزرائي، ويكون كل علم منها عليه ناطور، فرجعوا وعملوا تلك القصور والأعلام والحصن، ثم إنهم أتوه فأخبروه بالفراغ مما أمرهم به، قال: فأمر ألف وزير من خاصته أن يهثوا أسبابهم ويعملوا على النقلة إلى إرم ذات العماد، وأمر رجلا أن يسكنوا تلك الأعلام وأن يقيموا فيها ليلهم ونهارهم، وأمر لهم بالعطاء والأرزاق، وأمر الملك من أراد من نسائه وخدمته أن يتجهزوا إلى إرم ذات العماد، فأقاموا في جهازهم عشرين سنة، ثم سار الملك بمن أراد إلى أرض أبين، وخلف من قومه أكثر مما سار به. فلما استقل وسار إليها ليسكنها وبلغ منها موضعا وبقي بينه وبين دخولها مسيرة يوم وليلة، بعث الله تعالى عليه وعلى كل من كان معه صيحة من السماء فأهلكتهم جميعا، ولم يبق أحد منهم، ولم يدخل شداد ولا من كان معه إرم ذات العماد، ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة. فهذه صفة إرم ذات العماد، وإنه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك هذا ويرى ما فيها فيحدث بما عاين ولا يصدق، فقال له معاوية: يا أبا إسحاق هل تصفه لنا؟ قال: نعم هو رجل أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال،

يخرج في طلب إبل له في تلك الصحارى فيقع على إرم ذات العماد ، فيدخلها ويحمل مما فيها وكان الرجل جالسا عند معاوية ، فالتفت كعب فرأى الرجل فقال له : هو ذاك الرجل يا أمير المؤمنين قد دخلها فاسأله عما حدثت به ، فقال معاوية : يا أبا إسحاق إن هذا من خدمي ولم يفارقني ، قال : قد دخلها وإلا سوف يدخلها وسيدخلها أهل هذا الدين في آخر الزمان ، فقال معاوية : يا أبا إسحاق لقد فضلك الله على غيرك من العلماء ، ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين ما لم يعطه أحد ، فقال : يا أمير المؤمنين والذي نفس كعب بيده ما خلق الله في الأرض شيئا إلا وقد فسره في التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيرا ، وإن هذا القرآن أشد وعيدا ، وكفى بالله شهيدا ووكيلا .

قال الشعبي : أخبرنا دغفل الشيباني عن رجل من حضرموت يقال له بسطام ، أنه وقع على حفيرة شداد بن عاد في جبل من جبال حضرموت مطلقا على البحر ، قال : كنت أسمع في صباى إلى أن اكتهلت بمغارة في جبل من جبالها وأن الناس تتهيب دخولها ، فلم أحفل بما كنت أسمع من ذلك ، فبينما أنا في نادى قومي إذ أنشدوا حديث تلك المغارة وأطنبوا في ذكرها ووصفوا موضعها ، فقلت لقومي إني غير متته عن هذه المغارة حتى أدخلها ، فهل فيكم من يساعدي ؟ فقال قتي منهم حديث السن : أنا أصحابك ، فقلت : يا بن أخي أتجسر على ذلك ؟ قال : عندي ما عند رجل من شدة الجأش وقوة القلب ، فهيا أنا شمعة وحملنا معنا أدوات عظيمة مملوءة ماء وطعاما مقدار ما يقوم بنا ونقدر على حمله ، ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذى فيه المغارة ، وكان مشرفا على البحر في المكان الذى يركب منه أهل حضرموت البحر ، فلما انتهينا إلى باب تلك المغارة حزمنا علينا ثيابنا وأشعلنا الشمعة ، ثم ذكرنا الله تعالى ودخلناها ومعنا تلك الأدوات من الماء والطعام ، فإذا مغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعا وطولها علوا نحو خمسين ذراعا ، فمشينا فيها وهويينا في طريق أملس مستو ، ثم أفضينا إلى درج عادية عرض الدرجة عشرون ذراعا في سمك عشرة أذرع فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرج ، فقلت لصاحبي : هلم إلى يدك فكنت آخذ بيده حتى ينزل ، فإذا نزل وقام في الدرجة تعلقت بطرف الدرجة وتشبثت حتى يتناول رجلى على منكبه ، فلم نزل كذلك وذلك دأبنا عامة يومنا حتى نزلناها ، وكانت مقدار مائة درجة فأفضينا إلى أزج عظيم محفور في الجبل في طول مائة ذراع وعرض أربعين ذراعا وسمكه في السماء قدر مائة ذراع ، وفي صدره سرير من ذهب منضد بصنوف الجواهر وفوقه رجل عاوى عظيم الجسم قد أخذ طول ذلك الأزج وعرضه ، وهو مضطجع على ظهره كهيئة النائم ، وعليه سبعون حلة بمقدار طوله وعرضه منسوجة تلك الخلل بقضبان الذهب والفضة ، وإذا ذلك الأزج يضيء من ثقب ، عرضه ذراعان وارتفاعه ثلاثة أذرع خارجا إلى فضاء لم يدر ما هو ؟ وإذا على رأس السرير لوح من ذهب عظيم فيه كتابة ما لها مثل ، وهي كتابة

كانت عاد كتبها في زمانه ، محفورة تلك الكتابة في اللوح حفرا ، فطلعنا ودنونا من ذلك الرجل ومسنا تلك الحبل فصارت رميا وبقيت قضبان الذهب قائمة ، فجمعناها فكانت مقدار مائة رطل فجعلناها في أزرنا وأرديتنا ، وأردنا قلع شيء من تلك الجواهر المنضد بها السرير فلم نقدر عليها لوثاقتها ، فتركناها وهجم علينا الليل ، ونحن في ذلك الأزج ، وعرفنا ذهاب النهار بذهاب ذلك الضوء الذي كان يدخل من ذلك الثقب ، فبتنا ليلتنا في ذلك الأزج وطفئت الشمعة التي كانت معنا ، فلما أصبحنا قلت لصاحبي ما ترى ؟ قال : أما الرجوع من حيث جئنا فلا سبيل إليه ، لارتفاع هذه المدرج ، وإنما لانستطيع صعودها لا سيما والشمعة قد طفئت ، ولكن هلم بنا نلزم هذا الضوء الذي نراه في هذا الثقب فإني أرجو أن نخرج منه إلى الفضاء إن شاء الله تعالى ، فقلت له : لعمرى إن هذا هو الرأي ، فهضنا بما معنا من تلك القضبان التي من الذهب ، وحملنا معنا ذلك اللوح الذي كان عند رأس السرير وسرنا من ذلك الثقب ، فلم نزل نمشي في طريق ضيق مقدار مائة ذراع حتى خرجنا منه إلى كهف في ذلك الجبل كهيئة الحائط ، وقد حف بذلك الكهف البحر ، فجلسنا على باب ذلك الثقب ثلاثة أيام بلياليها نتمون ببقية الماء والطعام الذي كان معنا . فلما كان اليوم الرابع نظرنا إلى مركب قد أقبل في البحر فلوحنا إليه ، فنظر إلينا أهله ، فأرسلوا لنا القارب ، فنزلنا من باب ذلك الثقب نزولا شاقا حتى وثبنا إلى القارب . فلما خرجنا من البحر اقتسمنا ذلك الذهب بيننا وصار ذلك اللوح إلى بقسطي . ثم إن أنفسنا دعتنا إلى العود إلى ذلك السرب مما يلي الثقب ، فركبنا قاربا وسرنا في البحر نحو المكان الذي خرجنا منه فخفي علينا مكانه ، فعلمنا أننا لم نرزق منه إلا ما أخذنا فرجعنا ، وإن اللوح مكث عندي حولا لا أحد يقروه لي حتى أتانا رجل من أهل صنعاء حميري كان يحسن قراءة تلك الكتابة ، فأخرجنا إليه اللوح فقرأه ، فاذا فيه مكتوب هذه الأبيات :

اعتبرني أيها المغرور بالعمر المسديد
 أنا شداد بن عاد صاحب الحصن العميد
 وأخو القوة والبأساء والملك الحشيد
 دان أهل الأرض طرا لي من خوف وعيد
 وملكت الشرق والغرب بسطان شديد
 وبفضل الملك والعدو فيه والعديد
 جاءنا هود وكنا في ضلال قبل هود
 فدعانا لو قبلنا كان بالأمر الرشيد
 فعصينا وناديناه ألهل من مجيد
 فأتتنا صيحة نهوى من الأفق البعيد
 فتوافينا كزرع وسط بيداء حصيد

قال دغفل : سألت علماء حير عن شداد ، وقلت إنه أصيب وقد كان دنا من إرم ذات العماد ، فكيف وجد في تلك المغارة وهي بحضرموت ؟ فقالوا : إنه لما هلك هو ومن معه من الصبيحة على مرحلة من تلك المدينة ملك من بعده يزيد بن شداد ، وقد كان أبوه نخله على ملكه بحضرموت ، فأمر بحمل أبيه إلى حضرموت ، فحمل مطليا بالصبر والكافور ، ثم أمر بحفر تلك المغارة ، فحفرت واستودعه فيها على ذلك السرير الذي من الذهب ، والله أعلم .

مجلس : في ذكر قصة أصحاب الرس

قال الله تعالى (وعادآ واثمودَ وأصحابَ الرّس) اختلف العلماء من أهل التفسير وأصحاب الأقباص فيهم ، فقال سعيد بن جبير والكلبي والحليل بن أحمد ، دخل كلام بعضهم في بعض ، وكل أخبر بطائفة من حديث أصحاب الرس : إن أصحاب الرس بقية ثمود قوم صالح ، وهم أصحاب البئر التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله تعالى (وبئرٍ مَعَطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ) وكانوا بفلج اليمامة نزولا على تلك البئر ، وكل ركية لم تطو بالحجارة والآجر فهي رس . وكان لهم نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له فتج ، مصعدا في السماء ميلا ، وكانت العنقاء تبيت به ، وهي كأعظم ما يكون من الطير وفيها من كل لون ، وسموها العنقاء لطول عنقها ، وكانت في ذلك الجبل تنقض على الطير فتأكلها ، فجاءت ذات يوم وأعوزها الطير ، فانقضت على صبي فذهبت به ، فسلميت عنقاء مغرب ، لأنها تغرب بما تأخذه ، ثم انقضت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضممتها إلى جناحين صغيرين لها سوى الجناحين الكبيرين ، فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فقال : اللهم خذها واقطع نسلها ، وسلط عنها آية تذهب بها ، فأصابها صاعقة فاحترقت فلم ير لها أثر بعد ذلك فضربت بها العرب مثلا في أشعارها وحكمها وأمثالها ، ثم إن أصحاب الرس قتلوا نبيهم فأهلكهم الله تعالى .

وقال بعض العلماء : بلغني أنه كان رसान ، أما أحدهما فكان أهله أهل بدو وعمود وأصحاب غنم ومواش ، فبعث الله إليهم نبيا فقتلوه ، ثم بعث إليهم رسولا آخر وعضده بولي ، فقتلوا الرسول وجاهدتم الولي حتى أفحمهم ، وكانوا يقولون : إلهنا في البحر وكانوا على شفيره ، وكان يخرج إليهم من البحر شيطان في كل شهر خرقة ، فيذبحون عنده ويتخذونه عيدا ، فقال لهم الولي : أرايتم إن خرج إلهكم الذي تدعونه وتعبدونه إلى وأطاعني أتجيئونني إلى ما دعوتكم إليه ؟ قالوا : بلى ، فأعطوه على ذلك العهود والمواثيق ، فانظر حتى خرج ذلك الشيطان على صورة حوت رابعا أربعة أحوات ، وله عنق مستعلية على رأسه مثل التاج ، فلما نظروا إليه خروا له سجدا ، فخرج الولي إليه وقال له : اتنى

طوعا أو كرها باسم الله الكريم ، فنزل عند ذلك من على إخوته ، فقال له الولي : اتنى راكبا عليهن لثلا يكون القوم من أمرهم على شك ، فأتى الحوت وأنت به الحيتان حتى أفضوا به إلى البرية يجرونه ويجرهن ، فلما رأوا ذلك سخرُوا به وكذبوه ونقضوا العهود ، فبعث الله إليهم ريحا فألقمهم في البحر ومواشيهم جميعا وما كانوا يملكون من ذهب وفضة وآنية ، فأتى الولي الصالح إلى البحر وأخذ الذهب والفضة والأواني ، فقسّمها على أصحابه بالسوية حتى الصغير والكبير وانقطع ذلك النسل .

وأما الآخر ، فإنهم قوم كان لهم نهر يدعى الرس ينسبون إليه ، وكان فيهم أنبياء كثيرة لا يقوم فيهم نبي إلا قتلوه ، وذلك النهر بمنقطع أذربيجان ، فإذا قطعت مدبرا دخلت في حدّ أرمينية ، وإذا قطعت مقبلا دخلت في حدّ أذربيجان ، وكان من حولهم من أهل أرمينية يعبدون الأوثان ، ومن قدامهم من أهل أذربيجان يعبدون النيران ، وهم كانوا يعبدون الجوارى العذارى ، فإذا تمت لإحداهن ثلاثون سنة قتلوها واستبدلوا غيرها ، وكان عرض نهرهم ثلاثة فراسخ ، وكان يرتفع في كل يوم وليلة حتى يبلغ أنصاف الجبال التي حوله ، وكان لا ينصب في بحر ولا بر ، فإذا خرج من حدهم يقف ويدور ، ثم يرجع إليهم ، فبعث الله تعالى إليهم ثلاثين نبيا في شهر واحد ، فقتلوه جميعا ، فبعث الله تعالى إليهم نبيا وأيده بنصره ، وبعث معه ولدا فجاهدهم في الله حق جهاده ، ثم بعث إليه ميكائيل حين نابذوه ، وكان في أوان وقوع الحب في الأرض ، وكانوا عند ذلك أحوج ما يكونون إلى الماء ، فحفر نهر في البحر وانصب ما في أسفله وأتى إلى عيونهم من فوق ، فسدها وبعث الله إليه خمسمائة من الملائكة أعوانا له ، فغرقوا ما بقي في وسط نهرهم ، ثم أمر الله جبريل فنزل ، فلم يدع في أرضهم عينا ولا نهرًا إلا أبيضه باذن الله تعالى ، وأمر ملك الموت فانطلق إلى المواشي فأماتها دفعة واحدة ، وأمر الرياح الأربع : الجنوب والشمال والذبور والصبيا ، فضمت ما كان لهم من متاع ، وألقى الله تعالى عليهم السبات ، ثم خفقت الرياح الأربع بذلك المتاع أجمع فرمته في رعوس الجبال وبطون الأودية . وأما ما كان من حلّى وتبر وآنية ، فإن الله تعالى أمر الأرض فابتلعته ، فأصبحوا لا شاة عندهم ولا بقرة ولا مال يعودون إليه ، ولا ماء يشربونه ولا طعاما يأكلونه ، فأمن بالله عند ذلك قليل منهم ، وهداهم الله إلى غار في جبل له طريق من خلفه ، فنجوا وكانوا أحدا وعشرين رجلا وأربع نسوة وصبيين ، وكان عدة الباقي من الرجال والنساء والنراري سبعمائة ألف ماتوا عطشا وجوعا ، ولم يبق منهم باقية ، ثم عاد القوم إلى منازلهم فوجدوها قد صار أعلاها أسفلها ، فدعا القوم عند ذلك مخلصين لله أن يجيئهم بماء وزرع وماشية ويجعله قايلا لثلا يطغوا ، فأجابهم الله تعالى إلى ذلك لما علم من صدق نياتهم وإخلاصهم وقالوا : إنه لا يبعث الله رسولا إلى من يليهم ويقاربهم إلا أعانوه وصدقوه ، وعضدوه فعلم الله منهم الصدق ،

فأطلق لهم نهرهم وزادهم على ما سألوه ، فأقام أولئك القوم في طاعة الله ظاهرا وباطنا حتى مضوا وانقرضوا ، فحدث من بعدهم من نسلهم قوم أطاعوا الله في الظاهر وناقضوا في الباطن ، وأملى الله تعالى لهم وكان عليهم قادرا ، وكانت معاصيهم أكثر من طاعتهم ، وخالفوا أولياء الله ، فبعث الله عليهم من فارقهم وخالفهم ، فأسرع فيهم القتل وبقيت منهم شرذمة ، فسلط الله عليهم الطاعون فلم يبق منهم أحد ، وبقى نهرهم ومنازلهم وما فيها مائتي عام لا يسكنها أحد . ثم أتى الله بقوم بعد ذلك فنزلوها ، وكانوا صالحين ، فأقاموا فيها ستين سنة ، ثم أحدثوا فاحشة ، فجعل الرجل يدعو بنته وأخته وزوجته فبييت معها جاره وأخاه أو صديقه يلتمس بذلك البر والصلة ، ثم ارتفعوا من ذلك إلى نوع آخر ، ترك الرجال النساء حتى شبقتن ، واستغنى الرجال بالرجال ، فجاءت للنساء شيطانة في صورة امرأة ، وهي الدهان بنت إبليس ، وهي أخت الشيطان ، وكانا في بيضة واحدة ، فشبهت للنساء ركوب بعضهن ، وعلمتهن كيف يصنعن ، فأصل ركوب النساء بعضهن بعضا من الدهان ، فسلط الله تعالى على هؤلاء القوم صاعقة في أول ليلهم وخسفا في آخره وصبيحة مع الشمس فلم يبق منهم باقية وبادت منازلهم ، ولا أحسب منازلهم اليوم مسكونة .

وروى علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم : أن رجلا من أشرف بني تميم يقال له عمر ، أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرس ، وفي أي عصر كانوا ، وأين كانت منازلهم ؟ ومن كان ملكهم ، وهل بعث الله إليهم رسولا أم لا ، وبماذا أهلكوا ؟ فإني أجد في كتاب الله عز وجل ذكرهم ولا أجد خبرهم ، فقال له أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : لقد سألتني عن حديث ما سألتني عنه أحد قبلك ولا يحدثك به أحد بعدى ، كان من قصتهم يا أخا تميم : أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة صنوبر يقال لها شاب درخت ، وكان يافث بن نوح غرسها على شفير عين ، يقال لها دوسان كانت نبعت لنوح عليه السلام بعد الطوفان ، وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم في الأرض ، وذلك قبل سليمان بن داود عليهما السلام ، وكان لهم اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر ، يقال له الرس من بلاد المشرق ، وبهم سمي ذلك النهر ، ولم يكن يومئذ في الأرض نهر أغزر منه ولا أعذب منه ولا قرى أكثر سكانا وعمرانا منها ، وكان أعظم منازلهم اسفنديا ، وهي التي كانت ينزلها ملكهم ، وكان يسمى تركون بن عابور بن نوش بن سارب بن النمرود بن كنعان فرعون إبراهيم عليه السلام ، وفيها العين التي يسقون منها الصنوبرة التي كانوا يعبدونها ، وقد غرسوا في كل قرية منها حبة من طلع تلك الصنوبرة ، فتنبت تلك الحبة وتصير شجرة عظيمة ، ثم حرموا ماء تلك العين والأنهار ، فلا يشربون منها ، لاهم ولا أنعامهم ، ومن فعل ذلك قتلوه ، ويقولون هي حياة ألفتنا فلا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها ويشربون هم وأنعامهم من نهر الرس الذي عليه

قراهم ، وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل قرية عبدا يجتمع إليه أهلها ويضربون على تلك الشجرة مظلة من الحرير فيها أصناف الصور ، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبجونها قربانا للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب الكثير ، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتارها وبخارها في الهواء وحال بينهم وبين النظر للسماء خروا سجدا للشجرة ويكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم ، وكان الشيطان يجيء فيحرك أغصانها ويصيح في ساقها صباح الصبي : عبادي قد رضيت عنكم ، فطيبوا نفسا وقرّوا عينا ، فيرفعون عند ذلك رؤوسهم ويشربون الخمر ويضربون المعازف ، فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم ، ثم ينصرفون ، حتى إذا كان عيد قرينهم العظمى اجتمع إليه صغيرهم وكبيرهم ، فيضربون عند شجرة الصنوبر والعين سرادقا من ديباج وعليه أنواع الصور ، له اثنا عشر بابا ، كل باب لأهل قرية منهم ، فيسجدون للصنوبر من خارج السرادق ، ويقربون إليها الذبائح أضعاف ما قربوا للشجرة التي في قراهم ، فيجىء إبليس عند ذلك فيحرك الصنوبرة تحريكا شديدا ويتكلم من جوفها كلاما جهورا يهدم ويمنيهم بأكثر مما وعدتهم الشياطين جميعا ، فيرفعون رؤوسهم من السجود ، ولهم من الفرح والسرور ما لا يفيقون ولا يتكلمون معه ، فيديمون الشرب والمعازف ويكونون على ذلك اثني عشر يوما وليلة بعدد أعيادهم في السنة ، ثم إنهم ينصرفون .

قلما طال كفرهم بالله تعالى وعبادتهم غيره بعث الله إليهم نبيا من بني إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب ، فلبث فيهم زمانا طويلا يدعوهم إلى الله تعالى ويعرفهم بربوبيته فلا يتبعونه ولا يسمعون مقالته ، فلما رأى شدة ما هم فيه من الغي والضلالة وتركهم قبول ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح حضر عند قرينهم العظمى ، وقال : يارب إن عبادك أبوا تصديقي ودعوتي إليهم ، وما أرادوا إلا تكذبي والكفر بك ، ثم غدوا يعبدون شجرة لانفع ولا تضر فأبى شجرهم أجمع وأرهم قدرتك وسلطانك ، فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كله ، فهالهم ذلك وخضعوا ، فصاروا فرقتين : فرقة قالوا : سحر هذا الرجل الذي زعم أنه رسول رب السماء آلهتكم ليصرف وجوهكم عنها إلى إله . وفرقة قالت : بل غضبت عليكم آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها فحجبت حسنها وبهاءها وجمالها لكي تغضبوا لها فتنتصروا منه ، فأجمعوا أمرهم على قتله ، فاتخذوا مثال بيت واتخذوا أنابيب طولا من رصاص واسعة الأفواه ، ثم إنهم أرسلوها إلى قرار العين واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ ونزحوا ما فيها من الماء ، ثم حضروا في قعرها ببرا ضيقة العين عميقة فرسوا فيها نبيهم وألقوا على فيها صخرة عظيمة ، ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا : الآن نرجو أن ترضى عنا آلهتنا إذا رأت أننا قتلنا من كان يقع فيها وبعد من عبادتها وأنا دفناه تحت كبيرها يتشنى فيه ، فيعود لها نورها ونضرتها كما كان ، فبقوا على ذلك عامة يومهم ويسمعون أنين نبيهم وهو يقول : سيدي وولدي ترى ضيق مكاني

وشدة كربى ، فارحم ضعف ركنى وقلة حيلتى وعجل قبض روحى ولا تؤخر إجابة دعوتى حتى مات عليه السلام ، فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام : انظر عبادى هؤلاء الذى غرهم حلمى وأمنوا مكربى وعبدوا غيرى وقتلوا رسلى ، وأنا المنتقم ممن عصانى ولم يحش عقابى ، وإنى حلفت بعزتى لأجعلنهم عبرة ونكالا للعالمين ، فبينما هم فى عيدهم إذ غشيهم ربح عاصف حمراء ، فتحيروا فيها وذعروا منها وتضام بعضهم إلى بعض ، ثم إن الأرض صارت من تحتهم كحجر كبريت تتوقد ، وأظلمت سحابة سوداء فألقت عليهم حجرا كالقبة يلهب ، فأذاب أبدانهم كما يذوب الرصاص فى النار ، فنعوذ بالله من غضبه ودرك نعمته ، إنه هو السميع العليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، والله أعلم .

مجلس : فى ذكر قصة نبي الله أيوب وبلائه عليه السلام

قال الله تعالى (واذكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ) الآية . وقال تعالى (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) . قال وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتب : كان أيوب رجلا من الروم ، وكان رجلا طويلا عظيم الرأس ، جعد الشعر ، حسن العينين والحلق ، قصير العنق ، غليظ الساقين والساعدين ، وكان مكتوبا على جبهته المبتلى الصابر ، وهو أيوب بن أموص بن تارح بن روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، وكانت أمه من ولد لوط بن هاران ، وكان الله قد اصطفاه ونباه وبسط عليه الدنيا ، وكان له الثنية من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وما كان فيها ، وكان له من أصناف المال كله : من الإبل والبقر والغنم والحيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه فى العدة والكثرة ، وكان له بها خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد ، لكل عبد امرأة وولد ومال ، ويحمل آلة كل فدان أتان ، ولكل أتان ولد من الاثنين إلى فوق الخمسة ، وكان الله أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء ، وكان امرؤ تقيا رحما بالمساكين يكفل الأرامل والأيتام ويكرم الضيف ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكرا لأنعم الله تعالى مؤديا لحقه ، قد امتنع من عدو الله إبليس أن يصيبه منه ما أصاب من أهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل والسهو عن أمر الله تعالى بما هو فيه من الدنيا ، وكان معه ثلاثة قد آمنوا به وصدقوه وعرفوا فضله ، رجل من أهل اليمن يقال له اليفن ، ورجلان من أهل بلاده ، يقال لأحدهما مالك ، وللآخر ظافر ، وكانوا كهولا .

قال وهب : إن لجبريل عليه السلام بين يدى الله مقاما ليس لأحد من الملائكة مثله فى القرية والفضيلة ، وإن جبريل هو الذى يتلقى الكلام ، فإذا ذكر الله تعالى عبدا بخير تلقاه جبريل ثم ميكائيل ثم من حوله من الملائكة المقربين والحافين من حول العرش ، فإذا شاع ذلك فى الملائكة المقربين صارت الصلاة على ذلك العبد من أهل السموات ، فإذا صارت

عليه ملائكة السموات هبط عليه بالصلاة إلى ملائكة الأرض ، وكان إبليس لا يحجب عن شيء من السموات ، وكان يقف فيهن حينما أراد ، ومن هناك وصل إلى آدم حين أخرجه من الجنة ، فلم يزل على ذلك يصعد إلى السماء حتى رفع الله تعالى عيسى عليه السلام ، فحجب عن أربع ، وكان يقعد في ثلاث ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حجب عن الثلاثة الباقية ، فهو وجنوده محجوبون عن جميع السموات إلى يوم القيامة « إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ » قال : فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب ، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه ، فأدركه البغي والحسد ، وصعد سريعا حتى صعد في السماء موقفا كان يقفه ، فقال : يا إلهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك ، وعافيته فحمدك ، ثم لم تختبره لابشدة ولا بلاء ، وأنا لك زعيم لأن ضربته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك ، فقال الله تعالى : انطلق إليه فقد سلطتك على ماله ، فانقضّ عدو الله حتى بلغ الأرض ، ثم جمع عفاريت الشياطين وعظماءهم فقال لهم : ماذا عندكم من القوة والمعرفة ؟ فإني قد سلطت على مال أيوب ، وزوال المال هو المصيبة الفادحة ، والفتنة التي لاتصبر عليها الرجال ، فقال عفريت من الشياطين : أعطيت من القوة ما لو شئت تحوات إعصارا من نار فأحترقت كل شيء آتى عليه ، فقال له إبليس : فأت الإبل فأحرقها ورعاتها ، فانطلق يؤمّ الإبل ، وذلك حين وضعت رعوسها وثبتت في مراعيها ، فما تشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار تنفخ فيه رياح السموم ، لا يدنو منها أحد إلا احترق ، فلم يزل يحرقها ورعاتها حتى أتى على آخرها . فلما فرغ منها تمثل إبليس على قعود منها في صفة راعيها ، ثم انطلق يؤمّ أيوب حتى وجده قائما يصلي ، فقال له : يا أيوب ، قال : لبيك ، فقال : هل تدري ما الذي صنع ربك الذي اخترته وعبدته ، بإيالك ورعاتها ؟ فقال أيوب : إنها ماله أعارنيها وهو أولى بها ، إن شاء تركها وإن شاء أخذها ، وقد تحققت وطيبت النفس أنى ومالى للفناء والزوال ، فقال له إبليس : فإن ربك أرسل إليها نارا من السماء فاحترقت كلها ، وبقي الناس مبهوتين وقوفا عليها يتعجبون منها ، فمنهم من يقول : ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا في غرور ، ومنهم من يقول : لو كان إله أيوب يقدر على أن يصنع شيئا لمنع وليه من حرق مواشيه ، ومنهم من يقول : بل هو الذي فعل ما فعل فشمت به عدوه وفجع به صديقه ، فقال أيوب : الحمد لله الذي أعطاني ، وحيث شاء نزع مني ، عريانا خرجت من بطن أمي ، وعريانا أعود إلى القبر ، وعريانا أحشر إلى ربي .

ليس ينبغي لك أن تفرح حين أعارك الله ، وتجزع حين قبض عاريته ، فهو أولى بك وبما أعطاك ، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الأرواح وصيرك شهيدا مع الشهداء ، ولكنه علم فيك شرا فأخرك وخلصك من البلاء كما يخلص الزوان من القمع الخالص . فرجع إبليس إلى أصحابه خائبا ذليلا وقال لهم : ماذا عندكم من القوة؟ إني لم أكام

قلبه ، فقال عفريت من عظامهم : عندى من القوة ما لو شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت مهجة نفسه ، فقال له إبليس : فائت الغنم ورعاتها ، فانطلق يؤم الغنم ورعاتها حتى إذا توسطها صاح صوتا ماتت منه الغنم جميعا وماتت رعاتها ، ثم إن إبليس خرج متمثلا بقهرمان الرعاة ، حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلى ، فقال له مثل قوله الأول ، وردّ عليه أيوب مثل ما قال فى النوبة الأولى . ثم إن إبليس رجع إلى أصحابه فقال : ماذا عندكم من القوة ، فاني لم أكلم قلب أيوب ؟ فقال عفريت من عظامهم : عندى من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفا تنشف كل شىء تأتى عليه حتى لا يبقى منه شىء ، فقال له إبليس : فأت الفدادين والحرث فانطلق يؤمهم حتى قرب من الفدادين واستوى فى الحرث وأولا دهم رتوع فلم يشعروا حتى هبت ريح عاصف فنشفت كل شىء من ذلك حتى كأنه لم يكن . ثم إن إبليس خرج متمثلا بقهرمان الحرث حتى جاء إلى أيوب وهو قائم يصلى ، فقال له مثل قوله الأول ، فأجابه أيوب بمثل جوابه الأول فجعل إبليس يصيب ماله الأول فالأول حتى أتى على آخره .

قال وأيوب كلما انتهى إليه بهلاك مال من ماله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضى بالقضاء ووطن نفسه بالصبر على البلاء حتى ما بقى له مال . فلما رأى إبليس أنه قد أفنى ماله ولم ينل منه شيئا ولا نجح فى شىء من أفعاله شق عليه ذلك وصعد سريعا ووقف الموقف الذى كان يقفه وقال : إلهى إن أيوب يرى أنك مهما متعته من نفسه وولده فأنت معطيه المال ، فهل أنت مسلطى على ولده ، فإنها الفتنة المضلة والمصيبة التى لا تقوم لها قلوب الرجال ولا يقوى عليها صبرهم ؟ فقال الله تعالى له : انطلق فقد سلطتك على ولده فانقضّ عدو الله حتى جاء بنى نبيّ الله أيوب وهم فى قصرهم ، فلم يزل يزلزله حتى تداعى القصر من قواعده ثم جعل يناطح بجدره بعضها بعضا ، فرماهم الحشب والجندل حتى مثل بهم كل مثلة ، ثم رفع بهم القصر وقلبه فصاروا منكسين . ثم إن إبليس انطلق إلى أيوب متمثلا بالمعلم الذى كان يعلمهم الحكمة ، وهو جريح مشدوخ الرأس والوجه يسيل دمه من دماغه ، فأخبره بذلك وقال له : يا أيوب لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف قلب بهم القصر وكيف نكسوا على رؤوسهم تسيل دماؤهم وأدمغتهم من أنوفهم وشفاههم ، ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك ، فلم يزل يقول هذا ويردده حتى رقّ أيوب لذلك وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه ، فاغتم إبليس الفرصة منه لذلك ، فصعد سريعا بالذى كان من جزع أيوب مسرورا ، ثم لم يلبث أيوب أن أبصر فاستغفر وشكر ، فصعد قرناؤه من الملائكة باستغفاره وتوبته فبدروا إبليس وسبقوه إلى الله ، والله أعلم بما كان . فوقف إبليس خاسئا ذليلا فقال : إلهى إنما هون على أيوب خطر المال والولد أنه يرى أنك مهما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد ، فهل أنت مسلطى على نفسه وبدنه ، فإنى لك زعيم لئن ابتليته فى جسده لينسينك وليكفرن بك وليجحدن

نعمتك ؟ فقال الله تعالى : انطلق فقد سلطتك على جميع جسده ، ولكن ليس لك سلطان على لسانه وقلبه ولا على عقله ، وكان والله أعلم به أنه لم يسأله عليه إلا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب ، فانقضّ عدو الله سريعا فوجد أيوب ساجدا ، فقبل أن يرفع رأسه أتاه من قبيل الأرض في موضع وجهه ونفخ في منخرينه نفخة اشتعل منها جسده ، فذهل وخرج به من فرقه إلى قدمه ثأليل مثل أليات الغنم ، ووقعت فيه حكة لا يملكها ولا يتماسك عن حكها ، فحك بأظفاره حتى سقطت كلها ، ثم حكها بالمسوح الحشنة حتى قطعها ثم بالفخار والحجارة الحشنة ، فلم يزل يحكها حتى نزل لحمه وتقطع وتغير وأنتن ، فأخرجته أهل القرية فجعلوه على كنانة وجعلوا له عريشا ، فرفضه خلق الله كلهم غير امرأته رحمة بنت إفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام ، وكانت تختلف إليه بما يصلحه وتكرمه ، فلما رأى أصحابه الثلاثة ما ابتلاه الله به أنهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه ، فلما طال به البلاء انطلقوا إليه وهو في بلائه فبكتوه ولا موه وقالوا له : تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به .

قال : وكان حضر معهم فتى حديث السن وكان قد آمن به وصدقه فقال : إنكم تكلمتم أيها الكهول وكنتم أحق بالكلام لأسنانكم ، ولكن قد تركتم من القول أحسن من الذي قلتم ، ومن الرأي أصرب من الذي رأيتم ، ومن الأمر أجمل من الذي أتيتم ، وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم ، فهل تدرون أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ، ومن الرجل الذي عبتم وأنهمتم ؟ ألم تعلموا أن أيوب نبي الله وحيبيه وخيرته وصفوته من أهل الأرض في يومكم هذا ؟ ثم إنكم لم تعلموا ولا أطلعكم الله تعالى على أنه سخط شيئا من أمره منذ أتاه ما أتاه إلى يومكم هذا ؟ ولا علمتم أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه الله بها ؟ ولا أن أيوب غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا ؟ فإن كان البلاء هو الذي أزرى به عندكم ووضع في أنفسكم لقد علمتم أن الله تعالى يبتلي النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم إن بلاءهم ليس دليلا على سخطه عليهم ولا هوأهم عليه ولكنه كرامة وخير لهم ، ولو كان أيوب ليس هو من الله بهذه المنزلة إلا أنكم آخيتتموه على وجه الصحة لكان لا يجمل بالحكيم أن يعذل أخاه عند البلاء ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ، ولكنه يرحمه ويبيكى معه ويستغفر الله له ويجزن لحزنه ويدله على رشد أمره ، وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا ، فالله الله أيها الكهول ، فقد كان لكم في عظم الله وجلاله ، وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ، ألم تعلموا أن الله عبادا أسكتهم خشيته من غير عي ولا بكم وإنهم لم الفصحاء النبلاء البلغاء الألباء العالمون بالله وآياته ، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاما لله تعالى وإعزازا وإجلالا ، فاذا

استفاقوا استبقوا إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية الصالحة يعدون أنفسهم مع الخاطئين الظالمين
 وإنهم برآء ويعدون أنفسهم مع المفرطين المقصرين ، وإنهم لا كياس أقوياء ، وإنهم
 لا يستكثرون لله الكثير ولا يرضون له بالقليل ولا يدلون عليه بالأعمال ، فهم مروعون
 مفزعون خاشعون مستكينون ، فقال أيوب : إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة في قلب
 المؤمن الكبير والصغير ، فتي نبتت في القلب أظهرها الله تعالى على اللسان وليس تكون الحكمة
 من قبل السن والشيب ولا طول التجربة ، فإذا جعل الله العبد حكما في الصبا لم تسقط
 منزلته عند الحكماء ، وهم يرون من الله تعالى عليه نور الكرامة ، ثم إن أيوب أقبل على
 الثلاثة وقال : أتيتوني غضابا رهبت قبل أن تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا ، كيف بكم
 لو قلت لكم تصدقوا عني بأموالكم لعل الله يخلصني ، وقربوا عني قربانا لعل الله يتقبلها
 ويرضى عني ، وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم ، وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم ، فبهناثكم
 بغيتم وتعززتم ، ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوباً سترها الله
 عليكم بالعافية التي ألبسكم إياها ، وقد كنت فيما خلا الرجال توقرنى ، وأنا مسموع كلامي
 معروف حتى منتصف من خصمي ، فأصبحت اليوم وليس لي رأى ولا كلام معكم ،
 فأنتم اليوم أشد علي من مصيبي ، ثم إنه أعرض عنهم وأقبل على ربه مستغيثا متضرعا إليه
 فقال : رب لأى شيء خلقتني ، ليتني إذ كرهتني ما خلقتني ، يا ليتني كنت حيضة ألقني
 أمي ، أو ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم
 عني ، لو كنت أمتي وألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل لي . يا إلهي ألم أكن للغريب دارا
 وللمسكين قرارا ، ولليتيم وليا وللأرملة قما ؟ إلهي أنا عبد ذليل ، إن أحسنت فالمنة لك ، وإن
 أسأت فيبدك عقوبتي ، جعلتني للبلاء غرضا ، وللفتنة نصبا ، وقد وقع على بلاء لوسلطته
 على جهل لضعف عن حمله فكيف يحمله ضعفي . إلهي تقطعت أصابعي ، فإني لا أرفع
 الأكلة من الطعام إلا بيدي جميعا فما يبلغان في إلا على الجهد مني . إلهي تساقطت لهواتي
 ولحم رأسي ، فما بين أذني من سداد بل إحداهما ترى من الأخرى ، وإن دماغى ليسيل من
 في . إلهي تساقط شعر عيني كأنما أحرق بالنار وجهي ، وحدثتني متدللتان على خدي ،
 وورم لساني حتى ملأني ، فما أدخل فيه طعاما إلا غصني ، وورمت شفتي حتى غطت العليا
 أني والسفلى ذقتي ، وتقطعت أمعائي في بطني ، وإني لأدخل الطعام فيخرج كما دخل
 ما أحسه ولا ينفعني ، وذهبت قوة رجلي فكأنهما قد يبستا ولا أطيع حملهما ، وذهب
 المال فصرت أسأل بكفي ويطعمني من كنت أعوله اللقمة الواحدة فيمن بها على ويعبرني ،
 إلهي ملك أولادي ولو بني واحد منهم أعاني على بلائي ونفسي ، قد ملني أهلي وعقبي
 أرحامى وتنكرت لي معارفي ورغب عني صديقي وقطعتني أصحابي وحدثت حقوقى ونسيت
 صنائعي ، أصرخ فلا يصرخونني وأعتذر فلا يعذرونني ، دعوت غلامى فلم يجيبني ،

وتضرعت لأمتي فلم ترحمني ، وإن قضاءك هو الذي أذلتني وأداناني وأهانني وأقامني ، وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري فأطلق لساني لأنتكلم بملء فمي ، ولو كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ، ولكنه ألقاني وتخلي عني ، فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه ، ولا نظر إلى فرحني ، ولا دنا مني ولا أدناني ، فأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي . فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده ، أظلمت غمامة حتى ظن أصحابه أنه عذاب ، ثم نودي : يا أيوب إن الله تعالى يقول لك ها أنا قد دنوت منك ، فلم أزل منك قريبا ، فقم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك ، واشدد عليك إزارك ، وقم مقام جبار ، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي ، ولا ينبغي أن يخاصمني إلا من يجعل الزمام في فم الأسد والسخال في فم العنقاء واللحم في فم التنين ، ويكيل مكبلا من النور ويزن مثقالا من الريح ويصر صرة من الشمس ويرد أمس ، لقد متت نفسك أمرا ما يبلغ بمثل قوتك ، ولو كنت إذ متت نفسك ذلك ودعتك إليه تذكرت أي مرام رامت بك ، أم أردت أن تكاثرني بضعفك أم أردت أن يخاصمني بغيك ، أم أردت أن تحاجني بخطئك ؟ أين كنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها ، هل علمت بأي مقدار قدرتها ؟ أم كنت معي تمر بأطرافها ؟ أم تعلم ما بعد زواياها ، أم على أي شيء وضعت أكنافها ؟ أبطاعتك حمل الماء الأرض ؟ أم بحكمتك كانت الأرض على الماء غطاء ؟ أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفا في الهواء لا معاليق تمسكها ، ولا تحملها دعائم من تحتها ، هل يبلغ من حكمتك أن تجري وتسير نجومها ، أم هل بأمرك يختلف ليلها ونهارها ؟ أين كنت مني يوم سجرت البحار وأنبتت الأنهار ؟ أقدرتك حبست أمواج البحار على حدودها ؟ أم قدرتك فتحت الأرحام حين بلنت مدتها ؟ أين أنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ الجبال ، هل لك أن تطبق حملها أم كنت تدري كم مثقال ما فيها ؟ أين الماء الذي أنزلته من السماء ؟ هل تدري كم بلدة أهلكتها ، وكم من قطرة أحصيتها وقسمت الأرزاق ، أم قدرتك تثير السحاب وتنثر الماء ؟ هل تدري ما أصوات الرعد ؟ أم من أي شيء لب البرق ؟ وهل رأيت عمق البحر ، أم هل تدري ما بعد الهواء ؟ أم هل تدري أين خزانة النهار بالليل ؟ وأين طريق النور ؟ وبأي لغة تتكلم الأشجار ؟ أين خزانة الريح ؟ وأين جبال البرد ؟ أم هل تدري من جعل العقول في أجواف الرجال ، ومن شق الأسماع والأبصار ، وذلت الملائكة للملكه ، ومن قهر الجبارين بجبرونه وقسم أرزاق الدواب والعباد بحكمته ، ومن قسم للأسد أرزاقها وعرف الطير معاشها وعطفها على أفراخها ؟ ومن أعتق الوحوش من الخدمة وجعل مساكنها البرية ، لا تأنس بالأصوات ولا تهاب السلاطين ، أبحكمتك عطفت عليها أمهاتها ، حتى أخرجت لها طعاما من أجوافها وآثرتها بالعيش على نفوسها ، أم بحكمتك يبصر العقاب الصيد البعيد واضحا

في أماكن الفلا؟ أين أنت يوم خلقت البهوت مكانه في منقطع التراب ، واللوتيا يحملان
الجبال والقرى وال عمران ، أنيابهما كأنها شجر الصنوبر الطوال ، ورءوسهما كأنها الجبال ،
وعروق أفخاذهما كأنها عمد النحاس ، أنت ملأت جلودهما لحما ، أم أنت ملأت رءوسهما
دماغا ؟ هل لك في خلقهما من شرك ؟ أم لك بالقوة التي غلبتهما يدان ؟ أم هل يبلغ من
قوتك أن تضع يديك على رءوسهما ؟ أم تقعد على طريق فتحبسهما ، أو تصدهما عن
قوتها ؟ أين أنت به م خلقت التين ورزقه في البحر ومسكنه في السماء وعيناه تتوقدان نارا
ومنخراه يثوران دخانا ، أذناه مثل قوس السحاب يثور منهما هب كأنه إعصار العجاج ،
جوفه يحرق ونفسه يلهب وزبده جمر كأمثال الصخور ، وكأنه ضرب أسنانه أصوات الصواعق
وكان نظر عينيه لمع البرق ، تمر به الجيوش وهو متكئ لا يفزعه شيء ليس فيه مفصل ،
زبر الحديد عنده مثل التبن ، والنحاس عنده مثل الخيوط ، لا يفزع من النشاب ولا يخشى
وقع الصخور على جسده ، ويطير في الهواء كأنه عصفور فيهلك كل شيء يمر به ، هل أنت
أخذه بأحبولتك ، وواضع اللجام في شذقه ؟ هل تحصى عمره ؟ أم هل تعرف أجله أم تعرف
رزقه ، أم هل تدري ماذا خرب من الأرض ، وماذا يخرب فيما بقي من عمره ، أم هل تطيق
غضبه حين يغضب ، أم تأمره فيطيعك ، تبارك الله أحسن الخالقين . فقال أيوب عليه السلام :

قصرت عن هذا الأمر الذي ورد عليّ ، ليت الأرض انشقت لي فذهبت ولم أتكلم بشيء
يسخط ربي حين اجتمع عليّ البلاء ، إلهي قد جعلتني لك مثل العدو ، وقد كنت تعرفني
وتعرف نصحي ، وقد علمت أن كل الذي ذكرت صنع يديك وتدير حكمتك ، وأعظم
من هذا لو شئت علمت أن لا يعجزك شيء ولا تخفى عليك خافية ولا تغيب عنك غائبة ،
من هذا الذي يظن أن يسرّ عنك سرا وأنت تعلم ما ينظر عليّ القلوب ، وقد علمت منك
في بلائي هذا ما لم أكن أعلم ، وخفت أن يكون أمرا أكثر مما كنت أخاف إنما كنت أسمع
بصوتك ، فأما الآن فهو نظر العين ، وإنما تكلمت حين تكلمت لتعذرني ، وسكت حين
سكت لترحمي ، كامة زلت عن لساني فلن أعود ، وقد وضعت يدي على فمي وعضفت
على لساني ، وألصقت بالتراب خدي ، ودست فيه وبهي لصغاري ، وسكت حين أسكتني
خطيئتي ، فاغفر لي ما قلت ، فلن أعود لشيء تكرهه مني . فقال الآ تعالى : يا أيوب نفذ
فيك حكمتي ، وسبقت رحمتي غضبي ، إذ أخطأت فقد غفرت لك ما قلت ورحمتك ، ورددت
عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم ، لتكون لمن خلفك آية ، وتكون عبرة لأهل البلاء وعزاء
للصابرين ، فاركض برجلك ، هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء ، وقرب عن أصحابك
قربانا واستغفر لهم ، فإنهم قد عصوني فيك . فركض برجله فانفجرت له عين فدخل فيها
فاغتسل ، فأذهب الله عنه ما كان فيه من البلاء ، ثم إنه خرج وجلس فأقبلت امرأته ،
فقامت تلمسه في مضجعه فلم تجده ، فقامت متكدرة كالوالهة ، فمرت به فقالت : يا عبد الله

هل لك علم بالرجل المبتلى الذي كان ههنا؟ فقال لها: وهل تعرفينه إذا رأيتيه؟ فقالت: نعم، وكيف لأعرفه؟ فتبسم وقال: ها أنا هو، فعرفته لما ضحك فاعتنقته.

قال ابن عباس: والذي نفسى بيده ما فارقت من عناقه حتى مر بهما كل ما كان لهما من المال والولد، وذلك قوله تعالى (وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر)... الآية.

واختلف العلماء في وقت نداءه ومدة بلائه، والسبب الذي قال لأجله: مسنى الضر.

حدثنا الإمام أبو الحسين محمد بن علي بن سهل، إمام في شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وثلثمائة، أخبرنا أبو طالب عمر بن الربيع بن سليمان الحشاب بمصر، أخبرنا يحيى ابن أيوب العلاف، أخبرنا سعيد بن أبي مریم، أخبرنا نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن نبي الله أيوب لبيت في بلائه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما أدراك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة له في البلاء لم يرحمه الله ويكشف ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك، فقال أيوب: ما أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أنى كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأنكيت عنهما، كراهة أن يذكرا الله تعالى إلا في حق، قال: وكان يخرج لحاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وذلك أن الله تعالى أوحى إلى أيوب، في مكانه (أن اركض برجلك) الآية، فاستبطأته فذهبت لتنظر ما شأنه، فأقبل عليها وقد أذهب الله تعالى عنه ما أصابه من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت له: هل رأيت نبي الله المبتلى؟ فقال: إني أنا هو، وكان له أندران: أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله تعالى نهمايتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض.

ويروى أن الله تعالى أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يحثو منه في ثوبه، فناداه: يا أيوب! ألم أغنك عما ترى؟ قال بلى يارب، ولكن لاغنى لى عن فضلك ورزقك ورحمتك، ومن يشبع من نعمتك؟

وقال الحسن: كان أيوب عليه السلام مطروحا على كئاسة في منزلة لبنى إسرائيل سبع سنين وأشهرات مختلف في الدواب. وقال وهب: لم يكن بأيوب أكلة، وإنما كان يخرج منه مثل ثدى النساء ثم يتفقا. قال الحسن: ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ولا أحد يقربه غير رحمة امرأته صبرت معه تخدمه وتأتيه بطعام وتحمد الله معه إذا حمده، وأيوب على ما به

لا يفتر عن ذكر الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه الله ، فصرخ عدو الله إبليس صرخة جمع بها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب ، فلما اجتمعوا عليه قالوا له : ما حاجتك ؟ قال لهم : أعياني هذا العبد ، سألت ربي أن يسلمني على ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ، فلم يزد ذلك إلا صبرا وثناء على الله ، ثم سلطت على جسده فركته قرحة ملق على كنانة لا يقربه إلا امرأته وقد افتضحت من ربي ، فاستعنت بكم لتعينوني عليه ، فقالوا له : أين مكرك ، أين علمك الذي أهلكت به من مضي ؟ قال : بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي ، قالوا : نشير عليك بما أتيت به آدم حين أخرجه من الجنة من أين أتيت ؟ قال : من قبيل امرأته ، قالوا : فشأنك وأيوب من قبيل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيا ، وليس أحد يقربه غيرها ، قال : أصبتم ، فانطلق حتى أتى امرأته وهي تطلب الصدقة ، فتمثل لها في صورة رجل فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ فقالت : هو ذاك ، يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده ، فلما سمع منها ذلك وطمع أن تكون كلمة جزع وسوس لها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال ، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه اليوم من الضرر ، وإن ذلك لا ينقطع عنه أبدا . قال الحسن : فصرخت ، فلما صرخت علم أنها قد جزعت ، فأتاها بسخلة وقال لها : ليذبح أيوب هذه لي وسييرا . قال : فجاءت تصرخ وقالت : يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولا يرحمك ؟ أين المال ؟ أين الماشية ؟ أين الولد أين الصديق ؟ أين ثوبك الحسن ؟ قد تغير وصار مثل الرماد ، وأين جسمك الحسن ؟ قد بلى وهو يتردد فيه الدود ، اذبح هذه السخلة واسترح . فقال لها أيوب : أتاك عدو الله فنفخ فيك فأجبتيه ، ويحك أرايت ما تبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة ، من أنعم به علينا ؟ قالت : الله ، قال : فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : فمذكم ابتلانا الله بهذا البلاء ؟ قالت : منذ سبع سنين ، قال : ويحك ، والله ما عدلت ولا أنصفت ربك ، ألا صبرت في هذا البلاء الذي ابتلانا به ربنا ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ؟ والله لئن شفى الله لأجلدتك مئة جلدة كما أمرتيني أن أذبح لغير الله تعالى ، وطعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام لأذوق مما تأتيني به شيئا بعد أن قلت هذا ، فاعزبي عني لأراك فطردها فذهبت . فلما رأى أيوب امرأته قد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر لله ساجدا وقال : (رب إني مستي الضر) ثم رد الأمر إلى ربه وسلم فقال : (وأنت أرحم الراحمين) فقيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك (اركض برجلك) الآية ، فركض برجله فنبعت عين ماء ، فاغتسل فلم يبق من دائه شيء ظاهر إلا سقط أثره ، وأذهب الله منه كل ألم وداء وكل سقم ، وعاد إليه شباباه وجماله أحسن مما كان وأفضل مما مضى . ثم إنه ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق في جوفه داء إلا خرج ، فقام صحيحا وكسى حلة . قال : فجعل يلتفت يمينا ويسارا فلا يرى شيئا مما كان له من أهل وولد ومال إلا وقد ضاعفه الله تعالى ، فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم إن

امراته قالت : أرأيت إن كان قد طردني إلى من أكله ؟ أأدعه حتى يموت جوعا وعطشا
ويضيع فتأكله السباع ؟ فوالله لأرجعن إليه ، فرجعت فلم تر الكناسة ولا الحمال التي كانت
تعهدا وقد تغيرت الأمور ، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وأيوب ينظرها :
قال : وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأله ، فأرسل إليها أيوب فدعاها وقال لها : ما
تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أريد ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على هذه الكناسة
لا أدري أضاع أم ماذا فعل به ؟ فقال أيوب عليه السلام : ما كان منك ؟ فبكت وقالت :
بعلی فهل رأيتہ ؟ فقال : وهل تعرفينه إذا رأيتہ ؟ قالت : وهل يخفى على ؟ ثم إنها جعلت
تنظر إليه وهي تهابه ، وقالت : أما إنه كان أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحا ، قال :
فأنا أيوب أمرتني أن أذبح لإبليس ، فإني أطعت الله وعصيت الشيطان فرد علي ما ترين .
وقال كعب : كان أيوب في بلائه سبع سنين ، وقال وهب : لبث في ذلك البلاء ثلاث
سنين لم يزد يوما واحدا ، فلما غلب أيوب إبليس لعنه ولم يستطع له على شيء ، اعترض
امراته على هيئة ليست كههيئة بنى آدم في العظم والجسم والجمال على مركب لبس من مراكب
الناس ، له عظم وبهاء وجمال ، فقال لها أنت صاحبة أيوب المبتلى ؟ قالت نعم ، قال : فهل
تعرفيني ؟ قالت لا ، قال : أنا إله الأرض وأنا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت ،
وذلك أنه عبد إله السماء وتركني وأغضبني ، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليكما
ما كان لكما من مال وولد فإنهم عندي ، ثم أراها إياهم في بطن الوادي الذي لقيها فيه .
قال وهب : وقد سمعت أنه قال لها : لو أن صاحبك أكل طعاما لم يسم عليه لعوفي
مما هوفيه من البلاء ، والله أعلم . وأراد عدو الله أن يأتيه من قبلها . ورأيت في بعض الكتب
أن إبليس قال لرحمة : وإن شئت اسجد لي سجدة واحدة حتى أرد عليك الأولاد والمال
وأعافى زوجك ، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراد ، فقال : لقد أراد عدو
الله أن يفتنك عن دينك . ثم إن أيوب أقسم إن عافاه الله ليضربها مئة جلدة ، فقال ،
عند ذلك : مسني الضر من طمع إبليس في سجود حرمتي له ودعائه إياها وإيأى إلى الكفر .
قالوا : ثم إن الله تعالى رحم رحمة امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عنها ، وأراد
أن يبرئ يمين أيوب ، فأمره أن يأخذ جماعة من الشجر مبلغ مئة قضيب خفافا لطافا فيضربها
ضربة واحدة ، كما قال تعالى (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ) الآية ،
وقد كانت امرأة أيوب تتكسب وتعمل للناس وتجيئه بقوته ، فلما طال عليها البلاء وسئمتها
الناس فلم يستعملها أحد ، التمست يوما من الأيام ما تطعمه فما وجدت شيئا فجزت قرنا
من رأسها فباعته برغيف وأتته به ، فقال لها : أين قرنك ؟ فأخبرته فقال عند ذلك : مسني
الضر . وقيل إنما قال ذلك حين قصدت الدود قلبه ولسانه ، فخشي أن يعيا عن الذكر
والفكر . وقيل إنما قال ذلك حين وقعت الدودة من فخذه فأخذها وردها إلى موضعها وقال
لها : كلي فقد جعلني الله طعامك ، فعضته عضه زاد ألمه على جميع ما قاسى من عض الديدان

وقال عبد الله بن عمر : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران على الدنو منه من نين ريحه ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم في أيوب خيرا ما ابتلاه بما ترى : قال : فما سمع أيوب شيئا كان أشد عليه من تلك الكلمة ، وما جزع من شيء أصابه جزعه من تلك الكلمة ، فعند ذلك قال : مسنى الضر ، ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة شبعان قط ، وأنا أعلم بمكان جائعا ، فصدقتني فصدقه وهما يسمعان ، ثم قال اللهم إن كنت تعلم أني لم أتخذ قبصا قط وأنا أعلم بمكان عريانا فصدقتني فصدقه وهما يسمعان ، فخر ساجدا لله . . . وقيل معناه : مسنى الضر من شماتة الأعداء ، يدل عليه ما روى أنه قيل له بعد ما عوفى : ما كان أشد عليك في بلائك ؟ فقال : شماتة الأعداء ، وأنشد بعضهم في معناه :

كل المصائب قد تمر على الفتي فهون غير شماتة الحساد
إن المصائب تنقضي أيامها وشماتة الأعداء بالمرصاد

وقال الجنيدي : في هذه الآية عرفه فاقه السؤال لئلا يبين عليه بكرم النوال ، وذلك قوله تعالى (فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ) الآية .
واختلف العلماء في كيفية ذلك ، فقال قوم : لما ابتلى الله أيوب في الدنيا مثل له أهله ، فأما الذين هلكوا فإنهم لم يردوا عليه في الدنيا ، وإنما وعد الله أيوب أن يؤتبه إياهم في الآخرة . وقال وهب : كان له سبع بنات وثلاث بنين . وقال آخرون : بل ردهم الله تعالى إليه بأعيانهم ، وأعطاه أهله ومثلهم معهم ، وهذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة وكعب ، قالوا : أحياهم الله تعالى وآتاه مثلهم ، وهذا القول أشبه بظاهر الآية .
وذكر : أن عمر أيوب كان ثلاثا وتسعين سنة ، وأنه أوصى عند موته إلى ابنه حومل ، وأن الله بعث بعده بشر بن أيوب نبيا وسماه ذا الكفل وأمره بالدعاء إلى توحيديه وأنه كان مقبلا بالشام طول عمره حتى مات ، وكان مبلغ عمره خمسا وتسعين سنة ، وأن بشرا أوصى ابنه عبدان ، وأن الله تعالى بعث بعده شعيبا عليه السلام ، والله أعلم .

مجلس : في قصة ذي الكفل عليه السلام

هذا المجلس يأتي بعد في آخر الكتاب بعد قصة اليسع ، وما كتب ههنا زيادة في المجلس المذكور .

روى الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث أن نبيا من الأنبياء قال : من يكفل لي أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟ فقام شاب فقال أنا ، فقال له اجلس ، ثم إنه أعاد مثل قوله الأول ، فقام ذلك الشاب ، فقال ، أنا فقال له اجلس ؛ ثم إنه أعاد قوله ثالثا ، فقال الشاب أنا ، فقال له : تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضب ؟

قال نعم ؛ فمات ذلك النبي فجلس ذلك الشاب مكانه يقضي بين الناس ، فكان لا يغضب ، فجاء الشيطان في صورة إنسان ليغضبه وهو صائم يريد أن يفطر ، فضرب الباب ضربا شديدا ، فقال : من هذا ؟ فقال : رجل له حاجة ، فأرسل إليه رجلا . فقال : لا أرضى بهذا الرجل ، فأرسل معه آخر ، فقال : لا أرضى فخرج إليه فأخذ بيده وانطلق معه ، حتى إذا كان في السوق خلاه وذهب ، فسمى ذا الكفل .

وقال بعضهم : ذو الكفل بشر بن أيوب الصابر بعثه الله بعد أبيه رسولا إلى أرض الروم فأمنوا به وصدقوه واتبعوه ، ثم إن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا : يا بشر إنا نحب الحياة ونكره الممات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله تعالى ورسوله ، فلو سألت الله أن يطيل أعمارنا ولا يميتنا إلا إذا شئنا ونعبده ونجاهد أعداءه ، فقال لهم بشر : لقد سألتوني عظيما وكلفتموني شظطا ، ثم إنه قام وصلى ودعا وقال : إلهي أمرتني بتبليغ الرسالة فبلغتها ، وأمرتني أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أني لا أملك إلا نفسي ، وإن قومي قد سألتوني في ذلك ما أنت أعلم به مني ، فلا تؤاخذني بجريرة غيري ، فأنا أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك . قال فأوحى الله تعالى إليه : يا بشر إني سمعت مقالة قومك ، وإني قد أعطيتهم ما سألتوني ، طولت أعمارهم ، فلا يموتون إلا إذا شاءوا ، فكن كفيلا لهم مني بذلك ، فبلغهم بشر رسالة الله ، وأخبرهم بما أوحى الله إليه وتكفل لهم بذلك كما أمر الله تعالى ، فسمى ذا الكفل ، ثم إنهم توالدوا وكثروا ونموا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنغصت معيشتهم وتأذوا بكثرتهم ، فسألوا بشرا أن يدعو الله أن يردهم إلى آجالهم فأوحى الله تعالى إلى بشر : أما علم قومك أن اختياري لهم خير من اختيارهم لأنفسهم ؟ ثم إنهم ردوا إلى أعمارهم فماتوا بآجالهم . قال : فلذلك كثرت الروم حتى يقال : إن الدنيا دارهم خمسة أسداسها للروم ، وسموا روما لأنهم نسبوا إلى جدتهم روم ابن عيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام . قال وهب : وكان بشر بن أيوب المسمى ذا الكفل مقبلا بالشام حتى مات ، وكان عمره خمسا وتسعين سنة ، والله أعلم .

مجلس : في ذكر قصة شعيب النبي عليه السلام

قال الله تعالى (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شَعِيبًا) الآية ، اختلف العلماء في نسب شعيب ، فقال أهل التوراة : هو شعيب بن صيفون بن عيفا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم ، وقال محمد بن إسحق : هو شعيب بن مكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم واسمه بالسريانية يثرون ، وأمه مكيل ابنة لوط ، وكان شعيب عليه السلام أعمى ، فذلك قوله تعالى إخبارا عن قومه (وَإِنَّا لَنَرُّكَ فَيِّنًا ضَعِيفًا) أي ضريرا ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وإن الله تعالى بعثه نبيا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة ، والأبيكة : الشجر الملتف .

وقال قتادة : بعثه الله تعالى إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة . قالوا : وكان قوم شعيب أهل كفر بالله وبخس للناس وتطيف في المكاييل والموازين ، وكان الله قد وسع لهم في الرزق وبسط لهم في العيش استدراجا منهم ، فقال لهم شعيب (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقضوا المكاييل والميزان) الآية ، ونظيرها في الأعراف (فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم) الآية ، وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيخبرون من قصد شعيبا ليؤمن به إنه كذاب ، فلا يفتنك عن دينك ، وكانوا يتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم .

قال السدي وأبو روق : كانوا عشارين . قال عبد الله بن زيد : كانوا يقطعون الطريق . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أُسرى بي خشبة على الطريق لا يمر بها ثوبٌ أحدٍ إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقته ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ فقال هذا مثل أقوامٍ من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا (ولا تقعدوا بكل صراطٍ توعدون) الآية ، وكان من قول شعيب وجواب قومه إياه ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء .

قال المفسرون : وكان مما نهام عنه شعيب وعذبوا لأجله قطع الدنانير ، وذلك قوله تعالى (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرُك أن نترك ما يعبد آباؤنا) إلى قوله (الحكيم الرشيد) أي السفية الغاوى ، وهو على الضد كما يقال للحبشي أبو البيضاء ، وكقوله تعالى « رذق إنك أفت العزيز الكبير » .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان شعيب كثير الصلاة ، فلما كثر فسادهم وقل صلاحهم دعا عليهم فقال (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) فأجاب الله تعالى دعاءه فيهم ، فأهلكهم بالرجفة ، وهي الزلزلة ، عن الكلبي ، ويقال بالصيحة وبعباب الظلّة .

قال ابن عباس وغيره : وهي أن الله تعالى فتح عليهم بابا من أبواب جهنم ، فأرسل عليهم بردا وحرا شديدا فأخذوا بأنفاسهم ، فدخلوا في أجواف البيوت ، فلم ينفهم ظل ولا ماء ، فأنصجهم الحر فخرجوا هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلمت ، ووجدوا لها بردا وجاءت ريح طيبة ، فنادى بعضهم بعضا ، فلما اجتمعوا تحت السحابة أهبها الله عليهم نارا ورجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقل فصاروا رمادا ، وذلك قوله تعالى (فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يكنوا فيها) وقال تعالى (فأخذهم عذاب يوم الظلّة إنه كان عذاب يوم عظيم) .

قال ابن عباس: بلغني أن رجلا من أهل مدين يقال له عمرو بن جلتهم لما رأى الظلة فيها العذاب اقشعرَّ جلده ، وقال :

يا قوم إن شعيبا مرسل فلدروا عنكم شميرا وعمران بن شداد
إني أرى غيمة يا قوم قد طلعت تدعو بصوت على حنانة الوادي
فإنه لن يرى فيها ضحاء غد إلا الرقيمُ بمشي بين أنجاد

وشمير وعمران: كاهنان لهم، والرقيم كلب لهم. قال: أبو عبد الله البجلي: أبو جاد وخطي وهوز وكلمن وسعفص وقرشت: أسماء ملوكهم، وكان ملكهم يوم الظلة في زمن شعيب كلمن، فقالت أخت كلمن تبكيه حين هلك:

كلمن هدد ركني هلكه وسط المحلة

سيد القوم أتاه السحتف نارا وسط ظلة

جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحلة

قال الله تعالى (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا مِنَّمُ الْخَاسِرِينَ) أي لهم الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة.

مجلس في ذكر صفي الله ونجيه موسى بن عمران عليه السلام

وهو يشتمل على أبواب

الباب الأول في ذكر نسب موسى عليه السلام

قال الله تعالى (واذكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) وهو موسى بن عمران بن بصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام. قال أهل العلم بأخبار الأولين وسير الماضين: ولد ليعقوب لاوي، وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة، ثم إن لاوي نكح نابتة بنت ماوي بن يشجب، فولدت له غرسون ومرزى ومردى وقاهث، ثم إن قاهث بعد أن مضى له من عمره ست وأربعون سنة نكح قاهى بنت ميين ابن تنويل بن إلياس، فولدت له بصهر بن قاهث، فنكح يشهر بن قاهث سميت بنت يتادم ابن برشيا بن يشعان بن إبراهيم، فولدت له عمران، وقد مضى له من عمره ستون سنة، وكان عمر بصهر مئة وسبعا وأربعين سنة فنكح عمران بن بصهر نجيب بنت شمویل بن برشيا ابن يشعان بن إبراهيم، فولدت له هارون وموسى. واختلف في اسم أمهما، فقال ابن إسحق: نجيب. وقيل ناجية، وقيل يوخايل، وهو المشهور، وكان عمر عمران مئة وسبعا وثلاثين سنة، وولد له موسى عليه السلام، وقد مضى من عمره سبعون سنة، والله أعلم.

الباب الثاني: في ذكر مولد موسى عليه السلام

قال أهل التاريخ: لما مات الريان بن الوليد فرعون مصر الأول صاحب يوسف عليه

السلام ، وهو الذي ولي يوسف خزائن أرضه وأسلم على يده ، فلما مات ملك بعده قابوس ابن مصعب صاحب يوسف الثاني ، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى وكان جبارا ، وقبض الله يوسف في ملكه وطال ملكه ، ثم هلك وقام بالملك بعده أخوه أبو العباس بن الوليد بن مصعب بن الريان بن إراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان أغنى من قابوس وأكبر وأفجر ، وامتدت أيام ملكه ، وأقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام وقد انتشروا وكثروا ، وهم تحت العمالقة ، وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحق وإبراهيم شرعوا فيه من الإسلام متمسكون به حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه وقد ذكرنا اسمه ونسبه ، ولم يكن فيهم فرعون أعنى على الله ولا أعظم قولا ولا أقسى قلبا ولا أطول عمرا في ملكه ولا أسوأ ملكا لبنى إسرائيل منه ، وكان يعذبهم ويستعبدهم ، وجعلهم خدما وخنولا ، وصنفهم في أعماله ، فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ، وصنف يتولون الأعمال القذرة ، ومن لم يكن أهلا للعمل فعليه الجزية كما قال الله تعالى (يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) وقد استنكح فرعون منهم امرأة يقال لها آسية بنت مزاحم رضي الله عنها من خيار النساء المعدودات ، ويقال : هي آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول ، فأسلمت على يد موسى . قال مقاتل : لم يسلم من أهل مصر إلا ثلاثة : آسية وحزقييل ومريم بنت تاموسى التي دلت موسى على قبر يوسف عليه السلام . قالوا : فعمر فرعون فيهم وهم تحت يده عمرا طويلا ، يقال إنه أربع مئة سنة يسومهم سوء العذاب ، فلما أراد الله أن يفرج عنهم بعث موسى عليه السلام ، وكان بدء ذلك على ما ذكره السدى عن رجاله أن فرعون رأى في منامه كأن نارا قد أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقته وأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل ، فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين فسألهم عن رؤياه فقالوا : يولد في بنى إسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك ، وقد أظلك زمانه الذي يولد فيه ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بنى إسرائيل ، فجمع القوابل من النساء من أهل مملكته وقال لمن : لا يسقط على أيديكم غلام من بنى إسرائيل إلا قتلته ولا جارية إلا تركتها ووكل بهن وكلاء ، فكن يفعلن ذلك .

قال مجاهد : لقد بلغنى أنه كان يأمر بالقصب فيشق ثم يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بالحبالى من بنى إسرائيل فيوقفن عليه فتجرح أقدامهن حتى إن المرأة منهن لتضع ولدها فيقع بين رجلها ، فتظل تطؤه وتتقى به حد القصب عن رجلها لما بلغ من جهدها . وكان يقتل الغلمان الذين في وقته ، ويقتل من يولد بعدهم ، ويعذب الحبالى حتى يضعن ما في بطونهن ، وأسرع الموت في مشيخة بنى إسرائيل ، فدخل رعووسر

القبط على فرعون وقالوا له : إن الموت قد وقع في مشايخ بني إسرائيل وأنت تذبح صغارهم وتميت كبارهم ، فيوشك أن يقع العمل علينا ، فأمر فرعون بذبح الولدان سنة وتركهم سنة ، فولد هرون في السنة التي لا يذبح فيها أحد فترك ، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها . قال : فولدت هرون أمه علانية آمنة ، فلما كان في العام الذي أمر فيه بقتل الولدان حملت بموسى ، فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه واشتد غمها ، فأوحى الله تعالى إليها (أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) إلى قوله (المرسلين) فلما وضعته في خفية أرضعته ، ثم إنها اتخذت له تابوتا ، وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه . قال مقاتل : وكان الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون ، وقيل إنه كان من بردى ، فاتخذت أم موسى التابوت وجعلت فيه قطنا ملحوجا ، ووضعت فيه موسى وصرت رأسه ثم ألقته في النيل . فلما فعلت ذلك وتوارى عنها أتاها الشيطان فوسوس إليها ، فقالت في نفسها : ماذا صنعت يا بنى لو ذبح عندي ، وواربته وكفنته كان أحب إلى من أن ألقيه بيدي في البحر وأدخله إلى دواب البحر ، ثم عصمها الله تعالى وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون إلى روضة هي مستى جوارى فرعون ، وكان بالقرب منها نهر كبير في دار فرعون داخل في بستانه ، فخرجت جوارى فرعون يغتسلن ويستقنن ، فوجدن التابوت ، فأخذنه وظنن أن فيه مالا ، فحملنه على حالته حتى أدخلنه إلى آسية ، فلما فتحت رأت فيه الغلام ، فألقى الله تعالى عليها محبة منه فرحمته آسية وأحبهت حبا شديدا . فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا على آسية بشفارهم ليدبحوا الصبي ، فقالت آسية للذباحين : انصرفوا فإن هذا لا يزيد في بنى إسرائيل فأنا آتى فرعون وأستوهبه إياه ، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم ، وإن أمركم بذبحه فلا ألومكم ، ثم إنها أتت به فرعون وقالت : (قرّة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا) فقال فرعون قرّة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى يخلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرّة عين كما أقرت لهده الله تعالى به كما هدى به امرأته ، ولكن الله تعالى حرّمه ذلك ، قال : فأراد أن يذبحه وقال : إني أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل ، وأن يكون هذا الذى هلاكنا على يده وزوال ملكنا ، فلم تزل آسية تكلمه حتى وهبه لها ، فلما آمنت آسية أرادت أن تسميه باسم اقتضاد حاله ، فسمته موسى ، لأنه وجد بين الماء والشجر ، وهو بلغة القبط : مو : الماء ، وشى : الشجر ، فعرب فقيل : موسى .

أخبرنا ابن فتحويه ، أخبرنا مخلد بن جعفر ، أخبرنا الحسن بن علوية ، أخبرنا إسماعيل ابن عيسى ، أخبرنا ابن بشير ، أخبرني جوير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال :

إن بنی اسرائیل لما کثروا ، مصر استظالوا علی الناس و عملوا بالمعاصی ، ووافق خیارهم أشرارهم ، ولم یأمروا بالمعروف ولم ینهوا عن المنکر ، فسلط الله علیهم القبط فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب ، فذبحوا أبناءهم . قال : وقال أبو الیاس قال وهب : بلغنی أنه ذبح فی طلب موسی سبعون ألف ولد .

قال إسحاق عن ابن عباس : إن أم موسی لما قاربت ولادتها وكانت قابلة من القوایل الی وکلهن فرعون بحبالی بنی اسرائیل مصافیة لأم موسی ، فلما ضربها الطلق أرسلت إلیها أم موسی فقالت : نزل بی ما نزل فلینفعی حبک إیای ، فقالت لها نعم ، فعالجت قبالها ، فلما وقع موسی علی الأرض أضاء لها نور بین عینی موسی ، فارتعش کل مفصل منها ودخل حب موسی فی قلبها ، ثم قالت لها : یا هذه ما جئت إلیک حین دعوتینی إلا وفی رأی قتل ولدک وإخبار فرعون بذلك ، ولكن وجدت لابنک هذا حبا ما وجدت حب شیء مثله ، فاحتفظی بابنک فإنی أراه هو عدونا . فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العیون ، فجاء إلی بابها لیدخل علی موسی ، فقالت أخته : یا أماه هذا الحرس بالبواب ، فطاش عقلها ، فلم تعقل ما تصنع به خوفا علی موسی ، فلفت موسی فی خرقة وألقته فی التنور وهو مسجور ، وكان ذلك إلهاما من الله تعالی لها ، لما أراد الله بعبده موسی ، فدخلوا فإذا التنور مسجور وأم موسی لم یتغیر لها لون ولم یظهر لها لبن ، فقالوا لها : ما أدخل علیک هذه القابلة ، قالت : هی مصافیة لی فدخلت علی زائرة ، فخرجوا من عندها ورجع إلیها عقلها ، فقالت أخت موسی : ابن الصبی ؟ قالت : لأدری ، فسمعت بكاء الصبی فی التنور فانطلقت فوجدته قد جعل الله تعالی علیه النار بردا وسلاما فاحتملته .

قال إسحاق بن بشر عن جویبر ومقاتل عن الضحاک عن ابن عباس قال : ثم إن أم موسی لما رأت إلحاح فرعون فی طلب الولدان خافت علی ولدها ، فقذف الله فی نفسها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذفه فی الیم وهو النیل ، فانطلقت إلی رجل نجار من أهل مصر من قوم فرعون فاشترت منه تابوتا صغیرا ، فقال لها النجار : ما تصنعین بهذا التابوت ؟ فقالت : أخبأ فیہ ابنا لی : وكرهت أن تکذب ، قال : ولم ؟ قالت : أخشى کید فرعون ، قال : فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت انطلق النجار إلی الذباحتین لیخبرهم بأمرها ، فلما هم بالكلام أمسک الله لسانه فلم ینطلق ، فجعل یشیر بیده ، فلم تدر الأمناء ما یقول ، فلما أعیاهم أمره قال کبرهم : اضربوه ، فضربوه وأخرجوه . فلما انتهى النجار إلی موضعه رد الله عایه لسانه فتکلم ، فانطلق أيضا یرید الأمناء فأتاهم لیخبرهم ، فأخذ الله تعالی بلسانه وبصره ، فلم یطق الکلام ولم یبصر شیئا ، فضربوه وأخرجوه ، فوقع فی واد یهوی فیہ حیران ، فأشهد الله تعالی علیه إن رد له لسانه وبصره أن لا یدل علیه ، وأن یکون معه یحفظه حیثما کان ، فعلم الله منه الصدق فرد علیه لسانه وبصره ، فخر لله ساجدا ، وعلم أن ذلك من

الله تعالى فأمن به وصدقته . فانطلقت أم موسى به وألقته في البحر ، وذلك بعد ما أرضعته ثلاثة أشهر ، وكان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها ، وكانت من أكرم الناس عليه ، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إليه ، وكان بها برص شديد ، وكان فرعون قد جمع لها الأطباء من مصر والسحرة ، فنظروا في أمرها فقالوا له : أيها الملك إنا لانرى بُرءَها إلا من قبل البحر ، شيء يؤخذ منه شبه الإنسان ، فيؤخذ من ريقه ويلطخ به برصها فتبرأ من ذلك ، وذلك في يوم كذا وكذا من شهر كذا وكذا في ساعة كذا وكذا حين تشرق الشمس . فلما كان في يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس له كان على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم ، وأقبلت بنت فرعون وجواريتها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريتها يتلاعبن وينضحن الماء على وجوههن ، فبينما هن على ذلك إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج . فقال فرعون : إن هذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجر ، اثتوني به ، فابتدروه من كل جانب بالسفن حتى وضعوه بين يديه ، فعالجوا فتح الباب فلم يقدرُوا عليه ، وعالجوا كسره فلم يقدرُوا ، فدنت منه آسية فرأت في جوف التابوت نورا لم يره غيرها للأمر الذي أراد الله تعالى من إكرامها وهدايتها ، فعالجته ففتحته ، فإذا هي بصبي صغير في مهده والنور بين عينيه ، وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمتص منها لبنا ، فألقى الله تعالى محبة موسى في قلبها ، وأحبه فرعون وعطف عليه ، وأقبلت بنت فرعون عليه ، فلما أخرجوه من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت ، فقبلته وضمته إلى صدرها ، فقالت الغواة من قوم فرعون : أيها الملك إنا نظن أن المولود الذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا ، ارم به في البحر أو اقتله ، فهم فرعون بقتله ، فاستوهبته منه آسية ، فوهبه لها ، ثم إنه قال سميه ، فقالت : قد سميته موسى لأنه وجد بين الماء والشجر .

قالوا : ثم إن أم موسى قالت لأختها . وكانت تسمى مريم : قصيه : أي اتبعي أثره واطلبيه ، هل تسمعين له ذكرا أحى هو أم قد أهلكته دواب البحر؟ ونسيت وعد الله ، فبصرت به عن جنب : أي عن بعد ، وهم لا يشعرون أنها أختها ، وكانت آسية قد أرسلت إلى من حولها من كل أنثى بها لبن لتختار له ظمرا تربي موسى ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى أشفقت آسية أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق لتجتمع عليه الناس ترجو أن تصيب له ظمرا يقبها ويأخذ ثديها ويرضع منها ، فلم يقبل ثدي امرأة ، فذلك قوله عز وجل (وحرّمنا عليه المراضع من قبل) فقالت أخت موسى حين أعياهم أمره وأعياء الظنورة (همل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) فأخذوها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له ، ولعلك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله ، فقالت : ما أعرفهم وإنما نصحهم له وشفقتهم عليه من أجل رغبتهم في ظنورة الملك ورجاء منفعة فركوها ، فانطلقت

إلى أمه فأخبرها بالخبر ، فأتت ، فلما وضعت على ثديها في حجرها نزل اللبن من ثديها حتى ملأ جنبيه ، فانطلق البشير إلى آسية يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظمرا ، فأرسلت إليها فأتى بها ، فلما رأت ما يصنع بها قالت لها : امكثي عندي ترضعي ابني هذا ، فإنني لم أحب شيئا مثل حبه قط ، فقالت : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيعوا ، فإن طابت نفسك أن تعطيني فإذهب به إلى بيتي وولدي ، فيكون معي ولا أولى له إلا خيرا فعلت ، وإلا فإنني غير تاركة بيتي وولدي ، فتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله سبحانه وتعالى منجز وعده ، فرجعت بابنها إلى بيتها من وقتها .

وقيل : كانت غيبة موسى عن أمه ثلاثة أيام ، ثم رده الله إليها ، وذلك قوله عز وجل (فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) فلما جاءت به أمه إلى بيتها كادت تقول هو ابني فعصمها الله عز وجل ، فذلك قوله تعالى (إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه .

فلما ترعرع قالت آسية لأم موسى : أحب أن تربي ابني ، فوعدها يوما تربيها إياديه ، فقالت آسية لخواصها وقهارمتها : لا يبي منكن واحدة إلا استقبلت ابني بهدية وكرامة ، فإنني باعته بأمانة تحصى ما تصنع كل قهرمانه منكن ، فلم تزل الهدايا والتحف تستقبله من وقت أن أخرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما أن دخل عليها أكرمه وفرحت به وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ، ثم قالت لها : انطلقى به إلى فرعون ليكرمه ، فلما دخلت به على فرعون أخذه ووضعته في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون حتى جذبها وشتف منها بعض شعرات ، وكان فرعون طويل اللحية ، ويقال إنه لطم وجهه . وفي بعض الروايات : أنه كان يلعب بين يدي فرعون ويبيده قضيب صغير فضرب به على رأس فرعون ، فغضب غضبا شديدا وتطير منه ، وقال هذا عدوى المطارب ، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، فبلغ ذلك امرأة فرعون ، فجاءت تسعى إلى فرعون وقالت له : ما بدا لك في هذا الصبي الذي قد وهبته لي ؟ فأخبرها بما فعل موسى ، فقالت له : إنما هو صبي لا يعقل ، وإنما صنع هذا من صباه ، وأنا أجعل فيه بيني وبينك أمرا تعرف به الحق وأضع له حليا من الذهب والياقوت وأنميع له جمر ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه ، وإن أخذ الجمره علمت أنه صبي . ثم إنها وضعت له طستا فيه الذهب والياقوت ، وطستا آخر فيه الجمره ، فد موسى يده على أن يأخذ الجوهر ليقبض عليه ، فحوّل جبريل عليه السلام يده إلى الجمره فقبض على جمره ووضعها في فيه ، فجاءت على لسانه فأحرقتة ، وذلك الذي قال في قوله تعالى (وَاحْتُلِلَ عُنُقُهُ مِّنْ لِّسَانِهِ بِفَقْهٍ قَوْلِي) فقالت له آسية : ألا ترى إلى فعله وأنه صبي لا يعقل فكف عن قتله ، وصرف الله عنه ذلك السوء ، فلم

يُزَلُّ عَزِيْزًا مُّكْرَمًا فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَحَبِيْبُهُ اللهُ اِلَيْهِ وَاِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ حَتَّى كَانَتْ بِجَبْهَةِ كُلِّ مَنْ يَرَاهُ :

وَيُرْوَى اَنْهُ سَأَلَ اِبْلِيسَ : هَلْ اُحِبُّبْتَ اَحَدًا مِنَ الْعَالَمِيْنَ ؟ قَالَ : لَا اِلَّا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقِيْلَ لَهُ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : لِاَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ (وَالْقَبِيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّثْنِي) فَلَمْ اَتَمَّاكْ اَنْ اُحِبُّبْتَهُ .

الباب الثالث : فِي ذِكْرِ حَلِيَّةِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

قَالَ كَعْبُ الْاَحْبَارِ : كَانَ هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ نَبِيَّ اللهِ رَجُلًا فَصِيْحَ اللِّسَانِ بَيْنَ الْكَلَامِ ، اِذَا تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ بِتَوْدَةٍ وَعِلْمٍ ، وَكَانَ اطْوَلَ مِنْ مُوسَى ، وَكَانَ عَلٰى رَاسِهِ شَامَةٌ وَعَلٰى طَرَفِ لِسَانِهِ اَيْضًا شَامَةٌ سَوْدَاءٌ ، وَكَانَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ رَجُلًا اَدَمَ اللَّوْنِ جَعْدًا طَوِيْلًا كَاَنَّهُ مِنْ رِجَالِ اَزْدِ شَنْوَةَ ، وَكَانَ بِلِسَانِ مُوسَى عَقْدَةٌ وَثِقَلٌ وَسُرْعَةٌ وَعَجَلَةٌ ، وَكَانَ اَيْضًا عَلٰى طَرَفِ لِسَانِهِ شَامَةٌ سَوْدَاءٌ .

الباب الرابع : فِي قِصَّةِ قَتْلِ الْقِبْطِيِّ وَخُرُوجِهِ مِنْ مِصْرَ وَوُرُودِهِ بِمَدِيْنَةِ

قَالَ اَهْلُ التَّفْسِيْرِ : لَمَّا بَلَغَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ اَشْدَّهُ كَانَ يَرْكَبُ مَرَاكِبَ فِرْعَوْنَ ، وَيَلْبَسُ مَا يَلْبَسُ فِرْعَوْنَ ، وَكَانَ يَدْعِيْ مُوسَى بْنَ فِرْعَوْنَ ، وَامْتَنَعَ بِهِ عَنْ بَنِي اِسْرَائِيْلَ كَثِيْرًا مِنَ الظُّلْمِ وَالسِّخْرِ الَّتِي كَانَتْ فِيْهِمْ ، وَلَا يَعْلَمُ النَّاسُ اَنْ ذَلِكَ اَتَى اِلَّا مِنْ قَبْلِ الرِّضَاعَةِ ، قَالُوْا : فَرَكِبَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ مَّرْكَبًا وَوَلِيْسَ عِنْدَهُ مُوسَى ، فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى قِيْلَ لَهُ اِنْ فِرْعَوْنَ قَدْ رَكِبَ ، فَرَكِبَ مُوسَى فِيْ اَثَرِهِ ، وَاَدْرَكَهُ الْمَقِيْلُ بِاَرْضِ يَمَنٍ ، فَدَخَلَهَا نِصْفَ النَّهَارِ وَقَدْ اَغْلَقَتْ اَسْوَاقُهَا وَوَلِيْسَ فِيْ طَرَفِهَا اَحَدٌ ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيْهَا (وَدَخَلْنَا الْمَدِيْنَةَ عَلٰى حِيْنٍ غَفْلَةٍ مِّنْ اَهْلِهَا) فَبَيْنَمَا هُوَ يَمْشِيْ فِيْ نَاحِيَةِ الْمَدِيْنَةِ اِذَا هُوَ بِرَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، اَحَدُهُمَا مِنْ بَنِي اِسْرَائِيْلَ ، وَالْاٰخَرُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى (فَوَجَدَا فِيْهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ) الْاَيَّةُ ، وَالَّذِيْ مِنْ شِيعَتِهِ يُقَالُ لَهُ السَّامِرِيُّ ، وَالَّذِيْ مِنْ عَدُوِّهِ رَجُلٌ مِنَ الْقِبْطِ كَانَ خَبَازًا لِّفِرْعَوْنَ وَاسْمُهُ فَاتُونُ ، وَكَانَ قَدْ اشْتَرَى حَطْبًا لِلْمَطْبَخِ فَسَخَّرَ السَّامِرِيُّ لِيَحْمِلَهُ ، فَامْتَنَعَ السَّامِرِيُّ ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِ مُوسَى اسْتَغَاثَهُ السَّامِرِيُّ عَلٰى الْقِبْطِيِّ ، فَقَالَ مُوسَى لِلْقِبْطِيِّ دَعِهِ ، فَقَالَ الْخَبَازُ لِمُوسَى : اِنَّمَا اَخَذَهُ فِيْ عَمَلِ اَبِيْكَ ، وَاَبِيْ اَنْ يَخْلِيْ سَبِيْلَهُ ، فَغَضِبَ مُوسَى فَبَطَشَ بِهِ وَخَلَصَ السَّامِرِيُّ مِنْ يَدِهِ فَنَازَعَهُ الْقِبْطِيُّ فَوَكَّزَهُ مُوسَى فَقَتَلَهُ وَهُوَ لَا يَرِيْدُ قَتْلَهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَوَكَّزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) قَالَ (مُوسَى) (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ اِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِيْنٌ) ثُمَّ (قَالَ رَبِّ اِنِّيْ ظَلَمْتُ نَفْسِيْ فَاغْفِرْ لِيْ فَغَفَرَ لَهُ اِنَّهُ هُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ) .

وقال وهب : أوحى الله إلى موسى بن عمران : وعزتي وجلالي لو كانت النفس التي قتلت أقرت لي طرفة عين أني إله خالق رازق لأذقتك طعم العذاب ، وإنما عفوت عنك لأنها لم تقر لي ساعة واحدة أني إله خالق رازق .

قالوا : ولما قتل موسى القبطي لم يرهما إلا الله تعالى والإسرائيلي ، فلما قتله أصبح في المدينة خائفا يترقب الأخبار ، فأتوا فرعون وقالوا له : إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلا من آل فرعون ، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم في ذلك ، فقال فرعون : اثبتوني بقاتله ومن يشهد عليه ، لأنه لا يستقيم أن يقضى بغير بينة ، ولا يثبت ملك على الأخذ بالظلم فاطلبوا ذلك ، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة ، إذ مر موسى من الغد ، فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونيا ، فاستغاثه الإسرائيلي على قتال الفرعوني ، فصادف موسى ، وهو نادم على ما كان منه بالأمس ، فكره الذي رآه ، فغضب موسى فمد يده ، وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، وقال للإسرائيلي (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) ففر الإسرائيلي من موسى وظن أنه يبطش به من أجل أنه غلظ عليه في الكلام ، وكان غضبان ، فلما أقبل لنصره ومد يده ظن أنه يريد قتله ، فقال له (يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ) الآية ، وإنما قال ذلك مخافة من موسى ، وظن أن يكون موسى أرادته ولم يكن أرادته وإنما أراد الفرعوني ، فتنازعا ، فذهب الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي ، وذكر أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، وهو المثل السائر : العدو العاقل أحرى عليك من الصديق الأحمق ، وينشد في معناه :

إن اللبيب إذا تزايد بغضه أحرى عليك من الصديق الأحمق

قال : فلما أخبر فرعون بذلك أرسل الذباحين وأمرهم بقتل موسى ، وقال لهم : اطلبوه فإنه غلام لا يهتدي إلى الطريق ، فطلب موسى في ثنيات الطريق ، وكان موسى يسلك الطريق الأعظم ، فجاءه رجل من شيعته من أقصى المدينة ، يقال له حزقييل ، وكان على بقية من دين إبراهيم ، وكان أول من صدق بموسى وآمن به .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : سُبَّاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ : حِزْقِيلُ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَحَبِيبُ النَّجَّارِ صَاحِبُ يَسَّ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ بِالْجَنَّةِ ، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ .

قال : فجاء حزقييل مؤمن آل فرعون فأخبر موسى بما أمر به فرعون من قتله واختصر طريقا قريبا حتى سبق الذباحين إليه فأخبره الخبر ، فذلك قوله تعالى (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى) قال يا موسى إن الملائكة ياتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) فتحبر موسى ولم يدر أين يذهب ، فجاءه ملك على فرس بيده عترة فقال له اتبعني ، فاتبعه ، فهداه الطريق إلى مدين .

وروی عن سعید بن جبیر عن ابن عباس قال : خرج موسى من مصر إلى مدين وبينهما مسيرة ثمان ليال ، ويقال نحو من الكوفة إلى البصرة ، فلم يكن له طعام إلا ورق الشجر فما وصل إليها إلا وقد وقع خفّ قدمه ، وإن خضرة البقول ترى من بطنه .

الباب الخامس : في دخول موسى مدين ، وتزويج شعيب ابنته إياه

قالت العلماء : لما انتهى موسى إلى أرض مدين في ثمان ليال نزل في أصل شجرة وإذا تحتها بئر ، وهي التي قال الله تعالى فيها (ولما ورد ماء مدين متدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أي نجسان أغنامهما ، فقال لهما (ما خطبكما قالتا لانسقي حتى يصدّر الرعاء) لأننا امرأتان ضعيفتان لانقدر على مزاحمة الرعاء ، فإذا سقوا مواشيهم سقينا أغنامنا من فضول حاجتهم وما يبق من حياضهم (وأبونا شيخ كبير) تعنيان شعيبا .

وروی حماد بن سلمة عن أبي حمزة عن ابن عباس قال : اسم أبي امرأة موسى الذي استأجره ثبرون صاحب مدين ابن أخي شعيب النبي عليه السلام ، واسم إحدى الحاريتين ليا ويقال حنونا ، والأخرى صفورا ، وهي امرأة موسى عليه السلام ، فلما قالتا ذلك لموسى رحهما وكان هناك بئر على رأسها صخرة عظيمة ، وكان النفر من الرجال يجتمعون إليها حتى يرفعوها عن رأسها .

وحكى الأستاذ أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الواعظ أن تلك البئر غير التي تسقى منها الرعاء قال : وقد حضرتها ورأيتها ، قال : فرفع موسى الصخرة عن رأسها وأخذ دلوا لهما ، وقال لهما : قدما غنمكما فسقى لهما أغنامهما حتى أرواها ، فرجعنا إلى أبيهما سريعا قبل الناس ، وتولى موسى إلى الظل ظل الشجرة (وقال رب إني لما أنزلت إلى من خسير فقير) . قال ابن عباس : لقد قال ذلك موسى ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع لنظرها ، وما سأل الله تعالى إلا أكلة . وقال أبو جعفر محمد الباقر : لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمره . قالوا : فلما رجعتا إلى أبيهما قال لهما : ما أعجلكما وأسرع رواحكما الليلة ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا فرحمنا فسقى لنا أغنامنا ، فقال لإحدهما اذهبي فادعيه إلى ، فجاءته إحدهما وهي التي تزوجها موسى ، وهي تمشي على استحياء ، فقالت له : إن أبي يدعوك ليجزبك أجر ما سقيت لنا ، فقام موسى فتقدمته ، وهو يليها : أي يتبعها ، فهبت ريح فألصقت ثوب المرأة بردفها ، فكره موسى أن يرى ذلك منها : فقال لها موسى : امشي خلفي ودليني على الطريق ، فإذا أخطأت فارمي قدامي بحصاة حتى أتبع نهجا ، فإنني بعقوب لانظر إلى أعجاز النساء ، فنعمت له الطريق إلى منزل أبيها : ومشت خلفه حتى دخل على شعيب ، فسأل شعيب موسى عن حاله وقصته ، فأخبره الخبر ، فقال له : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، فقالت إحدهما وهي التي كانت

الرسول إلى موسى : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين .
قال النبي صلى الله عليه وسلم « أصدقُ النساءِ فِرَاسَةَ امْرَأَتَانِ كِلْتَاهُمَا تَفَرَّسَتَا
فِي مُوسَى فَاصْبَابَتَا : إِحْدَاهُمَا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنِ حِينَ قَالَتْ قِرَّةٌ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ،
وَالْأُخْرَى بِنْتُ شُعَيْبٍ حَيْثُ قَالَتْ (يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ) إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتِ
الْقَوِيَّ الْأَمِينُ) ، وَإِنَّمَا قَالَتِ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ لِأَنَّهُ أَزَالَ الْحَجَرَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا
أَرْبَعُونَ رَجُلًا ، فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا : هَبْكَ أَنْتِ عَرَفْتِ قُوَّتَهُ ، فَمَا أَعْلَمُكَ بِأَمَانَتِهِ ؟ فَأَخْبَرْتَهُ
بِمَا أَمَرَهَا مُوسَى مِنْ اسْتِدْبَارِهَا إِيَّاهُ فِي الطَّرِيقِ ، فَازْدَادَ فِيهِ شُعَيْبٌ رَغْبَةً ، فَقَالَ لَهُ (إِنِّي
أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ) إِلَى
قَوْلِهِ (مِنَ الصَّالِحِينَ) أَي فِي حَسَنِ الصَّحْبَةِ مَعَكَ وَالْوَفَاءِ بِشَرْطِكَ ، فَقَالَ مُوسَى (ذَلِكَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ) . . . الآية .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل « أي الأجلين قضى موسى ؟ قال :
أَكْلَهُمَا وَأَفْضَلَهُمَا » وروى أنه قال « قَضَى أَوْفَاهُمَا وَتَزَوَّجَ بِصُغْرَاهُمَا » .

الباب السادس : في ذكر نعت عصا موسى ، وبدء أمرها

اختلف العلماء في اسمها والمنافع التي كانت فيها وما ظهر من دلالة قدرة الله فيها . قالوا :
ثم إن شعيباً أمر ابنته أن تأتيه بعصا يعطيها موسى ، فيستعين بها في رعايته ، فجاءته بعصا
وكانت تلك العصا وديعة عنده دفعها إليه ملك على صورة رجل ، فردها عليها شعيب
وأمرها أن تأتيه بعصا أخرى ، فما زالت ترجع وتأتيه بها بعينها ، لأنها كلما ردتها إلى
مكانها وأرادت أن تأخذ غيرها سقطت هي في يدها ، فما زالت كذلك حتى أخذها شعيب
وأعطاهها موسى ، فلما أعطاهها إياه ندم على ذلك لأنها كانت وديعة عنده ، فقال له شعيب :
رد عليّ العصا ، فأبى أن يردها ، فتنازعا إلى أن شرطاً على أنفسهما أن يرتضيا حكم أول
رجل يدخل عليهما ، فأتاهما ملك يمشي فتحاكما إليه ، فقال : ضعها على الأرض فمن
حملها فهي له ، فوضعها موسى على الأرض فعالجها الشيخ فلم يطق حملها ، فأخذها موسى
بيده فرفعها ، فلما رأى شعيب ذلك تركها له . وفي رواية أخرى أن موسى لبث عند شعيب
ما شاء الله ثم استأذنه في الانصراف ، فأذن له وقال له : ادخل هذا البيت وخذ عصا من
العصي تكون معك تدرأ بها السباع عنك وعن غنمك ، وكانت عصي الأنبياء يومئذ عند
شعيب ، فلما دخل موسى البيت ، وثبت إليه العصا فصارت في يده ، فخرج بها ، فقال
له شعيب : ردها وخذ غيرها ، وذلك أن شعيباً كان قد أخبر بأمر العصا ، ولم يدر شعيب
أن صاحبها هو موسى ، فردها موسى إلى البيت فألقاها وذهب ليأخذ غيرها ، فوثبت حتى
صارت في يده ، ففعل ذلك مرارا ، فقال له شعيب : ألم أقل لك خذ غيرها ؟ فقال موسى :

قد رددتها مرات ، فكلما فعلت ذلك وثبت حتى تصير في يدي ، فعلم شعيب أن ذلك أمر يريد به الله تعالى ، فقال له : خذها .

قالوا : وزوجه ابنته ، ورعى له موسى عشر سنين ، وولد لموسى أولاد من ابنة شعيب . قالوا : لما خرج موسى من مدين ووافى مصر كان شعيب يزوره في كل سنة ، فإذا أكل قام موسى على رأسه ثم بكسر له الخبز ويلقيه بين يديه ويقول له كل .

وقال مقاتل : بل كان جبريل هو الذي دفع العصا إلى موسى وهو متوجه إلى مدين بالليل . قال كعب : لما قدم مكة عبد الله بن عمرو بن العاص قلت : سلوه عن ثلاث ، فإن أخبركم فإنه عالم ، سلوه عن شيء من الجنة وضعه الله للناس ، وعن أول ما وضع في الأرض ، وعن أول شجرة غرست في الأرض ، فسئل عنها ، فقال عبد الله : أما الشيء الذي وضعه الله للناس في الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود ، وأما أول ما وضع للناس في الأرض فبئر برهوت باليمن يردها أرواح الكفار ، وأما أول شجرة وضعها الله تعالى في الأرض فالعوسجة التي اقتطع منها موسى عصاه ، فلما بلغ ذلك كعبا قال : صدق الرجل . فعلى هذا القول إنما اقتطع موسى عصاه من تلك الشجرة ، فأظهر الله فيها قدرته ومعجزة موسى فيها .

وقال ابن عباس : كتب صاحب الروم إلى معاوية يسأله عن أربعة أشياء لم يركضوا في رحم ، فلما قرأ معاوية الكتاب قال : أخزاه الله وما علمى بها ههنا ، فقيل له : اكتب إلى ابن عباس فاسأله عن ذلك ، فكتب إليه يسأله عنها ، فكتب إليه ابن عباس في الجواب : أما الأربعة التي لم يركضوا في رحم : فآدم ، وحواء ، والكبش الذي فدى به إسماعيل ، وعصا موسى حيث ألقاها فصارت ثعباناً .

وقال أكثر العلماء : كانت عصا موسى من آس الجنة ، وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى ، حملها آدم من الجنة إلى الأرض ، فورثها الناس صاغراً عن كابر إلى أن وصلت إلى شعيب ، فأعطها موسى . واختلف العلماء في اسمها ؛ فقال سعيد بن جبير : اسمها ماسا . وقال مقاتل ابن سليمان : اسمها نفعة ، وقال ابن حبان : اسمها غياث ، وقال آخرون اسمها عليق .

الباب السابع : في صفة المآرب التي كانت فيها لموسى

قال أهل العلم بأخبار الماصين : كان لعصا موسى شعبتان ومخجن في أسفل الشعبتين وسانان حديد في أسفلها ، وكان موسى إذا دخل مفازة ليلاً ، ولم يكن قمر تضيء شعبتها كالشعبتين من نار تضيئان له مد البصر ، وكان إذا أعوزه الماء دلاها في البئر فتمتد على قدر قعر البئر ويصير في رأسها شبه الدلو ، فيستقي بها ، وإذا احتاج إلى الطعام ضرب الأرض بها فيخرج ما يأكل يومه ، وكان إذا اشتوى فأكهة من الفواكه غرسها في الأرض فتخرج

أغصان تلك الشجرة التي اشتبهى موسى فاكهتها وأثمرت له من ساعها ، ويقال : كانت عصا موسى من اللوز ، وكان إذا جاع ركزها في الأرض فأورقت وأثمرت وأطعمت ، وكان يأكل منها اللوز ، وكان إذا قابل بها عدوه يظهر على شعبتها تينان يقانلان ، وكان يضرب بها على الجبل الوعر الصعب المرتقى ، وعلى الحجر والشوك فتفرج له الطريق ، وكان إذا أراد عبور نهر من الأنهار بلا سفينة ضرب بها عليه فانفلق وبدا له فيه طريق منفرج ، وكان يشرب من إحدى شعبتها العسل ، ومن الأخرى اللبن ، وكان إذا أعبأ في طريقه ركبها فتحمله إلى أي موضع شاء من غير ركض ولا تحريك ، وكانت تدله على الطريق ، وكانت تقاتل أعداءه ، وكان إذا طلب منها الطيب فاح منها الطيب فيطيب ويطيب ثوبه ، وإذا كان في طريق فيه لصوص يخاف الناس جانبهم تكلمه العصا ، فتقول له : خذ جانب كذا وكذا ، ولا تأخذ حيث كذا وكذا ، وكان يهشُّ بها على غنمه ، ويدفع بها السباع عنها والحشرات والحيات ، وإذا سافر وضعها على عاتقه وعلق عليها جهازه ومتاعه ومخلاته ومقلاعه وكساءه وطعامه وشرابه . قال ابن حبان : قال شعيب لموسى حين زوجه ابنته وسلم إليه أغنامه يرعاها : اذهب بهذه الأغنام ، فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلاً بها أكثر فإن هناك تينا عظيماً أخشى عليك وعلى الأغنام منه ، فذهب موسى بالأغنام حتى إذا بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين ، فاجتهد موسى أن يصرفها ذات الشمال فلم تطعه ، فخلاها على ما تريده ثم نام موسى والأغنام ترعى ، وإذا التين قد جاء ، فقامت العصا فحاربتة فقتلته ، وأنت فاستلقت إلى جانب موسى وهي دامية ، فلما استيقظ موسى رأى العصا دامية والتين مقتولا ، فعلم موسى أن في تلك العصا قدرة وعرف أن لها شأنًا ، فهذه مآرب موسى إذا كانت في يده . وأما إذا ألقاها فیری أنها كانت تقلب حية كأعظم ما يكون من الثعابين سوداء ملهمة تدب على أربع قرآئم فتصير شعبتها قمًا وفيه اثنا عشر نابًا وضرسا لها صريف وصرير يخرج منها لهب النار ، ويصير محجتها عرفا لها كأمثال النار تلهب ، وعيناها تلمعان كما يلمع البرق ، تهب منها رياح السموم فلا تصيب شيئًا إلا أحرقتة ، تمر بالصخرة مثل الناقة الكوماء فتبتلعها ، حتى إن الصخور في جوفها لتقعقع ، وتمر بالشجرة فتقصمها بأنيابها وتحطمها وتبتلعها ، وجعلت تتلمظ وتبرم كأنها تطلب شيئًا تأكله ، وكانت تكون في عظم الثعبان وفي خفة الجان ولين الحية ، وذلك موافق لنص القرآن حيث يقول الله تعالى في مرضع (فإذا هي ثعبانٌ مُبينٌ) وفي موضع آخر (كأنها جانٌ) وفي موضع آخر (فإذا هي حيةٌ تسعى) .

الباب الثامن : في ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين ، وتكليم الله إياه

في الطريق ، وإرساله إلى فرعون ، واستعانه بأخيه هارون ، وكيفية

ذهابهما إلى فرعون لتبليغ الرسالة

قال الله عز وجل (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ) الآية . قالت العلماء بسير الأنبياء : لما ورد موسى أرض مدين ، وأتى عليه من يوم وروده تسع سنين ، قال له شعيب : إني وهبت لك كل بَلَقَاءٍ وَأَبْلَقٍ من نتاج أغنامي التي تضعها في هذه السنة : يعني السنة العاشرة : أراد بذلك مَبْرَةَ موسى وصلة ابنته صفورا امرأة موسى . قال : فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك الماء الذي في مستقى الأغنام ففعل موسى ذلك ، ثم منى الأغنام من ذلك الماء فما أخطأت واحدة من تلك الأغنام إلا وضعت حملها مرتين ما بين أبلق وبلقاء ، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وأهله ، فوفى موسى بشرطه وسلم إليه الأغنام التي وهبها منه وقضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ) منفصلا من أرض مدين ، وكان في أيام الشتاء ، ومعه امرأته وأغنامه ، وهي في شهرها لاتدرى أتضع ليلا أو نهارا ، فانطلق في برية الشام عادلا عن المدائن والعمران مخافة الملوك الذين كانوا بالشام ، وكان أكبر همه يومئذ طلب أخيه هرون وإخراجه من مصر إن استطاع إليه سبيلا . فسار موسى في البرية غير عارف بطرقها ، فألجأه المسير إلى جانب الطور الأيمن الغربي في عشية شاتية شديدة البرد ، وأظلم عليه الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر وأخذ امرأته الطلق ، فعمد موسى إلى زنده فقدحها فلم ينور فتحير وقام وقعد إذ لم يكن له عهد بمثل ذلك في الزند ، وأخذ يتأمل ما قرب وما بعد تحيرا وضجرا ، ثم أخذ يتسمع طويلا هل يسمع حسا أو حركة ؟ فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نورا فحسبه نارا (فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمُ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) يعني من يدلني على الطريق ، وكان قد ضل الطريق ، فلما أتاها رأى نورا عظيما ممتدا من عنان السماء إلى شجرة عظيمة هناك . واختلفوا في تلك الشجرة ما كانت ؟ ، فقيل العوسجة ، وقيل العناب ، فتحير موسى وارتعدت فرائصه حيث رأى نارا عظيمة ليس لها دخان وهي تلهب وتشتعل من جوف شجرة خضراء لاتزداد النار إلا عظما ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ، فلما دنا موسى منها استأخرت عنه ، فلما رأى ذلك رجع عنها وخاف ثم ذكر حاجته إلى النار فرجع إليها ودنت منه فد (نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى) فنظر فلم ير أحدا ، فنودي (إني أنا الله رَبُّ الْعَالَمِينَ) فلما سمع ذلك علم أنه ربه تعالى ، فناداه ربه أن ادن واقرب ، فلما قرب وسمع النداء ، ورأى تلك الهيبة خفق قلبه وكل لسانه وضعفت بنيته وصار حيا كبيت

إلا أن روح الحياة تتردد فيه من غير خراك ، وأرسل الله إليه ملكا يشد ظهره ويقوى قلبه ، فلما تاب إليه عقله نودي (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْأَدِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) . وكان السبب في أمره بخلع نعليه ما أخبرنا حامد بن عبد الله الأصبهاني قال : حدثنا يحيى السدي قال : حدثنا أحمد بن بريدة قال : حدثنا الجمالي قال : حدثنا عيسى بن يونس عن حميد عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ » قال : كانتا من جلد حمار مبيت ، وفي بعض الأخبار غير مدبوغ .

وقال مجاهد وعكرمة : إنما قال : فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ كى تمس راحة قدميه الأرض الطيبة فتناله بركتها لأنها قدست مرتين . وقال سعيد بن جبير : إنما قال له ذلك لأن الحفوة من أمارات التواضع والاحترام ، فقيل له : طأ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة لتحصل من بركة الوادى . وقال أهل الإشارة : النعل عبارة عن المرأة ، وذلك تأويله في المنام ، فقيل له : فرغ قلبك من شغل أهلك . ثم قال تعالى تسكينا لقلبه وإذهابا لدهشته ، (وَمَاتَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ) الآية ، فقال الله تعالى (أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) قد صارت شعبتها قمها ومحجتها عرفا لها في ظهرها ، وهي تهتز لها أنياب وهي كما شاء الله أن تكون ، فرأى موسى أمرا فظيحا فولى مدبرا ولم يعقب ، فناداه ربه تعالى (أَنْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَتَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى) أى نردها عصا كما كانت . ويقال : إن الحكمة في أمر الله تعالى إياه بإلقاء العصا قبل أن يصل إلى فرعون لكيلا يفرع منها موسى إذا رآها على تلك الحالة عند فرعون . فلما أقبل موسى قال له : خذها إذ كانت عصاك ولا تخف لأنه كان ادعى الملك ، فقال هي عصاى ، فنبه على ذلك ، وكان على موسى جبة من صرف ، فلف كفه على يده وهو لها هائب ، فنودى أن احسر يدك ، فحسر كفه عن يده ثم أدخل يده تحت لحبيها ، فلما أدخل يده قبض عليها فإذا هي عصاه في يده ، ويده بين شعبتها حيث كان يضعها ، ثم قال له : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِثْنِ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَى) وإنما قال في جيبك لأنه لم يكن للمبوسه كم واسع فضاق عليه فأدخل يده في جيبه ثم أخرجها ، فإذا هي نور تلهب بكل عنه البصر ثم ردها فخرجت كما كانت على لون يده ، فقال الله تعالى (فَذَانِكَ بُرْهَانانِ مِّنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) الآية ، ثم قال له (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى) فقال موسى (رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا) إلى قوله « يُكذَّبون » فقال له : يا موسى إني أوقفك موقفا لا أجعل بعده لأحد عليك سلطانا دوني ، ولا ينبغي لمن بعدك أن يسمع كلامي وأنت في أقرب الأماكن مني ، وعلى موسى يومئذ مدرعة من صوف قد خللها بخلال وجبة من صوف

وتباب من صوف وقلنسوة من صوف ، والله تعالى يكلمه ويعهد إليه ويقول له : يا موسى انطلق برسالتى وأنت بعينى وسمعى ومعك قوتى وبصرى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى بطر نعمتى وأمن مكبرى وعبد دونى ، وغرته الدنيا حتى جحد حتى وأنكر ربوبيتى ، وزعم أنه لا يعرفنى ، وإنى أحلف بعزتى وجلالى لولا الحجة والقدرة اللتان جعلتهما بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، يغضب لغضبه السموات والأرض والبحار والجبال والشجر والدواب ، فلو أذنت للسماء ، لخصبته وللأرض لابتلعته وللجبال لدكدكته ، وللبحار لغرقته ، ولكن سقط من عينى وهان على ، وصغر عندى ووسعه حلمى ، وأنا الغنى عنه وعن جميع خلقى ، وحق ذلك لى ، وأنا خالق الغنى والفقير ، ولا غنى إلا من أغنيته ولا فقير إلا من أفقرته ، فأبلغه رسالتى وادعه إلى عبادتى وتوحيدي والإخلاص لى ، وحذره نعمتى وبأسى وذكوره آياتى ، وأعلمه أنه لا يقوم لغضبي شىء ، وقل له فيما بين ذلك قولنا لعله يتذكر أو يخشى ، ويجله فى خطابك إياه ولا يروعك ما ألبسته من لباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدي ولا يطرف ولا ينطق ولا يتنفس عن شىء إلا بعلمى ، وأخبره بأنى من العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ، وقل له : أجب ربك فإنه واسع المغفرة ، وقد أمهلك فى طول هذه المدة ، وفى كلها تدعى الربوبية دونه وتصد عن عبادته ، وفى كل ذلك يطر عليك السماء وينبت لك الأرض ويلبسك العافيه ، حتى لا تهرم ولا تسقم ولم تفتقر ولم تغلب ، ولو شاء لعاجلك بالنقمة ولسلبك ما أعطاك ولكنه ذو حلم عظيم ، ثم أمسك الكلام عن موسى سبعة أيام بلياليها ، ثم قيل له بعد سبع ليال : أجب ربك يا موسى فيما كلمك فقال : « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي » إلى قوله تعالى : بِصَبْرٍ ، فقال الله تعالى (قَدْ أَوْتَيْتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) فجاهد بنفسك وأخيك ، وكان قد خطر فى قلب موسى أن فرعون فى بأس عظيم وجند كثير وأنا وأخى وحيدان فريدان ، فقال الله تعالى له : إنكما جنندان عظيمان من جندى وأنا معكما أسمع وأرى وأبصركما وأكون معكما فلا تستضعفان ولا تستقلان . ولو شئت أن آتية بجنود لا قبيل له بها فعلت ، ولكن ليعلم ذلك الشقى الضعيف الذى قد أعجبه نفسه وجنوده أن الفئة القليلة ولا قليل معى تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ، ولا يعجبكما زينته ولا يهولكما عدته ، فلو شئت أن أزينكما من زينة الدنيا وبهجتها ما يهت فرعون وملاه إذا نظروا إليها ويعلم أن مقدرته تعجز عما آتيتكما فعلت . فلا تأسفا عما أزويه عنكما من متاع الدنيا وزينتها ، فإن ذلك دأبى فى أوليائى وأصفيائى ، أذودهم عن نعم الدنيا ولذتها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن المراعى الرديئة ، لكى تستكملوا نصيبكم من كرامتى فى الآجل ، واعلم أنه لا يترين أحد من عبادى بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا وهى زينة الأبرار . ويقال : إن الله تعالى كلمه فى تلك المدة مئة ألف كلمة وأربعة عشر ألف كلمة ، يقول له مع كل كلمة : قتلت نفسا بغير حق

وقيل لموسى عليه السلام : بم عرفت أن الله تعالى هو الذى كلمك ؟ فقال : لأن كلام المخلوق إنما يسمع من جهة واحدة بحاسة واحدة وهى السمع ، وإنى كنت أسمع كلام الله تعالى من جميع الجهات بجوارحى كلها ، فعرفت أنه كلام الله تعالى .

قالوا : ولما صعد موسى الجبل لمناجاة الله تعالى صار الجبل عقيقا ، فلما نزل موسى عنه عاد إلى حالته الأولى ، فلما رجع موسى شيعته الملائكة ، وكان قلب موسى مشغولا بولده وأراد أن يخنه ، فأمر الله تعالى ملكا فمد يده ، ولم تزل قدمه عن موضعها حتى جاء به الملك ملفوفا فى خرقة وناوله إلى موسى ، فأخذ حجرين فحك أحدهما بالآخر حتى حده كالسكين من الحديد ، فخن به ابنه . ثم إن الملك عالج المقطوع من المختون فتفل فيه فبرا من ساعته بإذن الله تعالى ، ثم إن الملك رده إلى موضعه الذى جاء به منه . ولم يزل أهل موسى مقيمين فى ذلك المكان لا يدرون ما فعل موسى حتى مر بهم راع من أهل مدين فعرفهم ، فاحتلمهم ورددهم إلى مدين ، فكانوا عند شعيب حتى بلغهم خبر موسى بعد ما فلق البحر وجاوزه بنى إسرائيل وأغرق الله فرعون ، فبعث بهم شعيب إلى مصر لموسى . قالوا : وخرج موسى من فوره ذلك لما بعثه الله إلى مصر ، لا علم له بالطريق ، وكان الله تعالى يهديه ويدله ، وليس معه زاد ولا سلاح ولا حمولة ولا صاحب له ولا شيء من الأشياء غير العصا ومدرعة صوف وقلنسوة صوف ونعلين ، وكان يظل صائما ويبيت قائما ويستعين بالصيد ويقتول الأرض حتى ورد مصر . فلما قرب من مصر أوحى الله تعالى إليه : لا تخف ولا تجزع . ثم أوحى الله تعالى إلى أخيه هارون يبشره بقدم موسى ويخبره أنه قد جعله وزيرا له ورسولا معه إلى فرعون ، وأمره أن يمر يوم السبت غرة ذى الحجة متكرا إلى شاطئ النيل ليلتى بموسى تلك الساعة . قال : فخرج هارون وأقبل موسى فالتقيا على شاطئ النيل قبل طلوع الشمس ، واتفق أنه كان يوم ورود الأسد الماء ، وكانت لفرعون أسد تحرسه فى غيضة محيطة بالمدينة من حوالها ، وكانت ترد الماء غيا ، وكان فرعون إذ ذاك فى مدينة حصينة عليها سبعون سورا ، وكان بين كل سورين بساتين وأنهار ذات مزارع وأرض واسعة فى ربض ، لكل سور سبعون ألف مقاتل ، ومن وراء تلك المدينة غيضة تولى فرعون غرسها بيده وعمل فيها وسقاها بالنيل وأسكنها الأسد ، فتناسلت وتوالدت حتى كثرت ثم اتخذها جندا من جنوده تحرسه ، وجعل خلال تلك الغيضة طرقا تفضى بمن سلكها إلى أبواب للمدينة معلومة ، ليس لتلك الأبواب طرق غيرها ، فن أخطأها وقع فى تلك الغيضة فتأكله الأسود ، وكانت الأسود إذا وردت النيل ظلت عليه يومها كله ثم تصدر مع الليل . قال : فلما التقى موسى بهارون وكان يوم ورودها ، فلما رأتهما الأسد مدت أعناقها ورءوسها إليهما ، وشخصت بأبصارها نحوهما ، وقذف الله فى قلوبها الرعب ، فانطلقت نحو الغيضة مسرعة هاربة على وجوهها ، يظأ بعضها بعضا حتى

اندست في الغيضة ، وكان لها ساسة بسوسونها وخذاة يذودونها : أي يعرونها ويسلطونها على الناس ، فلما أصابها ما أصابها خاف ساستها من فرعون ولم يشعروا من أين أتوا ، ثم إن موسى وهارون انطلقا في تلك الغيضة حتى وصلا إلى باب المدينة الأعظم الذي هو أقرب أبوابها إلى منزل فرعون ، وكان منه يدخل ويخرج وذلك ليلة الاثنين بعد هلال ذي الحجة بيوم ، فأقاما عليه سبعة أيام ، فكلمهما واحد من الحراس وقال لهما : هل تدريان لمن هذا الباب ؟ فقال موسى : إن هذا الباب والأرض كلها وما فيها لرب العالمين وأهلها عبيد له ، فسمع ذلك الرجل كلاما لم يسمع مثله قط ، ولم يظن أن أحدا من العالمين يفصح بمثله . فلما سمع الرجل ما سمع أسرع إلى كبرائه الذين فوقه وقال لهم : سمعت اليوم قولا ، وعابنت عجبا من رجلين هما عندي أعظم وأشنع وأفظع مما أصابنا في الأسد ، وما كانا يقدران أن يقدمنا على ما قدما عليه إلا بسحر عظيم ، وأخبرهم بالقصة . فلم يزل ذلك الخبر يتداول بينهم حتى انتهى إلى فرعون .

قال السدي بإسناده : سار موسى بأهله نحو مصر حتى أتاها ليلا ، فتضيف أمه وهي لاتعرفه ، فأتاها في ليلة كانوا يأكلون فيها الطفبشيل فنزل في جانب الدار فجاء هارون ، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه ، فأخبرته فدعاه فأكل معه ، فلما قعدا وتحدثا سأله هارون : من أنت ؟ فقال : أنا موسى ، فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتنقه ؛ فلما تعارفا قال له موسى : يا هارون انطلق معي إلى فرعون ، فإن الله تعالى قد أرسلنا إليه ، فقال له هارون سمعا وطاعة ، فقامت أمهما وصاحت وضجت وقالت : أنشد كما الله أن لاتذهبا إلى فرعون فيقتلكما ، فأبيا عليها ومضيا لأمر الله تعالى ، فانطلقا إليه ليلا ، فأتيا الباب والتمسا الدخول عليه ليلا ، ففرع موسى الباب ففرع فرعون وفرع البواب ، فقال فرعون : من هذا الذي يضرب بابي في هذه الساعة ؟ فأشرف عليهما البواب وكلمهما ، فقال له موسى : إني أنا رسول رب العالمين ، ففرع البواب وأتى فرعون وأخبره بما سمع ، وقال له : إن هنا إنسانا مجنوننا يزعم أنه رسول رب العالمين . وقال ابن إسحاق : خرج موسى لما بعثه الله تعالى حين قدم مصر على باب فرعون هو وأخوه هارون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان (إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فكثرا فيما باغنا سنتين يغدوان إلى بابه ويروحان ، وفرعون لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطلال له يلعب معه ويضحك ، فقال له : أيها الملك إن علي بابك رجلين يقولان قولا عجيبا يزعمان أن لهما إلهما غيرك ، فقال فرعون : أدخلوهما ، فأدخل موسى ومعه هارون عليهما السلام .

الباب التاسع : في ذكر دخول موسى وهرون على فرعون

قال الله تعالى (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقال تعالى (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) .

وروى عمرو بن عبّيد عن الحسن البصرى فى هذه الآية قال: قال لهما أَعذِرَا إِلَيْهِ لَعَلَّه
يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ، فقولا له : إن لك ربا ومعادا ، وإن بين يديك جنة ونارا لعله عند
ذلك يتذكر أو يخشى وعيدكما ، وهو عندي لا يتذكر ولا يخشى . قال : لكيلا يقول
أهلكته قبل أن أَعذِرَ إِلَيْهِ . قال : فلما أذن فرعون لموسى وهارون دخلا عليه ، فلما وقفا
عنده دعا موسى بدعاء ، وهو : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان
رب السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهن ورب العرش العظيم ، وسلام على
المرسلين والحمد لله رب العالمين . اللهم إني أدرك بك فى نحره ، وأعوذ بك من شره ،
وأستعين بك عليه ، فاكفنيه بما شئت . قال : فتحول ما فى قلب موسى من الخوف أمنا ،
وكذلك كل من دعا بهذا الدعاء وهو خائف آمن الله خوفه ونفس كربتته وهون عليه سكرات
الموت . ثم إن فرعون قال لموسى : من أنت ؟ فقال : أنا رسول رب العالمين ، فتأمله
فرعون فعرفه ، فقال له (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمْرٍكَ سِنِينَ
وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) معنا على ديننا هذا الذى هو الآن
نعيبه ، قال موسى (فَعَلَّتْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) أى من المخطئين ، ولم أرد بذلك القتل
(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) ثم
أقبل موسى ينكر عليه ما ذكره له من يده عليه ، فقال (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ
عَبَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) أى اتخذتهم عبيدا تنتزع أبناءهم من أيديهم ، فتسرق من شئت
وتقتل من شئت : أى إنما صيرنى إليك ذلك (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ) قال فِرْعَوْنُ لِمَنْ حَوْلَهُ (مَنْ
مَلِكُهُ) (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) إنكارا لما قال موسى (قَالَ مُوسَى رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ . قَالَ فِرْعَوْنُ : إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعنى ما هذا
بكلام رجل صحيح العقل ، إذ يزعم أن لكم إلهًا غيرى (قَالَ مُوسَى رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ تَعْقِلُونَ) ثم قال فرعون لموسى (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي
لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ . قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) تعرف به صدق
وكذبك وحتى وباطلك (قَالَ فِرْعَوْنُ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَأَلْقَى
مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) فاتحة فاها قد ملأت ما بين جانبي القصر واضعة
لحيا الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر ، حتى رأى بعض من كان خارجا من
مدينة مصر رأسها ، ثم توجهت لنحو فرعون تأخذه ، فانفض منها الناس وذعير منها
فرعون ووثب عن سريره وأحدث حتى قام من بطنه فى يومه ذلك أربعين مرة ، وكان

فما يزعمون لا يسعل ولا يتمخط ولا يتصدع رأسه ولا تصيبه آفة مما تصيب الناس ، وما كان يقوم إلا في كل أربعين يوما مرة واحدة ، وكان أكثر ما يأكل الموز لأنه لا يكون له ثقل فيحتاج إلى القيام ، وكانت هذه الأشياء مما زين له أن قال ما قال ، لأنه ليس له من الناس شبيهه :

قالوا : فلما قصدته الحية صاح يا موسى أنشدك الله وحرمة الرضاع إلا ما أخذتها وأمسكتها عني ، وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ، ثم إن موسى نزع يده من جيبه فأخرجها ، فقال له فرعون هذه يدك فما فيها ؟ فأدخلها موسى في جيبه ثم أخرجها ولها نور ساطع في السماء تكلت عنه الأبصار ، قد أضاء ما حولها ودخل ضوءها البيوت ورثى من الكوى ومن وراء الحجب ، فلم يستطع فرعون النظر إليها ، ثم ردها موسى إلى جيبه ثم أخرجها فإذا هي على لونها الأول ، قالوا فهم فرعون بتصديقه فقام إليه هامان وجلس بين يديه ، ثم إنه قال له : بينما أنت إله تُعبد إذ أنت تابع لعبد ، فقال فرعون لموسى : أمهلنى اليوم وغدا ، فأوحى الله لموسى أن قل لفرعون : إنك إن آمنت بالله وحده عمرتك في ملكك ، ورددتك شابا طريا ، فاستنظره فرعون ، فلما كان من الفد دخل إليه هامان ، فأخبره فرعون بما وعده موسى من ربه ، فقال له هامان : والله ما يعدل هذا عبادة هؤلاء لك يوما واحدا ، ونفخ في منخره ، ثم قال له هامان : أنا أردك شابا فأتى بالوشم فخضبه به ، فهو أول من خضب بالسواد ، فلذلك كرهه صلى الله عليه وسلم ونهى عنه ، فلما دخل عليه موسى ورآه على تلك الحالة هال ذلك ، فأوحى الله تعالى إليه لايهولنك ما رأيت ، فإنه لن يلبث إلا قليلا حتى يعود إلى حالته الأولى .

وفي بعض الروايات أن موسى وهارون لما انصرفا من عند فرعون أصابهما مطر في الطريق فأتيا على عجوز من أقرباء أمهما ، وكان فرعون وجه الطلب في أثرهما ، فلما دخل عليهما الليل ناما في دارها ، وجاء الطلب إلى الباب والعجوز منتبهة ، فلما أحست بهم خافت عليهما ، فخرجت العصا من جانب العجوز وهي تنظر إليها ، فقالتهم فقتات منهم سبعة أنفس ، ثم عادت ودخلت الدار ، فلما اتبه موسى وهارون أخبرتهما العجوز بقصة الطلب ونكابة العصا فيهم ، ثم إن العجوز آمنت بهما وصدقتهما .

الباب العاشر : في قصة موسى وهارون مع فرعون والسحرة

وخروجهم يوم الزينة إلى الفضاء للمغالبة

قالت العلماء بأخبار الأنبياء : إن موسى وهارون عليهما السلام وضع فرعون أمرهما وما أتيا به من سلطان الله تعالى على السحر ، فقال للملأ حوله : إن هذان لساحران عابان فإذا تأمرون ؟ قالوا : اقتلهم ، فقال العبد الصالح حزقيل مؤمن آل فرعون (أتقتلون

رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ) إلى قوله تعالى (سَبِيلَ الرَّشَادِ) وقال الملا من قوم فرعون (أَرْجِيئُهُ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) وكان لفرعون مدائن فيها سحرة معدة للأمر إذا أحرزته .

قال ابن عباس : قال فرعون : لما رأى من سلطان الله تعالى في اليد والعصا ما رأى : إنا لانغالب موسى إلا بمن هو مثله ، فأخذ غلمانا من بني إسرائيل ، فبعث بهم إلى قرية يقال لها الغرقاء يعلمونهم السحر كما يعلمون الصبيان في الكتاب ، فعلموهم سحرا كثيرا ، ثم إن فرعون واعد موسى موعدا ، ثم بعث إلى السحرة ، فجيء بهم ومعهم معلمهم ، فقال له : ما ذا صنعت ، فقال له معلمهم : قد علمتهم سحرا عظيما كبيرا لاتطيقه سحرة الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فإنهم لاطاقة لهم به . ثم إن فرعون بعث إلى الشرط في مملكته ، فلم يتركوا في مملكته ساحرا إلا أتوا به . واختلفوا في عدة السحرة الذين جمعهم فرعون ، فقال مقاتل : كانوا اثنين وسبعين ساحرا : اثنان من القبط وهما رؤساء القوم ، وسبعون من بني إسرائيل .

وقال الكلبي : كانوا سبعين ساحرا غير رؤسهم ، وكان الذي يعلمهم السحر رجلين مجوسيين من أهل نينوى .

وقال كعب : كانوا اثني عشر ألفا . وقال السدي : كانوا بضعة وثلاثين ألفا . وقال عكرمة : سبعين ألفا . وقال محمد بن المنكدر : ثمانين ألفا . والجامع لهذه الأقاويل ما روى أن فرعون جمع السحرة ، وهم سبعون ألفا ، فاختار منهم سبعة آلاف ليس فيهم إلا من هو ساحر ماهر ، ثم اختار منهم سبعمائة ، ثم اختار منهم سبعين من كبارهم وعلمائهم . قال مقاتل : وكان اسم رأس السحرة شمعون . وقال ابن جريج : يوحنا . وقال عطاء : كان رأس السحرة بأقصى مدائن الصعيد وكانا أخوين ، فلما جاءهما رسول فرعون قالا لأمهبا : دلينا على قبر أبينا ، فدلتهما عليه ، فأتياه وصاحا باسمه فأجابهما ، فقالا له : إن الملك وجه إلينا رسولا لتقدم عليه ، لأنه أتاه رجالان ليس معهما سلاح ولا رجال ، ولهما عز ومنعة ، وقد ضاق الملك ذرعا من عزهما ومنعتهما ، ومعهما عصا إذا ألقياها لا يقوم لها شيء حتى تبلع الحديد والحشب والحجارة ، فأجابهما أبوهما وقال : انظراهما إذا ناما . فإذا قدرتما أن تسلا العصا فسلاها ، فإن الساحر لا يعمل سحره وهو نائم ، فإن عمات العصا وهما نائمان فذلك أمر رب العالمين لاطاقة لكما به ولا للملك ولا لجميع أهل الدنيا . ثم إنهما أتياهما في خفية وهما نائمان ليأخذا العصا فقصدتهما العصا . قالوا : ثم إنه واعد موسى غدوة يوم الزينة ، وكان يوم سوق لهم . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يوم عاشوراء ، ووافق ذلك يوم السبت أول يوم من السنة وهو يوم النيروز ، وكان يوم عيد لهم تجتمع إليه الناس من جميع الآفاق . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان معهم بالمقات بالإسكندرية ، ويقال : بلغ ذنب الحية الجزيرة من وراء البحر يومئذ

قالوا : ثم إن السحرة قالت لفرعون (أئینَ لَنَا لِأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) قال فرعون نعم (وَإِنكُمْ إِذْنٌ لِّمَنِ الْمُقْرَبِينَ) يعنى فى المنزلة . فلما اجتمع السحرة والناس جاء موسى متكئا على عصاه ومعه أخوه هارون حتى أتيا المجمع وفرعون فى مجلسه مع أشرف قومه ، فقال موسى للسحرة حين جاءهم (وَيَلْتَكُمُ اللَّاتِفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى) فتناجى السحرة فيما بينهم ، فقال بعضهم لبعض : ما هذا بقول ساحر ، فذلك قوله تعالى (فَتَنَّا زَعَوْا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى) فقالت السحرة : لنا تينك اليوم بسحر لم تر مثله ، وقالوا بعزة فرعون إنا لننحنُ الغالبون) وكانوا قد جاءوا بالعصى والحبال يحملها ستون بعيرا ، فلما أبوا إلا الإصرار على السحر قالوا لموسى : (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) قال لهم موسى : بل ألقوا أنتم حبالكم وعصيكم ، فألقوا ، فاذا هى حبات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا تسعى ، فذلك قوله تعالى (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) إلى قوله تعالى (خَيْفَةَ مُوسَى) فقال موسى والله إنها كانت لعصيا فى أيديهم ولقد عادت حبات ، وما عصاى هذه؟ فلما حدث نفسه بذلك أوحى الله إليه (لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَآتَى مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) ففرح موسى ثم إنه ألقى عصاه من يده (فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) كأعظم ما يكون من الثعابين أسود ولهم يدب على أربع قوائم قصار غلاظ شداد وهو أعظم وأطول من بختى عظيم ، وله ذنوب يقوم عليه فيشرف فوق حيطان المدينة برأسه وعنقه وكاهله ، لا يضرب بذنوبه على شىء إلا حطمه وقصمه ، ويكسر بقوامه الصخور الصم الصلاب ، ويطحن كل شىء ويصرم الحيطان والبيوت . نفسه نار ، وله عينان تلهبان نارا ، ومنخره ينفخان سموما ، وعلى معرفته شعر كأمثال الرماح ، وصارت الشعبتان له فاسعة اثنا عشر ذراعا ، وفيه أنياب وأضراس لها فحيح وكشيش وصرير وصرير ، فاستعرضت ما ألفت السحرة من حبالهم وعصيهم وهى تخيل فى أعين الناس وعين فرعون أنها تسعى ، فجعلت تلقفها وتبلعها واحدا واحدا ، حتى لم ير فى الوادى لاقبلا ولا كثيرا مما ألقوا ، وانهم قوم فرعون هارين منقلبين ، فزاحوا وتضاغطوا ووطئ بعضهم بعضا حتى مات منهم يومئذ فى ذلك الزحام خمسة وعشرون ألفا ، وانهم فرعون فيمن انهم منخفا مرعوبا ذاهبا عقله ، وقد استطلق عليه بطنه من يومه ذلك أربعمئة مرة ، فصار يحصل له ذلك أربعين مرة فى كل يوم وليلة على الدوام إلى أن هلك ؛ فلما انهم الناس وكلمن السحرة ما عابنوا قالوا لبعضهم : لو كان ساحرا ما غلبنا ولا نحن علينا أمره ، ولو كان سرا فإين حبالنا وعصينا (فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ

موسى وجمارون) وكان فيهما اثنان وسبعون شيخا قد انحنت ظهورهم من الكبر ، وكانوا علماء ورؤساء ، وكان رءوس السحرة خمسة نفر : سابورا وغادر وجفظ وخطط ومصفا ، وهم الذين آمنوا حين رأوا ما رأوا من سلطان الله تعالى ، فلما رأى فرعون ذلك أسف وقال لهم متجلدا (آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) إلى قوله تعالى (أشد عذابا وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والآية ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وصلبهم فى جذوع النخل ، وهو أول من فعل ذلك ، فأصبحوا سحرة كفرة ، وأمسا شهداء بررة ، ورجع فرعون مغلوبا مهزوما مكسورا ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتماذى فى الشر ، فتابع الله عليه الآية وأخذه وقومه بالسنين إلى أن أهلكهم ؛ ثم إن موسى عاد راجعا إلى قومه والعصا على حالها حية تتبعه وتبصص حوله وتلوذ به كما يلوذ الكلب الألوف بصاحبه ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها وقد ملثوا رعبا ؛ فلم تزل الحية على هيئة العصا والناس يتحدثون وينظرون إليها ويتصاعقون ويتضاغظون حتى دخل موسى عليه السلام عسكر بنى إسرائيل ، فأخذ برأسها فإذا هى عصا كما كانت أول مرة ، وشتت الله على فرعون أمره ، ولم يجد إلى موسى سبيلا ، واعتزل موسى مدينته ولحق بقومه وعسكره ، وكانوا مجتمعين إلى أن صاروا ظافرين .

الباب الحادى عشر : فى قصة حزقيل مؤمن آل فرعون وامرأته

ومقتله وأولاده رضى الله عنهم أجمعين

قالت الرواة : كان حزقيل من أصحاب فرعون نجارا ، وهو الذى صنع لأم موسى الثابوت حين ولدته وألقته فى البحر ، وقيل إنه كان خازنا لفرعون قد خزن له مئة سنة وكان مؤمنا مخلصا يكم إيمانه إلى أن ظهر موسى على السحرة فأظهر حزقيل أمره ، فأخذ يومئذ وقتل مع السحرة صلبا ، وهو الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين : حبيب التجار مؤمن آل يس ، وحزقيل مؤمن آل فرعون ، وعلى مؤمن آل محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضلهم . »

وأما امرأة حزقيل ، فإنها كانت ماشطة بنات فرعون ، وكانت مؤمنة من إمام الله الصالحات ، إلا أنها كانت مع بنات فرعون تمدهن ، وكان من قصتها ما أخبرنا به بالأسانيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لما أسرى بنى مررت برائحة طيبة ، فقلت لجبريل عليه السلام : ما هذه الرائحة ؟ قال : هذه رائحة ماشطة آل فرعون وأولادها كانت تمشط ذات يوم بنت

فِرْعَوْنَ ، فَوَقَعَ الْمَشْطَ مِنْ يَدَيْهَا فَقَالَتْ : بِسْمِ اللَّهِ ، فَقَالَتْ بِنْتُ فِرْعَوْنَ : أَبِي ،
قَالَتْ لَا بَلْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكَ ، فَقَالَتْ لَهَا لِأَخْبِرْنِي بِذَلِكَ أَبِي ، فَلَمَّا أَخْبَرْتَهُ دَعَا
بِهَا وَبَوَّلَهَا وَقَالَ لَهَا مَنْ رَبُّكَ ؟ فَقَالَتْ : إِنَّ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَمَرَ بِتَنْوِيرِ مَنْ
نُحَاسٍ فَأُحْمِيَ وَأَمَرَ بِهَا وَبَوَّلَهَا أَنْ يُلْقَوْا فِيهِ ، فَقَالَتْ لَهُ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً ،
فَقَالَ وَمَا هِيَ ؟ قَالَتْ : تَجْمَعُ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فَتَدْفِنُهَا ، قَالَ : وَلَكِ ذَلِكَ
لَمَّا لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا فِي التَّنُورِ ، حَتَّى
إِذَا كَانَ آخِرُ أَوْلَادِهَا وَلَدًا صَبِيًّا رَضِيعًا ، فَقَالَ : اصْبِرِي يَا أُمَّهُ فَإِنَّكَ عَلَى
الْحَقِّ ، فَأُلْقِيَتْ فِي التَّنُورِ مَعَ وَلَدِهَا . وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَنْ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ فَقَالَ :
تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ أَرْبَعَةٌ : عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ ، وَشَاهِدُ يَوْسُفَ ، وَصَاحِبُ جَرِيحَ ، وَهَذَا الصَّبِيُّ .

الباب الثاني عشر : في ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون

ومقتلها رحمها الله تعالى

قال الله تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ) يقال : إن امرأة
فرعون آسية كانت من بنى إسرائيل ، وكانت مؤمنة مخلصه ، وكانت تعبد الله سرا ، حتى
إنها كانت لتتعلل في قضاء حاجتها فتبرز فتصلي يومها في مزرها خوفا من فرعون ، وكانت
على تلك الحالة إلى أن قتل فرعون امرأة حزقييل ، وكانت آسية متطلعة من كوة في قصر
فرعون تنظر إلى الماشطة امرأة حزقييل كيف تعذب وتقتل . فلما قتلت الماشطة عاينت
آسية الملائكة وقد عرجت بروحها لما أراد الله تعالى من كرامتها وما أراد لها من الخير ،
فزادت يقينا بالله وتصديقا ، فبينما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر
الماشطة امرأة حزقييل وما صنع بها ، فقالت له آسية : الويل لك يا فرعون ما أجراك على
الله تعالى ، فقال لها : لعلك قد اعتراك الجنون الذي اعترى صاحبتك ، فقالت : ما اعتراني
جنون ، ولكني آمنت بالله ربى وربك رب العالمين ، فدعا فرعون أمها ، وقال لها : إن
ابنتك قد أخذها الجنون الذي أخذ الماشطة ، ثم إنه أقسم لتذوقن الموت أو لتكفرن بالله
موسى ، فخلت بها أمها وسألها موافقة فرعون فيما أراد ، فأبت وقالت : تريدن أن أكفر
بالله ؟ فلا والله ما أفعل ذلك أبدا ، فأمر بها فرعون فهدت بين أربعة أوتاد ، ثم ما زالت
تعذب حتى ماتت ، رحمها الله تعالى ، وذلك قوله تعالى (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ) .

عن ابن عباس قال : أخذ فرعون امرأته آسية حين ابتدأ بها يعذبها لتدخل في دينه ،
فر بها موسى وهو يعذبها ، فشكت إليه بأصبعها ، فدعا الله موسى أن يخفف عنها من
العذاب ، فبعد ذلك لم تجد للعذاب ألما إلى أن ماتت في عذاب فرعون ، فقالت وهي
في العذاب (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي) ... الآية ، فأوحى الله إليها أن

ارفعى رأسك ، ففعلت ، فرأت البيت في الجنة من درّ فضحكت ، فقال فرعون : انظروا إلى الجنون الذي بها تضحك وهي في العذاب .

الباب الثالث عشر : في بناء الصرح

قال الله تعالى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا) الآية . قالت العلماء : كان الله تعالى قد أملى لفرعون في كل باب من أبواب التملك والتسلط والثروة والترفع والتنعم والتمتع ما قد استخف به رعيته من أهل مملكته ، حتى استعبدتهم فعبدوه ، وادعى الربوبية فقبلوه ، مع ما أوتي من العمر الطويل والقوة والمنعة والسعة والجنود والشوكة والعدّة والعدّد وكان قد بلغ من صحة جسمه واعتدال طبيعته وخلقته وقوة تركيبه وبنيته ؛ أنه ربما لبث أربعين يوما وليلة لا يخرج منه شيء إلا مرة واحدة ، وهو مع ذلك يأكل ويشرب ولا ييزق ولا يتمخط ولا يتنحج ولا يسعل ولا يأخذ وجع في بطنه ولا ترمد عيناه ولا يمرض ولا تصيبه آفة في نفسه ولا كراهة . قالوا : وبلغ من إملاء الله تعالى له أنه كان يركب كل صعب وذلول من دوابه . قال سعيد بن جبير : ملك فرعون أربع مئة سنة لا يرى مكروها ، ولو كان في تلك المدة أدرك جوع يوم أو حمى ليلة لما ادعى الربوبية ، وقدم على خطب عظيم وخطر جسيم ، فلم يمسه سوء ولا مكروه ، ولا تلقاه إلا محبوب ومرغوب ، وكان له قصر من قصوره مشرف منيف على ألف درجة ، وسخر الله له دابة من دوابه يركبها فيصعد ذلك القصر عليها ، وكان يركبها صاعدا ونازلا مع ما أنعم الله تعالى به عليه استدراجا منه . فلما عاين من أمر موسى ما عاين لم يزد ذلك إلا عتوا واستكبارا ، وعلم من قومه الرعب والخوف ، فخاف عليهم أن يؤمنوا بموسى ويجعلوه مكانه ، فاحتال لنفسه وعزم على بناء صرح يقوى به سلطانه ويشيد أركانه ، فقال لوزيره (يا هامان ابني لي صرِّحًا لعلّي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذب) فأمر هامان بينائه ، فجمع له العمال والفعلة ، ولم يترك أحدا يقدر عليه ممن يعمل البنيان إلا جمعه لبنائه ، حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الأجر والحصص ، ويتخذ الخشب والأبواب والمسامير ، فلم يزل يبني الصرح ويسر الله تعالى له أمره ، استدراجا له منه ، وأتاه الأمر عليه ما يريد إلى أن فرغ منه في سبع سنين ، فارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض ، فشق ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه : أن دعه وما يريد ، فإني مستدرجه وآخذة بغتة ، وإني مبطل كل ما عمله في ساعة واحدة ، وكان ذلك الصرح إذا طلعت الشمس ضرب ظله نحو المغرب ، وإذا غربت ضرب ظله نحو المشرق ، بحيث لا يعلمه إلا الله تعالى . فلما أتمّ بناءه بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ، فضرب بجناحه الصرح ضربة فقطعته ثلاث قطع ، فوقعت قطعة منه

فی البحر ، وقطعة فی الهند ، وقطعة فی المغرب . قال الضحاک : بعث الله جبریل فضرب
بجناحه الصرح ، فقذف به علی عسکر فرعون فقتل منهم ألی ألف رجل . قالوا : ولم
یبق أحد ممن عمل فیہ إلا أصابه موت أو حریق أو عاهة ، فما من نجار أو حداد أو بناء إلا
یست یده . وأما الذین كانوا یطبخون الآجر والحص فانهم احترقوا عن آخرهم . وأما
القهارمة والعمال فماتوا ، وكان تدمیر صرح فرعون من أمر الله تعالی علی ذلك كله ما بین طلوع
الفجر إلى طلوع الشمس . فلما رأى فرعون ذلك من أمر الله تعالی علم أن حیلته لم تغن عنه
شیئا ، فعزم علی قتال موسی وقومه ، فأمر أصحابه فنصبوا له الحرب ، ثم إن عسکر فرعون
قالوا لموسی : إنک لساحر ، وأنت عبد من عبید فرعون أبقت منه وكفرت نعمته وتریته ،
ونسیت إحسانه إلیک ومنته علیک ، حیث ألقیتک أمک فی الیم قبحا بک وبغضا لک ، لما
علمت ما أنت صائر إلیه من سوء الحال ، فاستنقذک فرعون من الغرق واستدرکک من الموت
فأواک وكفلک ورباک واتخذک ولدا ، ثم فررت منه أبقا کافرا وجتته عدوا محاربا ، فلسنا
بممتنعین عنک حتی نردک إلى عبادته وخدمته أو نذیقک الذل والهوان . فلما رأى الله تعالی
ذلك ، وقد علم أنه لا یغنی عنهم ما جاءهم به موسی لما سبق فیهم من مکر الله النافذ وحقت
علیهم كلمة العذاب ابتلاهم الله بالعذاب وبالآیات .

الباب الرابع عشر : فی ذکر الآیات التي ابتلی الله بها فرعون وقومه

حین دنا هلاکهم ، إظهارا لقدرته وإلزاما لحجته

قال الله تعالی (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) قال المفسرون : هی العصا
والید البیضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وقلق البحر ، فقال تعالی
(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ) .
قال قتادة : أما السنون فكانت بیادیتهم ومواشیهم ، وأما نقص الثمرات فكان فی أهصارهم
قال الله تعالی (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ) الآية .

واختلف المفسرون فی ذلك الطوفان ما هو ؟ قال ابن عباس : كان أول الآيات الطوفان
وهو الماء أرسل علیهم من السماء . وقال مقاتل : هو الماء طغى فوق حروثهم فأهلكها .
وقال الضحاک : هو الغرق . وقال مجاهد وعطاء : هو الموت الذریع الجارف ، وروى
ذلك عن رسول الله صلی الله علیه وسلم . وقال وهب : هو الطاعون بلغة أهل الیمین ، أرسل
الله الطاعون علی أبقار آل فرعون فافتضهن فی لیلة فلم یبق منهن باقیة . وقال أبو قلابة :
الطوفان الجدری ، فهم أول من عذب به ، فبقي فی الأرض ، والجراد ، والقمل .

واختلفوا فی القمل ما هو ؟ فقال سعید بن جبیر عن ابن عباس : القمل هو السوس الذي
یخرج من الخنطة . وروى عن أنى طلحة أنه الذباب . وقال مجاهد والسدى وقاتادة والكلبي

وغيرهم : الجراد الطيارة التي لها أجنحة ، والقمل الصغار التي لا أجنحة لها . وروى معمر عن قتادة قال : القمل أولاد الجراد . وقال عبد الرحمن بن أسلم هو البراغيث . وقال عطاء : هو القمل ، دليله قراءة الحسن والقمل بفتح القاف وسكون الميم . وقال أبو عبيدة : هو الحمنان وهو ضرب من القيردان . قال أبو العالية : أرسل الله الحمنان على دوابهم فأكلها حتى لم يبق منها شيء ولم يقدرُوا على المسير . قال أمية بن أبي الصلت الثقفى :

أرسل الذرّ والجراد عليهم وعذابا فأهلكهم دبورا

باب فى صفة تنزيل هذه الآيات وتفصيلها وكيفيتها

قال ابن عباس وسعيد بن جبیر وقتادة ومحمد بن إسحاق وغيرهم من أصحاب الأخبار دخل حديث بعضهم فى بعض : لما آمنت السحرة وصلبهم عدو الله فرعون ورجع عدو الله مغلوبا مقهورا انصرف موسى وهارون إلى عسكر بنى إسرائيل ، فأمر فرعون قومه أن يكلفوا بنى إسرائيل ما لا يطيقون . فكان الرجل من القبط يجيء إلى الرجل من بنى إسرائيل يقول له : انطلق معى فاكنس حشيتى واعلف دوابى واستق لى ، وتجيء القبطية إلى الكريمة من بنى إسرائيل ، فتكلفها ما لا تطيق ، ولا يطعمونهم فى كل ذلك خبزا ، فإذا انتهف النهار يقولون لهم اذهبوا فاكتسبوا لأنفسكم ما تأكلون ، فشكوا ذلك إلى موسى ، فقال لهم (استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا) يا موسى (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) كنا نطعم إذا استعملونا من قبل أن تأتينا ، فلما جئتنا استعملونا ولم يطعمونا ، (قال) موسى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) يعنى فرعون والقبط (ويستخلفكم فى الأرض) يعنى الشام ومصر (فينظر كيف تعملون) .

فلما أبى فرعون وقومه إلا التمادى على الكفر والإقامة على الشر والظلم دعا موسى ربه فقال : يا رب إن عبدك فرعون قد طغى فى الأرض وبغى وعنا ، وإن قومه نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك ، ربّ خذهم بعقوبة تجعلها لهم نعمة ، ولقومي عظة ، ولمن بعدهم من الأمم اعتبارا ، فتابع الله عليهم الآيات المفصلات بعضها فى إثر بعض ، فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات ، ثم بعث الله عليهم الطوفان وهو الماء ، أرسل عليهم من السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها فى بعض ، فامتلاّت بيوت القبط حتى قاموا فى الماء إلى تراقيهم من جلس منهم غرق ، ولم يدخل ببيت بنى إسرائيل من الماء قطرة واحدة ، وفاض الماء على وجه أراضيهم وركد ، فلم يقدرُوا على أن يحرثوا ولا يعملوا شيئا حتى جهدوا ، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذا العذاب ، فتؤمن بك ونرسل معك

بنی اسرائیل ، فدعا موسی ربه ، فرفع عنهم الطوفان فلم یؤمنوا ولم یرسوا معه بنی اسرائیل وعادوا إلى أشراً ما كانوا علیه ، فأنبت الله تعالی لهم فی تلك السنة من الکلا والزروع والثمر ما لم ینبت قبل ذلك ، فأعشبت بلادهم وأخصبت ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنی ، وما كان هذا الماء إلا نعمة لنا ، وما یرسنا أنا لم نمطر ، فأقاموا شهراً فی عافية ، ثم بعث الله علیهم الجراد فأكل عامة زرعهم وثمارهم وأوراق أشجارهم وزهرها ، حتی إنها كانت لتأكل الأبواب والثياب والأمتعة وسقوف البيوت والحشب والمسامیر من الحديد ، حتی تساقطت دورهم ، وابتلی الجراد بالجوع فجعل لا یسبح ، وكان لا یدخل بیوت بنی اسرائیل ولا یصیبهم من ذلك شیء ، ففجبوا وضجوا وقالوا (یا موسی ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بنی اسرائیل) فأعطوه عهد الله وميثاقه ، فسأل موسی ربه ، فكشف الله عنهم الجراد بعد ما أقام علیهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، ويقال إن موسی برز إلى الفضاء ، فأشار إلى المشرق بالعصا فذهب الجراد من حیث جاء كأن لم یکن .

فصل : فی بعض ما ورد من الأخبار الغریبة فی الجراد

أخبرنی الحسن بن محمد بإسناده عن جابر عن أنس بن مالك عن النبی صلی الله علیه وسلم أنه كان یدعو علی الجراد یقول : اللهم اقطع الجراد ، اللهم اقطع دابرهم ، اللهم اقتل كبارهم وأهلك صغارهم ، وأفسد بیضه ، وأخذ بأفواههم عن متعایشنا وأرزاقنا إنك أنت سمیع الدعاء ، فقال رجل من القوم : کیف ذلك یا رسول الله تدعو علی جند من جنود الله بهلاکه وقطع دابره ؟ فقال : إنما الجراد نثر حوت من البحر .

قال ابن عُلانة : وحدثنی من رأى الحوت ینثره ، وبإسناده عن أبی هريرة قال : قال رسول الله صلی الله علیه وسلم : فی صدر الجراد مكتوب جند الله الأعظم . وبإسناده عن جابر بن عبد الله قال : عدم الجراد فی سنة من سنی عمر بن الخطاب رضی الله عنه فلم یخبر عنه بشیء ، فاغتم لذلك ، فأرسل راكبا إلى الین وراكبا إلى الشام وراكبا إلى العراق یسألون هل رأوا شیئا من الجراد أولا ؟ فأتاه الراكب الذی دخل الین بقبضة من الجراد ، فألقاه فی یده ، فلما رآه كبر ثلاثا ثم قال : سمعت رسول الله صلی الله علیه وسلم یقول : خلَقَ اللهُ ألفَ أمةٍ منها ستمائة فی البحر وأربعمائة فی البر ، فأولُ شیءٍ یهلكُ من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلك الجراد تتابع مثل النظام إذا قطع سلکهُ . وبإسناده عن أبی أمامة الباهلی یحدث عن النبی صلی الله علیه وسلم أنه قال : إن مریم ابنة عمران سألت ربها أن یطعمها لحماً لادم له فاطعمها

الجراد ، فقالت : اللهم أعيشه بغير رَضَاع ، وتابع بينته بغير شِباع . فقلت يا أبا المضيء : ما الشباع ؟ قال : الصوت . وبإسناده عن عبد الله بن ضميرة الطلوي قال : لما أخرج الله تعالى إبليس من الجنة قال : (لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) قال الله تعالى : وأنا متخذ من خلقي جندا هو الجراد ، فقال إبليس : وأنا جندي النساء من شبكتي التي لا تخطئ أبدا .

أخبرنا الحسين بإسناده عن الأوزاعي يقول : كان بيروت رجل صالح يذكر أنه رأى رجلا صالحا راكبا على جرادة ، قال : وعليه خفان طويلان أظنهما أحمرين ، وهو يقول : الدنيا باطل ، باطل ما فيها ، ويقول بيده هكذا ، فحيثما أشار استاق الجراد إلى ذلك الموضع ، فبلغنا أن ذلك الرجل ملك الجراد .

قال : فأقام فرعون شهرا في عافية ، ثم بعث الله عليهم القمل ؛ وذلك أن موسى أمر أن يمشي إلى كتيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى عين شمس ، فمشى موسى إلى ذلك الكتيب وكان مهिला عظيما ، فضربه بعصاه فانهاال عليهم القمل ، فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم ، فأكلها ولحس الأرض كلها ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه ، وكان يأكل أحدهم الطعام فيمتلي قملا ، حتى إن أحدهم لبني الأسطوانة بالحص ويزلقها حتى لا يرتقى فوقها شيء ثم يرفع فوقها الطعام ، فإذا صعد إليه ليأكله وجده ملي قملا ، فما أصيبوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل ، وأخذ القمل أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ، ولزمت جلودهم كأنها الجدرى عليها ، ومنعهم النوم والقرار ولم يستطيعوا لها حيلة . وقال سعيد بن جبیر : القمل : السوس الذي يخرج من الحبوب ، فكان الرجل يخرج عشرة أقفرة إلى الرحي فلا ترد منها ثلاثة أقفرة ، فإما رأوا ذلك شكروا إلى موسى وصاحوا وقالوا : يا أيها الساحر ، أي أيها العالم ، إنا نتوب ولا نعود ، فادع لنا ربك بما عهد عنك يكشف عنا هذا العذاب ، فدعا موسى ربه فكشف عنهم القمل ، فانتشروا في أقطار الأرض وأطراف البلاد بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ثم نكثوا العهد وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا : ما كنا نط أحق أن نستيقن أن موسى ساحر لنا إلا اليوم ، فيجعل الرماد دواب ، فعلى ماذا تؤمن ونرسل معه نبي إسرائيل ، فقد أهلك زرعنا وحروثنا وأذهب أموالنا ، فما عسى أن يفعل أكثر مما فعل ؟ وعزة فرعون لانصدق به أبدا ولا تتبعه ، فدعا عايبهم موسى بعد ما أقاموا شهرا في عافية وقيل أربعين يوما ، فأوحى الله تعالى إليه وأمره أن يقوم على ضفة النيل فيغرر فيه عصاه ويشير بالعصا إلى أدناه وأقصاه وأعلاه وأسفله ، ففعل ذلك فتتابعت له الضفادع بالنقيق من كل جانب حتى أعلم بعضها بعضها وأسمع أدناها أقصاها ، ثم إنها خرجت من النيل مثل الليل الدامس سراعا تؤم نحو باب المدينة ، فدخلت عليهم في بيوتهم بغتة ، وامتألت منه أفئتهم وآنيتهم وأبنيتهم ، وكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما ولا شرابا

إلا وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فتشب الضفادع في فيه ، وكان أحدهم ينام على فراشه وسريره فيستيقظ وقد ركبته الضفادع ذراعا بعضها فوق بعض ، وتصير عليه رُكاما حتى لا يستطيع أن ينصرف إلى شقه الأيمن ولا الأيسر وكان أحدهم يفتح فاه لأكلته فتسببه الضفدعة إلى فيه ، وكانوا لا يعجبون شيئا من العجيب إلا انشدخت فيه ، ولا يطبخون قدرا إلا امتلأت منه ، وكانت تثب في نيرانهم فتظفها . وفي طعامهم فتفسده ، فلقوا منها أذى شديدا .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : كانت الضفادع برية ، فلما أرسلها الله تعالى على فرعون سمعت وأطاعت ، فجعلت تقذف أنفسها في القدور ، وهي تفور في التناير وهي مسجورة ، فأثابها الله تعالى بحسن طاعتها برد الماء ، قال : فضجوا إلى فرعون من ذلك وضاق عليهم أمرهم حتى كادوا يهلكون ، وصارت المدينة وطرقها مملوءة جيفا من كثرة ما يطئونها بأقدامهم ، وأروحت البقاع كلها منها ، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى وقالوا : اكشف عنا هذا البلاء فإننا نتوب هذه المرة ولا نعود ، فأخذ على هذا عهدهم وموآثيقهم ، ثم إن موسى دعا ربه فكشف عنهم الضفادع . وذلك فيما يروى أن موسى أمر أن يهتف بعصاه ويميلها ، ففعل ذلك ، فانقشع ما كان حيا فلهق بالنيل ، وأرسل الله على الميتة ريحا فنحتها عن مدينتهم بعد ما أقامت عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت . فأقاموا شهرا في عافية وقيل أربعين يوما ، ثم نقضوا العهد وعادوا إلى كفرهم وتكذيبهم . فدعا عليهم موسى ، فأرسل الله عليهم الدم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يذهب إلى شاطئ البحر فيضربه بعصاه ففعل ذلك ، فسال عليهم النيل دما وصارت مياههم كلها دما وما يسقون من الأنهار والآبار إلا وجدوه دما أحمر عبيطا ، فشكوا ذلك إلى فرعون وقالوا : إنا قد ابتلينا بهذا الدم ، وليس لنا شراب غيره ، فقال لهم : إنه قد سحركم موسى ، فكان يجتمع الرجلان على الإناء الواحد القبطي والإسرائيلي ، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء وما يلي القبطي دما عبيطا ، وكان القبطي والإسرائيلي يستقيان من ماء واحد ، فيخرج ماء القبطي دما وماء الإسرائيلي ماء عذبا ، وكانا يقومان إلى الحجر التي فيها ماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دم ، حتى إن المرأة من آل فرعون تأتي إلى المرأة من بني إسرائيل حين يجهدا العطش ، فتقول : اسقيني من مائك ، فتسكب لها من جرتها أو نصب لها من قربتها فتعود في الإناء دما ، حتى إنها تقول لها اجعليه في فيك ثم مجبه في في ، فتأخذ في فيها ماء فإذا مجته صار دما . قالوا : والنيل على ذلك يسقي الزرع والشجر ، فإذا ذهبوا ليستقوا من بين الزرع عاد الماء دما عبيطا ، وإن فرعون اعتراه العطش في تلك الأيام حتى إنه اضطر إلى وضع الأشجار الرطبة ، فإذا مضغها صار ماؤها ملحاً أجاجاً ومرّاً زعافاً ، فكثروا في ذلك سبعة أيام لا يأكلون ولا يشربون إلا الدم .

وقال زيد بن أسلم : كان الدم الذي سلط عليهم الرثاع ، فلما ضجروا من ذلك قالوا لموسى عليه السلام : ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى ربه فكشف عنهم ذلك . وذلك أن موسى أمر أن يضرب النيل بعصاه ضربة أخرى ، فضربه فتحول ماء صالحيا كما كان فلم يؤمنوا ولم يفوا بما عاهدوا عليه ، وذلك قوله تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ) الآيات . قال نوف البكالي ابن امرأة كعب الأحبار : مكث موسى في آل فرعون عشرين سنة بعد ما غلب السحرة يريهم الآيات : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وقال أصحاب الأخبار : لما يئس موسى من إيمان فرعون وقومه ورآهم لا يزدادون إلا الطغيان والكفر والتماذى والكبر ، دعا عليهم وأمن هرون عليهما السلام وهو (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) فأجاب الله دعاءهما كما قال تعالى (قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقْبِيَا وَلَا تَتَّبِعَانِ) الآية . قالوا : وكان لفرعون وأصحابه من أثاث الدنيا وزهرتها وزينتها من الذهب والفضة واليواقيت وأنواع الحلى والجواهر ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، وكان أصل ذلك المال مما جمعه يوسف عليه السلام في زمانه أيام القحط ، فبقي ذلك في يد القبط ، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام : إني مورت بنى إسرائيل ما في أيدي آل فرعون من العرُوض والحلى وجاعله لهم جهازا وعتادا إلى الأرض المقدسة ، فاجعل لذلك عيدا تعتكف عليه أنت وقومك تشكرونى وتذكرونى وتعظمونى ذلك اليوم وتعبدونى فيه لما أرىكم من الظفر ونجاة الأولياء وهلاك الأعداء ، واستعيروا لعيدكم من آل فرعون الحلى وأنواع الزينة ، فإنهم لا يمنعون عنكم للبلاء الحال بهم في ذلك الوقت ، ولما قذفت في قلوبهم لكم من الرعب ، ففعل موسى ذلك كما أمره الله تعالى ، فأمر فرعون بزينة أهله وولده وما كان في خزائنه من أنواع الحلى فأعيرت لبنى إسرائيل لما أراد الله بذلك أن يبق على موسى وقومه أفضل أموال أعدائهم بغير قتال ولا إيحاف خيل ولا رجُل . لطفًا منه بهم وإفضالا عليهم ؛ فلما دعا موسى عليهم مسخ الله الأموال التي بقيت في أيديهم حجارة كلها حتى المنخل والدقيق .

قال محمد بن كعب القرظى : سألت عمر بن عبد العزيز عن التسع آيات التي أراها الله فرعون وقومه ، فقلت : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد البيضاء . والطمس ، وفتح البحر ، فقال عمر : لا يكون الفقه إلا هكذا ، ثم إنه دعا بخريطة فيها أشياء مما كان أصيب لعبد العزيز بن مروان ، إذ كان فيها بقايا أموال فرعون ، فأخرج البيضا مشرقة نصفين وإنما لحجر ، والجوزة مشقوقة وإنما لحجر ، والحمصة والعدسة .

وروی محمد بن اسحاق عن رجل من أهل الشام كان بمصر قال : قد رأيت نخله مصروعة وإنها لحجر ، وقال : لقد رأيت إنسانا وما شككت أنه إنسان وإنه لحجر ، وكان ذلك المسخ في أرقائهم دون أحرارهم إذ العبيد من جملة أموالهم ، فلم يبق لهم مال إلا مسخه الله تعالى ما خلا الذي بأيدي بني إسرائيل من الحلّي والجواهر وأنواع الزينة .
وقال ابن عباس : أول الآيات العصا وآخرها الطمس . قالوا : وبلغنا أن الدنانير والدرهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأنلاثا ، وجعل سكرهم حجارة .

الباب الخامس عشر : في قصة إسرائ موسى عليه السلام بيني إسرائيل

وخبر فلق البحر لهم

قال الله تعالى (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي لئنك لم تتبعون) قال العلماء بأخبار الأنبياء : أوحى الله تعالى إلى موسى حين أراد إظهاره على عدوه أن اجمع بني إسرائيل كل أهل أربعة بيوت في بيت ، ثم اذبحوا أولاد الضأن واضربوا بدمائها على الأبواب ، فإني مرسل على أعدائكم عذابا ، وإني سأرسل الملائكة فلا تدخل بيتا على بابه الدم ، وسأمرها أن تقتل أبنكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم ، فتسلمون أنتم ويهلكون هم ، ثم اخبذوا فطيرا ، فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنهي بهم إلى البحر فيأتيك أمرى ، فأمر موسى بني إسرائيل ففعلت ذلك ، فقالت القبط لبني إسرائيل : لم تجعلون هذا الدم على أبوابكم ؟ فقالوا : إن الله تعالى لمرسل العذاب عليكم فتسلم وتهلكون ، فقالت لهم القبط : فما يعرفكم ربكم إلا بهذه العلامة ، فقالوا : هكذا أمرنا نبينا ، فأصبحوا وقد طعن أبنكار آل فرعون وماتوا كلهم في ليلة واحدة وكانوا سبعين ألفا ، فاشتغلوا بدفنهم وبما نالهم من حزنهم على المصيبة ، وسرى موسى وقومه متوجهين إلى البحر ، وهم ست مائة ألف وعشرون ألفا ، لا يعد فيهم ابن سبعين سنة لكبره ، ولا ابن عشرين سنة لصغره ، وهم المقاتلة سرى الذرية ، وكان موسى على الساقة وهارون على المقدمة . فلما فرغ القبط من دفن أبنكارهم وبلغهم خروج بني إسرائيل ، قال فرعون : هذا عمل موسى وقومه ، قتلوا أبنكارنا من أنفسنا ، ثم إنهم خرجوا ولم يرضوا أن ساروا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالنا معهم ، فنادى فرعون في قومه كما قال الله تعالى (فأرسل فرعون في المدائن حاشيرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإننا لجمع حاذرون) ثم إن فرعون تبعهم في قومه وعلى مقدمته هامان في ألف ألف وسبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة ويده حربة . وقال ابن جريج : أرسل فرعون في أثر موسى وقومه ألف ألف وخمس مائة ألف ملك مسور ، مع كل ملك ألف رجل ، ثم خرج فرعون خلفهم في الدهم ، وكان في عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الألوان ، وذلك حين طلعت الشمس

وأشرفت كما قال الله تعالى (فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ) وراة بنو إسرائيل غبار عسكر فرعون قالوا : يا موسى أين ما وعدتنا من النصر والظفر ، هذا البحر قدأما إن دخلنا غرقنا وفرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا ولقد (أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا) (قال موسى لِقَوْمِهِ) يا قوم (اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) . و (قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظُر كيف تعملون) .

(فصل) قالوا : لما سار موسى ببني إسرائيل من مصر وأرادوا أن يسيروا ضرب الله عليهم التيه ، فلم يدبروا أين يذهبون ، فدعا موسى عليه السلام مشايخ بني إسرائيل ، فسألهم عن ذلك فقالوا له : إن يوسف عليه السلام لما مات بمصر أخذ على إخوته عهدا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فيضعوه في الأرض المقدسة ، فلذلك نالنا هذا الأمر ، فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه ، فقام موسى ينادى : أنشد الله كل من يعلم موضع قبر يوسف إلا أخبرني ، ومن لا يعلم صمت أذناه عن قولي ، فكان يمر بين الرجلين ينادى فلا يسمعان قوله ، حتى سمعته عجوز منهم ، فقالت له : رأيتك إن دللتك عنيه أعطيني ما سألتك ؟ فأبى عليها ، وقال : حتى أستاذن ربي ، فأمره ربه أن يعطيها مناها ، فأعطاهما ذلك ، فقالت له : إني أريد أن لاتزل غرفة من الجنة إلا نزلتها معك ، قال نعم ، قالت : فإني عجوز كبيرة لا أستطيع أن أمشي فاحملني فحملها ، فلما دنت من النيل قالت له : إنه في جوف هذا الماء ، فادع الله أن يحسر عنه الماء ، فدعا الله تعالى فحسره عنه ، فقالت له : احفر ههنا ، ففعل فاستخرجه وهو في صندوق من مرمر ، فحمله معه ودفنه في الأرض المقدسة .

قال عروة بن الزبير : وقد كان الله تعالى أمر موسى أن يسير ببني إسرائيل إذا طلع الفجر ، فدعا ربه أن يؤخر طلوعه حتى يفرغ من أمر يوسف ففعل ، فن ثم تحمل اليهود موتاهم من كل بلد إلى الأرض المقدسة من فعل نبيهم ذلك .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن ابن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : نزل النبي صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكرمه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : تعاهدنا ، فأناه الأعرابي ، فقال له عليه السلام : ما حاجتك ؟ قال له الأعرابي ناقة يا رسول الله نرحلها وأعز يجلبها أهلي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانية : ما حاجتك ؟ فقال ما لي حاجة غيرها ، فقال له عليه الصلاة والسلام : إن عجوز بني إسرائيل كانت أحسن مسألة من هذا . وذكر الحديث الذي في قصة يوسف .

قال : فلما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح وعادت ترمي بموج كالجبال ، فقال له يوشع بن نون : يا كليم الله أين أمرت ، فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا ؟ فقال موسى :

ههنا ، فخاض يوشع بن نون الماء فجاز البحر ولم يوار حافر دابته الماء . وقال الذى يكتم إيمانه وهو حزقييل مؤمن آل فرعون : يا كليم الله أين أمرت ؟ قال : ههنا فكبح فرسه بلجامه ، حتى طار الزبد من شدقه ، ثم اقتحم البحر فارتسب فى الماء ، فذهب القوم ليصنعوا مثل ذلك فلم يقدرُوا ، فجعل موسى لا يدري كيف يصنع ، فأوحى الله إليه (أن اضرب بعصاك البحر) وكان الماء فى ذلك الوقت فى غاية الزيادة ، فضرب موسى البحر بعصاه فلم يطعه ، فأوحى الله تعالى إليه : أن كنهه ، فضربه ثانيا وقال : انفلق يا أبا خالد بإذن الله تعالى (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) . فلما انفلق البحر فإذا بالرجل الذى أقحم فرسه البحر واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبدته ، وظهر فى البحر اثنا عشر طريقا لاثنى عشر سبطا ، لكل سبط طريق ، وأرسل الله تعالى الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا كما قال الله تعالى (فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ، لا تخاف دركا ولا تخشى) .

قال سعيد بن جبير : أرسل معاوية إلى ابن عباس يسأله عن مكان لم تطلع فيه الشمس إلا مرة واحدة ، فأرسل إليه : إنه المكان الذى انفلق عنه البحر لبنى إسرائيل .

أخبرنا الحسن بن محمد بإسناده عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء ، اجعل لنا فرجا ومخرجا ، فأوحى الله تعالى إليه (أن اضرب بعصاك البحر) فضرب بعصاه البحر (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) .

وروى الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمكم الكلمات التى تكلم بها موسى حين جاز البحر ببنى إسرائيل ؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال : قولوا اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . قال عبد الله : فما تركهن منذ سمعن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالوا : فخاض بنو إسرائيل البحر كل سبط فى طريق ، وعلى جانبيه الماء كالجلجل العظيم لا يرى بعضها بعضا فخافوا ، وقال كل سبط : قد قتل إخواننا ، فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبكي ، فصار الماء شبكات كهيئات الطاقات ، فنظر بعضهم بعضا ، فأخذوا يجاوزون البحر وهم يرون بعضهم بعضا ويسمع بعضهم بعضا حتى عبروا البحر سالمين ، فذلك قوله تعالى (وإذا فرقنا بكم البحر) أى فلما ميزنا لكم الماء يمينا وشمالا (فانجيتناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وذلك أنه لما خرجت ساقه عسكر موسى من البحر وصلت مقدمة عسكر فرعون إليه ، فأراد موسى أن يدعو

البحر ليرجع إلى حالته الأولى ، فأوحى الله إليه (أَنْ اذْرُكِ الْبَحْرَ رَهَوًا) أى ساكنا على حاله (لِأَنَّهُمْ جُنُدٌ مُّغْرَقُونَ) فلما وصل جند فرعون إلى البحر رأوه منفلقا ، فقال فرعون: انظروا إلى البحر كيف انفلق لهيبتى حتى أدرك أعدائى وعبیدی الذين أبقوا منى فأقتلهم فادخلوا البحر ، فهاب قومه أن يدخلوه ولم يكن فى خيل فرعون أنى وإنما كانت ذكورا كلها ، فجاء جبريل عليه السلام على فرس له أنى وديق مشبهة للفحل ، وعليه عمامة سوداء ، فتقدمهم وخاض البحر ، فظن أصحاب فرعون أن الفارس منهم . فلما شمت الحيول ربحها اقتحمت البحر فى أثرها حتى خاضوا كلهم ، وجاء ميكائيل على فرس خلف القوم يستحهم ويقول لهم : الحقوا بأصحابكم ، فلما أراد فرعون أن يسلك طريق موسى نهاه وزيره هامان وقال له : إني قد أتيت إلى هذا الموضع مرارا ومالى عهد بهذا الطريق ، وإني أخاف ولا آمن أن يكون مكرا من الرجل يكون فيه هلاكنا وهلاك أصحابنا ، فلم يطعه فرعون وذهب معاجلا على حصانه ليدخل البحر ، فامتنع الحصان ، فجاءه جبريل على رمكة بيضاء ، فصهلت فحمحم إليها حصان فرعون ، فخاض جبريل البحر فتبعها حصان فرعون فأقحمه البحر . فلما توافوا فى البحر وهم أولهم أن يخرج من البحر أمر الله تعالى البحر أن يأخذهم ، فالتطم عليهم فغرقهم أجمعين وذلك بمراى من بنى إسرائيل ، فذلك قوله تعالى (وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) يعنى إلى مصارعهم ، وانفرد جبريل عليه السلام بفرعون ، فلما أدرك فرعون الفرق (قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فقال له جبريل (آ لآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) ثم إن جبريل أراه فتياه وتوقيع الذى فيه ، وقال : إنما هذا فتياك الذى أفتيت به ، ثم جعل يدس فى فيه من حمى البحر مخافة أن يعيد تلك الشهادة . وفى الحديث أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « مَا بَغَضْتُ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ مَا بَغَضْتُ رَجُلَيْنِ : أَمَّا أَحَدُهُمَا فَمِنْ الْجِنِّ وَهُوَ إِبْلِيسُ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ حِينَ أَبَى أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ ، وَالْآخَرُ مِنْ الْإِنْسِ وَهُوَ فِرْعَوْنُ حِينَ قَالَ (أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى) وَلَوْ رَأَيْتَنِي يَا مُحَمَّدُ وَأَنَا أَخُذُ مِنْ حَمْلِ الْبَحْرِ وَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ ، فِيرْحَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا » .

قالوا : فلما سمعت بنو إسرائيل صوت التطام البحر قالوا لموسى : ما هذه الضوضاء ؟ فقال لهم : إن الله قد أهلك فرعون وكل من كان معه غرقا ، فقالوا لموسى : إن فرعون لا يموت ألم تر أنه كان يلبث كذا وكذا يوما لا يحتاج إلى شىء مما يحتاج إليه الإنسان ؟ فأمر الله تعالى البحر فألقاه على نجوة من الأرض وعليه درعه حتى نظر إليه بنو إسرائيل ، فذلك قوله تعالى (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً) فيقال إنه لو لم

بخرجه الله بيدنه لشك فيه بغض الناس ، فلما جاوز موسى ببني إسرائيل البحر (أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .
أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن محمد بن قيس قال : جاء يهودى إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال : يا أبا الحسن ما صبرتم بعد نبيكم خمسا وعشرين سنة حتى قتل بعضكم بعضاً ، فقال بلى قد كان صبر وخير ، ولكنكم ما جفت أقدامكم من حمى البحر حتى قلتم (يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) .

فلما أغرق الله تعالى فرعون ومن معه ونجى موسى ومن معه ، بعث موسى جندين عظيمين من بني إسرائيل كل جند اثنا عشر ألفاً إلى مدائن فرعون ، وهى يومئذ خالية من أهلها ، قد أهلك الله عظماءهم ورؤساءهم وقادتهم ومقاتلتهم ، فلم يبق منهم إلا النساء والصبيان والمرضى والمهرمى ، فأمر على الجندين يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، فدخلوا بلاد فرعون وغنموا ما كان فيها من أموالهم وكنوزهم ، فحملوا من ذلك ما استقامت به الحمول منها ، وما لم يطبقوا حمله باعوه من قوم آخرين ، فذلك قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون) إلى قوله تعالى : (فأكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) إلى آخر القصة . ثم إن يوشع بن نون استخلف على قوم فرعون رجلاً منهم وعاد إلى موسى بمن معه من المسلمين غانمين شاكرين .

الباب السادس عشر : فى قصة ذهاب موعى إلى الجبل لميقات ربه ، وصفة

إتاء الله تعالى له الألواح ، وإنزاله التوراة ، وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر) وقال فى موضع آخر (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلةً) . قال العلماء بقصص النبيين وسير الماضين : إن موسى كان وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب فيه ما يأتون وما ينرون ، فلما أهلك الله تعالى فرعون وقومه واستنقذ بنى إسرائيل من أيديهم وأمنهم من عدوهم ، ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينهون إليها ، قالوا : يا موسى اتتنا بالكتاب الذى وعدتنا به ، فسأل موسى ربه ذلك ، فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً ثم يتطهر ويطهر ثيابه ويأتى طور سيناء ليكلمه ويعطيه ذلك الكتاب فصام ثلاثين يوماً ، فلما صعد الجبل أنكر خارف فيه ، فتسوك بعود خرنوب .

وقال أبو العالية : أخذ من لحاء الشجر فصه ، فقالت له الملائكة : إنا كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدتها بالسراك ، فأوحى الله تعالى إليه : أن صم عشرة أيام آخر ، وقال له : أما علمت أن خارف هم الصائم أطيب عندي من رائحة المسك ؟ وكانت فتنتهم فى العشرة

الأيام التي زادها الله تعالى على موسى ، فذلك قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة)
ذا القعدة (وأتمناها بعشر) : يعني من ذى الحجة .

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن أبي هريرة أن جميع الشهور تنقص ما خلا ذى القعدة
لقوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر) أي من ذى الحجة (فَمِ
مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) فلما مضت أربعون ليلة تطهر موسى وطهر ثيابه لميقات
ربه . فلما أتى طور سيناء كلمه ربه وناجاه وقربه وأدناه كما قال تعالى (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) .
قال وهب : كان بين الله وبين موسى سبعون حجابا ، فرفعها الله كلها إلا حجابا
واحدا ، فتخلى موسى لكلام الله تعالى واشتاق إلى رؤيته وطمع فيها (فَقَالَ رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ) .

قال السدي : لما كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج من بين
قدمي موسى فوسوس في قلبه وقال : إن مكلمك الشيطان ، فعند ذلك سأل الرؤية ، فقال
الله تعالى (لَنْ تَرَانِي) وليس يطيق البشر النظر إلى في الدنيا ، من نظر إلى مات ، فقال
إلهي سمعت كلامك فاشتقت للنظر إليك ، ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إلى من أن
أعيش ولا أراك ، فقال له : انظر إلى الجبل ، وهو أعظم جبل في مدين يقال له زبير ، وذلك
أن الجبال لما علمت أن الله يريد أن يتجلى لجبل منها تعاضمت وتشامت رجاء أن يتجلى الله
لها ، وجعل زبير يتواضع من بينها ، فلما رأى الله تواضعه رفعه من بينهن وخصه بالتجلى ،
قال الله تعالى (فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي) فتجلى الله تعالى للجبل .

واختلف العلماء في معرفة التجلى ، قال ابن عباس : ظهر نوره للجبل . وقال الضحاك :
أظهر الله تعالى من نور الحجب مثل منخر الثور . وقال عبدالله بن سلام وكعب الأحبار :
ما تجلى من عظمة الله تعالى للجبل إلا كسم الحياض حتى صار دكا دكا . وقال السدي :
ما تجلى إلا قدر الخنصر ، يدل عليه ما روى ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ
هذه الآية فقال : هكذا ، ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل :
يعني غار . وقال الحسن : أوحى الله تعالى إلى الجبل وقال : هل تطيق رؤيتي ؟ فغار
الجبل وساخ في الأرض ، وموسى ينظر إليه حتى ذهب أجمع . وقال أبو بكر بن عمر
الوراق : حكى عن سهل بن سعد الساعدي أن الله تعالى أظهر من بين سبعين ألف حجاب
نورا قدر درهم ، فجعل الجبل دكا . قال أبو بكر : فعذب إذ ذاك كل ماء وأفاق كل
مجنون وبرئ كل مريض وزال الشوك عن الأشجار وانخضت الأرض وأزهرت وخدمت
نار الحجوس وخرت الأصنام لوجوهها . وقال السدي : ما تجلى للجبل إلا قدر جناح بعوضة
فصار الجبل دكا . وقال ابن عباس : ترابا . وقال سفيان : ساخ حتى وقع في البحر . قال
عطية العوفي : صار رملا هائلا . وقال الكلبي : جعله دكا : أي مكسرا جبالا صغارا .

وبالإسناد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (فلما تجلّى ربه للجبيل جعله دكا) قال صار بعظمته سنة أجبيل ، فوقعت ثلاثة في المدينة : أحد وورقان ورضوى ، ووقعت ثلاثة بمكة : ثور وثبير وحرء ، (وخر موسى صعقا) قال ابن عباس : مغشيا عليه . وقال قتادة : ميتا . وقال الكلبي : خر موسى صعقا يوم الخميس يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم الجمعة يوم النحر . قال الواقدي : لما خر موسى صعقا قالت الملائكة : ما لابن عمران وسؤاله الرؤية . وفي بعض الكتب : أن ملائكة السموات والأرض أتوا موسى وهو مغشى عليه ، فجعلوا يلكزونه بأرجلهم ويقولون : يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة ؟ وقال وهب : لما سأل موسى الرؤية أرسل الله تعالى الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق ، فأحاطت بالجبيل الذي عليه موسى ، وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى أربعة فراسخ من كل ناحية ، فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيرا مثل البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بصوت عظيم كصوت الرعد الشديد ، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى ، فهبطوا عليه مثل الأسود لهم لحب بالتسبيح والتقديس ، ففرع موسى مما رأى وسمع ، واقشعرت كل شعرة في جسده ، فقال ندمت على مسئتي ، فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء ، إن خرجت احترقت وإن قعدت مت ، فقال له خير الملائكة ورئيسهم : يا موسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ، ثم هبطت ملائكة السماء الثالثة كأمثال النور لهم قصف ورجف ولحّب شديد وأفواههم تنبع بالتسبيح والتقديس والتهليل كلجّب الجيش العظيم ألوانهم كلهب النار ، ففرع موسى عليه السلام واشتد فرعه وأيس من الحياة ، فقال له رئيس الملائكة : مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لاصبر لك عليه . ثم هبطت عليه ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الذين مروا به ، ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض ، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مروا به . ثم هبطت عليه ملائكة السماء الخامسة في سبعة ألوان ، فلم يستطع موسى أن يتبعهم طرفه ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم ، فامتلا جوف موسى فرعا واشتد خوفه وكثر بكاؤه ، ثم قال له خير الملائكة وكبيرهم : يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لاتصبر عليه ، ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي الذي أراد رؤيتي فاعترضوا عليه ، فهبطوا وفي يد كل منهم حربة طويلة تلهب نارا أشد ضوعا من الشمس ، لباسهم كلهب النار ، وإذا سبحوا وقدموا جاوبهم كل من كان قبلهم من ملائكة السموات ، كلهم يقولون بشدة أصواتهم : سبح قدوس رب العزة أبدا لا يموت ، وفي رأس كل ملك منهم أربعة أوجه ، فلما رآهم موسى رفع رأسه وصوته يسبح معهم ويبكي ويقول : رب اذكرني ولا تنس عبدك ، لأدرى هل أتخلص مما أذا

فيه أولا؟ إن خرجت احترقت وإن مكثت احترقت ، فقال له رئيس الملائكة وكبيرهم :
أوشك يا بن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك ، فاصبر للذي سألت . ثم أمر الله تعالى
أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة ، قال الله تعالى : أروه إياه ، فلما بدا نور العرش
انصدع الجبل من عظمة رب العزة ، ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعا يقولون :
سبحان الملك القدوس رب العزة أبدا لا يموت بشدة أصواتهم ، فارتج الجبل وانكسر ، وخر
موسى صعقا على وجهه ليس معه روح ، فقلب الله الحجر الذي كان موسى عليه وجعله
كهيفة القبة لئلا يحترق موسى ، وأرسل الله عليه روح الحياة برحمته ، فقام موسى يسبح الله
ويقول : آمنت بأنك ربي ، وصدقت بأنه لا يراك أحد فيحيا ، ومن نظر إلى ملائكتك انخاع
قلبه فما أعظمك وأعظم ملائكتك ، أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك ، لا يعدلك
شيء ولا يقوم لك شيء ، تبت إليك لك الحمد لا شريك لك أنت رب العالمين .

قال السدي : حُفَّ حول الجبل بالملائكة ، وحفَّ حول الملائكة بالنار ، وحفَّ حول
النار بالملائكة ، وحُفَّ حول الملائكة بالنار ، ثم تجلى ربه للجبل .

أخبرني الحسن بإسناده عن عروة بن ديلم اللخمي قال : كانت الجبال قبل أن يتجلى الله
لموسى صماء ملساء ، فلما تجلى الله للجبل صار الطور دكا وتفطرت الجبال وصار فيها
كهوف وسقوف . قالوا : ثم بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جنة عدن فقطع منها
شجرة ، فاتخذ منها تسعة ألواح ، طول كل لوح منها عشرة أذرع بذراع موسى ، وكذلك
عرضه ، وكانت الشجرة التي اتخذ منها الألواح من زمرد أخضر ، ثم أمر جبريل أن يأتيه
بتسعة أغصان من سدرة المنتهى ، فجاء بها فصارت جميعا نورا ، وصار النور قاعا أطول
مما بين السماء والأرض ، وكتب التوراة لموسى بيده ، وموسى يسمع صرير القلم ، فكتب
الله له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا ، وذلك يوم الجمعة ، وأشرقت الأرض
بالنور ، ثم أمر الله موسى أن يأخذها بقوة ويقرؤها قومه ، فوضعت الألواح على السماء فلم
تطق حملها لثقل العهود والمواثيق التي فيها ، فقالت : يا رب كيف أطيق أن أحمل كتابك
الثقل المبارك ، وهل خلقت خلقا يطيق حمل ذلك ؟ فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام
وأمره أن يحمل الألواح فيبلغها موسى فلم يطق حملها فقال : يا رب من يطيق حمل هذه
الألواح بما فيها من النور والبيان والعهود ، وهل خلقت خلقا يطيق حملها ؟ فأمده الله بملائكة
يحملونها بعدد كل حرف من التوراة ، فحملوها حتى بلغوها موسى وعرضوا له الألواح على
الجبل ، فانصدع لها الجبل وخشع وقال : يا رب من يطيق حمل هذه الألواح بما فيها ،
وضرب الله مثلا في القرآن فقال تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا
مُتَّصِدًا عَمِينَ خَشِيئَةَ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) .
كما أنزل التوراة على الجبل فلم يطق حملها . قال : فلما وضعوها على الجبل بين يدي موسى

وذلك عند صلاة العصر ، فقبض موسى على الألواح فلم يطق حملها ، فلم يزل يدعو حتى هون الله عليه حملها ، فذلك قوله (يا موسى إني اصطفيتك) الآية ، وقوله تعالى (وكتبنا له في الألواح) الآية .

فصل : في نسخة العشر الكلمات التي كتبها الله تعالى لموسى نبيه وصفيه في الألواح وهي معظم التوراة ، وعليها مدار كل شريعة

وهي : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله الملك الجبار العزيز القهار لعبده ورسوله موسى بن عمران أن : سبحني وقدسني ، لا إله إلا أنا فاعبدني ، ولا تشرك بي شيئا ، واشكر لي ولو الديق إلى المصير ، أحبك حياة طيبة ، ولا تقتل النفس التي حرم الله عليك فأضيق عليك السماء بأقطارها والأرض برحبها ، ولا تحلف باسمي كاذبا فإني لأطهر ولا أزكي من لا يعظم اسمي ، ولا تشهد بما لا يعي سمعك ولا تنظر عينك ولا يقف عليه قلبك ، فإني أوقف أهل الشهادات على شهادتهم يوم القيامة ، وأسألم عنها ولا تحسد الناس على ما آتيتهم من فضلي ورزقي ، فإن الحاسد عدو نعمتي ساخط لقسمي ، ولا تزن ، ولا تسرق فأحجب عنك وجهي وأغلق دون دعوتك أبواب السموات ، ولا تذبح لغيري فإنه لا يصعد إلى من قربان أهل الأرض إلا ما ذكر عليه اسمي ، ولا تفجرن بحليلة جارك فإنه أكبر مقتا عندي ، وأحجب للناس ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك .

فهذه نسخة العشر الكلمات ، وقد أعطاها الله جميعا لمحمد صلى الله عليه وسلم في ثمان عشرة آية وهي قوله تعالى في سورة بني إسرائيل (وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) إلى قوله (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) ثم جمعها في ثلاث آيات من سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) إلى قوله تعالى (ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

أخبر أبو عمر محمد القريابي بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعطى موسى الألواح نظرت فيها فقال : يا رب لقد أكرمتني بكرامة لم تكريم بها أحدا من العالمين قبلي (قال : يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) أي بقوة وجد ومحافظة ، وتموت على حب محمد عليه الصلاة والسلام ، قال موسى : يا رب ومن محمد ؟ قال : أحمد الذي أثبت اسمه على عرشى قبل أن أخلق السموات والأرض بالنفسي عام ، وإنه نبي وصفي وخيرتي من خلقي ، وهو أحب إلي من جميع خلقي وجميع ملائكتي ، فقال موسى : يا رب إن كان محمد أحب إليك من جميع خلقك فهل خلقت أمة أكرم عليك من أممي ؟ قال الله تعالى إن فضل

أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ كَفَضَلِي عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ ، قَالَ
 يَا رَبِّ لَبَّيْتَنِي أَرَاهُ وَأَرَاهُمْ ، قَالَ : يَا مُوسَى إِنَّكَ لَنْ تَرَاهُمْ وَلَوْ أَرَدْتَ أَنْ
 تَسْمَعَ كَلَامَهُمْ أَسْمَعْتُكَ ، قَالَ يَا رَبِّ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُمْ ، قَالَ اللَّهُ
 تَعَالَى : يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، فَأَجَبْنَا كُلُّنَا مِنْ أَصْلَابِ آبَائِنَا وَأَرْحَامِ أُمَّهَاتِنَا : لَبَّيْكَ
 اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لِاشْرِيكَ لَكَ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
 يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي ، وَعَفْوِي سَبَقَ عِقَابِي ، قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْأَلُونِي ، وَقَدْ أَجَبْتُكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْعُونِي ، وَقَدْ غَفَرْتُ
 لَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَعْصُونِي ، مَنْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِشَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدِي وَرَسُولِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ
 الْبَحْرِ ، وَهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ
 وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا) .
 أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ نَصِيرِ الْمَكِّيِّ قَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ
 بْنُ إِسْحَاقَ السَّرَاجِ قَالَ : حَدَّثَنَا قَتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَعَاظِرِيُّ عَنْ
 أَبِيهِ أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ رَأَى حَبْرًا مِنَ الْيَهُودِ يَبْكِي ، فَقَالَ لَهُ : مَا يَبْكِيكَ ؟ فَقَالَ : ذَكَرْتُ
 بَعْضَ الْأَمْرِ ، فَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ : أَنْشُدَكَ اللَّهَ لَنْ أَخْبِرْتِكَ بِمَا أَبْكَأكَ لِتَصَدَّقَنِي ؟ قَالَ
 نَعَمْ ، قَالَ : أَنْشُدَكَ اللَّهَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُنْزَلِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ
 مُوسَى نَظَرَ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ : إِنِّي أَجِدُ أُمَّةً هُمْ خَيْرُ الْأُمَمِ أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ بِأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ ، وَيُقَاتِلُونَ أَهْلَ الضَّلَالَةِ حَتَّى يَقَاتِلُوا
 الْأَعْوَرَ الدَّجَالَ ، فَقَالَ مُوسَى : رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي ، قَالَ : أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ يَا مُوسَى .
 قَالَ لَهُ الْحَبْرُ : نَعَمْ ، قَالَ كَعْبُ : أَنْشُدَكَ اللَّهَ تَعَالَى هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُنْزَلِ عَلَى مُوسَى
 أَنَّ مُوسَى نَظَرَ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ : إِنِّي أَجِدُ أُمَّةً هُمْ الْحَامِدُونَ رِعَاةَ الشَّمْسِ هُمُ الْمُحْكَمُونَ إِذَا
 أَرَادُوا أَمْرًا قَالُوا نَفَعَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَقَالَ مُوسَى : فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي ، فَقَالَ : هُمْ أُمَّةٌ
 مُحَمَّدٌ يَا مُوسَى ، قَالَ لَهُ الْحَبْرُ : نَعَمْ ؛ قَالَ كَعْبُ : أَنْشُدَكَ اللَّهَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُنْزَلِ
 أَنَّ مُوسَى نَظَرَ فِي التَّوْرَةِ فَقَالَ : يَا رَبِّ إِنِّي أَجِدُ أُمَّةً يَأْكُلُونَ كِفَارَاتِهِمْ وَصَدَقَاتِهِمْ ،
 وَكَانَ الْأَوَّلُونَ يَحْرِقُونَ صَدَقَاتِهِمْ بِالنَّارِ ، غَيْرَ أَنَّ مُوسَى كَانَ يَجْمَعُ صَدَقَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 فَلَا يَجِدُ عَبْدًا مَمْلُوكًا وَلَا أُمَّةً إِلَّا اشْتَرَاهُ مِنْ تِلْكَ الصَّدَقَةِ ، وَمَا فَضَّلَ بِحُفْرٍ لَهُ حُفْرَةٌ عَمِيقَةٌ
 الْقَمْرَ وَالنَّهْأَ فِيهَا ، ثُمَّ دَفَنَهُ كَيْ لَا يَرْجِعُوا فِيهِ ، وَهُمْ الْمَسْبُحُونَ الْمُسْتَجِيبُونَ الْمُسْتَجَابَ لَهُمْ ،
 وَهُمْ الشَّافِعُونَ الْمَشْفُوعُونَ . قَالَ مُوسَى : يَا رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي ، قَالَ : هِيَ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ
 يَا مُوسَى . قَالَ لَهُ الْحَبْرُ : نَعَمْ ؛ قَالَ كَعْبُ : أَنْشُدَكَ اللَّهَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْمُنْزَلِ أَنَّ

موسى نظر في التوراة فقال : إني أجد أمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبر الله تعالى ، وإذا هبط إلى واد حمد الله تعالى ، الصعيد لهم ظهور والأرض لهم مسجد ، حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء ، غراً محجلين من آثار الضوء ، فاجعلهم أمتي ، قال : هي أمة محمد يا موسى قال الخبر : نعم ؛ قال كعب : أنشدك الله هل تجد في التوراة أن موسى نظر فيها فقال : يا رب إني أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، وإذا عملها كتبت له عشر إلى سبع مئة ضعف ، وإذا هم بسيرة ولم يعملها لم تكتب عليه وإذا عملها كتبت عليه سبعة مثلها ، فاجعلهم يارب أمتي ، قال : هم أمة محمد يا موسى ، قال الخبر : نعم . قال كعب أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال يارب إني أجد أمة مرحومة أصفياء يرثون الكتاب ، فمن ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ، فلا أجد أحدا منهم إلا مرحوما فاجعلهم أمتي قال هم أمة أحمد يا موسى ، فقال الخبر : نعم . قال كعب : أنشدك الله هل تجد في كتاب الله المنزل أن موسى نظر في التوراة ، فقال يارب إني أجد أمة مصاحفهم في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصطفون في صلاتهم صفوفًا كصفوف الملائكة ، أصواتهم في مساجدهم كدوى النحل لا يدخل النار منهم أحد ، ومنهم من لا يرى الحساب إلا مثل ما يرى الحر من وراء الشجر ، فاجعلهم أمتي . قال : هم أمة محمد يا موسى ؟ قال الخبر : نعم . قال : فلما عجب موسى من الخير الذي أعطاه الله لأمة محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين قال موسى : يا ليتني من أصحاب محمد ، فأوحى الله تعالى إليه بثلاث آيات يرضيه بهن ، فقال تعالى (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) إلى قوله تعالى (دار الفاسقين) وقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال : فرضى موسى كل الرضا .

وقال ابن عباس : لما صار موسى إلى طور سيناء إلى الميقات ، قال له ربه : ما تبغى قال : جئت أبتغي الهدى ، قال : وجدته يا موسى ؟ قال : موسى : يا رب أي عبادك أحب إليك ؟ قال : الذي يذكرني ولا ينساني ، قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يتبغى علم الناس لعلمه ، فيسمع الكلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى .

وقال عبد الله بن مسعود : لما قرب الله تعالى موسى إلى طور سيناء رأى عبدا في ظل العرش جالسا ، قال : يارب من هذا ؟ قال : عبد لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، برّ بوالديه لا يمشي بالنميمة ، قال موسى : يارب اغفر لي ما جرى من ذنبي

غير وما بين ذلك ، وما أنت أعلم به مني ، أعوذ بك من وسوسة نفسي ، وأعوذ بك من سوء عملي . قال : قد كُفيتَ ذلك يا موسى ، قال موسى : يا رب أي الأعمال أحب إليك أن أعمل به ؟ قال : تذكرني ولا تنساني ، قال : أي عبادك خير عملا ؟ قال : من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزني فرجه ، مؤمن في خُلُق حسن ، قال : فأى عبادك شر عملا ؟ قال : فاجر في خُلُق سيء جيفة بالليل بطلال بالنهار . قال فلما رجع موسى إلى قومه ، وقد أتاهم بالتوراة أبوا أن يقبلوها ويعملوا بما فيها من الأثقال والأغلال التي كانت عليهم فيها ، وكانت شريعة ثقيلة ، فأمر الله جبريل فقلع جبلا على قدر عسكرهم ، وكان فرسخا في فرسخ ، فرفعه فوق رؤوسهم مثل الظلة مقدار قامة الرجل . وقال أبو صالح عن ابن عباس : أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم مثل الظلة ، فذلك قوله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ) وقوله تعالى (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ) .

وقال عطاء عن ابن عباس : رفع الله تعالى فوق رؤوسهم الطور ، وبعث نارا من جبل وجوههم ، وأتاهم البحر ملحا من خلفهم ، وقيل لهم : «خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا» فإن قبلتموه وفعلتم ما أمرتكم به وإلا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم في هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار . فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها قبلوا ذلك وسجدوا على شق وجوههم يلاحظون الجبل وهم سجد ، فصارت سنة في اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم . فلما زال الجبل قالوا : يا موسى سمعنا وأطعنا ، ولولا الجبل ما أطعناك .

وروى قتادة عن الحسن ، قال : مكث موسى بعد ما تغشاه نور رب العالمين وانصرف إلى قومه أربعين ليلة لا يراه أحد إلا مات ، حتى إنه اتخذ لنفسه برنسا وعليه برقع لا يبدى وجهه لأحد مخافة أن يموت .

وأخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسين الثقفى قال : حدثنا محمد بن أبي شيبة قال : حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله القزوينى قال : حدثنا محمد بن مرزوق النضرى قال حدثنا هانى بن يحيى السلمى ، قال : حدثنا الحسن بن أبي سهل عن جعفر عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى كَانَ يُبْصِرُ بَعْدَ ذَلِكَ دَبِيبَ النَّمْلَةِ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ عَلَى الصَّفَا مِنْ مَسِيرَةِ عَشْرَةِ فَرَاسِخٍ » .

وأخبرنا أبو عبد الله الثقفى ، قال : حدثنا عبد الله بن شيبة ، قال : حدثنا أبو حامد المستملى قال : حدثنا إسحاق قال : حدثنا خالد بن خيراش قال : حدثنا عبد الله بن زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته نارا لشدته .

باب في ذكر قصة بني إسرائيل وهارون مع السامري حين اتخذ لهم العجل

قال أهل السير وأصحاب التواريخ : لما أهلك الله فرعون وقومه قال موسى : إني ذاهب إلى الجبل لميقات ربي وآتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذررون ، وواعدهم ثلاثين ليلة ، واستخلف عليهم أخاه هارون ، فجاء جبريل عليه السلام على فرس يقال لها فرس الحياة ، وهي بقاء أنثى لا تصيب شيئا إلا حيي ، فلما رآه السامري على تلك الفرس عرفه ، وقال : إن لهذه الفرس لشأنا عظيما ، وأخذ قبضة من تراب حافر فرس جبريل ، هذا قول السدي . وقال الكلبي : إنما اتخذ السامري من تراب حافر فرس جبريل العجل حين عبروا البحر وبعث الله تعالى جبريل على فرس بقاء خطوتها مد البصر عليها تركب الأنبياء كلهم ، وخاض البحر وشمّت خيول قوم فرعون ربحها فخاضت في أثرها . قالوا : وإنما عرف السامري جبريل دون بني إسرائيل ، لأن فرعون حين أمر بذبح أولاد بني إسرائيل جعلت المرأة إذا ولدت الغلام انطلقت به سرا في جوف الليل إلى صحراء أو واد أو غار في جبل فأخفته ، فيقيض الله له ملكا من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس ، وكان الذي ربي السامري جبريل عليه السلام ، فجعل يمتص من أحد إبهاميه سمنا ومن الآخر عسلا ، فمن ثم عرفه . ومن ذلك الوقت إذا جاع الطفل يمتص إبهامه فيروي من المص ، لأنه جعل له فيه رزق . ويقال إن جبريل عليه السلام وكلّ بالسامري وعلا لبونا تسقيه اللبن بالغداة والعشي حتى كبر واختلط بالناس ، فلذلك عرفه دون سائر بني إسرائيل ، لأنه هو الذي رباه . وكان أبو عمرو (١) السكندري يقول : دابة موسى وفرعون دابة موسى «أزاهل بهشت» ، وفرعون «أزاهل دوزخ» ، ودابة السامري وجبريل دابة جبريل «أزاهل بهشت» ، والسامري «أزاهل دوزخ بود» . قال قتادة والسدي : كان عظيما من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق . وقال سعيد بن جبير : كان السامري من أهل كرمان . وقال غيرهما : كان رجلا صائغا من أهل باجرتي واسمه منجا . وقال ابن عباس : اسمه موسى ظفر ، وكان رجلا منافقا قد أظهر الإسلام ، وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل في قلبه حب البقر ، فلما ذهب موسى لميقات ربه ، وكان قد وعد قومه ثلاثين ليلة ، وأتمها الله بعشر حتى صارت أربعين ، فعدّ بنو إسرائيل ثلاثين ليلة ، فلما لم يرجع إليهم افتتنوا ، وقالوا إن موسى أخلفنا الوعد ، فاغتنمها السامري حتى فعل ما فعل . وقال قوم : إنهم عدوا الليل يوما والنهار يوما ، وكان موسى قد وعدهم أربعين ليلة ، فلما مضت عشرون يوما افتتنوا فأناهم السامري وقال لهم : إن موسى قد احتبس عنكم ، فينبغي لكم أن تتخذوا إلهاء ، فإن موسى ليس برافع إليكم ، وقد تم الميقات ، فينبغي لكم أن تتخذوا إلهاء ، وإنما طمع فيهم

(١) قوله وكان أبو عمرو الخ : عبارة فارسية معناها دابة موسى وجبريل عليهما السلام

من أهل الجنة ، ودابة فرعون والسامري من أهل جهنم ، اه من هامش الأصل .

السامري لأنهم يوم عبر موسى البحر مروا على قوم من العمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ... الآية فاغتنمها السامري . فلما كان ذلك اليوم وخرج موسى ومضى من خروجه عشرون يوما ، وكانوا قد استعاروا حليا كثيرا من آل فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلّة العيد ، وأهلك الله فرعون وقومه ، وبقى ذلك الحلي بأيدي بني إسرائيل ، فلما خرج موسى قال هارون لبني إسرائيل : إن حلي القبط الذي استعرتموه منهم غنيمة ولا يحل لكم ، فاجمعوه جميعا واحفروا له حفرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى فيرى فيه رأيه ، ففعلوا ذلك ، فجاء السامري بالقبضة التي أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام ، فقال لهارون : يا نبي الله هل أقدفها فيه ؟ فظن هارون أنه من الحلي يريد به ما يريد أصحابه ، فقال له : اقدف ، فقدفها في الحفرة على الحلي فصارت عجلا جسدا له خوار .

وقال ابن عباس : أوقد هارون نارا ، وأمرهم أن يقدفوها فيه ، فقدف السامري تلك القبضة فيها ، فقال : كن عجلا جسدا له خوار ، وكان البلاء والفتنة حين صار كذلك ، وذلك أن السامري قال لهارون : أألقى ما في يدي ؟ وهو يظن أنه من تلك الحلي ، فقال : نعم ؛ ويقال : إن الذي قال لبني إسرائيل : إن الغنيمة لا تحل لكم هو السامري ، فصدقوه وجمعوها ودفعوها إليه ، فصاغ منها عجلا في ثلاثة أيام ، ثم ألقى فيه القبضة ، فجثا وخار خورة ثم لم يعد . وقال السدي : كان يخور ويمشي . فلما أخرج السامري العجل ، وكان من ذهب مرصع بالجوهر كأحسن ما يكون ، وقال : هذا إلهكم وإله موسى ، فنتسى : أي أخطأ الطريق فتركه ههنا وخرج يطلبه ، فلذلك أبطأ عليكم وأخلف الموعد . وفي بعض الروايات أن السامري لما صاغ العجل وقذف القبضة فيه أشعر العجل وعدا وخار ، فصار له لحم ودم . ويروى أن إبليس خار في وسطه . ويقال إن السامري جعله وخر العجل إلى حائط وحفر في الجانب الآخر في الأرض وأجلس فيه إنسانا فوضع فيه في دبره ، فخار وتكلم بما تكلم به ، وقال : هذا إلهكم وإله موسى ، فلبس السامري على أوغاد بني إسرائيل وجنّاهم حتى أضلهم ، وقال لهم : إن موسى قد أخطأ ربه فأناكم ربه ، أراد أن يريكم أنه قادر على أن يدعوكم إلى نفسه بنفسه ، وأنه لم يبعث موسى لحاجة منه إليه ، وأنه قد أظهر إليكم العجل ليكلّمكم من وسطه كما كلم موسى من الشجرة . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنما سمى العجل لأنهم تعجلوه قبل رجوع موسى إليهم . وقال الحسن البصري : اسم عجل بني إسرائيل الذي عبده بهموت .

قالوا : فلما رأوا العجل وسمعوا قول السامري افتتنوا به غير اثني عشر ألفا ، وكان مع هارون ستمائة ألف ، فعكفوا عليه يعبدونه من دون الله ، وأحبوه حبا ما أحبوا مثله شيئا قط ، فقال لهم هارون : يا بني إسرائيل (إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ

فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ تَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى)
فَأَقَامَ هَارُونَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَقَامَ مِنْ يَعْبُدُ الْعَجَلَ عَلَى عِبَادَتِهِ ، وَتَخَوَّفَ هَارُونَ
إِنْ سَارَ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمُفْتُونِينَ الضَّالِّينَ أَنْ يَقُولَ لَهُ مُوسَى : فَرَقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ
وَكَانَ لَهُ هَائِبًا مَطْبِعًا . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ قَدْ كَرِهَ الصَّالِحُونَ الْفِرْقَةَ قَبْلَكُمْ .

أَخْبَرَنِي الْحَسَنُ بِإِسْنَادِهِ عَنْ رَاشِدِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : لَمَّا وَاْعَدَ اللَّهُ مُوسَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى : يَا مُوسَى إِنْ قَوْمُكَ قَدْ افْتَنُوا مِنْ بَعْدِكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ كَيْفَ يَفْتَنُونَ وَقَدْ
نَجَّيْتَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمِنْ الْبَحْرِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ؟ قَالَ : إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ إِلهًا مِنْ دُونِي ،
وَهُوَ عَجَلٌ ذُو جَسَدٍ لَهُ خَوَارٌ . قَالَ : يَا رَبِّ مَنْ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ ؟ قَالَ : أَنَا ، قَالَ : أَنْتَ
وَعَزَّتْكَ فَتْنَتُهُمْ (إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ) الْآيَةُ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى يَا مُوسَى يَا رَأْسَ النَّبِيِّينَ ،
يَا أَبَا الْأَحْكَامِ إِنِّي رَأَيْتُ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيَسِّرْ لَهُمْ . فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى مِنَ الْمِيقَاتِ إِلَى قَوْمِهِ
وَقَرَّبَ مِنْهُمْ سَمِعَ اللَّغْظَ حَوْلَ الْعَجَلِ ، وَكَانُوا يَعْزِفُونَ وَيَرْقِصُونَ حَوْلَهُ ، وَلَمْ يَخْبِرْهُمُ
أَصْحَابُهُ السَّبْعِينَ بِمَا أَخْبَرَهُ رَبُّهُ مِنْ حَدِيثِ الْعَجَلِ ، فَقَالُوا : هَذَا قِتَالٌ فِي الْحَلَّةِ ، فَقَالَ مُوسَى
لَهُمْ : لَا وَلَكِنَّهُ صَوْتُ الْفِتْنَةِ ، افْتَنَ الْقَوْمَ بَعْدَنَا بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَمَّا
رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا) فَلَمَّا رَأَاهُمْ حَوْلَ الْعَجَلِ وَمَا يَصْنَعُونَ بِهِ أَلْقَى
الْأَلْوَاحَ مِنْ يَدِهِ فَتَكْسَرَتْ ، فَصَعِدَ عَامَّةَ الْكَلَامِ الَّذِي كَانَ فِيهَا وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا إِلَّا سِدْسُهَا ،
ثُمَّ أُعِيدَتْ لَهُ فِي لَوْحِينَ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْتَبِرِ » ، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى : إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ فُتِنُوا فَلَمْ يُلْتَقِ الْأَلْوَاحَ ، فَلَمَّا عَايَنَ أَلْقَى
الْأَلْوَاحَ فَكَسَّرَهَا .

عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ قَالَ : قُلْتُ « يَا رَسُولَ اللَّهِ مَرَرْتُ بِمَدِينَةٍ صَفَتْهَا كَيْتٌ وَكَيْتٌ ، فَرِيْبَةٌ مِنْ
سَاحِلِ الْبَحْرِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : تِلْكَ أَنْطَاكِيَّةٌ أَمَا إِنَّ فِي غَارٍ مِنْ غَيْرِهَا
رَضَاضًا مِنْ الْأَلْوَاحِ مُوسَى ، وَمَا مِنْ سَحَابَةٍ شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ تَمُرُّ بِهَا إِلَّا
أَلْقَتْ عَلَيْهَا مِنْ بَرَكَاتِهَا ، وَلَنْ تَذْهَبَ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي حَتَّى يَسْكُنَهَا رَجُلٌ مِنْ
أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مَلِئْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا . »

قَالُوا : فَلَمَّا رَأَى مُوسَى مَا صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ أَخَذَ بِشَعْرِ رَأْسِ
أَخِيهِ هَارُونَ بِيَمِينِهِ وَبِأَيْمَانِهِ بِشِمَالِهِ ، وَكَانَ هَارُونَ قَدْ اعْتَزَلَهُمْ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا لَمْ يَعْبُدُوا
الْعَجَلَ ، فَقَالَ لِهَارُونَ (مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَنْ لَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)
هَلَا قَاتَانَهُمْ إِذْ عَلِمْتَ أَنِّي لَوْ كُنْتُ فِيهِمْ لِقَاتَلْتَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، فَقَالَ هَارُونَ (يَا بَنِيَّ أُمَّ)
الْآيَةُ . قَالَ الْمَفْسُورُونَ : كَانَ هَارُونَ أَخَا مُوسَى لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ بِقَوْلِهِ يَا بَنِيَّ أُمَّ
تَرْفِيقَهُ وَاسْتِعْطَافَهُ عَلَيْهِ (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) أَيِ بَدْوَاتِي (إِنِّي خَشِيتُ) إِذْ

قاتلهم أن يصيروا حزينين يقتل بعضهم بعضا (فتقول فرقت بين بني إسرائيل ولم
ترقب قولي) أي ولم تحفظ وصيتي حين قلت لك (اخلفني في قومي وأصلح ولا
تتبع سبيل المفسدين) . ثم إن موسى أقبل على السامري وقال له (ما خطبك
يا سامري) أي ما أمرك وشأنك ؟ (فقال) السامري (بصرت بما لم يبصروا به
فقبضت قبضة من أثر الرسول) يعني أخذت ترابا من أثر فرس جبريل (فبندتها
وطرحها في العجل) وكذلك سولت لي نفسي (أي زينت لي . قالوا : فلما علم
بنو إسرائيل أنهم قد أخطئوا وضلوا في عبادتهم العجل ندموا على ذلك واستغفروا الله تعالى
كما قال تعالى (ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا
ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين) فقال لهم موسى (يا قوم إنكم ظلمتم
أنفسكم باتخاذكم العجل) قالوا له : فأى شيء نصنعه وما الحيلة ؟ قال : (توبوا
إلى) الله (بارئكم) : أي ارجعوا إلى خالقكم ، قالوا : فكيف نتوب ؟ قال (فاقتلوا
أنفسكم) أي ليقتل البريء المجرم (ذلكم) يعني القتل (خير لكم عند بارئكم) .
قال ابن عباس : أبي الله أن يقبل توبة بني إسرائيل إلا بالحال الذي كرهوا أن يقاتلوه
حين عبدوا العجل ، وقال قتادة : جعل الله توبة عبدة العجل القتل ، لأنهم ارتدوا وكفروا
والكفر مبيع الدم . فلما أمرهم موسى بالقتل استسلموا لأمره ، وقالوا : نصبر لأمر الله ،
فجلسوا في الأفنية محتبين وأظلت عليهم القوم بالسيوف والخنجر ، فكان الرجل يرى أخاه
وابنه وأباه وقريبه وجاره ، فلم يمكنه إلا إمضاء أمر الله تعالى ، فقالوا : يا موسى كيف
نصنع ؟ فأرسل الله ضيابة وسحابة سوداء حتى لا يبصر بعضهم بعضا ، وقيل لهم : من حل
حبوته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته ، فكانوا
يقتلونهم إلى المساء . فلما كثر فيهم القتل وبلغ عدة القتلى سبعين ألفا دعا موسى وهارون
رهبما وجزعا وتضرعا وقالوا : يارب هلكت بنو إسرائيل البقية الباقية ، فكشف الله السحابة
عنهم وأمرهم أن يرفعوا السلاح ويكفوا عن القتل ، فلما انكشفت السحابة عن القتلى اشتد
ذلك على موسى ، فأوحى الله تعالى إليه : أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة ،
فكان من قتل منهم شهيدا ، ومن بقى منهم مكفرا ذنبه الله ، فذلك قوله تعالى (فتأب عليكم
إنه هو التواب الرحيم) وقالوا : أمر الله تعالى موسى أن يبرد العجل بالمبرد ويحرقه
ثم يذروه في النيل ، فمن شرب ماء من عبدة العجل اصفر لون وجهه واسودت شفتاه ،
وقيل ثبت على شاربه الذهب فكان علما بجرمه . فأخذ موسى العجل فذبحه ثم برده بالمبرد
ثم أحرقه وجمع رماده ، وأمر السامري بالبول عليه استخفافا به وتصغيرا له ، ثم ذراه
في الماء ، فذلك قوله تعالى (وانظر إلى إهلك الذي ظلمت عليه عاكفا) الآية . قالوا :

ثم إن موسى أمرهم بالشرب من ذلك الماء فشرّبوا منه ، فاصفرت وجوه الذين عبثوا واسودت شفاههم ، فأقروا بحب العجل وعبادته وقالوا : يا موسى إنا قد ندمنا على ما صنعنا وتبنا إلى الله ، فلو أمرنا أن نقتل نفوسنا لتقبل توبتنا قتلناها ، فقيل لهم (فاقتلوا أنفسكم) ثم إن موسى همّ بقتل السامري ، فأوحى الله تعالى إليه لا تقتله فإنه سنجي ، فلعمه موسى وقال له (فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً إن تخلفه) أي بعدابك في القيامة . ثم أمر موسى بني إسرائيل أن لا يخالطوه ولا يقربوه ، فصار السامري وحشياً لا يألف أحداً ولا يؤلف ولا يدنو من الناس ولا يمس أحداً منهم ، فمن مسه قرض ذلك الموضع بالمقراض ، وكان كذلك حتى هلك . قال قتادة : إن بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك : أي لا مساس . وفي بعض الكتب أنه إن مس أحداً من غيرهم أو واحداً منهم حمّ كلاهما في الوقت . قالوا ثم إن الله تعالى أمر موسى أن يأتيه في ناس من خيار بني إسرائيل ليعتذروا إليه من عبادة قومهم العجل ، فاختر موسى سبعين رجلاً لينطلقوا معه إلى الجبل كما أمر الله تعالى وأمره أن يكونوا شيوخاً ، فلم يصب إلا ستين شيخاً ، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشباب عشرة ، فاخترهم فأصبحوا شيوخاً .

وروى أنه اختار من كل سبط ستة نفر ، فصاروا اثنين وسبعين رجلاً ، فقال : إنما أمرت بسبعين رجلاً ، فليتخلف منكم رجلان ، فتشاحوا على ذلك ، فقال موسى : إن لمن قعد مثل أجر من خرج ، ففعد يوشع بن نون وكالب بن يوقنا . فأمر موسى السبعين أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا أثوابهم ، ثم خرج إلى الطور لميقات ربه ، وذلك قوله تعالى : (واختر موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا) الآية ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه . فلما دنا موسى إلى الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغطى الجبل كله ، ودنا موسى ودخل فيه ، وقال للقوم ادنوا ، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني إسرائيل أن ينظر إليه ، فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام وخروا سجداً ، وسمعوا الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يكلم موسى ويأمره وينهاه ، وأسمعهم الله تعالى : إني أنا الله لا إله إلا أنا ذوبكة ، أخرجتكم من أرض مصر فاعبدوني ولا تعبدوا غيري . فلما فرغ موسى من الكلام وانكشف الغمام أقبل إليهم (فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة) وهي نار جاءت من السماء فأحرقهم جميعاً . قال وهب : بل أرسل الله عليهم جنداً من السماء ، فلما سمعوا حسهم ماتوا في يوم وليلة ، فذلك قوله تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) فلما ماتوا ، (قال) موسى (رب لا وشئت أهلكتهم من قبل وإيأى أتهلكنا عما فعل السفهاء منا) ؟ يارب كيف أرجع إلى بني إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ؟ ولم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله له جميعاً رجلاً بعد رجل

ينظر بعضهم بعضا كيف يحيون ؟ فذلك قوله تعالى (ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ)
الآية . أخبرني الحسن بإسناده عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا
رَاحَ مِنَّا إِلَى الْجُمُعَةِ سَبْعُونَ كَانُوا كَالسَّبْعِينَ الَّذِينَ وَقَدُوا مَعَ مُوسَى إِلَى
رَبِّهِمْ وَأَفْضَلَ .

باب في قصة قارون حين عصى ربه واستكبر وأورثه ماله

الطغيان والبطر حتى أهلكه الله تعالى

قال الله تعالى (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ) . . . الآية . قالت
العلماء بأخبار القدماء : كان قارون ابن عم موسى لأنه قارون بن بصهر بن قاهث بن لاوى
ابن يعقوب ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث . هذا قول أكثر العلماء .

وقال ابن اسحق : تزوج بصهر بن قاهث سمين بنت ماريب بن بركيا بن يقشان بن
إبراهيم فولدت له عمران بن بصهر وقارون بن بصهر . فنكح عمران بنحيت بنت شمويل بن وكيع
ابن يقشان ، فولدت هارون وموسى ابني عمران ، فموسى على قول ابن اسحاق ابن أخى
قارون ، وقارون عمه لأبيه وأمه . وعلى قول الآخرين ابن عمه وعليه أصحاب التواريخ . وكان
قارون أعلم بنى إسرائيل بعد موسى وهارون وأفضلهم وأجملهم . قال قتادة : كان يسمى
النور لحسن صورته ، ولم يكن في بنى إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، ولكن عدو الله نافق
كما نافق السامري فبغى على قومه كما قال تعالى (فبغى عليهم) واختلفوا في معنى هذا
البغى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان فرعون قد ملك قارون على بنى إسرائيل
حين كانوا بمصر .

وأخبرني الحسين : بإسناده عن المسيب بن شريك أن قارون كان من قوم موسى
فبغى عليهم . قال كان عاملا لفرعون على بنى إسرائيل ، وكان يبغى عليهم ويظلمهم .
وقال عطاء الخراساني وشهر بن حوشب : زاد عليهم في الثياب شبرا . وروى شيبان عن
قتادة قال : بغى عليهم بالكبر والبذخ وبكثرة ماله ، وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم كما قال
تعالى (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ) الآية : أى لتثقل وتميل بهم إذا
حملوها لثقلها . واختلف المفسرون في عدد العصبة في هذا الموضع ؛ فقال مجاهد : ما بين
العشرة إلى خمسة عشر ، وعن قتادة : ما بين العشرة إلى الأربعين ، وعن عكرمة : منهم
من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون ، وعن الضحاك : ما بين الثلاثة إلى العشرة ؛
وقيل هم ستون .

وروى جرير عن خيشمة قال : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقرستين
بفلاغراً محجلة ، ما يزيد منها مفتاح على أصبع ، لكل مفتاح منها كنز . ويقال : إن
قارون كان أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد ، فلما ثقلت عليه

جعلها من خشب ، فتقنت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع ، فكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلا . واختلفوا في سبب جمع تلك الأموال فقيل كان عنده علم الكيمياء . قال سعيد بن المسيب : كان موسى يعلم الكيمياء ، فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم ، وعلم كالب بن يوقنا مثله وعلم قارون مثله ، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه . وفي الخبر : إن الله تعالى علم موسى الكيمياء فعلم موسى أخته فعلمته قارون فكان ذلك سبب أمواله ، فذلك قوله تعالى (إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) أو بالتصرف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب . وقيل في سبب جمعه تلك الأموال ما أخبرنا الثقفى بإسناده عن ابن أبي الحواري قال : سمعت أباسليمان الداراني كان يقول : تبدي إبليس لقارون . وكان قارون قد أقام على جبل أربعين سنة يتعبد ، حتى إذا غلب بني إسرائيل في العبادة بعث إليه إبليس شياطينه فلم يقدرُوا عليه ، فتقدم هو له وجعل يتعبد مع قارون ، وجعل إبليس يقهره بالعبادة ويفوقه ، فخضع له قارون ، وقال له إبليس : يا قارون قد رضينا بهذا الذي نحن فيه ، لانشهد لبني إسرائيل جماعة ولا نعود لهم مريضا ولا نشهد جنازة . قال : فأحدره من الجبل إلى البيعة ، فكانوا يؤتون بالطعام ، فقال له إبليس : يا قارون قد رضينا أن نكون هكذا كلاً على بني إسرائيل ، فقال له قارون : فأى رأى عندك ؟ قال : نكتسب يوماً في الجمعة ونتعبد بقية الجمعة . قال : فتكسبنا في يوم الجمعة وتعبدا بقيتها ، فقال إبليس : قد رضينا أن نكون هكذا . قال قارون : فأى رأى عندك ؟ قال : نكتسب يوماً ونتعبد يوماً ، فنتصدق ونعطي . قال : فلما كسبنا يوماً وتعبدنا يوماً جلس إبليس وتركه ، ففتحت على قارون أبواب الدنيا ، فبلغ ماله ما أخبرنا به ابن فتحويه بإسناده عن المسيب بن شريك قال : ما إن مفاطمه لتنوء بالعصبة ، وكانت أربع مئة ألف في أربعين خزانة ، فصار في الثروة وكثرة المال بحيث تضرب به الأمثال . أنشدني أبو العباس سهل ابن محمد المروزي عن بعضهم :

وعدتني وعدك حتى إذا أطمعتني في كنز قارون
جئت من الليل بغسالة تغسل ما قلت بصابون

فبقي قارون وطني وتجر حين استغنى وأثرى حتى هلك فصار عبرة للغابرين وعظة للباقيين ، وكان أول طغيانه وعصيانه أنه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال ، فكان يخرج في زينته وهيئته ويختال كما قال تعالى (قَخْرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) ... الآية . قال : مجاهد خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان وعليها المعصفرات . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات . قال : وكان ذلك أول يوم ظهرت المعصفرات في الأرض . فيما كان أبي يذكر لي عن مقاتل أنه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليه الأرجوان ومعه ألف فارس وعلى دوابهم الأرجوان

ومع ستمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب ، فتمنى أهل الحسارة والجهالة مثل الذى أوتيه ، فقالوا (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لندو حظ عظيم) فأنكر عليهم أهل العلم بالله ، وقالوا لهم : اتقوا الله واعملوا بما أمركم الله به ، وانتهوا عما نهاكم عنه ، فإن (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) عن لذات الدنيا وشهواتها ، قال الله تعالى (وما يلقاها إلا الذين صبروا) أى لا يوفق لهذه الكلمة إلا الصابرون على طاعة الله وعن زينة الحياة الدنيا .

قالوا : ثم إن الله أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام أن يأمر قومه أن يعلقوا فى أردبتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيط أخضر لونه كلون السماء ، فقال موسى : يا رب لم أمرت بنى إسرائيل بتعليق هذه الخيوط الأخضر فى أردبتهم؟ فقال الله تعالى : إن بنى إسرائيل فى غفلة ، وقد أردت أن أجعل لهم علما فى ثيابهم ليذكرونى به إذا نظروا إليه ، ويذكرون إله السماء ، ويعلمون أنى منزل منها كلامى ، فقال موسى : يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أردبتهم كلها خضرا ، فإن بنى إسرائيل تحقر هذه الخيوط ، قال له : يا موسى إن الصغير من أمرى ليس بصغير وإن لم يطيعونى فى الأمر الصغير لم يطيعونى فى الأمر الكبير . قال : فدعا موسى بنى إسرائيل ثم قال لهم : إن الله يأمركم أن تعلقوا فى أردبتكم خيوطا خضرا كلون السماء لتذكروا ربكم إذا رأيتموها ، ففعلت بنو إسرائيل ما أمرهم به ، واستكبر قارون فلم يطمعه ، وقال : ما يفعل هذه إلا الأرباب بعبيدهم لكى يتميزوا عن غيرهم ، فكان أيضا هذا من بغيه وعصيانه .

قالوا : فلما قطع موسى بنى إسرائيل للبحر ، جعلت الحبارة وهى رياسة المذبحة وبيت الأقربان لهارون ، فكانت بنو إسرائيل يأتون بهديهم فيدفعونه إلى هارون ، فيضعه على المذبح فتزل نار من السماء فتأكله ، فوجد قارون فى نفسه من ذلك ، فأثى موسى وقال : يا موسى لك الرياسة والرسالة ، وهارون الحبارة ، ولست أنا فى شىء من ذلك ، وأنا أقرأ للتوراة منكما ولا صبر لى على هذا ، فقال موسى : والله ما جعلتها أنا فى هارون بل الله جعلها له . فقال له قارون : والله لا أصدقك فى ذلك حتى ترى بيانا ، قال : فجمع موسى رؤساء بنى إسرائيل وقال : هاتوا عصيكم فمن أصبحت عصاه خضراء فهو أحق بالحبارة ، فجمعوا العصى وجاءوا بها وكتب كل واحد اسمه على عصاه ، فحزمتها موسى وألقاها فى القبة التى كان يعبد الله فيها ، وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا ، فأصبحت عصا هارون قد اهتزت ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى : يا قارون ترى هذا من فعلى؟ فقال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع السحرة ، وذهب قارون مغاضبا واعتزل موسى بأتباعه ، وجعل موسى يداريه للقرابة التى بينهما وهو يؤذيه فى كل وقت ولا يزيد كل يوم إلا عتوا وتجبرا ومخالفة ومعاداة لموسى ، حتى إنه بنى دارا وجعل بابها

من الذهب الأحمر ، وضرب على جذرائها صفائح الذهب ، وكان الملاء من بني إسرائيل يغدون عليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويصاحكونه .

قال ابن عباس : ثم إن الله أنزل الزكاة على موسى فلما أوجب الله الزكاة عليهم أتى قارون موسى فصالحه عن كل ألف دينار دينار واحد ، وعن كل ألف درهم درهم واحد ، وعن كل ألف شاة شاة واحدة ، وعن كل شيء شيء . ثم رجع قارون إلى بيته وحسبه فوجده كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك ، فجمع بني إسرائيل وقال لهم : يا قوم إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعموه ، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا فرنا بما شئت ، فقال : أمركم أن تجيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها ، فإذا فعلت ذلك خرجت عليه بنو إسرائيل فرفضوه فاسترحنا منه ، فأتوا بها ، فجعل لها قارون ألف درهم ، وقيل ألف دينار ، وقيل طستا من ذهب ، وقيل حكمها ، وقال لها أنا أمونك وأخلطك بنسائي ، على أن تقذفي موسى بنفسك غدا إذا حضر بنو إسرائيل . فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ، ثم أتى موسى فقال : إن بني إسرائيل اجتمعوا ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنههم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شرعهم ، فخرج إليهم موسى ، وهم في براح من الأرض فقام فيهم خطيبا ووعظهم وقال فيما قال : يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مئة جلدة ، وإن كان له امرأة رجماه حتى يموت ، فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، قال : أنا ؟ قال نعم ، قال : ادعوها فإن قلت فهو كما قالت ، فدعوها فلما جاءت قال لها موسى : يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء ، وعظمت عليها وسألها بالذي فلق البحر لموسى وبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت ؛ فلما ناشدها تداركها الله بالتوفيق وقالت في نفسها : لأن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذى رسول الله ، فقالت : لا ، بل كذبوا ، ولكن جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي . فلما تكلمت بهذا الكلام سقط في يد قارون ونكس رأسه ، وسكت الملاء وعرف أنه قد وقع في مهاكة : فخر موسى ساجدا لله يبكي ويقول : يا رب إن عدوك هذا قد آذاني وأراد فضيحتي وسبني ، اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي وسلطني عليه ، فأوحى الله تعالى إليه أن ارفع رأسك ، وأمر الأرض بما شئت تطعك ، فقال موسى : يا بني إسرائيل إن الله تعالى قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليلبث مكانه ، ومن كان معي فليعزل عنه ، فاعزلوا عن قارون ولم يبق معه إلا رجلان ، ثم قال موسى : يا أرض خذهم فأخذتهم إلى كعابهم ، ثم قال : يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم قال : يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى جنوبهم ، ثم قال : يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى أحقابهم ، ثم قال : يا أرض خذهم ، فأخذتهم إلى أعناقهم ، وقارون وصاحباؤه في كل ذلك يتضرعون

إلى موسى ، وبناتده فارون بالله والرحم ، حتى روى في بعض الأخبار أنه ناشده سبعين مرة ، وموسى في جميع ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه عليه ، ثم قال : يا أرض خذهم ، فانطبقت الأرض عليهم . وأوحى الله إلى موسى : يا موسى ما أفضلك استغاثوا بك سبعين مرة فلم تغهم ولم ترحمهم ، أما وعزتي وجلالي لو إياي دعوا لوجدوني قريبا مجيبا . قال قتادة : ذكر لنا أن الله تعالى يخسف بهم في كل يوم قامة ، وأنه يجعلهم فيها لا يبلغون قعرها إلى يوم القيامة .

أخبرنا عبد الله بن حمدون بقراءتي عليه ، قال أحمد بن محمد بن الحسين ، أخبرنا محمد ابن يحيى وعبد الرحمن بن بشير وأحمد بن يونس قالوا : أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر بن راشد عن همام بن منبه ، قال : أخبرنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخَّرُ فِي بُرْدِيهِ وَيَنْظُرُ فِي عَطْفِيهِ وَقَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » .

قالوا فلما خسف الله بقارون وصاحبيه الأرض أصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وأمواله وكنوزه ، فدعا الله موسى حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض ، وأوحى الله تعالى إليه إني لأعيد الأرض لأحد بعدك أبداً فذلك قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الأرضَ فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) . فلما حلت نقمة الله بقارون حمد الله تعالى المؤمنون الذين وعظوه وأذروه بأس الله ، كما أخبر الله تعالى (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) أي لا تبطر ولا تأسر (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) الآية ، وندم الذين كانوا يتمنون مكانه بالأمس وماله وحاله كما قال الله (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) فنجى الله نبيه موسى صلوات الله على سيدنا محمد وعليه وسلامه والمؤمنين من كل بلاء ومحنة ، وأهلك أعداءهم فرعون وهامان وقارون كما قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض) الآيات .

باب في قصة موسى حين لقي الحضر وما جرى بينهما من العجائب

إلى أن بلغ من أمرهما ما بلغ

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لِفَتَاهُ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا) . قال الأستاذ الإمام : اختلف العلماء في السبب الذي قصد موسى لأجله الحضر ، فروى الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن سعيد بن جبير قال : جلست عند

ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب ، فقال بعضهم : يا ابن عباس إن نوحا ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى عليه السلام الذي طلب العلم إنما هو موسى بن ميثا ، قال ابن عباس : كذب نوح ، حدثني أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى نبي بني إسرائيل سأل ربه ، فقال : يا رب إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلني عليه ، فقال الله عز وجل : نعم في عبادي من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكان الخضر عليه السلام وأذن له في لقائه . وروى هارون بن عنبرة عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه فقال : يا رب أي عبادك أحب إليك ؟ فقال : الذي يذكرني ولا ينساني ، قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذي يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : يا رب أي عبادك أعلم ؟ قال : الذي يتتبع علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى ، قال : فهل في الأرض أحد أعلم مني ؟ قال : نعم ، قال : يا رب من هو ؟ قال : الخضر ، قال : فأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التي بفلت عندها الحوت ، وجعل الحوت علكما له ودليلا ، وقال : إذا جيت هذا الحوت فان صاحبك هناك ، وكان قد تزود سمكا مملحا .

وروى عطية العوفي عن ابن عباس قال : لما ظهر موسى وقومه على مصر ، واستقرت بهم الدار أنزل الله عليهم المن والسلوى ، فخطب موسى قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة ، إذ نجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم واستخلفهم في الأرض ، قال : وكلم الله نبيكم تكليما ، واصطفاه لنفسه وأتى عليه محبة منه وآتاكم من كل ما سألتموه ، فنيبكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرءون التوراة ، فلم يترك نعمة أنعمها الله عليهم إلا ذكرها وعرفهم إياها ، فقال له رجل من بني إسرائيل : قد عرفنا الذي تقول ، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟ قال : لا ، قال : فعتب الله عليه حيث لم يرد العلم إليه ، فبعث إليه جبريل عليه السلام فقال له : يا موسى ما يدريك أين أضع علمي ، بل إن لي عبدا بمجمع البحرين أعلم منك ، فسأل موسى ربه أن يرهبه إياه ، فأوحى الله إليه أن ائت البحر ، فانك تجد على شاطئ البحر حوتا ، فخذها وادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطئ البحر ، فإذا نسيت الحوت وهلك منك فتم تجد العبد الصالح . قال : فخرج موسى وفتاه يقصدان مجمع البحرين للقاء الخضر عليه السلام ، ومعهما حوت مالح ، فذلك قوله تعالى (وإذ قال موسى) يعني ابن عمران (لفتاه) أي لصاحبه يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام (لا أبرح) أي لا أزال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) يعني بحر فارس والروم مما يلي المشرق . قال قتادة : وقال أبي بن كعب هو إفريقية . وقال محمد بن كعب : طنجة (أو أمضى حقا) دهرا وزمانا طويلا ، فذهبا ومعهما الخبز والسمك المملوح وسارا حتى انتهيا إلى الصخرة عند مجمع البحرين ليلا . قال معقل بن زياد : وهي الصخرة التي دون نهر الزيت ، قال : وعندها عين تسمى ماء الحياة ، ولا يصيب ذلك الماء شيئا إلا

عاد حيا ، فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت في المكتل وعاشت ودخلت البحر ، فذلك قوله تعالى : فلما بلغا : يعنى موسى وفتاه (تَجْمَعُ بَيْنَهُمَا) يعنى البحرين (نَسِيًّا) تركا (حوتُهُمَا) وإنما كان الحوت مع يوشع ، وهو الذى نسيه ، يدل عليه قوله تعالى (إِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ) ولكنه صرف النسيان إليهما والمراد به أحدهما كما قال تعالى (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) وإنما يخرجان من المالح دون العذب (فَاتَّخَذَ) الحوت (سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) أى مذهبا ومسلكا ، واختلفوا فى كيفية ذلك ؛ فروى أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « انجأب الماءُ عن مسلك الحوتِ فصَارَ كَوَّةً فلم يَلْتَمِمْ ، فدخَلَ موسى الكوَّةَ على أثر الحوتِ ، فإذا هو بالخَضِيرِ عليه السَّلَامُ » وقال ابن عباس : رأى أثر جناحيه فى الطين حين وقع فى الماء وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يصير صخرة . وروى ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ وَضَعْنَا رءُوسَهُمَا فَنَامَا ، فَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ وَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ هَارِبًا ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ، فَأَمْسَكَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْحُوتِ جَرِيَّةَ الْمَاءِ فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يَخْبِرَهُ بِالْحُوتِ ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمَيْهِمَا وَلَيْلَتَيْهِمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ (قَالَ) مُوسَى (لِفَتَاهُ : آئِنَا غَدَاءَنَا) الْآيَةَ » وقال قتادة : رد الله إلى الحوت روحه ، فسرب حتى أفضى إلى البحر ، ثم سلكه جعل لا يسلك منه موضعا إلا صار ماء جامدا طريقا يبسا . وقال الكلبي : توضع يوشع بن نون من عين الحياة ، فانتضح على الحوت المملح من ذلك الماء وهو فى المكتل ، فعاش ووثب فى الماء ، فجعل يضرب بذنبه الماء ، فلا يضرب بذنبه شيئا من الماء وهو ذاهب إلا يبس . قال الحكماء : كان لموسى عليه السلام خمسة أسفار : الأول سفر الهرب ، وهو قوله تعالى « ففَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَسْتُكُمْ » الآية . والثانى : سفر الطور ، وهو قوله تعالى « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » الآية ، وقوله تعالى « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ » الآية . والثالث : سفر الطلب ، وذلك عند خروجه من مصر قال الله تعالى « وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي » . والرابع : سفر الحرب ، وهو قوله تعالى إخبارا عن قول قومه « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا » الآية . والخامس : سفر النصب ، وهو قوله تعالى « لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » وذلك أنه لما ألقى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة لينذكر الحوت ويرجع إلى موضع مطلبه ، فقال له فتاه وتذكر « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ » أى تركته وفقدته ، وقيل فيه إضمار تقديره :

فإني نسيت أن أذكر أمر الحوت « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ». قال عبد الرحمن بن زيد : أي شيء أعجب من حوت كان دهرًا من الدهور يؤكل منه ثم صار حيا حتى حشر في البحر ، قال : وكان شيق حوت . وقال وهب بن منبه : ظهر في الماء من أثر جرى الحوت أخدود شبه نهر من حيث دخل إلى حيث انتهى ، فرجع موسى حتى انتهى إلى مجمع البحرين وإذا هو بالحضر ، فذلك قوله تعالى « قال ذلك ما كنا نبغ » أي نطلب « فارتدأ » فارتجعا « على آثارهما » الذي جاء منه « قصصا » أي يقصان الأثر « فوجدنا عبداً من عبادنا » يعني الحضر عليه السلام .

فصل في ذكر جمل من أخبار الحضر عليه السلام وأحواله

واسمه بلياً بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وإنما لقب بالحضر كما أخبرنا به أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بقراءتي عليه قال : أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسين الشرفي قال : حدثنا محمد بن يحيى وعبد الرحمن بن بشر وأحمد بن يوسف قالوا : أنبأنا عبد الرزاق ، أنبأنا عبد الله بن حامد الوراق ، قال : أنبأنا مكى بن عبدان قال : أنبأنا أبو الأزهر قال : حدثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما سمي الحضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء » وأخبرنا أبو نصر محمد بن علي بن الفضل الخزاعي قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسن القصار قال : أنبأنا أحمد بن يوسف السلمى قال : أنبأنا محمد بن يوسف الفريابي قال : ذكر سفيان عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمي الحضر لأنه أتينا صلى أخضر حوله .

فصل في بدء أمر الحضر عليه السلام

يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى به إلى السماء بينما هو على البراق وجبريل يمر به إذ وجد رائحة طيبة ، فقال : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : إنه كان ملك في الزمان الأول له سيرة حسنة في أهل مملكته ، وكان له ابن ولم يكن له ولد غيره . قال أصحاب الأخبار : وكان أبوه ملكاً عظيماً ، فسلمه إلى المؤدب يؤدبه ، وكان يختلف إليه وكان بين منزله ومؤدبه رجل عابد كان يمر به ، فأعجبه حاله فألفه ، وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه في المنزل ، وأبوه يظن أنه عند المعلم حتى شب ونشأ وأخذ من العابد شمائله وعبادته ، فقالوا لأبيه : ليس لك ولد غيره يرث مملكك ، فلو زوجته لعله يرزق أولاداً فعرض عليه أبوه التزويج فأبى ، ثم عاوده فرضى فزوجه جارية من بنات الملوكة فزفت إليه . فلما بقيت عنده قال لها : إني مخبرك بأمر إن أنت سمعته صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أفضيت سرى عذبك الله في الدنيا والآخرة ، قالت : وما ذاك ؟ قال : إني رجل مسلم لست على دين أبي وليست النساء من حاجتي ، فإن رضيت أن تقيمي

معي على ذلك وتتابعيني على ديني فذاك إليك ، وإن أبيت لحقت بأهلك ، فقالت المرأة : بل أقيم معك ، فلما أتت عليها مدة ، قالوا لأبيه : ما نظن ابنك إلا عاقرا لا يولد له ولد ، فسأله أبوه ، فقال : ما ذلك بيدي ، وإنما ذلك بيد الله يؤتية من يشاء ، فدعا المرأة وسألها فردت عليه مثل ما رد عليه الحضرة ، فكث أبوه زمانا ثم دعا ابنه إليه ، فقال له : أحب أن تطلق امرأتك هذه وأزوجك امرأة غيرها ولودا ربما ترزق منها ولدا ، فكره ذلك الحضرة وألح عليه أبوه حتى فرق بينهما وزوجه امرأة غيرها ولودا ثيبا ، فعرض عليها الحضرة مقالته الأولى فرضيت وقالت : أقيم معك ، فلبثا زمانا ، ثم إن أباه استبطأ الولد منه ، فدعاه وقال له : ليس يولد لك ؟ فقال : ليس ذلك بيدي ولكنه بيد الله ، ثم إنه دعا امرأته وقال لها : أنت امرأة شابة ولود ، وقد كنت ولدت عند غير ابني ، ولست تلدين عند ابني ، فقالت : ما مسنى منذ صحبتك ، وكذلك المرأة الأولى ، فدعاها وسألها ، فقالت مثل ذلك ، فدعا ابنه وعيره وعنفه ، ففرغ من أبيه ولم يأمن على نفسه منه ، فخرج من عنده فهام على وجهه ولم يدر أحد من خلق الله تعالى أين توجه ، فندم أبوه على ما فعل ، فأرسل في طلبه مئة رجل من طرق شتى مختلفة ، فانطلقوا في طلبه ، فأدركه منهم عشرة في جزيرة من جزائر البحر ، فقال لهم : إني أقول لكم شيئا واحدا فاكتموه عني ، فإن كتمتموه صرف الله عنكم شر الدنيا وعذاب الآخرة ، وإن أبيتم ذلك وأفشيتم سرى عذبكم الله في الدنيا وفي الآخرة ، قالوا له : قل ما شئت ، قال : هل بعث أبى في طابى أحدا غيركم ؟ قالوا نعم ، فقال لهم : إذا فاكتموا أمرى ولا تخبروا أبى أنكم رأيتموني ، وقولوا مثل قول نظائركم الذين أرسلهم في طلبى فلم يرونى ، لأنكم إن أخبرتموه بى أو ذهبتم بى إليه قتلتى وصرتم أنتم مؤاخذين بدمى . قال : فخلّوا عنه وانصرفوا . فلما دخلوا على أبيه قال تسعة منهم : قد وجدناه وقال لنا كيت وكيت فخلينا عنه ، وقال العاشر : ما لنا به علم ومالى به خبر ، والتسعة قالوا : بلى قد ظفرنا به وإن شئت أتيناك به ، فقال لهم : ارجعوا في طلبه وأتوني به ، وإن الحضرة خاف أن يظفروا به ، فانحاز من ذلك الموضع إلى موضع آخر ، فأتوا إليه فلم يجدوه ، فرجعوا وقالوا لم نره ، فقتلهم أبوه . قال : وإن أباه دعا بالمرأة الثيب وقال لها : أنت صنعت هذا بابنى حتى هرب فقتلها ، وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل ، وقال العاشر الذى أنكر روى الحضرة : ما يؤمنى أن يقتلنى كما قتل التسعة ، فهرب حتى أتى قرية ، فإذا المرأة الهاربة أيضا فى تلك القرية فكانت تحتطب ، فقالت يوما : باسم الله ، فسمعها الرجل الهارب ، فقال لها : من أنت ؟ فأخبرته خبرها ، فقال : يا هذه أنا العاشر ، خرجت خوف القتل ، فهل لك أن أتزوجك ونعبد الله حتى نموت ؟ فقالت نعم ، ثم إنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة ، فاتخذا بيتا من قصب ومكثا فيه ورزقا فيه ثلاثة أولاد ، فقال لها الرجل : إذا أنا مت فادفني في هذا البيت ، وكذلك كل من مات منكم ، فإني لأحب أن تكون قبورنا مع هؤلاء ، فإذا كان

آخرنا موتا يوصى أن يهدم عليه البيت ، فمات الرجل فدفنته امراته ، ثم إنه بلغ فرعون
 زمانهم أنهم يوحدون الله ويعبدونه ، فجىء بالمرأة إلى حضرته ، فأمرها أن ترجع عن دينها
 فأبت ، فأمر بقدر من نحاس فملئت ماء وأغلى غليانا شديدا ، وأمر بالمرأة وولدها ،
 فلما أحضروا قال لها : ارجعي عن دينك، وإلا ألقيتك أنت وأولادك في هذا القدر ،
 فأبت عليه ، فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه ، فتنسخ فيه ، وكذلك الثاني ، وكان في حجرها
 ابن رضيع فأرادوا إلقاءه ، فرقت المرأة ونازعتهم في شأنه ، فتكلم الغلام الرضيع وقال لها :
 اصبري فإننا جميعا في الجنة ؛ فلما أرادوا أن يلقوها في القدر قالت لهم : لي إليكم حاجة يسيرة ؛
 قالوا : وما هي ؟ قالت إذا رميتوني في القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا في بيتنا
 واهدموه علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما أُسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم وجد رائحة
 طيبة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ فأخبره بقصتهم وقال : هذه رائحتهم . ويروى أن
 جبريل عليه السلام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن قوما من أهل تلك المدينة
 ركبوا البحر في تجارتهم ، فضربتهم الأمواج فتكسرت بهم سفينتهم ، فانفقت منهم رجلا
 على لوح من ألواحها ، فضربتهم الأمواج حتى أسندتهما إلى جزيرة من جزائر البحر ،
 فخرجا يجولان في الجزيرة ، فإذا هما بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلي ،
 فجلسا حتى فرغ من صلاته ، فالتفت إليهما وقال لهما : من أنتم ؟ قالا : نحن من مدينة
 كذا وكذا ، خرجنا في هذا البحر لطلب التجارة فانكسرت بنا هذه السفينة ودفننا إلى
 هذه الجزيرة ؛ فقال : اختارا إن شئتما أن تقما في هذا الموضع تعبدان الله وتأتيكما أرزاقكما
 وإن شئتما أردكما إلى منازلكما ؛ قالا : بل تردنا إلى منازلنا ، فقال لهما : على أن تعطيا
 عهد الله وميثاقه على أنكما لا تخبران بشيء مما تريانه ، فأعطياه العهد والميثاق على الكتمان ،
 فنظر فإذا سمائب تمر ، فدعاهن وسألهن ، فقالت كل واحدة منهن : أريد بلد كذا وكذا ،
 فدعا التي تريد بلادها فقال : لها : احملى هذين حتى تضعيهما على سطحيهما ، فسقطت
 السحابة وانشقت لهما ثم رفعتهما ومضت حتى وضعتهما على سطحيهما ، فعزم أحدهما على
 الكتمان ونزل إلى منزله وعزم الآخر على إذاعته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق
 إلى باب المدينة ، ونادى : النصيحة ، فأدخل على الملك ، فقال له : ما نصيحتك ؟ فقال :
 رأيت ابنك في موضع كذا وكذا وصنع بي كذا وكذا ، فقال له : من يعلم ذلك ؟ قال :
 فلان كان رفيقي فبعث إليه وسأله عما قال ؟ فقال : أما ركوب البحر فقد ركبنا جميعا
 وقد انكسرت بنا السفينة وصرنا على لوح من ألواحها ، فلم تنزل الأمواج تضربنا حتى صرنا
 إلى الساحل ، فخرجنا من البحر ، فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والبحر ،
 ترفنا أرضا وتضعنا أخرى حتى انتهينا إلى منازلنا ، فقال له الغادر : ابعث معي رسلك
 حتى أدفعه إليك وتعلم أن هذا قد كذب ، فأمر بالرجل الكاتم فحبس ، وتوعده بالصلب
 إن وفي صاحبه بما قال ، وأوعد الغادر بالصلب إن هو كذب ولم يأت به ، فبعث معه رسلا

فركبوا البحر حتى انتهوا إلى الجزيرة ، فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئا ، فرجعوا بالرجل إلى الملك وقالوا : هذا أكذب خلق الله ما رأينا مما قال شيئا ، فصلبه وخلي عن الآخر ، ثم إن أهل تلك المدينة لم يزالوا يعملون المعاصي حتى غضب الله عليهم . قال جبريل عليه السلام ، فبعثنى الله تعالى إليهم ، فأدخلت جناحي تحتها واقتلعتها ، فرفعتها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك ، ثم أمرني فقلبتها ، فجاءت نهوى بمن فيها حتى انتهت إلى وجه الأرض ، فبقي بيت الرجل الكاتم والمرأة الكاتمة من جانب سالمين ، ثم انطبقت الأرض بمن فيها ، فلم ينج منهم غيرهما ، فجعلنا يدوران في حدود المدينة فلا يلتقي كل واحد منهما غير صاحبه ، فلما أن كثر ذلك ، قال الرجل : أيتها المرأة قد رأيت ما أصاب القوم وإنه لم يفلت غيري وغيرك ، فبأي شيء نجونا ؟ فأخبريني وأنا أخبرك ، فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا ، فإذا قصتهما واحدة وإنما نجاهما الكتمان ، فقال لها : هل لك أن تزوجيني نفسك ونخرج إلى مدينة من هذه المدائن فأكتسب عليك وتكتسبين علي حتى يقضى الله من أمرنا ما يشاء ؟ ففعلت ، فذهبا إلى مدينة فرعون من الفراعنة ، فاتخذا لهما بيتا وولدا لهما أولاد ، وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشطة لهم فحظيت عندهم ، فبينما هي ذات يوم قاعدة تسرح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : باسم الله ، تعس من كفر بالله ، ففرغت الحارية من ذلك وقالت لها : من الله ؟ قالت : ربي ، فقالت لها : وإن لك لربا غير أبي ؟ فقالت نعم ، هو ربي ورب أبيك ورب كل شيء ، فهبطت الحارية ودخلت على أبيها وقالت : تعلم أن فلانة تقول قولاً عجيباً ، تقول كذا وكذا ، فأرسل إليها فحضرت ، فقال لها : ما هذا الذي بلغني عنك ؟ فقالت : هو ما بلغك ، قال : فهل أحد يقول بقولك ؟ قالت نعم بعلي وصبيتي ، فبعث إليهم وامتحنهم ، فإذا هم يقولون قولاً واحداً ، فقال لهم : إنا لانقركم على ما أنتم عليه حتى ترجعوا إلى ديننا ، فقالوا له : اصنع ما أنت صانع ، فأمر بقدر من نحاس عظيمة ، فمئت ماء ثم أشعل تحتها حتى اضطرب الماء ، ثم دعا بالصبية فعرض عليهم واحداً واحداً ليكفروا ، فأبوا أن يكفروا ، فأخذهم وطرحتهم في القدر ، ثم إنه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى ، فألقاه في القدر ، ثم دعا بالمرأة وقال لها : إن لك علينا حقاً ، فإن أنت رجعت إلى ديننا وإلا ألقيناك في القدر ، فقالت له : اصنع ما أنت صانع ، ثم إنها قالت له : لي إليك حاجة ، قال : وما هي ؟ قالت : إذا صنعت ما أنت صانع ، فمر بيئنا أن يحفر فيه حفرة ، ثم تأمر بالقدر فتحمل بما فيها ، ثم يأتون بها بمنزلنا ، فيسكب ما في القدر في الحفرة ثم يعاد علينا التراب ، ثم يهدم علينا البيت ، ففعل ذلك ، فهذه الرائحة رائحة المسك تسطع من بيئهم إلى يوم القيامة . فهذه قصة الخضر مع أبيه وبدء أمره ، وكان في زمن إفريدون الملك ابن القباء على قول عامة أهل الكتب الأولى . وقيل إنه كان على علي مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في زمن إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي قضى بي

اليسع ، وهي بئر كان احتفرها إبراهيم عليه السلام لما شئته في صحراء الأردن ، وإن قوما من أهل الأردن ادعوا الأرض التي احتفرها فيها إبراهيم عليه السلام ، فحاكمهم إبراهيم عليه السلام إلى ذى القرنين الذى كان الحضر على مقدمته أيام مسيره في البلاد ، وأنه بلغ مع ذى القرنين نهر الحياة وشرب من مائه وهو لا يعلم به ولا يعلم ذو القرنين ومن معه في محله ، فخلد وهو في الحياة إلى الآن . وقيل إن ذى القرنين الذى كان على عهد إبراهيم عليه السلام وكان الحضر عليه السلام على مقدمته هو أفريدون الملك . وزعم بعضهم أن الحضر من ولد من كان آمن بابراهيم خليل الرحمن واتبعه على دينه وهاجر معه من أرض بابل . وروى محمد بن إسحق بن يسار عن وهب بن منبه أن الحضر هو أرميا بن خلفيا ، وكان من سبط هارون بن عمران ، وهو الذى بعثه الله نبيا في أيام ناشئة بن أموص ملك بني إسرائيل والقول الأول أشبه بالحق وأولى بالعدل والصدق ، لأن ناشئة بن أموص كان في عصر كرفشت بن كرارشت في أيام بختنصر ، وبين إفريدون وكرفشت من الدهور والأزمان ما لا يجمله ذو علم بأيام الناس وأخبارهم .

وقد صح الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي بن كعب أن صاحب موسى بن عمران الذى أمر بطلبه وبالاقتباس منه هو الحضر عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بالأمور الماضية والباقية ، وموسى بن عمران إنما نبى في عصر متوشهر الملك ، وكان متوشهر الملك بعد جده أفريدون ، فدل هذا على خطأ من قال إنه أرميا بن خلفيا ، لأن أرميا كان في أيام بختنصر ، وبين عهد موسى وبختنصر من المدة ما لا يخفى على أهل العلم ، اللهم إلا أن يكون الأمر كما قال من قال : إنه كان على مقدمة ذى القرنين صاحب إبراهيم عليه السلام ، فشرب من ماء عين الحياة ، فخلد ولم يبعث في أيام إبراهيم ومن بعده إلى أيام ناشئة بن أموص ، فبعث حينئذ نبيا ، والله أعلم .

والصحيح أنه نبى معمر محجوب عن الأبصار .

وروى محمد بن المتوكل عن ضمرة بن عبيد الله بن سوار قال : الحضر من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان في كل عام في الموسم . وأخبرني محمد بن القاسم ، أخبرنا أبو بكر محمد بن القاسم قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد بن يعقوب قال : أخبرنا يزيد ابن سمعان بن حبان الواسطي ، أخبرنا علي بن المنذر عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : إن الحضر وإلياس لا يزالان حين في الأرض ما دام القرآن فيها ، فإذا رفع القرآن ماتا . وأخبرني أبو عمرو العمراني ، أخبرنا أبو أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن إسحق الأنماطي ، أخبرنا أبو همام الوليد بن شجاع السلمى ، أخبرنا عمر بن عبد الواحد السلمى عن ابن ثوبان عن بعض أهل العلم عن أنس بن مالك قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا بصوت يجيء من شعب ، فقال يا أنس انطلق فأبصر ما هذا الصوت ؟ قال : فانطلقت فإذا رجل يصلى ويقول : اللهم اجعلني من

أمة محمد المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتاب عليها ، فأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمته بذلك ، فقال لي : انطلق فقل له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقربك السلام ويقول لك من أنت ؟ فأثبتته فأعلمته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : أقرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام وقل له : أخوك الخضر بقول له : ادع الله أن يجعلني من أمتك المرحومة المغفور لها المستجاب لها المتاب عليها .

رجعنا إلى حديث موسى وفتاه ، قالوا : فأنهى موسى وفتاه إلى الخضر وهو قائم يصلي على طنفسة خضراء على وجه الماء ، وهو متشح بثوب أخضر ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ، قال : يا موسى لقد كان في بنى إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدثان ، فجاءت حطافة وحملت بمنقارها من الماء ، فقال الخضر : يا موسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض ، ما علمك وعلمي وعلم جميع الأولين والآخرين في جنب علم الله تعالى إلا أقل من الماء الذي حملته الحطافة بمنقارها ، فذلك قوله تعالى (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) أى نبوة وحكمة (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) .

وقال ابن عباس : كان الخضر يعلم علم الغيب ، فقال له موسى (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ؟ قال إنك لئن تستطيع معي صابراً) لأنى أعلم علم الباطن علما علمنيه الله تعالى (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً) يعنى ما لم تعلمه ، قال موسى (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً) قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ) علمته مما تنكره (حتى أحدث لك منه ذكراً) وأبين لك شأنه (فانطلقا) يسيران يلتمسان سفينة يركبان فيها ، فمرت بهما سفينة جديدة وثيقة فركباها ، فقال أصحاب السفينة : هؤلاء بلصوص ، وأمرؤهم بالخروج منها ، فقال صاحب السفينة : ما هؤلاء بلصوص ، ولكنى أرى وجوههم وجوه أنبياء .

وقال أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلقا بمشيان على ساحل البحر إذ مرت بهما سفينة ، فكأموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما دخلوا في البحر أخذ الخضر عليه السلام فأسا فخرق لوحاً من السفينة حتى دخلها الماء ، فحشاها موسى بشوبه (وقال) أخرقتها لتغرق أهلها) وقد حملونا وأحسنوا إلينا فخرقت سفينتهم ما هذا جزاؤهم منا (لقد جئت شيئا إمرأ) أى عجباً منكراً ، قال الخضر (ألم أقل إنك لئن تستطيع معي صابراً قال) موسى (لانتواخذنى بما نسيت ولا ترهقننى من أمرى عسراً) يعنى لانكلفنى ولا تضيق على أمرى .

قال ابن عباس : لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية وقال في نفسه : ما كنت اصنع بمصاحبة هذا الرجل ، كنت في بني اسرائيل اتلو عليهم كتاب الله غدوة وعشية وامرهم فيطعموني ، فقال له الخضر : يا موسى اتريد ان اخبرك بما حدثت به نفسك ؟ قال : نعم ، قال : قلت : كذا وكذا ، قال صدقت . فانطلقا يمشيان حتى اتيا ايلة فاذا هما بغلمان عشرة ، فيهم غلام هو اظرفهم واضوؤهم وجها .

قال ابن عباس : كان غلاما لم يبلغ الحلم . وقال الضحاك : كان غلاما يعمل الفساد ، فتأذى منه أبوه . وقال الكلبي : كان الغلام يسرق المتاع بالليل فاذا أصبح لحأ إلى أبويه فيحلفان دونه شفقة عليه ويقولان لقد بات عندنا .

واختلفوا في اسمه ، فقال الضحاك : كان اسمه حسود . وقيل الحسين ، وقال وهب بن منبه : كان اسم أبيه ملاس ، واسم أمه رحمة . قال : فأخذه الخضر عليه السلام فقتله .

واختلفوا في كيفية قتله ، قال سعيد بن جبير : أخذه فأضجعه ثم ذبحه بالسكين . وقال الكلبي : صرعه ثم نزع رأسه . وقال قوم : رفسه برجله فقتله : وقال آخرون : ضرب رأسه بالحدار حتى قتله ، وفي رواية أخرى : أدخل أصابعه في سرة الصبي فاقتلعها فمات . فلما قتله قال موسى (أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً) يعني طاهرة لم تذنّب ولم تستوجب القتل (بغيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَنِي شَيْئًا نُّكْرًا) أي منكرا . قال قتادة : المنكر أشد وأعظم من الإمرا ، قال ففضب الخضر واقتلع كتف الصبي الأيسر ، وقشر اللحم عنه ، فاذا في عظم كتفه مكتوب : كافر لا يؤمن بالله أبدا .

ويدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به عبد الله بن حامد ، أخبرنا أحمد بن عبيد الله ، أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان ، أخبرنا يحيى ، أخبرنا قيس عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كان الغلام الذي قتله الخضر طبيع كافرا » . فقال الخضر لموسى (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) ، قال إن سألتك عن شيء بعد ما فلان نصاحبني قد بلغت من الدني عندرا) أي في فراق .

أخبرنا عبد الواحد بن حامد الوزان ، أخبرنا مكى بن عبدان ، أخبرنا عبد الرحمن بن بشر ، أخبرنا حجاج بن محمد ، أخبرنا حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أحدا بدعائه بدأ بنفسه فقال ذات يوم : رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي مُوسَى لَوْ لَبِثَ مَعَ صَاحِبِهِ لِأَبْصَرَ الْعَجِيبَ الْعُجَابَ وَلَكِنَّهُ قَالَ : (إن سألتك عن شيء بعد ما فلان نصاحبني ، قد بلغت من لدني عذرا ، فانطلقا) يمشيان (حتى أتيا أهل قرية) .

واختلفوا في القرية ، قال ابن عباس : هي أنطاكية . وقال محمد بن سيرين : هي أيلة

وهي أبعد أرض الله من السماء . وقيل هي قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة ، وإليها ينسب النصارى . قاله ا : فوافياها قبل غروب الشمس ، فاستطعا أهلها واستضافاهم ، فأبوا أن يضيفوهما . قالوا : كان أهل قرية لثاما . وقال قتادة في هذه الآيات : شر القرى لاتضيف الضيف ، ولا تعرف لابن السبيل حقه . قالوا : فلم يجدوا تلك الليلة في تلك القرية قرى ولا ماء ولا مأوى ، وكانت ليلة باردة ، فالتجئوا إلى حائط على شارع الطريق (يريد أن ينقض) أى يكاد ينهدم ويسقط ، ولم يكن يمر به أهل القرية ولا غيرهم من الناس إلا على خوف منه ، وكان قد بناه رجل صالح .

وفي بعض الأخبار : أن سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن ، وكان طوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعاً ، فأقامه الحضرة : أى سواه . وقال ابن عباس : هدمه وبناه . وقال سعيد بن جبير : مسح الحدار وسواه بيده ومنكبيه فاستقام ، فقال له موسى (لَو شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) ليكون لنا قوتاً وبلغة على سفرنا ، إذ استضافناهم فلم يضيفونا ، فقال له الحضرة (هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) ثم أخذ يفسر له فقال : (أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) الآية . قال كعب وغيره : كانت لعشرة إخوة زمنى لم يكن لهم معيشة غيرها ، ورثوها من أبيهم ، خمسة منهم يعملون في السفينة في البحر ، وخمسة لا يطبقون العمل ، فأما العمال منهم : فأحدهم كان مجذوماً ، والثاني أعور ، والثالث أعرج ، والرابع أدر ، والخامس محموم لاتنقطع عنه الحمى الدهر كله ، وهو أصغرهم ، والخمسة الذين لا يطبقون العمل : أعمى ، وأصم ، وأخرس ، ومقعّد ، ومجنون . وكان البحر الذي كانوا يعملون فيه ما بين فارس إلى بحر الروم .

ويروى عن عكرمة قال : قلت لابن عباس في قوله (أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) كانوا مساكين ، والسفينة تساوى ألف دينار ، فقال : إن المسافر مسكين وإن كان معه ألف دينار ، ولهذا قيل : إن المسافر وماله على قلت إلا ما وقى الله تعالى (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) قطعاً لطمع الطامعين فيها ، ودفعاً لشرهم (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا) وراءهم : أى أمامهم ، قال الله تعالى (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أى أمامهم ، وقيل خلفهم لأنه كان رجوعهم في طريقهم عليه ، ولم يكونوا يعلمون خبره ، فأعلم الله تعالى الحضرة خبره ، وكان يأخذ كل سفينة صالحة غصباً ، وكذلك كان يقرؤها ابن عباس ، فخرقها وعبثها كيلا يتعرض لها ذلك الملك . واختلفوا في اسم ذلك الملك ، فقال أكثر العلماء : اسمه جلندى ، وكان كافراً . وقال ابن إسحق : كان اسمه منواه بن جلندى الأردنى . وقال شعيب الجبائى : كان اسمه هدد ابن بدد . وقيل كان لهذا الملك ثلاث مئة وستون قصراً في كل قصر امرأة . قال : فلما جاوزوا الملك سد الحضرة خرق السفينة ورمتها .

(۱) القلت بالتحريك : الهلاك . وقد قلت يقلت قلنا : إذا هلك . وبنابه مرجح .

(وَاَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ اَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا) اى فعلمنا (اَنْ يَرِهِنَّ) يغشاها (طَغْيَانًا وَكُفْرًا) فيهلكهما . وقيل خشى اَنْ يدرك فيدعو اَبويه الى الكفر فيجيباه ويدخلا معه فى دينه لفرط محبتهما له . وقيل خشيا على الغلام اَنْ يعمل عمل الفساق فيتغافل اَبواه فيدخلان النار (فَاَرَدْنَا اَنْ يُبَدِلَهُمَا رُبَّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً) وصلاحا (وَاَقْرَبَ رَحْمًا) . قال ابن عباس : يعنى واصلا للرحم وبرًا لوالديه ، فأبدلها الله جارية مؤمنة أدركت يونس بن متى وتزوجها نبي من الأنبياء ، فولدت له نبيا ، فهدى الله على يديه أمة من الأمم .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا حامد بن أحمد قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يحيى بن الحارث ، أخبرنا عبد الوهاب بن فليح ، أخبرنا ميمون بن القداح عن جعفر ابن محمد المصادق عن أبيه فى هذه الآية قال : أبدلها جارية فولدت سبعين نبيا . وقال ابن جريج : أبدلها بغلام مسلم وكان المقتول كافرا . وقال قتادة فى هذه الآية : قد فرح به اَبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى كان فيه دلا كهما ، فرضا المؤمن بقضاء الله تعالى فيما يكره ، خير له من رضاه فيما يحبه .

(وَاَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) واسمهما ، أصرم وصريم (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) .

واختلفوا فى ذلك الكنز ما هو ؟ فقال ابن عباس وسعيد بن جبیر كان صحفا مدفونة تحته فيها علم . وقال الحسن وجعفر بن محمد : كان لوحا من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، عجبا لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن : وعجبا لمن يوقن بالرزق كيف يتعب ، وعجبا لمن يوقن بالموت كيف يفرح ! وعجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يجمع ! وعجبا لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها ! لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : كان ذلك الكنز مالا ، يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الحمشادى المزكى ، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن قيدوس الطرائقى ، أخبرنا عثمان بن سعيد ، أخبرنا صفوان ابن صالح الدمشقى ، أخبرنا يزيد بن مسلم الصنعائى عن يزيد بن يزيد عن مكحول عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا) قال « كان ذمبا وفضة » وكان اَبوهما اسمه كاشح ، وكان صالحا تقيا أميناً فحفظا لصلاح أبيهما ولم يذكُر منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذى حفظا به سبعة آباء .

أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد قال : أخبرنا بشر بن موسى ، أخبرنا الحميدى : أخبرنا سفيان ، أخبرنا محمد بن سوقة عن محمد المنكدر قال : إن الله عز وجل ليحفظ

بالرجل الصالح ولده وولد ولده ، وبقعته التي هو فيها ، والدويرات التي حوله ،
فما يزالون في حفظ الله وستره . وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا رأى ابنه قال يا بني :
لأزيدن في صلاتي من أجلك ، لعل أحفظ فيك ، ويتلو هذه الآية .

أخبرنا يحيى بن إسماعيل بن سلمة قال : كانت لي أخت أسنّ مني فاختلطت وذهب
عقلها فتوحشت ، وكانت في غرفة في أقصى سطوحنا ، فلبثت كذلك بضع عشرة سنة ، وكانت
مع ذهاب عقلها تحرص على الصلاة والطهور ، فبينما أنا نائم ذات ليلة ، إذ أنا بباب بيتي
يدق نصف الليل ، فقلت من هذا ؟ فقالت بحة ، فقلت أختي ؟ قالت أختك ، فقلت لبيك ، فقممت
ففتحت الباب فدخلت ولا عهد لها في البيت أكثر من عشرين سنة ، فقالت يا أختي خيرا ،
فقلت خيرا يا أختي ، بت الليلة فأتاني آت في منامي فقال لي السلام عليك يا بحة ، فقالت
وعليك السلام . فقال لي : إن الله تعالى قد حفظ أباك إسماعيل بن سلمة بن كهيل بسلمة
جدك ، وحفظك بأبيك إسماعيل ، فإن شئت دعوت الله لك فيذهب ما بك ، وإن شئت صبرت
ولك الجنة ، فإن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما قد تشفعا لك إلى الله تعالى لحب أبيك وجدك
إياهما ، فقلت إن كان ولا بد من اختياري أحدهما ، فالصبر على ما أنا فيه والجنة ، وإن
الله لو اسع الفضل لخلق لا يتعاضمه شيء في حكمه ولو شاء لجمعهما لي ، قالت : فقيل لي قد
جمعهما الله لك ورضي عن أبيك وجدك بجهما أبا بكر وعمر ، فانزلي فإن الله أذهب ما كان بك .
ويحكى عن بعض العلوية أنه دخل على هارون الرشيد وقد همّ بقتله ، فلما دخل عليه
أكرمه وخلي سبيله ، فقيل له : بم دعوت حتى نجاك الله ؟ قال : قالت : يا من حفظ الكنز
على الصبيين لصالح أيهما احفظني منه لصالح آبائي (فأراد ربك أن يبذلنا أشدّهما
ويستخرجنا كنزهما) المدفون تحت الجدار (وما فعلته عيني أمرى) وإنما فعلته بأمر
الله تعالى (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) .

ويقال : لما عاب موسى على الحضرة خرق السفينة وقتله الغلام وإقامة الجدار محتسبا
مجانا ، قال له : يا موسى أتلومني على خرق السفينة مخافة غرق أهلها ، ونسيت نفسك
حين أقتك أمك وأنت صغير في اليمّ ضعيف فحفظك الله ؟ وتلومني على قتل الغلام الكافر
بلا أمر ، ونسيت نفسك حين قتلت القبطي بغير أمر ؟ وتلومني على ترك أخذ الأجرة
في إقامة الجدار ، ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب محتسبا لأجل الملك الجبار ؟
قال بعض أهل الأخبار : : هذا ما كان من قصة موسى وفتاه وقصدهما الحضرة حيث
كانوا في التيه ، فلما فارق موسى الحضرة رجع إلى قومه ، وهم في التيه .

ويروى عن علي بن أبي طالب وغيره أن موسى لما أراد فراق الحضرة قال له الحضرة :
استودعتك الله ، ثم قال له موسى : أوصني ، فقال له الحضرة : لاتكن مشاء في غير حاجة ،

وإياك واللجاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخاطئين بخطاياهم ، وإياك على خطيئتك ، ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد .

وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ألا أحدتكم عن الخضر؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : بينما الخضر يمشي في سوق من أسواق بني إسرائيل إذ لقيه مكاتب فقال له تصدق علي بآية الله لك ، فقال : آمنت بالله وما يقضي الله من أمر سيكون ، ما معي من شيء أعطيته ، فقال الرجل تصدق علي بآية الله عليك فإني أرى الخضر في وجهك فرجوت الخير من قبلك ، فقال له الخضر : آمنت بالله وما يقضي الله من أمر سيكون ، ما معي شيء أعطيته ، فقال له السائل : أسألك بالله لما تصدقت علي ، فقال له الخضر : آمنت بالله ما يقضي الله من أمر سيكون ، ما معي شيء أعطيته إلا أن تأخذ بيدي وتدخلني في السوق فتبيعني ، قال الرجل : وهل يكون مثل هذا؟ قال : الحق أقول إنك سألتني بعظيم سألتنني بوجه ربي وقد أحببتك ، فخذ بيدي وأدخلني السوق فبيعني ، فأخذ بيد الخضر فأدخله السوق فباعه بأربعمائة درهم ، فلبث عند المبتاع أياما لا يستعمله في شيء ، فقال له الخضر : استعملني ، فقال له : إنك شيخ كبير وأكره أن أشق عليك ، قال لا يشق علي ذلك ، قال فقم فانقل هنيهة الحجارة من ههنا إلى ههنا ، وكانت الحجارة لا ينقلها إلا ستة نفر في يوم تام ، فقام ونقلها في ساعة واحدة ، وأمدته الله تعالى على نقلها بملك من الملائكة ، فتعجب الرجل منه وقال أحسنت ، ثم عرض لرجل سافر فقال للخضر : إني أراك أمينا صالحا ناصحا فاحلفني في أهلي ، قال نعم إن شاء الله تعالى فاستعملني في شيء ، قال أكره أن أشق عليك ، قال : لا يشق ذلك علي ، فقال : اضرب لي لبنا أريده لقصري ، ووصفه له ، ثم خرج لسفريه . فلما قضى حاجته ورجع من سفره إذ هو بالخضر عليه السلام قد شيد بنيانه على ما أراد ، فازداد منه تعجباً ، وقال له من أنت؟ قال : أنا المملوك الذي كنت اشتريتني ، فقال له : سألتك بوجه الله أن تخبرني من أنت؟ فقال الخضر : إن هذا القسم هو الذي أوقعني في العبودية أملاً أني فسأخبرك ، أنا الخضر سألتني سائل بوجه ربي أن أعطيه ولم يكن معي شيء أعطيه ، فأدكنته من نفسي حتى باعني ، وبلغني أن من سئل بوجه الله ورد سائله وهو بقدر على قضاء

حاجته وَقَفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَي رَّبِّهِ وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِهِ لَحْمٌ وَلَا جِلْدٌ إِلَّا عَظْمٌ يَتَقَعَّقُ ، قَالَ : فَبَكَى ذَلِكَ الرَّجُلُ وَانْكَبَّ عَلَيْهِ يَقْبَلُهُ وَيَقُولُ لَهُ : يَا أَبَى أَنْتَ وَأُمِّي شَقَقْتُ عَلَيْكَ وَلَمْ أَعْرِفْكَ فَاحْكُمْ عَلَيَّ فِي مَالِي وَأَهْلِي ، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ أُخَلِّي سَبِيلَكَ فَعَلْتُ ، قَالَ نَعَمْ بَلْ أَحِبُّ أَنْ تُخَلِّي سَبِيلِي أَعْبُدُ رَبِّي ، وَكَانَ الرَّجُلُ كَافِرًا فَاسْتَمَّ عَلَى يَدَيْهِ وَأَعْطَاهُ أَرْبَعَ مِئَةِ دِينَارٍ وَخَلَّى سَبِيلَهُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ قَدْ نَجَّيْتُكَ مِنَ الرَّقِّ وَأَسْلَمَ الْكَافِرُ عَلَى يَدَيْكَ ، وَأَعْطَاكَ مَكَانَ كُلِّ دِرْهَمٍ دِينَارًا ، لَتَعْلَمَ أَنْ لَا يَخْسِرَ لِحْدًا فِي مُعَامَلَتِي . فهذا آخر قصة الحضرة موسى وفتاه ، والله أعلم .

باب في ذكر قصة عاميل قتيل بنى إسرائيل وقصة البقرة

قال الله تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً) قال المفسرون : وجد قتيل في بنى إسرائيل اسمه عاميل لم يدُر من قتله . واختلفوا في قاتله وسبب قتله ، فقال عطاء والسدي : كان في بنى إسرائيل رجل كثير المال ، وله ابن عم مسكين ولا وارث له غيره ، فلما طالت عليه حياته قتله ليرثه . وقال بعضهم : كان تحت عاميل ابنة عم له مالها في بنى إسرائيل مثل في الحسن والجمال ، فقتله ابن عم لها لينكحها ، فلما قتله حمله من قرية إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقال عكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا ، لكل سبط منهم باب ، فوجد قتيل على باب سبط جر إلى باب سبط آخر ، فاختم فيه السبطان . وقال ابن سيرين : قتله القاتل ثم احتمله ووضع على باب رجل منهم ، ثم أصبح يطلب ثأره ودمه ويدعيه عليه ، وقيل ألقاه بين القريتين فاختم أهلها وجاء أولياؤه إلى موسى وأتوه بناس وادعوا عليهم القتل وسألوه القصاص ، فسأهم موسى عن ذلك فجحدهوا ولم يكن لهم بينة ، فاشتبه أمر القتيل على موسى ووقع بينهم قتال واختلاف : وذلك قبل نزول القسامة في التوراة ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم أمر ذلك القتيل . فسأل موسى ربه ، فأمرهم بذبح البقرة ، فقال لهم موسى (إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا) جئناك لنسألك عن القتيل فتأمرنا بذبح بقرة ، وإنما قالوا ذلك لتباعد الأمرين في الظاهر ، ولم يدروا وجه الحكمة فيه ، فقال موسى (أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أى من المستهزئين بالمومنين . فلما علم القوم أن ذبح البقرة أمر من الله تعالى قد لزمهم ، سألوه الوصف فقالوا (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟) ولو أنهم عملوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، لكنهم شددوا الأمر على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وإنما كان تشديدهم تقديرا من الله وحكمة . وكان السبب فيه على ما ذكره السدي وغيره : أن رجلا في بنى إسرائيل كان بارا بأبيه ، وبلغ من بره أن

رجلا أتاه بلؤلؤة فابتاعها بخمسين ألفا ، وكان فيها فضل وربح ، فقال البائع : أعطى ثمن اللؤلؤة ، فقال : إن أبي نائم ومفتاح الصندوق تحت رأسه فأمهلى حتى يستيقظ وأعطيك الثمن ، فقال : أيقظ أباك وأعطني المال ، فقال : ما كنت لأفعل ، ولكن أزيدك عشرة آلاف وأنظرنى حتى ينتبه أبى ، فقال الرجل : أنا أحط عنك عشرة آلاف إن أيقظت أباك وعجلت النقد ، فقال : أنا أزيدك عشرين ألفا إن انتظرت انتباهه ، فقال : قبات ، ففعد ولم يوقظ أباه . فلما استيقظ أبوه أخبره بذلك ، فدعا له وجزاه خيرا وقال له : أحسنت يا بنى ، وهذه البقرة لك بما صنعت ، وكانت بقية بقر كانت لهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه القصة « انظروا ما صنع الله به لأجل البر » .

وقال ابن عباس ووهب وغيرهما من أهل الكتب : كان في بنى إسرائيل رجل صالح ، وله ابن طفل ، وكان له عجلة ، فأتى بالعجلة إلى غيضة وقال : اللهم إني استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ، ثم مات الرجل وشبت العجلة في الغيضة حتى صارت عوانا ، وكانت تهرب من كل من رآها . فلما كبر الابن ، وكان باراً بوالدته ، وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث : يصلى ثلثا ، وينام ثلثا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثا ، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره ، فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ، ثم يتصدق بثلثه ، ويأكل بثلثه ، ويعطى والدته ثلثه ، قالت له أمه يوما : يا بنى إن أباك ورثك عجلة وذهب بها إلى غيضة كذا وكذا واستودعها الله تعالى ، فانطلق إليها واعزم عليها بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق أن يردّها عليك ، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يتخيل لك أن شعاع الشمس يخرج من جلدّها وكانت اسمها المذهبة لحسن خلقها وصفاء لونها وهفرتها ، فأتى الغيضة فرآها وهى ترعى ، فصاح بها الفتى وقال لها : أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب أن تردى على : فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه ، فقبض على عنقها وقادها ، فتكلمت البقرة بإذن الله تعالى وقالت : أيها الفتى البار بوالدته اركبني فإن ذلك أهون لك ، فقال : إن أمى لم تأمرنى بذلك وإنما قالت خذ بعنقها ، فقالت البقرة : وإله بنى إسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبدا ، فانطلق فإنك لو أشرت إلى الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق لافعل لبرك بوالدتك فانطلق الفتى بها ، فاستقبله عدو الله إبليس في صورة راع ، فقال له : أيها الفتى إني راع من رعاة البقر اشتقت إلى أهلى ، فأخذت ثورا من ثيرانى وحمات عليه زادى ومتاى حتى إذا بلغت شطر هذه الطريق ذهبت لأقضى حاجتى ، ففدا وسط الجبل وما قدرت عليه ، وإني لأخشى على نفسى الهلكة ، فإن رأيت أن تحملنى على بقرتك هذه وتنجينى من الموت وأعطيك بقرتين مثل بقرتك ، فلم يفعل الفتى وقال : اذهب فتوكل على الله ، فلو علم الله منك اليقين لبلغك بلا زاد ولا راحلة ، فقال له إبليس لعنه الله : إن شئت فبعينها بحمك وإن شئت فاحملنى عليها وأعطيك عشرة أمثالها ، فقال له الفتى : إن أمى لم تأمرنى بهذا ، فبين الفتى كذلك إذ طار طائر من بين يدى البقرة ، فنشرت البقرة هاربة في الفلاة وغاب الراعى

فدعاها الفتى وقال : باسم الله إله إبراهيم فرجعت إليه البقرة وقالت : أيها الفتى البار بوالدته
ألم تر إلى الطائر الذى طار ، فإنه إبليس عدو الله اختلسنى ، أما إنه لو ركبنى لما قدرت على
أبدا ، فلما دعوت بآله إبراهيم جاءنى ملك انتزعنى من يد إبليس وردنى إليك لبرك بأمك
وطاعتك لها ، فجاء بها الفتى إلى أمه ، فقالت له : إنك فقير لامال لك ، ويشق عليك
الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل ، فانطلق فبع هذه البقرة وخذ ثمنها ، فقال : بكم أبيعها ؟
فقلت : بثلاثة دنانير ولا تبعها بغير رضاي ومشورتي ، وكان ثمن البقرة فى ذلك الوقت
ثلاثة دنانير فانطلق بها إلى السوق ، فبعث الله إلى الفتى ملكا ليرى خلقه قدرته ، وليختبر
الفتى كيف بره بوالدته ، وكان الله به خبيرا ، فقال له الملك بكم تبيع هذه البقرة ؟ فقال :
بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا والدتى ، فقال له الملك بكم تبيع هذه البقرة ؟ فقال :
بأمك ، فقال له الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضا أمى ، فردها إلى أمه فأخبرها
بالثمن ، فقالت : ارجع فبيعها بستة دنانير على رضاي ، فانطلق الفتى بالبقرة إلى السوق ، فأبى
الملك فقال له : استأمرت والدتك ؟ فقال الفتى : نعم ، أمرتنى ألا أنقصها عن ستة دنانير
على أن أستأمرها ، فقال له الملك : إني أعطيك اثني عشر دينارا على أن لاتستأمرها ، فأبى
الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك ، فقالت : إن ذلك الرجل الذى يأتيك هو ملك من
الملائكة يأتيك فى صورة آدمى ليختبرك ، فإذا أتاك فقل له : أأمرنى أن أبيع هذه البقرة
أم لا ؟ ففعل الفتى ذلك ، فقال له الملك : اذهب إلى أمك وقل لها أمسكى هذه البقرة ،
فإن موسى بن عمران يشترىها منك لقتيل يقتل فى بنى إسرائيل ، ولا تبيعها إلا بملء مسكها
دنانير ، فأمسكا البقرة ، وقدر الله على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها مكافأة له على
بره بوالدته فضلا منه ورحمة ، فذلك قوله تعالى (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ)
وما سمئها ؟ (قال) موسى (إنّه) يعنى الله (يقول) إنها بقرة " لا فارض " ولا بكر (أى لا كبيرة
ولا صغيرة) (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) نَصَفَ بَيْنَ السَّنَيْنِ (فافعلوا ما تؤمرون) من ذبح
البقرة ولا تكثروا السؤال (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا؟) قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِيعٌ لَوْنُهَا تَسْرُ النَّاطِرِينَ) إليها ، وتعجبهم من حسنها وصفائها ،
لأن العين تسر وتولع بالنظر إلى الشيء الحسن . وقال على بن أبى طالب : من لبس نعلا
صفراء قلّ همه ، لأن الله تعالى يقول (صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قَالُوا ادْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ) أسائبة أم عاملة (إِنَّ الْبَقْرَةَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
لَمُهْتَدُونَ) إلى وصفها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وأيم الله لو لم يستثنوا
لما قبيلت منهم إلى آخر الأبد » (قال : إنه يقول إنها بقرة " لا ذلول " مذلة بالحمل
(تُشِيرُ الْأَرْضَ) تلقاها للزراعة (وَلَا تُسْنِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً) بريئة من العيوب
(لَاشِيَّةٌ فِيهَا) قال عطاء : لا عيب فيها . وقال قتادة : لا يبيض فيها أصلا . وقال محمد
ابن كعب : لالون فيها يخالف معظم لونها . قال : فلما قال لهم موسى هذا (قَالُوا الْآنَ

جِئْتَ بِالْحَقِّ) أى بالوصف الثابت التام البين ، فطلبوها فلم يجدوها بكمال وصفها إلا عند الفى البار بأمه ، فاشتروها منه بملء مَسْكُهَا ذهباً . وقال السدى : اشتروها بوزنها عشر مرات ذهباً (فذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) من غلو ثمنها . وقال القرطبي : وما كادوا يذبحونها باجماع أوصافها ، وذلك قوله تعالى (وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا) يعنى عاميل ، وهذه الآية أول القصة (فادَارَأْتُمْ فِيهَا) أى فاختلغتم فيها (وَاللَّهُ يُخْرِجُ) أى مظهر (مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) أى تخفون (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ) يعنى القتيل (بِيَعْضِهَا) أى بغض البقرة . واختلفوا فى هذا البعض ما هو ؟ قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو المقتل . وقال الضحاك : بلسانها . قال حسين ابن الفضل . وهذا أولى الأقاويل ، لأن المراد من إحياء القتيل كلامه ، واللسان آلة . وقال سعيد بن جبیر : بعجب ذنبها . قال غياث : وهو أولى التأويلات بالصواب ، لأن عَجَبَ الذَّنْبِ أساس البدن الذى ركب عليه الخلق ، وهو أول ما يخلق الله وآخر ما يبلى . وقال مجاهد : بذنبها . وقال عكرمة الكلبي : بنخذها الأيمن . وقال السدى : بالبَضْعَةِ التى بين كتفها . وقيل بأذنيها ، ففعلوا ذلك ، فقام القتيل حياً بإذن الله تعالى وأوداجه تشخب دماً ، وقال : قتلى فلان ثم سقط ومات مكانه . قال الله تعالى (كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى) كما أحيا عاميل بعد موته (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) دلائل قدرته وشواهد حكمته (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) . قالوا فلما كان من أمر عاميل ما كان أوحى الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى الأرض المقدسة بنى إسرائيل لينظر إلى كل قتيل يوجد بين قريتين أو محلتين فيأخذ أقرب القريتين إليه ويلزمهم الدية ، فإن علموا قاتله سلموه إلى أهله ، وإن لم يعلموا تخيروا خمسين رجلاً من شيوخهم وصلحائهم ، ثم ليأخذوا بقرة حولية ويذبحوها ببطن واد يسميه لهم ، ثم لتضع الخمسون رجلاً أيديهم عليها ، ثم ليحلفوا بالله العظيم رب السموات والأرض إله بنى إسرائيل وإسحاق ويعقوب وإسماعيل إنا ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً ، فإذا حلفوا برئوا من دمه وأدوا ديبته إلى أوليائه ، فلم يزل موسى يقضى بالقسامة بينهم إلى أن مات ، وكذا بنو إسرائيل ، حتى جاء الإسلام ففضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقسامة ، والله أعلم .

باب فى ذكر بناء بيت المقدس والقربان والتابوت والسكينة ، وصفة النار التى كانت تأكل القربان ، وما أمر به موسى عليه السلام من ذلك

قال الله تعالى (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلاً نُوْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ بَاتَيْنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ) الآية .

أبانا محمد بن حمدويه بإسناده عن وهب بن منبه قال : أوحى الله إلى موسى أن يتخذ مسجداً لجماعتهم وبيت قدس للتوراة والتابوت والسكينة وقباباً للقربان ، وأن يجعل لذلك المسجد سرادقات باطنها وظاهرها من الجلود الملبسة عليها ، وأن تكون تلك الجلود من جلود

ذبائح القربان وحبالها التي تمد بها من أصواف تلك الذبائح ، وعهد إليه أن لا يغزل تلك الحبال حائض ، ولا يدبغ تلك الجلود جنب ، وأمره أن ينصب تلك السرادقات على عمد من نحاس طول كل عمود منها أربعون ذراعا ، ويجعل فيها اثني عشر قسما مسرجا ، فإذا انقضى وصار اثني عشر جزءا جعل على كل جزء بما فيه من العمد سبطا من أسباط بني إسرائيل ، وأمره أن يجعل سعة تلك السرادقات ست مئة ذراع في ست مئة ذراع ، وأن ينصب فيه سبع قباب ، ستة منها مشتبكة بقضبان الذهب والفضة ، كل واحدة منهن منصوبة على عمود من فضة ، طوله أربعون ذراعا ، وعليها أربعة دسوت من ثياب محلاة الباطن : الأول سندس أخضر ، والثاني أرجوان أحمر ، والثالث ديباج ، والرابع من جلود القربان وقاية لها من المطر والغبار وحبالها التي تمد بها من صوف القربان ، وأن يجعل سعتها أربعين ذراعا ، وأن ينصب في جوفها موائد من فضة مربعة يوضع عليها القربان ، سعة كل مائدة منها أربعة أذرع في أربعة أذرع ، كل مائدة منها على أربع قوائم من فضة ، كل قائمة ثلاثة أذرع ، لا ينال الرجل منها إلا قائما ، وأمره أن ينصب بيت المقدس على عمود من ذهب طوله سبعون ذراعا يضعه على سبيكة من ذهب أحمر طولها تسعون ذراعا مرصع بأنواع الجواهر ، وأن يجعل أسفله مشتبكا بقضبان الذهب والفضة ، وأن يجعل حبالها التي تمد لها من أصواف القربان ، وأن يجعله مصبوغا بألوان من أحمر وأصفر وأخضر ، وأن يلبسه سبعة من الخلال محلاة الباطن : الأول منها سندس أخضر ، والثاني أرجوان أحمر ، والثالث من الديباج الأصفر ، والرابع من الحرير الأصفر ، وكذلك أثواب نحوها وسائرنا من الديباج والوشى ، والظاهر له غاشية من جلود القربان وقاية له من الأذى والندى وأمره أن يجعل سعته سبعين ذراعا ، وأن يفرش القباب بالقرمز الأحمر ، وأمره أن ينصب فيه تابوتا من ذهب كتابوت الميثاق مرصع بألوان الجواهر واليواقيت الأحمر والأشهب والزمرد الأخضر وقوائمه من ذهب ، وأن يجعل سعته سبعة أذرع في أربعة أذرع ، وعلوه قامة موسى ، وأن يجعل له أربعة أبواب : باب تدخل منه الملائكة ، وباب يدخل منه موسى ، وباب يدخل منه هارون ، وباب يدخل منه أولاد هارون ، وهم سدنة ذلك البيت وخزان التابوت ، وأمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل محتمل فيها من بني إسرائيل مثقالا من ذهب ، فينفقه على هذا البيت ، وأن يجعل باقي ذلك المال الذي لا يحتاج إليه من الحلي والحلل التي ورثها الله بنى إسرائيل وموسى وأصحابه من فرعون وقومه دفينا في أرض بيت المقدس ، ففعل ذلك فبلغ عدد بني إسرائيل ست مئة ألف وسبعة وخمسين رجلا ، فأخذ منهم ذلك المال ، وأوحى الله إليه إنى أنزل عليكم من السماء نارا لادخان لها ولا تحرق شيئا ولا تطفأ أبدا لتأكل القرابين المتقربة وتسرج القناديل التي في بيت المقدس ، وهي من ذهب معلقة بسلاسل من الذهب ، نظومة من اليواقيت والآلي وأنواع الجواهر ، وأمره أن يضع في وسط البيت صخرة عظيمة من الرخام وبنقر فيها نقرة لتكون كانون تلك النار التي تنزل من السماء ،

فدعا موسى اخاه هارون وقال له : إن الله قد اصطفاني بنار تنزل من السماء تأكل القرابين
المتقبلة وتسرج منها القناديل وأوصاني بها ، وإني قد اصطفيتك بها وأوصيتك بها ، فدعا
هارون ابنه وقال لهما : إن الله قد اصطفى موسى بأمر وأوصاه به ، وإنه قد اصطناني له
وأوصاني به ، وإني قد اصطفيتكما له وأوصيتكما به ، وكان أولاد هارون هم الذين يلون
مدنة هذا البيت وأمر القربان والنيران ، فشربوا ذات ليلة حتى ثملوا ، ثم دخلوا البيت
وأسرجوا القناديل من هذه النار التي في الدنيا ، فغضب الله عليهم وساط عليهم تلك النار
فأحرقهما وموسى وهارون يدفعان عنهما النار فلم يغنيا عنهما من أمر الله شيئا ، فأوحى الله
تعالى إلى موسى هكذا أفعل بمن عصاني ممن يعرفني ، فكيف أفعل بمن لا يعرفني من أعدائي
وهذا آخر القصة . والله أعلم .

باب في ذكر مسير بني إسرائيل إلى الشام حين جاوزوا البحر ، وصفة حرب

الجبارين ، وقصة التيه وما يتعلق بذلك

قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ
جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً) الآيات . اختلفت عبارات المفسرين في الأرض
المقدسة ما هي ؟ فقال مجاهد : هي الطور وما حوله . وقال مقاتل : هي إيليا وبيت المقدس .
وقال عبدالله بن عمر ، الحرم محرم بمقداره من السموات والأرض ، والبيت المقدس مقدس :
بمقداره من السموات والأرض . وقال عكرمة والسدي : هي أريحاء . وقال الكاظمي : هي
دمشق وفلسطين وبعض الأردن . وقال الضحاك : هي الرملة والأردن وفلسطين . وقال
قتادة : هي الشام كله .

(فصل : في فضل الشام وأهله) قال زيد بن ثابت : بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله
عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال « طوأت لأهل الشام ، قيل : يا رسول الله ولم
ذلك ؟ قال : إن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم . » عن عبد الله بن خولة
قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال « والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى
يفتح الله لكم أرض فارس والرؤم وأرض حمير ، وحتى تكونوا أجنادا ثلاثة
جند بالشام ، وجند بالعراق ، وجند باليمن . فقالت : يا رسول الله اختر لي إن
أدركني ذلك ، فقال : أختار لك الشام فإنها صفوة الله تعالى من بلاده ، وإليها
يجتبي صفوته من عباديه ، يا أهل الإسلام عليكم بالشام فإن صفوة الله
من الأرض الشام ، وإن الله تعالى قد تكفل لي بالشام وأهله » وقال عبد الله
ابن مسعود : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قسم الله الحسير عشرة أجزاء ،
فجعل منه تسعة أجزاء في الشام وواحدة في العراق ، وقسم الله الشر عشرة
أجزاء فجعل منه تسعة في العراق ، وواحدة بالشام » ودخل الشام عشرة آلاف

عين رأت النبي صلى الله عليه وسلم ، ونزل حمص تسع مئة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم سبعون بدريا . وقال الكلبي : صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان ، وقيل له انظر ، فما أدركه بصرك فهو مقدس ، وهو ميراث لذريتك من بعدك ، فذلك قوله تعالى (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) يعنى كتب الله في اللوح المحفوظ أنها لكم مساكن . وقال ابن إسحاق : وهبها الله لكم مساكن . وقال السدي : أمركم أن تدخلوها .

ذكر قصة بلعام بن باعوراء

قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية . واختلفوا فيه ، فقال أكثر المفسرين : هو بلعام بن باعوراء بن باعر بن أيد بن مارت بن لوط ، وكان من الكنعانيين من مدينة بلقاء وهي مدينة الجبارين ، وسميت بلقاء لأن ملكها رجل يقال له بالقي بن صافوراء .

وكانت قصة بلعام على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدي والكلبي وغيرهم أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إلى بلعام ، وكان عنده اسم الله الأعظم ، فقالوا له : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ، وإنه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وإنا قومك وبنو عمك وجيرانك ، وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاقدم إلينا وأشر علينا في هذا الرجل العدو الذي قد أرهقنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى وقومه ، فقال لهم بلعام : ويلكم هذا نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ وإني إن فعلت ذلك ذهبت دنيائي وآخرتي ، فلم يزالوا به حتى قال لهم : اصبروا حتى أستأمر ربي ، وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام ، فتأمر في الدعاء عليهم في المنام ، فقيل له : لا تدع عليهم ، فقال لقومه إنني قد أمرت ربي في الدعاء فنهيت عن ذلك ، فراجعوه ، فقال : حتى أوامر ثانية ، فأمر فلم يجب ، فقال : قد أمرت فلم يجب لي شيئا ، فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما فعل في المرة الأولى ، فلم يزالوا يرفقون به ويناشدونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتن ، فقالوا لبعضهم : آهدوا إليه فيقال إنهم آهدوا إليه هدية قبلها . ويقال إن بلعام بن باعوراء لما أتى أن يدعو على موسى وقومه اجتمع آراء قومه على أن يحملوا شيئا إلى امرأته وقالوا : إنها فقيرة وإنه يصغي إلى رأيها فانطلق عشرة من عظمائهم وحمل كل واحد منهم صحيفة من ذهب مملوءة ورقا ، فأهدوها لها فأقبلت على صاحبها وألحت عليه حتى قالت له : ارجع إلى ربك فاسأله أن يأذن لك في مؤازرتهم والدعاء على عدوهم ، فلم تنزل به حتى استجاب فلم يجب إليه بشيء ، فقالت له : إنه قد خيرك في الدعاء عليهم فلو لم يأذن لنهاك . قالوا : فركب أتاننا له بترجها إلى جبل

يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له حسان ، وكانت مراكب العباد الأولين الآمن ، فما سار عليها غير بعيد حتى ربضت به ، فنزل عنها وضربها حتى أزلقها ، فقامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به ففعل بها مثل ذلك ، فقامت فركبها ، فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به ، فضربها حتى إذا أزلقها أذن الله تعالى لها في الكلام حجة عليه فقالت له : ويحك يا بلعام أين تذهب ؟ ألا ترى أن الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلما سمع ذلك خر ساجدا ، فلم يزل باكيا متضرعا حتى غابت عنه الملائكة ، ثم رفع رأسه فجاءه الشيطان وقال له : امض لوجهك فإن ربك يستجيب لك ، ولو لم يرد ذلك لما برحت عنك الملائكة ولما خلوا سبيلك ، فركب أتاناه وخلي الله سبيلها ، فانطلقت به حتى أشرفت على جبل حسان ، فجعل لا يدعو عليهم بشيء من الشر إلا صرف الله به لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل : فقال له قومه : أتدري ما تصنع يا بلعام ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا ، فقال : هذا أمر لأملك منه شيئا قد غلبني الله عليه ، فاندلع لسانه فوقع على صدره فعلم ما حل به ، فقال لقومه : قد ذهبت مني الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال ، فجملوا النساء وزينواهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعن فيه ويشترين ، وأمروهن أن لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنهم لو زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا ذلك . فلما دخلت النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كبشا بنت صوريا برجل من عظماء بني إسرائيل ، يقال له زمري بن سلوم من سبط شمعون ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فقام إليها وأخذ بيدها حين أعجبه حسنها وجمالها ، ثم وقف على موسى وقال : إني سأظنك تقول إن هذه حرام عليك ، فقال : أجل هي حرام عليك لاتقربها ، قال : والله لأطيعك في هذا ، ثم إنه دخل بها قبه فواقعها ، فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت ، وكان فنحاص بن عيزار بن هارون صاحب موسى رجلا قد أعطى بسطة في الخلق وقوة في البطش ، وكان غائبا حين صنع زمري بن سلوم ما صنع . فجاء الطاعون يجوس في بني إسرائيل فأخبر الخبر ، فأخذ حربته وكانت حديدا كلها ، ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما في حربته ، ثم خرج بهما رافعهما بيديه إلى السماء ، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة على لحيته ، وكان بكر العيزار وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، فرفع الطاعون عنهم فحسب من هلك من بني إسرائيل من الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد أهلك منهم سبعين ألف نفس في ساعة واحدة . فن هناك يعطى بنو إسرائيل لبنيه من كل ذبيحة ذبحوها الحاضرة والذراع واللحي ، لاغتنامه بالحربة على خاصرته وأخذها إياها بذراعه ، وإسناده إياها إلى لحيته ، والبكر من كل أموالهم لأنه كان بكر العيزار بن هارون . ففي بلعام أنزل الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه) الآية .

قال مقاتل : إن ملك البلقاء قال لبلعام : ادع الله على موسى وإلا قتلتك ، فقال : إنه من أهل ديني ولا أدعو عليهم ، فجيء بنخشة ليصلبه ، فلما رأى ذلك خرج على أتان ليدعو عليه ، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت ، فضربها ، فقالت له : لم تضربني وأنا مأمورة فلا تظلمني ، وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي ، فرجع فأخبر الملك ، فقال له : لتدعون عليه وإلا صلبتك ، فدعا على موسى بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة فاستجيب له ، ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه ، فقال موسى : يارب بأي ذنب وقعنا وقعنا في التيه ؟ قال : بدعاء بلعام ، فقال موسى : يارب كما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه : أن تنزع منه الاسم الأعظم والإيمان ، فسلخه الله مما كان عليه ونزعت منه المعرفة ، فخرجت كحمامة بيضاء ، وأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال آخرون : هو نبي من بني إسرائيل يقال له بلعام ، أوتي النبوة ، فرشاه قومه على أن يسكت ، ففعل وتركهم على ما هم عليه .

وقال عبد الله بن عمر وزيد بن أسلم وأبو روق : أنزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت الثقفي . كانت قصته أنه كان في ابتداء أمره قد قرأ الكتب السالفة ، وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول . فلما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم حسده وكان قصد بعض الملوك ، فلما رجع مر بهتلى بدر فسأل عنهم ، فقيل له قتلهم محمد ، فقال : لو كان نبيا ما قتل أقرباءه ، فلما مات أمية أتت أختها فارعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألها عن وفاة أخيها ، فقالت : بينما هو راقد إذ أتاه رجلان ، فكشطا سقف البيت ونزلا ، فقعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : أوعى ؟ قال وعى ، قال : أزكا ؟ قال زكا ، قالت : فسألته عن ذلك ؟ فقال خير أريد بي ، ثم قطرت عينه ، ثم غشي عليه ، فلما أفاق قال :

كل عيش وإن تطاول دهرا

صائر أمره إلى أن يزول

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي

في قلال الجبال أوعى الوعولا

إن يوم الحساب يوم عظيم

شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أطيبه من شعير سألتك بالله أن تنشدني شعير أخيك » فأنشدته :

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا

فلا شيء أعلى منك جدا وأمجدا

ملك على عرش السماء مهيمن

لعزته تعنو الوجوه وتسجد

وهي قصيدة طويلة وأنشدته حتى أتت على آخرها ، ثم إنها أنشدته قصيدته التي يقول فيها :

عند ذى العرش يعرضون عليه

يعلم الجهر والكلام الخفيا

يوم تأتيه وهو رب رحيم

إنه كان وعده ماتا

يوم تأتيه مثل ما قال فردا لم ينر فيه ريشدا وغويا
 أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
 رب إن تعف فالمعافاة ظني أو تعاقب فلم تعاقب برياً
 إن أوأخذ بما اجترمت فإني سوف ألقى من العذاب قويا

فقال صلى الله عليه وسلم « آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ » ، فأنزل الله تعالى فيه (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) الآية . وقال سعيد بن المسيب : نزلت في أبي عامر بن النعمان ابن صيني الرهب الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق ، وكان قد تهرب في الجاهلية ولبس المسوح ، فقدم المدينة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم « ما هذا الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم » ، قال : فأنا عليها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لَسْتُ عَلَيْهَا وَلَكِنَّكَ أَدْخَلْتَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا » فقال أبو عامر : أمات الكاذب الله منا في مناظرته طريدا فريدا وحيدا ، فخرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أعدوا العدة والسلاح وابنوا لي مسجدا ، فإني ذاهب إلى قيصر ، وآتي بجند لنخرج محمدا وأصحابه من المدينة ، فذلك قوله تعالى (وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ) يعني انتظارا لحجته ، فمات في الشام طريدا وحيدا فريدا . ومنهم من قال : إنها نزلت في البسوس وكان رجلا قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات ، وكان له امرأة وله منها ولد ، فقالت له : اجعل لي منها واحدة ، فقال : لك منها دعوة فما تريدن ؟ قالت : ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل . فدعا فجعلت أجمل امرأة في بني إسرائيل ، فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه ، فغضب الرجل فدعا عليها ، فصارت كلبة نباحة ، فذهب فيها دعوتان ، فجاء بنوها فقالوا : ليس لنا على هذا قرار ولا صبر ، صارت أمنا كلبة نباحة وإن الناس يعيروننا بها فدع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها ، فدعا الله فصارت كما كانت ، فذهبت فيها الثلاث دعوات كلها .

باب في ذكر النقباء الذين اختارهم موسى ليكونوا كفلاء على قومهم
 حين بعثه إياهم إلى أرض كنعان جواسيس له ولقومه

قال الله تعالى (وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) الآية . وذلك أن الله تعالى وعد موسى أن يورثه وقومه الأرض المقدسة وهي الشام ، وكان يسكنها الكنعانيون الجبارون وهم العمالقة من ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، ووعدده الله أن يهلكهم ويجعل أرض الشام مساكن بني إسرائيل ، فلما استقرت بني إسرائيل الدار بمصر أمرهم الله بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام ، وهي الأرض المقدسة ، فقال : يا موسى إني قد كتبت لكم دارا وقرارا ، فاخرج إليها وجاهد من فيها من العدو فإني ناصركم عليهم ، فخذ من قومك اثني عشر رجلا من كل سبط نقيبا يكون كفيلا على قومه بالوفاء بما أمروا

به ، فاختار موسى من كل سبط نقيبا وأمره عليهم . وهذه أَسْمَاؤُهُمْ : من سبط روبيل : شعور بن ذكور ، ومن سبط شمعون شوقط بن حوري ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوقنا ، ومن سبط جاد جابذ بن يوسف ، ومن سبط ربالون حدى بن سوري ، ومن سبط أشير شايون بن مليكيك ، ومن سبط نفتالي حبي بن وقسي ، ومن سبط دان حمل بن وكيل ابن حمل ، ومن سبط لاوى خولا بن مليكا ، ومن سبط ايوسف إفرايم ، ومن سبط إفرايم يوشع بن نون وهما سبطان لموسى ، ومن سبط ميثا حبي بن موسى ، ومن سبط بنيامين ناظم بن زقون ، ثم إنه سار ببني إسرائيل قاصدا أريحا ، فبعث موسى إليها هؤلاء النقباء يتجسسون الأخبار له ويعلمون حالها وحال أهلها ، فلقبهم رجل من الجبارين يقال له عُوْج بن عُنُق .

فصل : في ذكر حمل من أخبار عُوْج بن عُنُق وأحواله

قال ابن عمر : كان طول عُوْج ثلاثة وعشرين ألف ذراع وثلاث مئة وثلاثة وثلاثين ذراعا بالذراع الأول ، وكان عُوْج يجتجز السحاب ويشرب منه الماء ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها ثم يأكله .
ويروى أنه أتى نوحا في أيام الطوفان فقال له : احملى معك في سفينتك ، فقال له : اذهب يا عدو الله فإنى لم أؤمر بك ، فطبق الماء الأرض من سهل ومن جبل وماجاوز ركبته ، وعاش ثلاثة آلاف سنة ، حتى أهلكه الله على يد موسى ، وكان لموسى عسكر فرسخ في فرسخ ، فجاء عُوْج ونظر إليهم ، ثم جاء إلى الجبل وقور منه صخرة على قدر العسكر ، ثم حملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله عليه الهدد ومعه الطيور ، فجعات تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة وانثقت ، فوقعت في عنق عُوْج بن عُنُق فطوقته وصرعته ، فأقبل موسى وطوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع ، وقفز إلى فوق عشرة أذرع فما أصاب منه إلا كعبه وهو مصروع في الأرض فقتله . قالوا : فأقبل جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى حزوا رأسه ، فلما قتل وقع على نيل مصر ، فحسره سنة . قالوا : وكانت أمه عُنُق هي إحدى بنات آدم من صلبه ، ويقال إنها كانت أول من بغى على وجه الأرض ، وكان كل أصبع من أصابعها طوله ثلاثة أذرع في عرض ذراعين ، في كل أصبع ظفران حادان مثل المنجلين ، وكان موضع مقعدها خربة من الأرض ، ولما بعث الله إليها أسودا كالقيلة وذئابا ونمورا كالإبل ونسورا كالحمر وسلطهم عايبا فقتلوها وأكلوها . قالوا : فلما لقبهم عُوْج : يعنى أصحاب موسى ، وكان على رأسه حزمة حطب ، أخذ الاثنى عشر نقيبا وجعلهم في حزمته وانطلق بهم إلى امرأته وقال لها : انظري إلى هؤلاء

(۱) العبارة من أول : ومن سبط يوسف . . . إلى ومن سبط منشا : مضطربة محرقة . ولعل الصواب : ومن سبط أفرايم بن يوسف : يوشع بن نون ، ومن سبط منشا بن يوسف : حبي بن موسى ، وهما سبطان ليوسف . انظر تفسير القرطبي (۶ : ۱۱۳) ، وكما في الكتاب المقدس (عدد : ۲۰۶) .
(۲) الصواب : عوج بن عوق ، بضم العين فيهما ، كما في تاج العروس .

الذين يزعمون أنهم يريدون قتالنا وطرحهم بين يديها، وقال: لأطحنهم برجلي، فقالت له امرأته: لا تفعل بل خل عنهم حتى يجبروا قومهم بما رأوا، ففعل ذلك وخلي سبيلهم، فجعلوا يتعرفون أحوالهم، وكان لا يحمل عنقود عنبهم إلا خمسة نفرينهم في خشبة، ويدخل في قشرة الرمانة إذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة. فلما خرجت النقباء قال بعضهم لبعض يا قوم إنكم إن أخبرتم بني إسرائيل خبر القوم فشلوا وارتدوا عن نبي الله، ولكن اكنموا شأنهم وأخبروا موسى وهارون فيريان رأيهما فيهم، فأخذ بعضهم على بعض الميثاق بذلك، ثم إنهم انصرفوا إلى موسى وجاءوا بحبة من عنبهم وقشرة من قشور رمانهم وأخبروه بما رأوا، ثم إن النقباء نكثوا العهد، وجعل كل واحد منهم ينهي سبطه وقومه عن قتالهم، وأخبروهم بما رأوا من حالهم إلا رجلين منهم وفيما بما قالوا، وهما يوشع بن نون بن إفرام في موسى، وكالب بن يوقنا ختن موسى على أخته مريم بنت عمران. فلما سمع القوم ذلك من الجواسيس رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: يا ليتنا متنا في أرض مصر، أو ليتنا نموت في هذه البرية ولا يدخلنا الله أرضهم، فتكون نساؤنا وأولادنا وأموالنا غنيمة لهم، وجعل الرجل منهم يقول لأصحابه: تعالوا نجعل علينا رئيسا وننصرف إلى مصر، فذلك قوله تعالى إخبارا عنهم (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ) ... الآية، قال قتادة: كان لهم أجسام وخلق عجيب ليس لغيرهم مثله (وإِنَّا لَنَنُدْخِلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) قال موسى: ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، فإن الله سيفتحها عليكم، وإن الذي أنجاكم من آل فرعون وفلق لكم البحر، هو الذي يبلغكم ويظفركم عليهم، فلم يقبلوا قوله ولم يفعلوا، وردوا عليه أمره، وهما بالانصراف إلى مصر، فخرج يوشع بن نون وكالب بن يوقنا إلى القوم، وهما اللذان أخبر الله عنهما بالتوفيق والعصمة في قوله تعالى (قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا) بالتوفيق والعصمة (ادْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ) يعني باب مدينة الجبارين (فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ) لأن الله منجز وعده، فإننا رأيناهم وخبرناهم، فكانت جسومهم عظيمة قوية وقلوبهم ضعيفة، فلا تخشوهم، وعلى الله فتوكاوا إن كنتم مؤمنين، فأراد بنو إسرائيل أن يرجعوا بالهجرة وعصوهما (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ). وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد عن البيت: إني ذاهب بالهدى، فناحيره عند البيت، فاستشار أصحابه في ذلك، فقال المقداد بن الأسود الكندي: إنا والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكننا نقول: إنا معك مقاتلون، والله لنتقاتلن عن يمينك وشمالك وبين يديك، ولو خضت بحرا لحضناه، ولو تسمنت جبلا لعلوناه، ولو ذهبت بنا إلى برك الغماد: يعني مدينة بالحيشة لتبعناك، فلما سمع ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تابعوه على ذلك، فأشرق لذلك وجه النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس: لأن أكون صاحب هذا المشهد، أحب إلى من الدنيا وما فيها.

قالوا : فلما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيهم ومخالفتهم أمر ربهم سوى يوشع وكالب ، غضب موسى فدعا عليهم و (قال رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) أي العاصين ، وكانت عَجَلَةٌ عَجَلَهَا موسى ، فظهر الغمام على باب قبة موسى ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : إلى متى يعصيني هذا الشعب ، وإلى متى لا يصدقون بهذه الآيات ؟ لأهلكهم جميعا ولأجعلنَّ لك شعبا أقوى وأكثر منهم ، فقال موسى : إلهي لو أنك قتلت هذا الشعب كلهم لرجل واحد ، لقاتل الأمم الذين سمعوا ذلك إنما قتل هذا الشعب من أجل أنه لم يستطع أن يدخلهم الأرض المقدسة ، فقتلهم في البرية ، وإنك طويل صبرك ، كثيرة نعمتك ، وأنت تغفر الذنوب وتحفظ الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء ، فاغفر لهم ولا تؤبقهم ، فقال الله تعالى لموسى : إني قد غفرت لهم بكلمتك ولكن بعد ما سميتهم فاسقين ودعوت عليهم ، حلفت بعزتي لأخرمن عليهم دخول الأرض المقدسة غير عبدى يوشع بن نون وكالب ، ولأتيتهم في هذه البرية أربعين سنة ، مكان كل يوم من الأيام التي تحبسوا فيها سنة ؛ وكانت أربعين يوما ، ولأتيتهم حتفهم في هذه القفار ، وأما بنوهم الذين لم يعصوني ولم يعملوا الخير ولا الشر فإنهم يدخلون الأرض المقدسة ، فذلك قوله تعالى (فَإِنهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ) متحيرين (فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) فلبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ ، وكانوا ست مئة ألف مقاتل ، وكانوا كل يوم يسرون جادين ، حتى إذا هم أمسوا فإذا هم بالموضع الذي منه ارتحلوا ، وسثموا الموضع الذي هم فيه ، فارتحلوا ومات أولئك النقباء العشرة الذين أفشوا الخبر ، وكل من دخل التيه من جاوز عشرين سنة ، مات في تلك المدة غير يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، ولم يدخل أحد أريحاء ممن قال (إنا لن ندخلها أبدا) فلما هلكوا وانقضت أربعون سنة ونشأت النواشى من ذراريهم ، ساروا إلى حرب الجبارين وفتح الله لهم .

باب في ذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل في التيه وخصهم بذلك

ورفع عنهم الهلاك كرامة لنيبه وصفيه موسى عليه السلام

قال الله تعالى (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ كُورُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ) ... الآية كقوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) والعد لا يتبع على الواحد (التي أنعمت عليكم) أي على أجدادكم وأسلافكم . وذلك أن الله تعالى فلق لهم البحر وأنجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأنزل عليهم التوراة ، فيها بيان كل شيء يحتاجون إليه ، وأعطاهم ما أعطاهم في التيه ، وذلك أنهم قالوا لموسى : أهلكتنا وأخرجتنا من العمران والبنيان إلى مفازة لا ظل فيها ولا كن ، فأنزل الله عليهم غمامة بيضاء رقيقة ليست بغمام المطر ، بل أرق وأطيب وأبرد منه ، فأظلمت ، وكانت تسير بسيرهم إذا ساروا ، وتدور عليهم من فوقهم إذا نزلوا ، وذلك قوله تعالى (وَظَلَّلْنَا

عليكم الغمام) يعنى فى التيه يقينكم حر الشمس . ومنها أنه جعل لهم عمودا من نور يضىء لهم بالليل إذا لم يكن ضوء للقمر ، فقالوا : هذا الظل والنور قد حصلنا فأين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن .

واختلفوا فيه ، فقال مجاهد : هو شىء كالصمغ يقع على الأشجار وطعمه كالشهد . وقال الضحاك هو الترنجيبين . وقال وهب : هو الحمير الرقاق . وقال السدى : كان عسل يقع على الشجر من الليل فياً كلون منه . وقال عكرمة : هو شىء أنزله الله عليهم مثل الرّب الغليظ . وقال الزجاجى : المن ما يمن الله به مما لاتعب فيه ولا نصب . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعينين ، قالوا : وكان الله ينزل هذا المن كل ليلة يقع على الأشجار مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع كل ليلة ، فقالوا : يا موسى قتلنا هذا المن بحلاوته ، فادع الله ربك لنا يطعمنا اللحم ، فدعا موسى فأنزل الله عليهم البسلوى . واختلفوا فيه ، فقال ابن عباس وأكثر الناس : هو طائر يشبه السمانى . وقال أبو العالية ومقاتل : هو طير أحمر بعته الله عليهم ، فأمطر به السماء فى عرض ميل قدر رمح فى السماء بعضها على بعض ، وكانت السماء تمطر عليهم ذلك ، وقيل إنه كان طيرا مثل فراخ الحمام طيبا سميئا قد تمعّط ريشه وزغبه ، وكانت الريح تأتي به إليهم فيصبحون وهو فى معسكرهم ، وقيل إنه كان يأتيهم فيسترسل إليهم فيأخذونه بأيديهم . وقال عكرمة : هو طير يكون بالهند أكبر من العصفور . وقال المؤرج : هو العسل بلغة كنانة ، قال شاعرهم

وقاسمها بالله جهدا لأنتم ألد من السلوى إذا ما نشورها

فكان الله ينزل عليهم المن والسلوى ، وكان أحدهم يأخذ ما يكفيه يومه وليلته ، فإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد ما يكفيه ليومين ، لأنه لم يكن ينزل عليهم يوم السبت ، فذلك قوله تعالى (وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا) أى قلنا لهم كلوا من طيبات حلال ما رزقناكم ولا تدخروا لغد ، فخبثوا لغد ، فدود وفسد ما ادخروا ، وقطع الله عنهم ذلك . قال الله تعالى (وما ظلمونا) أى أضرونا بالمعصية ومخالفة الأمر (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) باستصحابهم الغذاء ، وقطع عنهم مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلامونة ولا مشقة فى الدنيا ، ولا حساب ولا تبعة فى العقبى .

أخبرنا شعيب بن محمد قال : أخبرنا مكى بن عبدان ، قال : أخبرنا أحمد بن الأزهر ، قال : حدثنا روح بن عبادة قال : حدثنا عون بن عبد الله عن جلاس بن عمر ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخبث الطعام ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها .

ومنها أنهم عطشوا فى التيه ، فقالوا : يا موسى من أين نشرب ؟ فاستقى لهم موسى ، فأوحى الله إليه (أن اضرب بعصاك الحجر) .

وآختلف العلماء فيه ، فقال وهب : كان موسى يفرع لهم أقرب حجر في أرض الحجارة ، فينفجر منه عيون لكل سبط منهم عين ، وكانوا اثني عشر سبطا ، ثم تسيل كل عين في جدول السبط الذي مر لسقيهم ، فقالوا إن فقد موسى عصاه متنا عطشا ، فأوحى الله تعالى إليه لا تفرعن الحجارة بالعصا ولكن كلمها تطعك لعلهم يعتبرون ، وكان يفعل ذلك ، فقالوا : كيف بنا إذا مضينا إلى الرمل وإلى الأرض التي ليس فيها حجارة ، فأمر موسى أن يحمل معه حجرا ، فحينما نزل ألقاه . وقال آخرون : كان حجرا مخصوصا بعينه والدليل عليه قوله تعالى (الحجر) ، فأدخل الألف واللام للتعريف والتخصيص كقوله : رأيت الرجل .

ثم اختلفوا في ذلك الحجر ما هو ؟ فقال ابن عباس : كان حجرا خفيفا مربعا مثل رأس الرجل ، أمر أن يحمله فحمله فكان يضعه في مخلاته ، فإذا احتاجوا إلى الماء أخرجه وضربه بعصاه فينفجر عيوننا كما ذكرنا فسقاهم ، قال أبو روق : كان الحجر من الكدّان ، وكان فيه اثنتا عشرة عينا : أي حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب ، فيأخذونه ، فإذا رغبوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء ، وكان كل يوم يستقي ست مئة ألف من جميع الأجناس . وقال سعيد بن جبير : هو الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه ليغتسل ، ففر الحجر بثوبه . فلما وقف الحجر أتاه جبريل عليه السلام فقال : يا موسى إن الله يقول لك : ارفع هذا الحجر ، فلي فيه قدرة ولك فيه معجزة ، وهو الذي ذكره الله تعالى ، في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) ... الآية ، وهو ما أخبرنا به الحسن بن أحمد الخلدی بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظرون بعضهم إلى سواة بعض ، وكان موسى يغتسل وحده ، فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، قال : فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فجمع في أثره موسى يقول : ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر ، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سواة موسى ، فقالوا والله ما يمنع موسى من بأس ، قال : فقام الحجر بعد ما نظرت إليه بنو إسرائيل فأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضربا ، فقال أبو هريرة : والله إن أثر ضرب موسى بالحجر ستة أو سبعة : قال عبد العزيز السكتاني : كان موسى ضرب الحجر اثني عشرة ضربة ، فكان يظهر في كل موضع ضربة مثل ثدي المرأة ، ثم يتفجر بالأنهار المطردة ، فذلك قوله تعالى (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) .

ومنها أنهم قالوا لموسى في التيه : من أين لنا اللباس ؟ فخلد الله تعالى ثيابهم التي عليهم

حتى لا تزيد على الأيام ومرور الأعوام إلا جدّة وظرافة ولا تتخلق ولا تبلى ، تنمو على صبيانهم كما تنمو ، فكثروا على ذلك زمانا طويلا ، والله أعلم .

باب فتح أريحاء ونزول بنى إسرائيل الشام

اختلف العلماء فيمن تولى حرب الجبارين وفيمن كان على يده الفتح ، فقال قوم : إنما فتح أريحاء موسى ويوشع ، وكان يوشع على مقدمته ، فسار موسى إليهم بمن بقي من بنى إسرائيل في التيه ولم يمت في التيه ، فدخلها بهم يوشع وقتل الجبارين الذين كانوا بها فدخلها موسى ببني إسرائيل ، فقام فيها ماشاء الله أن يقيم ، ثم قبضه الله تعالى ولم يعلم أحد قبره من الناس ، وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها إلى الحق لإجماع العلماء بأخبار الأنبياء ، أن عوج بن عنق قتله موسى . وقال آخرون : ما قاتل الجبارين إلا يوشع بن نون ولم يسر إليهم إلا بعد موت موسى وهلاك من كان أبي المسير إليها ، وقالوا : مات موسى وهارون عليهما السلام في التيه .

قصة وفاة هارون عليه السلام

قال السدي : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : إني متوفى هارون فأت به جبل كذا وكذا ، فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل ، وإذا هما بشجرة لم ير مثلها وبيت مبنى وفيه سرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة ، فلما نظر هارون إلى ذلك أعجبه ، وقال : يا موسى إني أحب أن أنام على هذا السرير ، فقال : نعم عليه ، فقال : إني أخاف أن يأتي رب هذا البيت فيغضب عليّ ، فقال له موسى : لا تخف أنا أكفيك رب هذا البيت ، فم ، فقال : يا موسى نعم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب علينا جميعا ، فنام موسى وأخذ هارون الموت ، فلما وجد حسه قال : يا موسى خدعتني ، فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء . فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل وليس معه هارون قالوا : قتل موسى وحسده لحبنا إياه ، فقال موسى : ويحكم ابن هارون أخى ووزيرى ، فكيف أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام وصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه .

وقال عمرو بن ميمون : مات موسى وهارون في التيه ، ومات هارون قبل موسى ، وكانا خرجا في التيه إلى بعض الكهوف فمات هارون ودفنه وانصرف إلى بنى إسرائيل ، فقالوا : أين هارون ؟ قال مات ، قالوا : كذبت ولكنك قتلته لحبنا إياه ، وكان محببا في بنى إسرائيل ، فتضرع موسى إلى ربه وشكا إلى ربه ما أتى من بنى إسرائيل ، فأوحى الله إليه أن انطلق بهم إلى قبره ، فإني باعته حتى يخبرهم أنه مات موتا ولم تقتله ، فانطلق بهم إلى قبر هارون فناداه : يا هارون ، فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه ، فقال له : أنا قتلتك ؟ قل لا والله ولكني مت ، فعاد وانصرفوا ، والله أعلم .

ذکر وفاة موسى عليه السلام

قال ابن إسحاق : كان موسى قد كره الموت واستعظمه ، فلما كرهه أراد الله أن يجيب إليه الموت ويكره إليه الحياة ، وكان يوشع بن نون يغدو إليه ويروح فيقول له موسى : يا نبي الله ما أحدث الله إليك ؟ فيقول له يوشع : يا نبي الله ألم أصحبك كذا وكذا سنة ، فهل كنت أسألك عن شيء مما أحدث الله إليك حتى تكون أنت الذي تبتدئ به ويذكره ولا يذكر له شيئاً . فلما رأى موسى ذلك كره الحياة وأحب الموت .

قال الأستاذ بإسناده : حدثني عبد الصمد بن معقل قال : سمعت وهبا يقول : وذكر من كرامة موسى عليه السلام أنه ضاق ببني إسرائيل ذرعاً لما كثروا عليه ، فبعث الله إليه ألف نبي يكوّنون أعواناً له . فلما مال الناس إليهم وجد موسى في نفسه غيرة ، فأماهم الله لكرامته في يوم واحد .

واختلفوا في صفة موت موسى عليه السلام ، حدثنا أبو سعيد محمد بن عبد الله بن حمدون بإسناده عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جاء ملك الموت إلى موسى ، فقال له أجيب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت فقأها ، قال فرجع ملك الموت إلى الله عز وجل فقال : يا رب إنك أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت وفقاً عيني ، فردّ الله عليه عينه وقال : ارجع إلى عبدي وقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما وارت يدك من شعر فإنك تعيش بعدد كل شعرة من ذلك سنة ، قال : ثم ماذا ؟ قال : ثم تموت ، قال : فالآن من قريب ، قال : يا رب فأدني من الأرض المقدسة رمية حجر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت عندة لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » قال سمعت أبا سعيد بن حمدون يقول : سمعت أبا حامد الشرقي يقول : سمعت محمد بن يحيى يقول : قد صبح هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعني قصة ملك الموت وموسى عليه السلام لا يردها إلا كل مبتدع ضال . وفي حديث آخر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن ملك الموت كان يأتي الناس عياناً حتى أتى موسى ليقبضه ، فلطمه فقأ عينه فجاء ملك الموت بعد ذلك خفية » .

قال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني وعن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : بينما موسى عليه السلام يمشي وفتاه يوشع بن نون إذ أقبلت ريح سوداء ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها

الساعة ، فقال : يا قوم أظن أنها الساعة ، وإنى ملتزم بموسى نبي الله ، فانسئ من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع ، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبي الله ، فقال : والله ما قتلته ولكنه انسل مني ، فلم يصدقوه وأرادوا قتله ، فقال لهم : إذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام ، فدعا الله ، فأتى كل رجل ممن كان بحرسه آت في المنام وأخبره أن يوشع لم يقتل موسى وإنما قد زفناه إلينا ، فتركوه . قال وهب بن منبه : خرج موسى ليقضى حاجة ، فرّ برهط من الملائكة فعرفهم ، فأقبل إليهم حتى وقف عليهم ، فإذا هم يحفرون قبراً لم ير شيئاً قط أحسن منه ، ولم ير مثله قط في الحضرة والنضرة والبهجة ، فقال لهم : ياملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا : نحفره لعبد صالح كريم على ربه ، فقال موسى : إن هذا العبد لمن الله بمنزلة عظيمة ، مارأيت كالיום أحسن منه مضجعا ، فقالت الملائكة : يا صنئ الله أتجب أن يكون لك ؟ قال : وددت ذلك ، قالوا : فانزل واضطجع فيه وتوجه إلى ربك ، ثم تنفس أسهل نفس تنفسه ، فنزل فاضطجع فيه ، ثم توجه إلى ربه ، ثم تنفس ، فقبض الله روحه ، ثم سوت الملائكة عليه التراب . وقيل إنه أتاه ملك الموت بتفاحة من الجنة ، فشمها فقبض الله روحه .

ويروى أن يوشع بن نون رآه بعد موته في المنام ، فقال له : كيف وجدت الموت يا نبي الله ؟ قال : كشاة تسليخ ، وهي في الحياة .

ويروى أن موسى لمات قالت الملائكة بعضهم لبعض : مات صنئ الله موسى بن همران ، فمن الذي يطمع في البقاء ؟ وكان عمر موسى مئة وعشرين سنة ، عشرون منها في ملك إفريدون ، ومئة سنة في ملك منوجهر .

قال الأستاذ : رجعنا إلى قصة حرب أريحاء وخبر الفتح . قال : فلما انقضت أربعون سنة ومات موسى ، بعث الله يوشع بن نون نبيا ، فأخبرهم أنه نبي الله ، وأن الله قد أمره بقتال الجبارين ، فصدقوه وبايعوه ، فتوجه بيني إسرائيل إلى أريحاء ومعه تابوت الميثاق ، فأحاط بمدينة أريحاء ستة أشهر ، فلما كان في الشهر السابع نفخوا في القرون وصاحوا صيحة واحدة فسقط سور المدينة ، فدخلوها وقتلوا الجبارين وهزموهم ، وهجموا عليهم وجعلوا يقتلونهم ، فكانت العصابة من بني إسرائيل يجتمعون على عنق الرجل يضربونها لا يقطعونها ، وكان القتال يوم الجمعة ، فبقي منهم بقية وكادت الشمس أن تغرب وتدخل ليلة السبت ، فخشى يوشع أن يعجزوه فقال : اللهم اردد الشمس علي ، أو أنه قال للشمس إنك في طاعة الله ، وأنا في طاعة الله ، فسأل الشمس أن تقف والقمر أن يقيم حتى ينتقم من أعداء الله قبل غروب الشمس ، فردت له الشمس وزيد له في النهار ساعة واحدة حتى قتلهم أجمعين .

أخبرنا أحمد بن عبد الله بن حامد الأصفهاني بإسناده عن عروة بن عبد الله قال : دخلت على فاطمة بنت علي رضوان الله عليهما فرأيت في عنقها خرزا ، ورأيت في يدها مسكتين

غليظتين - وهي عجوز كبيرة ، فقلت لها ما هذا ؟ فقالت : إنه يكره للمرأة أن تشبه بالرجل ، ثم حدثني أن أسماء بنت عميس الخثعمية حدثها أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان مع نبي الله ، وقد أوحى الله إليه فجعله بثوبه ، ولم يزل كذلك حتى أدبرت الشمس تقول غابت أو أرادت أن تغيب ، ثم إن نبي الله سرى عنه فقال « أَصَلَّيْتُ يَا عَلِيُّ ؟ » قال لا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اللَّهُمَّ ارْدُدْ عَلَيْهِ الشَّمْسَ ، فرجعت حتى بلغت نصف المسجد .

قال : ثم أرسل ملوك الأرامنة وكانوا خمسة ، فأرسل بعضهم إلى بعض ، فجمعوا كلمتهم على يوشع وقومه ، فهزمت بنو إسرائيل الملوك حتى أهبطوهم إلى ثنية حوْران ورماهم الله بأحجار البرد ، فكان من قتله البرد أكثر ممن قتله بنو إسرائيل بالسيف ، وهرب الملوك الخمسة واختفوا في غار ، فأمر بهم يوشع فأخرجهم وصلبهم ، ثم أنزلهم فطرحهم في ذلك الغار ، وتبع ملوك الشام فاستباح منهم أحدا وثلاثين ملكا حتى غلب على جميع أرض الشام ، وصار الشام كله لبنى إسرائيل ، وفرق عماله في نواحيها ، ثم جمع الغنائم فلم تنزل النار ، فأوحى الله تعالى إلى يوشع : أن فيها غُلُولًا فأمرهم أن يبايعوك ، فبايعوه فالتصقت يد رجل بيده ، فقال له : هلم ما عندك ، فأناه برأس ثور من ذهب مكلل بالدر والياقوت والجوهر كان قد غله فجعله في القربان وجعل الرجل معه ، فجاءت النار فأكلت الرجل والقربان .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غَزَا نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِلْقَوْمِ : لَا يَتَّبِعْنِي رَجُلٌ كَانَ قَدْ مَلَكَ بَضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا ، وَلَا آخَرَ قَدْ بَنَى لَهُ بَيْتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سَقْفَهُ ، وَلَا آخَرَ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِيفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلَادَهَا . » قال : فدنا من القوم صلاة العصر أو قريبا من ذلك ، فقال للشَّمْسِ : أنتِ مأمورة وأنا مأمور ، اللَّهُمَّ احْبِسِيهَا عَلَيَّ سَاعَةً فَحُبِسَتْ لَهُ سَاعَةً حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ . قال : ثم وُضِعَتِ الْغَنِيمَةُ فَجَاءَتِ النَّارُ فَلَمْ تَأْكُلْهَا فَقَالَ : إِنْ فِيكُمْ غُلُولًا فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْكُمْ رَجُلٌ فَبَايَعُوهُ ، فَالتصقت يد رجل بيده ، فقال : فِيكُمْ الْغُلُولُ أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ . قال : فأخرجوا مثل رأس البقرة من ذهب فالتقوه في الغنيمه وهي بالصعيد فجاءت النار فأكلتها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ فَبَلَّانَا ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَأَى عَجْزَنَا وَضَعْفَنَا ، فَوَهَبَهَا لَنَا . »

قالوا : ثم أمرهم الله أن يدخلوا أريحاء متواضعين مستغفرين خافضين رؤوسهم ، وذلك قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا

البابُ سُجِّدًا وَقُولُوا حِطَّةً) وكان لهم سبعة أبواب . سجِّدًا : أى منحنيين متواضعين ، وقولوا حطة : أى حط عنا خطايانا . قال وهب : إنهم أذنبوا بآبائهم ، وكان توبتهم إذا أذنبوا دخول أريحاء ، فلما فصلوا من التيه أحب الله أن يستنقذهم من الخطيئة . قال ابن عباس : حطة : قول : لا إله إلا الله ، سميت بذلك لأنها تحط الذنوب (نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتْرِيْدُ الْمُحْسِنِينَ) إحسانا (فبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ) وذلك أنهم دخلوا متزحفين على أسنابهم وقالوا : هط سيقايا : يعنى حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ) أى عذابا من السماء (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) وذلك أن الله تعالى أرسل عليهم طاعونا وظأمة ، فهلك منهم سبعون ألفا فى ساعة واحدة ، ثم رفعه الله عنهم ورحمهم . قالوا : فلما استقرت بنو إسرائيل بالشام وصفت لهم توفى الله نبيه يوشع ودفن فى جبل أفرام ، وكان عمره مئة وعشرين سنة ، وتديره أمر بنى إسرائيل بعد موت موسى سبعا وعشرين سنة .

مجلس : فى ذكر الأنبياء والملوك الذين قاموا بأمر بنى إسرائيل

بعد يوشع ، وقصة كالب عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الماضين وأمر الأمم السالفين : لما حضرت الوفاة يوشع بن نون استخلف على بنى إسرائيل كالب بن يوقنا حتن موسى عليه السلام ، وهو أحد الرجلين للذين أنعم الله عليهما . قال الله تعالى (قَالَ رَجُلَيْنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا) فأحسن الخلافة حتى قبضه الله عز وجل واستخلف على بنى إسرائيل ابنه يوسافوس وكان فيما ذكر يشبه يوسف عليه السلام فى الحسن والجمال والبهاء ، وكانوا يفتنون به ، وكانوا من شغفهم به يأتونه وينظرون إليه ويقولون له : أيها العبد الصالح جئنا لنسلم عليك وهو يستحى أن يردهم ، فلما أكثروا خاف الفتنة ، فسأل الله أن يغير صورته مع سلامة حواسه وجوارحه ، فأصابه الجدرى فصار مجدورا ملوَّجا ، فلبث فيهم مئة وأربعين سنة ثم قبضه الله إليه ، والله أعلم .

ذكر خبر حزقيل عليه السلام

قالت العلماء بأخبار الأنبياء عليهم السلام : لما قبض الله كالب وابنه ، بعث الله تعالى حزقيل إلى بنى إسرائيل نبيا ، وهو حزقيل بن بوزى ، ويلقب بابن العجوز ، وإنما لقب بابن العجوز لأن أمه سألت الله تعالى الولد وهى عجوز وقد كبرت وعمت عن الولد فوهبه الله تعالى لها ، وهو الذى أحيا الله تعالى به القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف

حذر الموت فأحياهم الله تعالى بعد موتهم بدعوته في قوله تعالى (أَلَمْ نَر إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ) . . . الآية .

قال أكثر المفسرين : كانت قرية يقال لها (داور دان) قرية قبل واسط وقع بها الطاعون ، فخرج منها طائفة هاربين من الطاعون ، وبقيت طائفة ، فهلك أكثر من بقي في القرية ، وسلم الذين خرجوا . فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا إن أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ، ولئن وقع بها الطاعون ثانية لنخرجن إلى الأرض التي لاوباء فيها ، فوقع الطاعون من قابل ، فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح ، فلما نزلوا المكان الذي ينتغون فيه النجاة والحياة إذا هم بملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه يناديهم كل واحد منهما : أن موتوا فماتوا جميعا .

عن محمد بن زكريا قال : سمعت الأصمعي يقول : لما وقع الطاعون بالبصرة خرج رجل من أهلها عنها على جمار له ومعه ولده ، وخلفه عبد حبشي يسوق الحمار ، فطلق العبد يرتجز ويقول :

لن يُسبِقَ الله على حمار ولا على ذي منعة خَطَّارٍ قد أصبح الله أمام الساري
فرجع الرجل لما سمع من قوله بعياله .

وروى عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي بَلَدَةٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » . وقال الضحاك ومقاتل والكلبي : إنما فر ، هؤلاء من الجهاد ، وذلك أن ملكا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم ، فخرجوا فمسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت واعتلوا وقالوا للملكهم : إن في الأرض التي نأتيها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع الوباء عنها ، فأرسل الله عليهم الموت ، فلما رأوا أن الموت قد كثر فيهم ، خرجوا من ديارهم فرارا من الموت ، فلما رأى الملك ذلك قال : اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار من حكمك وقضائك . فلما خرجوا قال الله لهم : موتوا ، فماتوا جميعا ، وماتت دوابهم كموتهم مودة رجل واحد ، فما أتى عليهم ثلاثة أيام حتى انفجروا وأروحوا وأروحت أجسادهم ، فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم ، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع ، وتركوهم فيها . واختلفوا في مبلغ عددهم ، فقال عطاء الخراساني : كانوا ثلاثة آلاف . وقال ابن عباس ووهب : كانوا أربعة آلاف وقال مقاتل والكلبي : ثمانية آلاف . وقال أبو روق عشرة : آلاف . وقال أبو مالك : ثلاثين ألفا . وقال البدي : بضعا وثلاثين ألفا . وقال ابن جريج أربعين ألفا ، وقال جطاء بن أبي رباح : سبعين ألفا . قال : فأتى على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعربت عظامهم وتقطعت أوصالهم ، فر عليهم حيز قبيلى النبي عليه الصلاة والسلام فوقف متفكرا

متعجبا ، فأوحى الله تعالى إليه : يا حزقييل ، تريد أن أريك كيف أحيا الموتى ؟ قال نعم يا رب ، فأحياهم الله جميعا ، هذا قول السدى وجماعة من المفسرين . وقال مقاتل والكلبي : بل كانوا قوم حزقييل . فلما أصابهم ذلك بكى حزقييل وقال : يا رب كنت في قوم يعبدونك ويدكرونك ، فبقيت وحيدا لا قوم لي ، فلرشتت أحبيبت هؤلاء فيعمرون بلادك ويعبدونك : قال الله تعالى : أو تحب أن أفعل ذلك ؟ قال نعم يا رب ، قال الله تعالى : قد جعلت حياتهم إليك ، فقال لهم حزقييل : احيوا بإذن الله تعالى فأحياهم الله . وقال وهب : أصابهم بلاء وشدة من الزمان ، فشكوا ما أصابهم وقالوا : يا ليتنا قد متنا واسترحنا مما نحن فيه ، فأوحى الله إلى حزقييل : أن قومك قد ضجوا من البلاء وزعموا أنهم ودوا لو ماتوا استراحوا ، وأى راحة لهم في الموت ، أيعنون أنى لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت ، فانطلق إلى جبانة كذا فإن فيها أقواما ماتوا ، فأتاهم ، فأوحى الله تعالى إليه : يا حزقييل قم فنادهم ، وكانت أجسادهم وعظامهم قد تفرقت ومزقتها الطير والسباع ، فنادى حزقييل : أيتها العظام إن الله يأمرك أن تعودى وتكتسى اللحم فاكتست جميعا اللحم ، وبعد اللحم جلودا ودما وعصبا وعروقا فكانت أجسادا ، فنادى أيتها الأرواح إن الله تعالى يأمرك أن تعودى إلى أجسادك ، فقاموا جميعا وعليهم ثيابهم التي ماتوا فيها وكبروا تكبيرة واحدة .

وروى منصور بن المعتمر عن مجاهد : أنهم قالوا حين أحيوا : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت ، فرجعوا إلى قومهم وتناسلوا بعد ما أحياهم الله وعاشوا دهرا يعرفون أنهم كانوا موتى ، سمحة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبا إلا عاد رميا مثل الكفن حتى ماتوا لأجلهم التي كتبها الله لهم . قال ابن عباس : فإنه لم يوجد في ذلك السبب من اليهود تلك الريح قال قتادة : مقتهم الله على فرارهم من الموت وتقصيرهم في الجهاد ، فأماهم الله عقوبة لهم ، ثم بعثهم لبقية آجالهم ليفوها ، ولو كانت آجال القوم قد جاءت ما بعثوا بعد موتهم ، فلما أحياهم الله تعالى أمرهم بالجهاد ، وقال (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .

باب في قصة إلياس عليه السلام

قال الله تعالى (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) إلى آخر القصة . قال ابن إسحاق والعلماء من أصحاب الأخبار : لما قبض الله تعالى حزقييل عليه السلام عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد ، ونسوا عهد الله إليهم في التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله عز وجل ، فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبيا ، وهو إلياس بن يسي بن فنحاص ابن عيزار بن هارون بن عمران . وإنما كانت الأنبياء بعد موسى يعثون إليهم بتجديد ما نسوا وضيعوا من أحكام التوراة ، وبنو إسرائيل يومئذ متفرقون في أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة وكان سبب ذلك أن يوشع بن نون لما فتح أرض الشام وملكها بوأها بني إسرائيل وقسمها

بيهم ، فأخذ سبط منهم بعلبك ونواحيها وهم سبط إلياس ، فبعث الله تعالى إليهم نبيا وعليهم يومئذ ملك يقال له آخاب^١ قد ضل وأضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام ، وكان هو وقومه يعبدون صنما يقال له بعل ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وكان له أربعة وجوه . وقال ابن إسحاق : قد سمعت بعض أهل العلم يقولون : ما كان البعل إلا امرأة كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، فذلك قوله تعالى (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) قال فجعل إلياس يدعوهم إلى الله تعالى ولا يطيعونه ولا يجيبونه إلى ذلك ، إلا ما كان من أمر آخاب^١ الملك الذي كان ببعلك فإنه آمن به وصدقه ، وكان إلياس يقوم أمره ويسدده ويرشده ، وكان لآخاب امرأة يقال لها أربيل ، وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غزاة أو غيرها ، فكانت تبرز بين الناس كما يبرز زوجها وتركب كما يركب ، وتجلس كما يجلس في مجلس القضاء ، وتقضي بين الناس ، وكانت قتالة للأنبياء ، وكان لها كاتب رجل مؤمن حكيم يكم إيمانه ، وكان قد خلص من بين يديها ثلاث مئة نبي كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث سوى الذين قتلهم ، وكانت في نفسها غير محصنة ، ولم يكن على وجه الأرض أفحش منها ، وهي مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بني إسرائيل وقتلهم كلهم بالاغتيال ، وكانت معمرة ، ويقال إنها ولدت سبعين ولدا . قال : وكان لآخاب هذا جار من بني إسرائيل رجل صالح يقال له مزدكى . وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزينها ، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامراته ، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتزهران فيها ويأكلان ويشربان ويقبلان فيها حيناً ، وكان لاجب مع ذلك يحسن جوار صاحبها مزدكى ، وامراته أربيل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة ، وتحتال على غضبها لما سمعت الناس يذكرون الجنينة من حسناتها ويقولون ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر ، ويتعجبون من أمر الملك وامراته كيف لم يغصباها ، فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصالح مزدكى في أن تقتله وتأخذ جنينته ، والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد إليه سبيلا ، ثم إنه اتفق خروج الملك إلى سفر بعيد ، فلما طالت غيبته اغتنمت امراته أربيل أن تم لها الحيلة على العبد الصالح مزدكى ، في أن تقتله وتأخذ جنينته ، وهو غافل عما تريد به مقبل على عبادة ربه وإصلاح معيشته ، فجمعت أربيل جمعا من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على مزدكى بالزور أنه يسب آخاب الملك ، فأجابوها إلى ما سألتهم من الشهادة بالزور ، وكان حكمهم في ذلك الزمان على من يسب الملك القتل إن قاست البينة ، فأحضرت مزدكى وقالت له : بلغنا عنك أنك شتمت الملك واغتبته ، فأنكر مزدكى ذلك ، فأقامت البينة فشهدوا بالزور عليه بحضرة الناس ، فأمرت بقتله ، فقتل وأخذت جنينته غضبا ، فغضب الله عليهم بقتل العبد الصالح ، فلما قدم الملك من السفر أخبرته الخبر فقال لها : ما أصبت خيرا ولا وفقت ، ولا أرانا نفلح بعدها أبدا ،

(١) في الأصل : لاجب . تحريف . انظر (سفر الملوك أول ١٦ : ٢٨) .

وإنا كنا عن جنينته لأغنياء ، وقد كنا نتزده فيها وقد جاورنا ونحرم بتا منذ زمان طويل فأحسننا جواره ، وكفنا عنه الأذى لوجوب حقه علينا ، فقبحت بنا الجوار ، وما حملك على اجترائك عليه إلا سفهك وسوء رأيك وقلة تفكيرك في العواقب ، فقالت : إنما غضبت لك وحكمت بحكمك ، فقال لها : ما كان يسع حلمك وعظيم خطرك العفو عن رجل واحد فتحفظين جواره ، فقالت : قد كان ما كان . فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى أخاب وقومه ، وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب عليه لوليه حين قتلوه بين أظهرهم ظلما ، وقد آلى على نفسه أنهما إن لم يتوبا من صنعهما ويردا الجنيئة على ورثة مزدكى وإلا يهلكهما : يعنى أخاب وامراته في جوف الجنيئة أشر ما يكون يسفك دمهها ، ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعري عظامهما عن لحومهما ولا يمتعان بها إلا قليلا . قال : فجاء إلياس وأخبر الملك بما أوحى الله إليه في أمره ، وأمر امرأته والجنيئة . فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه ثم قال له : يا إلياس والله ما أرى ما تدعوننا إليه إلا باطلا ، والله ما أرى فلانا وفلانا ، وسمى ملوكا منهم عبدوا الأوثان إلا على مثل ما نحن عليه يأكلون ويشربون ويتمتعون مملكين ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنه باطل شيء ، وما نرى لكم علينا من فضل . قال : ثم هم بتعذيب إلياس وقتله . قال : فلما سمع إلياس ذلك وأحس بالشر ، رفضه وخرج عنه ، فلحق بشواحق الجبال وعاد الملك إلى عبادة بعل ، فارتقى إلياس إلى أصعب جبل وأشمخه ، فدخل مغارا ، فيقال إنه بقي فيه سبع سنين شريدا وحيدا فريدا خائفا يأوى إلى الشعاب والكهوف ، ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر وهم في طلبه ، وقد وضعوا عليه العيون ، يتوقعون أخباره ويجهدون في أخذه ، والله تعالى بستره ويحفظه ويدفع عنه البلاء . فلما تم له سبع سنين أذن الله تعالى في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم ، فأمرض الله تعالى ابن الملك أخاب ، وكان أحب أولاده إليه وأعزهم عليه وأشبههم به ، فأدنف حتى يئس منه ، فدعا صنمه بعل ، وكانوا قد فتنوا ببعل فعظموه حتى إنهم سموا مدينتهم به ، فقالوا لها : بعلبك ، وجعلوا له أربع مئة سادن فوكلوهم به وجعلوهم أمناءه وجعل الشيطان يدخل في جوف الصنم فيكلمهم بأنواع الكلام والأربع مئة يصغون بأذانهم إلى ما يقول الشيطان ويوسوس لهم شريعة من الضلال فيكتبونها للناس ويعملون بها ويسمونهم الأنبياء ، فلما اشتد مرض ابن الملك طلب الملك أن يشفعوا له إلى بعل ويطلبوا منه لابنه الشفاء والعافية فدعوه له فلم يجبهم ، ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الولوج في جوفه ولا الكلام وهم مجتهدون في التضرع إليه والمريض لا يزداد بذلك إلا ألما وجهدا . فلما طال عليهم ذلك قالوا لأخاب : أيها الملك إن في ناحية الشام آلهة أخرى وهي في العظم مثل إلهك فابعث إليها الأنبياء يشفعون لك إليها ، فاعلها أن تشفع إلى بعل فإنه غضبان عليك ، ولولا غضبه عليك لكان قد آجابك وشفى مرض ابنك

فقال لاجب : لأى شىء غضب علىّ وأنا أطيعه وأطلب رضاه ولم انحطه ساعة قط ؟
قالوا : من أجل أنك لم تقتل إلباس وفرطت فيه حتى نجاسالما وهو كافر بإهلك يعبد غيره
فذلك الذى أغضبه عليك ، قال أخاب : وكيف لى أن أقتله فى يومى هذا وأنا مشغول عن
طلبه بوجع ابنى ، وليس لإلباس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد ، فلو عوفى ابنى
تفرغت لطلبه ولم يكن لى هم ولا شغل غيره حتى آخذه وأقتله وأربح إلهى منه وأرضيه .
قال : ثم إنه بعث الأربع مائة نبي ليشفعوا إلى الآلهة التى بالشام ويسألوها أن تشفع إلى صنم
الملك ليشنى ابنه فانطلقوا إلى الأصنام وكلموها ، فنع الله عز وجل الشيطان الولوج
فى الأصنام ولم تكلمهم ، فرجعوا إلى الملك وأخبروه بذلك ، فقال الملك : وكيف لى أن
أقتل إلباس فى هذا اليوم . قال : فخرج أربع مائة حتى إذا كانوا بجبال الجبل الذى فيه
إلباس أوحى الله إليه أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلمهم ، وقال له :
لاتخف ، فإنى سأصرف عنك شرهم وألقى الرعب فى قلوبهم ، فنزل إلباس من الجبل ،
فلما لقيهم استوقفهم ، فلما وقفوا قال لهم : إن الله أرسلنى إليكم وإلى من وراءكم ،
فاستمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوها صاحبكم ارجعوا إليه وقولوا له : إن الله تعالى يقول
لك : أأست تعلم يا أخاب أننى أنا الله لا إله إلا أنا ، إله بنى إسرائيل الذى خلقهم ورزقهم
وأحياهم وأماتهم ؟ فلا يحملنك جهلك وقلة عقلك على أن تشرك فى وتطلب الشفاء لابنك من
غيرى ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا إلا ما شئت ، وإنى آليت باسمى لأغيظنك فى ابنك
ولأميته من فورهم هذا ، حتى تعلم أن أحدا لا يملك له شيئا دونى ، فلما قال لهم ذلك رجعوا
وقد ملثوا منه رعبا ، فلما صاروا إلى الملك ووصلوا إليه قالوا له ما قال لهم إلباس ، وأخبروه
بأن إلباس انحط عليهم من الجبل ، وهو رجل نحيف طويل وقد قشيف وقحيل وتمعط شعره
ويبس جلده ، وعليه جبة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال ، فاستوقفنا ، فلما
وقفنا صار معنا ، فقذف له فى قلوبنا الرعب والهبة وتقطعت ألسنتنا ، ونحن فى هذا
العدد الكثير وهو واحد ، فلم نقدر أن نكلمه ونراجعه ، وملا أعيننا منه حتى رجعنا إليك ،
ثم إنهم قصوا عليه كلام إلباس ، فقال لاجب : لا أنتفع بالحياة ما دام إلباس حيا ، ما الذى
منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوكلوه وتأتونى به وأنتم تعلمون أنه طلبتى وعدوى ؟
قالوا له : قد أخبرناك بالذى منعنا عنه ، ومن كلامه والبطش به ، فقال أخاب : إذن
ما نطبق إلباس إلا بالمكر والخديعة ، فقيض له خمسين رجلا من قومه من ذوى القوة
واللباس ، وعهد إليهم عهده ، وأمرهم بالاحتياى عليه ، وأن يطمعوه بأنهم قد آمنوا به هم
ومن وراءهم ، ليطمئن إليهم ويغتر بهم ويمكنهم من نفسه ، فيأتون به ملكهم ، فانطلقوا حتى
ارتقوا ذلك الجبل الذى فيه إلباس عليه السلام ، ثم إنهم تفرقوا فيه وهم ينادون بأعلى
أصواتهم ويقولون : يا نبي الله ابرز لنا وأشرف علينا بنفسك فإننا قد آمننا بك وصدقناك

وملكنا آخاب ، وكذلك جميع قومنا مقرّون بذلك ويقرّون عليك السلام ويقولون : قد بلغتنا رسالتك وعرفنا ما قلت وآمنا بك وأجبنك إلى ما دعوتنا إليه فهلم إلينا ، فأنت نبينا ورسول ربنا ، فأقم بين أظهرنا واحكم بيننا ، فإننا ننقاد إلى ما أمرتنا وننتهي عما نهيتنا ، وليس يسعك أن تتخلف عنا بعد إيماننا بك وطاعتنا لك ، فتداركنا وارجع إلينا ، وكل هذا كان مكرًا منهم وخديعة . فلما سمع إلياس مقاتلهم وقع في قلبه لإيمانهم وخاف الله وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر لهم ولم يجيبهم بعد الذي سمع منهم . فلما صمم على البروز إليهم رجع إلى نفسه وقال : لو أني دعوت الله تعالى فسألته أن يعلمني ما في نفوسهم ويطلعني على حقيقة أمرهم ، وكان ذلك إلهاما من الله تعالى وتوفيقا له ، فقال : اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم ، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم جميعا ، فما استتم قوله حتى حُصبوا بالنار من فوقهم فأحرقوا أجمعون . قال : وبلغ آخاب وقومه الخبر فلم يرتدع عن ضمير السوء واحتال ثانيا في أمر إلياس ، فقبض له فئة أخرى مثل عدد أولئك وأقوى منهم وأمكن في الحيلة والرأى ، فأقبلوا حتى وافوا ذلك الجبل وارتقوه متفرقين ، وجعلوا ينادون : يا نبي الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطوته إنا لسنا كالذين أتوك قبلنا ، أو " فرقة نافقوا وخالفوا ، فصاروا إليك ليمكروا بك من غير رأينا ، ولو علمنا بهم لقتلناهم ، والآن قد كفاك الله أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم لنا ولك منهم . فلما سمع إلياس مقاتلهم دعا الله بدعوته الأولى ، فأمطر عليهم نارا فأحرقوا جميعا عن آخرهم ، كل ذلك وابن الملك في البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله تعالى على لسان نبيه إلياس ، لا يقضى عليه فيموت ، ولا يخفف عنه من عذابه . فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيا ، ازداد غيظا إلى غيظه وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه إلا أنه شغله عن ذلك مرض ابنه ، فوجه نحو إلياس الكاتب المؤمن الذي هو كاتب امرأته ، رجاء أن يأنس إليه فينزل معه ، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءا ولا مكروها ، وإنما أظهر له ذلك لئلا اطلاع عليه من إيمانه ، وكان الملك مع اطلاعه على إيمانه مغضبا عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأى والبصارة بالأمور . فلما وجهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه وعهد إليهم دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم وإن جاء معهم آنسا بالكاتب وواثقا بمكانته لم يوحشوه ولم يروّعوه ، ثم إنه أظهر للكاتب الإنابة ، فقال له : إنه قد آن لي أن أتوب وأتعظ ، فقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني ، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس ، ولست آمن أن يدعو علي وعلى جميع قومي فهلك بدعوته ، فكن رسولنا إليه ، وأخبره أنا قد تبنا وأنبنا ، وأنه لا يصلحنا في توبتنا وما نريد من رضا ربنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا

يأمرنا وبينانا ، ويخبرنا بما يرضى ربنا . قال : ثم إنه أمر قومه أن يعزلوا الأصنام وقال له : أخبر إلياس بأنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد ، وقد أهملنا أمرها حتى ينزل إلينا ، فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها ، وكان ذلك كله مكرًا من الملك . قال : فانطلق الكاتب والفئة معه حتى علّوا الجبل الذي فيه إلياس ، فناداه الكاتب فعرف إلياس صوته ، فتاقت نفسه إليه وأنس به وكان مشتاقًا إلى لقائه ، فأوحى الله تعالى إلى إلياس عليه السلام أن ابرز إلى أخيك الصالح فآلقه وجدد منه العهد ، فبرز إليه وصافحه وسلم عليه وقال له : ما الخبر؟ فقال له المؤمن : إنه قد بعثني إليك هذا الجبار الطاغى وقومه ، وقص عليه ما قاله ، وقال له : إني لخائف إن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني ، فأمرني بما شئت أن أفعله وأنتهى إليه ، إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته ، وإن شئت جاهدته معك ، وإن شئت أرسلتني إليه بما تحب فأبلغه رسالتك ، وإن شئت دعوت ربك يجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا ، فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن كل ما جاءك منهم مكر وكذب ليظفروا بك ، وأن أخاب إن أخبرته رسله أنك قد لقيت هذا الرجل ولم يأت بك إليه فإنه يتهمه ويعرف أنه قد داهن في أمرك ولم يأمن أن يقتله ، فانطلق معه ، فإن انطلقك معه عذره وبرأته عند أخاب ، وإني سأشغله عنكما وأضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره ، ثم أميته على شر حال ، فإذا مات هو فارجع أنت ولا تقم عنده . قال : فانطلق إلياس معهم حتى قدموا على أخاب . فلما دخلوا عليه شدد الله على ابنه الوجع وأخذ الموت بكظمه فشغل الله بذلك أخاب وأصحابه عن إلياس ورجع إلياس سالما إلى مكانه . فلما مات ابن أخاب وفرغوا من أمره وقرّ جزعه انتبه لإلياس ، وسأل عنه الكاتب المؤمن الذي جاء به فقال له : ليس لي به علم ، وذلك أنه قد شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا قد استوثقت منه ، فأطرق عنه أخاب وتركه لما كان به من الحزن على ابنه . فلما طال الأمر على إلياس من المكث في الجبل والمقام به واشتاق إلى العمران والناس ، نزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بنى إسرائيل ، وهي أم يونس بن متى ذى النون ، فاستخفي عندها ستة أشهر ، ويونس ابنها يومئذ مولود رضيع ، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها تواسيه بذات يدها ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها . قال : ثم إن إلياس عليه السلام سئم ضيق البيوت بعد عورده في الجبال ودوحها ، فأحب اللحوق بالجبال ، فعاد إلى مكانه في الجبال ، فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى مات ابنها يونس حين فطمته ، فعظمت مصيبتها به ، فخرجت في طلب إلياس ، فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته ، فسلمت عليه وقالت له : إني فجعت بعدك بموت ابني وعظمت به مصيبتى ، واشتد لفقدته بلائى ، وليس لي ولد غيره ، فارحمني وادع ربك تعالى أن يحيى إلى ابني فيجبر مصيبتى فإني قد تركته مسجى لم أدفنه وقد أخفيت مكانه ، فقال له إلياس

عليه السلام : ليس هذا مما أمرت به ، وإنما أنا عبد مأمور ، أعمل بما أمرني ربي به ، ولم بأمرني بهذا ، فجزعت المرأة وتضرعت فعطف الله قلب إلياس عليها ، فقال لها : ومنى مات ابنك ؟ فقالت : منذ سبعة أيام ، فانطلق إلياس عليه السلام معها وسار سبعة أيام حتى أتى إلى منزلها ، فوجد ابنها يونس ميتاً منذ أربعة عشر يوماً ، فتوضأ إلياس وصلى ودعا ، فأحيا الله يونس بن متى . فلما عاش وجلس وثب إلياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضعه . قل : فلما طال عصيان قومه ضاق إلياس بذلك ذرعاً وأجهدته البلاء ، فأوحى الله إليه بعد سبع سنين وهو خائف مذعور مجهود : يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه ، أأنت أميني على وحيي ، ووحيتي في أرضي ، وصفوتي من خلقي ؟ فأسألتني أعطتك فإني ذو الرحمة الواسعة والفضل العظيم . قال إلياس عليه السلام : تمتني وتلحقني بآبائي فإني قد مللت بني إسرائيل وملوني ، وأبغضتهم فيك وأبغضوني ، فأوحى الله إليه : يا إلياس ما هذا اليوم الذي أُعزى منك الأرض وأهلها ، وإنما قوامها وصلاحها بك وأشباهك ، ولكن سئلتني أعطتك . قال إلياس : فإن لم تمتني يا إلهي فأعطني ثأري من بني إسرائيل ، فأوحى الله تعالى إليه ، فأى شيء تريد أن أعطيك يا إلياس ؟ قال : تمكيني من خزائن السماء سبع سنين فلا تنشي عليهم سحابة إلا بدعوتي ، ولا تمطر عليهم سبع سنين قطرة إلا بشفاعتي ، فإنهم لا يذلم إلا ذلك ، قال الله تعالى : يا إلياس أنا أرحم بعبادي من ذلك وإن كانوا ظالمين ، قال : فست سنين ، قال : أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين ، قال : فخمس سنين ، قال : أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين ، قال : فأربع سنين ، قال أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين ، ولكنني أعطيك ثأرك منهم ثلاث سنين أجعل خزائن المطر بيدك ، ولا أنشر عليهم سحابة إلا بدعوتك ، ولا أنزل عليهم قطرة إلا بشفاعتك ، قال إلياس : فبأى شيء أعيش ؟ قال : أسخر لك جيشاً من الطير تنقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط . قال إلياس : قد رضيت ، فأمسك الله المطر عنهم ثلاث سنين حتى هلكت المواشي والدواب والحوام والشجر وجهد الناس جهداً شديداً ، وإلياس على حاله مختلف من قومه بموضع ينساق له فيه الرزق ويأتيه حيثما كان ، وقد عرفه بذلك قومه ، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في بيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا المكان فيطلبونه ويلقي منهم أهل ذلك المكان شراً . قال ابن عباس : أصاب بني إسرائيل القحط ثلاث سنين متواليات ، فر إلياس بعجوز ، فقال لها : هل عندك طعام ؟ فقالت : نعم شيء من دقيق وزيت قليل ، فجاءته بشيء من الدقيق والزيت فدعا فيهما بالبركة وهما مباركة الله في ذلك حتى ملأت جرابها دقيقاً وملأت خوابيها زيتاً . فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عندها قالوا لها : من أين لك هذا ؟ قالت : مر بي رجل من حاله كذا وكذا ووصفته بصفته فعرفوه وقالوا لها : ذلك إلياس ، ثم إنهم طلبوه فوجدوه فهرب منهم إلى الجبال ، والله أعلم

قصة اليسع عليه السلام

ثم إن إلياس أتى إلى بيت امرأة من بنى إسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن أخطوب وكان به ضر ، فأوته وأخفت أمره ، فدعا له فعوفى من الضر الذى كان به ، واتبع اليسع إلياس وآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب معه حيثما ذهب ، وكان إلياس قد أسنَّ وكبر ، وكان اليسع غلاما شابا . ثم إن الله تعالى أوحى إلى إلياس عليه السلام أنك قد أهلكت كثيرا من الخلق ممن لم يعصوني سوى بنى إسرائيل ، من البهائم والدواب والهوام والشجر والنبات بحبس المطر عن بنى إسرائيل ، فيزعمون والله أعلم أن إلياس قال : يا رب دعنى أكون الذى أدعوا لهم وآتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلهم يرجعون عما هم عليه من عبادة غيرك ، فقيل له نعم ، فجاء إلياس إلى بنى إسرائيل وقال لهم : ويلكم إنكم قد هلكتم جوعا وجهدا ، وقد هلكت البهائم والدواب والطير والشجر والنبات بحبس المطر عنكم بخطاياكم وإنكم على باطل وغرور ، فإن كنتم تحبون أن تعلموا أن أصنامكم التى تدعونها من دون الله لن تغنى عنكم شيئا فاخرجوا بأصنامكم هذه ، فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون ، وإن هى لم تفعل علمتم أنكم على باطل وغرور ، فزعمت عنها ودعوت الله تعالى لكم أن يفرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء . قالوا : أنصفت ، فخرجوا ومعهم أوثانهم فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ، فقالوا يا إلياس إنا قد هلكنا فادع الله لنا ، فدعا الله إلياس ومعه اليسع عليهما السلام بالفرج مما هم فيه ، وأن يُسَقِّوا ، فخرجت سحابة مثل الترس على ظهر البحر ، وهم ينظرون إليها فأقبلت نحوهم ، وطبقت عليهم الأفق ثم أرسل الله عليهم المطر ، فأغاثتهم وأحيت بلادهم . قال : فشكوا إلى إلياس هدم الجدران وعدم البذر ، وقالوا : ليست لنا حبوب ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بأن يبذروا الملح فى الأرض ففعلوا ، فأثبت الله لهم منه الحِمَصَّ وأمرهم أن يبذروا الرمل ، فأثبت الله لهم منه الدُّخْنَ . فلما كشف الله تعالى عنهم الضر نقضوا العهد ولم ينزعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عن ضلالتهم ، وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه . فلما رأى إلياس ذلك دعا ربه أن يريجه منهم ، فتبيل له انتظر يوم كذا وكذا ، فاخرج إلى موضع كذا وكذا . فإذا جاءك شئ فاركبه ولا تبهه ، فخرج إلياس ومعه اليسع بن أخطوب حتى إذا كانا بالموضع الذى أمر بالخروج إليه أقبل فرس من نار حتى وقف بين يديه ، فوثب عليه إلياس ، فانطلق به الفرس فناداه اليسع يا إلياس ما تأمرنى به ؟ فقذف إليه كساءه من الجزء الأعلى ، فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بنى إسرائيل ، وذهب إلياس فكان ذلك آخر العهد به ، ورفع الله إلياس من بين أظهرهم وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وكساه الريش ، وكان إنسيا ملكيا سماويا أرضيا ، وساط الله تعالى على أُنْحَابِ الملاك وامرأته وقومه عدوا لهم ، فقصدتهم من حيث لا يشعرون به حتى رهقهم ، فقتل أُنْحَابِ الملاك

وامراته في بستان مزدكى ، فلم تزل جيفتاها ملقتين في تلك الجنيته حتى بليت لحومهما ورمت عظامهما ، ونبا الله تعالى بفضله اليسع عليه السلام ، وبعثه نبيا ورسولا إلى بني إسرائيل وأوحى الله تعالى إليه ، وأيده بمثل ما أيد به عبده إلياس ، فأمنت به بنو إسرائيل ، وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأيه وأمره ، وحكم الله تعالى فيهم قائم ، إلى أن فارقههم اليسع .

أخبرنا أبو عبد الله الحسن بن محمد الحافظ ، عن عبد العزيز بن أبي داود قال : إن الخضر وإلياس عليهما السلام يصومان شهر رمضان بيت المقدس ، ويوفيان الموسم في كل عام .

وأخبرني ابن فتحويه عن رجل من أهل عسقلان : أنه كان يمشى بالأردن عند نصف النهار فرأى رجلا ، فقال : يا عبد الله من أنت : فقال : أنا إلياس ، قال : فوعدت علي رعدة شديدة ، فقلت له : ادع الله أن يرفع عني ما أجد حتى أفهم حديثك وأعقل عنك : قال : فدعا لي بثان دعوات وهن : يا برّ يارحيم ، يا حنان يامنان ، يا حي يا قيوم ، ودعوتين بالسريانية لم أفهمهما ، وقيل هما : باهيا شراهيا ، فرفع الله عني ما كنت أجد ، ووضع كفه بين كتفي ، فوجدت بردها بين يدي ، وقلت له : أيوحى إليك اليوم ؟ فقال : منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فإنه لا يوحى إلى . قال : فقلت له : فكم من الأنبياء اليوم أحياء ؟ قال : أربعة : اثنان في الأرض ، واثنان في السماء ، أما اللذان في السماء فعميسى وإدريس عليهما السلام . وأما اللذان في الأرض فإلياس والخضر عليهما السلام ، قلت : كم الأبدال ؟ قال : ستون رجلا : خمسون منهم من لدن عريش مصر إلى شاطئ الفرات ، ورجلان بالصبيصة ورجل بعسقلان وسبعة في سائر البلدان كلما أذهب الله واحدا منهم جاء بآخر مكانه ، وبهم يدفع الله عن الناس البلاء وبهم يُمطرون ، قلت : فالخضر أين يكون ؟ قال في جزائر البحر . فقلت : هل تلقاه ؟ قال : نعم ، قلت : أين ؟ قال : بالموسم ، قلت : فما يكون حديثكما ؟ قال : يأخذ من شعري وآخذ من شعره . قال : وكان ذلك حين جرى بين مروان بن الحكم وبين أهل الشام القتال ، قلت : فما تقول في مروان بن الحكم ؟ قال : رجل جبار عات على الله تعالى ، والقاتل والمقتول والشاهد في النار . قلت : فإني قد شهدت ولم أظعن برمح ولا رميت بسهم ولم أضرب بسيف وأنا أستغفر الله من ذلك المقام أن أعود إلى مثله أبدا ، قال : أحسنت فهكذا فكن . قال : فبينما أنا وإياه قاعدان إذ وضع بين يديه رغيفان أشد بياضا من الثلج ، فأكلت أنا وهو رغيفا وبعض الآخر ، ثم رفعت رأسي وقد رفع باقي الرغيف الآخر ، فما رأيت أحدا وضعه ولا رأيت أحدا رفعه ، قال : وله ناقة ترعى في وادي الأردن فرفع رأسه إليها ، فلما دعاها جاءت وبركت بين يديه فركبها ، فقلت له : إني أريد أن أصحبك قال : إنك لا تقدر علي صحبتي قال : فقلت له إني خلوا لزوجتي ولأعيال ، قال : تزوج ، وإياك والنساء الأربع ، الناشزة ، والمختلعة ، والملاعنة ، والبرزة وتزوج ما بدالك من النساء ، قال : فقلت إني أحب أن ألك ، قال : فإذا رأيتني

فقد لقبني إني أعتكف في بيت المقدس في شهر رمضان ، ثم حالت بيني وبينه شجرة ، فوالله ما أدري كيف ذهب ؟ وهذا آخر القصة .

مجلس في قصة ذي الكفل عليه السلام

قال الله تعالى (وإسماعيلَ وإدريسَ وذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) قال مجاهد : لما كبر اليسع قال : لو أني استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يعمل ؟ فجمع الناس ثم قال : من يتكفل لي بثلاث استخلفته : يصوم النهار ، ويقوم الليل ولا يغضب ، فقام إليه رجل شاب تزدرية العيون ، فقال أنا ، فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الثاني فسكت الناس ، فقام ذلك الرجل وقال : أنا أعمل ذلك ، فاستخلفه . قال : فلما رأى إبليس ذلك جعل يقول للشياطين : عليكم بفلان فأعياهم ، فقابل دعوني وإياه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير حين أخذ مضجعه للقائلة ، وكان لا ينام بالليل والنهار إلا تلك النوم ، فدق إبليس الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : شيخ كبير مظلوم ، ففتح الباب ، فجعل يقصُّ عليه القصة ويقول : إن بيني وبين قومي خصومة ، وإنهم ظلموني وفعلوا وفعلوا ، وجعل يطول عليه حتى حضر وقت الرواح وذهبت للقائلة ، فقال له : إذا رحمتُ فإني آخذ لك بحقك ، فانطلق وراح إلى مجلسه . فلما جلس جعل ينظر ليرى الشيخ فلم يره ، وقام يتبعه ، فلما كان الغد جلس يقضي بين الناس وينظره فلم يره . فلما رجع إلى القائلة وأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال : من هذا ؟ فقال : أنا الشيخ المظلوم ففتح له وقال : ألم أقل لك إذا قعدت فأتني ، فقال : إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد يقولون : نحن نعطيك حقك ، وإذا قمت جحدوني . قال : فانطلق فإذا رحمت فأتني وفاتته القائلة ، فراح وأقبل وجعل ينظره فلا يراه ، فشق عليه النعاس . فقال لبعض أهله : لاتدعن أحدًا يقرب هذا الباب حتى أقوم ، فإنه قد شقَّ عليَّ عدم النوم . فلما كانت تلك الساعة جاء فلم يأذن له أحد ، فلما أعياه نظر فإذا كدوة في البيت فتسرَّ منها فإذا هو في البيت وإذا به يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وقال : يا فلان ألم أمرك أن لاتأذن لأحد عليَّ ، فقال : أما من قبلي فما أتني ، فانظر من قبل من أتني ؟ فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه ، وإذا الشيخ معه في البيت ، فقال له : أتنام والخصوم بيابك ؟ فعرفه ، فقال له : يا عدو الله ما ألك إلى هذه الفعال . فقال له : إنك أعييتني في كل شيء أردت بك ، ففعلت معك ما ترى لأغضبك ، فعصمتك الله مني ، فسمى ذا الكفل ، لأنه تكفل بأمر فوفى به .

أخبرنا ابن فتحويه قال : حدثنا عمر بن المفضل عن أبي هاشم ، أخبرنا ابن المفضل قال : أخبرنا الأعمش عن عبد الله بن عبيد الله الداري عن سعيد عن ابن عمر قال : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين لم أحدث به، سمعته منه أكثر من سبع مرات يقول « كان في بني إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتزعج عن ذنب عمله فاتبع امرأة فأعطاهما ستين دينارا على أن تعطيه نفسها فلما قعد منها مقعد الرجل من المرأة ارتعدت وبكت ، فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت من هذا الفعل فاني ما فعلته قط ، فقال لها ؛ أكرهتك ؟ قالت لا ولكن حملتني عليه الحاجة ، فقال لها : اذهبي فهي لك » ثم إنه قال : والله لا أعصى الله بعدها قط أبدا فمات من ليلته ، فقيل : مات ذو الكفل فوجدوا على باب داره مكتوبا إن الله تعالى قد غفر لذي الكفل . وقال أبو موسى الأشعري : إن ذا الكفل لم يكن نبيا ، وإنما كان عبدا صالحا تكفل بعمل رجل صالح ، وكان يصلي لله تعالى في كل يوم مئة صلاة ، فأحسن الله عليه الثناء . وقيل : هو إلياس . وقيل هو زكريا ، والله أعلم بالصواب .

مجلس في قصة عيلي وشمويل وهو إسماعيل بالبرانية ، وقصة التابوت

وخبر طالوت وجالوت ، وهذه قصة كبيرة تشتمل على أبواب كثيرة

قال الله تعالى (ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل) . . . الآية .

(فصل : في سياق الآية ومقدمة القصة) قال وهب بن منبه : لما نبأ الله تعالى اليسع بعد إلياس عليهما السلام ، واستخلفه على بني إسرائيل ، وكان فيهم ما شاء الله أن يكون ، ثم قبضه الله تعالى إليه ، وخلف فيهم الخلوف عظمت فيهم الخطايا ، وكان عندهم التابوت يتوارثونه كابرا عن كابر ، فيه السكينة وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون ، وكانوا لا يلقاهم عدو فيقدموا التابوت ويزحفون به معهم إلا هزم الله تعالى ذلك العدو ، وكان الله تعالى قد بارك لهم في أرزاقهم ، فكان أحدهم فيما يذكرون يجمع التراب على صخرة ، ثم يبذر فيه الحب فيخرج الله له ما يأكل منه هو وعياله ويكون لأحدهم الزيتون فيعصر منها ما يأكل هو وعياله سنة ، فلما كثرت أحداثهم وعظمت ذنوبهم وتركوا ما عهد الله إليهم ، سلط الله عليهم العمالقة ، وهم قوم كانوا يسكنون غزة وعسقلان وساحل البحر ما بين مصر وفلسطين ، وكان جالوت الملك فيهم ، فظهروا على بني إسرائيل وغلّبهم على كثير من أراضيتهم ، وسبوا كثيرا من ذراتهم ، وأسروا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين غلاما وضربوا عليهم الجزية ، وأخذوا توراتهم ، وبقوا على اضطراب من أمرهم ، واختلاف من حالهم يتبادون أحيانا في غيهم وضلالهم ، فسلط الله تعالى عليهم من ينتقم له منهم ليرجعوا إلى التوبة أحيانا ويكفيهم الله شر من بغى عليهم ، حتى بعث الله فيهم طالوت ملكا ورد عليهم توراتهم ، فانتظم أمرهم واستوثق ملكهم ، وكان مدة ما بين وفاة يوشع بن نون التي آل

أمر بنى إسرائيل في بعضها إلى السامة منهم ، وفي بعضها إلى غيرهم ممن يقهرهم ويتملك عليهم إلى أن ثبت الملك فيهم ورجعت النبوة إليهم بشمويل النبي عليه السلام أربع مئة سنة وستين سنة ، وكان آخر من ملكهم في هذه المدة رجل يقال له إيلاف^۱ ، وكان يدبر أمرهم في ملكه شيخ كبير يقال له عيلي الكاهن كان حبرهم وصاحب قربانهم ، وكانوا ينتهون إلى رأيه ، فلما مضى من وقت قيامه بأمرهم مدة بعث الله شمويل نبيا .

(القول في بدء أمر شمويل وصفة نبوته صلى الله عليه على نبينا وعليه وسلم)

قال وهب بن منبه : كان لأبي شمويل امرأتان إحداهما عجوز عاقر لم تلد له ولدا وهي أم شمويل ، والأخرى قد ولدت له عشرة أولاد . قال : وكان لبني إسرائيل عيد من أعيادهم أقاموا فيه شرائطه وقربوا القرابين ، فحضر أبو شمويل وامرأته وأولاده العشرة ذلك العيد ، فلما قربوا قربانهم أخذ كل واحد منهم نصيبا ، وكان لأم الأولاد عشرة أنصباء وللعجوز نصيب واحد ، فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغى ، فقالت : أم الأولاد للعجوز : الحمد لله الذي كثرتي بولدي وقللك ، فوجت العجوز وجوما شديدا فلما كان عند السحر عمدت إلى متعبدها فقالت : اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتى واستطالتها على بنعمك التي أنعمتها عليها ، وأنت ابتدأتها بالنعمة والإحسان فارحم ضعفى وارزقنى ولدا تقيا رصيا ، واجعله لك ذخرا في مسجد من مساجدك يعبدك ولا يكفرك ويطيعك ولا يجحدك ، فإذا رحمت ضعفى ومسكنتى وأجبت دعوتى فاجعل لى علامة أعرف بها قبول دعائى ، فلما أصبحت حاضت ، وكانت قبل ذلك قد يئست من الحيض ، فجعله الله علامة لما سألته ، فألم بها زوجها فحملت وكتمت أمرها ، ولقى بنو إسرائيل فى ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدة ، ولم يكن لهم نبي يدبر أمرهم : فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبيا يشير عليهم ويجاهدون عدوهم معه ، وكان سبط النبوة قد هلك ولم يبق منه إلا تلك المرأة الحبلى . فلما علموا بحملها تعجبوا من أمرها وقالوا : ما حملك هذا إلا نبي ، لأن اليائسات لا يحملن إلا بالأنبياء كسارة امرأة إبراهيم عليه السلام حملت بإسحاق ، وإيشاع امرأة زكريا حملت بيحيى عليه السلام فأخذوها وحبسوها فى بيت ، رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها ، فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها ولدا ذكرا ، فولدت غلاما وسمته شمويل تقول : سمع الله دعائى . فلما شب الغلام أسلمته ليتعلم التوراة ، فكفاه عيلي وتبناه ، فلما بلغ الغلام الوقت الذى يبعثه الله فيه نبيا أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ عيلي الكاهن ، وكان لا يأمن عليه أحدا ، فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا شمويل ، فقام الغلام مرعوبا فرعا إلى الشيخ وقال : يا أبتاه أدعرتنى فكرد الشيخ أن يقول لا فيفرع الغلام ، فقال : يا بنى ارجع فم ، فرجع الغلام فنام ، ثم دعاه جبريل ثانيا ، فانتبه الغلام وقال : أدعرتنى يا أبتاه ؟ فقال الشيخ : ما شأنك ؟

(۱) صوابه : ليلاء .

قال : أما دعوتني ؟ قال : لا ، فقال شمویل : فإني سمعت صوتا في البيت وليس فيه هيرنا ، فقال له الشيخ : ارجع فتوضأ وصل ، فإنك إن دعيت باسمك فأجب ، وقل ليك أنا طوعك فأمرني بما شئت أفعل ما تأمرني به ، ففعل ذلك الغلام فنودي ثالثة ، فقال : ليك أنا طوعك ، فأمرني بأمرك أفعل ما تأمرني به ، فظهر له جبريل عليه السلام ، فقال له : اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك ، فإن الله سبحانه عز وجل قد بعثك فيهم نبيا ، وإن الله قد ذرأك يوم ذرأك للنبوّة ، ورحم وحدة أمك ذلك اليوم الذي تاهت عليها ضرّتها فيه ، فلا أحد اليوم أشد منها عضدا ولا ملاذا ، فانطلق إلى عيلى فقل له : إنك كنت خليفة الله على عباده ودينه ، فقامت زمانا بأمره حاكما بكتابه محافظا على حدوده ، فلما امتدت مدتك ودق عظمك وذهبت قوتك وفنى عمرك وقرب أجلك وصرت أفقر ما يكون إلى الله تعالى ولم تزل فقيرا إليه ، عطلت الحدود وجرت بين الخصوم وعملت بالرشا والمصانعات وأضعفت حكم الحق حتى عز الباطل وأهله ، وذل الحق وحزبه ، وظهر المنكر وخنى المعروف وفشا الكذب وقلّ الصدق ، وما كان الله عاهدك على هذا ولا عليه استخلفك ، فبئسما ختمت به عملك (والله لا يُحِبُّ الخائنين) بلغه هذه الرسالة وقم بعده بالخلافة . فلما بلغه شمویل هذه الرسالة فزع وجزع . وكان السبب فيما عاتب الله عبده عيلى ووبخه عليه أنه كان له ابنان شابان فأحدثا شيئا في القربان لم يكن فيه ، وذلك أنه كان مسواط القربان الذى كانوا يسوطونه به كلابين ، فما أخرجوا كلابا للكاهن الذى كان يسوطه ، فجعل ابناه كلابين ، فأوحى الله إلى شمویل : أن انطلق إلى عيلى فقل له : منعك حب الرلد أن تزجر ابنك أن يحدثا في قربانى ، وأن يعصيانى ، فلا ترعن الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكك وإياهما ، فأخبر شمویل عيلى ، ففزع فزعا شديدا ، وسار إليهم عدوهم ومن حولهم ، فأمر عيلى ابنه أن يخرج بالناس ، فيقاتل ذلك العدو ، فخرجوا وأخرجوا معهما التابوت . فلما تاهبوا للقتال جعل عيلى يتوقع ماذا صنع القوم ، فجاءه رجل وهو قاعد على كرسية ، فأخبره بأن الناس قد انهزموا وأن ابنك قد قتل ؟ قال : فما فعل بالتابوت قال : ذهب به العدو ، قال : فشقق ووقع على قفاه من كرسية فمات . فلما بلغ ملكهم إيلاف الخبر أن التابوت قد سلب وأن عيلى قد مات مات كذا . فلما مات الأمير والوزير وأخذ التابوت مَرَّج أمر بنى إسرائيل واختلّ واجترأ عليهم عدوهم فقالوا لشمویل (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) وذلك بعد ما دبر شمویل أمرهم عشر سنين . فلما نالهم الذل والهوان والقتل والسبي من عدوهم بشؤم معصيتهم سألوا نبيهم شمویل أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله ، وإنما كان قوام أمر بنى إسرائيل بالاجتماع على الملك وإطاعة الملك للأنبياء ، وكان الملك هو الذى يسير بالجيوش ويقاتل العدو ، وكان النبي منبم هو الذى يقم له أمره ، ويشير عليه ، ويرشده ويأتية بالخبر من عند الله تعالى .

قال وهب بن منبه: بعث الله شمویل نبیا فی بنی اسرائیل، فلبثوا أربعین سنة فی أحسن حال، ثم کان من أمر جالوت والعمالقة ما کان، فسألوا شمویل علیه السلام أن یبعث لهم ملکا، فذلک قوله تعالی (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِکِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالَوا لِنَبِيِّهِمْ أَهَلْ لَنَا مَلِکٌ نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) یعنی شمویل، وهو بالعبراية إسماعیل بن بالی ابن علقمة بن ماجد بن عموصا بن النهر بن ضون بن علقمة صاحب عموصا بن عزریا: وقال مجاهد: هو شمویل بن هلقا ولم ینسبه أكثر من ذلک. وقال مقاتل: هو من نسل هارون علیه السلام، فقال لهم نبیهم (هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا) فأجابوا بما قص الله فی كتابه (قالوا: وَمَالْنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا) الآية. فلما أخذ شمویل علیهم الميثاق علی الطاعة والجماعة والجهاد سأل الله تعالی أن یبعث لهم ملکا.

ذكر قصة الملك طالوت وإتيان التابوت وحرب جالوت وما يتعلق به

قال الله تعالی (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) الآية: قال المفسرون: إن شمویل لما قالوا له ابعث لنا ملکا نقاتل فی سبیل الله سأل الله تعالی أن یبعث لهم ملکا، فأتی بعصا وقرن فیه دهن القدس، وقیل له إن صاحبکم الذی یكون ملکا طوله طول هذه العصا، وانظر إلى القرن الذی فیه الدهن، فاذا دخل علیك رجل فنش الدهن الذی فی القرن فهو ملك بنی اسرائیل، فادهن به رأسه وملكه علیهم، ثم إنهم قاسوا أنفسهم بالعصا، فلم یكونوا مثلها، وكان طالوت بطولها، واسمه بالسریانية ساول، وبالعبراية شاءول بن قیس بن أفیل بن صارر بن بحورث بن أفیح بن أنیس بن بنیامین ابن یعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخلیل علیه السلام، وكان رجلا دباغا یعدل الأدم.

قال وهب بن منبه: کان یدبغ الجلود، وعكرمة والسدى یقولان: كان سقاء یستقی علی حمار له من النیل فضل حماره فخرج فی طلبه. قال وهب بن منبه: بل ضاعت حمر لأبی طالوت فأرسله وغلاما له یطلبانها فمرا بییت شمویل علیه السلام، فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا علی هذا النبی فسألناه فی أمر الحمر لیرشدنا ویدعو لنا فیها بخیر، فقال له نعم، فدخلوا علیه، فبینما هما عنده یدکران له خبر الحمر إذ نش الدهن فی القرن: فقام شمویل وقاس طالوت بالعصا فكانت علی طوله، فقال له شمویل: قرب رأسك إلى فدهنه بدهن القدس، ثم إنه قال له: أنت ملك بنی اسرائیل، وقد أمرنی ربی أن أملكك علیهم، فقال طالوت: أنا؟ فقال نعم، قال: أو ما علمت أن سببی أنانی أسباط بنی اسرائیل؟ قال بلی، قال: أو ما علمت أن بیتی أدنی بییت فی بنی اسرائیل؟ قال بلی: قال فبأی آیه؟ قال: بأیه أنك ترجع وقد وجد أبوك الحمر فكان كذلك، ثم إن شمویل قال لابی اسرائیل

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) قال مجاهد: أميرا على الجيش (فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان : سبط نبوة ، وسبط مملكة ، وكان سبط النبوة سبط لاوى بن يعقوب ومنهم موسى وهارون . وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ، ومنهم داود وسليمان عليهما السلام ، ولم يكن طالوت من سبط النبوة ولا من سبط المملكة ، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب ، وكانوا عملوا ذنبا عظيما ، كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا ، فغضب الله عليهم ونزع النبوة والملك منهم ، فلما قال لهم (إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) أنكروا ذلك لأنه كان من ذلك السبط ، فقالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ومع ذلك إنه فقير لم يؤت سعة من المال ، فقال لهم شمویل (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ) بالحرب (والجسم) يعنى بالطول في قومه والقوة ، وإنما سمي طالوت لطوله ، ولذلك كان يفوق الناس برأسه ومنكبيه . وقال ابن كيسان بالجمال : وكان طالوت أجمل رجل في بني إسرائيل وأعلمهم (وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) قالوا : فما آية ذلك ؟ (قَالَ نَمِّمْ نَبِيهِمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) الآية .

قصة التابوت وصفته وابتداء أمره إلى انتهائه

قال اهل التفسير وأصحاب الأخبار : إن الله تعالى أهبط تابوتا على آدم عليه السلام من الجنة حين أهبط إلى الأرض فيه صور الأنبياء من أولاده ، وفيه بيوت بعدد الرسل منهم وآخر البيوت بيت محمد صلى الله عليه وسلم من يا قوته حمراء ، وإذا هو قائم يصلى وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه : هذا أول من يتبعه من أمته أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعن يساره الفاروق ، وعلى جبهته مكتوب : قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم ، ومن ورائه ذو النورين أخذ بحجزته مكتوب على جبهته : بار من البررة ، ومن بين يديه على بن أبى طالب كرم الله وجهه شاهر سيفه على عاتقه ، ومكتوب على جبهته : هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله وحوله عمومته والخلفاء والانتباء والكبكية الخضراء أنصار الله وأنصار رسوله ، نور حوافر داوهم يوم القيامة مثل نور الشمس في دار الدنيا . وكان التابوت نحوا من ثلاثة أذرع في ذراعين ، وكان من عود الشمشاذ الذى يتخذ منه الأمشاط مموه بالذهب ، وكان عند آدم عليه السلام إلى أن مات ، ثم عند شيث إلى أن مات ، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إلى إبراهيم عليه السلام . فلما مات كان عند إسماعيل لأنه أكبر ولده ، فلما مات إسماعيل كان ولده قيذار . فنازعه فيه ولد إسحاق ، وقالوا له : إن النبوة صرفت عنكم وليس لكم إلا هذا النور الواحد :

يعني نور محمد صلى الله عليه وسلم فأعطنا التابوت ، فكان يمتنع عليهم ويقول : إنه وصية أبي ، ولا أعطيه لأحد من العالمين ، قال : فذهب ذات يوم ليفتح ذلك التابوت ففسر عليه فتحه ، فناداه من السماء : مهلا يا قيذار فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل ، إنه وصية نبي ولا يفتحها إلا نبي ، فادفعه إلى ابن عمك يعقوب إسرائيل الله ، فحمل قيذار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان ، وكان بها يعقوب عليه السلام ، قال : فلما قرب قيذار صرّ التابوت صرة سمعها يعقوب عليه السلام ، فقال لبنيه : أقسم بالله لقد جاءكم قيذار بالتابوت فقوموا نحوه ، فقام يعقوب وأولاده جميعا ، فلما نظر يعقوب إلى قيذار سعى إليه باكيا ، وقال : يا قيذار مالي أرى لونك متغيرا وقوتك ضعيفة أرهقك عدو أم أتيت بمعصية بعد أهلك إسماعيل ؟ قال ما أرهقني عدو ولا أتيت بمعصية ، ولكن أثقل ظهري نور محمد صلى الله عليه وسلم ، فلذلك تغير لوني وضعف ركني . قال يعقوب : أفي بنات إسماعيل ؟ قال لا ، ولكن في العربية الجهرمية وهي العامرية ، فقال يعقوب : بَنَخِ بَنَخِ ، شرفا لمحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن الله ليخرجه إلا في العربيات الطاهرات يا قيذار ، وأنا مبشرك ببشارة ، قال وما هي ؟ قال : أعلم أن العامرية قد ولدت البارحة غلاما . قال قيذار : وما أعلمك يا بن عمي وأنت بأرض الشام وهي بأرض الحرم ؟ قال يعقوب : قد علمت ذلك لأنني رأيت أبواب السماء قد فتحت ، ورأيت نورا كالقمر المدور بين السماء والأرض ، ورأيت الملائكة ينزلون من السماء بالبركات والرحمة ، فعلمت أن ذلك من أجل محمد صلى الله عليه وسلم . ثم إن قيذار دفع التابوت إلى ابن عمه يعقوب ورجع إلى أهله فوجدها قد ولدت غلاما فسماه حملا ، وفيه نور محمد صلى الله عليه وسلم . قالوا : وكان التابوت في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى ، وكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه وكان عنده إلى أن مات ، ثم تداولته أنبياء بني إسرائيل إلى وقت شمويل عليه السلام ، فوصل إلى شمويل وقد تكامل أمر التابوت بما فيه ، وكان فيه مما في كتابه (فيه سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ) .

واختلفوا في السكينة ما هي ؟ فقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : السكينة ربح خجوج هفاة لها رأسان ووجهها كوجه الإنسان . وقال مجاهد : لها رأس كرأس الهرة ، وذنب كذنب الهرة وجناحان . وقال محمد بن إسماعيل عن وهب بن منبه عن بعض علماء بني إسرائيل في السكينة : رأس هرة كانت إذا صرخت في التابوت صرخة أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح .

وروى أسدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال : هي طشت من ذهب الجنة يغسل فيه قلوب الأنبياء .

وروى بكار بن عبد الرحمن عن وهب بن منبه : هي روح من الله تكلمهم إذا اختلفوا في شيء فتخبرهم ببيان ما يريدون . وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هرون :

قال المفسرون : فيه عصا موسى ورُضاض الألواح ، وذلك أن موسى لما أتى
الألواح تكسرت فرفع بعضها وجمع ما بقي فجعله في التابوت ، وكان فيه أيضا لوحان
من التوراة وقفيز من المن الذي كان ينزل على بني إسرائيل ونعلا موسى وعمامة هارون
وسنائه . قالوا : وكان التابوت عند بني إسرائيل إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم ،
وإذا حضروا القتال أقاموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم . فلما عصوا وأفسدوا
سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوهم إياه ، وذلك في أيام عيلى الكاهن
الذى ربي شمويل وقد مضت القصة فيه ، وكان جالوت يوم سبى من قومه التابوت صغيرا .
فلما ذهب التابوت اختل أمر بني إسرائيل إلى أن بعث الله طالوت ملكا فسأله الآيه
منى ملكه . فقال لهم شمويل : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .

وكانت قصة ذلك التابوت : أن القوم الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين
فما أُرْدُن ، وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم ، فأصبحوا
من اليد وإذا الصنم تحته فأخذوه وجعلوه فوقه وسمروا قدمى الصنم على التابوت ، فأصبحوا
من اليد وقد قطعت يدا الصنم ورجلاه وأصبح ماى تحت التابوت ، فأصبحت الأصنام
لها منكسة ، فأخرجوه من بيت الأصنام ووضعوه في ناحية من مدينتهم ، فأخذ أهل
تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم . فقال بعضهم لبعض : أليس قد علمتم أن
لبنى إسرائيل لا يقوم له شيء ، فأخرجوه من مدينتكم ، قال : فأخرجوه إلى قرية أخرى ،
بعث الله على أهل تلك القرية فأرا : بيت الرجل صحيحا فيقرضه الفأر فيصبح ميتا وقد
كانت ما فى جوفه ، فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه فى مجرى لهم ، فكان كل من تبرز
مائه أشده الباسور والمولنج ، فأخرجوه ووضعوه فى بيت ، فكث فيهم عشر سنين
وسبعة أشهر لا يدنو أحد منه إلا احترق وأصابهم فى المدينة الآفات والعايات ، وفى مواشيم
أبوت وفى نساءهم الطاعون ، فتحيروا ، وكانت عندهم امرأة من نساء بنى إسرائيل من
البلاد الأنبياء فقالت : إنكم لاتزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت فيكم ، فأخرجوه
عنكم . فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة فحملوا عليها التابوت ثم علقوها على ثورين وضربوا
بشويهما . فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما ، فلم يمر
التابوت بأرض إلا كانت مقدسة ، فأقبلا حتى وقفا على أرض فيها حصاد لبني إسرائيل .
فكسر بهما وقطع حبالهما ووضع التابوت فيها ورجع الثوران إلى أرضهما ، فلم تدر
بنو إسرائيل إلا والتابوت عندهم ، فكبروا وحمدوا الله تعالى واحتلموا على طالوت ، فذلك
قوله تعالى (تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ) أى تسوقه الملائكة .

وقال ابن عباس : جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون

إليه حتى وضعت في دار طالوت ، فأقروا بملكه ، قال الله تعالى (إن في ذلك آية) لكم إن كنتم مؤمنين) قال ابن عباس : إن التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية وإنهما يخرجان قبل القيامة ، والله أعلم .

باب في قصة شمویل حين أوحى الله إليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال جالوت

مع بنی اسرائیل وصفة نهر الابتلاء

قال الله تعالى (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مَبْتَلِكُمْ بِسَهْرٍ) ... الآية ، قال : فلما أوحى الله إلى شمویل عليه السلام أن يأمر طالوت بالمسير إلى جالوت من بيت المقدس بالجنود ، لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو ضريب لضره أو معذور لعذره ، وذلك أنهم لما رأوا التابوت قالوا : قد أتانا التابوت وهو نصر لاشك فيه ، فسارعوا إلى الجهاد ، فقال طالوت : لا جاحة لي فيما أرى ، لا يخرج معي رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة مشغل بها ، ولا رجل عليه دين ، ولا رجل تزوج بامرأة ولم يدخل بها ، ولا يتبعني إلا الشاب النشط الفارغ ، فاجتمع ثمانون ألفا على شَرطه ، فخرج بهم وكان في حر شديد ، فشكوا قلة المياه بينهم وبين عدوهم ، وقالوا : إن المياه لا تحملنا فادع الله تعالى أن يجري لنا نهرًا ، فقال لهم طالوت بأمر شمویل عليه السلام (إن الله مَبْتَلِكُمْ بِنَهْرٍ) مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم بكم ، وهو نهر بين الأردن وبين فلسطين عذب يقال له آدمي ، (فمن شرب منه فليس مني) أي من أهل ديني وطاعتي (ومن لم يَطْعَمْهُ) لم يشربه (فإنه مني) تم استثنى فقال (إلا من اغترف غرفة بيده) وهو مِثْل الكف (ومن فتح الغين أراد المرة الواحدة) فشربوا منه إلا قليلا منهم . قال السدي : كانوا أربعة آلاف ، وقال غيره : كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلا وهو الصحيح ، يدل عليه حديث البراء بن عازب قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر « أنتم اليوم على عِدَّة أصحاب طالوت حين عَبَرُوا النَّهْرَ وَمَا جَاوَزَ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ » قال : وكانوا يومئذ ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا ، فن اغترف غرفة بيده كما أمر الله تعالى قوى قلبه وصح ورجح لإيمانه وعبر النهر سالما ، وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه ، والذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يَرَوْا وبقوا على شاطئ النهر وجبنوا عن لقاء العدو ولم يشهدوا الفتح . فلما جاوز النهر مع طالوت القليل الذين ثبتوا معه قالوا : يعنى الذين شربوا وخالفوا أمر الله تعالى (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وانصرفوا عن طالوت ولم يشهدوا قتال جالوت و (قال الذين يظنون) أي يعلمون ويوقنون (أنهم ملأوا الله) وهم

القليل الذين ثبتوا مع طالوت (كَمِّ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ)
... الآية ، ومروا قاصدين الجهاد .

باب في ذكر أمر داود عليه السلام وخبر جالوت وصفة قتله

قال الله تعالى (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا) إلى قوله تعالى (وَقَتَلَ
دَاوُدُ جَالُوتَ) قال المفسرون والمخبرون بألفاظ مختلفة ومعان متفقة : عبر النهر مع
طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود ومعه ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم وأحقرهم ،
فأتى ذات يوم أباه فقال : يا أبتاه ما قذفت بمقلاعي هذه شيئا إلا أصبته وصرعته ، فقال :
أبشر يا بني فإن الله قد جعل رزقك في قَدَّ أفك : يعني في مقلاعك ، ثم أتاه يوما آخر فقال :
يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فرأيت أسدا رابضا فركبته وقبضت بأذنيه فلم يهمني ،
فقبضت على فكيه ففطرتها برأسه وعنقه إلى لبتة بيدي من غير سكين ولا ضرب بحديد
وتراه هناك مقتولا ، فقال له أبوه : أبشر يا بني فإن هذا خير أعطاك الله ، ثم أتاه يوما
آخر وقال : يا أبت إنى لأمشي بين الجبال فأسبح فما يبقى جبل إلا سبح معي ، قال : أبشر
يا بني فإن هذا خير أعطاك الله ، وسيكون لك شأن عظيم . قال : فلما وصلت غزاة
بنى إسرائيل مع طالوت إلى عسكر جالوت أرسل جالوت إلى طالوت أن ابرز إلى أو أبرز
إلى من يقاتلني ، فإن قتلتني فلکم ملكي ، وإن قتلته فلي ملكکم ، فشق ذلك على طالوت ،
فنادى في عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتي وناصفته مملكتي ، فهاب الناس قتال
جالوت فلم يجبه أحد ، فسأل طالوت نبیهم شمویل عليه السلام ، فدعا الله تعالى في ذلك ،
فأتى بقرن فيه دهن القدس وشبه تنور من حديد ، وقيل له إن الذي يقتل جالوت هو الذي
يوضع هذا القرن على رأسه فيغلي الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون
على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل في هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه ، فدعا طالوت
أشداء بنى إسرائيل وأقوياءهم فجر بهم فلم يوافقهم منهم أحد ، فأوحى الله إلى شمویل عليه
السلام : أن في ولد إيشا من يقتل جالوت ، وإني أريد أن أجعله خليفة في الأرض من
بعدك أعلمه فصل الخطاب وهو راعي الغنم ، فقل لإيشا عرض عليك بنيه واحدا واحدا ،
فدعا إيشا وقال له : اعرض على بنيك ، فأخرج له اثني عشر ولدا أمثال السواري وفيهم
رجل بارع ، فجعل يعرضهم على القرن والتنور فلا يرى شيئا ، ويقول لذلك الجسم
ارجع فيردده على التنور ، فأوحى الله تعالى إليه : إنا لاناخذ الرجال على صورهم ولكننا
نأخذهم على صلاح همهم وقلوبهم ، فقال لإيشا : هل بقي لك ولد غيرهم ؟ قال لا ، قال
شمویل : رب قد زعم أنه ليس له ولد غيرهم ، فقال : كذب ، فقال شمویل : يا إيشا إن
رى كذبك ، قال : صدق الله يا نبی الله ، إن لي ابنا صغيرا يقال له داود استحيت أن يراه

الناس لقصر قامته وحقارته ، وخلفته في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا وكذا ، وكان داود عليه السلام قصيرا سقيا مصفرا أزرق العينين ، فدعاه طالوت : ويقال خرج إليه فوجد الوادي قد حال بالماء بينه وبين الزريبة التي كان يتروح إليها ، فوجده يحمل الغنم شاتين شاتين يعبر بهما السيل ولا يخوض بهما الماء ، فلما رآه شموبيل قال : هذا هو لاشك فيه ، هذا يرحم البهائم فهو أرحم بالناس ، فدعاه فوضع القرن على رأسه ففاض وأجلسه في التنور فلاه . فلما رأى طالوت ذلك قال له : هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجرى حكمك في مملكتي ؟ قال : نعم ، قال : فهل لقيت من نفسك شيئا تتقوى به على قتله ؟ قال نعم أنا راعى الغنم فيجىء الأسد والتمر والذئب ليأخذ شيئا فأقوم إليه وأقبضه وأفتح لحييه عنها وأحرفهما إلى قفاه . فلما سمع طالوت منه ذلك رده إلى عسكره ، فر داود عليه السلام في الطريق بحجر فناده : يا داود احملي فإني حاجر هارون الذي قتل به ملك كذا وكذا فوضعه في مخيلاته ، ثم مر بحجر آخر فناده : يا داود احملي فإني حاجر موسى عليه السلام الذي قتل به ملك كذا وكذا فحملة في مخيلاته ، ثم مر بحجر آخر فقال احملي فإني حجرك الذي تقتل به جالوت ، وقد خبأني الله لك فوضعه في مخيلاته . فلما تصافوا للقتال برز جالوت وسأل المبارزة ، فانتدب له داود ، وكان طالوت أعطاه فرسا ودرعا وسلاحا ، فركب الفرس ولبس السلاح وسار قليلا فوجد في نفسه زهوا ، فانصرف وعاد سريعا إلى الملك ، فقال من حوله : جبن الغلام ، فجاء حتى وقف على الملك ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال له داود ؛ إن الله تعالى إن لم ينصرني فما يغني عنى هذا السلاح شيئا فدعني أقاتل كما أريد ، فقال له طالوت : افعل ما تريد . فأخذ داود عليه السلام مخيلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت ، وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم ، وكان يهزم الجيوش وحده ، وكان له بيضة وزنها ثلاث مئة رطل حديد ، وكان له فرس أبلق مثله في الشدة والقوة وعظم الخلق ، فلما برز جالوت إلى داود ألقى الله تعالى في قلبه الرعب ، فقال له : أنت تبرز إلي ؟ قال نعم ، وكان جالوت راكبا على فرس أبلق وعليه السلاح التام ، فقال له : يا بني تأتيني بالحجر بالمقلاع كما يؤتى الكلب بالحجر ؟ قال نعم أنت أشر من الكلب ، قال : لاجرم لأقسمن لحملك بين سباع الأرض وطير السماء ، فقال داود : باسم الله ويقسم الله لحملك بين السباع وطير السماء ، وأخذ حجرا منها وقال : باسم الله إله إبراهيم ووضعه في مقلاعه ، وأخذ حجرا ثانيا وقال : باسم الله إله إسحاق ووضعه في مقلاعه ، ثم أخرج ثالثا ، وقال : باسم الله إله يعقوب ووضعه في مقلاعه . قال : فصارت الأحجار الثلاثة كلها حجرا واحدا وأدار المقلاع ورمى به ، فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة ، فخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا . ويقال : إنه من بعد ما خرج من قفاه تكسر وتفتت بإذن الله تعالى حتى عم

جميع جنود جالوت فلم يبق منهم أحد إلا وقد أصابته منه قطعة ، ومثل ذلك صار كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، حين حثا الحثوة من التراب فانهمزم الجيش ، وخر جالوت قتيلا ، وأسرع داود عليه السلام إليه فحز رأسه وانتزع من يده خاتمه ، وأقبل برأسه يجره حتى ألقاه بين يدي طالوت ، ففرح المسلمون فرحا شديدا وانصرفوا إلى مدينتهم سالمين غانمين بحمد الله رب العالمين .

ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه إلى داود عليه السلام بعد قتل جالوت قالوا: لما قتل داود جالوت ذكر الناس داود وعظم في أنفسهم ، فجاء داود إلى طالوت وقال له : أنجز إلى ما وعدتني وأعطى امرأتى ، فقال له طالوت : أتريد ابنة الملك بغير صداق عجل صداق ابنتي وشأنك بها ، فقال داود لطالوت : ما شرطت على صداقا وليس لي شيء ، فتحكم في الصداق بما تريد وأقرضني مهرها وعلى الأداء والوفاء لك به ، فقال طالوت : أصدقها نصيبك من الملك ، فقال له بنو إسرائيل لا تظلمه وأنجز له ما وعدته ، فلما رأى طالوت ميل بنو إسرائيل إلى داود أحسن ثناءه عليه وقال : لا حاجة لابنتي في المال ولا أكلفك ما لا تطيق ، أنت رجل جرىء وفي جبالنا أعداء من المشركين ، فانطلق فجاهدهم ، فإذا قتلت منهم مئتي رجل وجئتني برءوسهم زوجتك ابنتي ، فأتاهم داود عليه السلام وجعل كلما قتل منهم رجلا احتز رأسه ونظمه في خيط حتى نظم رءوسهم ، ثم جاء بهم إلى طالوت وألقاهم بين يديه وقال له : ادفع لي امرأتى ، فزوجه امرأته وأجرى خاتمه في ملكه ، فقال الناس إلى داود عليه السلام وأحبه بنو إسرائيل وأكثروا من ذكره ، فوجد طالوت من ذلك في نفسه فأراد قتله .

قال وهب بن منبه : كانت الأنبياء والملوك يومئذ يتوكلون على العصي ، ويغرزون في أطراف العصي أزجة من حديد ، وكان داود عليه السلام جالسا في ناحية البيت ، فدخل طالوت فرماه بالعصا بغنة ليقتله بها صبورا ، فلما أحس داود بذلك حاد عن رميته وأمال نفسه من غير أن يبرح من مكانه ، فارتكزت العكازة في الجدار ، فقال له داود : أردت قتلي؟ قال له طالوت : لا بل أردت أن أقف على ثباتك عند الطعان وربط جأشك للأقران ، فقال له داود عليه السلام : أفلقيته على ما قدرته في ، قال نعم ولكنك لعلك فرعت؟ قال : معاذ الله أن أخاف إلا الله ، ولا ألبأ إلا إليه ، ولا يدفع الشر إلا هو ، ثم إن داود انتزعها من الجدار وهزها هزة منكرا ، وقال له : اثبت لي كما ثبت لك ، فأيقن طالوت بالهلاك ، فقال له : أنشدك بالله وبجرمة المصاهرة التي بيني وبينك ، وما كان هذا القول من داود عن قصد قتل طالوت ولكن كان مقال تخويف وتحذير ، فقال داود لطالوت : إن الله قد كتب في التوراة جزاء السيئة سيئة مثلها واحدة والبادي أظلم ، قال طالوت : أفلا تقول قول هايبيل (لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسيط يدي إليك لأقتلك

إني أخافُ اللهَ رَبَّ العالمينَ) فقال داود : قد عفوت عنك لوجه الله تعالى . طلبت طالوت زمانا يريد قتل داود عليه السلام ، فعزم على أن يأتيه ويقتله في داره ، فأخبرت بذلك بنت طالوت زوجة داود ، أخبرها رجل يقال له ذو العينين ، فقالت لداود : إنك لمقتول الليلة ، قال : ومن يقتلني ؟ قالت أبي ، قال : وهل أجرمت جرما ؟ قالت : حدثني من لا يكذب ولا عليك بأس أن تغيب الليلة ، حتى تنظر مصداق ذلك ، فقال : لئن كان أراد ذلك لأستطيع خروجا ، ولكن اثني بزق من خمر ، فأتته به ، فوضعه في مضجعه على السرير وسجاه ودخل تحت السرير . قال : فدخل طالوت نصف الليل وأراد أن يقتل داود فلم يجده ، فقال لابنته : أين بعلك ؟ فقالت : هو نائم على السرير ، فضربه بالسيف فسال الخمر ، فلما وجد ربح الخمر قال : رحم الله داود ما كان أكثر شربه للخمر وخرج ، فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئا فقال : إن رجلا طلبت منه ما طلبت لخليق أن لا يدعني حتى يدرك ثأره مني ، ثم إنه استتر بحجابه وحراسه ، وأغلق دونه الأبواب . قال : فأتى داود ذات ليلة وقد هدأت العيون ، وأعمى الله عنه الحجاب وفتح الله له الأبواب ، فدخل عليه وهو نائم على فراشه ، فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجله وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج . فلما استيقظ طالوت وجد السهام فعرفها ، فقال : رحم الله داود ، هو خير مني ظفرت به فقصدت قتله وظفر بي فكف عني ، لو شاء لوضع هذا السهم في حلقى ، وما أنا بالذي آمنه . فلما كانت الليلة القابلة أتاه داود ثانيا وأعمى الله عنه أعين الحجاب ، فدخل وهو نائم على فراشه ، فأخذ إبريق طالوت الذي كان يتوضأ منه وكوزه الذي كان يشرب به وقطع شعرات من لحيته وشيئا من هذب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى . فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وشد في طلبه فلم يقدر عليه . ثم إن طالوت ركب ذات يوم فوجد داود عليه السلام يمشى في البرية ، فقال طالوت في نفسه : اليوم أقتل داود أنا راكب وهو ماش ، وكان داود إذا فرم يدرك ، فركض طالوت في أثره واشتد داود في الجرى فدخل غارا ، فأوحى الله إلى العنكبوت فנסجت عليه بيتا ، فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال : لو كان ههنا لخرق بيت العنكبوت فتركه ومضى ، فلما مضى خرج داود من الغار وانطلق إلى الجبل مع المتعبدين فجعل يتعبد فيه ، فطعن العلماء والعباد على طالوت في شأن داود ، فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله ، فجعل يقتل العلماء ، فلم يكن يقدر في بني إسرائيل على عالم ويطبق قتله إلا قتله ولم يكن يجارب جيشا إلا هزمه ، حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم ، فأمر خبازه بقتلها فرحمها الحباز وقال : لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها ، ووضع الله في قلب طالوت التوبة ، فقدم على مافعل ، وأقبل على البكاء حتى رحمة الناس ، وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي : أنشد الله عبدا يعلم لي توبة إلا أخبرني بها ، فلما كثر عليهم بكاؤه ناداه مناد من

القبور : يا طالوت أما ترضى أنك قتلنا أحياء حتى تؤذينا أمواتا ، فازداد حزنا وبكاء ، فرحمه الحباز وقال له : مالك أيها الملك ؟ فقال : هل تعلم لي في الأرض علما أسأله : هل لي من توبة ؟ فقال له الحباز : أيها الملك هل تدري ما مثلك ؟ قال لا ، قال : ما مثلك إلا كمثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك ، فتطير منه ، فقال : لا تركوا في هذه القرية ديكا إلا ذبحتموه ، فلما أراد أن ينام قال لأصحابه : إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج ، فقيل له : وهل تركت ديكا يُسمع صوته ؟ وأنت هل تركت علما في الأرض ؟ فازداد حزنا وبكاء ، فلما رأى الحباز ذلك قال : أرأيت إن دلتك على عالم لعلك تقتله ، قال لا ، فتوثق منه الحباز بالأيمان ، فأخبره أن المرأة العالمة عنده ، فقال له : انطلق بنا إليها أسألها هل لي من توبة ، وكانت تعلم الاسم الأعظم ، وكان إنما يعلم هذا الاسم أهل بيت لها فنيث رجالهم وعلمت نساؤهم ، فلما بلغ طالوت الباب قال له الحباز : إنها إن رأيتك فرعت منك ، ثم جعله خلفه ودخل عليها الحباز فقال : أأنت أعظم الناس عليك منة ، أنجيتك من القتل وأوثقتك عندي ؟ قالت بلى ، قال : لي إليك حاجة ، هذا طالوت يسأل هل له من توبة ؟ فلما سمعت بذكره غشى عليها من الفرق ، فلما أفاقت قال لها : إنه لا يريد قتلك ، ولكن يسألك هل من توبة ؟ قالت : لا والله ما له من توبة ، ولكن هل تعلمون قبر شمويل عليه السلام ؟ قالوا نعم ، قالت : فانطلقوا بنا إلى قبره ، فلما وصلوا إليه صلت عنده ركعتين ثم إنها نادت : يا صاحب القبر ، فخرج شمويل عليه السلام من القبر ينفخ التراب عن رأسه ، فلما نظر إلى الثلاثة المرأة والحباز والملك ، قال لهم : أقامت القيامة ؟ قالوا لا ، ولكن هذا طالوت يسألك هل له من توبة ؟ فقال له شمويل : ما فعلت يا طالوت بعدى ؟ قال : لم أدع شيئا من الشر إلا فعلته ، وقد جئت أطلب التوبة ، قال : كم لك من ولد ؟ قال : عشرة رجال ، قال : ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلي عن ملكك وتخرج أنت وولدك تجاهد في سبيل الله ، ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ، ثم إنك تقاتل حتى تقتل آخرهم ، ثم رجع شمويل عليه السلام إلى القبر فسقط ميتا ، ورجع طالوت أحزن ما يكون وخاف أن لا يتابعه ولده فبكى حتى ذهبت أشفار عينيه ونحل جسمه ، فدخل عليه أولاده ، فقال لهم : أرأيتم لو دفعت إلى النار أكنتم تنقذونني ؟ قالوا نعم ننقذك بما قدرنا عليه ، قال : فإنها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم ، قالوا : فاعرض علينا مقاتلك ، فذكر لهم القصة ، فقالوا : وإنك لمقتول بعدنا ؟ قال نعم ، قالوا : لاخير لنا في الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذي سألت ، فتجهز بأولاده إلى الغزو وكانوا عشرة ، فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ، ثم شد بعدهم فقاتل حتى قتل ، فجاء قاتله إلى داود يبشره بقوله له : قد قتلت عدوك ، فقال داود : ما كنت بالذي تحيا بعده ، فضرب عنقه .

مجلس في خلافة داود عليه السلام وما يتعلق بها

قال الله تعالى (يا داودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) الآية . قالت العلامه
بأخبار الأنبياء : لما استشهد طالوت أتى بنو إسرائيل إلى داود فأعطوه خزانة طالوت
وملكوه على أنفسهم ، وذلك بعد قتل داود جالوت بسبع سنين ، ولم تجتمع بنو إسرائيل
على ملك واحد بعد يوشع بن نون إلا على داود عليه السلام ، فذلك قوله عز وجل (وَقَتَلَ
دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ) الآية .

باب في ذكر نسبه

هو داود بن إيشا بن عوفيد بن يوعز بن سلمون بن يئحشون بن عمينوذب بن رم بن حصرون
ابن بارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليهم أجمعين .

باب في ذكر صفته وحليته

أخبرني الحسن بن محمد الدينوري بإسناده عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرْقَةُ الْعَيْنَيْنِ يُمْنٌ » ، وكان داود عليه السلام
أزرق العينين أحمر الوجه دقيق الساقين سبط الشعر أبيض الجسم طويل اللحية فيها جموده
حسن الصوت والحلق طاهر القلب نقيه .

باب في ذكر ما خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام من الفضل

والكرامة حين أعطاه الله النبوة والملك

فنها أنه أنزل عليه الزبور بالعبرانية مئة وخمسون سورة : في خمسين منها ذكر ما يكون
من يختصر وأهل بابل ، وفي خمسين منها ذكر ما يلحقون من الروم من أهل أبرون ، وفي
خمسين منها موعظة وحكمة ، ولم يكن فيها حلال ولا حرام ، فذلك قوله تعالى (وَآتَيْنَا
دَاوُدَ زَبُورًا) . ومنها الصوت الطيب والنغمة الطيبة اللذيذة والترجيع والألحان ، ولم يعط
الله أحدا من خلقه مثل صوته ، وكان يقرأ الزبور بسبعين لحنًا بحيث يعرق المحموم ويفيق
المغمى عليه ، وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية ، فيقوم وتقوم معه علماء بني إسرائيل
خلفه ، وتقوم الناس خلف العلماء ، وتقوم الجن خلف الناس ، وتقوم الشياطين خلف
الجن ، وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها ، وتظله الطيور بضجية ، ويركد الماء
الجاري ، ويسكن الريح ، وما صنعت المزامير والبرابط والصنوج إلا على صوته ؛ وذلك أن
إبليس لعنه الله حسده واشتد عليه ، فقال لعفاريته ألا ترون ما دهاكم ؟ فقالوا له : مرنا

بما شئت ، فقال : إنه لا يصرف الناس عن داود إلا ما يضاده ويحاده في مثل حاله . فهيثوا المزامير والعيدان والأوتار والملاهي على أجناس أصوات داود ، فسمعها سفهاء الناس فمالوا إليها فاغثروا بها ، ويقال : إن داود عليه السلام كان إذا قرأ الزبور بعد ما قارف الذنب لا يقف له الماء ولا تصغي له الوحوش ولا البهائم ولا الطيور كما كانت قبلها ونقصت نعمته ، فقال : إلهي ما هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، يا داود إن الخطيئة هي التي غيرت صوتك وحالك ، فقال : إلهي أو ليس قد غفرت لها لي ؟ قال بلى ، ولكن ارتفعت الحالة التي بيني وبينك من الود والقرب فلن تدركنها أبدا .

أخبرنا أبو سعيد بن أحمد بن حمدون عن وهب بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خفف الله على داود القرآن فكان يأمر بدواؤه أن تُسرج فكان يقرأ القرآن قبل أن تُسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يده . قال الأستاذ الإمام : أراد بالقرآن الزبور .

وبالإسناد أخبرنا أبو بكر الجوزقي عن أبي موسى الأشعري قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أعطيت مزاميرا من مزامير آل داود . فقلت : أما والله يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيرا .

وأخبرنا أبو بكر قال : أخبرنا أبو العباس بالإسناد عن البراء بن عازب قال « سمع النبي صلى الله عليه وسلم صوت أبي موسى فقال : كأن صوت هذا من صوت آل داود » .

ومنها تسخير الجبال والطيور له يسبحن معه إذا سبح كما قال تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد) وقوله تعالى (إننا نخبرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق) ويقال : إن داود عليه السلام كان إذا تخلل الجبال فسبح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح نحو ما يسبح . ثم قال في نفسه ليلة من الليالي ، لأعبدن الله تعالى عبادة لم يعبد أحد بمثلها ، فصعد الجبل ، فلما كان جرف الليل

داخلته وحشة ، فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن أنسى داود ، فاصطكت الجبال بالتسبيح والتقديس والتهليل ، فقال داود في نفسه : كيف يسمع صوتي مع هذه الأصوات ؟ فهبط عليه جبريل عليه السلام وأخذ بعضده حتى انتهى به إلى البحر فوكزه برجله ، فانفجر له

البحر فأنهى به إلى الأرض ، فوكزها برجله فانفجرت له الأرض ، فأنهى به إلى الحوت فوكزه برجله فأنهى به إلى الصخرة ، فوكز الصخرة برجله فانفجرت فخرج منها دودة تنشق ، فقال له جبريل : إن ربك يسمع نشيش هذه الدودة في هذا الموضع . قوله تعالى

(يسبحن بالعشي والإشراق) قال المفسرون : يعني صلاة الضحى وصلاة الأوابين بين المشاءين . قال ابن عباس : وكان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر والمدر . ومنها أنه أكرمه الله تعالى بالحكمة وفصل الخطاب ، فالحكمة هي الإصابة في الأمور ،

وأما فصل الخطاب فاختلفوا فيه ؛ فقال ابن عباس : بيان الكلام . وقال ابن مسعود والحسن : المعنى علم الحكم والنظر في القضاء ، كان لا يتتبع في القضاء بين الناس . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : هو البيعة علي من ادعى واليمين علي من أنكر .
أخبرنا أبو عبد الله قال : سمعت زيادا يقول : فصل الخطاب الذي أعطى داود عليه السلام ما أخبرنا أبو حفص عن الأعمش عن أبي صالح عن كعب الأحبار في قوله : (وفصل الخطاب) قال : الشهود والأيمان . عن الشعبي قال : سمعت زيادا يقول : فصل الخطاب الذي أعطى داود : أما بعد . قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى : وهو أول من قالها .
ومنها السلسلة التي أعطاها الله تعالى له ليعرف الحق من المبطل في المحاكمة إليه .

وهو ما روى عن الضحاک عن ابن عباس قال : إن الله تعالى أعطى داود سلسلة موصولة بالحجرة والفلك ورأسها عند محراب داود عليه السلام حيث يتحاكم الناس إليه ، وكانت قوتها قوة الحديد ولونها لون النار ، وحلقها مستديرة مفصلة بالجواهر ومدسرة بقضبان اللؤلؤ الرطب ، فلا يحدث في السماء حاصل إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحادث ولا يمسه ذو عاهة إلا برأ ، وكان علامة دخول قومه في الدين أن يمسوها بأيديهم ثم يمسحوا بكفهم على صدورهم ، وكانوا يتحاكمون إليها ، فمن اعتدى على صاحبه وأنكر ماله من حق أتى السلسلة ، فمن كان صادقا محقا مد يده إلى السلسلة فينالها ، ومن كان كاذبا ظلما لم ينلها ، فكانت فيهم إلى أن ظهر فيهم المكر والخديعة .

قال : بلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلا جوهرة ثمينة ، فلما جاء يستردها أنكرها فتحا كما إلى السلسلة ، فعلم الرجل الذي كانت عنده الجوهرة أن يده لاتنال السلسلة ، فعمد إلى عكازة له فنقرها ثم ضمنها الجوهرة ، واعتمد عليها حتى حضر معه غريمه عند السلسلة ، فقال صاحب الجوهرة : إن لي عندك وديعة ، فقال خصمه : ما أعرف لك وديعة ، فإن كنت صادقا فتناول السلسلة ، فتناولها بيده ، ثم قيل للمنكر قم أنت أيضا فتناولها ، فقال لصاحب الجوهرة : الزم أنت عكازتي هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة ، فأخذها وقام الرجل وقال : اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التي يدعيها قد وصلت إليه فقرب مني السلسلة ، فد يده فتناولها ، فتعجب القوم وتفكروا فيها ، فأصبحوا وقد رفع الله تلك السلسلة . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اشتبه عليه الأمر بين الخصمين اللذين يتحاكمان إليه يقول : ما أحوجكما إلى سلسلة نبي إسرائيل كانت تأخذ بعنق الظالم فتجره إلى الحق جرا .

ومنها القوة في العبادة وشدة الاجتهاد كما قال الله تعالى (واذ كُرت عبداً داوداً ذا الأيد) يعني القوة في العبادة (إنه أواب) أي تواب مسبح مطيع ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً يصوم النهار ويقوم الليل ، وما مرت به ساعة من الليل إلا وفيها من آل داود قائم يصلي ، ولا يوم من الأيام إلا وفيه منهم صائم .

ومنها قوة المملكة كما قال الله تعالى (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ) أى قويناه ، وقرأ الحسن
وشددنا ملكه بالتشديد .

وقال ابن عباس : كان أشد ملوك الأرض سلطانا ، وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة
وثلاثون ألف رجل . وقال السدى : كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل .

أخبرنا عبد الله بن حامد عن عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من بنى إسرائيل تعدى
على رجل من عظمائهم ، فاجتمعا على داود عليه السلام ، فقال المتعدى : إن هذا قد غصبني
نقرتي ، فسأل داود الرجل عن ذلك فجحد وسأل الآخر البينة فلم يكن له بينة ، فقال لهما
داود قوما حتى أنظر في أمركما ، فقاما من عنده ، فأوحى الله تعالى إليه في منامه أن يقتل
الرجل الذى تعدى ، فقال : هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتبين ، فأوحى الله تعالى إليه
مرة أخرى أن يقتله ، فقال هذه رؤيا ، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله . فأرسل
داود إلى الرجل ، فقال له : إن الله تعالى قد أوحى إلى أن أقتلك ، فقال له الرجل : تقتلني
بغير ذنب ولا بيعة ؟ فقال داود : نعم والله لأنفذن أمر الله فيك . فلما عرف الرجل أنه
قاتله قال : لاتعجل عليّ حتى أخبرك ، إني والله ما أخذت بهذا الذنب ، ولكنى كنت اغتلت
ولد هذا فقتلته ، فأمر به داود فقتل . فاشتدت هيبة بنى إسرائيل عند ذلك لداود واشتد له
ملكه ، فذلك قوله تعالى (وشددنا ملكه) . ويقال : كان داود إذا جلس للحكم كان على
بمينه ألف رجل من الأنبياء ، وعلى يساره ألف رجل من الأجناد .

ومنها شدة البطش ، فيروى أنه ما فرّ ولا انحاز من عدوّ له قط .

ومنها إلانة الحديد له ، وكان سبب ذلك ما روى في الأخبار أن داود عليه السلام لما
ملك بنى إسرائيل كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكرا ، فإذا رأى رجلا لا يعرفه تقدم
إليه فيسأله عن داود فيقول له : ما تقول في داود واليكم هذا : أى الرجل هو ؟ فيثنى عليه
ويقول خيرا ، فبينما هو كذلك يوما من الأيام إذ قبض الله له ملكا في صورة الآدميين ،
فلما رآه تقدم إليه داود على عادته فسأله ، فقال له الملك : نعم الرجل هو ، لولا خصلة فيه
فراع داود ذلك فقال : ما هي يا عبد الله ؟ قال : إن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال .
قال : فتنبه لذلك ، وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فينفق منه
ويطعم عياله ، فألان له الحديد ، فصار في يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول ، وكان
بصره بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد ، وعلمه الله تعالى صنعة
الدروع ، فكان يتخذ الدروع ، وهو أول من عملها ، وكانت قبل ذلك صفائح ، فيقال
إنه كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف درهم ، فيأكل ويطعم عياله ويتصدق منها على
الفقراء والمساكين ، فذلك قوله تعالى (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ) وقوله تعالى

(وَأَلْتَأَلُهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ) أى دروعا كوامل واسعات (وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ) أى لا تجعل المسامير دقاقا فتعلق ولا غلاظا فتكسر الحلق ، فكان يفعل ذلك حتى اعتد من ذلك مالا .

وروى أن لقمان الحكيم رأى داود عليه السلام وهو يعمل درعا ، فتعجب من ذلك ولم يدر ما هو ، فأراد أن يسأله فسكت حتى فرغ داود من نسج الدرع ، فقام فلبسه وقال : نعم القميص هذا للرجل المحارب ، فعلم لقمان ما يراد به ، فقال : الصمت حكمة وقليل فاعله .

باب فى قصة داود عليه السلام حين ابتلى بالخطيئة ، وما يتصل بذلك

قال الله تعالى (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ) الآيات . اختلف العلماء بأخبار الأنبياء فى سبب امتحان الله تعالى نبيه داود عليه السلام بما امتحنه الله به من الخطيئة ، فقال قوم : كان سبب ذلك أنه تمنى يوما من الأيام على ربه تعالى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وسأله أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم ، ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم ؛ فروى السدى والكلبي ومقاتل عن أشياخهم دخل حديث بعضهم فى بعض قالوا : كان داود عليه السلام قد قسم الدهر ثلاثة أيام : يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه بنفسه ، ويوما لعبادة ربه وقراءة الكتب ، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام فيقول : يا رب أرى الخير قد ذهب به آباءى الذين كانوا قبلى ، فأوحى الله تعالى إليه أنهم ابتلوا بلابيا لم يبتل بها أحد فصبروا عليها : ابتلى إبراهيم عليه السلام بنار النمرود وبذبح ولده ، وابتلى إسحاق بالذبح ، وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بصره على يوسف ، وإنك لم تبتل بشيء من ذلك . فقال داود عليه السلام : يا رب فابتلى كما ابتليتهم وأعطى كما أعطيتهم ، فأوحى الله تعالى إليه إنك مبتلى فى شهر كذا فى يوم كذا ، فاحترس على الصبر . فلما كان فى اليوم الذى وعده الله دخل داود محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الشيطان وتمثل له فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن ، فوقعت بين يديه فمد يده لياخذها . وفى بعض الروايات : ليدفعها إلى ابن له صغير ، فلما أهوى إليها طارت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها لياخذها فتنحت ، فتبعها فطارت ، فوقعت فى كوة ، فذهب لياخذها فطارت من الكوة ، فنظر داود أين تقع فيبعث إليها من يصيدها ؟ فنظر إلى امرأة فى بستان على شط بركة تغتسل ، هذا قول الكلبي . وقال السدى : رأها تغتسل على سطح لها ، فرآها امرأة من أحسن النساء خلقا فتعجب داود من حسنها وحانت منها التفاتة فأبصرت ظل داود عليه السلام ، فنشرت شعرها فغطى بدنها كلها ، فزاد بذلك إعجابا بها ، فسأل عنها فقيل له : هى سابغ بنت شائع امرأة أوريبا

ابن حنان وزوجها في غزاة البلقاء مع أيوب بن سوريا ابن أخت داود ، فكتب داود إلى ابن أخته أيوب صاحب بعث بقاء أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا ، وقدمه على التابوت ، وكان المقدم على التابوت لا يحمل له أن يرجع إلى ورائه حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ، فبعث به ففتح له ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه داود أيضا أن ابعثه إلى غزوة كذا ، وكان رئيسها أشد منه بأسا ، فبعثه فقتل في المرة الثانية ، فلما انقضت عدتها تزوجها داود فهي أم سليمان عليه السلام .

وقال آخرون : إنما سبب امتحانه أن نفسه حدثته أنه يطيق قطع يوم بغير مقارفة سيئة ، وعن الحسن أخبرنا شعيب بن محمد قال : إن داود عليه السلام جزأ الدهر أربعة أجزاء : يوما لنسائه ، ويوما لعبادة ربه ، ويوما لقضاء حوائج المسلمين ، ويوما لبني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه يسألهم ويسألونه . فلما كان يوم بني إسرائيل ذكروا فقالوا : هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنبا ، فأضمر داود في نفسه أنه سيطيع ذلك ، فلما كان يوم عبادة ربه غلق أبوابه وأمر أن لا يدخل عليه أحد وانكب على التوراة ، فبينما هو يقرأ إذا هو بحمامة من ذهب فيها كل شيء حسن قد وقفت بين يديه ، فأهوى إليها ليأخذها فطارت ، فوقعت غير بعيد من غير أن تؤيسه من نفسها ، فما زال يتبعها حتى أشرف على امرأة تغتسل فأعجبه خلقها وحسنها ، فلما رأت ظله في الأرض جلالت جسدها بشعرها ، فزاده ذلك إعجابا بها ، وكان قد بعث زوجها في بعض جيوشه ، فكتب إليه أن سر إلى مكان كذا وكذا ، مكانا إذا وصل إليه قتل ولم يرجع ، ففعل ، فأصيب ، فخطبها داود وتزوجها . وقال بعضهم في سبب ذلك كما أخبرنا قتادة عن الحسن بن محمد : إن داود عليه السلام قال لبني إسرائيل حين ملك : والله لأعدلن فيكم ولم يستثن ، فابتلى .

وقال أبو بكر بن محمد بن عمر الوراق : كان سبب ذلك أن داود عليه السلام كان كثير العبادة ، فأعجب بعمله فقال : هل في الأرض أحد يعمل عملي فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله تعالى يقول لك : أعجبت بعبادتك والعجب يأكل العبادة ! فإن أعجبت ثانيا وكلتك إلى نفسك ، فقال داود : يا رب كلني إلى نفسي سنة ، فقال : إنها لكثير ، قال : فشهر ، قال : فانه لكثير ، قال : فأسبوعا ، فقال : إنه لكثير ، قال فيوما ، قال : إنه لكثير ، قال فساعة ، قال : فشأنك بها ، قال : فوكل الحراس ولبس الصوف ودخل المحراب ووضع الزبور بين يديه ، فبينما هو في نسكه وعبادته إذ وقع الطائر بين يديه وكان من أمر المرأة ما كان . قالوا : فلما دخل داود بامرأة أوريا لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله تعالى ملكين في صورة رجلين ، فطلبوا أن يدخلوا عليه ، فوجداه في يوم عبادته ، فنعهما الحراس أن يدخلوا عليه ، فتنسورا المحراب وهو يصلي ، فما شعر إلا وهما بين يديه جالسان ، فذلك قوله تعالى (وهل أتاك نبا الحصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففرغ منهم)

حين مضى عليه في محرابه بغير إذنه (قالوا لا تخف خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَا حَكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ) أي ولا تجر ولا تفرط (واهدنا إلى سواء الصراط) أرشدنا إلى وسط الطريق المستقيم (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) وهذا من أحسن التعريض، حيث كنى بالنعاج عن النساء، والعرب تفعل ذلك كثيرا، توري عن النساء وتكني عنها بألقاب كالطبباء والنعاج والبقر وهو كثير فاش في أشعارهم (فقال أكفلينيها وعزني في الخطاب) قال الضحاك : أعطيتها وتحول لي عنها واجعلها كفلي : أي نصيبي، وعزني في الخطاب قال الضحاك : يقول إن تكلم كان أفصح مني، وإن حارب كان أبطش مني، فقال داود (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ) .

قال السدي بإسناده : إن أحدهما لما قال إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، قال داود للآخر : ما تقول ؟ قال : إن لي تسعا وتسعين نعجة وله نعجة واحدة، فأريد أن آخذها منه وأكمل نعاجي مئة، قال : وهو كاره ؟ قال نعم، قال : إذا لاندعك، وإن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا، يعني طرف الأنف وأصل الجبهة . فقال الرجل : يا داود أنت أحق بضرب هذا مني حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا امرأة واحدة، فلم تعرضه للقتال حتى قتل وتزوجت امرأته ؟ فهذا وجه الآية، إلا أن داود حكم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر . قالوا : ثم إن داود نظر فلم ير أحدا، فعرف ما قد وقع فيه، فذلك قوله تعالى (وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ) أي ابتليناه . وقال سعيد ابن جبير : إنما كانت فتنة داود بالنظر .

قال الأستاذ رحمه الله تعالى : ولم يتعمد داود عليه السلام النظر إلى المرأة، ولكنه أعاد النظر إليها فصارت عليه وبالا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى وَعَلَيْكَ الْآخِرَةُ » .

فهذه أقاويل السلف الصالحين من أهل التفسير في قصة داود عليه السلام .

وقد روى الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص معتقدا صحته جلده حدين، لعظيم ما ارتكب وجليل ما احتقب : يعني ما اكتسب من الوزر والإثم، يرمى من قد رفع الله محله وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجة للمجاهدين .

وقال القائلون بتنزيه المرسلين في هذه القصة أن لا ذنب إنما كان تمنى أن تكون له امرأة أوريا حلالا، وحدث نفسه بذلك، فاتفق له غزوة، فأرسل أوريا فقدمه أمام الحرب فاستشهد، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ولم يتوجع له كما كان يجزع على غيره من جنده

إذا هلك ووافق قتله مراده ، ثم تزوج امرأته ، فعاتبه الله على ذلك ، لأن ذنوب الأنبياء وإن صغرت فهي عظيمة عند الله . وقال بعضهم : كان ذنب داود أن أوريا كان قد خطب تلك المرأة ووطن نفسه عليها ، فلما غاب في غزاته خطبها داود ، فتزوجت منه لجلالته ، فاغتم لذلك أوريا غما شديدا ، فعاتبه الله على ذلك حيث لم يترك هذه الواحدة لحاطبها الأول ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه » . وما يصدق ما ذكرناه ما قيل عن المفسرين المتقدمين ، مما أخبرنا به عقيل بن محمد الفقيه المعافري عن زكريا عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن داود عليه السلام حين نظر إلى المرأة قطع على بني إسرائيل بعثنا وأوصى صاحب البلقاء إذا حضر العدو فقدم فلانا بين يدي التابوت ، وكان التابوت في ذلك الزمان يستنصر به ومن قدم بين يديه لم يرجع حتى يقتل أو يتهزم الجيوش عنه ، فقتل زوج المرأة ونزل الملكان ليقصا عليه قصته ، ففطن داود وسجد ، فكث أربعين ليلة ساجدا يبكي حتى نبت الزرع من دموعه حول رأسه وأكلت الأرض جبينه وهو يقول في سجوده : زل داود زلة هي أبعد مما بين المشرق والمغرب ، رب إن لم ترحم ضعف داود وتغفر له ذنبه جعلت ذنبه حديثا في الخلائق من بعده ، فجاء جبريل عليه السلام بعد أربعين ليلة فقال : يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهم الذي هممت به . فقال داود : قد علمت أن الله قادر على أن يغفر الهم الذي هممت به ، وقد عرفت أن الله عدل لا يحيف فكيف بفلان : يعني أوريا إذا جاء يوم القيامة فقال : يا رب دمي الذي عند داود ؟ قال جبريل : ما سألت ربك عن ذلك ، ولئن شئت لأفعلن ، قال نعم ، فرجع جبريل عليه السلام وسجد داود فكث ما شاء الله ثم نزل ، فقال : قد سألت الله يا داود عن الذي أرسلتني فيه ، فقال الله تعالى : قل لداود إن الله يجمعكما يوم القيامة فيقول له : هب لي دمك الذي عند داود ، فيقول : هو لك يا رب ، فأقول إن لك في الجنة ما شئت وما اشتيت عوضا عن دمك .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن كعب الأخبار وعن وهب بن منبه قالوا جميعا : إن داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان وقضى على نفسه تحولا في صورتها ، فعرجا وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه ، وعلم داود أنما فتناه ، فخر ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه

إلا الحاجة لا بد منها أو صلاة مكتوبة ، ثم يعود فيسجد تماما أربعين يوما ، لا يأكل ولا يشرب وهو يبكي حتى نبت العشب حول رأسه ، وهو ينادى ربه تعالى ويسأله التوبة ، وكان يقول في سجوده : سبحان الملك الأعظم الذى يبلى الخلائق بما يشاء ، سبحان خالق النور ، سبحان الحائل بين القلوب ؛ إلهى خلقت بينى وبين عدوى إبليس فلم أتبه لفتنته إذ زل بي قدمى ، سبحان خالق النور ؛ له تبكى الشكى على ولدها إذا فقدته ، ويبكى داود على خطيئته ، سبحان خالق النور يغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه ، والخطيئة لا زمة لى لا تذهب عنى سبحان خالق النور ؛ إلهى لم أتعظ بما وعظت به غيرى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أمرتنى أن أكون لليتيم كالأب الرحيم وللأرملة كالزوج العطر فنسبت عهدك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى خلقتنى وفى سائر علمك كان ما أنا صائر إليه ، سبحان خالق النور ؛ إلهى الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء فيقال هذا داود الخاطى ؛ سبحان خالق النور ؛ إلهى بأى عين أنظر إليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى بأى قدم أقوم أمامك يوم تزل أقدام الخاطئين يوم القيامة من سوء الحساب ، سبحان خالق النور ؛ إلهى مضت النجوم وكنت أعرفها بأسمائها فتونسى فركنتى والخطيئة لازمة لى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أمطرت السماء ولم تمطر حولى وأعشبت الأرض ولم تعشب حولى بخطيئتى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أنا الذى لا أطيق حر شمسك فكيف أطيق حر نارك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أنا الذى لا أطيق صوت رعدك فكيف أطيق صوت جهنم ، سبحان خالق النور ؛ إلهى كنت تسر الخاطئين بخطاياهم وأنت شاهد حيث كانوا ، سبحان خالق النور ؛ إلهى رق القلب وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدى ، سبحان خالق النور ؛ إلهى الطير تسبح لك وأنا العبد الخاطى الضعيف الذى لم أرفع وصيتك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى الويل لداود من للذنب العظيم الذى أصاب ولا علم له بذلك ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أنا المستغيث وأنت المغيث فمن يدعو المغيث إلا المستغيث ، سبحان خالق النور ؛ إلهى أسألك بآبائى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أن تعطينى سؤالى ، سبحان خالق النور ؛ اللهم برحمتك اغفر لى ذنوبى ولا تباعدنى من رحمتك لهوانى ، فإنك أرحم الراحمين ، سبحان خالق النور ؛ إلهى إنى أعوذ بك من دعوة لا تستجاب وصلاة لا تقبل وذنوب لا يغفر وعذاب لا يفتقر ، سبحان خالق النور ؛ إلهى إنى أعوذ بك وبنور وجهك الكريم من ذنوبى التى أوبقتنى سبحان خالق النور ؛ إلهى فررت إليك من ذنوبى واعترفت بخطيئتى فلا تجعلنى من القانطين ولا تخزنى يوم يبعثون ، سبحان خالق النور ؛ إلهى فرغ الحنين وفرغت الدموع وتناثر اللود من ركبتي ، وخطيئتى ألزم لى من جلدى ، سبحان خالق النور . قالوا : فأتاه النداء : أجاجع أنت فتطم ؟ أو ظمان أنت فتسقى ؟ أو مظلوم أنت فتنصر ؟ ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشيء ، فصاح

صبيحة فهاج منها ما حوله ثم نادى : : ياربى الذنب الذى أصبته ، فنودى : ياداود ارفع رأسك فقد غفرت لك ، فلم يرفع رأسه حتى أتاه جبريل عليه السلام فرفعه . قال وهب ابن منبه : إن داود عليه السلام أتاه نداء : إني قد غفرت لك ، فقال : يارب كيف وأنت لا تظلم أحدا ؟ فقال : اذهب إلى قبر أوريا فناده وأنا أسمع نداءك فتحلل منه ، قال : فانطلق داود عليه السلام حتى أتى قبره وقد لبس المسوح ، فجلس عند قبره ثم ناداه : يا أوريا ، فقال : لبيك ، من هذا الذى قطع على لذتى وأيقظنى ؟ قال : أنا داود قال : ما جاء بك يا نبي الله ؟ قال جئت أتخال مما كان منى إليك ، قال : وما كان منك إلى ؟ قال : عرّضتك للقتل ، قال : عرضتني للجنة وأنت في حل ، فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ألم تعلم أنى حكم عدل لا أقضى إلا بالحق ، ألا أعلمته أنك تزوجت امرأته ؟ قال : فانطلق داود إليه فناده يا أوريا ، فأجابه فقال : من هذا الذى قطع على لذتى ؟ قال : أنا داود . قال يا نبي الله ما حاجتك أليس قد عفوت عنك ؟ قال نعم لكن أنا ما فعلت بك ذلك إلا لمكان امرأتك ، وإني قد تزوجتها ، قال : فسكت أوريا ولم يجبه ، فدعاه فلم يجبه ، فقام عند قبره وحثا التراب على رأسه ثم نادى : الويل ، ثم الويل لداود ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ، ثم الويل الطويل لداود ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له إذا نصبت الموازين القسط ليوم القيامة ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الدائم له حين يؤخذ برقبتة ثم يدفع إلى المظلوم ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له حين يسحب على وجهه مع الحاطئين إلى النار ، سبحان خالق النور ، الويل لداود ثم الويل الطويل له حين تقرّبه الزبانية مع الظالمين إلى النار ، سبحان خالق النور . قال : فأتاه النداء من السماء : يا داود قد غفرت لك ذنبك ورحمتك ورثيت لطول مكانك واستجبت دعاءك وأقلت عثرتك ، ، قال : يارب كيف لي أن تعفو عني وصاحبي لم يعف عني ؟ قال : ياداود وإن يعف أو لم يعف فأنا أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ولم تسمع أذناه فأقول له قد رضيت عبدى ؟ فيقول : من أين هذا ولم يبلغه عملي ؟ فأقول : هذا عوض من أجل عبدى داود ، فأستوهبك منه فيهبك لي ، فقال داود : يارب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لي ، فذلك قوله عز وجل (فَاَسْتَغْفِرَ رَبَّهُُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَازْجِرًا وَحُسْنَ مَآبٍ) . وروى أبو معشر عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس قالا في قوله تعالى (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَازْجِرًا وَحُسْنَ مَآبٍ) : أن أول من يشرب الكأس يوم القيامة داود عليه السلام .

أخبرنا أبو الحسن بن محمد حدثنا محمد بن علي أخبرنا بكر بن أحمد بن معقل أخبرنا عمر بن محمد الشرقي ، قال النصر الكعبي قال : حدثنا أبو سعيد عبد الله المزني قال :

حدثنا محمد بن المنكدر عن محمد بن عبد الرحمن بن عوف ، حدثني أبو سعيد الخدري قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله : إني رأيت الليلة في منامي كأنني تحت شجرة والشجرة تقرأ سورة ص ، فلما بلغت الشجرة إلى السجدة سجدت فسمعتها تقول في سجودها : اللهم اكتب لي بها أجرا ، واحطط عني بها وزرا ، وارزقني بها شكرا ، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود عليه السلام ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفسجدت أنت يا أبا سعيد ؟ قال : قلت : لا يا رسول الله ، فقال : أنت أحق بالسجدة من الشجرة ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ السجدة ، فسجد ثم قال مثل قول الشجرة .

قال وهب بن منبه : إن داود عليه السلام لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة لا ترقأ له دمة ليلا ولا نهارا ، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة ، وقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أقسام : يعني أربعة أيام ، فجعل يوما للقضاء بين الناس ، ويوما لنسائه ، ويوما يسبح في الفيافي والجبال والقفار والسواحل ، ويوما ينخلو في داره وفيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع إليه الرهبان ، فينوح بعضهم على بعض ويساعدونه على ذلك ، فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الفيافي فيرفع صوته كاللزامير ويبكي ، فيبكي معه الشجر والمدر والطير والوحش حتى يسيل من دموعه مثل الأنهار ، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته كاللزامير ويبكي وتبكي معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى تسيل الأودية من بكائهم ، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته كاللزامير ، فيبكي وتبكي معه الحيتان ودواب البحر والطير والماء والسباع ، فإذا أمسى رجع ، فإذا كان يوم نوحه على نفسه نادى مناديه : إن اليوم يوم نوح داود على نفسه فليحضر من يساعده . قال : فيدخل الدار التي فيها المحاريب فيبسط له ثلاثة فرش من مسوح حشوها الليف ليجلس عليها ، وتجيء الرهبان أربعة آلاف راهب ، عليهم البرانس وعليهم المسوح وفي أيديهم العصي ، ثم يجلسون في تلك المحاريب ، ثم يرفع صوته بالبكاء والنوح ، فيرفع الرهبان معه أصواتهم ، فلا يزال يبكي حتى يغرق الفرش من دموعه ، ويقع داود فيها مثل الفرخ بضرب ، فيجىء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله ، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفه ، ثم يمسح بها وجهه ويقول : يا رب اغفر لي ما ترى ، فلو عدل بكاء داود ودموعه يبكاء أهل الأرض ودموعهم لعدلها .

أخبرنا ابن فتحويه عن عثمان بن أبي عاتكة أنه قال : كان من دعاء داود عليه السلام : سبحانك إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روعي ، إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووني فكلهم عليك دلوني . وقال صلى الله عليه وسلم : « خَدَّ الدَّمْعُ فِي وَجْهِ دَاوُدَ مِثْلَ خَدِّ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ » .

أخبرنا ابن فتحويه عن الحسن بن عبد الله القرشي قال : لما أصاب داود الخطيئة فرزع إلى العبادة ، فأتى راهبا في قلة جبل فناداه بصوت عال فلم يجبه ، فلما أكثر عليه الصوت قال الراهب : من هذا الذي يناديني ؟ قال : أنا داود نبي الله ، قال صاحب القصور الحسنة الحصينة والحيول المسومة والنساء والشهوات : لئن نلت الجنة بهذا لأمت أنت ، قال داود : فمن أنت ؟ قال : أنا راهب راغب منزو مترقب ، قال : فمن أنيسك ومن جليسك ؟ قال : اصعد تره إن كنت تريد ذلك ، قال : فتخلل داود الجبل وورق إلى القلة فإذا هو بميت مسجى ، فقال له : هذا أنيسك هذا جليسك ؟ قال نعم ، قال : وما هذا ؟ قال : تلك قصته مكتوبة في لوح من نحاس عند رأسه ، فقرأ داود الكتاب فإذا فيه : أنا فلان بن فلان ملك الملوك عشت ألف عام وبنيت ألف قصر وألف مدينة ، وهزمت ألف عسكر ، وتزوجت ألف امرأة ، وافتضضت ألف بكر ، فبينما أنا في ملكي إذ أتاني ملك الموت فأخذني وأخرجني مما كنت فيه ، فهذا التراب فراشي والدود جبراني ، قال : فخر داود عليه السلام مغشيا عليه .

وعن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان الناس يهود وداود عليه السلام فيظنون أنه مريض وما به إلا الحياء والخوف من الله تعالى » . قال وهب بن منبه : لما تاب الله على داود كان يبدأ إذا دعا فيستغفر للخاطئين قبل نفسه فيقول : اللهم اغفر للخاطئين فعساك أن تغفر لداود معهم .

وعن قتادة عن الحسن قال : كان داود بعد الخطيئة لا يجالس إلا الخاطئين ، ثم يقول : تعالوا إلى داود الخاطي ، ولا يشرب شرابا إلا وهو ممزوج بدموع عينيه ، وكان يجعل خبز الشعير اليابس في قصعته ، ولا يزال يبكي حتى يتل بدموعه ، وكان يذر عليه الملح والرماد فيأكل ويقول : هذا أكل الخاطئين . قال : وكان داود عليه السلام قبل الخطيئة يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر ، فلما كان من خطيئته ما كان صام الدهر كله ، وقام الليل كله .

وقال وهب : إن داود عليه السلام لما تاب الله عليه قال : يا رب أغفرت لي ؟ قال نعم ؟ قال : فكيف لي أن لا أنسى خطيئتي فأستغفر منها لي وللخاطئين إلى يوم القيامة ؟ قال : فوسم الله خطيئته في يده اليمنى ، فما رفع بها طعاما ولا شرابا إلا بكى إذا رآها ، وما قام خطيبا في الناس إلا بسط راحته فاستقبل الناس لبروا وسم الخطيئة .

وأخبرنا عبد الله بن حامد عن ثابت قال : كان داود عليه السلام إذا ذكر عقاب الله تعالى تخنعت أوصاله ولا يشدها إلا الأنين ، فإذا ذكر رحمة الله تعالى تراجعت . وعن أبي عبد الله البجلي قال : ما رفع داود بعد الخطيئة رأسه إلى السماء نط حتى مات ، وصلى الله على نبينا محمد وعليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

باب فی ذکر خروج ابن داود علی آبیہ وما کان من أمرہما

قال وهب وغيره من أهل الكتب : إن داود عليه السلام لم يزل قائماً بالملك بعد طالوت إلى أن كان من أمره وأمر امرأة أوريا ما كان ، فلما واقع الخطيئة واشتغل بالتوبة منها استخفت به بنو إسرائيل واستضعفوه ، واجتمع أهل الزبغ من بني إسرائيل وذهبوا إلى ابن لداود من ابنة طالوت يقال له شالون وقيل إيشا ، وقالوا له : قد كبر أبوك واشتغل بخطيئته وتوبته وضاعت حقوق الناس وضعف أمر الملك ، فلم يزالوا به حتى بايعوه وخلعوا داود وعدلوا عنه ، ودعا هذا الابن إلى نفسه ، فلما رأى ذلك داود خرج من بين أظهرهم مع ابن أخ له يقال له ثواب وتوغل في الجبال ، فأشار قومه على ابنه أن يقتل أباه ، فلما بلغ ذلك داود أرسل إليه رفيقه وقال له : قل له هل سمعت بابن قتل أباه ؟ فقال له الابن : وهل سمعت أنت بنبي أذنب فلم تقبل توبته ؟ فقال له الرسول : إن كان الله تعالى قد أذن لك في هلاكه فلا تبأشره أنت فإنه لا يجمل في الآخرة حدوثه منك ، فقبل منه ذلك فكف عن قتل آبيه داود وبني ابنه ملكا سنتين . فلما تاب الله على داود صارت الناس تأتبه ، فحارب ابنه فهزمه ، ووجه في طلبه قائدا من قواده ، وأوصاه أن يتوقى حتفه ويتلطف في أسره ، فطلبه القائد وهو منهزم فاضطره إلى شجرة فربض بها ، وكان الغلام ذا جمة فتعلق بغصن من أغصانها بشعره فحبسه ، ولحقه القائد فقتله ، مخالفا لأمر داود عليه السلام فحزن عليه داود حزنا شديدا ، وتنكر للقائد وكان له بأس شديد في ملاقاته العدو ، ففكره داود أن يقتله فتركه لأجل مجاهدة العدو ، فلما حضر داود الموت أوصى ولده سليمان عليهما السلام بقتل القائد فقتله حين فرغ من دفن آبيه ، وكانت مدة داود من يوم خرج من ملكه وانقطع عنه الوحي إلى أن قبل الله توبته ورد عليه ملكه ورجع إلى قومه سنتين .

باب فی قصة أصحاب السبت

قال الله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت) الآية .

قال ابن عباس ووهب بن منبه : إن قوما من بني إسرائيل سكنوا قرية على شاطئ البحر بين مصر ومدين ؟ يقال لها أيلة حرم الله عليهم صيد الحيتان ومسائر العمل يوم السبت ، وأمرهم أن يتفرغوا لعبادته ذلك اليوم ، وذلك في زمان داود عليه السلام ، فكان إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا اجتمع هناك ويخرجن من الماء خراطيمهن حتى لا يرى الماء من كثرتن ، حتى إذا مضى السبت تفرقن ولزمن مقر البحر لا يرى منهن إلا القليل ، فذلك قوله تعالى (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسببون لاتأتئيم كذالك نبئوهم) الآية .

سمعت أبا القاسم قال : سمعت أبي يقول : سئل الحسن بن الفضيل : هل نجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتنا ، والحرام يأتيك جزافا ؟ قال : نعم في قصة داود عليه السلام وأهل أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، قال : فعمد رجال منهم فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا إليها من الأنهار ، فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج منها لبعدها وعمقها وقلة الماء فإذا كان يوم الأحد أخذوها ، وقيل إنهم كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد ، قال : وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت كثيرا ، وفي غير يوم السبت لا تأتيهم حوت واحد ، فأخذ رجل منهم حوتا وربط في ذنبه خيطا ثم ربطه إلى خشبة في الساحل ، ثم تركه في الماء إلى يوم الأحد ، فأخذه فسواه ، فوجد جار له ربح الحوت ، فقال له : يا فلان إني أجد في بيتك ربح الحوت فأنكره ، فاطلع الجار في تنوره فإذا هو في بيته فقال له : إني أرى الله سيعذبك . فلما رأى العذاب لم يأخذه أخذ في السبت الآخر حوتين ، فلما رأى العذاب لا ينزل عليهم أخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا فأثروا وكثرت أموالهم ولم تنزل عليهم عقوبة ، فقست قلوبهم وتجبروا وتجرءوا على الذنب وقالوا : ما نرى السبت إلا قد أحل لنا وإنما حرم ذلك على آبائنا لأنهم قتلوا أنبياءهم . فلما فعلوا ذلك صار أهل تلك القرية وكانوا نحو من سبعين ألفا ثلاثة أصناف : صنف أمسك ونهى ، وصنف أمسك ولم ينه ، وصنف انتهكوا الحرمية ، فكان الذين نهوا اثني عشر ألفا . فلما أبى المجرمون قبول النصيحة ، قال الناهون والممسكون : والله لنخرجن من القرية ولا نساكنكم في قرية واحدة ، ثم قسموا القرية بينهم بجدار ومكثوا على ذلك سنين ، فلعنهم الله على لسان داود عليه السلام وغضب عليهم لإصرارهم على المعصية ، فخرج الناهون ذات يوم من بابهم والمجرمون لم يفتحوا بابهم ولا خرج منهم أحد . فلما أبطثوا تسوروا عليهم الحائط فإذا هم جميعهم قد مسخوا قرده ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّجَمْنَا عَلَيْهِمْ الْفِتْنَةُ فَزَلْنَا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) فأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس أي شديد (بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أي صاغرين ، نظيره قوله تعالى (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ) يعني عصاة أهل أيلة (وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) يعني كفار أصحاب المائدة (ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) . قالوا : فلما دخلوا عليهم ورأوا أنهم قد مسخوا عرفت القردة أنسباءهم من الإنس ، ولم تعرف الإنس أنسباءهم من القردة . فجعل القرد يأتي نسيبه من الإنس فيشم ثيابه ويبكي ، فيقول له الرجل : ألم نهكم ؟ فيقول القرد برأسه نعم ،

قال قتادة: صارت الشباب قرده والشيوخ خنازير، فأنجا إلا الذين تنهوا، وهلك سائرهم، ثم خرج المسوخون من المدينة وهاموا على وجوههم متحيرين ومكثوا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، وكذلك لم يبق قوم مسخوا أكثر من ثلاثة أيام ولم يتوالدوا ولم يتناسلوا، ثم بعث الله عليهم ريحا ومطرا فقتلهم في البحر، فإذا كان يوم القيامة أعادهم الله تعالى إلى صورهم البشرية فيدخلهم النار:

وروى أبو نصر عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة بعذاب من السماء بعد ما أنزل الله التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التي كانت حاضرة البحر الذين مسحوا قرده، ألم تسمع قول الله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) . . . الآية»:

اب في قصة داود وسليمان عليهما السلام في الحرث

قال الله تعالى (وداود وسلیمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين).

قال ابن عباس وقتادة: كان الحرث زراعا. وقال ابن مسعود وشريح: كان الحرث كرمًا قد تدلت عناقيده، إذ نفشت فيه غنم القوم: رعته ليلا فأفسدته، والنفس بالليل والهمل بالنهار، وهما جميعا الرعى بلا راع، وكنا لحكمهم شاهدين لا يخفى علينا منه شيء. قال ابن عباس وقتادة: إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث، فقال صاحب الزرع: إن هذا انفلتت غنمه ليلا فوقعت في حرثي فلم تبق منه شيئا. قال له داود: اذهب فإن الغنم لك، فأعطاه رقاب الغنم بالحرث، ففرا على سليمان فقال لهما: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه؛ فقال سليمان: لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا، فأخبرنا بذلك داود، فدعاه فقال له: كيف كنت تصنع في القضاء بينهما؟ قال: كنت أدفع الغنم إلى صاحب الحرث سنة فيكون له نسلها وصوفها ومنافعها، ويبذر صاحب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا كان العام المقبل وصار الحرث كهينته يوم أكل فيدفع إلى أهله ويأخذ صاحب الغنم غنمه.

وقال ابن مسعود وشريح: إن راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر، فأكلت القضبان وأفسدت الكرم، فصار صاحب الكرم من الغد إلى داود، ففضى بالأغنام لصاحب الكرم لأنه لم يكن بين ثمن الأغنام وثمر الكرم تفاوت قال: ففرا بسليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة، فقال لهما ما قضى بينكما داود؟ فقضا عليه القصة، فقال سليمان: غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود، فأخبراه بذلك، فدعا

سليمان وقال له : بحق النبوة والأبوة إلا ما أعجزتني بالذي هو أرفق بالفريقين ؟ فقال سليمان : تسلم الأغنام إلى صاحب الكرم لينتفع بنسلها و صوفها و منافعها ، ، ويعمل الراعي في إصلاح الكرم إلى أن يعود كهيئته ، ثم يتسلمه صاحبه وترد الأغنام إلى صاحبها ، فقال داود : القضاء ما قضيت وحكم بذلك ، فذلك قوله تعالى (فقَهَمْنَا مَا سَلَّمَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) قال الحسن : كان الحكم ما قضى به سليمان ولم يعنف الله داود في حكمه . قال الأستاذ . وهذا يدل على أن كل مجتهد مصيب .

باب في قصة استخلاف داود ابنه سليمان عليهما السلام وذكر بدء أمر الخاتم

قال أبو هريرة رضي الله عنه : أنزل الله تعالى كتابا من السماء على داود عليه السلام محتوما بخاتم من ذهب فيه ثلاث عشرة مسألة ، فأوحى الله تعالى إليه أن سل عنها ابنك سليمان ، فإن هو أخرجها فهو الخليفة من بعدك . قال : فدعا داود عليه السلام سبعين قسا وسبعين حبرا ، وأجلس سليمان بين أيديهم وقال : يا بني إن الله تعالى أنزل على كتابا من السماء فيه مسائل ، وأمرني أن أسألك عنها ، فإن أخرجتها فأنت الخليفة من بعدى ، فقال سليمان : ليسأل نبي الله عما بدا له وما توفيتي إلا بالله ، قال داود : يا بني ما أقرب الأشياء وما أبعدُها ؟ وما آنسُ الأشياء وما أوحشها ؟ وما أحسنُ الأشياء وما أقبحها ؟ وما أقل الأشياء وما أكثرها ؟ وما القائمات وما الساعيات ؟ وما المشتركات وما المتباغضات ؟ وما الأمر الذي إذا ركبته الرجل حمد آخره ؟ وما الأمر الذي إذا ركبته الرجل ذم آخره ؟ فقال سليمان عليه السلام : أما أقرب الأشياء فالآخرة ، وأما أبعد الأشياء فمافاتك من الدنيا ، وأما آنس الأشياء فجسد فيه روح ، وأما أوحش الأشياء فجسد لا روح فيه ، وأما أحسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر ، وأما أقبح الأشياء فالكفر بعد الإيمان ، وأما أقل الأشياء فاليقين ، وأما أكثر الأشياء فالشك ، وأما القائمات فالسماوات والأرض ، وأما الساعيات فالشمس والقمر ، وأما المشتركات فالليل والنهار ، وأما المتباغضات فالموت والحياة ، وأما الأمر الذي إذا ركبته الرجل حمد آخره فالحلم عند الغضب ، وأما الأمر الذي إذا ركبته الرجل ذم آخره فالحدة عند الغضب . قال : فكروا الخاتم فإذا جواب المسائل سواء على ما نزل من السماء ، فقال القسيسون والرهبان : لانرضى حتى نسأله عن مسألة فإن أخرجها فهو الخليفة من بعدك ، فقال سليمان عليه السلام : سلوني وما توفيتي إلا بالله . فقالوا له : ما الشيء الذي إذا صلح صلح كل شيء من الإنسان ، وإذا فسد فسد كل شيء من الإنسان ؟ فقال : هو القلب . فقام داود فصعد المنبر ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : إن الله تعالى أمرني أن أستخلف عليكم سليمان ، قال : فضجت بنو إسرائيل وقالوا : غلام حدث يُستخلف علينا وفينا من هو أفضل منه وأعلم ؟ فبلغ ذلك داود عليه السلام ، فدعا رؤساء أسباط بني إسرائيل وقال

لهم : إنه قد بلغنى مقاتلكم فأرونى عصيكم ، فأى عصا أثمرت فإن صاحبها ولى هذا الأمر بعدى ، قالوا : قد رضينا . فجاءوا بعصيمهم فقال لهم داود : ليكتب كل رجل منكم اسمه على عصاه ، فكتبوا ، ثم جاء سليمان بعصاه فكتب عليها اسمه ثم أدخلت بيتا وأغلق عليها الباب وسد بالأقفال وحرسه رعوس أسباط بنى إسرائيل ، فلما أصبح صلى بهم الغداة ، ثم أقبل ففتح الباب فأخرج عصيمهم كما هى ، وأما عصا سليمان فقد أورقت وأثمرت . قالوا : فسلموا الأمر فى ذلك لداود عليه السلام ، فلما رأى ذلك داود حمد الله وحمل سليمان خلفه ثم سار به فى بنى إسرائيل فقال : إن هذا خليفتى عليكم من بعدى .

قال وهب بن منبه : : لما استخلف داود ابنه سليمان عليهما الإسلام وعظه فقال : يا بُنَيَّ إياك والهزل فإن نفعه قليل ، ويهيج العداوة بين الإخوان ؛ وإياك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه ؛ وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شىء ؛ وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شىء ، فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا برآء . اقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغنى ؛ وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وإياك وما يعتذر منه من القول والفعل ، وعود نفسك ولسانك الصدق ، والزم الإحسان ؛ فإن استطعت أن يكون يومك خيرا من أمسك فافعل ، وصل صلاة مودع ؛ ولا تجالس السفهاء ، ولا ترد على عالم ، ولا تماره فى الدين ؛ وإذا غضبت فألصق نفسك بالأرض ، وتحول من مكانك ، وارج رحمة الله ، فإنها وسعت كل شىء .

قالوا : ثم إن سليمان بعد أن استخاف أخفى أمره وتزوج بامرأة واستتر عن الناس وأقبل على العلم والعبادة ، ثم إن امرأته قالت له ذات يوم : بأبى أنت وأمى ما أكمل خصالك وأطيب رائحتك ، ولا أعلم لك خصلة أكرهها إلا أنك فى مؤنة أبى ، فلو دخلت السوق فتعرضت لرزق الله لرجوت أن لا يخيبك الله . فقال سليمان : إنى ما عملت عملا قط ولا أحسنه ، ثم إنه دخل السوق صبيحة يومه ذلك فلم يتدار على شىء ، فرجع فأخبرها ، فقالت : غدا يكون إن شاء الله . فلما كان اليوم الثانى مضى حتى انتهى إلى ساحل البحر ، فإذا هو بصياد فقال له : هل لك أن أعينك وتعطينى شيئا ؟ قال نعم . قال : فأعانه ، فلما فرغ أعطاه الصياد سمكتين ، فأخذهما وحمد الله تعالى ، ثم إنه شق بطن إحداهما فإذا هو بخاتم فى بطنها ، فأخذه وصره فى ثوبه وحمد الله عز وجل ، وأخذ السمكتين وجاء بهما إلى منزله ففرحت امرأته بذلك ، فأخرج الخاتم ولبسه فى أصبعه ، فعكفت عليه الطير والريح ووقع عليه بهاء الملك ، ثم لم يلبث أبوه أن مات ، فلما مات حمل المرأة وأباها إلى إصطخر ، والله أعلم .

باب في ذكر وفاة داود عليه السلام

قال الشيخ أبو يزيد : سمعت الشيخ أبا عمرو الفارابي يروي أن داود عليه السلام كانت له وصيفة تغلق الأبواب كل ليلة وتأتيه بالمفاتيح ثم تنام ويقبل داود على ورده في العبادة ، فأغلقت ذات ليلة الأبواب وجاءت بالمفاتيح ثم ذهبت لتنام ، فرأت رجلا قائما في وسط الدار ، فقالت له : ما أدخلك هذه الدار فإن صاحبها رجل غيور فخذ حذرك ، فقال لها : أنا الذي أدخل الدور على الملوك بغير إذنتهم . قال فلما سمع داود ذلك وكان في المحراب وانحفا يصلي فزع واضطرب ، وقال لها : على به ، فأتاه ، فقال له داود : ما أدخلك هذه الدار في هذا الوقت بغير إذن ؟ فقال له : أنا الذي أدخل الدور على الملوك بغير إذن ، فقال له : إذن فأنت ملك الموت ؟ قال نعم ، قال : : أفجئت داعيا أم ناعيا ؟ فقال : بل ناعيا ، فقال داود عليه السلام : فهلا أرسلت إلى قبل ذلك وأذنتني لأستعد للموت ؟ فقال : كم أرسلت إليك فلم تنبه ، قال : ومن كانت رسلك التي أرسلت إلى ؟ فقال يا داود : أئني أبوك إيشا وأين أمك وأين أخوك وأين جارك أين قهارمك أين فلان وفلان ؟ فقال : ماتوا كلهم ، فقال : أما علمت أنهم رسلي إليك وأن النوبة تبلغك . قال الأستاذ رضي الله عنه : وفي هذا المعنى قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يزال المرء ينعي أخاه حتى يكونه وقد يرجو الرجاء فيحول الموت دونه ، وقد نظمه بعض الشعراء فقال :

وإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول
وإذا وليت أمور قوم مدة فاعلم بأنك عنهم معزول
وقال أهل التاريخ : كان عمر داود عليه السلام مئة سنة ، وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقد مضى في قصة آدم ما وهب لداود من عمره عليهما السلام .

مجلس في قصة سليمان عليه السلام وما يتعلق به

قال الله تعالى (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) يعني نبوته وحكمته وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابنا . وقال مقاتل : كان سليمان عليه السلام أعظم ملكا من أبيه داود وأقضى منه ، وكان داود عليه السلام أشد تعبدا من ابنه سليمان ، وكان سليمان حين آتاه الله الملك والحكمة ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان ملكه ما بين الشام إلى إصطخر ، وقيل إنه ملك الأرض كلها . وروى مجاهد عن ابن عباس قال : ملك الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، فأما المؤمنان فسليمان عليه السلام وذو القرنين . وأما الكافران : فالنمرود بن كنعان ويختصر .

باب في صفة حليته عليه السلام

قال وهب بن منبه وكعب الأحبار : كان سليمان أبيض جسيما وضيئا جميلا كثير الشعر يلبس من الثياب البيض ، وكان خاشعا متواضعا يخالط المساكين ويجالسهم ويقول : مسكين جالس مسكينا . وكان أبوه في أيام ملكه يشاوره في كثير من أموره مع صغر سنه ووفور عقله وعلمه ، صلى الله على نبينا وعليهم وسلم .

باب فيما خص الله به نبيه سليمان عليه السلام حين ملكه

من أنواع المناقب والمواهب ، وغير ذلك

قال الله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين) وقال الله تعالى إخبارا عنه (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) فأجاب الله دعاءه وأكرمه بخصائص لم يكرم بها أحدا من خلقه قبله ولا بعده ؛ فمنها تسخير الله له الريح كما قال عز وجل (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) : أي أراد ، بلغة حمير ؛ قال محمد بن إسحاق وغيره من أصحاب الأخبار : كان سليمان عليه السلام رجلا غزّاء لا يكاد يقعد عن الغزو ، وكان لا يسمع بملك في ناحية من الأرض إلا أتاه حتى يذله ويقهره ، وكان إذا أراد الغزو أمر بمعسكره فيضرب له خشب ، ثم ينصب له على الخشب سرير ثم يحمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها ، حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت تلك الخشب فحملتها حتى إذا أقلتها أمر الرخاء فمرت به شهرا في غدوته وشهرا في روميته إلى حيث أراد كما قال تعالى (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) . وقال ابن إسحاق : ذكّر لي أن رجلا نزل منزلا من ناحية الدجلة فوجد فيه كتابا مكتوبا كتبه بعض أصحاب سليمان ، إما من الجن أو من الإنس : نحن نزلناه وما بنينا ، ومبنا وجدناه ، غدونا من إصطخر فقلناه ، ونحن راثون إن شاء الله تعالى فباتون الشام . قال : وكان فيما بلغني تمر بمعسكره الريح الرخاء تهوى به إلى حيث أراد وإنما تمر بالمزرعة فلا تحركها . وأخبرنا الحسن بن محمد بن فتحويه بإسناده عن وهب بن منبه عن أبيه قال : إن سليمان عليه السلام ركب الريح يوما فمرت بحراث ، فنظر إليها الحراث وقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فحملت الريح كلامه وألقته في أذن سليمان عليه السلام ، فنزل حتى أتى الحراث وقال له : إني سمعت قولك ، وإنما نزلت إليك لكلا تمنى ما لا تقدر عليه ، إن تسيحة واحدة يقبلها الله منك خير مما أوتى آل داود ، فقال له الحراث أذهب الله همك كما أذهبت همي :

وقال مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان عليه السلام بساطا فرسحا في فرسخ ذهبا في ابريسم ، وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من الذهب والفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب ، والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظلمهم الطير بأجنحتها لئلا تقع عليهم الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح إلى الرواح ، ومسيرة شهر من الرواح إلى الصباح .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن محمد بن كعب القرظي قال : بلغني أن عسكر سليمان عليه السلام كان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس ، وخمسة وعشرون منها للجن ، وخمسة وعشرون منها للوحوش ، وخمسة وعشرون منها للطيور ، وكان له ألف بيت من القوارير على الخشب فيها ثلاث مئة سرير وسبع مئة امرأة ، فيأمر الريح العاصفة فتحمله ، ويأمر الرخاء فتسير به ، فأوحى الله تعالى إليه وهو سائر بين السماء والأرض : إني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت الريح به إليك فأخبرتك به .
ومنها تعلم الله له كلام الطير حتى النمل كما قال الله تعالى (يا أيها الناس علمنا منطيق الطير) . . . الآية .

قال ابن فتحويه بإسناده عن كعب الأحبار قال : صاح ورشان عند سليمان فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، فقال : إنه يقول لدوا للموت وأبنوا للخراب . وصاحت فاخنة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا لا ، قال : إنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاوس فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول كما تدين تدان . وصاح هدهد فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول من لا يرحم لا يرحم . وصاح صرد فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول استغفروا الله يا مذنبون ، فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . قال : وصاح الطيطوى فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول كل حي ميت وكل جديد بال ، قال : وصاح خطاف فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول قدموا خيرا تجدوه ، فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله . وهدرت حمامة فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا لا ، قال : إنها تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وملء أرضه . وصاح قمرى فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : إنه يقول سبحان الحى الذى لا يموت أبدا . : وصاح غراب فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : فإنه يلعن العشارين . والحدأة تقول : كل شيء هالك إلا وجهه . والقطا تقول : من سكت سلم . والعنقاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والبازى يقول : سبحان ربى الأعلى وبحمده . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس . . . العصفور يقول : سبحان المذكور بكل مكان .

وأخبرنا ابن ميمون بإسناده عن مكحول قال : صاح دَرَّاج عند سليمان عليه السلام فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا ، قال : فإنه يقول الرحمن على العرش استوى . وبإسناده عن صالح المري عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدَّيْكُ إِذَا صَاحَ يَقُولُ : اذْكُرُوا اللَّهَ يَا غَافِلُونَ » .

وروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده عن الحسين بن علي عليهم السلام أنه قال : إذا صاح النسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت فإن آخرك الموت . وإذا صاح العقاب قال : في البعد عن الناس أنس . وإذا صاح القنبر قال : اللهم العن مبغضى آل محمد . وإذا صاح الخطاف قرأ الحمد لله رب العالمين ويمد الضالين كما يمدها القارىء .

وقال فرقد السَّبَّخِيّ : مر سليمان ببلبل فوق شجرة وهو يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال صحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : إنه يقول : أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء .

وأخبرنا أبو عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن مسعود عن أبيه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة ، فررنا بشجرة فيها فرخا حمامة فأخذناهما ، فجاءت الحمامة وشكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ فَجَعَ هَذِهِ الْحَمَامَةَ بِفَرَّخَيْهَا ؟ فقلنا نحن ، فقال : رُدُّوهمَا إِلَى مَوَاضِعِهِمَا » .

وروى أن قبرة باضت في طريق سليمان عليه السلام ، فقال الذكر للأُنْثَى : ألم أنك أن تبيضى في طريق سليمان الملك ، لو ركب إلينا لحطم بيضنا ، فقالت الأُنْثَى : ويحك إن نبي الله أرحم بنا من ذلك ، فسمع سليمان قولهما ، فبعث إليهما جنيا حين أراد أن يركب وقال : أنجعل بيضهما تحت رجلك وإياك أن تصيبه بشيء ، فبغما مر سليمان في موكبه وجاوزهما قالت الأُنْثَى : ألم أقل لك إن نبي الله أرحم بنا من ذلك ؟ فقال الذكر للأُنْثَى عندي للملك هدية ، قالت : وما عندك ؟ قال : عندي جرادة ادخرتها لولدى ، فقالت الأُنْثَى : عندي ثمرة ادخرتها لولدى . قال : فأخذا الثمرة والجرادة ثم طارا حتى وقفا بين يدي سليمان وهو على سريره في مجلسه ، فوضعاهما بين يديه وسجدا له ، فدعا لهما ومسح بيده على رؤوسهما ، فيروى أن هذه القشرة التي على رأس القنبر من مسح سليمان عليه السلام إياهما .

قال : ومر سليمان بموكبه على نملة ، فقالت النملة : سبحان الله العظيم ما أعظم ما أوتى آل داود ، فتبسم سليمان من قولها وفسر قولها لجنوده ثم قال : ألا أنبئكم بخبر هو أعجب من هذه النملة ؟ قالوا بلى ، قال تقول : اتقوا الله في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الغضب والرضا .

وروی ان سلیمان علیہ السلام خرج يوما يستسقى ومعه الإنس والجن ، فر بنملة عرجاء ناشرة جناحها رافعة يديها وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقتك لاغنى لنا عن رزقك فلا تؤاخذنا بذنوب بني آدم واسقنا ، فقال سلیمان لمن معه : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم . وحكى أن نملة دبت على سلیمان فحملها ورمى بها ، فوقعت النملة فقالت : ما هذه الصولة وما هذا البطش ؟ أما علمت أنى أمة من أنت عبده ؟ فغشيتى على سلیمان ، فلما أفاق قال : اتئوتى بها ، فأتوه بها فسألها ، فقالت له : جلدى رقيق وبدنى ضعيف وأخذتني ورميتني ، فقال لها سلیمان : اجعليني في حل فإنى لم أقصد ذلك ، فقالت : بشرط أن لا تنظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولا تستغرق في شهواتك وضحكك ، ولا يستعين أحد بجاهك إلا بذلته له ، قال : قد فعلت ذلك ، قالت : فأنت في حل .

ومنها قصة وادى النمل قال الله تعالى (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى يجبس أولهم على آخرهم (حتى إذا أتوا على وادى النمل) الآية . قال الشعبي وكعب وغيرهما من أهل الكتب : إن سلیمان علیہ السلام كان إذا ركب حمل أهله وحشمه وخدمه وكتابه في مركبه الذى هب له ، وقد اتخذ فيه مطابخ ومخابز ويحعمل فيها تنانير الحديد وقدورا عظاما يسع كل قدر عشرة من الجزر ، وقد اتخذ ميادين للدواب أمامه فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض والرياح تهوى بهم ، فسار من إصطخر إلى اليمن وتوغل في البادية فسلك على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال سلیمان : هذه دار هجرة نبي يبعث في آخر الزمان ، طوبى لمن آمن به واتبعه ، ثم أتى أرض الحرم فرأى حول البيت أصناما تعبد من دون الله فجاوز البيت ، فلما جاوزه سلیمان بكى البيت ، فأوحى الله تعالى إلى البيت ما يبكيك فقال : يارب هذا نبي من أنبيائك وقوم من أوليائك مروا على فلم يهبطوا بي ولم يصلوا عندي ولم يذكروك بحضرتي ، وهذه الأصنام تعبد حولي من دونك . قال : فأوحى الله تعالى لا تبك فإنى سوف أملوك وجوها مجدالى ، وأنزل فيك قرآنا جديدا ، وأبعث منك في آخر الزمان نبيا هو أحب الأنبياء إلى ، وأجعل فيك عبادا من خلقي يعبدوننى ، وأفرض على عبادى فريضة يترفون بها إليك زفا مثل زفيف النسور إلى أوكارها ، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها ، وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان . ثم أمر الله سلیمان عليه السلام أن ينزل عليه ويصلى فيه ويقرب عنده قربانا ، ففعل ذلك ، قال : فذبح عند المكعبة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة ، وقال لمن حضر من أشرف قومه : إن هذا المكان يخرج منه نبي عربى ويعطى النصر على جميع من ناواه ، ويكون السيف على رقبة من خالفه ، وتبلغ هيئته مسيرة شهر . القريب والبعيد عنده سواء ، لاتأخذه في الله لومة لأثم ، فطوبى لمن أدركه وصدقته . قالوا : فكم بيننا وبين خروجه

يا نبي الله؟ قال: قريب من ألف عام. قال: ثم إن سليمان مضى حتى أتى على واد السدير واد من الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملة تمشي وكانت عرجاء تتكاوس، وكانت مثل الذئب العظيم. وقال الشعبي: كانت ذات جناحين:

واختلفوا في اسمها: فأخبرني ابن ميمونة بإسناده عن الضحاک قال: كان اسم نملة سليمان طاخية، وقبل خيرما، فنادت لما رأت سليمان في موكبه: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وكان لا يتكلم خلق إلا حملته الريح، وألقته في مسامع سليمان. قال مقاتل: فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال (فتبسم ضاحكا من قولها) وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي... الآية.

وفي بعض الأخبار: أن سليمان لما سمع قولها نزل عليها وقال: اثنوني بها، فأتوه بها، فقال لها: لم حذرت النمل، هل سمعت أني ظالم؟ أما علمت أني نبي عدل؟ فلم قلت (لا يحطمنكم سليمان وجنوده؟) قالت النملة: يا نبي الله أما سمعت قولي (وهم لا يشعرون) مع أني ما أردت حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب، خشيت أن يتمنين ما أعطيت فيفتن ويشغلن بالنظر إليك عن التسبيح، فقال لها عظيمي، فقالت له النملة: هل علمت لم سمى أبوك داود؟ قال لا؟ قالت: لأنه داوي جراحة قلبه؛ ثم قالت: وهل تدري لم سميت سليمان؟ قال لا، قالت: لأنك سليم ركنت إلى ما أوتيت بسلامة صدرك وحق لك أن تلحق بأبيك داود؛ ثم قالت: أتدري لم سخر الله تعالى لك الريح؟ قال لا، قالت: ليخبرك أن الدنيا كلها ريح (فتبسم ضاحكا من قولها) متعجبا (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) الآية.

أخبرني ابن ميمونة بإسناده عن ابن عباس قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربعة من الدواب: الهدهد والصرد والنحلة والنملة.

ومنها قصة العنقاء في إثبات القضاء والقدر: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن جعفر الصادق قال: عاتب سليمان الطير في بعض عتابه، فقال لها: إنك لتأتين كذا وتفعلين كذا، فقالت: والله رب السماء والثرى إنا لنحرص على الهدى ولكن قضاء الله يأتي إلى منتهى علمه وقدره، قال: صدقت لاحيلة في القضاء، فقالت العنقاء: لست أومن بهذا فقال لها سليمان: ألا أخبرك بأعجب العجب؟ قالت بلى، قال: إنه ولد الليلة غلام بالمغرب وجارية بالمشرق هذا ولد ملك كبير وهذه ابنة ملك والحارية والولد يجتمعان في أمنع المواضع بقدره الله تعالى وأهولها على سفاح في جزيرة في وسط البحر، فقالت العنقاء: يا نبي الله أوقد ولد هذان الولدان المذكوران؟ قال نعم الليلة،

قالت : فهل اخبرت بهما من هما وما اسمهما واسم أبيهما؟ قال : بلى اسمهما كذا وكذا ، واسم أبيهما كذا وكذا ، فقالت العنقاء : يا نبي الله أنا أبطل القدر وأفرق بينهما ، فقال لها سليمان : إنك لا تقدرين على ذلك ، قالت بلى ، فأشهد سليمان عليها الطير وكفلتها البومة ، فمرت العنقاء وكانت في كبر الحمل عظما ووجهها وجه إنسان ويدها يد إنسان وثدياها ثديا امرأة وأصابعها كذلك ، فحملت في الهواء حتى أشرفت على الدنيا ، فأبصرت كل دار وما فيها وكل إنسان ، وأبصرت الجارية وهي في مهدها وقد أجلسوها ، فاختلست الجارية من المهد وطارت بها حتى انتهت إلى جبل شاهق في السماء في جوف البحر وسط جزيرة ، وفي الجزيرة شجرة عالية لا يراها طائر إلا بجهد طيرانه ، ولها أغصان عظيمة تزيد على ألف غصن كل غصن كأعظم ما يكون من شجر الأرض كثيرة الورق ، فاتخذت لها وكرا في وسط الشجرة عجيبا واسعا مضيئا وطيبا ، وأرضعتها وحضنت الجارية تحت جناحها ، وصارت تأتيها بأنواع الطعام والشراب وتحفظها من البرد والحر وتؤنسها بالليل ولا تخبر أحدا بشأنها كي يتم أمرها ، وهي تغدو إلى سليمان وتروح إلى وكرها ، فعلم سليمان بذلك ولم يبهدها ، فبلغ الغلام مبلغ الرجال ، وصار ملكا من ملوك الدنيا ، وكان يلهو بالصيد ويحبه ويطلبه ، فصار لا يقر ليل ولا نهارا ، وكان أبوه ملكا عظيما ، فلما رأى الملك ولده لا هيا بالصيد لم يزجره عنه حتى نال منه متلا طويلا وأمرأ عظيما ، فقال يوما لأصحابه : كل صيد البر وفلواته ومفازاته قد نلت منه ، فلو ركبت البحر فأنال من صيده فإنه كثير الصيد وكثير العجائب ، فقال له المشيرون من وزرائه : نعم ما رأيت وهو أكثر شيء من خلق الله صيدا وعجائب . فأمر الغلمان بتجهيز ما يحتاجون إليه ، وهبأ السفن وجعل يأخذ من كل شيء يملكه ، وأخذ من الوزراء والندماء والمشيرين والغلمان والجوارى والطباخين والحيازين والدواب والبزاة والصقور وكلاب الماء ، وجميع ما يحتاجون إليه مما يربده ويشتهي من الملامى ، وركب السفن ومر في البحر كذلك يتصيد ويتلذذ بالفرح ولا يعرف شيئا غير ذلك ، حتى سار مسيرة شهر ، فأرسل الله تعالى على سفينته ريحا خفيفة فضربتها وساقها حتى قربت من جزيرة العنقاء والجارية ، وهي مسيرة خمسين سنة في منتهى خمسين ليلة ، كل ليلة مسيرة سنة ، ثم ركبت سفينته بإذن الله تعالى ، وأصبح الغلام فرأى سفينته راكدة ، فأخرج رأسه من ناحية ونظر ، فإذا هو بجبل شاهق في وسط جزيرة في البحر في لون الزعفران ، طويلة لا يدرى أين منتهى ولا عرضها ، وإذا هو بشجرة خضراء في رأس الجبل ملتفة كثيرة الأغصان والأوراق ، ورقها في عرض آذان الفيلة ، تفوح بريح الأقحوان ، ليس لها ثمر بيضاء الساق ، فقال لأصحابه : إني أرى عجبا ، أرى جبلا شاهقا في وسط جزيرة لم أر مثله ولا مثل طول ولا عرضه ، وأرى شجرة فيها كل حسن قد أعجبنى منظرها ، ثم إنه حرك سفينته وجاء بها إلى الجزيرة التي فيها الجبل وأرساها

عندها وقال لأصحابه : أقيموا ههنا حتى أمضي وأبصر هذه الجزيرة وهذا الجبل الذي في وسطها هل عمارة أو أثر آدمي في تلك الجزيرة وآتيكم بخبرها ، ثم إنه نزل من السفينة هو ورفقته وداروا في الجزيرة فلم يروا فيها أثر عمارة ولا عبر بها آدمي قبله ، ثم إنه صعد إلى رأس الجبل فرأى أصل الشجرة ، وكانت الحارية قد نظرت إلى السفينة وهي جارية فام تعرف ما هي ، لأنها أخذت صغيرة ولم تدر ما السفن ، فبقيت متعجبة وليس عندها أحد تسأله عن ذلك ، فبينما هي متفكرة في أمر السفينة إذا حس الآدميين ، فأخرجت رأسها من الوكر فنظرت يمينا وشمالا فلم تر أحدا ، فنظرت في أصل الشجرة فإذا بالغلام ورفقته ، فتعجبت منهم لما رأت من حسنهم وجمالهم وكيف وصلوا إلى ذلك الموضع ، وأن الغلام لما بلغ أصل الشجرة نظر يمينا وشمالا وبقى متعجبا من عظم تلك الشجرة ورفعها في السماء وصار ينظر إلى أغصانها ، وكانت الحارية قد أخرجت رأسها لتنظر إلى السفينة ، فجانت منها التفاتة إلى أصل الشجرة ، فوقعت عينها في عين الغلام ، فرأى الغلام صورتها ، ورأى عجبا من عظم جمالها وكثرة شعرها وذوائبها ، فقال لها الغلام بلسان فصيح : أجنبية أنت أم إنسية ؟ قالت : لا والله أنا من خيار الإنس فمن أنت ؟ فأفهمها لغته ، فقالت : لأدرى ما تقول وما أنت ، إلا أني أرى وجهك كوجهي وكلامك ككلامي ، وإني لأعرف شيئا خير العنقاء ، وهي أمي التي ربنتي وحضنتني ، وهي تأتيني كل ليلة وتسميني بنتها ، فقال لها الغلام : وأين العنقاء ؟ فقالت : هي في نوبتها ، فقال الغلام : وما نوبتها ؟ قالت : تغدو كل يوم إلى ملكها سليمان فتسلم عليه وتقيم عنده إلى الليل ثم تجيئني وتحدثني بكل ما يحكم به سليمان ، وإنه لملك عظيم على ما تصفه لي أمي العنقاء من ملكه وأنها تخبرني أنه أحسن الناس وجها وأتم خلقا مني ، قال : فارتعد الغلام ثم قال : عرفته ، وهو الذي قتل أبي وسبي دولته وإني لمن طلقائه ، وممن يؤدي إليه الحراج ، وقد سخر الله له الطير والرياح ، ثم بكى الغلام ساعة ، فقالت له الحارية : ما يبكيك ؟ قال : وحدثك في مثل هذا الموضع الذي لا إنس فيه ولا أحد ، وإن مثلك في الدنيا عدد الشجر والمدر ، وكلهم في مقاصير الذهب والفضة والعيش الهنيء والرغد واللذة الحسنة مع الأزواج يتعانقون ويتنعمون ويتوالدون الأولاد مثل خلقك وخلقى ، أرأيت إن هاجت الريح فأزعجتك من وكرك ، من يمنعك أن تقعى في البحر ، وإن وقعت في البحر فمن ذا الذي يخرجك ؟ قال : فقزعت الحارية من قوله ، قالت : وكيف لي أن يكون معي إنسى مثلك يحدثني بمثل حديثك ، ويحفظني مما ذكرت ، فقال لها الغلام : أولاتعلمين أن الله اتخذ سليمان نبيا وسخر له الريح والطير هو الذي رحمك وساقى إليك لأكون لك إفا وصاحبا وأنيسا ، وإني لمن أولاد الملوك ، فقالت له الحارية : وكيف تصبر لي وأصبر إليك ، وإن العنقاء هذه تروح وتجيء تحضني إلى صدرها بين جناحيها ، فقال لها الغلام فكثيرين جزعك ووحشتك وبكاءك

على العنقاء ليلتك هذه ، فإذا جاءت إليك وقالت لك ما تحبين وما تريدن وما شأنك ؟ فأخبرها بوحدة في نهارك ، ثم انظري ما يكون من ردها عليك ، فأخبرني بذلك ففعلت وإن العنقاء رجعت إليها فوجدتها باكية حزينة ، فقالت لها : يا بنية مالك ؟ فقالت : الوحدة والوحشة قتلتني ، وإني لمنزعجة على نفسي من ذلك ، فقالت لها يا بنية لا تخافي ولا تخزني ، فإني أستأمر سليمان عليه السلام أن آتية يوما ويوما لا آتية ، فيكون ذلك أنسا لك . فلما أصبحت أخبرت الغلام بجوابها ، فقال لها أوتصيرين على ذلك ؟ لا ولكني سأنحر من دواي هذه فرسا وأبقر بطنه وأخرج مافيه وأطيبه بطيب معي وأدخل أنا في جوفه وألقيه على رأس سفينتي هذه ، فإذا جاءتك العنقاء تقولين لها أرى عجبا ، أرى خلقة ملقاة على كوثل هذه السفينة فلو اختطفتها وحملتني إلى مكانت معي في وكرى فأنظر إليها وآنس بها كان أحب إلي من كونك عندي نهارا وإمساكك عن أخبار سليمان وأخبار المسلمين . فلما رجعت العنقاء وجدتها على حالتها ، وكان سليمان قد شغل عنها فلم تصل إليه في استئذانها إياه في المقام يوما والغدو يوما ، فقالت لها : يا بنية إن نبي الله قد اشتغل عنى اليوم بالحكم بين الآدميين فلم أصل إليه ، قالت لها : إني لأأريد أن تتخلى عنه نهارا لمكان أخبار سليمان وأخبار المسلمين ، وإني أرى عجبا في البحر ، أرى شيئا مرتفعا فما هو ؟ قالت لها العنقاء : هذه سفينة قوم سيارة راكبين في البحر ، قالت : فما الذي أراه ملقى على رأس هذه السفينة ؟ قالت : دابة ميتة ألقوها ، قالت : فاحتملها إلى لأستأنس بها وأنظر إليها ، فانتضت العنقاء فاخطفت الفرس وكان الغلام في بطنها فحملتها إلى عشها ، فقالت الجارية : يا أماه ما أحسنه وضحكت ، ففرحت العنقاء بذلك وقالت : يا بنية لو علمت لكنت أنتك بمثل هذا منذ حين ، ثم إنها طارت إلى نوبتها عند سليمان ، فخرج الغلام من بطن الفرس فلاعبها ولامسها وافتضاها وأحبها من ساعتها ، وفرح كل واحد منهما بصاحبه واستأنس به ، وكان سليمان عليه السلام قد جاءه الخبر باجتماعهما من قبل الريح ، وأن العنقاء راحت ، وكان مجلس سليمان يومئذ مجلس الطير وحكمهم ، فجلس سليمان عليه السلام للطير في مرتبته ودعا بعرفاء الطير ، وأمرها أن لاتدع طيرا إلا حشرته إليه ، فحشرت إليه جميع الطيور ، ثم أمر عرفاء الجن أن يحشروا قبائل الجن من سكان البحار وسكان الجزائر والهواء والمغارات والفجوات والأمصار ، فحشروا إليه ، وأمر الشياطين فأحضرت كذلك ، وكذلك الإنس كهيئتهم . ثم كل دابة تدب على وجه الأرض ، فاشتد الخوف وقالوا في أنفسهم : نشهد بالله أن نبي الله قد أمره أمر عظيم ، فأول سهم قد خرج في تقديم الطير سهم الحدأة ، وكانت الطير لاتتقدم إلا بالسهم ، وكذلك الجن والشياطين ، فتقدمت الحدأة تدعى على زوجها وكان قد جحد ولدها ، فقالت : يا نبي الله إنه سفدني حتى إذا احتضنت بيضي وأخرجت ولدي جحدني ، فقال سليمان للذكر : ما تقول ؟ فقال يا نبي الله إنها لاتمتنع من الطي وهير :

نحوم في البراري ، فلا أدري هل هومني أو من غيري ؟ قال : فأمر سليمان بولدها فجيء به ، فوجد الشبه واحد فألقه بالذكر ، ثم قال لها لا تمكنيه من السفاد حتى تشهدي عليه بذلك الطير بكا لصراخ فإنه لا يجحدك بعدها أبدا إلى يوم القيامة ، فهي إذا سفدها ذكرها صاحت وقالت : يا طيور سفدني ، اشهدوا معاشر الطيور اشهدوا . ثم خرج سهم العنقاء فتقدمت إليه ، فقال لها سليمان : ما قولك في القدر ؟ فقالت : يا نبي الله لي من القوة والاستطاعة ما أدفع الشر وأفعل الخير ، فقال لها سليمان : فأين الشرط الذي كان كان بيني وبينك ؟ زعمت أن تفرقين بقوتك واستطاعتك بين الجارية والغلام ، فقالت : قد فعلت ، قال سليمان : الله أكبر ، فأثبني بها الساعة والخلق شهود لأعلم صدق قولك ، ثم أمر عريف الطير أن يكون معها لا يفارقها حتى تأتي بها ، فمرت العنقاء حتى قربت من الجارية وكانت الجارية إذا قربت منها العنقاء تسمع حفيف أجنحتها فيبادر الغلام ويدخل جوف الفرس ، فلما رأتها البنت قالت لها كالفرزة : إن لك شأنا إذ رجعت من ساعتك ؟ قالت لها : إي لعمري ، إن لي شأنا ، هذا سليمان قد أمر باحضارك الساعة لأمر كان بيني وبينه في أمرك ، وإنني لأرجو نصرتي اليوم فيك : قالت لها ، كيف تحمليني ؟ قالت : على ظهري ، قالت : وهل أستقر على ظهرك وإني أرى أهوال البحر فلا آمن أن أزال فأسقط وأهلك . قالت : في منقاري ؟ قالت : فكيف أصبر في منقارك ؟ قالت لها : وكيف أصنع ولا بد لي من إحضارك عند سليمان وهذا عريف الطير معي وقد دعا بكفيلتي البومة . فقالت لها : أدخل في جوف هذا الفرس ثم ترفعيه على ظهرك أو في منقارك ، فلا أرى شيئا ولا أسقط ولا أفزع من شيء ، قالت أصبت . قال : فدخلت جوف الفرس واجتمعت مع الغلام ، وحملت العنقاء الفرس في منقارها وطارت حتى وضعت الفرس بين يدي سليمان عليه السلام ، فقالت يا نبي الله هي الآن في جوف الفرس ، فأين الغلام ؟ فتبسم سليمان طويلا ثم قال لها : تؤمنين بقضاء الله وقدره ، وأنه لا حيلة لأحد في دفع قضائه وقدره وعلمه السابق لكائن من خير وشر ، فقالت : أومن بالله وأقول إن المشيئة إلى العباد والقوة ، فمن شاء ليفعل خيرا أو شرا ؟ قال سليمان : كذبت ما جعل الله من المشيئة للعباد شيئا ، ولكن من شاء الله أن يكون سعيدا كان سعيدا ، ومن شاء أن يكون كافرا كان كافرا ، ولا يقدر أحد أن يدفع قضاء الله وقدره بحيلة لا بفعل ولا بعلم ، وإن الغلام الذي قد ولد بالمغرب مع الجارية التي ولدت بالمشرق ، قد اجتمعا الآن في مكان واحد على سفاح ، وقد حملت الجارية من الغلام بولد ، فقالت العنقاء : لا تقل يا نبي الله هذا ، فإن الجارية معي في جوف هذا الفرس ، فقال سليمان : الله أكبر أين البومة المتكفلة بالعنقاء ؟ قالت : ها أنا يا نبي الله ، قال سليمان : أنت على مثل قول العنقاء ؟ قالت نعم ، فقال سليمان : قدر الله السابق بل الخلق أخرجهما على قضائه ومشيتته ، قال : فأمر البومة ففتحت جوف الفرس وأخرجتهما

جميعا من جوف الفرس . فاما العنقاء ففرغت وذهبت وطارَت في السماء ، فأخذت نحو المغرب
واختضت في بحر من بحاره وآمنت بالقدر ، وحلفت لا تنظر في وجه طير أبدا استحياء منه .
وأما البومة فانها لزمَت الآجام والجبال وقالت : أما بالنهار فلا خروج لي ولا سبيل إلى المعاش
فهى إذا خرجت نهارا وبحتها الطير واجتمعت عليها وقالت لها يا قدرية فهى تخضع لهذا ،
وهذا ما كان من شأن العنقاء والبومة في القضاء والقدر ، والله أعلم بالغيب .

ومنها تخصيص الله تعالى سليمان عليه السلام بالخيل الجياد العراب التي أخرجها له من
البحر في قول أكثر أهل الأثر ، قال الله : تعالى (إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ
الْجِيَادُ) والصفائات : الخيل القائمت على ثلاث قوائم ، وقد أقامت الأخرى على طرف
الحافر من يد أو رجل . والجياد : السراع . قال الحسن : بلغنى أنها كانت خيلا خرجت
من البحر لها أجنحة . وقال الكلبي : غزا سليمان أهل نصيبين فأصاب منهم ألف فرس .
وقال مقاتل : ورث سليمان من أبيه داود ألف فرس ، وكان أبوه أصابها من العمالقة ،
قالوا : فصلى سليمان صلاة الظهر وقعد على كرسيه ، فعرض عليه منها تسع مئة ، فاشتغل
بحسبها وكثرتها والإعجاب بها حتى غابت الشمس وفاته صلاة العصر ، ولم يعلمه أحد
بذلك هيبه له ، فاغتم لذلك وقال : ردوها على ، فردوها فعرقها وعقرها بالسيف وقربها
إلى الله تعالى وبقي منها مئة فرس ، فما في أيدي الناس من الخيل العراب فهى من نسل
تلك المئة .

وقال كعب : كانت الأفراس أربعة عشر فأمر بضرب أعناقها وسوقها بالسيف
وقتلها ، فسلب الله ملكه أربعة عشر يوما لأنه ظلم الخيل بقتلها . قال الحسن : فلما عقر
الخيل لأجل الله تعالى أبدله الله تعالى مكانها خيرا منها وأسرع ، وهى الريح تجرى بأمره
رخاء كيف يشاء ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وكان يغدو من إيلياء فيقيل في إصطخر ،
ثم يروح منها فيبيت ببابل .

ويروى أن سليمان هار من أرض العراق غاديا فقال بمدينة مرو وصلى العصر بمدينة بلخ
تحمله الريح وتظله الطير بجيله وجنوده ، ثم سار من مدينة بلخ متخللا بلاد الترك ، ثم
جاوزها إلى أرض الصين ، ثم عطف يمينه على مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى
أرض الهند ، ثم خرج منها إلى مكران وكرمان ، ثم جاوزهما حتى أتى أرض فارس فنزلها
أياما ، ثم غدا منها فقال بكسركر ، ثم رجع إلى الشام وكان مستقره مدينة تدمر ، وكان قد
أمر الشياطين قبل خروجه من الشام إلى العراق أن يبنوا له تدمر ، فبنوها بالصفائح والعمد
والرخام الأبيض والأصفر ، وفي ذلك يقول الشاعر :

واذكر سليمان إذ قال للمليك له قم في البرية لأحددها عن الفئند
وجيش الجيوش إنى قد أبعث فم بناء تدمر بالأحجار والعمد

قال : ووجدت هذه الأبيات منقورة في صحرة بأرض كسكر أنشأها بعض أصحاب سليمان بن داود عليهما السلام :

ونحن ولا حول سوى حول ربنا
إذا نحن رحنا كان أمر رواحنا
أناس سروا والله طوع نفوسهم
هم في معالي الدين فضل ورافة
متى ركبوا الريح المطيعة أسرع
نظللهم طير صفوفا عليهم
نروح إلى الأوطان من أرض تدمر
مسيرة شهر والغدو لآخر
لنصرة دين للنبي المطهر
وإن نسبوا يوماً فمن خير عشر
مبادرة عن شهرها لم تقصر
متى رفرفت من فوقهم لم تفسر

رجعنا إلى القصة ، وقال قوم من العلماء : معنى قوله تعالى (فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) حبسها في سبيل الله وكوى سوقها بميسم الصدقة . وقال الزهري : مسح سوقها وأعناقها من الغبار . قال : وهي رواية الواقدي عن ابن عباس قال : وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم إن الله أمر الملائكة الموكلين بالشمس حتى ردوها على سليمان وصلى العصر في وقتها .

حدثنا أبو عبد الله عقيل الأنصاري بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَخْلُقَ الْخَيْلَ قَالَ لِلرِّيحِ الْغَنُوبِ إِنِّي خَالِقٌ مِنْكَ خَلْقًا فَأَجْعَلُهُ عِزًّا لِأَوْلِيَائِي وَمَذَلَّةً لِأَعْدَائِي وَجَمَالًا لِأَهْلِ طَاعَتِي ، فَقَالَتِ الرِّيحُ : إلهي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ إِنِّي مُطِيعَةٌ فَقَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً فَخَلَقَ فَرَسًا ، وَقَالَ لَهُ : خَلَقْتُكَ عَرَبِيًّا وَجَعَلْتُ الْخَيْرَ مَعْقُودًا بِنَاصِيَتِكَ وَالْغَنَائِمَ مَجْمُوعَةً عَلَى ظَهْرِكَ ، وَعَطَفْتُ عَلَيْكَ صَاحِبِيكَ ، وَجَعَلْتُكَ تَطِيرُ بِلَا جَنَاحٍ ، فَأَنْتَ لِلطَّلَبِ وَأَنْتَ لِلهَرَبِ ، وَسَأَجْعَلُ عَلَى ظَهْرِكَ رِجَالًا يَسْبِحُونَنِي وَيُحْمَدُونَنِي وَيَكْبُرُونَنِي ، فَتُسَبِّحُنِي إِذَا سَبَّحُوا وَتَهْلِكُنِي إِذَا هَلَكُوا وَتَكْبُرُنِي إِذَا كَبَرُوا » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ تَسْبِيحَةٍ وَتَحْمِيدَةٍ وَتَمْجِيدَةٍ وَتَكْبِيرَةٍ يَكْبُرُهَا صَاحِبُهَا فَتَسْمَعُهَا إِلَّا تُجِيبُهُ بِمِثْلِهَا » . قال : فلما سمعت الملائكة صفها ونظروا خلقها قالوا : ربنا نحن ملائكتك نسبحك ونحمدك فماذا لنا ؟ فخلق الله لهم خيلاً بُلُغًا أعناقها كأعناق البُخْتِ . فلما أرسل الله الفرس إلى الأرض واستوت قدماه عليها صهل ، فقيل له : بوركت من دابة إذ بصهيك أذل الله المشركين وأذل بك أعناقهم ، وملا بك آذانهم ، وأرعب بك قلوبهم . فلما عرض الله تعالى على آدم من كل شيء قال له : اختر من خلقى ما شئت ، فاختر الفرس ، فقيل له : اخترت عزك وعز ولدك خالدا ما خللوا وبقايا ما بقوا بركتي عليك وعليهم ، ما خلقت خلقاً أحب إلى منك ومنهم .

ومنها قوله تعالى (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ) أذبنا له عين النحاس أسيت ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكانت بأرض اليمن ، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أخرجه الله لسليمان عليه السلام . ومنها تسخير الله تعالى له الجن والإنس والطير والوحوش والشياطين يعملون له ما يشاء كما قال الله تعالى (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَبْزِغْ مِنْهُمْ عَنَّا مِرْنَا نُدِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ) وذلك أن الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه ضربة أحرقتة ، فما عملت له الشياطين بأمره وأحدثوه له : الحمامات والطواحين والقوارير والصابون وأشياء كثيرة ، واحتفروا له نهر الملك وألقوا ترابه بين خانقين وقصر شيرين ، ومما عملوا له الغياصة كما قال الله تعالى (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغْوِصُونَ لَهُ) الآية ، وقال تعالى (وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَّاصٍ) وكانوا يغوصون في البحار ويستخرجون أنواع اللآلي والدر والمرجان ومائت الجواهر البحرية ، وكانوا يستخرجون له اليواقيت والزمرد وأنواع الجواهر الثمينة من المعادن وهم أول من فعل ذلك .

حديث القبة

قال وهب بن منبه : بينما سليمان عليه السلام على ساحل البحر والريح من تحته والإنس عن يمينه والجن عن شماله والطير تظله ، إذ نظر إلى عظم أمواج البحر ، فدعته نفسه أن يعلم ما في قعر البحر ، فأمر للريح فسكنت من تحته ، ثم قعد على كرسى ملكه ، ثم دعا رأس الغواصين فقال له : اختر لي من أصحابك مئة رجل ، فاختر له مئة رجل ، فقال له : اختر لي من المئمة ثلاثين ، فاختر له ثلاثين ، فقال : اختر لي من الثلاثين عشرة ، فاختر له عشرة ، فقال : اختر لي من العشرة ثلاثة ، فاختر له ثلاثة ، فقال لواحد منهم : غص حتى تنظر إلى قعر البحر وتأتيني بالخبر ، فقال له سمعا وطاعة لك يا نبي الله ، فغاص البحر وأبعد ثم خرج ، فقال له سليمان : ما الذي رأيت ؟ قال : يا نبي الله ما رأيت إلا أمواجا وحيثانا ، غير أني رأيت ملكا عظيما ، فقال : أين تريد ، فقلت له : إن نبي الله سليمان أرسلني أنظر له قعر هذا البحر ، فقال : ارجع إليه فاقرا عليه مني السلام وقل له : إن قوما ركبوا هذا البحر منذ أربعين عاما ، فعاب عليهم مركبهم فخرجوا يصلحونه ، فسقط من أحدهم قدوم فهو يتجلجل في البحر ولم يبلغ قعره بعد ، فرجع إليه وأخبره بالخبر ، فتعجب نبي الله سليمان عليه السلام من ذلك ، ولها عما كان قصد . قال : فبينما هو على شاطئ البحر ، إذ رأى قبة من زجاج تضرئها الأمواج في لجة البحر فعارضها ، وقال للغواصين : غوصوا في أثرها ، فغاصوا فأخرجوها ، فلما وضعت القبة على ساحل البحر انفتح لها بابان بمصرعين ، وخرج من القبة شاب عليه ثياب أبيض من اللبن ، وكان رأسه تقطر ماء ، فجاء حتى وقف بين يدي سليمان ، فقال له سليمان : يا فتى من الجن أنت

أم من الإنس؟ قال: بل من الإنس، قال: فتعجب سليمان منه ومن ربه، ثم قال له: ما بلغ بك ما أرى، فقال: يا نبي الله كانت لي والدة وكنت من أبرز الناس بها، أطعمها وأسقيها بيدي، ولا أترك شيئاً من صنائع البر إلا صنعتها بها فلما حضرته الوفاة سألتها أن تدعولي فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: يا رب قد عرفت بر ولدي بي فارزقه العبادة في موضع لا يكون لإبليس وجنوده عليه سبيل، ثم ماتت فدفنتها، فخرجت يوماً إلى ساحل البحر، فإذا أنا بهذه القبة، فدعيتي نفسي أن أدخلها، فلما دخلتها انطبقت عليّ أبوابها وتزاحرت الأمواج بها وكان هذا آخر عهدى يا نبي الله. فقال له سليمان: فمن أين مطعمك ومشربك؟ فقال: يا نبي الله إذا كان الليل جاءني طائر أبيض في منقاره شيء أبيض فيدفعه إليّ فأأكله فهو يقيني من الطعام والشراب، فقال له سليمان: فمن أين تعرف الليل والنهار وأنت في ظلمة هذا البحر؟ قال: يا نبي الله في القبة خيطان: خيط أبيض وخيط أسود، فإذا رأيت الخيط الأبيض زائدا علمت أنه النهار، وإذا رأيت الخيط الأسود زائدا علمت أنه الليل، فقال له سليمان: هل لك في صحبتنا رغبة؟ قال: لا يا نبي الله، إن تشاء تأذن لي أن أعود إلى قبي، فأذن له، فانطلق ودخلها وانطبق عليه بابها وتزاحرت به الأمواج فكان آخر العهد به.

ومنها قوله تعالى (يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ) يقال إنها الحياض، كانت تسع الجفنة الواحدة طعام ألف رجل فيجتمعون عليها يأكلون بين يديه (وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ) ثابتات لاتزول، يسع القدر الواحد عشرة جزر.

قصة مدينة سليمان عليه السلام التي كان يسافر بها في الهواء

ومما عملوا له مدينة من قوارير عشرة آلاف ذراع في عشرة آلاف ذراع، فيها ألف سقفة، ما بين كل سقفة عشرة أذرع، في كل سقفة جميع ما يحتاج إليه من المساكن والقباب والمرافق؛ أسفلها أغلظ من الحديد، وأعلىها أرق من الماء، يرى من داخلها ما وراء خارجها من صفائه ونقاؤه، والشمس بالنهار والقمر بالليل، وعلى السقف الأعلى قبة بيضاء عليها علم أبيض يستضيء به في الليل الداجي العسكر كله، يتلأأ شعاعه مد الصر، وبها من الأركان ألف ركن على مناكب الشياطين، تحت كل ركن منها عشرة من الشياطين تسع سليمان وجنوده وحشمه وأولياءه علوا وسفلا تحملها الريح إلى حيث يشاء، وكانت تلك المدينة له مستقرا، يأكل ويشرب وينام ويتمتع بها، وفي أسفلها مرابط وإصطبلات وأواري وأواخي لحيله ودوابه. ومما عملوا له كرسي ملكه.

صفة كرسي سليمان عليه السلام

قال الله تعالى (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً) ثم أناب (يروى أن نبي الله سليمان

عليه السلام أمر الشياطين بأخذ كرمي يقعد عليه للقضاء ، وأمر أن يعمل بديعا مهولا بحيث لو رآه مبطل أو شاهد زور ارتدع وبهت ، قال : فعملوا له كرسيًا من أنياب الفيلة وفصصوه بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وأنواع الجواهر ، وحفوه بأربع نخلات من الذهب شاربونها الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، على رأس نخلتين منها طاوسان من ذهب ، وعلى رأس الأخيرتين نسران من ذهب بعضها مقابل بعض ، وجعلوا من جانب الكرسي أسدين من ذهب ، على رأس كل واحد منهما عمود من الزمرد الأخضر ، وقد عقدوا على النخلات أشجار الكرم من الذهب الأحمر ، واتخذوا عناقيدها من الياقوت الأحمر بحيث يظل عريش للكروم والنخل الكرسي ، قالو : وكان سليمان إذا أراد صعوده وضع قدمه على الدرجة السفلى ، فيستدير الكرسي ورجله فيها ، ويلتور دوران الرحي المسرعة ، وتنتشر تلك النور والطواويس أجنحتها ويبسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذناهما ، وكذلك يفعل في كل درجة يصعدها سليمان ، فإذا استوى بأعلاه أخذ النسران اللذان على النخلتين المسك والعنبر بفتانها عليه ، ثم تناول حمامة من ذهب قائمة على عمود من جوهر من أعمدة الكرسي التوراة ففتحتها لسليمان فيقرؤها على الناس ويدعوهم إلى فصل القضاء قال وتجلس عظماء بني إسرائيل على كراسي الذهب والفضة عن يساره ، وهي ألف كرسي حافين به جميعا ثم تظلمهم الطير وتتقدم الناس إليه للقضاء ، فإذا دعا بالبينات وتقدمت الشهود لإقامة الشهادات دار للكرسي بجميع ما فيه وما حوله دوران الرحي المسرعة قال معاوية لو هب بن منبه : ، الذي كان يدبر ذلك الكرسي ؟ قال : بلبان من ذهب وذلك الكرسي مما عمله صخر الجنى ، قالوا : فإذا دار الكرسي بسط الأسدان أيديهما ويضربان الأرض بأذناهما ، وينشر النسران والطاوسان أجنحتهما ، فتفرع منه الشهود ويدخلهم من ذلك رعب شديد فلا يشهدون إلا بالحق ، فهذا شأن كرسي سليمان عليه السلام وعجائب ما كان فيه . فلما توفي سليمان عاياه السلام بعث يختصر فأخذ ذلك الكرسي وحمله إلى أنطاكية ، فأراد أن يصعد عليه ولم يكن له علم بالصعود عليه ولا بأحواله ، فلما وضع قدمه على الدرجة السفلى رفع الأسد يده اليمنى فضرب ساقه ضربة شديدة دقها ورماه ، فحمل يختصر ، فلم يزل يعرج ويتوجع منها حتى مات ، وبقي الكرسي بأنطاكية حتى غزاهم ملك من الملوك يسمى كداش بن سداس ، فهزم خليفة يختصر ورد الكرسي إلى بيت المقدس ، فلم يستطع أحد من الملوك الجلوس عليه ولا الاستمتاع به ، فوضع تحت الصخرة فغاب ولم يعرف خبره ولا يدري أين هو ؟ والله أعلم .

ومنها بيت المقلس .

صفة بنيانه وبدء أمره

قال الله تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى

المَسْجِدِ الْأَقْصَى) ... الآية ، وقال تعالى (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) قبل بالمياه والأشجار والثمار ، وقيل إن كل ماء عذب يخرج من تحت أصل الصخرة التي بييت المقدس يهبط من السماء إليها ، ثم يتفرق في الأرض ، وذلك قوله تعالى (باركنا فيها للعالمين) .

وروى خالد بن معدان عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **صَخْرَةٌ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى نَخْلَةٍ مِنْ نَخِيلِ الْجَنَّةِ ، وَتِلْكَ النَّخْلَةُ عَلَى نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، عَلَى ذَلِكَ النَّهْرِ أَسِيَّةُ بِنْتُ مُزَاهِمٍ وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُنْظَمَانِ حُلِيَّ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .**

وأما بدء بناء بيت المقدس ، وصفة بنائه على ما ذكره أهل البصيرة بالسيرة هو أن الله تعالى بارك في نسل إبراهيم حتى جعلهم في الكثرة غاية لا يحصرون . فلما كان زمان داود عليه السلام لبث فيهم مدة مديدة بأرض فلسطين وهم يزدادون كل يوم كثرة ، فأعجب داود بكثرتهم ، وأراد أن يعلم عدد بني إسرائيل كم هم ، فأمر بعدتهم وبعث بذلك عرفاء ونقباء ، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما يبلغ من عددهم ، فكانوا يعدون زمانا من الدهر حتى عجزوا ، فبعث الله جبريل عليه السلام وأوحى إليه : يا داود قد علمت أنى وعدت أباك إبراهيم يوم أمرته بذبح ولده فصبر وأتم أمرى بأن أبارك له في ذريته حتى يصيروا بعدد نجوم السماء ، وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم ، فأردت أن تعلم عددهم ، إنه لا يحصى عددهم غيرى ، وإنى قد أقسمت لأبتليهم ببليّة يقلّ منها عددهم ويذهب عنك إعجابك بهم وبكثرتهم ، فاخترتوا إما أن أبتليكم بالجوع والقحط ثلاث سنين ، أو أسلط عليكم عدوكم ثلاثة أشهر أو الموت ثلاثة أيام ، فجمع داود بنى إسرائيل وأخبرهم بما أوحى الله تعالى إليه وخبرهم فيه ، فقالوا : أنت أعلم بما هو أيسر لنا وأنت نبينا فانظر لنا ، غير أن الجوع لا صبر لنا عليه ، وتسليط العدو أمر فاضح ، فإن كان ولا بد فالموت ، لأنه بيده لا بيد غيره ، فأمرهم داود أن يتجهزوا للموت ، فاغتسلوا وتحنطوا ولبسوا الأكفان وبرزوا إلى صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد بالذراري والأهلين ، وأمرهم أن يرضعوا إلى الله تعالى ويتضرعوا إليه لعله أن يرحمهم ، فأرسل الله إليهم الطاعون ، فأهلك منهم في يوم وليلة ألوف كثيرة لا يدرى عددهم ولم يفرغوا من دفنهم إلا بعد موتهم بشهر . فلما أصبحوا في اليوم الثاني خثر داود عليه السلام ساجدا لله تعالى يبتهل إلى الله تعالى ويقول : يا رب أنا آكل الخبز الحامض وبنو إسرائيل يضرسون : يعنى أذنبت وبنو إسرائيل يعاقبون ، فما كان من شيء ففى أنزله واعف عن بنى إسرائيل ، فاستجاب الله دعاءه وكشف عنهم الطاعون ورفع عنهم الموت ، فرأى داود عاياه السلام الملائكة سالين سيوفهم فحمدوها وارتقوا في سلم من ذهب في صخرة بيت المقدس إلى السماء ، فقال داود لبنى إسرائيل : إن الله تعالى قد منّ عليكم ورحمكم

فجددوا له شكرا ، قالوا : فكيف تأمرنا ؟ قال : أمركم أن تتخذوا في هذا الصعيد الذي
 رحمكم الله فيه مسجدا لا يزال فيه منكم ومن بعدكم ذاكر لله تعالى ، فأخذ داود في بنائه ،
 فلما أرادوا أن يبتدئوا بالبناء جاء رجل صالح فقير يختبرهم ليعلم كيف إخلاصهم في بنائهم ،
 فقال لبي إسرائيل : إن لي فيه موضعا أنا محتاج إليه ، ولا يحل لكم أن تحجبوني عن حق ،
 فقالوا : يا هذا ما من أحد من بني إسرائيل إلا وله في هذا الصعيد حق مثل حقلك ، فلا
 نكن أبخل الناس ولا تضايقنا فيه ، فقال : أنا أعرف حقى وأنتم لاتعرفون حقكم ، فقالوا
 له : أما ترضى وتطيب نفسك وإلا أخذناه منك كرها ؟ فقال لهم : أتجدون هذا في حكم
 الله وحكم داود ؟ قال : فرغ خبره إلى داود عليه السلام ، فقال : أرضوه ، فقالوا :
 بكم نأخذه منه يا نبي الله ، قال : خذوه بمئة شاة ، فقال الرجل : زدنى يا نبي الله ،
 قال داود : خذوه بمئة بقرة ، قال : زدنى ، قال : بمئة بعير ، قال : زدنى يا نبي
 الله فلما تشريه لله تعالى والله كريم لا يبخل ، فقال داود : حيث قلت هذا فاحتكم
 أعطك ، قال : تشريه بحائط مثله زيتونا ونخلا وعنبا ؟ قال نعم ، فقال الرجل : أنت
 تشريه لله تعالى فلا تبخل ، قال : سل ماشئت ، قال : أنت أكرم على الله منى ولكن
 ابن لي حوله جدارا مشرفا ثم تملؤه ذهبا وإن شئت ورقا ، قال داود : هذا هين ، فالتفت
 الرجل إلى بني إسرائيل وقال لهم : هذا هو التائب المخلص ، ثم قال لداود : يا نبي الله لأن
 يغفر الله لي ذنبا واحدا أحب إلى من كل شيء وهبت لي ، ولكنى كنت أختبركم
 فجدوا في بناء بيت المقدس ، وكان ذلك فيما قبل لإحدى عشرة سنة مضت من ملك داود
 وكان داود ينقل الحجارة على ظهره ، وكذلك أخيار بني إسرائيل حتى رفعوه قامة وعجزوا ،
 فأوحى الله تعالى إليه أن هذا بيت مقدس وإنك رجل سفاك للدماء ولست ببانيه ، ولكن
 ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أسلمه من سفك للدماء وأقضى إتمامه على يديه ، ويكون
 صيته وذكره وأجره باقيا لك ، فصلوا فيه زمانا إلى أن توفى داود عليه السلام واستخلف
 سليمان ، فأمره الله تعالى بإتمام بيت المقدس ، فجمع سليمان الجن والإنس والشياطين ،
 وقسم عليهم الأعمال ، وخص كل طائفة بعمل يصلح لها ، وأرسل الجن والشياطين
 في تحصيل عمد الرخام والبلور الأبيض الصافي من معادنه ، وأمر ببناء المدينة بالرخام
 والصفائح ، وجعلها اثني عشر ربضا ، لكل ربض منها سبط من الأسباط ، وكانوا
 اثني عشر سبطا . فلما فرغ من بناء المدينة ابتداء في بناء المسجد ، فوجه الشياطين فرقا :
 فريق منهم يستخرجون الذهب والفضة والياقوت من معادنه ، وفريق يغوصون في البحر
 ويستخرجون أنواع الدر ، وفريق يقطعون أنواع الرخام ، وفريق يغوصون على الجواهر ،
 وفريق يأتون بالمسك والعنبر وأنواع الطيب من أماكنها ، فأتى بشيء من ذلك لا يحصيه إلا
 الله تعالى ، ثم إنه أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الحجارة وتنفيذها ألواحا وإصلاح

تلك الجواهر ونقشها ، فكانوا يعالجونها فتصوت صوتا شديدا لصلابتها ، فكره سليمان تلك الأصوات ، فدعا الجن وقال لهم : هل عندكم حيلة في نحت هذه الجواهر من غير تصويت فقالوا : يا نبي الله ليس في الجن أكثر تجارب ولا أكثر علما من صخر العفريت ، فأرسل إليه من يأتيك به ، فطبع سليمان بخاتمه طابعا ، وكان يطبع للشياطين بالنحاس ، ولسائر الجن بالحديد ، وكان إذا طبع بخاتمه لمع ذلك كالبرق الخاطف ، فكان لا يراه أحد من جن ولا شيطان إلا انقاد إليه بإذن الله تعالى ، فأرسل الطابع مع عشرة من الجن فأتوه به وهو في بعض جزائر البحر ، فأروه الطابع ، فلما نظر إليه كاد أن يصعق خوفا ، فأقبل مسرعا مع الرسل حتى دخل على سليمان ، فسأل سليمان رسله عما أحدث العفريت في طريقه ، فقالوا : يا نبي الله إنه كان يضحك في بعض الأحيان من الناس ، فقال له سليمان : ما رضيت بتمردك عليّ وترك المجيء إلى طاعتي حتى صرت تسخر من الناس ؟ فقال : يا نبي الله إني لست أسخر منهم غير أن ضحكى كان تعجبا مما كنت أسمع وأرى في طريقي ، فقال له سليمان : وما ذاك ؟ قال : مررت على شط نهر فوجدت رجلا ومعه بغلة يريد أن يسقيها ، وجرة يريد أن يستقي بها ، فسقى البغلة وملا الجرة ، ثم أراد أن يقضى حاجته فشد البغلة بأذن الجرة فنفرت البغلة وكسرت الجرة ، فضحكت من حمق الرجل حيث توهم أن الجرة تحبس البغلة : ومررت أيضا برجل آخر وهو جالس عند إسكاف يستعمله في إصلاح خف له ، فسمعته يشترط عليه أن يصلحه بحيث يبقى معه أربع سنين ونسى نزول ملك الموت إليه من قبله ، فضحكت من قلة عقله وجهله . ومررت بعجوز تتكهن وتخبر الناس بما لا يعلمون من أمور السماء ، وقد كنت عهدت رجلا دفن في موضع فراشها ذهب كثيرا في الدهور الخالية ، فرأيتها تموت جوعا وتحت رأسها ذهب كثير وهي لا تعلم بمكانه ، ثم تخبر الناس بأمر السماء ، فضحكت منها . ومررت برجل في بعض المدن وقد كان به داء فيما قبل ، فأكل البصل فبرأ من دائه فصار يطلب الناس وكان لا يأتيه أحد يسأله عن علة إلا أمره بأكل البصل ، وإنه لأضر شيء حتى إن ضرره يصل إلى الدماغ ، فضحكت منه . ومررت في بعض الأسواق فرأيت الثوم وهو أفضل الأدوية يكال كيلا ، ورأيت الفلفل وهو من السموم القاتلة يوزن وزنا ، فضحكت . ومررت بناس قد جلسوا يبهلون إلى الله ويسألونه الرحمة والمغفرة ، فل من منهم قوم وقاموا ، وجاء آخرون فجلسوا ، فرأيت الرحمة قد نزلت عليهم وأخطأت الذين كانوا من قبل وغشيت الذين جاءوا ، فضحكت تعجبا للقضاء والقدر : فقال له سليمان : هل علمت من كثرة تجاربك وجولانك في البحار شيئا ينحت لي هذه الجواهر فتلين ويسهل نحتها وثقبها بلا صوت ؟ قال : نعم يا نبي الله أعرف حجرا أبيض كاللبن يقال له السامور غير أني لأعرف معدنه الذي هو فيه ، وليس في الطير شيء أحيل ولا أهدى من العقاب ، فأمر بفراخه أن تجعل في صندوق من تلك الجواهر ، فإنه يأتي بذلك

الحجر فيضرب به الصندوق حتى يثقبه ليصل إلى أولاده . قال : فأمر سليمان بفراخ العقاب أن تضم في صندوق من حجر منها يوما وليلة ، فخرجت عن أفراخه ، فر مسرعا وجاء بالحجر بعد يوم وليلة ، فثقب به الصندوق حتى وصل إلى أفراخه ، فوجه سليمان مع العقاب نفرا من الجن حتى أتوه منه بقدر ما علم أن فيه الكفاية ، واستعمل ذلك في أدوات الصناعات فسهل عليهم نحتها من غير صوت ، وهو حجر يستعمل في نقش الخواتيم وثقب الجواهر إلى اليوم ، وهو ثمين عزيز . قالوا : فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر وعمده من المها الصافي ، وسقفه بألواح الجواهر الثمينة وفصص سقفه وحيطانه بالآلات واليواقيت وأنواع الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفيروزج ، فلم يكن يوجد يومئذ في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد ، وكان يضيء في الليل كالقمر في ليلة البدر . فلما فرغ منه جمع إليه أحبار بني إسرائيل وأعلمهم أنه بناه لله تعالى وكل شيء منه خالص لله تعالى ، واتخذ ذلك اليوم الذي فرغ منه عيدا لم يتخذ في الأرض قط أعظم عيد من ذلك اليوم ولا أطعمة أكثر منه ، فذبح فيه من الجزر ألف جزور ، ومن البقر خمسة وعشرين ألفا مطوفة ، ومن الغنم أربع مئة ألف شاة . قالوا : ومن عجائب ما اتخذ سليمان بيت المقدس أنه بنى بيتا وطين حائطه بالحصص وصقله ، فكان إذا دخله البار استبان خياله في ذلك الحائط أبيض ، وإذا دخله القاجر استبان خياله في ذلك الحائط أسود ، فارتدع من ذلك كثير من الناس عن الفجور والحيانة ، ونصب في زاوية من زوايا المسجد عصا آبنوس ، فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم يضره منها شيء ، ومن مسها من غيرهم احترقت يده .

فلما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس قرب قربانا على الصخرة ثم قال : اللهم أنت وهبت لي هذا للملك متنا منك على ، وجعلتني خليفتك على أرضك ، وأكرمتني به من قبل أن أكون شيئا ، فلك الحمد ؛ اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خصالا : أن لا يدخله أحد يصلي فيه ركعتين مخلصا فيهما إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؛ ولا يدخله مذنب إلا ثبت عليه ، ولا خائف إلا أمنتته ، ولا سقيم إلا شفيته ، ولا مجذب إلا أخصبته . وأغنيته ؛ وإذا أجبت دعوتي وأعطيتني طلبتي فاجعل علامته أن تتقبل قرباني . قال : فنزلت نار من السماء فسدت ما بين الخافقين ، ثم امتد منها عنق فاحتل القربان وصعد به إلى السماء . وكان بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام إلى أن غزا بختنصر بنى إسرائيل ، فخرّب بيت المقدس وألقى فيه الجيف وكبسه بالتراب ، ونقل جميع ما فيه من الذهب والفضة والجواهر والآنية إلى أرض بابل ، وكان بيت المقدس خرابا إلى أن بناه المسلمون في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأمره ، والله أعلم .

باب قصة بلقيس ملكة سبأ والهدهد وما يتصل به

قال الله تعالى (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)
 الآية . قالت العلماء بأخبار القدماء : إن نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من
 بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم ، فتجهز للمسير واصطحب معه من
 الناس والجن والشياطين والطيور والوحش ما بلغ عسكره مائة فرسخ ، وأمر الريح الرخاء
 فحملتهم ؛ فلما وافوا الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وقرب القرابين وقضى المناسك ،
 وبشر أهله بخروج نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأخبرهم أنه سيد الأنبياء وخاتم النبيين
 وأن ذلك مثبت في زبورهم . ثم أحب أن يسير إلى أرض اليمن ، فخرج من مكة صباحا
 وسار نحو اليمن يؤم نجم سهيل ، فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضا
 بيضاء حسنة ترهو بخضرتها ، فأحب النزول بها ليصلى ويتغدى ، فطلبوا الماء فلم يجدوه ،
 وكان الهدهد دليلا ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده ، فينقر
 الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه ، ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسليخ الإهاب
 يستخرجون الماء . قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث قال له نافع بن
 الأزرق كيف يبصر الماء من تحت الأرض ولا يبصر الفخ إذا غطى له بقدر أصبع من
 تراب ؟ قال : ويحك إذا جاء القدر عمى البصر . وروى قتادة عن أنس بن مالك قال :
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنهَاكُمْ عَنْ قَتْلِ الْهُدْهُدِ فَإِنَّهُ كَانَ دَلِيلَ
 سُلَيْمَانَ عَلَى الْمَاءِ » فطلب سليمان الهدهد فلم يجده ، فتوعده . ثم إن الهدهد لما جاء قال
 (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ) الآية . وذلك أنه
 لما نزل سليمان قال الهدهد في نفسه : إن سليمان قد اشتغل بالنزول ، فارتفع إلى نحو السماء
 ونظر إلى طول الدنيا وعرضها ، ونظر يمينا وشمالا ، فرأى بستان بلقيس ، فقال إلى الحضرة
 فوق فيها ، فإذا هو بهدهد اليمن فهبط عليه ، وكان اسم هدهد سليمان يعفور ، واسم
 هدهد اليمن عفير ، فقال عفير ليعفور : من أين أقبلت وإلى أين تريد ؟ قال : أقبلت
 من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام ، فقال له الهدهد : ومن سليمان بن داود ؟
 قال : ملك الجن والإنس والشياطين والوحوش والرياح ، فمن أين أنت ؟ قال : أنا من
 هذه البلاد ، قال : ومن ملكها ؟ قال : امرأة ، قال : فما اسمها ؟ قال : يقال لها بلقيس ،
 وإن لصاحبكم سليمان ملكا عظيما ، ولكن ليس ملك بلقيس دونه ، فإنها ملكة اليمن كله ،
 وتحت يدها اثنا عشر ألف قبيل ، مع كل قبيل مئة ألف مقاتل ، والقبيل : هو القائد بلغة
 أهل اليمن ، فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها ، قال : فلإني أخاف أن يتفقدني
 سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء ، فقال له الهدهد اليماني : إن صاحبك ليسره أن
 تأتيه بنجر هذه الملكة ، فانطلق معه حتى أتى بلقيس ونظر ملكها ، وما رجع إلى سليمان إلا

وقت العصر . قال : فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت صلاة العصر طلب الهدهد ، وذلك أنه نزل على غير ماء ، فسأل الإنس عن الماء ، فقالوا لانعلم ههنا ماء ، فسأل الجن والشياطين ، فقالوا لانعلم ، فتفقد عند ذلك الهدهد ، فلم يجده فتوعده .

قال ابن عباس في بعض الروايات عنه : وقعت قطعة من الشمس على رأس سليمان ، فنظر فإذا موضع الهدهد خال ، فدعا عريف الطير وهو النسر ، فسأله عن الهدهد فقال :

(لَأُعَذِّبَنَّهٗ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهٗ) . واختلف العلماء في العذاب الشديد ما هو؟ فقال أكثر المفسرين : كان عذابه أن ينتف ريشه وذنبه ويدعه ممعطا ثم يلقيه في بيت النمل فتلدغه . وقال الضحاک : لأنتفنه ولأشدن رجليه ولأشمسنه . وقال مقاتل : لأطليه بالقطران ولأشمسنه ؛ وقيل لأودعنه القفص ، وقيل لأفرقن بينه وبين إلهه ؛ وقيل لأمنعنه من خدمتي (أو لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مَّبِينٍ) أي حجة واضحة .

وروى عكرمة عن ابن عباس قال : كل سلطان في القرآن حجة . قال : ثم دعا العقاب

سيد الطيور ، فقال له : على بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى التصق بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصة بين يدي أحدكم ، فنظر يمينا وشمالا ، فإذا هو بالهدهد

مقبلا من نحو اليمن ، فانقض العقاب نحوه يريد . فلما رأى الهدهد أن للعقاب يريد به سوء ناشده الله وقال : بحق الذي قوأك وأقدرك على إلا رحمتي ولا تتعرض لي بسوء . قال :

فولي العقاب عنه وقال له : ويلك ثكلتك أمك ، إن نبي الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ، ثم طارا متوجهين نحو سليمان . فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاهم النسر والطير كله

وقالوا له : أين غبت في يومك هذا ؟ فلقد توعدك نبي الله سليمان ، وأخبروه بما قال ، فقال الهدهد : وما استثنى نبي الله ؟ قالوا بلى إنه قال (أو ليأتيني بسلطان مبین) فطار

الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه ، فقال العقاب : قد أتيتك به يا نبي الله ، فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض

تواضعا لسليمان ، فدس سليمان يده إلى رأسه فجذها رذال : أين كنت لأعذبك عذابا شديدا ، فقال له الهدهد : يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله ، فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفاه عنه .

أخبرني الحسين بن محمد الثقفي باسناده عن عكرمة قال : إنما صرف سليمان عن ذبح الهدهد بره بوالديه ، ثم سأله : ما الذي أبطأك عنى ؟ قال الهدهد : ما أخبر الله به (أحطنت

بما لم تحط به) أي علمت ما لم تعلم به (وجيئتك من سبأ نبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء) واسمها بلقيس بنت البشير وهو الهدهاد .

وقيل هي بلعمة بنت شراحيل بن ذي جدن بن البشير بن الحارث بن قيس بن صنعاء بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وكان أبو بلقيس الذي يسمى البشير ويلقب بالهدهاد

ملكا عظيم الشأن ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان يقول للملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفوًا لي ، وأبي أن يتزوج منهم ، فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريمحانة بنت الشكر ، وكانت الانس إذ ذاك ترى الجن وتخالطهم ، فولدت له بلعمة وهي بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها. وتصديق هذا ما أخبر به ابن ميمونة بإسناده عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كان أحد أبوي بلقيس جنياً » قالوا : فلما مات أبو بلقيس ولم يخلف ولداً غيرها ، طمعت في الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون ، فاختاروا عليها رجلاً فلكوه عليهم وافترقوا فرقتين ، كل فرقة منهم استولت على طرف من أرض اليمن ، ثم إن هذا الرجل الذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته يفجر بهن ، فأراد أصحابه خلعه فلم يقدرُوا عليه ، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة ، فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه فأجابها الملك إلى ذلك وقال : ما معنى أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك ، فقالت لا أرغب عندك فإنك كفوٌ كريم فاجمع رجالى وقومى واخطبني منهم ، فجمعهم وخطبها منهم ، فقالوا : لا نراها تفعل هذا ، فقال : إنما هي التي ابتدأتني وإني أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها ، فلما جاءوها وذكروا لها ذلك قالت : نعم إني أحببت الولد ولم أجبه منذ كنت أرغب عن هذا والساعة قد رضيت له فزوجوها منه ، فلما زفت إليه خرجت في أناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصت منازلهم ودوره بهم ، فلما جاءته سقته الحمر حتى سكر ثم حزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها . فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب داره علموا أن تلك المناكحة كانت مكرًا وخديعة منها ، فاجتمعوا إليها وقالوا لها : أنت أحق بهذا الملك من غيرك ، فقالت : لولا العار والندم ما قتلته ، ولكن رأيت قد عم فساده فأخذتني الحمية ففعلت به ما فعلت ، فلكوها واستثبت أمرها في المملكة . وروى ابن ميمونة بإسناده عن الحسن بن علي عن أبي بكر قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لا يُفْلِحُ قَوْمٌ وَكَلُوا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً » قالوا : فلما ملكت بلقيس اتخذت قصرًا وعرشًا .

صفة القصر الذي بنته بلقيس

قال الشعبي : روى أن بلقيس لما ملكت أمرت ببناء قصر ، فحمل إليها خمس مئة أسطوانة من رخام ، طول كل أسطوانة خمسون ذراعًا ، فأمرت بها فنصبت على تل قريب من مدينة صنعاء ، وجعلت بين كل أسطوانتين عشرة أذرع ، ثم جعلت فيها سقفًا منظومة ، بألواح الرخام وألحم بعضها إلى بعض بالرصاص حتى صارت كأنها لوح واحد ، ثم بنت فوق ذلك قصرًا مربعًا من آجرٍ وجصٍّ ، في كل زاوية من زواياه قبة من ذهب مشرفة في الهواء ، وفيها بين ذلك مجالس حيطانها من ذلك وفضة مرصعة بألوان الجواهر

المربعة ، وجعلت فيه : أى فى باب ذلك القصر مما يلى المدينة برجا من الرخام الأبيض والأخضر والأحمر ، فى جوانبه حُجَرٌ لحجابها ونوابها وحراسها وخدمها وحشمها على قدر مراتبهم .

صفة عرشها

كان مقدمه من ذهب ، مفصص باليواقيت الحمر والزمرد الأخضر ، ومؤخره من فضة مكلل بألوان الجواهر ، وله أربع قوائم : قائمة من ياقوت أحمر ، وقائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من زمرد أخضر ، وقائمة من درّ أصفر ، وصفائح السرير من الذهب وعليه سبعون بيتا ، وعلى كل بيت باب مغلق ، وكان طوله ثمانين ذراعا فى ثمانين ذراعا فى الهواء ، فذلك قوله عز وجل (وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أى مما تحتاج إليه فى الملك من الآلة والعدة (ولها عرشٌ عظيمٌ) أى سرير ضخم حسن (وجَدُّتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) وذلك أنها قالت لوزرائها : ما كان يعبد آباؤى الماضون ؟ قالوا : كانوا يعبدون إله السماء ، قالت : وأين هو ؟ قالوا : هو فى السماء وعلمه فى الأرض ، قالت : فكيف أعبده وأنا لأأراه ، ولست أعرف شيئا أشد من نور الشمس ، فهى أولى ما ينبغى لنا عبادته ، فعبدت الشمس من دون الله تعالى وحملت قومها على عبادتها ، وكانوا يسجدون لها إذا طلعت وإذا غربت .

قال : فلما قال ذلك الهدهد لسليمان ، قال له سليمان (سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الكاذِبِينَ) ثم إن الهدهد دلّهم على الماء ، فاحتفروا الركابيا وهى الآبار التى لم تطو يبطن كل واد ، فروى الناس والدواب وكانوا قد عطشوا .

ثم كتب سليمان كتابا : من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ ، بسم الله الرحمن الرحيم (السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى) أما بعد (أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَىَّ وَاتُّوْنِي مُسْلِمِينَ) .

قال ابن جريج وغيره : ولم يزد سليمان على ما قصّ الله تعالى فى كتابه شيئا ، وكان أبلغ الناس فى كتابه وأقله إملاء . وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يكتبون جملا ولا يطيلون كتابا ولا يكثرون . قالوا : فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَالْقِيهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) وكن قريبا منهم (فانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) أى يردون من الجواب . فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس ، وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام ، فوافاها فى قصرها وقد غلقت الأبواب ، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها ومضت إلى فراشها ، فأتاها الهدهد وهى نائمة مستلقية على ظهرها ، فألقى الكتاب على نحرها ، هذا قول قتادة . وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره وطار حتى وقف على رأس المرأة ،

فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت المرأة رأسها ، فألقى الكتاب في حجرها . وقال وهب بن منبه : كانت لها كوة : يعنى طاقة مستقبله للشمس تقع الشمس فيها حين تطلع ، فإذا نظرت إليها سجدت لها ، فجاء الهدهد إلى تلك الكوة فسدّها بجناحيه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فاستبطأت الشمس فقامت تنظرها ، فرمى الصحيفة في وجهها . قالوا : فأخذت بلقىس الكتاب ، وكانت قارئة كاتبة عربية من قوم تبع بن شراحيل الحميرى ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، لأن ملك سليمان كان في خاتمه ، وعرفت أن الذى أرسل هذا الكتاب هو أعظم ملكا منها ، وقالت : إن ملكا تكون رمله الطير لملك عظيم ، فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد . ثم إنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملائ من قومها ، وهم اثنا عشر ألف قبيل . تحت يد كل قبيل منهم مئة ألف مقاتل ، وكانت تكلمهم من وراء الحجاب ، فإذا حزّ بها أمر أسفرت عن وجهها . فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم قالت لهم بلقىس : (إني ألقى إلى كتاب كريم) أى شريف لشرف صاحبه . وقال الضحاك : سمته كريما لأنه كان محتوما يدل عليه ما أخبرني به أبو حامد الوراق بإسناده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كرم الكتاب ختمه » . وقيل : سمته كريما لأنه مصدر بيسم الله الرحمن الرحيم ، فذلك قوله تعالى (إنه من سليمان وإنه بيسم الله الرحمن الرحيم أن لاتعلوا على واثتوني مسلمين) . ثم قالت (يا أيها الملائ أفتوني فى أمرى) وأشيروا علىّ فيما عرض لى (ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون) أى تحضرون ، فقالوا مجيبين لها (نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) عند الحرب (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) تجدينا لأمرك طائعين . فقالت لهم بلقىس حين عرضوا أنفسهم للحرب (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أى أهانوا أشرافها وكبراءها لكى يستقيم لهم الأمر فصدق الله قولها فقال (وكذلك يفعلون) أنشدنى أبو القاسم الجنيد فى هذا المعنى قال : أنشدنى أبى فى معناه :

إن الملوك بلاء حينما حلّوا فلا يكن لك فى أكنافهم ظلّ
ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن مدحتهم خالوك تخدعهم واستثقلوك كما يستثقل الكلّ
فاستغن بالله عن أبوابهم كرما إن الوقوف على أبوابهم ذلّ

قال الله تعالى نجبرا عنها (وإني مرسلّة إليهم بهديّة) وذلك أن بلقىس كانت امرأة ليلية عاقلة ، قد ساست الملائ من قومها وجرّبت الأمر وساسته (إني مرسلّة إليهم) إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه عن ملكى وأخبره بها أملك أم نبى ؟ فإن بك ملكا قبل الهدية

وانصرف ، وإن يت نبيا لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا أن تتبعه على دينه . ثم إياها أهدت إليه ووصفاء ووصائف . قال ابن عباس : ألبستهم لباسا واحدا حتى لا يكون يعرف الذكر من الأنثى . وقال مجاهد : ألبست الغلمان لباس الجوارى ، وألبست الجوارى لباس الغلمان . واختلفوا في عددهم ، فقال الكلبي : عشرة جوار وعشرة غلمان . وقال مقاتل : مئة وصيف ومئة وصيفة . وقال مجاهد : مئتا غلام ومئتا جارية . وقال وهب : خمس مئة غلام وخمس مئة جارية ، وأرسلت إليه أيضا بصفائح الذهب ، واختلفوا في كيفية عددها . أخبرني ابن ميمونة بإسناده عن ثابت البناني في قوله تعالى (وإني مرسله إليهم بهدية) قال : أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج . فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن فوهوا له الآجر بالذهب ، ثم أمر به فألقى في الطريق في كل مكان . فلما جاء وا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان ، قالوا : قد جئنا نحمل شيئا نراه ههنا ملقى لا يلتفت إليه ، فصغر في أعينهم ما جاءوا به ، وقيل كانت أربع لبنات من ذهب .

وقال وهب بن منبه وغيره من أهل الكتب : عمدت بلقيس إلى خمس مئة جارية وخمس مئة غلام ، فألبست الجوارى لباس الغلمان الأقيية والمناطق . وألبست الغلمان لباس الجوارى ، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب ، وفي أعناقهم أطواقا من ذهب ، وفي آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر ، وحملت الجوارى على خمس مئة فرس ، والغلمان على خمس مئة برذون على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيتها من الديباج الملون ، وبعثت إليه أيضا خمس مئة لبنة من ذهب وخمس مئة لبنة من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع ، وأرسلت إليه أيضا بالمسك والعنبر والعود والألكنجوج ، وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزء خرزة مثقوبة معوجة الثقب ، ودعت رجلا من أشرف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجلا من قومها أصحاب وأى وعقل ، وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية ، وقالت في الكتاب : إن كنت نبيا فيز بين الوصائف والوصفاء ، وأخبرنا بما في الحقة قبل أن تفتحها ، واثقب الدرة ثقباً مستويا ، وأدخل خيطا في الخرزة . ثم أمرت بلقيس الغلمان فقالت لهم : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخيث يشبه كلام النساء ، وأمرت الجوارى أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم إنها قالت للرسول : انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه ، فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولتك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأته رجلا بشاشا لطيفا ، فاعلم أنه نبي مرسل ، فتفهم كلامه ورد الجواب : فانطلق الرسل بالهدايا . فلما رأى الهدد ذلك أقبل مسرعا إلى سليمان وأخبره بالخبر كله ، فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبنا من الذهب والفضة ، ففعلوا ذلك ؛ ثم أمرهم أن يبسطوا له من موضعه الذي هو فيه إلى سبع فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة ، وأن يجعلوا حول الميدان حيطانا مشرفة

من الذهب والفضة ، ففعلوا ذلك ؛ فقال لهم : أى الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر ؟ فقالوا : يا نبي الله إنا رأينا في بحر كذا دواب مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواصٍ ، فقال سليمان : علىّ بها الساعة ، فأتوه بها ، فقال : شدّوها عن يمين الميدان وعن يساره ، على لبنة الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفة فيها ، ثم قال للجنّ علىّ بأولادكم ، فاجتمع خلق كثير فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره ثم قعد سليمان في مجلسه على سريرته ووضع أربعة آلاف كرسيّ عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ ، وأمر الوحوش والسباع والهوامّ والطيور فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره ، فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت إليهم أنفسهم ورموا بما معهم من الهدايا .

وفي بعض الروايات أن سليمان عليه السلام لما أمر برش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا في طريقهم على قدر اللبنات التي معهم ، فلما رأت الرسل موضع اللبنات خاليا ، وكلّ الأرض مفروشة خافوا أن يتهموهم بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان . قال : فلما جاءوا إلى الميدان ورأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففرعوا منهم ، فقبل لهم : جوزوا فلا خوف عليكم . قال : فكانوا يمرون على كُرْدوس كردوس من الجن والإنس والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام ، فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجهه طلق وقال : ما وراءكم ؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به ، وأعطوه كتاب الملكة . فلما نظر إليه وقرأه قال لهم : أين الحقّة ؟ فأتى بها فحركها ، فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره بما في الحقّة ، فقال : إن فيها درة ثمينة بلا ثقب ، وخرزة مثقوبة معوجة الثقب ، فقال له الرسول : صدقت فاثقب الدرة وأدخّل الحيط في الخرزة ، فقال سليمان عليه السلام : من لي بثقبها ؟ فسأل الإنس فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثم سأل الجن فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثم سأل الشياطين فقالوا له : أرسل إلى الأرضة ، فأرسل إليها ، فلما أتت ، أخذت شعرة في فيها ومرت في الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : سلى حاجتك ، قالت : أن تصير رزقي في الشجر ، قال : لك ذلك ، ثم قال : من لهذه الخرزة يسلكها بالحيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبي الله ، فأخذت الدودة خيطا في فيها ودخلت الثقب فخرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ فقالت : أن تصير رزقي في الفواكه ، قال لها : لك ذلك . ثم إنه ميز بين الجوارى والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم ، فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله في اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه ، والغلام يأخذ من الإناء بيديه ويضرب به وجهه ، وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، وكانت

الجارية تصب الماء صبا ، وكان الغلام يحذر الماء على ساعده حدرا ، فبز بينهم بذلك . ثم رد سليمان الهدية كلها وقال (اَتَمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرًا مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِبَهْدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) لأنكم أهل المفاخرة والمكاثرة في الدنيا ولا تعرفون غير ذلك وليست الدنيا من حاجتي ، لأن الله تعالى قد مكنتني منها ، وأعطاني ما لم يعط أحدا من العالمين فيها ، ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أكرمني بالنبوة والحكمة ، ثم إنه قال للمنذر ابن عمرو أمير القوم (اَرْجِعْ إِلَيْهِمْ) بالهدية (فَلَمَّا تَبَيَّنَتْ لَهُمْ بِحُسْنُودٍ لَأَقْبِلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَتُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) إن لم يأتوني مسلمين .

قالوا : فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها ، قالت : والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة ، فبعثت إلى سليمان عليه السلام إلى قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ؟ ثم إن بلقيس أمرت بعرشها فجعلت في سبعة آيات بعضها داخل بعض في آخر قصر من قصورها ، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ، ثم إنها قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي ، فلا تخلص إليه أحدا ولا يراه حتى آتيك ، ثم إنها أمرت مناديا ينادي في أهل مملكتها ليؤذنهم بالرحيل ، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قبيل من ملوك اليمن ، تحت يد كل قبيل مئة ألف مقاتل . قال ابن عباس : وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا لا يبتدئ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه ، فخرج يوما فجلس على سرير ملكه ، فرأى رهجا قريبا منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس يا رسول الله ، قال : أو قد نزلت منا بهذا المكان ؟ قالوا : نعم .

قال ابن عباس : وكان ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ ، فأقبل سليمان على جنوده وقال (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) أي طائعين خاضعين . واختلف العلماء في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار العرش : فقال أكثرهم : لأن سليمان علم أنها إذا أسلمت حرم عليه ما لها ، فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها . وقال قتادة : لأنه أعجبه صفته لما وصفه الهدهد ، فأراد أن يراه قبل أن يراها . وقيل ليربها قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه في معجزة يأتي بها في عرشها (قال عَفْرِيَّتٌ مِنَ الْجِنِّ) وهو المارد القوي (أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ) أي مجلسك الذي تقضى فيه . قال ابن عباس : كان له غداة كل يوم مجلس يقضى فيه إلى نصف النهار . واختلفوا في اسمه . فقال وهب : إنه كودي ، وقال شعيب : إنه كوزان (وإني عليه لَقَوِيٌّ) أي قوي على حمله (أَمِينٌ) على ما فيه من الجواهر . فقال سليمان : أريد أسرع من هذا (تَمَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ) واختلفوا فيه ،

فقال بعضهم : هو جبريل عليه السلام ، وقال آخرون : ملك من الملائكة أيد الله به نبيه عليه السلام ، وقال آخرون : بل كان رجلا من بنى آدم . ثم اختلفوا فيه ، فقال أكثر المفسرين : هو آصف بن برخيا بن شمعياء بن ملكيا ، وكان صدقاً يقا يعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

أخبرنا ابن ميمونة بإسناده عن ابن عباس قال : إن آصف قال لسليمان حين صلى ودعا الله تعالى : مد عينيك حتى ينتهى طرفك . قال : فدس سليمان عينيه فنظر نحو الميمين ، فبعث الله الملائكة ، فحملوا السرير من تحت الأرض يخذون الأرض خذاً ، حتى انخرقت الأرض بالسرير فنبع بين يدي سليمان .

واختلف العلماء فى الدعاء الذى دعا به آصف بن برخيا عند الإتيان بالعرش ؛ فروى عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها أن الاسم الأعظم الذى دعا به آصف بن برخيا : يا حي يا قيوم . وروى عن الزهرى قال : دعاء الذى عنده علم من الكتاب : يا إلهنا وإله كل شىء إلهنا واحداً ، لا إله إلا أنت اتنى بعرشها . وقال مجاهد : يا ذا الجلال والإكرام .

حدثنا ابن ميمونة بإسناده عن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : الذى عنده علم من الكتاب رجل صالح ، وكان فى جزيرة من جزائر البحر ، فخرج ذلك اليوم ينظر مساكن الأرض ، وهل يعبد الله أو لا يعبد ؟ فوجد سليمان ، فدعا باسم من أسماء الله تعالى ، فإذا هو بالعرش قد حمل فأتى به سليمان عليه السلام من قبل أن يرتد إليه طرفه . وبإسناده عن مجاهد قال : حدثنا سهيل بن حرب قال : زعم بن أبى بردة أن اسم الذى عنده علم من الكتاب أسطوم . وقال قتادة : اسمه مليحاً . وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان أتاه الله علماً وفقهاً ، قال له عالم من بنى إسرائيل (أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك) فقال سليمان هات ، قال : أنت النبي ابن النبي وليس أحد عند الله أوجه منك ، فإن دعوت الله وطلبت منه كان عندك ، قال : صدقت ، ففعل ذلك فجاء بالعرش فى الوقت . فلما رأى سليمان العرش مستقراً عنده محمولاً إليه من مأرب إلى الشام فى قدر ارتداد الطرف ، وهومدة يسيرة (قال هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ؟ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) أى لم ينفع بذلك إلا نفسه حيث استوجب شكره لتمام النعمة ودوامها ، لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ) عن شكره (كَرِيمٌ) الإفضال عن يكفر نعمته . فقال سليمان عليه السلام (نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا) أى زيدوا فيه وانقصوا منه ، واجعلوا أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه (نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي) إلى عرشها فتعرفه (أَمْ تَكُونِ مِنَ الْجَاهِلِينَ) الذين لا يهتدون) إليه ، أراد أن يختبر عقلها . وإنما حمل سليمان على ذلك ما ذكره وهب بن منبه ومحمد بن كعب وغيرهما من أهل العلم أن الشياطين خافت أن يتزوجها

سليمان ويستولدها ، فتفتشى إليه أسرار الجن ، فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده ، فأرادوا أن يزهدوه فيها ، فأساءوا والثناء عليها وقالوا له : إن في عقلها شيئا ، وإن رجلها كحافر حمار ، فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتكبير عرشها ، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح . فلما جاءت بلقيس (قيل لها أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو) فشبهته به وكانت قد تركته خلفها في بيت عليه سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها ، فلم تقر بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها .

قال الحسين بن الفضل : شهبوا عليها فشبهت عليهم وأجابهم هلى حسب سؤالهم ، ولو قالوا لها : هذا عرشك ؟ لقالت نعم . فقال سليمان : (وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ) بابتلائها ومجيئها طائفة (مِنْ قَبْلِهَا) : أى من قبل مجيئها (وَكُنَّا مُسْمِلِينَ) طائعين خاضعين لله تعالى ، هذا قول مجاهد وغيره . وقال بعضهم : هو من قول بلقيس لما رأت عرشها عند سليمان قالت : قد عرفت هذا ، أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان عليه السلام بالآيات المتقدمة من قبلها : أى من قبل هذه الآية (وَكُنَّا مُسْمِلِينَ) أى متقادين لك مطيعين لأمرك من قبل أن جئناك ، فلما وافت سليمان عليه السلام (قيل لها ادخلى الصرح) وذلك أن سليمان لما أقبلت بلقيس تريده أمر الشياطين فبنوا له صرحا : أى قصرا من زجاج كأنه الماء بياضا ، وأجروا من تحت الماء ، وألقى فيه السمك ، ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس . وإنما أمر ببناء الصرح لأن الشياطين قال بعضهم لبعض : قد سخر الله لسليمان ما سخر ، وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد غلاما فلا تنفك من العبودية والسخرة أبدا ، فأرادوا أن يزهدوه فيها فقالوا : إن رجلها رجل حمار وإنها شعراء الساقين لأن أمها كانت جنية ، فأراد سليمان أن يعلم حقيقة ذلك وينظر قدميها وساقها فأمر ببناء الصرح .

وقال وهب بن منبه : إنما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها يعاينها بذلك كما فعلت هى بتوجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكر والأنثى ، فلما جاءت بلقيس (قيل لها ادخلى الصرح فلما رآته حسبتة بجنة) وهى معظم الماء (فكشفت عن ساقها) لتخوضه إلى سليمان ، فنظر سليمان عليه السلام : فإذا هى أحسن الناس ساقا وقدا ، إلا أنها كانت شعراء الساقين ، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها ونادىها (إنه صرح ممرد من قوارير) وليس بماء ، فلما جلست قالت له : يا سليمان إني أريد أن أسألك عن شيء ، قال سلى ، قالت : أسألك عن ماء ليس من الأرض ولا من السماء ، وكان سليمان إذا جاء شيء لا يعلمه سأل عنه الإنس ، فإن كان عندهم علم ذلك وإلا سأل الجن ، فان علموا وإلا سأل الشياطين ، فسأل الشياطين عن ذلك فقالوا : ما أهون ذلك ، أوامر بالخيال أن تجرى ثم املا الآنية من عرقها ، فقال لها سليمان : عرق الخيل ، فقالت صدقت ، ثم قالت : أخبرنى عن كون ربك ، فوثب سليمان عن سريره وخر

ساجدا صُعبوق ، ققامت عنه وتفرقت جنوده ، فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : يا سليمان يقول لك ربك ما شأنك ؟ قال : يا جبريل ربي أعلم بما قالت ، قال : فإن الله يأمرك أن تعود إلى سريرك فترسل إليها وإلى من حضرها من جنودك وجنودها ، فتسألها وتسالهم عما سألتك عنه ، ففعل ذلك سليمان ، فلما دخلوا عليه واستقروا قال لها : عماذا سألتيني ؟ قالت عن ماء ليس من أرض ولا من سماء ، فأجبت ، قال : وعن أى شيء سألتيني أيضا ؟ قالت ما سألتك عن شيء إلا هذا ، فسأل الجنود فقالوا مثل قولها ، وأنساهم الله تعالى ذلك ، وكفى الله سليمان الجواب . ثم إن سليمان دعاها إلى الإسلام ، وكانت قد رأت حال الهدهد والهدية والرسول والعرش والصرح ، فأجابت وقالت (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي - بالكفر - وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

واختلف العلماء في أمرها بعد الإسلام ، فقال أكثرهم : لما أسلمت بلقيس أراد سليمان أن يتزوجها ، فلما هم بذلك كره لما رأى من شدة كثرة شعر ساقها ، وقال : ما أقبح هذا ، فسأل الإنس عما يذهب ذلك ، فقالوا : الموسى ، فقالت المرأة : ما لمسنى حديد قط ، فكره سليمان الموسى ، وقال : إنها تقطع ساقها ، فسأل الجن فقالوا : لاندرى ، ثم سأل الشياطين فتنبكروا عليه ، وقالوا لاندرى ، فلما ألحَّ عليهم قالوا : نحن نختال لك عليه حتى يكون كالفضة البيضاء ، فاتخذوا لها النورة والحمام .

قال ابن عباس : إنه أول يوم رؤيت فيه النورة ، فاستنكحها سليمان عليه السلام .

أخبرني ابن ميمونة بسنده عن أبي موسى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : أول من اتخذ الحمامات سليمان عليه السلام ، فلما التصق ظهره بالجدار قال : أواه من عذاب الله تعالى . قالوا فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا ، وهى : سَلْحِينُ وَنَعْمَدَانُ وَبَيْتُونُ . ثم إن سليمان كان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها ويقم عندها ثلاثة أيام ثم يبكر من الشام إلى اليمن ومن اليمن إلى الشام .

وروى محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : قال سليمان بلقيس لما أسلمت وفرغ من أمرها : اختارى رجلا من قومك حتى أزوجك إياه ، قالت : ومثلى ينكح الرجال يا نبي الله ؟ وقد كان لى فى ملكى وقومى من السلطان ما كان . قال : نعم إنه لا يكون فى الإسلام إلا ذاك ، ولا ينبغي لك أن تحرمى ما أحل الله لك . قالت : زوجنى إن كان ولا به من تُبَّع الأكر ملك همدان فزوجه إياها ، ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذاتبع على اليمن ، ودعا سليمان زوبعة أمير جن اليمن فقال له : اعمل لذى تبع ما استعملك فيه ، قال : فصنع لذى تبع المصانع باليمن ، ثم لم يزل بها ملكا يعمل فيها ما أراد حتى مات سليمان عليه السلام . قال : فلما حال الحول وبلغ الجن موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك

تهامة ، حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته : يامعشر الجن إن سليمان نبي الله قد مات فارفعوا أيديكم ، قال : فعمدت الشياطين إلى حجرين عظيمين ، فكتبوا فيهما كتابا بالمسند : يعنى خط الحميرية : نحن بنينا سلحين وبينون ، وبنينا صرواح ومرواح وفتقون ، وهندة وهنيدة ودلوم . وهذه الحصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذي تبع ، ولولا صارخ بتهامة لما رفعوا أيديهم ، فانطلقوا وتفرقوا ، وانقضى ملك ذى تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام ، والله أعلم .

باب في ذكر غزوة سليمان عليه السلام أبا زوجته الجرادة ، وخبر الشيطان

الذي أخذ خاتمه من يده ، وسبب زوال ملكه

قال الله تعالى (وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ) . وروى محمد بن إسحاق عن بعض العلماء أن سليمان أخبر أن في جزيرة من جزائر البحر رجلا يقال له صيدون ، ملك عظيم الشأن لم يكن للناس إليه أسبيل لمكانه في البحر ، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطانا لا يمتنع عليه شيء في بر ولا بحر ، فخرج إلى تلك المدينة فحملته الريح على ظهرها حتى نزل عليها بجنوده من الجن والإنس ، فقتل ملكها وسبى ما فيها ، فأصاب فيما أصاب بنتا لذلك الملك ، يقال لها جرادة ، لم ير مثلها حسنا وجمالا ، فاصطفاها لنفسه ودعاها إلى الإسلام ، فأسلمت على يده في الظاهر على خيفة منه وقلة ثقة ، فأحبها حبا شديدا لم يحبه أحدا من نسائه ، وكانت منزلها عنده منزلة عظيمة ، وكانت على منزلها عنده لا يذهب حزنها ولا يرقا دمعها ، فشق ذلك على سليمان ، فقيل لها : ويحك ما هذا الحزن الذي لا يذهب والدمع الذي لا يرقا ؟ فقالت : إني أذكر أبي وأذكر ملكه وسلطانه وما كان فيه فيحزنني ذلك ، فقال لها سليمان : قد أبدلك الله ملكا هو أعظم من ملكه ، وسلطانا هو أعظم من سلطانه ، وهداك الله إلى الإسلام ، وهو خير لك من ذلك كله . قالت : إن ذلك كذلك ولكني إذا ذكرته أصابني ما ترى من الحزن ، فلو أنك أمرت الشياطين بصورون لي صورته في داري التي أنا فيها أراه بكرة وعشية ، لرجوت أن يذهب ذلك حزني ويسليني عن بعض ما أجد في نفسي . فأمر سليمان الشياطين أن يمثلوا لها صورة أبيها في دارها حتى لا تنكر منه شيئا ، فثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها بعينه ، إلا أنه لا روح فيه ، فعمدت إليه حين صنعوه فأزرته وقمصته وعممته وردته بمثل ثيابه التي كان يلبسها ، ثم إنها كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو إليه في ولائها فتسجد له ويسجدن له معها كما كانت تصنع معه في ملكه ، وثرود إليه كل عشية تفعل معه مثل ذلك ، وسليمان لا يعلم بشيء من ذلك أربعين صباحا ، فبلغ ذلك آصف بن برخيا ، وكان صديقا وكان لا يرد عن باب سليمان أي ساعة أراد دخول بيته دخل خاضرا أم غائبا ، فأتاه ، فقال : يا نبي الله كبر سنن ودق عظمي ونفد عمري وقد حان الذهاب مني ، وقد أحبيت أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر

فيه من مضي من أنبياء الله تعالى وأثنى عليهم بعلمى فيهم وأعلم الناس بعض ما يجهلون من
كثير من أمورهم ، فقال : افعل ، فجمع له سليمان الناس فقام فيهم خطيبا ، فذكر من مضي
من أنبياء الله تعالى ، وأثنى على كل نبي بما فيه وذكر ما فضلهم الله به حتى انتهى إلى
سليمان ، فقال له : ما كان أحكمك في صغرك وأورعك في صغرك وأفضلك في صغرك ،
وأحكم أمرك في صغرك ، وأبعدك من كل ما يكره في صغرك ، ثم انصرف ، فوجد
سليمان في نفسه من ذلك حتى امتلأ غيظا . فلما دخل سليمان داره أرسل إليه ، فلما أتاه قال
له : يا آصف ذكرت من مضي من أنبياء الله تعالى ، فأثنت عليهم خيرا في كل أزمانهم ،
وعلى كل حال من أمورهم ؛ فلما ذكرتني أثنت على بخير في صغري وسكت عما سوى
ذلك من أمري في كبري ، فما الذي أحدثت في آخر عمري ؟ فقال له : إن غير الله يعبد
في دارك أربعين صباحا في هوى امرأة ، فقال سليمان : في داري ؟ قال : نعم في دارك ،
فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد علمت أنك ما قلت ما قلت إلا عن شيء بلغك ؛
ثم إن سليمان رجع إلى داره فكسر ذلك الصنم ، وعاقب تلك المرأة وولادها ، ثم إنه أمر
بثياب الطهر فأتى بها ، وهي ثياب لا يغزها إلا الأبقار ولا تمسها امرأة ذات دم ، فلبسها
ثم خرج إلى فلاة من الأرض وحده وأمر برماد ففرش ، ثم أقبل تائبا إلى الله تعالى حتى
جلس على ذلك الرماد وتمعك فيه بثيابه تذلل الله تعالى وتضرعا إليه يبكي ويدعو ويستغفر
ما كان في داره ويقول فيما يقول : رب ما كان ينبغي لآل داود أن يعبدوا غيرك وأن يقرؤا
في دورهم وأهاليهم عبادة غيرك ؛ فلم يزل كذا يومه حتى أمسى ، ثم رجع إلى داره
وكانت له وليدة يقال لها أمينة ، كان إذا دخل مذهبه أو أراد قضاء حاجة أو أراد إصابة
امرأة من نسائه وضع خاتمه عندها حتى يتطهر ، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو متطهر ، لأن
خاتمه كان من ياقوتة خضراء أتاه بها جبريل عليه السلام مكتوب عليه : لا إله إلا الله محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ملكه في خاتمه ، فوضعه يوما من الأيام عندها كما
كان يضعه عند دخول مذهبه ، فأناها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان ، وكان
اسمه صحرا ، فظنته سليمان لأنها لم تنكر منه شيئا ، فقال : يا أمينة خاتمي ، فناولته إياه فجعله
في يده ، ثم خرج حتى جلس على سرير سليمان ، فعكفت عليه الطير والجن والإنس
والشياطين ، فخرج سليمان فأتى إلى أمينة وقد تغير من حاله ونفسه ما كان معهودا منه عند
كل من رآه ، فقال : يا أمينة خاتمي ، فقالت : ومن أنت ؟ قال : سليمان بن داود ،
فقالت : كذبت لست سليمان ، فقد جاء سليمان وأخذ خاتمه وهاهو جالس على سرير ملكه ،
فعرف سليمان أن الخطيئة قد أدركته ، فخرج سليمان وجعل يقف على الدار من دور
بنى إسرائيل فيقول : أنا سليمان بن داود ، فيحثون عليه التراب ويسبونونه ويقولون : انظروا
إلى هذا المجنون وأي شيء يزعم ؟ يقول إنه سليمان . فلما رأى سليمان ذلك خرج متوجها

إلى البحر ، فكان ينقل الحيتان لأصحاب البحر من البحر إلى السوق ، فيعطونه مكل يوم سمكتين ، فإذا أمسى باع إحداهما السمكتين بأرغفة وشوى الأخرى فبأكلها ، فكث كذلك أربعين صباحا عدة ما كان ذلك الوثن يعبد في داره ، فأنكر آصف بن برخيا وعلماء بني إسرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين يوما ، فقال آصف : يا معشر بني إسرائيل هل رأيتم من اختلاف حكم سليمان ما رأيتم ؟ قالوا نعم ، فقال : أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألن هل أنكرن منه في خاصة أمره ما أنكرناه من عامة أمر الناس وعلايته ؟ فدخل على نسائه فقال هنّ : ويحكّن هل أنكرتن من أمر سليمان بن داود ما أنكرناه ، فقلنا أشد ، ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة ، فقال آصف : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إن هذا هو البلاء المبين . ثم إنه خرج إلى بني إسرائيل فقال : ما في الخاصة أعظم مما في العامة . فلما مضت أربعون صباحا زال الشيطان عن مجلسه ، ثم مر في البحر فقذف الخاتم فيه ، فابتلعت سمكة فاصطادها بعض الصيادين ، وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك ، حتى إذا كان العشاء أعطاه السمكتين ، وكان من جملتهما السمكة التي ابتلعت الخاتم ، فحمل سليمان سمكته ، فباع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة ، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فشقها ليشويها فوجد خاتمه في جوفها ، فأخذه فجعله في يده ، ووقع ساجدا ، فعكفت عليه الطير والجن والإنس والشياطين ، وأقبل على الناس وعلم أن الذي دخل عليه لما أحدث في داره من عبادة الوثن ، فرجع إلى ملكه وأظهر التوبة من ذنبه ، ثم أمر الشياطين وقال : ائتوني بصخر المارد ، فطلبت الشياطين حتى أتت به ، فنحت له حفرة فأدخله فيها ثم سد عليه بأخرى ، ثم أوثقها بالحديد والرصاص ، ثم أمر به فقذف في البحر . فهذا هو حديث وهب بن منبه .

وقال السدي في سبب ذلك : كان لسليمان مئة امرأة ، وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي آثر نسائه وآمنهن عنده ، وكان إذا أراد أن يأتي حاجته أودخل مذهب نزع الخاتم ولم يأت من عليه أحدا من الناس غيرها ، فجاءته يوما من الأيام وقالت له : إن أخى بينه وبين فلان خصومة ، وأنا أحب أن تقتضى له إذا جاءك ، فقال نعم ولم يفعل ، فابتلى بقوله ، فأعطاهما خاتمه ودخل الخدع ، فخرج الشيطان في صورته فقال لها : هات الخاتم ، فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان ، وخرج سليمان بعده ، فسألها أن تعطيه خاتمه ، فقالت له : ألم تأخذه ؟ فقال : لا ، فخرج من مكانه تائبا ، ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما ، فأنكر الناس حكمه ، واجتمع قراء بني إسرائيل وعلماءهم ، فجاءوا حتى دخلوا على نسائه ، فذكروا هنّ ما أنكرنا ، فقلن ونحن قد أنكرنا هذا ، فإن كان سليمان قد ذهب عقله وأساء أحكامه فليس لنا صبر على ذلك ، وبكى النساء عند ذلك . قال : فأقبلوا بمشون حتى أتوه وأحدقوا به وأخذوا مجالسهم ، ثم إنهم نشروا التوراة فقرءوها ، فلما

قرءوا التوراة طار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر ، فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه الحوت . قال : وأقبل سليمان على حالته التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من الصيادين وهو جائع وقد اشتد جوعه ، فاستطعمهم من صيدهم ، وقال : إني سليمان بن داود ، فقام إليه بعضهم فضربه بعصاه ، فشجه فسال دمه ، وهو على شاطئ البحر ، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه وقالوا له : بثما صنعت حيث ضربته ، فقال : إنه زعم أنه سليمان ابن داود ، فأعطوه سمكتين ممن ضرب عندهم ، فلم يشغله ما كان فيه من ألم الضرب حتى قام إلى شاطئ البحر فشق بطنهما وجعل يغسلهما ، فوجد خاتمه في بطن إحداهما ، فأخذه ولبسه ، فرد الله عليه ملكه وبهاءه ، وجاءت الطير حتى حامت عليه ، فعرفه القوم ، فجاءوا يعتذرون إليه مما صنعوا ، فقال : ما أؤاخذكم على عدوانكم ولا ألومكم على ما كان منكم ، هذا ما كان لابد منه ، ثم جاء حتى أتى ملكه ، وأمر أن يأتوا بالشیطان الذي أخذ خاتمه فأتى به فجعله في صندوق من حديد ، ثم أطبقه وأقفل عليه بقفل وختمه بخاتمه ، ثم أمر به فألقى في البحر ، وهو فيه كذلك إلى الساعة .

وفي بعض الروايات : أن سليمان عليه السلام لما افتتن سقط الخاتم من يده ، وكان فيه ملكه ، فأخذه سليمان وأعاد عليه فسقط من يده . فلما رآه سليمان لا يثبت في يده أيقن بالفتنة ، فقال آصف لسليمان : إنك مفتون بذنبك ، والخاتم لا يماسك أربعة عشر يوما ، ففرّ إلى الله تائبا من ذنبك ، وأنا أقوم مقامك وأسير في عملك وأهل بيوتك بسيرك إلى أن يتوب الله عليك ، ويردك إلى ملكك ، ففرّ سليمان هاربا إلى ربه ، وأخذ آصف الخاتم فوضعه في يده فثبت ، وإن الجسد الذي قال الله تعالى (وألقينا على كرسیه جسدا ثم أناب) هو آصف كاتب سليمان ، وكان عنده علم من الكتاب ، فأقام آصف في ملك سليمان وعالمه يسير بسيرته ويعمل بعمله أربعة عشر يوما ، إلى أن رجع سليمان إلى منزله تائبا إلى الله تعالى ورد الله عليه ملكه ، فأقام آصف من مجلسه وجلس سليمان على كرسیه وأعاد الخاتم في يده فثبت . وقيل سبب ذلك ما أخبرنا شعيب بن محمد العجلي بإسناده عن سعيد بن المسيب : أن سليمان بن داود احتجب عن الناس ثلاثة أيام ، فأوحى الله إليه : أن يا سليمان احتجبت عن عبادي ثلاثة أيام فلم تنظر في أمورهم ولم تنصف مظلوما من ظالم ، وذكر حديث الخاتم وأخذ الشيطان إياه كما روينا ، وقال في آخره : قال على كرم الله وجهه : ذكرت ذلك للحسن فقال : ما كان الله تعالى ليلسط على نسائه ، ونعوذ بالله أن يسلط الشيطان على نساء أنبيائه بالمباشرة ، وكيف يعتقد ذلك أحد ، وقد نزه الله تعالى أنبياءه عن مثل هذا القبيح ، وهذا القول أصح الأقوال وأليق بأنبياء الله تعالى وأقرب إلى التقوى .

وقال بعض المفسرين : كان سبب فتنة سليمان أنه أمر أن لا يتزوج امرأة إلا من بنى إسرائيل فزوج وامرأة من غيرهم فعوقب على ذلك .

وقيل إن سليمان عليه السلام لما أصاب بنت الملك صيدون أعجب بها وعرض عليها الإسلام فامتنعت ، فخوفها سليمان ، فقالت له : إن أكرهتني على الإسلام قتلت نفسي ، فخاف سليمان أن تقتل نفسها فتزوج بها مشركة ، فكانت تعبد صنما لها من ياقوتة أربعين صباحا في خفية من سليمان إلى أن أسلمت ، فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوما .
وقال الشعبي في سبب زوال ذلك : ولد لسليمان ابن ، فاجتمعت الشياطين فقال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد لم ننفك مما نحن فيه من البلاء والسخره . فسبيلنا أن نقتل ولده أو نجبله ، فعلم سليمان ذلك ، فأمر السحاب أن تأخذ ابنه ، وأمر الريح فحملته وغدا ابنه في السحاب ، فأمن مضرّة الشياطين ، فعاتبه الله لتخوفه من الشياطين ، ومات الولد فألقى على كرسيه ، وهو الجسد الذي قصه الله علينا بقوله (وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) .
والله تعالى أعلم .

باب في ذكر وفاة سليمان عليه السلام

قال الله تعالى (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ) الآية . قال أهل التاريخ : بئس سليمان في ملكه بعد أن رده الله تعالى عليه تعمل له الجن والشياطين ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك ، ويعذب من الشياطين من يشاء ويطلق من يشاء ، ويأمرهم بحمل الحجارة الثقيلة ونقلها إلى حيث أحب . قال : فتزيا لهم إبليس وهم دائبون في العمل ، فقال : كيف أنتم ؟ قالوا : ما لنا طاقة لما نحن فيه ، فقال إبليس تذهبون تحملون الحجارة ، وترجعون فراغا لا تحمّلون شيئا ؟ قالوا نعم ، قال : فأنتم في راحة . قال : فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يحملوا ذاهبين وراجعين ، فجاءهم إبليس فقال : كيف أنتم ؟ فشكوا إليه وأخبروه أنهم يحملون ذاهبين وراجعين ، فقال لهم : إبليس : أتنامون بالليل ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنتم في راحة . قال : فأبلغت الريح ذلك سليمان ، فأمرهم أن يعملوا بالليل والنهار ، فتزيا لهم إبليس ، فشكوا إليه أنهم يعملون بالليل والنهار وأنهم دائبون في العمل ، فقال : كيف أنتم ؟ قالوا : لا طاقة لنا فيما نحن فيه ، فقال لهم إبليس : وما يشاء فعله ؟ قالوا نعم ، قال : فتوقعوا الفرج وقد بلغ الأمر منتهاه ، فلم يلبثوا إلا قليلا وقد مات سليمان عليه السلام .

قال ابن عباس وغيره : كان سليمان عليه السلام محتجب في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل فيه بطعامه وشرابه ، فدخله في المرة التي مات فيها ، وكان بدء أمره في ذلك أنه لم يكن يوما يصبح فيه إلا تنبت له بيت المقدس شجرة فيسألها سليمان : ما اسمك ، فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا ، فيقول : لأي شيء أنت ؟ فتقول لكذا وكذا ، فيأمر بها فتقطع ، فإن كانت تنبت لغرس كتب عليها غرسها في مكان كذا وكذا ، وإن كانت لدواء كتب عليها لكذا وكذا ، فبينما هو يصلي يوما ، إذ

رأى شجرة نابتة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الحرنوبية ، قال : ولأى شيء نبتك ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان بن داود : ما كان الله تعالى ليخربه وأنا حي ، أنت التي علي وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ، فزعاها وغرسها في حائط له ، ثم قال : اللهم عمِّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ، وكانت الجن تخبر الإنس ، أنهم يعلمون الغيب من أشياء ، وأنهم يعلمون ما يكون في غد . ثم إن سليمان دخل المحراب ، فقام يصلى متكئا على عصاه فمات ، ثم بقي على تلك الحالة ولم يعلم بذلك من الشياطين أحد ، وهم مع ذلك يعمنون ويخافون أن يخرج فيعاقبهم . وقال عبد الرحمن ابن زيد : قال سليمان لملك الموت : إذا أمرت بي فأعلمني ، قال : فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك ، وقد بقي لك سويعة ، فدعا الشياطين فبنوا له صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى واتكأ على عصاه ، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه . وفي رواية أخرى : أن سليمان عليه السلام قال ذات يوم لأصحابه : إن الله تعالى آتاني من الملك ما ترون ، وما مر على يوم في ملكي صاف من الكدر ، وقد أحببت أن يكون لي يوم واحد يصفولي إلى الليل ولا أغتم فيه ولكن ذلك اليوم غدا ، فلما كان من الغد دخل قصره له ، وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ، ومنع من رفع الأخبار إليه لئلا يسمع شيئا يسوءه . ثم أخذ العصا بيده ووضعها فوق خصره واتكأ عليها ينظر إلى ممالئكه إذ نظر شابا حسن الوجه عليه ثياب بيض ، قد خرج عليه من جانب القصر ، فقال له : السلام عليك يا سليمان ، فقال : وعليك السلام ، فكيف دخلت علي هذا القصر بغير إذني ، وقد منعت من دخوله ، أما منعك البواب والحجاب ، أما هبتني حين دخلت قصرى بغير إذني ؟ فقال : أنا الذي لا يحجبني حاجب ولا يدفعني البواب ولا أخاف الملوك ولا أقبل منهم الرشا ، وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن ، فقال له سليمان : فمن أذن لك في دخوله ؟ فقال له : ربي . قال : فارتعد سليمان وعلم أنه ملك الموت ، فقال له : أنت ملك الموت ؟ قال نعم ، قال : فم جئت ؟ قال : لأقبض روحك ، قال : يا ملك الموت هذا يوم أردت أن يصفولي ولا أسمع فيه ما يغمي ، فقال : يا سليمان إنك أردت يوما يصفو لك فيه عيشك حتى لا يغمك فيه شيء ، وذلك يوم لم يخلق في الدنيا ، فارض بقضاء ربك فإنه لا مرد له ، قال : فاقبض كما أمرت ، فقبض ملك الموت روحه وهو متكئ على عصاه . قالوا : وكانت الشياطين تجتمع حوله وحول محرابه ومصلاه أينما كان ، وكان للمحراب بابان : باب بين يديه ، وباب خلفه ، فقال بعض الشياطين لصاحبه : إن كنت جليدا فادخل من الباب الذي بين يديه ، واخرج من الباب الذي خلفه ، فدخل ذلك للبعض ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان في المحراب إلا احترق ، فر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ، ثم رجع فلم يسمع ، فوقف بالبيت فلم يحترق ، فنظر إلى سليمان وقد سقط ميتا ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عليه فأخرجوه ، ووجدوا ميتا

وهي العصا بلغة الحبشة قد أكلتها الأرضة ، فلم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة ، وكانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه ويحسبون أنه حي ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلواته قبل ذلك .

وفي رواية ابن مسعود : فكثروا يدانون له بعد موته حولاً كاملاً ، فأيقن الناس أن الجن كانوا يكذبون في ادعائهم علم الغيب ، فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان ، ولم يلبثوا في العناء والعذاب سنة يعملون له . ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الماء لسقيناك أعذب الشراب ، ولكننا ننقل إليك الماء والطين شكراً لك ، فالذي يكون في جوف الحشب هو ما تأتيها به الشياطين والشياطين تسكن إليها ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ) . . . الآية .

قال أهل التاريخ : كان عمر سليمان عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة ، ومدة ملكه منها أربعون سنة ، وذلك أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه . ثم ملك من بعد سليمان ابن له يقال له رحبعم ، وكان قد استخلفه ، فنبأه الله وكان نبياً ولم يكن رسولاً ، ثم قبض ، وكان ملكه سبع عشرة سنة . ثم ملكهم بعده ابنه آفيا بن رحبعم ، وكان ملكه ثلاثاً وستين سنة . ثم ملك بعده ابنه أسا بن آفيا وكان رجلاً صالحاً ، وكان أعرج يعتربه عرق النعسا ، فطمع فيه الملوك لضعفه ، وافترقت ملوك بني إسرائيل ، فغزاهم ملك من ملوك الهند يقال له روح الهند في جمع كثير وقبيلة كبيرة ، فبعث الله عليهم الملائكة ، فهزمتهم فقصدوا البحر ، حتى إذا ركبوا جميعاً بعث الله عليهم الرياح والأمواج فضربت بسفهم في بعضها فتكسرت ، وغرق روح الهند ومن كان معه ، واضطربت الأمواج حتى ألقت أثقالهم وأموالهم وسلبهم إلى محلة بني إسرائيل ونودوا أن خذوا ما غنمكم الله تعالى وكونوا له من الشاكرين ، ثم لم تزل تغزوهم الملوك ملك بعد ملك من ملوك العراق وغيرهم ، فيهلكهم الله تعالى إلى أن ظهر فيهم الظلم والفساد وفشت فيهم المعاصي ، وعبد بعض ملوك بني إسرائيل الأصنام من دون الله تعالى ، فغضب الله عليهم بكفرهم ومعصيتهم وسلط عليهم بختنصر .

مجلس في قصة بختنصر وما يتصل به

وخبر شعيا وأرميا ودانيل وعزير عليهم وعلى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال الله تعالى (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ) . . . إلى قوله عز وجل (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) .

قصة شعيب عليه السلام

قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل السير والأخبار : كان مما أنزل الله تعالى على موسى خبير بني إسرائيل من أحداثهم وما هم فاعلون بعده كما قال الله تعالى (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا) إلى قوله (حَصِيرًا) فكانت بنو إسرائيل يركبون الأحداث والذنوب ، وكان الله تعالى يتجاوز عنهم تعظفا عليهم وإحسانا إليهم ، وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم من تلك الوقائع كما أخبر الله تعالى على لسان موسى عليه السلام : أن ملكا منهم كان يدعى صديقة ، وكان الله تعالى إذا ملك ملكا من الملوك بعث له نبيا يسدده ويرشده ، ويكون واسطة فيما بينه وبين الله تعالى فيما يحدث من أمورهم ، ولا ينزل عليهم كتابا وإنما يأمرهم أن يأمرهم بأحكام التوراة والنهي عن المعاصي والمنكرات والدعاء إلى ما تركوا من الطاعات . فلما ملك ذلك الملك ، بعث الله تعالى شعيبا بن أمضياء ، وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى ، وشعيب هو الذي بشر البيت المقدس حين شكوا إليه الخراب فقال : أبشر فإنه يأتيك ركب الحمار ، ومن بعده صاحب البعير ، فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زمانا فلما انقضى ملكه فيهم ، عظمت الأحداث الرديئة ، وشعيبا معه ، فبعث الله عليهم سنحاريب ملك بابل ، فنزل هو وجنوده في ست مئة ألف راية ، فأقبل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض في ساقه قرحة شديدة ، فجاء إليه شعيبا فقال : يا ملك بني إسرائيل إن سنحاريب ملك بابل قد نزل هو وجنوده في ست مئة ألف راية ، وأقبل سائرا حتى نزل بيت المقدس ، وقد هابهم الناس وتفرقوا عنهم ؛ فكبر ذلك على الملك وقال : يا نبي الله هل أتاك وحى من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبعدوننا سنحاريب وجنوده؟ فقال النبي : لم يأت وحى ؛ فبينما هم كذلك إذ أوحى الله تعالى إلى شعيبا عليه السلام : أن انت ملك بني إسرائيل ، فأمره أن يوصى بوصيته ، ويستخلف على مملكته من يشاء من أهل بيته وعترته ؛ فأتى شعيبا صديقة فقال : إن ربك قد أوحى إلى أن أمرك أن توصى بوصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من أهل بيتك فإنك ميت ؛ فلما قال ذلك شعيبا لصديقة أقبل على الله تعالى وصلى ودعا وبكى وقال في دعائه وهو يبكي ويتضرع إلى الله تعالى بقلب مخلص وظن صادق : اللهم رب الأرباب وإله الآلهة القدوس المقدس ، يا رحمن يا رحيم بارءوف يا من لاتأخذه سنة ولا نوم ، اذكرني بنيتي وفعلي وحسن قضائي في بني إسرائيل ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به مني ، سرى وعلانيتي لك ، ثم إن الله استجاب دعائه ورحمه ، وكان عبدا صالحا . فأوحى الله تعالى إلى شعيبا وأمره أن يخبر صديقة الملك أن ربه قد استجاب له ورحمه وقبل منه ، وقد أخر أجله خمس عشرة سنة وأنجاه الله من علوه سنحاريب ملك بابل وجنوده ؛ فأتى شعيبا إليه وأخبره بذلك . فلما قال له

ذلك ذهب عنه الوجد وانقطع عنه الهزال وخرّ ساجداً لله تعالى وقال : يا إلهي وإله آبائي لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت ، أنت الذي تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين ، أنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي . فلما رفع رأسه أوحى الله تعالى إلى شعيا أن قل للملك صديقة أن يأمر عبداً من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفي ، ففعل ذلك فبرأ ، فقال الملك لشعيا : سل ربك أن يجعل لنا علماً بما هو صانع بعدونا ، فقال الله لشعيا : قل له إني كفيتك عدوك هذا وأنجيتك منه ، وإنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كبرائه وكتابه . فلما أصبحوا جاءهم صارخ يصرخ على باب المدينة : يا ملك بني إسرائيل قد كفاك الله عدوك فاخرج ، فإن سنحاريب ومن معه قد هلكوا ، فلما خرج التمس سنحاريب فلم يوجد في الموتى ، فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب هو ومن معه في خمسة نفر من كبرائه في مغارة أحدهم بختنصر ، فجعلوهم في الجوامع ثم أتوا بهم ملك بني إسرائيل ، فلما رآهم خر ساجداً لله تعالى من حين طلعت الشمس إلى العصر ، ثم قال : يا سنحاريب كيف ترى فعل ربنا بكم ، ألم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وأنتم غافلون ، فقال له سنحاريب : قد أتاني خبر ربكم ونصرته إياكم من قبل أن أخرج من بلادي ، فلم أطع مرشداً ، ولم يلقى في الشقوة إلا قلة عقلي ، فلو سمعت وعقلت ما غزوتكم ، ولكن الشقوة غلبت علي وعلى من معي ، قال فقال صديقة : الحمد لله رب العالمين الذي كفاناكم بما شاء ، إن ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك عليه ، ولكن إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقاوة في الدنيا وعذاباً في الآخرة وتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم وبمن معكم ، ولتدّمك ومن معك أهون عند الله من دم قرادة لو قتلت . ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير جيشه فقذف في رقابهم الجوامع وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء ، وكان يطعمهم كل يوم رغيفين من شعير لكل رجل منهم ؛ فقال سنحاريب لملك بني إسرائيل : القتل خير مما تفعل بنا ، فافعل ما أردت ، فأمر بهم الملك إلى سجن القتل ، فأوحى الله إلى شعيا أن قل للملك يرسل سنحاريب ومن معه لينتروا من وراءهم وليكرموا وليحملوا حتى يبلغوا بلادهم ، فبلغ شعيا الملك ذلك ، ففعل ؛ فخرج سنحاريب ومن معه لينتروا من وراءهم حتى قدموا بابل ؛ فلما قدموا جمع سنحاريب الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده ، فقال له كهانه وسحرته : يا ملك قد كنا نقص عليك خبرهم وخبر نبيهم ووحى الله إليه فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد ، وكان في أمر سنحاريب مما خوفوا به ، ثم كفاهم الله إياه تذكرة وعبرة . ثم لبث سنحاريب بعد ذلك سبع سنين ثم مات ، واستخلف من بعده بختنصر ، وكان ابن ابنه ، وكان بختنصر يعمل كما يعمل جده ويقضى بقضائه ، فلبث سبع عشرة سنة ، ثم قبض الله تعالى ملك بني إسرائيل صديقة ، فرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا في الملك حتى

قتل بعضهم بعضا وظهر فيهم البغي والفساد ، ونبههم شعيا فيهم لايرجعون إليه ولا يقبلون قوله . فلما فعلوا ذلك قال الله تعالى لشعيا عليه السلام : قم في قومك يوح على لسانك ، فلما قام النبي أطلق الله لسانه بالوحي فقال : يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي ، فإن الله أراد أن يقضى شأن بني إسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده واستقبلهم بالكرامة ، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها فأوى شاردها وجمع ضالها وجبر كسيرها وداوى مريضها وأمن هزيلها وحفظ سمينها ، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها ، فقتل بعضهم بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه كسير ، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أجاؤهم الخير أم الشر ، وإن البعير يذكر وطنه فينتابه ، وإن الحمار يذكر الآرى الذى يشبع عليه فيراجعه ، وإن الثور يذكر المسرح الذى يسرح فيه فينتابه ، وإن هؤلاء القوم لا يدرون من أين جاءهم الخير ، وهم أولو الألباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير ، إني ضارب لهم مثلا فليسمعوه ، قل لهم كيف ترون في أرض كانت خرابا مواتا فبقيت خرابا زمانا طويلا لاعمران فيها ، وكان لها رب حكيم قوى ، فأقبل عليها بالعمارة ، وكره أن تخرب أرضه ، فأحاط عليها جدارا ، وشيد فيها قصرا ، وأجرى أنهارا ، وأبنت عليها غرسا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وأنواع الثمار كلها ، وولى ذلك واستحفظه ذا رأى حفيظا قويا أميناً فانتظرها ، فلما أطلعت جاء طلوعها خرنوبا فقال : بثت الأرض هذه ، نرى أن يهدم جدرانها وقصرها ويغيض ماء نهرها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت خرابا أول مرة ، مواتا لاعمران فيها ، فقال الله تعالى : قل لهم إن الجدار ذمتى ، وإن القصر شريعتي ، وإن النهر كتابى ، وإن القيم نبي ، والغراس هم ، وإن الخرنوب الذى أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة ، وإني قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم ، وإنه مثل ضربه الله لهم ، فمرهم يتقربوا إلى بدبح بالبقر والغنم ، وليس ينالى اللحم ولا آكله ، ولكن يتقربون إلى بالتقوى والكف عن ذبح النفس التى حرمتها ، فأيديهم منحضوبة منها ، وبنانهم مزملة بدمائها ، ويشيدون لى البيوت والمساجد ، ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها ، فأى حاجة لى إلى تشييد البيوت ولست أسكنها ، وأى حاجة لى إلى تزويق المساجد ولست أدخلها ، وإنما أمرت برفعها لأذكر فيها وأسبح . ولتكن معلما لمن أراد أن يصلى فيها ويقولون : لو كان الله يقدر على أن يجمع ألفتنا لجمعها ، ولو كان الله يقدر أن يفقه قلوبنا لفقهها ، فاعمد إلى عودين يابسين ثم أبهما وهم فى أجمع ما يكون ، فقل للعودين إن الله يأمر كما أن تكونا عودا واحدا ، فلما قال لهما ذلك اختلطتا فصارا عودا واحدا ، فقال الله تعالى : قل لهم إني قدرت على أن أولف بين العودين اليابسين ، فكيف لأقدر على أفهم إن شئت ؟ أم كيف لأقدر على أن أفقه قلوبهم وأنا الذى صوررتهم ، يقولون صمنا فلم يرفع صياطنا ، وصلينا فلم تنور قلوبنا ، وتصدقنا فلم ترك صدقاتنا ، وإن دعونا بمثل حنين الجمال ، وبكينا بمثل عواء الذئب فى ذلك لا يسمع

ولا يستجاب لنا ، قال الله تعالى : فسلهم ما الذى يمنعنى أن أستجيب لهم ؟ ألسنت أسمع السامعين وأنظر الناظرين وأقرب المحبين وأرحم الراحمين؟ أذات يدي قلت ، كيف ويداي مبسوطتان بالخير ، أنفق كيف أشاء ، مفاتيح الخزائن عندي لا يفتحها غيرى ، أم يقولون رحمتى ضاقت ، فكيف ورحمتى وسعت كل شيء ، إنما يتراحم المتراحمون بفضلى ، أم يقولون البخل يعتربنى ؟ أو لست أكرم الأكرمين ، وأنا الفتاح بالخيرات ؟ ألسنت أجود من أعطى وأكرم من سئل ؟ ولو أن هؤلاء القوم نظروا إلى أنفسهم بالحكمة التى نورت فى قلوبهم فتدبروها ولم يشترها بها الدنيا ، لأبصروا وتيقنوا أن أنفسهم هى أعدى العداة لهم ، فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بالزور ، ويتقون عليه بطعمة الحرام ، أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم طاغية تركن إلى من يحاربني وينتهك محارمى ؟ أم كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم ، وإنما أجرى عليها أهلها المغصوبين ؟ أم كيف أستجيب لهم دعاء ، وإنما هو قول بالسنتهم والعقل من ذلك بعيد ، إنما أستجيب قول المستضعف المسكين ، وإن من علامة رضاي رضا المسكين ، ولو رحمو المساكين وقربوا الضعفاء وأنصفوا المظلوم ونصروا المغصوب وعالوا الغائب وأدوا إلى الفقير واليتيم والأرملة والمسكين حقه ، ولو كان ينبغي لى أن أكلم البشر إذن لكلمتهم وكففت أذاهم وكنت نور أبصارهم وسمع آذانهم ومعقول قلوبهم وأعمرت أركانهم ، وكنت قوة أيديهم وأرجلهم وكنت ألسنتهم ، إلا أنهم يقولون لما سمعوا كلامى وبلغتهم رسالتى : إنها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتآليف فيما يؤلف السحرة والكهنة . وزعموا أن لو يشاءوا أن يأتوا بحديث مثله لفعلوا وأن يطلعوا على علم الغيب بما توحى إليهم الشياطين إذا طلعوا ، وكلهم يستخفى بالذى يقول ويسر ، وهم يعلمون أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما يبذون ، وما يكتبون ، وإنى قد قضيت يوم خلقت السموات والأرض ، قضاء بينته على نفسى وجعلت له أجلا مؤجلا لا بد أنه واقع ، فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه وفى أى زمان يكون؟ وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون ، فليأتوا بمثل هذه القدرة التى بها أفضى ، فإنى مظهر على الدين كله ولو كره المشركون ، وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاءون ، فليأتوا بمثل هذه الحكمة التى أدبر بها أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين ، فإنى قضيت يوم خلقت السموات والأرض بأن أجعل النبوة فى الأحرار ، وأجعل الملك فى الرعاء ، وأجعل العز فى الأذلاء ، والقوة فى الضعفاء ، والغنى فى الفقراء ، والثروة فى الأقلاء ، والمدائن فى الفلوات ، والآجام فى المفاوز ، والثرى فى الغيطان ، والعلم فى الجهلة ، والحكم فى الأميين ، فسلهم ممن هذا ، ومن القيم بهذا ، وعلى يد من أنشئه . ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره ؟ فإنى باعث لذلك نبيا أميا ، لأعمى من العميان ، ولا ضالا من الضالين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا بصخاب فى الأسواق ولا متزيا بالفحش ولا قوآلا بالحنأ ، أسدده بكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، أجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدق

والوفاء طبيعته ، والعمو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الجمالة ، وأشهر به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد الفقر ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأولف به قلوبا مختلفة ، وأهواء مشتتة ، وأما متفرقة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بآياتي وتوحيدي ، يصلون قياما وقيودا وركوعا وسجودا ، ويقاتلون في سبيل الله صفوفًا وزحوفًا ، ويخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله ، ألهمهم التكبير والتحميد والتسبيح والتمجيد والتوحيد في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم ، يكبرون ويهللون ويقدمون على رؤوس الأشراف ، ويظهرون لى الوجوه والأطراف ، ويعقدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وقرأتهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

فلما فرغ نبيهم شعيا من مقالته غدوا عليه ليقتلوه ، فهرب منهم ، فلقبته شجرة ، فانفلقت له ، فدخلها ، فأدركه الشيطان فأخذ بهدية من ثوبه ، فأراهم إياها ، فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه وهو فى وسطها ، والله أعلم .

قصة أرمياء عليه السلام

فاستخلف الله على بنى إسرائيل بعد قتلهم شعيا رجلا منهم يقال له ناشئة بن أموص ، وبعث الله إليهم الخضر نبيا ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى ، واسم الخضر أرمياء بن خلفيا ، وكان من سبط هارون بن عمران ، وإنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تزهو خضراء ، فقال الله تعالى لأرمياء حين بعثه إلى بنى إسرائيل : يا أرمياء من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أصورك فى بطن أمك قدستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ السعى نبأتك ، ولأمر عظيم اجتبتك ، فذكر قومك نعى ، وعرفهم أحداهم ، وادعهم إلى ، فقال أرمياء : إني ضعيف إن لم تقوتى ، عاجز إن لم تنصرتى ، فقال الله تعالى : أنا أهلك ، فقام أرمياء فيهم خطيبا ولم يدر ما يقول ، فألمه الله تعالى فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية ؛ وقال لهم فى آخرها إن الله قال : إني أحلف بعزتي وجلالى ، إن لم ينتهوا لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ، ولأسلطن عليهم جبارا قاسيا ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم . ثم أوحى الله تعالى إلى أرمياء عليه السلام : أنى مهلك بنى إسرائيل بيافث ، ويافث هم أهل بابل ، وهم من ولد يافث بن نوح . فلما سمع أرمياء بكى وصاح وشق ثيابه وحنى الرماد على رأسه ، فلما سمع الله تضرع أرمياء وبكاه ناداه : يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت إليك ؟ قال : نعم يا رب ، أهلكنى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل

ما لا أسر به ، فقال الله تعالى : وعزني وجلالي لا أهلك أحدا من بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبيلك ، ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال : والذي بعث موسى بالحق لأرضي بهلاك بني إسرائيل ، ثم أتى الملك فأخبره بذلك ، وكان ملكا صالحا ففرح واستبشر وقال : إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة ، وإن يرحمنا فبرحمته . ثم إنهم لبثوا بعد الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا فيها إلا معصية وتماديا في الشر ، وذلك حين اقترب هلاكهم وقل الوحي ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا ، فسلط الله عليهم بختنصر ، فخرج في ست مئة ألف راية يريد أهل بيت المقدس ، فلما فصل بختنصر سائرا إلى الملك ، أتى الملك الخبر ، فقال الملك لأرمياء : أنت زعمت أن الله أوحى إليك ؟ فقال أرمياء إن الله لا يخاف الميعاد وأنا به واثق . فلما قرب الأجل وأراد الله هلاكهم ، بعث الله إلى أرمياء ملكا قد تمثل له في صورة رجل من بني إسرائيل فقال له : يا نبي الله إني أستفتيك في أهل رحى وصلت أرحامهم ولم أزل إليهم محسنا ولا يزيد إكرامى إياهم إلا استخفافا بي فأفتني فيهم ، فقال له : أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير ، فانصرف الملك . فما مكث إلا أياما ثم أقبل عليه في صورة ذلك الرجل ، فقعده بين يديه ، فقال له أرمياء : أو ما ظهرت أخلاقهم لك بعد ؟ قال : يا نبي الله والذي بعثك بالحق نبيا ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحى إلا قدمتها إليهم وأفضل ، قال أرمياء عليه السلام : ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم وسل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم . فقام الملك . فمكث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ، ففرغ منهم بنو إسرائيل وشق عليهم ، فقال ملكهم لأرمياء : يا نبي الله أين ما وعدك الله به ؟ قال : إني بربي لواثق ، ثم أقبل الملك على أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده ، فقعده بين يديه وقال له : أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين ، فقال له أرمياء عليه السلام : ألم بأن لهم أن ينتهوا عن الذي هم فيه ؟ فقال له : يا نبي الله كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه ، واليوم رأيتهم في عمل لا يرضى الله تعالى ، فقال أرمياء عليه السلام : على أي عمل رأيتهم ؟ قال : على عمل عظيم من سخط الله تعالى ، فغضبت لذلك وأتيتك لأخبرك ، وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق نبيا إلا ما دعوت الله تعالى عليهم ليهلكهم ، فقال أرمياء : يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم ، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم . قال : فما خرجت الكلمة من فم أرمياء تماما حتى أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس ، فالتهب مكان القُربان ونخسف بسبعة أبواب من أبوابه ، فلما رأى ذلك أرمياء صاح وبكى وشق ثيابه وحثا الرماد على رأسه وقال : يا ملك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني ؟ فنودي : إنه لم يصيبهم الذي أصابهم إلا بفتياك ودعائك ، فاستيقن أرمياء عليه السلام أنها فتياؤه أن ذلك السائل كان رسول ربه ، فسار أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر

وجنوده بيت المقدس ، ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترابا ثم يقذفه في بيت المقدس فخذفوا فيه التراب حتى ملئوه ، ثم انصرفوا إلى بابل واحتمل معه سبايا بني إسرائيل ، وأمرهم أن يجمعوا ما كان في بيت المقدس ، فجمعوا كل صغير وكبير من بني إسرائيل ، فاختر منهم سبعين ألف صبي ، فلما أراد أن يقسم الغنائم في جنده . قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل ، ففعل ذلك ، فأصاب كل واحد منهم أربعة غلمان ، وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وعزازيا وميشايل ، وسبعة آلاف من أهل بيت داود ، وأحد عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط يساخر بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ابني يعقوب ، ومن بقي من بني إسرائيل جعلهم يختصر ثلاث فرق : فثلثا أقره بالشام ، وثلثا سبي ، وثلثا قتل ، وذهب بأواني بيت المقدس حتى أقدمها بابل ، وذهب بالغلمان السبعين ألفا وسائر السبايا حتى قدم بهم بابل ، وكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله على بني إسرائيل بأحداثهم وظلمهم ، وذلك قوله تعالى (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لئنا أولى بأس شديد) يعني يختصر وجنوده .

وكان بدء أمر يختصر على ما روى حجاج عن ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير قال : كان رجل من بني إسرائيل يقرأ التوراة حتى إذا بلغ (بعثنا عليكم عبادا لئنا أولى بأس شديد) بكى وفاضت عيناه وأطبق المصحف ، ثم انطلق إلى المسجد وقال : يارب أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يديه ، فأرى في المنام أنه مسكين ببابل يقال له يختصر ، فانطلق بمال وأعبد له ، وكان رجلا موسرا ، فقبل له أين تريد ؟ قال أريد التجارة ، ثم ذهب حتى نزل دارا ببابل ، فاستكراها ليس فيها أحد غيره ، فجعل يدعو المساكين ويتلطف بهم حتى لا يأتيه أحد مسكين إلا أعطاه ، فقال : هل بقي مساكين غيركم ؟ قالوا : نعم مسكين بفتح آل فلان مريض يقال له يختصر ، فقال لغلمانه : انطلقوا وانطلق معهم حتى أتاه ، فقال له ما اسمك ؟ قال يختصر ، فقال لغلمانه : احموه ، فنقله إليه ومرضه حتى برئ فكساه وأعطاه نفقة ، ثم أذن الإسرائيلي في الرحيل فبكى يختصر ، فقال الإسرائيلي : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى لأنك فعلت معي ما فعلت ولا أجد شيئا أجازيك به ، فقال : جزائي شيء يسير ، قال وما هو ؟ قال له : إن صرت ملكا وملكيت بيت المقدس أعطيني ما أطلبه ؟ فجعل يتبعه ويقول له : أتستهزئ بي ، ولا يمنعني أن يعطيه ما سأله إلا أنه يرى أنه يستهزئ به ، قال : فبكى الإسرائيلي وقال : قد علمت ما يمنعك أن تعطيني ما سألتك إلا والله تعالى يريد أن ينفذ قضاءه ، فكتب له كتابا وضرب الدهر ضربانه . فتمال يوما صيحوون وهو ملك بابل لو أنا أرسلنا طليعة إلى الشام ، قالوا ما ضرك

لو فعلت ؟ قال : فمن ترون ؟ قالوا فلانا ، فبعث رجلا وأعطاه مئة ألف ، فخرج
بمختصر في مطبخه لم يخرج إلا لياكل في مطبخه : فلما قدم إلى الشام رأى صاحب الطليعة
أكثر أهل الأرض فرسانا ورجالا جلدا ، فكبر ذلك في عينه فلم يصل ولم يسألهم عن شيء
وكان بمختصر دخل الشام ، ولم يزل يجلس مجلس أهل الشام ويسألهم ويقول لهم : ما منعكم
أن تغزوا بابل ، فلو غزوتموها لنتم منها شيئا كثيرا ، فقالوا : إنا لانحسن القتال ولا نقاتل
حتى انتقد مجالس أهل الشام وتعرف سرائرهم ، ثم إن الطليعة رجعوا فأخبروا ملكهم بما
رأوا ، وكان بمختصر رجع معهم ، فجعل يقول لفرأش الملك : لو دعاني الملك لأخبرته
غير الخبر الذي أخبره فلان وفلان ، فرفع ذلك إلى الملك ، فدعاه فأخبره الخبر وقال :
إن فلانا لما رأى أكثر أهل الأرض كُراعاً ورجالا جلدا كبر ذلك في عينه ولم يسألهم عن
شيء ، وإني لم أدع مجلسا بالشام إلا جلست فيه أسأل أهله ، فقلت لهم كذا وكذا ، وقالوا
كذا وكذا . قال سعيد بن جبير : قال صاحب الطليعة لمختصر : فضحتي لك مئة ألف
دينار وترجع عما قلت ، فقال له : لو أعطيتني بيت مال بابل ما رجعت عما قلت . ثم
ضرب الدهر ضربانه ، فقال الملك : لو بعثنا جريدة خيل إلى الشام ، فإن وجدوا مساغا
ساغوا وإلا أمسكوا ما قدروا عليه ، فقالوا : ما ضرك لو فعلت ذلك ؟ قال : فمن ترون ؟
قالوا فلانا ، قال : بل الرجل الذي أخبرني بما أخبرني ، فدعا بمختصر فبعثه ، ثم انتخب
معه أربعة آلاف فارس من فرسانهم ، فانطلقوا فجاسوا خلال الديار ، فسبوا ما شاء الله
تعالى ولم يخبروا ولم يقتلوا ، ومات صبحون الملك ، فقالوا : استخلفوا ملكا ، قالوا
على رسلكم حتى تأتي أصحابكم ، فإنهم فرسانكم ، فأمهلوا حتى جاء بمختصر بالسبي وما معه
فقسمه بين الناس ، فقالوا : ما رأينا أحدا أحق بالملك منه .

فهذه القصة الأولى ، فلكوه على أنفسهم .
وقال السدي بإسناده إن رجلا من بني إسرائيل رأى في المنام أن خراب بيت المقدس
وهلاك بني إسرائيل على يد غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل يدعى بمختصر ، وكانوا
بصدقون فتصدق رؤياهم ، فأقبل يسأل عنه حتى نزل في بيت أمه ، وكان قد ذهب
بخطب فجاء وعلى رأسه حزمة حطب فألقاها ، ثم قعد في جانب البيت فكلمه ، ثم
أعطاه ثلاثة دراهم وقال : له اشتر بها طعاما وشرابا ، فاشترى بدرهم لحما وبدرهم خبزا
وبدرهم خمرا ، وجاء به فأكلوا وشربوا ، حتى إذا كان اليوم الثاني فعل به مثل ذلك ،
واليوم الثالث فعل كذلك ، ثم قال له الإسرائيلي : إني أحب أن تكتب لي أمانا إذا أنت
ملكتم يوما من الدهر ، فقال بمختصر : أتسخر مني ؟ قال : لا أفسد منك ، ولكن ما عليك
أن تجعل عندي لك يدا ، فكلمته أمه فقالت : ما عليك إن كان ، وإلا لم ينقصك شيئا ،
فكتب له أمانا ، فقال : رأيت إن جئتك والناس حولك قد حالوا بيني وبينك ، فاجعل
لي علامة تعرفني بها ، قال : ترفع صحيفتك على قصبه فأعرفك بها ، فكتب له أمانا وأعطاه

إياه ؛ ثم إن ملك بني إسرائيل كان بكرم يحيى بن زكريا عليهما السلام ويدين مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمرا دونه ، وإن الملك هوى أن يتزوج بنت امرأة له ، هذا قول السدى ، وقيل كانت بنت أخته ، لما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس . قال : بعث عيسى بن مريم يحيى بن زكريا عليهم السلام في اثني عشر من الخواريين يعلمون الناس وكان فيما نهاهم عنه نكاح بنت الأخت . قال : وكان للملكم ابنة أخت تعجبه ويريد أن يتزوجها ، وكان لها في كل يوم حاجة يقضيها لها ، وذكر الحديث في مقتل يحيى بن زكريا عليهما السلام .

رجعنا إلى حديث السدى : قال : فسأل يحيى عن نكاحها ، فقال : لست أرضاها لك ، فبلغ ذلك أمها ، فحققت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها ، فعمدت حين جلس الملك على شرابه ، فألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا فاخرة ، وطيبتها وألبستها من الحللى شيئا لا قيمة له من غايته ، وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه الخمر وأن تتعرض له ، فإن راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله ، ويكون الذى تسأله أن تأتى برأس يحيى بن زكريا فى طشت ، ففعلت ذلك وجعلت تسقيه الخمر وتعرض له ، فلما أخذ من يدها الشراب ، راودها عن نفسها ، فقالت : لأفعل حتى تعطيني ما أسألك ؟ قال : وما تسأليني ؟ قالت : أسألك أن تبعث إلى يحيى بن زكريا فتأتى برأسه فى طشت ، فقال : ويحك سأليني غير هذا ، قالت : ما أريد غير هذا . فلما أبت عليه بعث إلى يحيى فأتى برأسه ، فجعلت الرأس تتكلم حتى وضعت بين يديه وهى تقول : إنها لا تحل لك . فلما أصبح الملك ، وإذا دم يحيى يغلى ، فأمر بالتراب فألقى عليه ، فرقى الدم فوق التراب يغلى ، فألقى عليه أيضا وارتفع الدم فوقه ، فلم يزل يلقى عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى ، فبلغ سنحاريب ملك بابل ذلك ، فنادى فى الناس وأراد أن يبعث لهم جيشا ويؤمر عليهم رجلا ، فأناه بختنصر وكلمه وقال : إن الذى أرسلت تلك المرة ضعيف ، وإنى قد دخلت المدينة وسمعت كلام أهلها فابعثنى ، فبعث بختنصر حتى إذا بلغوا ذلك المكان ورآهم أهله ، تحصنوا فى مدائنهم فلم يطقهم . فلما اشتد عليهم المقام وجاع أصحابه أرادوا الرجوع ، فخرجت إليهم عجوز من عجائز بني إسرائيل وقالت : أين أمير الجند ؟ فأتى بها إليه ، فقالت له : بلغنى أنك تريد الرجوع بجندك قبل أن تفتح هذه المدينة . قال : نعم قد طال مقامى وجاع أصحابى ، فلست أستطيع المقام فوق الذى كان منى . قالت : أرأيتك إن دلتك على فتح المدينة تعطيني ما أسألك وتقتل من أمرك بقتله وتكف عن أمرك بالكف عنه ؟ قال لها نعم ، قالت : إذا أصبحت فاقسم جندك أربعة أقسام ، ثم اقسم على كل زاوية ربعا ، ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء ونادوا : يا ربنا دلنا على من قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تساقط سور المدينة ، ففعلوا ذلك فتساقط سور المدينة

ودخلوا من جوانبها ، فانطلقت به إلى دم يحيى بن زكريا عليهما السلام وقالت له : اقتل على هذا الدم حتى يسكن ، فقتل عليه سبعين ألفا حتى سكن . فلما سكن الدم قالت له : كف يدك ، فإن الله تعالى إذا قتل نبي لا يرضى حتى يقتل من قتله ومن رضى بقتله ، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته ، فكف عنه وعن أهل بيته ، وخرّب بيت المقدس وأمر أن تطرح فيه الجيف وقال : من طرح عليه جيفة فله جزيته في تلك السنة ، وأعانه على خرابه الروم ، من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا ، فلما خربه بختنصر ذهب بوجوه بنى إسرائيل وسراياهم .

قصة دانيال عليه الصلاة والسلام

وذهب دانيال وقوم من أولاد الأنبياء وذهب معه برأسن جالوت . فلما قدم بختنصر أرض بابل وجد سنحاريب قد مات ، فملك مكانه واستقام له الأمر وثبت على ذلك مدة . ثم إن بختنصر رأى رؤيا عجيبة فأفزعته ، فسأل عنها السحرة والكهنة فمعجزوا عن تفسيرها فبلغ ذلك دانيال وكان في السجن مع أصحابه ، وقد أحبه صاحب السجن وأعجب به لما رأى من حسن سمته وهدايته ، فقال دانيال لصاحب السجن : إنك قد أحسنت إلى ، وإن صاحبكم قد رأى رؤيا فدلّه علىّ لأعبرها له ، فجاء السجنان وأخبر بختنصر بقصة دانيال فقال علىّ به ، وكان لا يقف بين يديه أحد إلا سجد له ، فأتوا به فقام بين يديه ولم يسجد له ، فقال له : ما الذى منعك من السجود لى ؟ فقال له : إن لى ربا آتانى العلم والحكمة وأمرنى أن لا أسجد إلا له ، فخشيت إن سجدت لغيره أله ينزع منى العلم الذى آتانى وبهلكنى . فأعجب به وقال : نعم ما فعلت ، وقد أحسنت حيث وفيت بعهدك ، وأجلت علمه ، ثم قال له : هل عندك علم بهذه الرؤيا ؟ وهل لك فى تعبيرها ؟ قال نعم ، قال : فأخبرنى ، فأخبره رؤياه التى رآها قبل أن يخبره بها ، ثم عبرها . وكانت الرؤيا ما أخبرنا عبد الله ابن حامد بإسناده عن وهب بن منبه يقول : إن بختنصر رأى فى منامه صنما رأسه من ذهب وصدرة من فضة وبطنه من نحاس وفخذه من حديد وساقه من فخار ، ثم رأى حجرا من السماء قد وقع عليه فدقه ، ثم ربا الحجر حتى ملأ ما بين المشرق والمغرب ، ورأى شجرة أصلها فى الأرض وفرعها فى السماء ، ثم رأى رجلا بيده فأس ، وسمع مناديا ينادى : اضرب جذعها ليتفرق الطير عن فروعها وتتفرق الدواب والسباع من تحتها ، واترك أصلها قائما ، فعبرها له دانيال عليه السلام . فقال : أما الصنم الذى رأيت رأسه من ذهب فانت الرأس الذهب وأنت أفضل الملوك ، وأما الصدر الذى رأيت من فضة فهو ابنك يملك من بعدك ، وأما البطن الذى رأيت من نحاس فملك يكون بعد ابنك ، وأما ما رأيت من الفخذ الذى من حديد ، فتتفرق فرقتان فى فارس تكونان أشد الملوك ، وأما الفخار فأخر ملكهم يكون دون الحديد ، وأما الحجر الذى رأيت قد وقع من السماء ، وربا حتى ملأ ما بين

المشرق والمغرب فنبى بيعه الله في آخر الزمان ، فيفرق ملكهم كلهم ويربو ملكه حتى يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وأما الشجرة التي رأيت والطير الذي عليها والسباع والدواب التي تحتها وما أمر بقطعها ، فيذهب ملكك ويردك الله طائرا نورا عظيما فتملك الطيور ، ثم يردك الله نورا فتملك الدواب ، ثم يردك الله أسدا فتملك السباع والوحوش وتكون منذ مسخك الله على ما ذكرنا سبع سنين في ذلك كله وقلبك قلب إنسان ، حتى تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وهو يقدر على الأرض ومن عليها . وأما ما رأيت من أن أصلها قائم فإن ملكك قائم . فسئل وهب بن منبه أكان مؤمنا أم لا ؟ فقال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا في ذلك ، فمنهم من قال مات مؤمنا ، ومنهم من قال مات كافرا ، لأنه حرق بيت المقدس والكتب التي فيه وقتل الأنبياء ، وغضب الله عليه غضبا شديدا فلم يقبل منه يومئذ توبته . قالوا : فلما عبر دانيال لبختنصر رؤياه وأخبره بها أكرمه وأكرم أصحابه ، وجعل يقبل عليه ويستشيره في أموره حتى كان أكرم الناس عليه وأحبهم إليه ، فحسده المجوس على ذلك ، فوشوا به وبأصحابه إلى بختنصر فقالوا له : إن دانيال وأصحابه ما يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك ، فدعاهم وسألهم ، فقالوا : أجل إن لنا ربا نعبده ولسنا نأكل من ذبيحتكم ، فأمر بأخدود فخذلهم وألقوا فيه وهم ستة ، وألقى معهم سبع ضار لياكلهم ، ثم قال : انطلقوا لتأكل ونشرب ، فذهبوا فأكلوا وشربوا ، ثم إنهم رجعوا ، فوجدوهم جلوسا ، والسبع مفترش ذراعيه بينهم ولم ينجس منهم أحدا ولم ينكأهم بشيء ، ووجدوا معهم رجلا زائدا ، فعدوهم فوجدوهم سبعة ، فقالوا : ما بال هذا السابع ، وإنما كانوا ستة فخرج إليهم السابع ، وكان ملكا من الملائكة ، فلطم بختنصر لطمه فصار في الوحوش والسباع ومسخه الله سبع سنين ، ثم رده إلى صورته ورد عليه ملكه . قال السدى : فلما رد الله عليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه ، فحسدهم المجوس أيضا ووشوا بهم ثانية وقالوا لبختنصر : إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول ، وكان ذلك فيهم عارا ، فجعل لهم بختنصر طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا منه ، ثم قال للبواب : انظر أول من يخرج عليك ليبول قاضربه بالطير ذان ، فإن قال أنا بختنصر ، فقل له كذبت ، إن بختنصر أمرني ، فحبس الله عن دانيال وأصحابه البول ، فكان أول من قام من القوم يريد البول بختنصر ، فقام مدلا ، وكان ذلك ليلا ، فقام يسحب ثيابه ، فلما رآه البواب شد عليه ، فقال له أنا بختنصر ، فقال كذبت إن بختنصر أمرني أن أقتل كل من يخرج أولا ، ثم ضربه فقتله .

وأما محمد بن إسحق فإنه قال في هلاك بختنصر غير ما قاله السدى . وذلك أنه قال بإسناده : لما أراد الله هلاك بختنصر قال لمن كان في يده من بني إسرائيل : أرايتم هذا البيت الذي خربت ، وهؤلاء الناس الذين قتلتم ، من هم؟ وما هذا البيت؟ فقالوا : هذا بيت الله تعالى ومسجد من مساجده ، وهؤلاء أهله كانوا من ذراعى الأنبياء فظاموا وتعادوا وعصوا ،

فسلط الله عليهم عدوهم بذنوبهم ؛ قال : فأخبروني ما الذى يطلع بي إلى السماء وأطلع عليها فأقتل من فيها وأتخذها ملكا ، فإني قد فرغت من الأرض وما فيها ؟ قالوا : ما يقدر عليها أحد من الخلق ، فقال : لتفعلن أو لأقتلنكم عن آخركم ، فشكوا إلى الله تعالى وتضرعوا ، فبعث الله تعالى عليه بقدرته ليريه ضعفه وهوانه ، بعوضة دخلت ، منخره ثم ساخت فيه حتى عضت بأم دماغه ، فما كان يقر ولا يسكن حتى يضرب على أم دماغه . فلما عرف الموت قال لخاصته من أهله : إذا أنا مت فشقوا رأسي وانظروا ما الذى قتلتني . فلما مات شقوا رأسه ، فوجدوا البعوضة عاضة بأم دماغه ليرى الله العباد قدرته وسلطانه . ونجى الله تعالى من كان بقي في يده من بنى إسرائيل ورحمهم ورددهم إلى إيلياء والشام ، فبنوا فيها وربوا وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه . فيزعمون أن الله أحيا المؤمنين الذين قتلوا ولحقوا بهم ؟ ثم إنهم لما رجعوا إلى الشام وجدوا يختنصر قد أحرق التوراة وليس معهم عهد من الله ، فجدد الله توراتهم ، وردّها إليهم على لسان عزيز ، وسنذكر القصة فيه إن شاء الله تعالى . وكان عمر يختنصر أيام مسخه نيفا وخمس مئة عام وخمسين يوما . فلما مات يختنصر استخلف ابنه فلسطين ، وكانت آنية بيت المقدس التي حملها يختنصر إلى بابل عنده ، وكان نجسها بلحوم الخنازير وشرب فيها الخمر ، وأقصى دانيال فلم يقبل منه ، فاعتزل دانيال ، فبينما فلسطين قاعد ذات يوم ، إذ بدت له كف معلقة بغير ساعد ، فكتبت ثلاثة أحرف بمشهده ، ثم غابت ، فعجب من ذلك وتحير ولم يدر ما هي ! فدعا دانيال عليه السلام واعتذر إليه ، وسأله أن يقرأ له ذلك الكتاب ويخبره بتأويله ، فقال دانيال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وزن فخف ، ووعد فأنجز ، وجمع ففرق ؛ فقال : أما قوله وزن فخف : أى وزن عمك في الميزان فخف ؛ ووعد فأنجز : أى وعد ملكك بالحرب فأنجز اليوم ؛ وجمع ففرق : أى جمع لك ولوالدك من قبلك ملكا عظيما ، ثم فرق اليوم فلا يجتمع إلى يوم القيامة ، فلم يلبث إلا قليلا حتى أهلكه الله تعالى وضعف ملكهم ، وبقي دانيال عليه السلام بأرض بابل إلى أن مات بالسُّوس ، والله أعلم .

خبر وفاة دانيال عليه السلام

قال أهل الأخبار : لما فتح الله السوس على يد أبي موسى الأشعري في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، قتل أبو موسى ملكها سابور ، واحتوى على المدينة ، فغنم ما فيها وأخذ أموال سابور وملكها ، وجعل يدور في الخزائن فيأخذ ما فيها حتى أفضى إلى خزانة مقفلة وقد ختم على قفلها بالرصاص ، فقال أبو موسى الأشعري لأهل السوس : ما في هذه الخزانة فإني أراها مختومة بالرصاص ؟ فقالوا له : أيها الأمير ليس فيها شيء من حاجتك ، فقال : لا بد لي أن أعلم ما فيها ، فافتحوا بابها حتى أنظر ما فيها ، فكسروا القفل وفتحوا الباب ، فدخل أبو موسى الخزانة ، فنظر فإذا هو بحجر طويل محفور على مثال

الحوض ولبه رجل ميت ، وقد كفن بأكفان منشوجة بالذهب ورأسه مكشوفة ، قال : فتعجب أبو موسى من طوله وكل من كان معه ، ثم إنهم شبروا أنفه فإذا هو يزيد على شبر ، فقال أبو موسى لأهل السوس : ويحكم من هذا الرجل ؟ قالوا : إن هذا الرجل كان بالعراق ، وكان أهل العراق إذا حبس عنهم المطر استسقوا به فيسقون ، فأصابنا من قحط المطر ما كان يصيب أهل العراق ، فأرسلنا إليهم وسألناهم أن يدفعوه إلينا حتى نستسقى به ، فأبوا علينا ، فرهنا عليه عندهم خمسين رجلا وحملناه إلى بلدنا هذا ، ثم استسقينا به فسقينا ، فرأينا من الرأى أن لا نرده إليهم ، فلم يزل مقبلا عندنا إلى أن أدركه الموت فمات ، فهذه قصته وحاله . قال : فأقام أبو موسى الأشعري بالسوس وكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بما فتح الله عليهم من مدينة السوس وما والاها ، وكتب في كتابه أمر ذلك الرجل الميت ؛ فلما وصل الكتاب وقرأه عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعا أكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألهم عن ذلك ، فما وجد عند واحد منهم علمه ، فقال على ابن أبي طالب رضى الله عنه : إن هذا الرجل دانيال الحكيم ، وهو نبي غير مرسل كان في قديم الزمان مع بختنصر ومن كان بعده من الملوك ، وجعل على بن أبي طالب رضى الله عنه يحدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن قصة دانيال من أولها إلى آخرها إلى وقت وفاته ، ثم قال : اكتب إلى صاحبك وأمره أن يصلى عليه ويدفنه في موضع لا يقدر عليه أهل السوس ، فكتب عمر إلى أبي موسى بذلك ، فلما قرأ أبو موسى كتاب عمر أمر أهل السوس أن يكفوا نهرهم إلى موضع آخر ، ثم أمر بدانيال فكفن بأكفان غير التي كانت عليه ، ثم صلى عليه هو وجميع من كان معه من المسلمين ، ثم أمر بقبر فحفر له في وسط النهر ، ثم دفنه وأجرى عليه النهر . فيقال إن دانيال عليه السلام في نهر السوس والماء يجري عليه إلى يومنا هذا ، والله أعلم .

قال الأستاذ رضى الله عنه : فهذا الذى ذكرت جميع أمر بختنصر الذى جاء فى التفسير ، إلا أن رواية من يروى أن بختنصر هو الذى غزا بنى إسرائيل عند قتلهم يحيى غلط عند أهل السير والأخبار والعلماء بأمور الماضين من أهل الكتاب والمسلمين ، وذلك أنهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بنى إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيبا وفى عهد أرميا عليه السلام ، وهى الواقعة الأولى التى قال الله تعالى فيها (فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأسا شديدا فجاجسوا خلال الديار) . . . الآية : يعنى بختنصر وجنوده . قالوا : ومن عهد أرميا وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربع مئة وإحدى وستون سنة ، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى آخر عمرانه فى عهد كربن بن حرسو بن شير بن أصهيل بيابل من قبل بهمن اسفنديار ابن يستاسف سبعون سنة ، ثم من بعد عمرانه إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس

وإحصاره ملكها. وضمه إلى مملكته ثمانية وثمانون سنة ، ثم من بعد ملكه بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا ثلاث مئة وثلاثون سنة ، وإنما الصحيح في ذلك ما ذكره محمد ابن إسحاق بن يسار : قال عمرت بنو إسرائيل بيت المقدس بعد ما عمرت الشام وعاد إليها ملكها بعد إخراب بختنصر إياها وسبيهم منها ، فجعلوا يحدثون الأحداث بعد مهلك عزير عليه السلام ، فبعث الله فيهم الأنبياء ، ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون ، حتى كان آخر من بعث الله إليهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وكانوا من آل داود عليه السلام ، فمات زكريا ، وقتل يحيى بسبب نهي الملك عن نكاح تلك المرأة ، فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى بن زكريا عليهم السلام بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له (كردوس) فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام ، فلما دخل عليهم أمر رئيسا من رعوس جنوده يقال له (بنورا زادان) صاحب القتل ، فقال له : إني قد حلفت بإلههم لئن أنا ظهرت وظفرت على أهل بيت المقدس لأقتلهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري إلى أن لا أجد أحدا أقتله ، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ، ثم إن بنورا زادان دخل بيت المقدس ، فأقام في البقعة التي كانوا يقربون فيها قربانهم ، فوجد فيها دما يغلي ، فسألهم عنه ، فقالوا : هذا دم قربان قربناه ، فلم يقبل منا فلذلك هو يغلي كما تراه ، ولقد قربنا منذ ثمان مئة سنة القربان فقبل منا إلا هذا ، قال : ما صدقتموني الخبر . فقالوا له : لو كان أول دماننا لقبل منا ، ولكنه قد انقطعت منا الملوك والأنبياء والوحي فلذلك لم يقبل ، فذبح منهم بنورا زادان على ذلك الدم سبع مئة وسبعين رئيسا من رعوسهم ، فلم يهدأ الدم ، فأمر بسبعة آلاف من بنينهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ ، فلما رأى بنورا زادان الدم لا يهدأ قال لهم : ويلكم يا بني إسرائيل اصدقوني قبل أن أفنيكم واصبروا على أمر ربكم ، فلقد ظالمنا ملككم في الأرض تفعلون فيها ما شئتم ، صدقوني قبل أن لا أترك منكم نافع نار ولا أنثى ولا ذكرا إلا قتلته ، فلما رأوا الجذ وشدة القتل صدقوه الخبر وقالوا : إن هذا دم نبي منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله ، فلو أننا أطعناه فيها لكان أرشد لنا ، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه وقتلناه ، فهذا دمه يغلي ، فقال بنورا زادان : ما كان اسمه ؟ قالوا : يحيى بن زكريا ، قال : الآن صدقتموني ، بمثل هذا ينتقم منكم ربكم . فلما رأى بنورا زادان أنهم صدقوه خرا ساجدا وقال لمن حوله : أغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان هنا من جيش كردوس ، وأبقوا من بقى من بني إسرائيل ، ثم قال : يا يحيى بن زكريا قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم من أجلك ، فاهدا بإذن الله تعالى قبل أن لأبني أحدا من قومك ، فهذا دم يحيى بن زكريا بإذن الله تعالى ، ورفع بنورا زادان عنهم القتل ، ثم قال : آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وصدقت به وأيقنت أنه لارب غيره ، فأوحى الله تعالى إلى رأس من رعوس بقية الأنبياء أن بنورا زادان حنون صدوق ، وحنون بالعبرانية : حديث

الإيمان ، ثم إن بنورا زادان قال لبنى إسرائيل: إن عدو الله كردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره ، وإنى لست أستطيع أن أعصيه ، فقالوا له : افعل ما أمرت به ، فأمرهم فحفروا خندقا ، ثم أمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم في العسكر ، وأمر بنقل الذين كانوا قتلوا قبل ذلك ، فطرحوا على ما قتل من مواشيهم وكانوا فوقهم ، فلم يظن كردوس إلا أن ما في الخندق من بنى إسرائيل. فلما بلغ الدم إلى عسكره أرسل إلى بنورا زادان: أن ارفع عنهم القتل فقد بلغتني دماؤهم ، ثم إنه انصرف عنهم إلى بابل وقد أفنى بنى إسرائيل أو كاد أن يفنيهم ، وهى الوقعة الأخيرة التى أنزل الله تعالى فيها قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين) الآيات ، فكانت الوقعة الأولى لبختنصر وجنوده ، ثم رد الله لهم الكرة ، وكانت لهم الديانة والرياسة ، وكانت الوقعة الأخيرة لكردوس وجنوده ، فلم تقم لهم من بعد ذلك قائمة ولا راية ، وانتقل عن الشام ونواحيها إلى الروم واليونانية إلى أن تناسل بنو إسرائيل وكثروا وانتشروا بعد ذلك ، وأحدثوا الأحداث ، واستحلوا المحارم وضيعوا الحدود ، فسلط الله عليهم بلطوس بن أسنابوس فخرّب بلادهم وطردهم عنها ، ونزع الله تعالى منهم الملك والرياسة ، وضرب عليهم الذلة ، فليسوا فى أمة من الأمم إلا وعليهم الصغار والذلة والجزية ، والملك فى غيرهم وبقى بيت المقدس خرابا إلى أيام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فعمره المسلمون بأمره ، والله أعلم .

باب فى ذكر الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها

قال الله تعالى (أو كالتى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها) . . . الآية . واختلفوا فى ذلك المار من كان ؟ فقال عكرمة وقتادة والربيع بن أنس والضحاك والسدى هو عزير بن شرحيا . وقال وهب بن منبه وعبد الله بن حميد وعبيد بن عمير : هو أرمياء ابن خلفياء ، وكان من سبط هارون بن عمران ، وهو الخضر . واختلفوا أيضا فى القرية التى مر عليها ، فقال عكرمة ووهب وقتادة والربيع : هى بيت المقدس . وقال الضحاك : هى الأرض المقدسة . وقال السدى : هى سلما باذ . وقال الكلبي : هى دير سايرا باذ . وقيل دير هرقل ، وقيل هى قرية العنب ، وهى على فرسخين من بيت المقدس . وكان السبب فى ذلك ماروى محمد بن إسحاق بن يسار عن وهب بن منبه أن بختنصر لما وطئ الشام وخرّب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل وسباهم ، طار أرمياء حتى خالط الوحوش . فلما ولى بختنصر عنهم راجعا إلى بابل ومعه سبايا بنى إسرائيل ، أقبل أرمياء على حمار له ومعه عصير عنب فى ركوة وسلّة تين حتى غشى إيلياء . فلما وقف عليها وعابن خرابها (قال : أتى بجنى هذه الله بعد موتها) ؟ ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد ، وألقى الله تعالى عليه النوم ، فلما نام نزع منه الروح مئة عام ، ومات حماره ، وعصيره وتينه عنده ،

وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد ، وذلك ضحى ، ومنع الله السباع والطير عن حمله ، فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكا إلى ملك من ملوك فارس عظيم يقال له (يوشك) فقال له : إن الله يأمرك أن تنفر بقومك وتعمر بيت المقدس وإيلياء وأرضهما حتى يعودا أعمر ما كانا ، فانتدب الملك ألف قهرمان ، مع كل قهرمان ثلاث مئة ألف (١) عامل ، وجعلوا يعمرونها ، وأهلك الله تعالى بختنصر ببعوضة دخلت في دماغه ، ونجى الله تعالى من بقي من بني إسرائيل ، ولم يمض منهم جميعا أحد ببابل ، وردهم الله تعالى إلى بيت المقدس ونواحيها ، فعمروها ثلاثين سنة ، وكثروا حتى كانوا كأحسن ما كانوا عليه ، فلما مضت المئة عام على عزير أحيا الله منه عينيه ، وسائر جسده ميت ، ثم أحيا جسده وهو ينظر ، ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح ، وسمع صوتا من السماء . أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي ، فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض ، ثم نادى ثانية : إن الله يأمرك أن تكتسى لحما ودما وجلدا ، فكان كذلك ، ثم نادى إن الله يأمرك أن تحيي ، فقام حماره ينهض بإذن الله تعالى ، وعمر الله أرمياء ، فهو الذي يوجد في القلوات :

أخبرني ابن فتحويه الحافظ بإسناده عن وهب قال : ليس في الجنة كلب ولا حمار إلا كلب أهل الكهف وحمار أرمياء الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه . وقال الذين قالوا إن المار كان عزيرا : إن بختنصر لما خرب بيت المقدس قتل أربعين ألف رجل من قراء التوراة والعلماء بها ، وقتل فيهم أبا عزير وجده ، وكان عزير يومئذ غلاما ، قد قرأ التوراة وتقدم في العلم ، فأقدمه مع سبايا بني إسرائيل إلى أرض بابل ، وهو من ولد هارون ، وكان معه سبعة آلاف من أهل بيت داود . فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل على دير هرقل على شاطئ دجلة ، فطاف في القرية فلم ير فيها أحدا ، وعامة شجرها حامل ، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه ، وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق . فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) لم يشك في البعث ، ولكن قالها تعجبا ، ثم ربط حماره بجبل جديد ونام (فأماته الله مئة عام ثم بعثه) فأتاه جبريل عليه السلام فقال له (كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم) وذلك أن الله تعالى أماته ضحى وأحياه آخر النهار قبل غيبوبة الشمس ، فقال لبثت يوما ، وهو يرى أن الشمس قد غربت ، ثم التفت فرأى بقية الشمس ، فقال : أو بعض يوم ، فقال له جبريل عليه السلام : (بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك) يعني التين (وشرايبك) يعني عصير العنب (لم يتسنه) يعني لم يتغير (وانظر إلى

(١) قوله مع كل قهرمان ثلاث مئة ألف الخ ، كذا بالأصل ، وهو مما لا يمكن عادة كما

لا يخفى . اهـ . صححه .

همارك) قال قوم : وذلك أن الله تعالى لم يمت حماره ، فأحيا له الله تعالى رأسه ، وسائر جسده ميت ، ثم قال له : انظر إلى حمارك ، فنظر فرأى حماره قائما كهيئته يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مئة عام ، ونظر إلى الرسن في عنقه جديدا لم يتغير ، وهذا قول الضحاك وقتادة . وتقدير الآية على هذا القول : وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها . وقال آخرون : أراد به عظام حماره كما قدمنا ذكره ، فذلك قوله تعالى (وَلِنَجِّمَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ) أي عبرة ودلالة على البعث بعد الموت . وقال الضحاك : هو أنه عاد إلى قريته وأولاده وأولاد أولاده ، فوجدهم شيوخا وعجائز وهو أسود الرأس واللحية .

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ بإسناده عن ابن عباس قال : لما أحيا الله عزيزا بعد ما أماته مئة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر منازله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مئة وعشرون سنة وكانت أمة له ، فخرج عنهم عزيز وهي بنت عشرين سنة ، وكانت عرفته وعقنته ، فلما أصابها الكبر أصابها الزمانة ، فقال لها عزيز : يا هذه هذا منزل عزيز ؟ قالت : نعم ، هذا منزل عزيز ، ما رأيت كذا وكذا سنة أحدا يذكر عزيزا وقد نسيه الناس ، قال : فأني أنا عزيز ، قالت : سبحان الله ، فإن عزيزا قد فقدناه منذ مئة سنة ولم نسمع له بذكر ، قال : فأني أنا عزيز ، كان الله قد أماتني مئة سنة ثم بعثني ، قالت : فإن عزيزا كان رجلا مستجاب الدعوة ، يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء فيعافيه الله تعالى ويشفيه ، فادع الله تعالى أن يرد عليّ بصري حتى أراك ، فإن كنت عزيزا عرفتك . قال : فدعا ربه ومسح بيده على وجهها وعينها فاستجاب الله له فعوفيت ورد الله عليها بصرها ، ثم أخذ بيدها وقال لها : قومي بإذن الله تعالى ، فأطلق الله رجلها فقامت صحيحة كأنما أنشطت من عقال ، فنظرت إلى عزيز فعرفته ، فقالت : أشهد أنك عزيز . ثم إنها انطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أفنيهم ومجالسهم وابن عزيز شيخ ابن مئة سنة وثمان عشرة سنة ، وبنو بنيه شيوخ في المجلس ، فنادت هذا عزيز قد جاءكم ، فكذبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فردّ عليّ بصري وأطلق رجلي ، وزعم أن الله أماته مئة سنة ثم بعثه . قال : فهض الناس وأقبلوا إليه ، فقال ابنه : كانت لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه . فكشف عن كتفه فإذا هي بحالها ، فعرف عند ذلك أنه عزيز عليه الصلاة والسلام .

باب في ذكر تمام قصة عزيز عليه السلام ، وحاله بعد ما رجع إلى قومه

قال الله تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ) . روى عطية العوفي عن ابن عباس قال : قال : كان نعيم من أهل الكتاب ، وكانت التوراة عندهم ، فعملوا بها ما شاء الله أن يعملوا ، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق ، وكان التابوت فيهم . فلما رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوها وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم ،

فأرسل الله عليهم مرضا ، فاستطلقت بطونهم حتى كان الرجل يمس كبده حتى نسوا التوراة وفيهم عزيز ، فكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعد ما نسخت التوراة من صدورهم ، وكان عزيز قد أمر علماءهم أن يدعوا الله تعالى ، فدعا الله هو وإياهم ، وابتهل أن يرد إليه ما نسخ من صدره ، فبينما هو يصلي مبتهلا إلى الله ، إذ نزل نور من السماء فدخل جوفه ، فعاد إليه الذي كان ذهب من صدره من التوراة ، فأذن في قومه وقال : يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها إليّ ، فطفق يعلمهم ، فكثوا ما شاء الله أن يمكثوا وهو يعلمهم التوراة ، ثم إن التابوت نزل بعد ذلك بعد ذهابه منهم . فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزيز ، فوجدوه مثله ، فقالوا : والله ما أوتى عزيز هذا إلا لأنه ابن الله .

قال السدي وابن عباس في رواية عمار : إنما قالت اليهود هذا لأن العمالقة ظهروا عليهم فقتلوهم وأخذوا التوراة وهرب علماءهم الذين بقوا ، ودفنوا التوراة في الجبال وغيرها ، ولحق عزيز بالجبال والوحوش ، وجعل يتعبد في رموس الجبال ، ولا يخالط الناس ، ولا ينزل إلا يوم عيد ، وجعل يبكي ويقول : يا رب تركت بني إسرائيل بغير عالم ، وجعل يبكي حتى سقطت أشفار عينيه ، فنزل مرة إلى العيد ، فلما رجع فإذا هو بامرأة قد تمثلت له عند قبر من تلك القبور وهي تبكي وتقول : يا مطعماه يا مكسياه ، فقال لها عزيز : يا هذه اتقى الله واصبري واحتسبي ، أما علمت أن الموت سبيل الناس ، ثم قال لها : ويحك من كان يطعمك ويسقيك ويكسوك قبل هذا الرجل؟ يعني زوجها الذي كانت تندبه ، فقالت : الله تعالى ، قال : فإن الله عز وجل حي لا يموت أبدا ، قالت : يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال : الله تعالى ، قالت : فلم تبكي عليهم وقد علمت أن الموت حق ، وأن الله حي لا يموت؟ فلما علم عزيز أنه قد خصم ولي مدبرا ، فقالت له : يا عزيز إني لست امرأة ولكني الدنيا ، أما إنه سينبع لك في مصلاك عين وتنبت شجرة ، فكل من تلك الشجرة واشرب من ماء تلك العين واغتسل وصل ركعتين ، فإنه سيأتيك شيخ ويعطيك شيئا ، فما أعطاك فخذ منه . فلما أصبح نبعت العين في مصلاه ونبتت شجرة ، ففعل ما أمر به ، فجاء شيخ وقال له : افتح فاك ، ففتح فاه ، فألقى فيه شيئا كهيئة القوارير ثلاث مرات ، ثم قال له : ادخل هذه العين فامش فيها حتى تبلغ أملك . قال : فدخل وجعل لا يرفع قدمه إلا زيد في علمه ، فرجع إليهم وهو من أعلم الناس بالتوراة ، ثم قال : يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة ، قالوا : يا عزيز ما كنت كذابا ، فربط على كل أصبع له قلما ، وكتب بأصابعه كلها حتى كتب التوراة كلها عن ظهر قلبه ، فأحيا لهم التوراة والسنة . فلما رجع العلماء استخرجوا كتبهم التي دفنوها وقابلوها بتوراة عزيز فوجدوها مثلها ، فقالوا : ما أعطى الله له هذا إلا لأنه ابنه .

وقال الكلبي : إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل وهدم بيت المقدس وقتل من قرأ التوراة ، وكان عزيز إذ ذاك غلاما صغيرا ، فاستصغره فلم يقتله ، ولم يدرك أنه قد قرأ

التوراة : فلما مات مئة سنة ورجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة ، بعث الله تعالى فيهم عزيزا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم آية ، فأتاهم عزيز وقال أنا عزيز فكذبوه ، وقالوا : إن كنت عزيزا كما تزعم فأمل علينا التوراة ، فكتبها وقال : هذه التوراة . ثم إن رجلا قال : إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية دفنت في كرم فلان في موضع كذا ، فانطلقوا معه حتى احتفروا وأخرجوا الخابية والتوراة فيها ، فأخذوها وقابلوها بما كتب لهم عزيز ، فلم يجدوه غادر منها آية ولا حرفا فعجبوا وقالوا إن الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب رجل واحد منا بعد ما ذهبت من قلوبنا إلا أنه ابنه ، فعند ذلك قالت اليهود : عزيز ابن الله .

مجلس في ذكر غزوة بختنصر العرب

وقصة يوحنا وخراب حضور

قال الله تعالى (وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدتها قوما آخرين) إلى قوله (حصيدا خامدين) قال هشام بن محمد الكلبي وغيره : كان بدء نزول العرب أرض العراق واتخاذهم الحيرة والأنبار منزلا أن الله تعالى أوحى إلى يوحنا ابن برخيا بن رزيابيل بن سنبل ، وسنبل هذا هو أول من اتخذ الطفيشل ، كان من ولد يهوذا بن يعقوب أن ائت بختنصر ، وأمره أن يغزو العرب الذين لأغلاق لبيوتهم ولا أبواب ، ويطأ بلادهم ، ويقتل مقاتلهم ، ويستبيح أموالهم لكفرهم بي ، واتخاذ الآلهة دوني ، وتكذيبهم أنبيائي ورسلي ، وذلك بعد قتل أهل حضور ، وهي بلدة باليمن بعث الله فيهم نبيا ، فأقبل يوحنا حتى قدم على بختنصر ببابل ، فأخبره بما أوحى الله تعالى إليه ، وقص عليه ما أمره به ، وذلك في زمن معد بن عدنان ، فأوحى الله تعالى إلى يوحنا أني قد سلطت بختنصر على أهل قرية عربية لأنتقم به منهم ، فعليك بمعد بن عدنان الذي من ولده النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي أخرجه في آخر الزمان وأختم به النبوة وأرفع به من أطاعه ، فخرج تطوى له الأرض حتى سبق بختنصر ، فلقى عدنان وقد تلقاه ، فنظر إلى معد ، ولعدت يومئذ اثنتا عشرة سنة ، فحمله يوحنا إلى البراق وأردفه خلفه ، فانتهيا إلى أرض نجران من ساعتها . قالوا : ووثب بختنصر على من كان في بلاده من تجار العرب ، وكانوا يقدمون عليه بالتجارات والامتياز ، فجمع من ظفر به منهم ، فبنى لهم ديرا على نجف وحصنه ، ثم ضمهم فيه فقيدوا ووكل بهم حرسا وحفظة ، ثم نادى في الناس بالغزو ، فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب ، فخرجت إليه الطوائف منهم مسلمين مستأمنين ، فاستشار بختنصر فيهم يوحنا ، فقال : إن خروجهم إليك من بلادهم قبل هوضك إليهم رجوع منهم عما كانوا عليه ، فاقبل منهم وأحسن إليهم . قال : فأنزلهم

بختنصر السواد على شاطئ الفرات ، والتقى بختنصر مع العرب فهزمهم وأثنى فيهم بالقتل والأسر ، وسار حتى بلغ الحجاز ، والتقى عدنان في قومه من العرب وبختنصر بذات عرق فهزمهم ، ونادى مناد من جوف السماء : يا لثارات الأنبياء ، فأخذتهم السيوف من خلفهم ومن بين أيديهم ، فندموا على ذنوبهم ونادوا بالويل ، فذلك قوله تعالى (فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ) أى يسرعون هاربين ، فأخذتهم السيوف ، وقالت لهم الملائكة (لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ) ... الآية ؛ فلما عرفوا أنه واقع بهم أقروا بالذنوب (قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ) فما زالوا يدعون بها حتى هلكوا ، فذلك قوله تعالى (فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاَهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) ثم رجع بختنصر إلى بابل بما جمع من سبايا العرب فألقاهم في الأنبار ، فقيل : أنبار العرب ، وانضم إليه المستأمنون من العرب ، وخلي بختنصر أهل الدير بعد فراغه من غزو العرب ، وابتنوا لأنفسهم بلدين ، فسموا إحداهما الأنبار ، والأخرى الحيرة ، وخالطهم بعد ذلك النبط ، ومات عدنان وبقيت بلاد العرب خرابا في حياة بختنصر . فلما مات بختنصر رجع معد بن عدنان ومعه أنبياء بني إسرائيل حتى أتى مكة ، فأقام أعلامها ، وحج الأنبياء معه .

مجلس في ذكر لقمان الحكيم عليه السلام

وذكر بعض مواعظه وحكمته ووصيته لابنه

قال الله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) يعنى العقل والعلم والعمل به والإصابة في الأمور . واختلفوا في نسبه ، فقال محمد بن إسحاق بن يسار : هو لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ ، وهو آزر أبو إبراهيم عليه السلام . وقال وهب : كان ابن أخت أيوب عليه السلام . وقال مقاتل : كان ابن خالة أيوب . وقال الواقدي : كان قاضي بني إسرائيل وقال آخرون : كان عبدا . وقال مجاهد : كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين . وروى الأوزاعي عن عبد الرحمن بن حرمة قال : جاء أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله ، فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه قد كان من خير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا من السودان مصر ذا مشافر .

حدثنا الإمام أبو منصور الحمشاوى لفظا بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان عبدا حبشيا نجارا .
وأخبرني ابن فتحويه بإسناده عن سعيد بن المسيب أن لقمان عليه السلام كان خياطا ،

واتفق العلماء أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة ، فإنه كان يقول : إن لقمان كان نبياً ، تفرد بهذا القول .

حدثنا أبو منصور الحمشاي عن يأسناده أنه قال : كان نبياً . قال بعضهم : خير لقمان بين النبوة والحكمة ، فاختر الحكمة .

وروى نافع عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حَقًّا أَقُولُ لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ عَبْدًا عَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، كَثِيرَ التَّفَكُّرِ ، حَسَنَ الْبَقِيَّةِ ، أَحَبَّ اللَّهُ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ فَمَنَّ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ » .
وذلك أنه كان نائماً نصف النهار ، فجاءه النداء : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ؟ فأجاب الصوت فقال : إن خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلوى ، وإن عزم على فسمعا وطاعة ، فإنني أعلم أنه إن فعل بي أعانني وعصمني .
فقلت الملائكة : لم ياللقمان ؟ قال : لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها ، يغشاه الظلم من كل مكان إن أصاب فأرجو أن ينجو ، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة ، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ينير من أن يكون شريفاً ، ومن تخير الدنيا على الآخرة نفته الدنيا ولا تبقى له الآخرة ، فتعجبت الملائكة من حسن منطقته ، فنام نومة فأعطى الحكمة ، فانتبه فتكلم بها ، ثم نودي داود بعده فقبلها ولم يشترط بها ما اشترط لقمان ، فهم بالخطيئة غير مرة ، كل ذلك ويعفو الله عنه ، وكان لقمان يؤازره بحكمته ، فقال له داود : طوبى لك يا لقمان ، أعطيت الحكمة ، وصرف عنك البلاء ، وأعطى داود الخلافة وابتلى بالبلية والفتنة .

باب في ذكر بعض ما روى من حكم لقمان ومواعظه المذكورة في القرآن

قال الله تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) وقال أيضا (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) . . . الآيات .
أخبرنا أبو عبد الله الحسين الدينوري عن عكرمة قال : كان لقمان من أهون مملوك على سيده ، قال : فبعته مولاه مع رفقة له ليأتوه بشيء من ثمره فجاءوا وليس معهم شيء وقد أكلوا الثمرة وأحالوا على لقمان ، فقال لمولاه : إن ذا الوجهين لا يكون عند الله أمينا ، فاسقني وإياهم ماء جميعا ، ثم أرسلنا لنقذفه ، ففعل ، فجعلوا يتقايثون الفاكهة وجعل لقمان يتقايث ماء نقيا ، فعرف صدقه من كذبهم . قال : فأول ما رثي من حكمته أنه بينما هو مع مولاه إذ دخل المخرج ، فأطال فيه الجلوس فناداه لقمان : إن طول الجلوس على الحلاء يتجع منه الكبد ويورث الباسور وتصعد الحرارة إلى الرأس فاجلس هوبنا وقم ، قال : فخرج وكتب حكمته على باب الحش . قال : وسكر مولاه يوما فخاطر أقواما على أن يشرب ماء بحيرة ، فلما أفاق عرف ما وقع فيه ، فدعا لقمان ثم قال له : لمثل هذا اليوم كنت خبانك ، قال : أخرج كرسبك وأباريقك ثم اجمعهم .

فلما اجتمعوا قال لهم : على أى شىء خاطرتموني ؟ قالوا : على ماء هذه البحيرة ، فقال لهم لقمان : إن لها مواداً فاحبسوا عنها موادها حتى يشربها ، قالوا : وكيف نستطيع أن نحبس موادها ؟ فقال لقمان : وكيف يستطيع شربها ولها مواد ؟ .

أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن خالد الربيعي قال : كان لقمان عبدا حبشيا نجارا فقال له سيده اذبح لنا شاة فذبح له شاة ، فقال ائني بأطيب مضغتين منها ، فأناه باللسان والقلب ، فقال له : أما كان فيه شىء أطيب من هذا ؟ قال لا ؟ فسكت عنه . ثم قال له اذبح لنا شاة ، فذبح له شاة فقال ائني بأخبث مضغتين منها ، فجاء باللسان والقلب . فقال له : أمرتك أن تأتيني بأطيبها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، وأمرتك أن تأتيني بأخبثها مضغتين فأتيتني باللسان والقلب ، فقال له : إنه ليس بأطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا . وأخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن محمد بن عجلان قال : قال لقمان الحكيم : ليس مال كصحة ، ولا نعيم كطيب نفس .

وأخبرنا عبد الله بإسناده عن أبي هريرة قال : مر رجل بلقمان والناس مجتمعون عليه ، فقال له : أأست العبد الأسود الذى كنت راعيا بموضع كذا وكذا ؟ قال بلى ، قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعينى .

أخبرني الحسين بن محمد عن أبيه ، قال : قال لقمان : ضرب الوالد لولده كالماء للزرع . وعن عبد الله بن دينار أن لقمان قدم من سفر ، فلتقاه غلامه في الطريق فقال له : ما فعل أبى ؟ قال مات ، قال الحمد لله ملكت أمرى ، قال فما فعلت امرأتى ؟ قال ماتت ، قال جدد فراشى ، قال ما فعلت أختى ؟ قال ماتت ، قال سرت عورتى ، قال ما فعل أختى ؟ قال ماتت ، قال انقطع ظهري .

أخبرنا الحسين بن الحسن بن محمد بإسناده عن شقيق قال : قيل للقمان أى الناس أشر ؟ قال : الذى لا يبالي أن يراه الناس مسيئا . وقيل للقمان : ما أقبح وجهك ! قال : تعيب بهذا على النقش أو على الناقش ؟ .

وروى المحاربي عن سفيان الثوري قال : قال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيها ناس كثيرون ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله ، وليكن حشوها إيمانك بالله ، وشراعها التوكل على الله ، فلعلك تنجو وما أظنك ناجيا ؛ يا بني كيف لا يخاف الناس ما يوعدون ، وهم في كل يوم ينقصون ؟ ! يا بني خذ من الدنيا بلغة ولا تدخلن فيها دخولا فتضر فيها بأخرتك ، ولا ترفضها فتكون عيالا على الناس ، وصم صياما يقطع شهوتك ولا تصم صياما يمنعك عن الصلاة ، فإن الصلاة عند الله أعظم من الصوم . يا بني لا تتعلم العلم لتباهى به العلماء أو تمارى به السفهاء أو ترائى به في المجالس ، ولا تترك العلم زهادة فيه ، ورغبة في الجهالة . يا بني اختر المجالس على عينك ، فإن رأيت قوما يذكرون الله فاجلس إليهم ، فإنك إن تك عالما ينفعك علمك ويزيدوك علما ، وإن تكن مستأهلا

يعلموك ، ولعل الله أن يطالعهم برحمته فتعمك معهم ، وإذا رأيت قوما لا يذكرون الله فلا تجلس إليهم ، فإنك إن تكن عالما لا ينفعهم علمك ، وإن تكن جاهلا يزيدوك جهلا ، فاعل الله يطالعهم بالعقوبة فتعمك . يا بني لا تضع برك إلا عند راعيه ، كما ليس بين الكبش والذئب نخلة ، كذلك ليس بين البار والفاجر نخلة ، ومن يجب المراء يشتم ، ومن يدخل مداخل سوء يتهم ، ومن يقارن قرين سوء لا يسلم ، ومن لا يملك لسانه يندم ؛ يا بني كن عبدا للأخيار ولا تكن خليلا للأشرار . يا بني كن أمينا تكن غنيا ، ولا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر ؛ يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ولا تجادلهم فيمنعوك حديثهم ، وألطف بهم في السؤال إذ تركوك ، ولا تعجزهم فيملوك . يا بني لا تطلب من الأمر مدبرا ولا ترفض منه مقبلا ، فإن ذلك يقل الرأي ويزري بالعقل . يا بني إن تأدبت صغيرا انتفعت كبيرا . يا بني إذا سافرت فلا تأمن على دابتك فإن ذلك سريع في إدبارها ، وليس ذلك من فعل الحكماء إلا أن تكون في محل يمكنك فيه التمدد ، وإذا قربت من المنزل فانزل عن دابتك وسر ، ثم ابدأ بعلفها قبل نفسك ، وإياك والسفر في أول الليل ، وعليك بالتعريس والإدلاج من نصف الليل إلى آخره ، وسافر بسيفك وخفك وعمامتك وكسائك وسقائك وإبرتك وخيوطك ومخزك ، وتزود من الأدوية ما تنتفع به أنت ومن معك ، وكن لأصحابك موافقا موافيا إلا في معصية الله . يا بني إياك والتقنع فإنه بالنهار شهرة وبالليل ريبة . يا بني لا تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك ، فيكون مثلك مثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه . يا بني لا تحقرن من الأمور صغارها إن الصغار غدا تصير كبارا . يا بني إياك والكذب فإنه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك ، فعند ذلك يذهب حياؤك وبهاؤك جاهك وتهان ، ولا يسمع منك إذا حدثت ، ولا تصدق إذا قلت ، ولا خير في العيش إذا كان هكذا . يا بني إياك وسوء الخلق والضجر وقلة الصبر ، فلا يستقيم لك على هذه الخصال صاحب ، ولا يزال لك من الناس عليها مجانب ، وألزم نفسك التردد في أمورك والصبر على مرارات الأحوال ، وحسن مع جميع الناس خلقك ، فإن من حسن خلقه وأظهر بشره وبسطه حظى عند الأبرار وأحبه الأخيار وجانبه الفجار ؛ يا بني لا تعلق نفسك بالهموم ولا تشغل قلبك بالأحزان ، وإياك والطمع ، وارض بالقضاء ، واقنع بما قسم الله لك يصف عيشك وتسرى نفسك وتستلذ حياتك ، وإن أردت أن يجمع لك غنى الدنيا فاقطع طمعك عما في أيدي الناس ، فإنه ما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم عما في أيدي الناس . يا بني إن متاع الدنيا قليل وعمرك فيها قليل من قليل ، وقد بقي قليل من قليل القليل . يا بني اجعل معروفك في أهله ولا تضعه في غير أهله ، فتخسر في الدنيا وتحرم ثوابه في الآخرة ، وكن مقتصدا ولا تكن مبذرا ، ولا تمسك المال تقفيرا ولا تعطه تبذيرا . يا بني الزم الحكمة تكرم بها وأعزها تعزبها ، وسيد أخلاق الحكمة دين الله عز وجل . يا بني للحاسد ثلاث علامات : يفتاب

صاحبه إن غاب ، ويتملق إذا شهد ، ويشمت فيه بالمصيبة . تمّ خبر لقمان الحكيم وما وصى لابنه أنعم ، والله أعلم :

مجاس : في قصة بلوقيا

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الخزرقى ، بإسناده عن عبد الله بن ملام الإسرائيلي قال : كان في بني إسرائيل رجل يقال له أوشيا ، وكان من علمائهم وكان كثير المال وكان إماما لبني إسرائيل ، وكان قد عرف نعت النبي عليه الصلاة والسلام وأمته في التوراة ، فخبأه وكم عنهم ، وكان له ابن يقال له بلوقيا خليفة أبيه في بني إسرائيل ، وكان ذلك بعد سليمان ، فلما مات والده أوشيا وبقي بلوقيا والإمامة والقضاء في يده ، فقتل يوما خزائن والده فوجد فيها تابوتا من حديد مقفلا بقفل من حديد ، فسأل الخزان عن ذلك فقالوا لا ندرى ، فاحتال على القفل حتى فكه ، فإذا فيه صندوق من خشب الساج ، ففكه فإذا فيه أوراق فيها نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأمته مختومة بالمسك ، ففكها وقرأ ما فيها على بني إسرائيل ثم إنه قال : الويل لك ياأبت من الله فيما كتبت وكتمت من الحق عن بني إسرائيل ، فرده إلى أهله ، فقال بنو إسرائيل : يا بلوقيا لولا أنك إمامنا وكبيرنا لنبدشنا قبره وأخرجناه منه وأحرقناه بالنار ، فقال : يا قوم لا ضير إنما تبع حظ نفسه وخسر دينه وديناه ، فألحقوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأمته بالتوراة . قال : وكانت أم بلوقيا من الأحياء ، فاستأذنها في الخروج إلى بلاد الشام ، وكانوا يومئذ ببلاد مصر ، فقالت له : وما تصنع بالشام ؟ فقال : أسأل عن محمد وأمته ، فلعل الله تعالى أن يرزقني الدخول في دينه ، فأذنت له ، فبرز بلوقيا ليدخل بلاد الشام ، فبينما هو يسير إذ انتهى إلى جزيرة من جزائر البحر ، فإذا هو بحيات كأمثال الإبل عظما وفي الطول ما شاء الله ، وهنّ يقلن : لا إله إلا الله محمد رسول الله ؛ فلما رأيته قلن له : أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك ؟ فقال : اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل ، فقلن : وما إسرائيل ؟ قال من ولد آدم ، فقلن سمعنا باسم آدم ولم نسمع باسم إسرائيل ، قال فقال هنّ بلوقيا : أيها الحيات من أنتن ؟ فقلن نحن من حيات جهنم ونحن نعذب الكفار فيها يوم القيامة . قال بلوقيا : وما تصنعن ههنا ، وكيف تعرفن محمدا ؟ فقلن : إن جهنم تفور وتزفر في كل سنة مرتين فتلقينا إلى ههنا ، ثم نعود إليها ، فشدة الحر من حرها في الصيف ، وشدة البرد من بردها في الشتاء ، وليس في جهنم درك من دركاتها ولا باب من أبوابها ولا سرادق من سرادقاتها إلا وقد كتب الله عليه : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أجل ذلك عرفنا محمدا . صلى الله عليه وسلم ؛ قال بلوقيا : أيها الحيات هل في جهنم مثلكن أو أكبر منكن ؟ فقلن : إن في جهنم حيات تدخل إحدانا في أنف إحداهن وتخرج من فيها ولا تشعر بها لعظمتها . قال : فسلم بلوقيا عليهن ومضى ، حتى أتى جزيرة أخرى ، فإذا هو بحيات كأمثال

الجذوع والسواري ، وعلى من إحداهن حية صغيرة صفراء كلما مشت اجتمعت الحيات حولها ، فإذا نفخت صرن تحت الأرض خوفا منها ؛ قال : فلما رأيتها ورأتني قالت : أيها الخلق المخلوق من أنت وما اسمك ؟ قلت اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد إبراهيم الخليل ، فأخبرني أيتها الحية من أنت ؟ قالت : أنا موكلة بالحيات واسمي تملیخا ولولا أني موكلة بهن لقتلن بني آدم كلهم في يوم واحد ، ولكني إذا صفرت صفرة واحدة وسمعت صوتي دخلن تحت الأرض ، ولكن يا بلوقيا إن لقيت محمدا صلى الله عليه وسلم فأقرته مني السلام . ثم مضى بلوقيا إلى بلاد الشام ، فأتى بيت المقدس وكان بها حبر من أحبارهم يسمى عفان الخير ، فأناه فسلم عليه فقال له : يا بلوقيا ليس هذا زمان محمد ولا زمان أمته ، بينك وبينه قرون وسنون ، ثم قال عفان الخير : يا بلوقيا أرني مريض الحية التي اسمها تملیخا ، فإن قدرت أن أصيدها رجوت أن أنال معك ملكا عظيما ونجيا حياة طيبة إلى أن يبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فتدخل في دينه ، فمن حرص بلوقيا على الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم قال : أنا أريك المكان ، فقام عفان وأخذ تابوتا من حديد وعمل فيه قدحين من فضة في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، ثم سارا جميعا حتى انتهيا إلى موضع الحية ، ففتحا باب التابوت وتنحيا ، فجاءت الحية تبغى الراحة ، فدخلت التابوت فشربت اللبن والحمر فسكرت ونامت ، فقام عفان ودب إلى التابوت دببنا خفيفا ، فأغلق عليها باب التابوت وحصنه وأخذها ومرا جميعا ، فلم يمرأ بشجرة ولا نبت إلا كلمهما بإذن الله تعالى ، فمرا بشجرة يقال لها القرملة ، فقالت : يا عفان من يأخذني ويقطعني ويدقني ويعصر مائي ودهني ويطلق به قدميه فإنه يخوض البحار السبعة ، فلا تبتل قدماه ولا يغرق ، فقال عفان : إياك له طلبت ، ثم إنه قطع تلك الشجرة فدقها وعصر ماءها وأخرج دهنها وجعله في كوز ، ثم خلى عن الحية فطاربت بين السماء والأرض وهي تقول : يا بني آدم ما أجرأكم على ربكم ولن تصلوا إلى ما تريدون . قال : فذهبت الحية وسار عفان وبلوقيا إلى البحر ، فطليا أقدامهما ثم دخلا في اليم وشيا في الماء كأنما كانا يمشيان على الأرض حتى قطعا البحر الأول ثم الثاني ، فإذا هما بجبل في وسط البحر ليس بعال ولا متدان ، ترابه كالمسك ، عليه نمام أبيض وفيه كهف ، وفي الكهف سرير من ذهب ، وعلى السرير شاب مستلق على قفاه ذوفروة ، واضع يده اليمنى على صدره ، والشمال على بطنه كالنائم وليس بناثم وهو ميت ، وعلى رأسه تينين وخاتمه بالذئبال ، وكان هذا سليمان بن داود عليهما السلام ، وكان ملكه في خاتمه ، وكان خاتمه من ذهب وفصه من ياقوت أحمر مربع مكتوب عليه أربعة أسطر ، في كل سطر اسم الله الأعظم ، وكان عند عفان علم من الكتاب ، فقال بلوقيا : من هذا الميت يا عفان ؟ فقال : هذا سليمان بن داود نريد أن نأخذ خاتمه ونملك ملكه ونرجو الحياة إلى أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم

فقال بلوقيا : أليس قد سأل ربه ؟ فقال رب (هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي) فأعطاه إياه على ما سأل ، ولا ينال ملك سليمان إلى يوم القيامة لدعائه ؟ فقال عفان : يا بلوقيا اسكت إن الله معنا ومعنا اسم الله الأعظم ، ولكن أنت يا بلوقيا اقرأ التوراة ، فتقدم عفان لينزع الخاتم من يد سليمان من أصبعه ، فقال التنين : ما أجراك على ربك ، إن غلبتنا بأسماء الله تعالى ، فنحن نغلبك بقدره الله تعالى . قال : فكلما نفخ التنين ذكر بلوقيا اسم الله تعالى ، فلم تعمل نفخات التنين فيهما شيئا ، ودنا عفان من السرير لينزع الخاتم من أصبعه ، فاشتغل بلوقيا بالنظر إلى نزول جبريل عليه السلام من السماء ، فلما نزل صاح بهما صيحة ارتجت الأرض والجبال وتزلزلت منها ، فاختلطت مياه البحار وهاجت والتطمت حتى صار كل عذب مالحا من شدة صيحته ، وسقط عفان على وجهه وسقط بلوقيا على وجهه ، ونفخ التنين فخرج من بطنه شعلة كأنها البرق الخاطف ، واحترق عفان وعادت نفخته في البحر ، فما مرت النفخة بشيء إلا أحرقتة ولا بقاء إلا صغته وأغلته . وإن بلوقيا لما رأى العذاب ذكر اسم الله الأعظم فلم ينله مكروه . ثم تراءى جبريل عليه السلام في صورة رجل فقال له : يا بن آدم ما أجراك على الله ، فقال له بلوقيا : من أنت يرحمك الله ؟ فقال له : أنا جبريل أمين رب العالمين ، فقال بلوقيا : يا جبريل إنما خرجت حبا لمحمد صلى الله عليه وسلم ودينه ولم أقصد الخطأ ولم أتعمده . قال فبذلك نجوت . ثم صعد جبريل عليه السلام إلى السماء ومضى بلوقيا فطلى قدميه بذلك الدهن فضل الطريق الذي جاء منه وأخذ في طريق أخرى ، فسار ومضى ستة أبحر ووقع في السابع ، فإذا هو بجزيرة من ذهب حشيشها الورس والزعفران ، وأشجارها الزيتون والنخل والرمان ، فقال بلوقيا : ما أشبه هذا المكان بالجنة على ما وصفت . قال : فدنا بلوقيا من بعض الشجر فتناول من ثمرها ، فقالت الشجرة : يا خاطئ يا بن الخاطئ لا تأخذ مني شيئا ، فبقي متعجبا ، وإذا بجذء الشجرة قوم يترაკضون وبأيديهم سيوف مسلولة ، وهم يتناوشون بعضهم بعضا بالضرب والطعن ؛ فلما رأوا بلوقيا أحاطوا به وأحدقوا من ورائه وهموا به سوءا ، فذكر بلوقيا اسم الله ، فتعجبوا منه وهابوه وأنعمدوا سيوفهم ، وقالوا بأجمعهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم قالوا له : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا من بني آدم ، فقالوا : ما اسمك ؟ قال : اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل ، فقالوا : نعرف آدم ولا نعرف إسرائيل ، فما الذي أوقعك إلينا ؟ فقال : إني خرجت في طلب نبي يسمى محمدا صلى الله عليه وسلم ، وإني قد ضللت الطريق الذي أردته ، ورأيت من الأهوال كذا وكذا ، فقالوا : يا بلوقيا نحن من الجن المؤمنين ، ونحن مع ملائكة الله في السماء ، ثم تولنا إلى الأرض وقاتلنا كفره الجن ، ونحن ههنا مقيمون نغزوهم ونجاهدهم إلى يوم القيامة ، ولسنا نموت إلى يوم القيامة وأنت تصبر معنا ؛ فقال بلوقيا لملك الجن وكان اسمه صغرا : يا صغرا

أخبرني عن خلق الجن كيف كان؟ قال: لما خلق الله تعالى جهنم خلق لها سبعة أبواب وسبعة أسنة، وخلق منها خلقين: خلقا في سمائه سماه جبليت، وخلقا في أرضه سماه تمليت. فأما جبليت فإنه خلق في صورة أسد، وتمليت في صورة ذئب، وجعل الأسد ذكرا والذئب أنثى، وجعل طول كل واحد منهما مسيرة خمس مئة عام، وجعل ذئب الذئب بمنزلة ذئب العقرب، وذئب الأسد بمنزلة ذئب الحية، وأمرهما أن ينتفضا في النار انتفاضة فسقط من ذئب الذئب عقرب، ومن ذئب الأسد حية، فحيات جهنم وعقاربها من ذلك، ثم أمرهما أن يتناكحا، فحملت الذئب من الأسد، فولدت سبع بنين وسبع بنات، فأوحى الله إليهم أن يزوجوا البنين من البنات، كما أمر آدم، فستة من البنين أطاعوا وواحد لم يطع ولم يتزوج، فلعنه أبوه وهو إبليس، وكان اسمه الحارث وكنيته أبو مرة. فهذا أول خلق الجن يا بلوقيا، وإن دوابنا لا تثبت مع الإنس، ولكني أجعل فرسي وأبرقه حتى لا يعرف من راكبه، وأركب عليه على اسم الله تعالى، فإذا انتهيت إلى أقصى أعمالى على ساحل بحر كذا وكذا فإذا أنت بشيخ وشاب ومشايخ معهما، فإنك ستلقاهما هناك، فادفع الفرس إليهما وامش في حفظ الله راشدا. فركب بلوقيا على ذلك الفرس حتى انتهى إليهم فسلم على الشيخ والشاب ونزل عن الفرس ودفعها إليهما، وكان قد فصل من عند ملك الجن عند الغداة وبلغ إليهما نصف النهار، فقالا له يا بلوقيا: منذ كم فارقت الملك؟ قال: فارقت من غدوة، قالا: ما أسرع ما جئت قد أتعت فرسنا، فقال بلوقيا: ما مددت إليه يدا ولا حركت عليه رجلا ولم أركضه ركضا، قالا بلى، ولكن فرسنا أحس بك وبمنزلتك وثقلك فطار ما بين السماء والأرض ليربح نفسه منك، فكم تراه جاب بك؟ قال: خمس فراسخ أو أكثر، قالا: بل جاب بك في هذه المدة مسيرة مئة وعشرين سنة، وكان يطير بك بين السماء والأرض حول الدنيا دون قاف وأنت لاتعلم. قال: فحلوا عنه السرج واللجام والبرقع، فاذا العرق يقطر ويسيل من كل شعرة منه، وله جناحان انقضا وتكسرا من كثرة الطيران والدوران والإعياء والكلال. قال بلوقيا: هذا والله لعجيب، فقالوا: عجائب الله لاتنقضي ثم سلم عليهما، ففضى فركب اليم، فبينما هو يسير إذ رأى ملكا إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسلم عليه بلوقيا، فقال له الملك: من أنت أيها الخلق المخلوق؟ قال: أنا بلوقيا، وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم، ثم قال له بلوقيا: أيها الملك ما اسمك؟ قال: اسمي يوحايل، وأنا ملك موكل بظلمة الليل وضوء النهار، قال: فما بال يديك مبسوطتين؟ قال: في يدي اليمنى ضوء النهار، وفي اليد اليسرى ظلمة الليل، ولو سبق النهار الليل لأضاءت السموات والأرض ولم يكن الليل أبدا؛ ولو سبقت الظلمة النور لأظلمت السموات والأرض ولم يكن ضوء أبدا، وبين يدي لوح معلق فيه سطران: سطر أبيض وسطر أسود، فإذا رأيت السواد ينقص نقصت الظلمة، وإذا رأيت السواد يزداد زادت الظلمة، وإذا رأيت السطر الأبيض

يزداد زدت النهار ، وإذا انتقص نقصت ، فلذلك الليل في الشتاء أطول من النهار ، والنهار أقصر ؛ وفي الصيف النهار أطول والليل أقصر . ثم سلم بلوقيا ومضى ، فإذا هو بملك آخر قائم يده اليمنى في السماء ، ويده اليسرى في الأرض ، وقدماه تحت الثرى وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فسلم عليه بلوقيا ، فقال له الملك : ممن أنت وما اسمك ؟ قال : اسمي بلوقيا ، وأنا من بني إسرائيل ، وإسرائيل من ولد آدم ، ثم قال بلوقيا : أيها الملك ما اسمك ؟ قال : مخايل ، قال : فما بالي أرى يمينك في السماء وشمالك في الماء ؟ قال : أحبس الريح بيمينى والماء بشمالى ، ولو رفعت شمالى عن الماء لزخرت البحار كلها في ساعة واحدة ، وتلاطمت بإذن الله وأغرقت الدنيا ومن عليها ، ويدي اليمنى في الهواء أحبس الريح عن ولد آدم ، لأن في السماء ريحا تسمى الهائمة ، ولو أرسلتها لنسفت من في السماء ومن في الأرض . قال : فسلم بلوقيا ومضى ، فإذا هو بأربعة من الملائكة أحدهم رأسه كراس الثور ، والآخر رأسه كراس النسر ، والثالث رأسه كراس الأسد ، والرابع رأسه كراس الإنسان . فأما الملك الذى رأسه كراس الثور فإنه يقول : اللهم ارحم البهائم ولا تعذبها ، وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف ، واجعل في قلوب بني آدم لها الرأفة والرحمة ، كيلا يكيدوهن ولا يكلفوهن فوق طاقتهن ، واجعلنى من أهل شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأما الذى رأسه كراس النسر فيقول : اللهم ارحم الطيور وارفع عنها برد الشتاء وحر الصيف ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأما الذى رأسه كراس الأسد فيقول : اللهم ارحم السباع ولا تعذبها وادفع عنها حر الصيف وبرد الشتاء ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . وأما الذى رأسه كراس الإنسان فإنه يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم ارحم المسلمين ولا تعذبهم ، وادفع عنهم النار ، واجعلنى من أهل شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . ومضى بلوقيا حتى انتهى إلى جبل قاف ، فإذا هو بملك قائم على جبل قاف ، وإن جبل قاف محيط بالدنيا من ياقوتة خضراء ، وذلك قوله تعالى (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) فسلم بلوقيا على الملك ، فقال له الملك : ممن أنت ؟ قال أنا بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم ، فقال له الملك : وأين تريد ؟ قال : خرجت في طلب نبي من العرب يقال له محمد ولست أرى أثره ولا أدري بأى بلاد أنا ؟ فقال له الملك : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قد أمرنا بالصلاة على محمد ، فقال بلوقيا : أيها الملك ما اسمك ؟ قال : اسمي حزقيايل ، قال : وما تصنع ههنا ؟ قال : أنا أمين الله على جبل قاف ، وفي يده وتر ، مرة يعقده ومرة يحمله ، وعروق الأرض كلها مشدودة عليه والوتر في كفه ، قال : فإذا أراد الله أن يضيق على عباده أمرنى أن أمد الوتر وأعقده وأوثق عروق الأرض فتضيق الدنيا على العباد ، وإذا أراد الله أن يوسع عليهم أمرنى أن أرخي الوتر ، فأفتق عروق الأرض فتتسع الدنيا على العباد ، وإذا أراد الله أن يخوف قرما

أمرني أن أحرك سروق تلك الأرض ، فمن أجل ذلك موضع يهتز وموضع لا يهتز ، وموضع يتزلزل وموضع لا يتزلزل ، قال بلوقيا : أيها الملك ما وراء قاف ؟ قال : وراء قاف أربعون دنيا غير الدنيا التي جئت منها ، في كل دنيا أربع مئة ألف باب ، في كل باب أربع مئة ألف ضعف مثل الدنيا التي جئت منها ، وليست فيها ظلمة بل كلها نور أرضها ذهب ، عليها حجب من نور ، وسكانها الملائكة ، لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنم وهم يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بذلك ألهموا ، ولذلك خلقوا وبه أمروا إلى يوم القيامة ، قال بلوقيا : فما وراءهم أيها الملك ؟ قال : حُجُب ووراء الحجب علم الله وقدرته ، قال بلوقيا : أخبرني أيها الملك على أي شيء هذا الجبل موضوع ؟ قال : بين قرني ثور واسمه بهموت ، وهو أبيض رأسه بالشرق ومؤخره بالمغرب ، بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة ، وهو ساجد لربه تعالى على صخرة بيضاء ، قال بلوقيا : أيها الملك كم الأرضون وكم البحار ؟ قال : الأرضون سبع والبحار سبع ، قال : فجهنم أين هي ؟ قال : تحت الأرض السابعة ، فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى حجاب طرفه في السماء وأسفله في الماء عليه باب مقفل وعلى القفل خاتم من نور ، وعلى الباب ملكان : أحدهما رأسه كرأس الثور ، والآخر رأسه كرأس الكبش وبدنه كبدن الثور ، وهما يقولان : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فسلم عليهما بلوقيا ، فردا عليه السلام وقالا لبلوقيا : أيها الخلق المخلوق ممن أنت وما اسمك ؟ قال : اسمي بلوقيا وأنا من بني إسرائيل من ولد آدم ، فقالا : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أسماء ما عرفناها ، قال : كيف تعرفون محمدا وما تعرفون آدم ومحمد من نسله ؟ فقالا هكذا خلقنا وبهذا أمرنا ، ولم نسمع باسم آدم وإسرائيل ، فقال بلوقيا : افتح لي الباب حتى أجوز ، فقالا : لانحسن فتحه ، وإن لله ملكا في السماء اسمه جبريل عسى أن يقدر على فتحه ، فدعا بلوقيا ربه . قال : فأمر الله تعالى جبريل فنزل إليه وفتح له ، ثم قال له : يا بن آدم ما أجرأك على الله . ثم جاز بلوقيا حتى انتهى إلى بحرين : بحر مالح ، وبحر عذب ، فرأى بينهما حاجزا ، وفي البحر المالح جبلا من ذهب ، وفي البحر العذب جبلا من فضة ، وبينهما ملك على صورة النملة ، ومعه ملائكة على تلك الصورة ، فسلم عليهم بلوقيا فردوا عليه السلام ، وقالوا : من أنت ؟ فأخبرهم بقصته ، ثم قال لهم بلوقيا : من أنتم ؟ قالوا : نحن أمناء الله على هذين البحرين لا يلتقيان ولا يبغيان ، فقال لهم بلوقيا : ما هذا الجبل الأحمر ؟ قالوا : هذا كنز الله في الأرض ، فكل ذهب يظهر في الأرض من هذا الجبل الأحمر ، وكل ماء في الدنيا من ماء عذب أو ملح إنما هو من ماء هذين البحرين ، وما وهما إنما يجيء من تحت العرش من قبل أن يخلق الله الملائكة والجبل الأبيض من فضة ، وهو كنز الله ، وكل فضة في الدنيا ومعدن من فضة فمن عروق هذا الجبل ، ثم سلم بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى بحر عظيم ، فإذا هو بجيتان كثيرة عظيمة قد اجتمعت وحوث عظيم

يقضى بين الحيتان ، فلما نظر إلى بلوقيا قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فسلم عليه بلوقيا ثم قال له : من أنت ؟ فأخبره بحاله ، وأنه خرج يطلب النبي صلى الله عليه وسلم ، فرد عليه السلام ثم قال له : يا بلوقيا إن لقيت محمدا فأقرئه مني السلام ، فقال بلوقيا : نعم إن شاء الله تعالى ، ثم إنه قال : أيتها الحيتان إني جائع عطشان ، وماء هذا البحر مالح ، وما أجد ما آكل وما أشرب ، قال فقال الحوت الأعظم : يا بلوقيا سأطعمك طعاما إذا أكلته تسير أربعين سنة لاتعبا ولا تنام ولا تجوع ولا تعطش ، فأطعمه ذلك الحوت قرصا أبيض فأكله ومضى حتى بلغ العمران ، ومن قبل أن يبلغه رأى شابا يجرى على الماء كأنه البدر ، فقال له بلوقيا : من أنت ؟ فقال : سل الذي خلقني ، فسار بلوقيا يوما وليلة ، فإذا هو بآخر يمر على الماء ضوءه كضوء القمر ، فقال له بلوقيا : من أنت ؟ قال : سل الذي خلقني ، فسار بلوقيا يوما وليلة ، فإذا هو بثالث كأنه القمر يلوح في آخر الشمس ، فقال له بلوقيا : أنشدك الله إلا ما وقفت على ، فوقف وقال لبلوقيا : لماذا تستحلفني ؟ قال : خشيت أن تفوتني كما صدر من أصحابك الماضين ، ثم قال له : من كان الأول ؟ قال : إسرافيل صاحب الصور ، والثاني ميكائيل صاحب المطر وأرزاق العباد ، والثالث جبريل أمين الله تعالى ، فقال له بلوقيا : فإذا تصنعون في هذا اليم ؟ قال : حية من حيات البحر قد آذت سكانه ، فدعوا عليها فاستجاب الله دعاءهم ، وإنا أمرنا أن نسوقها إلى جهنم ليعذب الله بها الكفار يوم القيامة ، قال بلوقيا : كم طولها وكم عرضها ؟ قال : طولها مسيرة ثلاثين سنة ، وعرضها مسيرة عشرين سنة ، فقال بلوقيا : أيبكون في جهنم مثل هذه الحية أو أكبر منها ؟ قال : نعم إن في جهنم من الحيات ما تدخل هذه للحية في أنف إحداهن ولا تشعر بها ، وتخرج من فيها ولا تشعر بها من عظم خلقها . قال فسلم بلوقيا ومضى إلى جزيرة أخرى ، فإذا هو بغلام أبيض أمرد بين قبرين ، فسلم عليه بلوقيا وقال له : يا شاب من أنت وما اسمك ؟ قال : اسمي صالح ، قال : فما هذان القبران ؟ قال : أحدهما قبر أبي والآخر قبر أمي ، وكانا صالحين فماتا ههنا وأنا عند قبرهما حتى أموت ، فسلم عليه بلوقيا ومضى حتى انتهى إلى جزيرة ، فإذا هو بشجرة عظيمة عليها طائر واقف ، رأسه من ذهب وعينه من ياقوت ومنقاره من لؤلؤ ويداد من زعفران وقوائمه من زمرد ، وإذا مائدة موضوعة تحت الشجرة وعليها طعام وحوت مشوي ، فسلم عليه بلوقيا ، فرد الطائر عليه السلام ، فقال له بلوقيا : من أنت أيها الطائر ؟ قال : أنا من طيور الجنة ، وإن الله تعالى قد بعثني إلى آدم بهذه المائدة لما أُهبط من الجنة ، وإني كنت معه حين لقي حواء وأباح الله له الأكل ، وأنا ههنا من لدن ذلك الوقت ، فكل غريب وعابر سبيل من عباد الله الصالحين يمر بها يأكل منها ، وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة ، فقال بلوقيا : ولا تتغير ولا تنقص ؟ فقال : طعام الجنة لا يتغير ولا ينقص ، قال بلوقيا :

أفأكل منها؟ قال: كل، فأكل حاجته ثم قال له: أيها الطائر وهل معك أحد؟ فقال معي أبو العباس يأتيني أحيانا، قال: ومن أبو العباس؟ قال: الحضرم عليه السلام، فلما ذكر الحضرم إذا به أقبل وعليه ثياب بيض، فما خطا خطوة إلا نبت الحشيش تحت قدميه: قال: فسلم على بلوقيا وسأله عن حاله، فقال بلوقيا: طالت غيبتى وأريد الرجوع إلى أمي، فقال الحضرم: بينك وبين أمك مسيرة خمس مئة عام، فأنا أردك إليها في مسيرة خمس مئة شهر. فقال الطائر: إن كان بينك وبينها مسيرة خمس مئة سنة، فأنا أردك إليها في مسيرة خمس مئة يوم، فقال الحضرم عليه السلام: فأنا أردك إليها في ساعة واحدة، ثم قال: نمض عينيك فغمضهما، ثم قال له: افتح عينيك ففتحهما، فإذا هو جالس عند أمه، فسألها من جاء بي إليك؟ قالت: طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض فوضعك قدامي. ثم إن بلوقيا حدثت بني إسرائيل بما رأى من العجائب والأخبار، فأثبتوها وكتبوها إلى يومنا هذا، فهذا ما كان من حديث بلوقيا، وما رأى من العجائب في البحر والبر سهلا وجبلا والله أعلم.

مجلس: في ذكر قصة ذى القرنين عليه السلام

قال الله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا).

باب في نسبه ولقبه

قال أكثر أهل السير: هو الإسكندر بن فيلبش بن بطريوس بن هرمس بن هردوس ابن منطون بن رومي بن لطين بن يونان بن يافث، ويقال نسبه ينتهي إلى العيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام. وزعم بعض القدماء أن الإسكندر هو أخو دارا ابن دارا، وذلك أن دارا الأكبر بن بهمن بن اسفنديار بن يستاسف كان تزوج أم إسكندر وكانت بنت ملك الروم، وكان اسمها هلاثة، وإنها حملت إلى زوجها دارا الأكبر فوجد منها رائحة كريهة، فأمر أن يختال في زوال ذلك منها، فاجتمع رأى أهل المعرفة في مداواتها على شجرة يقال لها سنديروس، فطبخت لها وغسلت بماؤها فأذهب ذلك كثيرا من نتنها ومن عرقها ولم يذهب ذلك كله، فأنهت نفسه عنها لبقية نتنها وعافها فردها على أهلها وقد علقت منه، فولدت له في أهلها غلاما فسمته باسمه واسم الشجرة التي غسلت بماؤها سنديروس فهذا أصل اسمه، ثم خففت فقبيل إسكندر، وكنى بذي القرنين.

واختلفوا في سبب تسميته بذلك، فقال بعضهم: سمي بذلك لأنه ملك الروم وفارس، وقيل لأنه كان في مقدم رأسه شبه القرنين من لحم، وقيل لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرني الشمس، وكان تأويل رؤياه أنه طاف المشرق والمغرب، وقيل لأنه دعا قومه إلى التوحيد فضربوه على قرنيه الأيمن، ثم دعاهم إلى التوحيد فضربوه على قرنيه الأيسر.

وقيل لأنه كان له ذؤابتان حسنتان ، والذؤابة تسمى قرنا ، وقيل لأنه كان كريم الطرفين ، من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه . وقيل لأنه كان انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي ، وقيل لأنه كان إذا حارب قاتل بيديه وركابه جميعا ، وقيل لأنه أعطى علم الظاهر والباطن ، وقيل لأنه دخل النور والظلمة ، والله أعلم .

باب في ذكر بدء أمره وسبب استكمال ملكه

قال الله تعالى (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَاتَّبَعِ سَبَبًا) وقال قوم : كان فيلبش اليوناني أبو الإسكندر ملك اليونانيين . فلما مات ملك بعده الإسكندر . وقال آخرون : إن الإسكندر أخو دارا الأصغر ، وكان أبو هلانة جد الإسكندر لأمه ملكا من ملوك الروم . فلما مات صار الملك لابن بنته الإسكندر ، وكانت ملوك الروم يؤدون الإتاوة جميعا إلى ملوك الفرس ، وكانت الإتاوة التي كان أبو الإسكندر يؤديها إلى ملوك الفرس بيضة من ذهب . فلما ملك الإسكندر وكان رجلا ذا عزيمة وقوة وملك ، غزا ملوك الروم فقهرهم واستجمع له ملك الروم ، ثم غزا بعض ملوك العرب ، فظفر بهم ، فانس بذلك من نفسه القوة ، فاستعصى على دارا الأصغر ملك فارس ، فامتنع من حمل من كان أبوه يحمله إليه من الحراج والإتاوة عن نفسه وعن ملك الروم ، فكتب إليه دارا بن دارا بقصة الحراج والإتاوة عن نفسه وعن ملك الروم ، فأجابه الإسكندر : إني قد ذبحت تلك الدجاجة التي قد كانت تبيض ذلك البيض وأكلت لحمها ، فلما وصل إليه الكتاب بذلك سخط عليه وكتب إليه يؤنبه بسوء صنيعه في امتناعه عن حمل الحراج إليه ، وبعث إليه بصولجان وكرة وقفيزي سسم ، وأعلمه فيما كتب به إليه : أنك صبي وأنه ينبغي لك أن تلعب بالصولجان والكرة التي بعثت بهما إليك ، ولا تقلد الملك ولا تتلبس به ولا تستعصى ، وإلا بعثت إليك من يأتي بك في وثاق ، ولو كانت جنودك بعدد حب السسم الذي بعثت به إليك . فبعث إليه الإسكندر في جواب ذلك : إني قد فهمت ما كتبت وقد نظرت ما ذكرت في كتابك من إرسال الصولجان والكرة ، وضمنت الكرة إلى الصولجان ، وشبهت الكرة بأرضك ، وإني محتو على ملكك وأضيفه إلى ملكي ، وأضيف بلادك إلى بلادي ؛ وإني نظرت إلى السسم الذي بعثته إلى كنظري إلى الصولجان والكرة ، وبعثت إلى دارا مع كتابه صرة من خردل ؛ وأعلمه في الجواب إنما بعثه إليك بذلك لأن جنودي مثل ذلك . فلما وصل إلى دارا بن دارا جواب الإسكندر جمع جنوده وتأهب لمحاربة الإسكندر ، وإن الإسكندر أيضا تأهب للقاءه ونادى في عسكره بالرحيل وسار نحو بلاد دارا ، فالتقيا بناحية خراسان مما يلي الخزر واقتتلا أشد القتال وصارت الدائرة على جند دارا ، فعرض له فارسان من قرابته وأهل بيته وثقته ، وقيل

إن أحدهما كان صنيعته ، فطعناه فأردياه عن مركبه ، وأراد بطعنهما إياه الحظوة عند الإسكندر والوسيلة إليه وأن الإسكندر نادى أن يؤخذ دارا أسيرا ولا يقتل ، فأخبر بشأن دارا ، فأسرع حتى وقف عليه فرآه يجود بنفسه ، فنزل إليه وجلس عند رأسه وأخبره أنه لم يهم قط بقتله ، وإن الذي أصابه لم يكن قط برأيه وإنما غدر به ثقاته ، ثم قال له : سئني عما بدا لك فأسعفك به ، فقال له دارا : إن لي إليك حاجتين : إحداهما أن تنتقم لي من الرجلين اللذين فتكبا بي ، وسماهما وبلادهما . والثانية : أن تزوج ابنتي روشنك ، فأجابه إلى الحاجتين . وأمر بصلب الرجلين وأن ينادى عليهما : هذا جزاء من اجترأ على ملكه وغش أهل بلده . وتزوج ابنته روشنك ، وكان ملك دارا أربع عشرة سنة . فلما قتل اجتمع ملك الروم وكان قبل الإسكندر متفرقا ، وتفرق ملك فارس ، وكان قبل الإسكندر مجتمعا .

باب في ذكر الحوادث التي كانت في أيام ذي القرنين بعد قتل دارا
ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق

قالت العلماء بأخبار القدماء : لما قتل الإسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد ، فهدم ما كان في بلاد الفرس من بيوت النيران ، وما كان بأرض الهند من بيوت الأوثان ، وقتل الموابذة وأحرق كتبهم ودعا الناس إلى الإسلام والتوحيد .
قال المرتضى في سبب إحراق كتبهم : إن المجوس جعلوا حروف كتبهم من الذهب المضروب بمسامير الذهب على جلود الثيران ، فبلغ عددها اثني عشر ألفا فأحرقوها لحصول ذلك الذهب وبني اثنتا عشرة مدينة منها ثلاثة مدائن بخراسان هراة ومرو وسمرقند ، ومدينة بأرض أصفهان بنيت على مثال الجنة ، ومدينة بأرض اليونان يقال لها هيلاقوس ، ومدينة بأرض بابل لزوجته روشنك بنت دارا ، ومدينة الإسكندرية . ثم إنه رأى في منامه أنه أخذ بقرني الشمس ، ورأى في منامه أنه يسير إلى آفاق الأرض شرقا وغربا .
واختلف العلماء في نبوته ؛ فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا أدري أكان ذو القرنين نبيا أم لا » ، فلو صح الحديث لكان الخوض في هذه المسئلة تكلفا ، ثم اختلفوا بعد فيه ، فقال قوم لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا وملكا عادلا فاضلا ، وقال آخرون : بل كان نبيا غير مرسل . والصحيح إن شاء الله أنه كان نبيا غير مرسل ، لما روى وهب وغيره من أهل الكتب قالوا : كان ذو القرنين رجلا من الروم ابن عجز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان اسمه الإسكندر . ويقال : كان اسمه عباسا وكان عبدا صالحا ، فلما استحكمت ملكه واجتمع أمره أوحى الله تعالى إليه : يا ذا القرنين إني قد بعثتك إلى جميع الخلائق ما بين الحافقين وجعلتك حجتي عليهم وهذا تأويل رؤياك ، وإني باعثك إلى أمم الأرض كلهم وهم سبع أمم مختلفة ألسنتهم : منهم أمتان بينهما عرض

الأرض ، وامتان بينهما طول الأرض ، وثلاث أم في وسط الأرض وهم الإنس والجن
 وبأجوج ومأجوج . فأما الأمتان اللتان بينهما طول الأرض ، فأمة عند مغرب الشمس
 يقال لها : ناسك ، وأمة أخرى بجبالها يقال لها : منسك ، وهي عند مطلع الشمس .
 وأما الأمتان اللتان بينهما عرض الأرض ، فأمة في قطر الأرض الأيمن يقال لها : هاويل ،
 والأخرى بجبالها في قطر الأرض الأيسر يقال لها : ناويل . فلما قال الله تعالى له ذلك قال
 ذو القرنين : إلهي إنك قد ندبتني إلى أمر عظيم لا يقدر عليه إلا أنت فأخبرني عن هذه
 الأمم التي قد بعثتني إليها بأى قوة أكابره ، وبأى جمع وحيلة أكابره ، وبأى صبر
 أقاسيهم ، وبأى لسان أناطقهم ، وكيف لي بأن أفقه لغاتهم ، وبأى سمع أسمع أقوالهم ،
 وبأى بصر أنقدهم ، وبأى حجة أخاصمهم ، وبأى عقل أعتل عنهم ، وبأى قلب وحكمة
 أدبر أمرهم ، وبأى قسط أعدل بينهم ، وبأى حلم أصابهم ، وبأى معرفة أفصل بينهم ،
 وبأى علم أتقن أمورهم ، وبأى يد أسطو عليهم ، وبأى رجل أطوهم ، وبأى طاقة
 أحصيهم ، وبأى جند أقاتلهم ، وبأى رفق أولفهم ، وليس عندي يا إلهي شيء مما
 ذكرت يقوم لهم ويقويني عليهم وأنت الرؤوف الرحيم ، لا تكلف نفسا إلا وسعها ،
 ولا تحملها فوق طاقتها ولا تشقيها بل أنت ترحمها ، فقال الله تعالى : سأطوئك ما حملتك
 وأشرح لك سمعك وصدرك فتسمع وتعي كل شيء ، وأشرح لك فهمك فتفقه كل
 شيء ، وأبسط لك لسانك فتتطق بكل شيء ، وأفتح لك بصرك فتتقد كل شيء ، وأحصي
 لك قوتك ، فلا يفوتك شيء ، وأشد لك عضدك فلا يهولك شيء ، وأشد لك ركنك
 فلا يغلبك شيء ، وأشد لك قلبك فلا يفزعك شيء ، وأشد لك يديك فتسطو على كل شيء
 وأشد لك وطأك فهلك كل شيء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء ، وأسخر لك النور
 والظلمة وأجعلهما جندا من جنودك ؛ يهديك النور أمامك وتحوط بك الظلمة من ورائك .
 فلما قيل له ذلك حدثته نفسه بالمسير ، وألح عليه قومه بالمقام ، فلم يفعل وقال : لا بد من
 طاعة الله تعالى ، ثم أمرهم أن يبنوا له مسجدا ، وأن يجعلوا طول المسجد أربع مئة ذراع ،
 وعرضه مئتي ذراع ، وعرض أساس حائطه أربعة وعشرين ذراعا ، وطوله في السماء
 مئة ذراع ؛ وأمرهم أن ينصبوا فيه السواري ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : إذا فرغتم
 من شأن الحيطان ، فاكبسوها بالتراب حتى يستوى الكبس مع حائط المسجد ، فإذا فرغتم
 فرضتم من الذهب على الموسر قدره وعلى المقتر قدره ، وقطعتموه مثل قلامة الظفر ثم
 خلطتموه بذلك الكبس ، وجعلتم خشبا من نحاس ووتدا من نحاس وصفائح من نحاس ،
 تذيبون ذلك وأنتم ممتنون من العمل كيف شئتم على أرض مستوية . وجعلتم طول كل
 خشبة مئة ذراع وأربعة وعشرين ذراعا ومئتي ذراع فيما بين الحيطان ، لكل حائط
 اثنا عشر ذراعا ، ثم تدعون المساكين لنقل التراب ، فيسارعون إليه لما فيه من الذهب
 والفضة ، فن حمل شيئا فهو له ، ففعلوا ذلك ، فأخرج المساكين ذلك التراب واستقر

السقف بما عليه واستغنى المساكين ، فكان جندهم أربعين ألفا ، فجعلهم أربعة أجناد في كل جند عشرة آلاف ، ثم عرض جنده فوجدهم فيما قبل ألف ألف وأربع مئة ألف ، منهم من جنده ثمان مئة ألف ، ومن جند داراست مئة ألف ، ومن المساكين أربعون ألفا ، ثم انطلق يوم الأمة التي عند مغرب الشمس ، فذلك قوله تعالى « حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أي ذات حمأ ، ومن قرأ حامية بألف من غير همز فعناه حارة :

أخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهاني بإسناده عن ابن عباس قال : أقرأنيها أبي بن كعب كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم في عين حمئة . وقال ابن عباس : كنت جالسا عند معاوية إذ قرأ هذه الآية (وجدها تغرب في عين حامية) فقلت ما نقرؤها إلا حمئة ، فقال معاوية لعبد الله بن عمر : كيف تقرؤها ؟ قال : أقرؤها كما قرأتها يا أمير المؤمنين ، قال ابن عباس : فأطلت الجدال معهما ، فأرسل معاوية إلى كعب ، فجاءه فقال له : أين تجد الشمس تغرب في التوراة يا كعب ؟ قال : أما العربية فأنتم أعلم بها مني ، وأما الشمس فإني أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين ، وأنشدك ما تزداد به تبصرا ، وهو قول تبع :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلما ملكا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المشارق والمغارب يتسغى أسباب أمر من حكيم مرشيد
فراى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذى خلْب وثناط حرْمَد

فقال معاوية : ما الخلب يا كعب ؟ فقلت : الطين بكلامهم ، قال : فما الثناط ، قلت : الحمأة ، قال : وما الحرمد ؟ قلت : الأسود ، فدعا رجلا فقال : اكتب ما يقول . فلما بلغ مغرب الشمس وجد عندها جمعا وعددا لا يحصيه إلا الله تعالى ، وقوة وبأسا لا يطيقه إلا الله تعالى ، ورأى السنة مختلفة وأهواء مشتبهة ، فذلك قوله تعالى « وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا » يعنى ناسا . فلما رأى ذلك كآثرهم بالظلمة ، فضرب حولهم ثلاث عساكر منها ، فأحاط بهم من كل مكان حتى جمعهم في مكان واحد ، ثم أخذ عليهم بالنور ، ودعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من صد عنه ، فعمد إلى الذين تولوا عنه ، فأدخل عليهم الظلمة ، فدخلت في أفواههم وأنوفهم وآذانهم وأجوافهم ، ودخلت في بيوتهم ودورهم ، وغشيتهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جانب . فلما خوفوا صاحوا وتخبروا فلما أشفقوا أن يهلكوا ضجوا بصوت واحد ، فكشفها عنهم وأخذهم عنوة ، فدخلوا في دعوته ، فجاء من أهل المغرب أم عظيمة ، فجعلهم جندا واحدا ثم انطلق بهم يقودهم والظلمة تسوقهم من خلفهم وتخرسهم ، والنور أمامه يقوده ويدله ، وهو يسير في ناحية الأرض النبى وهو يريد الأمة التي في قطر الأرض اليمن التي يقال لها هاويل ، وسخر الله له قلبه ويده ورأيه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا ، فانطلق يقود تلك الأمم وهي

تبعه ، حتى إذا انتهى إلى بحر أو مفاضة هبأ سفنا من ألواح صغار مثل النعال ، فإلحمها في ساعة ثم يحمل فيها جميع ما معه من تلك الأمم وتلك الجنود ، وإذا بلغ البحار والأنهار فتقها ، ثم يدفع إلى كل رجل منهم لوحا فلا يكثرث بحمله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى انتهى إلى هاويل ، ففعل فيها كفعله في ناسك . فلما فرغ منها مضى على وجهه في ناحية الأرض اليمنى حتى انتهى إلى منسك عند طلوع الشمس ، وجدها تطلع على قوم ، فعمل فيها وجند فيها جنودا كفعله في الأمتين اللتين قبلها ، ثم كر مقبلا حتى أتى ناحية الأرض اليسرى وهو يريد تاويل ، وهي الأمة التي بجبال هاويل ، وهما متقابلتان بينهما عرض الأرض كله ، فلما بلغها عمل فيها وجند جنودا كفعله فيما قبلها ، فذلك قوله تعالى « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » وذلك أنهم كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء ، وكانوا يكتنون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى معاشهم وحرورهم .

وقال الحسن : كانت أرضهم أرضا لا تحتل البناء ، وكانوا إذا طلعت الشمس عليهم دخلوا الماء ، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كما ترعى البهائم . وقال ابن جريج : جاءهم مرة جيش للتفرج على طلوع الشمس ، فنهاه أهلها ، فقالوا : ما نبرح حتى تطلع الشمس فزأها ، ثم إنهم قالوا : ما هذه العظام ؟ فقالوا : هذه جيف قوم طلعت عليهم الشمس فماتوا ههنا . قال : فذهبوا هاربين في الأرض . وقال الكلبي : هم أمة يقال لها منسك حفاة عراة عماء عن الحق . قال : وحدثنا عمرو بن مالك بن أمية قال : وجدت رجلا بسمرقند يحدث الناس وهم حوله مستمعون له مجمعون ، فسألت بعض من سمع حديثه فأخبرني أنه حدثهم عن القوم الذين تطلع عليهم الشمس قال : خرجت حتى جاوزت الصين ثم سألت عنهم ، فقبل لي إن بينك وبينهم يوما وليلة ، فاستأجرت رجلا ثم سرت بقية يومى وليلتي حتى صبحتهم ، فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبي يحسن لسانهم ، فسألهم فقالوا له : إذا تنظر كيف تطلع الشمس ، قال : فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة ، فغشي على فوقعت ، فلما أفقت قمت وهم يمسخون على بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء ، إذا هي على الماء كهيئة الزيت ، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط ، فلما ارتفعت أدخلوني سربا لهم أنا وصاحبي ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا بصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج ، والله أعلم .

باب في صفة سد ذي القرنين وما يتعلق به

قال الله تعالى « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » قالت العلماء بأخبار القدماء : لما فرغ ذو القرنين من أمر الأمم الذين هم في أطراف الأرض ، وطاف المشرق والمغرب عطف منها على الأمم التي في وسط الأرض من الجن والإنس وبأجوج ومأجوج . فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع

الترك نحو المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : ياذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله ، ليس فيهم مشابهة من الإنس ، وهم أشباه البهائم يأكلون العشب ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع ، ويأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب ، وكل ذى روح مما خلق الله فى الأرض ، وليس لله خلق ينمون نماءهم ولا يزدادون كزيادتهم ، فإن أنت اطلعت على ما ينمو من نعماتهم وزيادتهم فلا تشك أنهم سيمثلون الأرض ويُخرجون أهلها منها ويظهرون عليها ويفسدون فيها ، وليست تمر بنا سنة منذ جاورناهم إلا ونحن نتوقع أن يطلع علينا أولهم من بين هذين الجبلين « فهل نجعل لك خراجاً » أى جعلاً وأجزاً « على أن نجعل بيننا وبينهم سداً » حاجزاً فلا يصلون إلينا ، فقال لهم ذو القرنين « ما مكنتني فيه ربى » أى قوائى عليه « خسر » من خراجكم « فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم رداً » حاجزاً كالحائط ، قالوا وما تلك القوة ؟ قال : فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل والآلة ، قالوا : وما تلك الآلة ؟ قال « آتوني زُبَرَ الحديد » أى قطعه ، واحدها زبرة ، وآتوني النحاس ، فقالوا : من أين لنا من الحديد والنحاس ما يسع هذا العمل ؟ قال : سأدلكم على معادتهما ، قالوا : فبأى قوة تقطع الحديد والنحاس ؟ فاستخرج لهم معدنا آخر يقال له الساهون ، وهو أشد ما خلق الله فى الأرض بياضاً ، وهو الذى قطع به سليمان أساطين بيت المقدس وصخوره وجواهره ، ثم إنه قاس ما بين الجبلين ، ثم أوقد على ما جمع من الحديد والنحاس النار ، وصنع منها زُبراً مثل الصخور العظام ، ثم أذاب النحاس فجعله كالطين والملاط لتلك الصخور التى هى من الحديد ثم بنى : وكيفية بنائه على ما ذكر أهل السير أنه لما قاس ما بين الجبلين وجد ما بينهما مئة فرسخ ، فلما أنشأ فى عمله جفر له الأساس حتى بلغ الماء ثم جعل عرضه خمسين فرسخاً ، ثم وضع الحطب بين الجبلين ثم نسج عليه الحديد ، ثم نسج الحطب على الحديد ، فلم يزل يجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب حتى إذا ساوى بين الصدفين ، وهما الجبلان أمر بالنار فأرسلت فيه قال « انفخوا » حتى جعل يفرغ القطر فيه ، وهو النحاس المذاب ، فجعلت النار تأكل الحطب ويصير النحاس مكان الحطب ، حتى لزم الحديد النحاس ، فصار كأنه برد حبرة من صفرة النحاس وحمرة ، وسواد الحديد وغبرته ، فصار سداً طويلاً عظيماً حصيناً قال تعالى « فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ » أى يعلوه « وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً » .

قال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً قال : يا نبي الله قد رأيت سدً يأجوج ومأجوج ، قال : انعت لي ، قال : كالبرد المحبب : طريقة سوداء ، وطريقة حمراء ، فقال له : قد رأيت . ويقال إن موضع السد وراء زخرد بقرب مشرق الأرض ، بينه وبين الخزر مسيرة اثنين وسبعين

يوما . وذكر أن الواثق بالله أمير المؤمنين رأى في المنام أن السد مفتوح فوجه سلاما للرجمان
 في خمسين رجلا وأعطاه خمسة آلاف دينار ، وأعطى كل رجل من الخمسين خمسين ألف
 درهم ورزق سنة ، وأعطاه مائتي بغلة تحمل الزاد والماء ، وخرج من «سر من رأى» بكتاب
 الواثق بالله إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية وكان بتفليس ، وكتب له إسحاق إلى صاحب
 السرير ، وكتب له صاحب السرير إلى ملك اللان ، وكتب له ملك اللان إلى الأزالى
 طلجند في بلاد شاه ملك الخزر ، فأقام عنده حتى أخذ معه خمسين رجلا أدلاء ، فساروا
 خمسة وعشرين يوما حتى انتهوا إلى أرض سوداء منتنة الريح ، وكانوا قد حلوا معهم شيئا
 يشموناه من الرائحة الذكية ، فساروا تسعة وعشرين يوما ، ثم سألوا عن سبب نتن الريح
 ما هو ؟ فقالوا : مات ههنا قوم ، ثم ساروا في مدن خراب عشرين يوما ، فسألوا عن
 تلك المدن فقالوا : قد ظهر فيها يأجوج ومأجوج فخربوها ، ثم ساروا إلى حصون بالقرب
 من الجبل يتكلمون بالعربية والفارسية يقرءون القرآن ولهم مكاتب ومساجد ، فقالوا لنا :
 من هؤلاء القوم ؟ قلنا : رسل أمير المؤمنين ، فقالوا : ومن هو أمير المؤمنين ؟ قلنا من
 أولاد العباس ملك بالعراق ، فتعجبوا منه وقالوا : شيخ أو شاب ، وزعموا أنهم لم يبلغهم
 خبره ، ثم فارقوهم وساروا إلى جبل أملس ليس عليه خضرة ، وإذا جبل مقطوع بواد
 عرضه مائة وخمسون ذراعا ، وعضادتاها مبنيتان مقابلتا الجبل ، عرض كل عضادة
 خمسة وعشرون ذراعا مبنية بلبن من حديد مركبة في نحاس في سمك خمسين ذراعا ، وإذا وتد
 من حديد طرفاه على عضادتين طوله مئة وعشرون ذراعا قد ركب على العضادتين ، علو
 كل واحدة مقدار عشرة أذرع في عرض خمسة أذرع ، فوق ذلك اللبن الحديد المغيب
 في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر ، وفوق ذلك شرافات من حديد في طرف كل
 شرافة قرنان مبنى بعضها إلى بعض ، منظومة كل واحدة في صاحبها ، فإذا باب له
 مصراعان منصوبان من حديد ، عرض كل باب خمسون ذراعا في ارتفاع خمسين ذراعا ،
 قائمتاهما في دورهما على قدر الدربند ، وعلى الباب قفل طوله سبعة أذرع في غلظ ذراع ،
 وارتفاع القفل من الأرض خمسة وخمسون ذراعا ، وفوق القفل مقدار خمسة أذرع غلق
 وعلى الغلق مفتاح طوله ذراع ونصف معلق في سلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة أربعة
 أمثبار ، والحلقة التي في السلسلة مثل حلقة المنجنيق ، وعرض عتبة الباب عشرة أذرع
 في طول مائة ذراع سوى ما في العضادتين ، والظاهر منها خمسة أذرع ، وهذا كله بذراع
 البواد ، ورئيس تلك الحصون يركب كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من
 حديد وزن كل واحدة خمسون مناً ، فيضرب القفل بالمرزبات كل يوم ثلاث ضربات
 ليسمع من وراء الباب الصوت ، فيعلموا أن هناك حفظة ، ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا
 في الباب حدثا ، فإذا ضربوا أصغوا إليه بأذانهم فيسمعون من داخل دويا ، وبالقرب من
 هذا الجبل حصن كبير عظيم عشرة فراسخ في مسيرة مئة فرسخ ، لأنها عشرة في عشرة ،

ومع الباب حصنان طول كل واحد منهما مئتا ذراع في مئتي ذراع ، وعلى باب هذين الحصنين صخرتان ، وبين الحصنين ماء عين عذب في أحد الحصنين آلة البناء التي بنى بها السد من قدور الحديد ومغارف من حديد ، وهناك بعض اللبن من الحديد قد التزق بعضه ببعض من الصلدا ، واللينة ذراع ونصف في عرض شبر ، وسألنا هل وراء ذلك أحد من أهل يأجوج ومأجوج ؟ فذكروا أنهم رأوا منهم عدة فوق الشرف ، فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم ، وكان مقدار الرجل في رأى العين شبرا ونصفا . قال : فلما انصرفنا أخذ بنا الأدلاء على نواحي خراسان فعدلنا إليها ، فوقعنا إلى القرب من سمرقند على سبعة فراسخ ، وكان أصحاب الحصن ثم زودونا الطعام ، ثم سرنا إلى عبد الله بن طاهر فوصلنا بمئة ألف درهم ، ووصل كل رجل كان معي بخمسة مئة درهم ، وأجرى علي كل فارس خمسة دراهم ، وعلى كل راجل ثلاثة دراهم كل يوم حتى صرنا إلى الرى ورجعنا إلى « سرمن رأى » بعد ثمانية وعشرين شهرا ، والله أعلم .

باب في دخول ذى القرنين الظلمات مما يلي القطب الشمالى لطلب عين الحياة

روى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : كان ذو القرنين قد ملك ما بين المشرق والمغرب ، وكان له خليل من الملائكة اسمه رفائيل يأتيه ويذوره ، فبينما هما ذات يوم يتحدثان إذ قال ذو القرنين : يارفائيل حدثني عن عبادتكم في السماء ، فبكى وقال : ياذا القرنين وما عبادتكم عند عبادتنا ؟ إن في السماء من الملائكة من هو قائم لا يجلس أبدا ، ومن هو ساجد لا يرفع رأسه أبدا ، ومن هو راع لا يستوى قائما أبدا يقولون : سبحان القدوس رب الملائكة والروح ، ربنا ما عبدناك حق عبادتك ؛ فبكى ذو القرنين بكاء شديدا ثم قال : إني أحب أن أعيش فأبلغ من عبادة ربي حق عبادته ، فقال رفائيل : أو تحب ذلك ياذا القرنين ؟ قال نعم ، قال رفائيل : فإن لله عينا في الأرض تسمى عين الحياة ، فما من الله عز وجل أن من يشرب منها شربة لا يموت أبدا حتى يكون هو الذي يسأل ربه الموت ، فقال له ذو القرنين : هل تعلمون أنتم موضع تلك العين ؟ فقال لا ، غير أنا نتحدث في السماء أن لله في الأرض ظلمة لا يطرؤها إنس ولا جان ، فنحن نظن أن تلك العين في تلك الظلمة ، فجمع ذو القرنين علماء أهل الأرض وأهل دراسة الكتب وآثار النبوة ، فقال لهم : أخبروني هل وجدتم فيما قرأتم من كتب الله تعالى وما جاءكم من الأحاديث ، وسألتم من كان قبلكم من العلماء أن الله وضع في الأرض عينا سماها عين الحياة ؟ فقالت العلماء لا ، فقال عالم من العلماء : إني قرأت وصية آدم عليه السلام فوجدت فيها أن الله خلق في الأرض ظلمة لم يطرأها إنس ولا جان ، ووضع فيها عين الخلد ، فقال ذو القرنين : أين وجدتها ؟ قال : وجدتها في الأرض التي على قرن الشمس ، فبعث إليها ذوا القرنين وحشد إليها الفقهاء والأشرف من الناس والملوك ، ثم صار يطلب مغرب الشمس

فسار اثنتي عشرة سنة إلى أن بلغ طرف الظلمة ، فإذا هي مثل الدخان وليست كظلمة الليل ، فعسكر هنالك ثم جمع علماء عسكره فقال : إني أريد أن أسلك هذه الظلمة ، فقالت العلماء أيها الملك إن من كان قبلك من الملوك والأنبياء لم يطثوا هذه الأرض فلا تطأها ، فإننا نخاف أن يفتح عليك أمر تكرمه ويكون فيه فساد الأرض ومن عليها ، فقال : لا بد من أن أسلكها ، فقالوا : أيها الملك كف عن هذه الظلمة ولا تطلبها ، فإننا لو نعلم أنك إن طلبتها ظفرت بما تريد ولم يسخط الله علينا لا تبعناك ولكننا نخاف من الله تعالى فسادا في الأرض ومن عليها ، فقال ذو القرنين : لا بد من أن أسلكها ، فقالت العلماء : شأنك بها ، فقال ذو القرنين : أي الدواب بالليل أبصر ؟ قالوا الخيل ، قال : وأي الخيل بالليل أبصر ؟ قالوا الإناث ، قال : وأي الإناث أبصر ؟ قالوا البكارى ، قال : فأرسل ذو القرنين فجمع له ستة آلاف فرس أنثى أبكارا ، ثم انتخب من عسكره أهل الجلد والعقل ستة آلاف رجل ، فدفع لكل رجل منهم فرسا ، وعقد راية للخضر عليه السلام وجعل مقدمته في ألفين ، وبقى ذو القرنين في أربعة آلاف رجل ، وقال ذو القرنين لبقية عسكره : لا تبرحوا من معسكركم هذا إلى اثنتي عشرة سنة ، فإن نحن رجعنا إليكم وإلا فارجعوا إلى بلادكم ، فقال الخضر : أيها الملك إنا نسلك الظلمة ولا ندرى كم السير فيها ولا يبصر بعضنا بعضا ، وكيف نصنع بالضلال إذا أصابنا ، فدفع ذو القرنين إلى الخضر عليه السلام خريزة حمراء وقال له : حيث يصيبكم الضلال فاطرح هذه في الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت . قال : فسار الخضر بين يدي ذي القرنين يرتحل الخضر ويمحط ذو القرنين ، فبينما الخضر عليه السلام يسير إذ عرض له واد ، فظن الخضر أن العين في الوادي ، وألقى في قلبه ذلك ، فقام على شفير الوادي ونمكث طويلا ، ثم أجابته الخريزة فطلب صوتها ، فأنهى إليها فإذا هي على جانب العين ، فززع الخضر ثيابه ثم دخل العين ، فإذا ماؤها أشد بياضا من اللبن وأحلى من الشهد ، فشرب واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه ، ثم إنه رمى الخريزة نحو أصحابه ، فوقعت وصاححت ، فرجع الخضر إلى صوتها وإلى أصحابه ، فركب وقال لأصحابه : سيروا على اسم الله . وإن ذا القرنين مر فأخطأ الوادي : فسلكوا تلك الظلمة في أربعين يوما ، ثم إنهم خرجوا إلى ضوء ليس كضوء شمس ولا قمر ، والأرض حمراء رملة خشخاشية ، فإذا هم بقصر مبني في تلك الأرض طوله فرسخ في فرسخ عليه ، فنزل ذو القرنين بعسكره ، ثم إنه خرج وحده حتى دخل القصر ، فإذا حديدة قد وضع طرفاها على جانب القصر من ههنا وههنا ، وإذا طائر أسود يشبه الخطاف زموما بأنفه إلى الحديدة معلقا بين السماء والأرض . فلما سمع الطائر خشخشة ذي القرنين قال : من هذا ؟ قال : أنا ذو القرنين ، فقال الطائر : يا ذا القرنين ما كفاك ما ورائي حتى وصلت إلى ؟ ثم قال : يا ذا القرنين حدثني ، فقال سل ، فقال : هل كثر بناء الحصص والآجر في الأرض ؟ قال نعم ، فانتفض الطائر انتفاضة ثم انتفض فبلغ ثلث الحديدة : ثم قال :

يا ذا القرنين : هل كثرت شهادة الزور في الأرض ؟ قال نعم ، قال : فانتفض الطائر ثم انتفخ حتى ملأ الحديد وسد ما بين جدران القصر بحيث رأى ذوالقرنين ذلك ففرق فرقا شديدا ، فقال الطائر : لا تخف حدثني ، قال سل ، قال : هل ترك الناس شهادة أن لا إله إلا الله بعد ؟ قال لا ، فانضم الطائر إلى ثلثه ، ثم قال : يا ذا القرنين هل ترك الناس غسل الجنابة بعد ؟ قال لا ، فعاد الطائر كما كان ، ثم قال : يا ذا القرنين اسلك هذه الدرج درجة درجة إلى أعلى القصر ، فسلكها ذوالقرنين وهو خائف وجل لا يدري على ما يهجم حتى استوى على صدر الدرج ، فإذا سطح ممدود عليه صورة رجل شاب قائم وعليه ثياب بيض رافعا وجهه إلى السماء واضعا يده على فيه . فلما سمع خشخشة ذى القرنين قال : من هذا ؟ قال : أنا ذوالقرنين ، قال : يا ذا القرنين إن الساعة قد قربت وإني منتظر أمر ربى يأمرني أن أنفخ في الصور ، ثم إن صاحب الصور أخذ شيئا من بين يديه كأنه حجر ، فقال : يا ذا القرنين خذ هذا فإن شبع هذا شبت ، وإن جاع هذا جعت ، فأخذ ذوالقرنين الحجر ونزل حتى أتى إلى أصحابه ، فحدثهم بأمر الطائر وما قاله له وما أورده عليه وما قال له صاحب الصور ، ثم جمع علماء عسكره وقال : أخبروني ما هذا الحجر وما أمره ؟ فقالوا : أيها الملك أخبرنا ما قال لك صاحب الصور ؟ فقال ذوالقرنين إنه قال : إن شبع هذا شبت وإن جاع جعت ، فوضعت العلماء ذلك الحجر في كفة الميزان وأخذوا حجرا مثله ووضعوه في الكفة الأخرى ، ثم رفعوا الميزان ، فإذا الذي جاء به ذوالقرنين أثقل ، فوضعوا معه آخر ورفعوا الميزان ، فإذا الذي جاء به ذوالقرنين أثقل ، فوضعوا معه آخر ، ورفعوا الميزان ، وإذا الذي جاء به ذوالقرنين أثقل ، فلم يزالوا يضعون حجرا بعد حجر ، حتى وضعوا ألف حجر ، ثم رفعوا الميزان ، فقال بالألف جميعا ، فقالت العلماء : انقطع علمنا دون هذا ، لانعرف أسحر هذا أم علم لانعلمه ؟ فقال الخضر عليه السلام وكان واقفا : أنا أعلم علمه ، فأخذ الخضر عليه السلام الميزان بيده ، ثم أخذ الحجر الذي جاء به ذوالقرنين فوضعه في إحدى الكفتين وأخذ حجرا من تلك الحجارة فوضعه في الكفة الأخرى ثم أخذ كفا من تراب فوضعه على الحجر الذي جاء به ذوالقرنين ثم رفع الميزان فاستوى ، فخرت العلماء سجدا لله تعالى وقالوا : سبحان الله هذا علم لم يباغعه علمنا ، والله لقد وضعنا معه ألف حجر فما استقل به ، فقال الخضر عليه السلام : أيها الملك إن سلطان الله عز وجل قاهر لخلقه وأمره نافذ فيهم وحكمه جار عليهم ، وإن الله ابتلى خلقه بعضهم ببعض ، فابتلى العالم بالعالم ، والجاهل بالجاهل ، والجاهل بالعالم ، والعالم بالجاهل ، وإنه ابتلاني بك وابتلاك بي ، فقال ذوالقرنين : صدقت ، فأخبرني ما هذا الحجر ؟ فقال الخضر : أيها الملك هذا مثل ضربه لك صاحب الصور إن الله تعالى مكن لك في الأرض فأعطاك منها ما لم يعط أحدا من خلقه ، وأوطأك منها ما لم يوطئ لأحد من خلقه فلم تشبع ، وآتيت

تفسك شرها حتى بلغت من سلطان الله ما لم يطأه إنس ولا جان ، فهذا مثل صربه لك صاحب الصور : ابن آدم لا يشبع أبدا حتى يُحسنى عليه التراب ولا يملأ جوفه إلا التراب ، فبكى ذو القرنين ثم قال : صدقت يا خضر في ضرب هذا المثل ، لاجرم لا طلبت أثرا في البلاد بعد مسيرى هذا حتى أموت ، ثم إنه انصرف راجعا حتى إذا كان في وسط الظلمة وطى الوادى الذى فيه الزبرجد ، فقال من معه لما سمعوا خشخشة تحت حوافر دوابهم : ما هذا الذى تحتنا أيها الملك ؟ فقال ذو القرنين : أخذوا منه ، فإن من أخذ منه ندم ومن تركه ندم ، فمنهم من أخذ منه شيئا ومنهم من تركه ، فلما خرجوا من الظلمة ونظروه إذا هو زبرجد ، فندم الآخذ والتارك . قال : فقالت رسول الله صلى الله عليه وسلم « رَحِمَ اللهُ أُخِي ذَا الْقَرْنَيْنِ لَوْ ظَفِرَ بِوَادِي الزَّبْرَجْدِ فِي مَبْدَأِ أَمْرِهِ مَا تَرَكَ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى كَانَ يُخْرِجُهُ إِلَى النَّاسِ ، لِأَنَّهُ كَانَ رَاغِبًا فِي الدُّنْيَا ، وَلَكِنَّهُ ظَفِرَ وَهُوَ زَاهِدٌ فِي الدُّنْيَا لِأَحَاجَةِ لَهُ فِيهَا » . ثم إنه رجع إلى العراق وملك ملوك الطوائف كلها ، ومات في طريقه قبل وصوله بشهر .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : إنه رجع إلى دومة الجندل وكانت منزله ، فأقام بها حتى مات . قالوا : وكان عمره ستا وثلاثين سنة ، وكان ملكه سبع عشرة سنة ، وكان قبل دارا في أول السنة الثالثة من ملكه ، فلما مات حمل إلى أمه بالإسكندرية ودفن هناك . قالوا : فلما مات الإسكندر عرض الملك على ابنه إسكندروس من بعده فأبى واختار النسك والعبادة ، فملك اليونانية عليهم فيما قيل بطليموس بن لوسوع ، وكان ملكه ثمانيا وثلاثين سنة ، وكانت المملكة في حياة الإسكندر وبعد وفاته إلى أن تحول الملك إلى الروم والمضاض واليونانية ولبنى إسرائيل بيت المقدس ونواحيها الديانة والرياسة على غير وجه الملك إلى أن خرب بلادهم الفرس والروم وطردهم عنها بعد قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام ، والله أعلم .

مجلس : فى قصة زكريا وابنه يحيى ومريم وعيسى عليهم السلام

وهو مجلس يشتمل على أبواب كثيرة

قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار : عبرت بنو إسرائيل بعد مرجعهم من أرض بابل إلى بيت المقدس وبلاد الشام وانتظام أمورهم ، ولم يزالوا يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم بفضله ورحمته ، ويبعث فيهم الرسل (ففريقا يكذبون وفريقا يقتلون) كما قال الله تعالى ، حتى كان ممن بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى ، وكانوا من آل بيت داود عليه السلام .

نسب زكريا عليه السلام

هو زكريا بن بَرَّخِيَا بن عِدُو بن مسنم بن صدوق بن يحسان بن داود بن سليمان بن مسلم ابن صديقة بن ناحور بن سلوم بن شفاساط بن أبا بن رحيم ، بن سليمان بن داود عليه السلام

باب في ذكر مولد مريم عليها السلام وخبر تحريرها

قال الله تعالى (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)
الآيات . قال المفسرون : هي حنة بنت فاقوذ جدة عيسى عليه السلام . وعمران : قال ابن عباس : هو عمران بن ماثان ، وليس بعمران أبي موسى إذ بينهما ألف وثمان مئة سنة . وكانت بنو ماثان رءوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم . وقال ابن إسحاق : هو عمران بن ساهم بن أمور بن ميشان بن حزقيل بن أحزيف بن بؤم بن عزاريا بن أمصيا بن ناوس بن نوثا بن بارض بن يهوشا فاظ بن رادم بن أيبا بن رحيم بن سليمان بن داود عليه السلام . وكانت القصة في ذلك أن زكريا بن بَرَّخِيَا وعمران بن ماثان كانا متزوجين بأختين إحداهما عند زكريا بن بَرَّخِيَا وهي إيشاع بنت فاقوذ أم يحيى : وكانت الأخرى عند عمران وهي حنة بنت فاقوذ أم مريم ، وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وعجزت ، وكانوا أهل بيت من الله بمكان ، فبينما هي في ظل شجرة إذ نظرت ظائرا يضم فرخا ، فتحركت عند ذلك شهوتها للولد ، ودعت الله تعالى أن يهب لها ولدا وقالت : اللهم لك على إن رزقتني ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس ، فيكون من سدنته وخدمه نذرا وشكرا ، فحملت بمريم عليها السلام ، فحررت ما في بطنها ولم تعلم ما هو ، فقالت (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا) أي عتيقا عن الدنيا وأشغالها خالصا لله تعالى وخادما لبيت المقدس حبسا عليه مفرغا لعبادة الله وخدمته ، فتقبل مني الكائن إنك أنت السميع العليم . قالوا : وكان المحرر إذا حرر ونذر جعل المحرر والمندور في الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرح عنها حتى يبلغ الحلم ، فإذا بلغ خيرا بين أن يقيم وبين أن يذهب حيث شاء ، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير استأذن رفاقه من السادة ليكون خروجه على علم منهم ، ولم يكن أحد من بني إسرائيل وعلمائهم إلا من في نسبه محرر لبيت المقدس ، ولم يكن محررا إلا الغلمان ، وكانت الجارية لا تكلف ذلك ولا تصلح ، لما بصيبتها من الحبيض والأذى ، فحررت أم مريم ما في بطنها . فلما فعلت ذلك قال لها زوجها عمران : ويحك ماذا صنعت ؟ أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى ، والأنثى عورة لا تصلح لذلك ، فوفا جميعا في هم من ذلك ، فهلك عمران وحنة حامل بمريم ، فلما وضعها إذا هي جارية . فقالت حنة وكانت ترجو أن يكون غلاما اعتذارا إلى الله تعالى (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ) أي في خدمة الكنيسة والعبادة فيها

لعورتها وضعفها وما يعترها من الحيض والنفاس والأذى (وإني سميتها مريم) وهي بلغتهم العابدة والخدمة ، وكانت مريم عليها السلام أجمل النساء وأمثلهن في وقتها :

أخبرني الحسن بن محمد بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ : مَرِيْمُ ابْنَةِ عِمْرَانَ ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَخَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، (وإني أعيدُها) أي أجيرها وأمنعها بك (وذريتها من الشيطان الرجيم) .

أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده ، وأخبرنا أبو سهيل أحمد بن محمد بن هارون بإسناده عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من مولود إلا والشيطان يمسُّه حين يُولدُ فيستَهيلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِلَّا مَرِيْمَ وَابْنَتَهَا ، ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (وإني أعيدُها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

وأخبرنا شعيب بن محمد بإسناده عن قتادة قال : كل آدمي يطعن الشيطان في جنبه حين يولد إلا عيسى وأمه عليهما السلام جعل بينهما حجاب وأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليهما منه شيء . قال : وذكروا لنا أنهما كانا لا يصيبان من الذنوب كما يصيبه سائر بني آدم ، قال الله تعالى (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ) الماء راجعة إلى النذيرة : أي فتقبل الله النذيرة : أي مريم من حنة (وأنبتتها نباتاً حسناً) يعني سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت في المدة اليسيرة كما ينبت المولود في المدة القصيرة . وقال ابن جريج : وأنبتا ربها في غذائها ورزقها نباتا حسنا حتى تمت امرأة بالغة .

قالوا : فلما ولدت مريم أخذتها أمها حنة ، فلفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعها عند الأحبار أبناء هارون وهم يومئذ ثلاثون في بيت المقدس كما يلي الحجة أمر الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها منكم ، لأن عندي خالتها ، فقالت له الأحبار : لا تفعل ذلك ، فإنها لو تركت لأحق الناس وأقربهم إليها لتركت لأمها التي ولدتها ، ولكننا نقرع عليها ، فتكون عند من خرج سهمه ، فاتفقوا على ذلك ، ثم انطلقوا وكانوا تسعة عشر رجلا إلى نهر جار . قال السدي : هو نهر الأردن ، فألقوا أقلامهم : أي سهامهم وقيل أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في الماء ، فارتفع قلم زكريا فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت في الماء ، قاله ابن إسحاق وجماعة . وقال السدي : بل ثبت قلم زكريا فوق الماء كأنه في طين ، وجرت أقلامهم مع جريان الماء فذهب الماء بها ، فسهمتهم وقرعتهم زكريا عليه السلام ، وكان رأس الأحبار ونبيهم ، فذلك قوله تعالى (وكفَّلَهَا زَكَرِيَّا) ضمها إلى نفسه وقام بأمرها . وقال ابن إسحاق : فلما كفَّلها زكريا ضمها إلى خالتها أم يحيى ، واسترضع لها ، حتى إذا نشأت وبلغت مبالغ النساء بنى لها محرابا : أي غرفة في المسجد ،

وجعل بابه إلى وسطها ، لا يُرْتَقَى إليها إلا بسلم مثل باب الكعبة ، فلا يصعد إليها غيره ، وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها في كل يوم ، وكان زكريا عليه السلام إذا خرج أغلق عليها بابها ، فإذا دخل عليها غرفتها (وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) أي فاكهة في غير حينها ، فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، فيقول لها (أَتَى لَكَ هَذَا ؟) فتقول (هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) من قطف الجنة . قال الحسن : يجد عندها قوتها ، وكان رزقها يأتيها من الجنة ، فيقول لها زكريا : من أين لك هذا ، فتقول : هو من عند الله ، قال الحسن : وكانت وهي صغيرة يأتيها رزقها .

وقال محمد بن إسحاق : ثم أصابت بنى إسرائيل أزمة وهي على ذلك من حالها ، ثم ضعف زكريا عن حملها ، فخرج إلى بنى إسرائيل وقال : يا بنى إسرائيل تعلمون والله إنى لقد كبرت وضعفت عن حمل ابنة عمران ، فأبيكم يكفلها بعدى ؟ فقالوا : والله لقد جهدنا وأصابنا من الجهد ما ترى ، فتدافعوها بينهم ، ثم لم يجدوا من يحملها ، فتقارعوا عليها بالأقلام ، فخرج السهم على رجل صالح نجار من بنى إسرائيل يقال له : يوسف بن يعقوب بن ماثان ، وكان ابن عم مريم ، فحملها . قال : فعرفت مريم في وجهه شدة مثونة ذلك عليه ، فقالت له : يا يوسف أحسن الظن بالله ، فإن الله سيرزقنا ، فجعل يوسف يرزق لمكانها منه ، فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها ، فإذا أدخله عليها وهي في الكنيسة أنماه الله تعالى وكثره ، فيدخل إليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ليس بقدر ما يأتيها به يوسف ، فيقول لها (يَا مَرْيَمُ أَأَنَّى لَكَ هَذَا ؟) قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّاهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن جابر بن عبد الله : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه ، فطاف في منازل أزواجه فلم يصب في بيت أحد منهن شيئا ، فأتى فاطمة رضي الله عنها فقال : يا بُنَيَّةُ هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ آكُلُ فَأَنِي جَائِعٌ ؟ فقالت : لا والله بأبي أنت وأمي . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وبضعة لحم ، فأخذته منها ووضعته في جفنة وغطت عليه وقالت : لأوثرن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي ، وكانوا جميعا محتاجين إلى شبة من طعام ، فبعثت حسنا وحسينا إلى جدتهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إليها ، فقالت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله . قد أتانا الله بشيء فخبأته لك ، قال : فَهَلْ كُنْتُمْ بِهِ ، فأتى به ، فكشف عن الجفنة فاذا هي مملوءة خبزا ولحما ، فلما نظرت إليه بهت وعرفت أنها من بركة الله ، فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه ، فقال عليه الصلاة والسلام : مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا يَا بُنَيَّةُ ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : الْحَمْدُ لِلَّهِ

الَّذِي جَعَلَكَ شَبِيهَةً بِسَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ إِذَا رَزَقَهَا اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا فَسُئِلَتْ عَنْهُ (قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يَرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِتَغْيِيرِ حِسَابٍ) فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَتَى فَأَكَلَ الرَّسُولُ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَجَمِيعُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَتِ الْجَفْنَةُ كَمَا هِيَ . قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَأَوْسَعَتْ مِنْهَا عَلِيُّ جَمِيعَ جِيرَانِي ، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهَا بَرَكَهً وَخَيْرًا كَثِيرًا ، وَكَانَ أَصْلُ الْجَفْنَةِ رَغِيفِينَ وَبَضْعَةَ لَحْمٍ ، وَالْبَاقِي بَرَكَهً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

باب في مولد يحيى بن زكريا عليه السلام

قال الله تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم الفاكهة في غير حينها قال : إن الذي قدر على أن يؤتى مريم بانفاكهة في غير حينها من غير سبب ولا فعل أحد ، لقادر على أن يصلح زوجتي ويهب لي ولدا على الكبر ، فطمع في الولد وكان أهل بيته قد انقرضوا وزكريا قد شاخ وأيس من الولد ، فهنالك : أى فعند ذلك دعا ربه زكريا (قال رب هب لي) أى أعطني (من لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً) نسلا تقيا صالحا راضيا (إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فنادته الملائكة) يعنى جبريل ، وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذي يقرب القربان ويفتح باب المذبح فلا يدخل أحد حتى يأذن له بالدخول ، فبينما هو في محرابه عند المذبح قائم يصلي والناس ينتظرون أن يأذن لهم بالدخول ، إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ، ففرع منه ، فناداه وهو جبريل عليه السلام (يَا زَكَرِيَّا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) .

واختلفوا لم سمي يحيى ؟ قال ابن عباس : لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه . وقال قتادة وغيره : لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة . وقال الحسن بن الفضل : لأن الله تعالى أحياه بالطاعة ، حتى لم يتغير ولم يهجم بمعصية ، دليله ما أخبرني به الحسن بن فتحويه بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن أحد يلتقى الله عز وجل إلا قد هم بخطيئة أو عميها إلا يحيى بن زكريا ، فإنه لم يهجم ولم يعمل » . قال الأستاذ : وكان شيخنا أبو القاسم الجنيدي يقول : سمي بذلك لأنه استشهد ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون . قال النبي صلى الله عليه وسلم « من هوان الدنيا على الله أن يحيى بن زكريا قتلته امرأة » . قال : وسمعت أبا منصور الحمشاوي يقول : قال عمر بن عبد الله المقدسي : أوحى الله إلى إبراهيم الخليل عليه السلام أن قل لبسارة ، وكان اسمها كذلك : إني مخرج منكما عبدا لاهم بمعصيتي اسمه حي ، فهي

لى من اسمك حرفا ، فوهبت له أول حرف من حروف اسمها الياء ، فصار يحيى ، و صار اسمها سارة . (مَصَدَقًا بِكَلِمَةِ مِّنَ اللَّهِ) يعنى : عيسى عليه السلام ، فسمى كلمة لأن الله تعالى قال له من غير أب : كن فكان ، فوق عليه اسم الكلمة لأنه بها وجد ، ويحيى أول من آمن بعيسى وصدقه ، وذلك أن أمه كانت حامله به ، فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى ، فقالت لها أم يحيى : يا مريم أحامل أنت ؟ فقالت لماذا تقولين هذا ؟ قالت : إني أرى ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ، فذلك تصديقه له وإيمانه به ، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ، وذلك أن مولد يحيى كان قبل مولد عيسى بستة أشهر ، ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى إلى السماء وسند كره . قال سعيد بن المسيب : (وَسَيِّدًا) السيد : الفقيه العالم . وقال سعيد بن جبير : السيد الذى يطيع ربه عز وجل . وقال الضحاك : السيد الحسن الخلق . وقال عكرمة : الذى لا يغضب . وقال سفيان : الذى لا يحسد (وَحَصُورًا) قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : هو الذى لا يأتى النساء ولا يقربهن ، فعول بمعنى فاعل : يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات . وقال ابن المسيب والضحاك : هو العنين الذى لآباءة له . ودليل هذا التأويل ما أخبرنى به ابن فتحويه بإسناده عن أبى صالح عن أبى هريرة . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَلْقَى اللَّهَ بِذَنْبٍ قَدْ أَذِنَبَهُ يُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ أَوْ يَرْحَمُهُ إِلَّا يَحْسِبِي بَنِي زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ كَانَ سَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ، ثم أوما النبي صلى الله عليه وسلم إلى قذاة من الأرض فأخذها ، قال : وكان ذكره مثل هذه القذاة . وقال المدنى : الحصور الذى لا يدخل فى اللعب ولا الأباطيل .

قالوا : فلما نادى جبريل زكريا بالبشارة قال : رب ، أى ياسيدنى ، قاله لجبريل ، هذا قول أكثر المفسرين . وقال الحسن بن الفضل : إنما قال زكريا : يا رب لله لا لجبريل (أَأَنى يَكُونُ لى غُلامٌ) من أين يكون لى ولد (وَقَدْ بَلَغَنِى الكِبَرُ وامرأتى عاقِرٌ) لآتلد عقيم . قال الكلبي : كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنتين وتسعين سنة ، وقيل تسع وتسعين سنة وروى الضحاك عن ابن عباس قال : كان زكريا ابن عشرين ومئة سنة ، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة ، فأجيب (كذلك الله يفعل ما يشاء) فإن قيل لم أنكر زكريا ذلك وسأل الآية بعد ما بشرته الملائكة ، أكان ذلك شكًا فى وحيه ، أم إنكارا لقدرته ؟ وهذا لا يجوز أن يوصف به أهل الإيمان : فكيف الأنبياء ؟ فالجواب عنه ما قاله عكرمة والسدى : أن زكريا لما سمع نداء الملائكة جاءه الشيطان فقال : يا زكريا إن الصوت الذى سمعت ليس من الله وإنما هو صوت الشيطان يسحر بك ، ولو كان من الله لأوحاه إليك خفية كما ناديت خفية ، وكما يوحى إليك فى سائر الأمور ، فقال ذلك دفعا للوسوسة . وفيه

جواب آخر ، وهو أنه لم يشك في الولد، وإنما شك في كفيته والوجه الذي يكون منه الولد فقال (أنى يكون لى ولد) أى كيف يكون لى ولد؟ أتجعلنى وامراتى شاين أم نرزقه، كذا على كبرنا ، أم نرزقنى من امرأة غيرها من النساء؟ فقال ذلك متخبرا لامنكرا ، وهذا قول الحسن (قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام) وتقبل بكليتك على عبادتى وطاعتى ، لأنه حبس لسانه عن الكلام ، ولكنه نهى عنه، يدل عليه قوله تعالى (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار) هذا قول قوم من أهل العلم . وقال آخرون : عقل لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، ولم يقدر على الكلام ثلاثة أيام إلا رمزا : أى إشارة وعلى هذا أكثر المفسرين : وقال عطاء : أراد به صوم ثلاثة أيام، لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزا، فولد يحيى بن زكريا عليهما السلام . وفى بعض الأخبار أنه لما ولد يحيى رفع إلى السماء فتغذى بأنهار الجنة حتى فطم ، ثم أنزل إلى أبيه وكان يضىء البيت لنوره وحسن وجهه وجماله .

باب فى صفته وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان يحيى بن زكريا نبيا حسن الوجه والصورة ، لين الجناح قليل الشعر قصير الأصابع طويل الأنف مقرون الحاجبين رقيق الصوت كثير الغيرة قويا فى طاعة الله تعالى ، وقد ساد الناس فى عبادة الله وطاعته .

فصل : فى نبوته وسيرته وذكر زهده وجهده

قال الله تعالى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) . قيل إن يحيى قال له أترابه من الصبيان : يا يحيى اذهب بنا نلعب ، فقال لهم : ما للعب خلقت ؟ وقال آخرون : إنه نبي صغيرا ، فكان يعظ الناس ويقف لهم فى أعيادهم وجمعهم ويدعوهم إلى الله تعالى ، ثم ساح ودخل الشام يدعو الناس ، ولما بعثه الله تعالى إلى بنى إسرائيل وأمره أن يأمرهم بخمس خصال ، وضرب لكل خصلة منها مثلا ، أمرهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وقال : مثل الشرك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله ثم أسكنهم دارا له ودفع لهم مالا يتجرون فيه، ويأكل كل واحد منهم ما يكفيه، ثم يؤدون إليه فضل الربح فعمد العبيد إلى فضل الربح فدفعوه إلى عدو سيدهم وأمرهم بالصلاة، فقال : إن مثل المصلى كمثل رجل استأذن على ملك فأذن له ودخل عليه، فأقبل الملك عليه بوجهه ليسمع مقالته ويقضى حاجته، فلما دخل عليه الرجل التفت يمينا وشمالا ولم يهتم بحاجته، فأعرض الملك عنه ولم يقض حاجته . وأمرهم بالصدقة وقال : مثلها كمثل رجل أسره العدو ، فاشترى منه نفسه بثمن معلوم ، فجعل يعمل فى بلادهم ويؤدى إليهم من كسبه القليل والكثير حتى أوفى ثمنه فأعتق :

وأمرهم بذكره عز وجل وقال مثل الذكر مثل قوم لهم حصن ولهم عدو، فإذا أقبل عليهم عدوهم دخلوا حصنهم فلم يقدر عليهم، كذلك من ذكر الله تعالى لا يقدر عليه الشيطان، وأمرهم بالصيام وقال: مثله كمثل الجنة لا تدع عدوه يصل إليه وتستره.

وأما سيرته فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كان من زهد يحيى أنه أتى بيت المقدس، فنظر إلى المجتهدين من الأحنبار والرهبان وعليهم مدارع الشعر والصوف وبرانس الصوف، وإذا هم قد خرقوا تراقيبهم وسلكوا فيها السلاسل وشدوا بها إلى سوارى المسجيد، فلما نظر إلى ذلك أتى أمه فقال: يا أمه انسجى لي مدرعة من شعر وبرنسا من صوف حتى أتى إلى بيت المقدس وأعبد الله تعالى مع الأحنبار والرهبان، فقالت له أمه: حتى يأتي نبي الله زكريا عليه السلام فأؤمره في ذلك؛ فلما دخل زكريا أخبرته بما قال لها يحيى، فقال له زكريا: يا بتي ما يدعوك إلى هذا وإنما أنت صبي صغير، فقال له: يا أبت أما رأيت من هو أصغر مني ذاق الموت قال بلى، فقال لأمه انسجى لنا مدرعة من الشعر وبرنسا من الصوف، ففعلت فتدرع بالمدرعة على بدنه ووضع البرنس على رأسه، ثم أتى بيت المقدس وأقبل يعبد الله مع الأحنبار والرهبان حتى أكلت مدرعة الشعر لحمه، فنظر ذات يوم إلى ما قد نحل من جسده فبكى، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى أتبكي على ما قد نحل من جسمك؟ وعزيتي وجلالي لو اطلعت على النار اطلاعة لتدرعت مدارع الحديد فضلا عن المسوح، فبكى يحيى حتى أكل الدمع لحم خدته وبدت للناظرين أضراسه، فبلغ ذلك أمه فدخلت عليه وأقبل زكريا واجتمع الأحنبار والرهبان فقال زكريا لابنه يحيى: ما يدعوك لهذا يا بتي إنما سألت ربى أن يهبك لي لتقر بك عيني، قال أنت أمرتني بذلك يا أبت، قال ومتى؟ قال ألسنت القائل: إن بين الجنة والنار عقبة كثودا لا يقطعها إلا الباكون من خشية الله تعالى؟ قال: بلى، قال فجد واجتهد وقام فنفض مدرعته فأخذته أمه فقالت: أتأذن لي يا بتي أن آخذ لك قطعتين من لب يد يواربان أضراسك وينشقان دموعك، فقال لها: شأنك. فآخذت له قطعتي لب يد يواربان أضراسه وينشقان دموعه فبكى حتى ابتلتا من دموع عينيته، ثم أخذهما فعضرهما، فتحدرت الدموع من بين أصابعه، فنظر زكريا إلى ابنه

وإلى دموعه ، فرَفَعَ رأسه إلى السماء وقال : اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا ابْنِي وَهَذِهِ
دُمُوعُ عَيْنَيْهِ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وكان زكريا إذا أراد أن يعظ بني إسرائيل التفت يمينا وشمالا ، فإذا رأى يحيى لم يذكر
جنة ولا نارا ، فجلس يوما يعظ بني إسرائيل وأقبل يحيى قد لف رأسه بعباءة وجلس
في أعمار القوم ، فالتفت زكريا يمينا وشمالا فلم ير يحيى ، فأنشأ يقول : حدثني حبيبي
جبريل عن الله عز وجل أن في جهنم جبلا يقال له السكران ، في أصل ذلك الجبل واد
يقال له الغضبان ، خلق لغضب الرحمن تبارك وتعالى ، في ذلك الوادي جبّ قامته مئة
عام ، في ذلك الجب توأبيت من نار ، في تلك التوأبيت صناديق من نار وثياب من نار
وأغلال من نار ، فرفع يحيى رأسه وقال : واغفلتاه عن السكران وعن غضب الرحمن ،
ثم خرج هائما على وجهه ، فقام زكريا من مجلسه ودخل على أم يحيى فقال لها : يا أم
يحيى قومي فاطلي يحيى فإنني قد تخوفت أن لا نراه إلا وقد ذاق الموت ، فقامت وخرجت
في طلبه ، فمرت بفتيان من بني إسرائيل فقالوا لها : يا أم يحيى أين تريدين ؟ قالت : أطلب
ولدي يحيى ، ذُكِرَت النار بين يديه فهام على وجهه ، فضت أم يحيى والفتية معها حتى مرت
براعى غنم . فقالت : ياراعى ، هل رأيت شابا من صفته كذا وكذا ؟ قال : لعلك تطلين
يحيى بن زكريا ؟ قالت نعم ذلك ولدي ذكرت النار بين يديه فهام على وجهه ، فقال :
تركته على عقبه كذا ناقعا قدميه في الماء رافعا بصره إلى السماء يقول : وعزتك يا مولاي
لا أذوق بارد الشراب حتى أنظر إلى منزلي منك ، فأقبلت أمه ، فلما رآته دنت منه ،
فأخذت برأسه فوضعت بين يديها وناشدته بالله أن ينطلق معها إلى المنزل ، فانطلق معها إلى
المنزل فقالت له : هل لك أن تحلحع مِدْرَعَتِكَ الشعر وتلبس مدرعتك الصوف فإنه ألين ؟
ففعل ثم إنها طبخت له عدسا فأكل واستوفى فذهب به النوم فلم يقم لصلاته ، فنودي
في منامه : يا يحيى أردت دارا خيرا من داري وجوارا خيرا من جوارى ، فاستيقظ وقام
وقال : رب أقل عثرتي ، وعزتك لا أستظل بظل سوى بيت المقدس ، ثم قال لأمه : ناوليني
مدرعة الشعر ، فقد علمت أنكما ستورداني المهالك ، فتقدمت إليه أمه ودفعت إليه
المدرعة وتعلقت به ، فقال لها زكريا : يا أم يحيى دعيه ، فإن ولدي قد كشف له عن قناع
غفلته ولن ينتفع بالعيش ، فقام يحيى فلبس مدرعته ووضع البرنس على رأسه ، ثم أتى
بيت المقدس ، فجعل يعبد الله مع الأحبار والرهبان حتى كان من أمره ما كان ، والله أعلم .

باب في مقتله عليه السلام

اختلف العلماء في سبب قتله ، فقال : كان يحيى عليه السلام في زمن ملك من ملوك
بني إسرائيل ، وكان له امرأة وهي ابنة ملك صيدا ، وكانت قتالة للأنبياء والصالحين ،
وكانت عاهرة تبرز للناس ، وكان يحيى يزجرها عن ذلك ، ويقول لها : لا تبرزي كاشفة

وجهك ، وكان كثيرا ما يقول لها : مكتوب في التوراة : إن الزناة يوقفون يوم القيامة وريحهم أنتن من الجيف ، فأمرت يحيى فسجن ، وكان قد حبس رجل من أبناء الملوك ، وكان كثيرا ما يختلف إليها بالليل ، فعلم بها وبه يحيى فزجره ، فبلغ ذلك امرأة الملك ، فجملت بنتا لها واستقبلت بها زوجها ، فقال لها : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : وجب لها عليك حق ، فقال : سلى ما شئت ، فقالت : البنت استوهبت منك أهل الحبس أصنع بهم ما شئت ، فظن أبوها أنها ترحمهم وتستر وجههم ، فقال أبوها : قد فعلت فأمرت أمها بأهل السجن فعرضوا عليها ، فلما مر بها يحيى أمرت به فذبح ، وأخذت رأسه في طشت ، ثم حملت الطشت إلى أبيها بأمر أمها وقالت : أيها الملك إني قد ذبحت لك ذبيحة من أعظم ما وجدته ، ولو كان مثله ألف لذبحتم لك ، قال : وما هو ؟ قالت : يحيى بن زكريا ، فقال : هلكت وأهلكت أبويك ، فغدير الله ما بهم من النعم ، وسلط عليهم عدوا ، فذبح البنت وأبويها ، وسلط عليهم الكلاب والسباع حتى أكلتهم .

وروى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : كان عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا في اثني عشر من الحواريين يعلمون الناس . قال : وكان مما نهوهم عنه نكاح بنت الأخ ، وكانت للمكهم بنت أخ تعجبه يريد أن يتزوجها ، وكان لها في كل يوم حاجة عنده يقضيها لها ، فلما بلغ أمها أنه ينهى عن نكاح بنت الأخ قالت لابنتها : إذا دخلت على الملك فسألك عن حاجتك فقولي : حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا ، فلما دخلت عليه سألتها عن حاجتها ، فقالت : حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا ، فقال : سلى غير هذا ، فقالت : ما أسألك إلا هذا ، فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعا بطشت ، فذبحه فيه ، فنبذت من دمه قطرة ، فلم تزل تغلى حتى بعث الله عز وجل بختنصر عليهم ، فجاءت عجوز من بني إسرائيل ، فدلته على ذلك الدم ، فألقى الله في قلبه أن يقتل على ذلك الدم سبعين ألفا منهم على سن واحد ليسكن ، فقتلهم فسكن .

وقال السدي بإسناده : كان ملك بني إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويدني مجلسه ويستشيره في أمره ولا يقطع أمرا دونه ، وأنه هوى أن يتزوج ابنة امرأة له ، فسأل عن ذلك يحيى فنهاه عنه وقال : لست أرضاها لك ، فبلغ ذلك أمها فحققت على يحيى حين نهاه أن يتزوج ابنتها ، فعمدت إلى ابنتها حين جاس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبها وألبستها من الحلوى وألبستها فوق ذلك كساء أسود وأرسلتها إلى الملك ، وأمرتها أن تسقيه وأن تتعرض له ، فإذا راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما تسأله ، فإذا أعطها ذلك سألته أن يأتيها برأس يحيى بن زكريا في طشت ، ففعلت ذلك وجعلت تسقيه وتعرض له ، فلما أخذ منه الشراب راودها عن نفسها ، فقالت : لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك ، قال : وما تسأليني ؟ قالت : أن تبعث إلي برأس يحيى بن زكريا في هذا الطشت ، قال : ويحك سليني غير هذا ، قالت : ما أسألك إلا هذا ، فلما أبت عليه بعث إليه فأتى برأسه

والرأس بتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تمحل لك . فلما أصبح إذا دمه يغلى فأمر بتراب فالتى عليه ، فارتفع الدم فوقه ، فلم يزل يغلى ويلقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو مع ذلك يغلى ، وذكر الحديث الطويل الذى فى قصة سنحاريب وبختنصر كما قدمنا ذكره فى أخبار بختنصر .

وقالت علماء النصارى : الذى قتل يحيى ملك من ملوك بنى إسرائيل يقال له هيرودس بسبب امرأة يقال لها هردويا كانت امرأة أخ له يقال له فيلقوس عشقها فوافقتة على الفجور ، ففاه يحيى وأعلمه أنها لا تمحل له ، فسألت المرأة هيرودس أن يأتيها برأس يحيى ، فلما فعل ذلك سقط فى يديه وجزع جزعا شديدا .

قال كعب الأحبار : كان يحيى من أجمل الناس وجها وأحسنهم فى زمانه ، فأحبتة امرأة الملك الذى كان فى زمانه حبا شديدا ، فأرسلت إليه تراوده عن نفسه ، فأرسل إليها أنه لا علم له بالنساء والملك أحق أن يظأ فراشه ؛ فلما انتهى إليها الرسول غضبت غضبا شديدا وقالت : كيف لى أن أقتله ولا يخبر الناس أنى قد راودته ، فلم تزل بالملك حتى وهب لها يحيى بن زكريا ، فأرسلت إليه وهو قائم يصلى فى بيت المقدس فى محراب داود من يضرب عنقه ويأخذ رأسه ؛ فلما أخذوا رأس يحيى خسف الله بها وبأهلها الأرض عقوبة لها بقتلها يحيى عليه السلام :

ذكر مقتل زكريا عليه السلام

قال كعب الأحبار : فلما سمع زكريا أن ابنه يحيى قتل وخسيف بالقوم انطلق هاربا فى الأرض حتى دخل بستانا عند بيت المقدس فيه الأشجار ، فنادته شجرة يا نبي الله إلى ههنا ، فلما أتاها انفتقت له الشجرة ودخل زكريا فى وسطها ، فانطلق إبليس لعنه الله حتى أخذ بطرف رداءه فأخرجه من الشجرة ليصدقوه إذا أخبرهم ، فلذلك تصنع اليهود الخيوط فى أطراف أردبتهم لا يدرون لما أمروا بذلك ، وأخذ الملك وأهله يلتمسون زكريا فاستقبلهم إبليس لعنه الله تعالى فقال لهم : ما تلتسون ؟ قالوا : نلتمس زكريا ، فقال إبليس : إنه دخل فى هذه الشجرة ، قالوا : لانصدك ، قال : فإنى إن أريتكم علامة تصدقونى بها ؟ قالوا : فأرنا إياها ، فأراهم طرف رداءه ، فأخذوا المناشير وضربوا الشجرة فنشروها نصفين فسلط عليهم أخبث أهل الأرض عِلْجا مجوسيا فانتقم الله به من بنى إسرائيل بدم يحيى وزكريا فقتل عظماء بنى إسرائيل ، وسبى منهم مئة وسبعين ألفا .

وقبل إن السبب فى قتل زكريا أن إبليس جاء إلى مجالس بنى إسرائيل فقذف بمريم زكريا وقال : ما أحبلها أحد غير زكريا ، وهو الذى كان يدخل عليها ، فطلبوا زكريا فهرب واتبعه سفهاؤهم وأشرارهم ، فسلك واديا كبير الأشجار ، فتشبه له الشيطان فى صورة راع فقال : يا زكريا قد أدركوك فادع الله أن يفتح لك هذه الشجرة ، ففعل ذلك فانفتحت له ،

فدخل فيها ، وأخرج إبليس هذب ردائه منها ، فمرت بنو إسرائيل بالشيطان فقالوا : يا راعي هل رأيت رجلا ههنا من صفته كذا وكذا ؟ قال : نعم سحر هذه الشجرة فانفتحت له فدخل فيها ، وهذا هذب ردائه ، فقطعوا الشجرة مع زكريا وفلقوها فلقنتين بالمنشار طولا ، فبعث الله الملائكة ، فغسلوا زكريا وصلوا عليه ودفنوه . وفي الخبر إن الشمس بكت على يحيى أربعين صباحا ، وكان بكاؤها أن طلعت وغربت حمراء . ويروى إن يحيى سيد الشهداء يوم القيامة وقائدهم إلى الجنة ، والله أعلم .

مجلس : في مولد عيسى عليه السلام

وفي حمل مريم بعيسى عليهما السلام ، وما يتصل به

قال الله تعالى (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا)
 قالت العلماء بأخبار الأنبياء : لما مضى من حمل عيسى عليه السلام ثلاثة أيام ومريم يومئذ بنت خمس عشرة سنة ، وقيل بنت ثلاث عشرة سنة ، وكان مع مريم في المسجد من المحررين ابن عم لها ، يقال له يوسف النجار ، وكان رجلا حليما نجارا يتصدق بعمل يديه ، وكان يوسف ومريم يلبان خدمة الكنيسة ، وكانت مريم إذا نفذ ماؤها وماء يوسف أخذ كل واحد منهما قلته ، وانطلق إلى المغارة التي فيها الماء فيستقيان منه ثم يرجعان إلى الكنيسة فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبريل عليه السلام وكان أطول يوم في السنة وأشد حرًا نفذ ماؤها ، فقالت : ألا تذهب بنا يا يوسف فنستقي ؟ فقال : إن عندي لفضلا من ماء أكتني به يومى هذا إلى غد ، قالت : ولكنى والله ما عندى ماء ، فأخذت قلتها ثم انطلقت وحدها حتى دخلت المغارة ، فوجدت عندها جبريل عليه السلام قد مثله الله لها بشرا سويا ، فقال لها : يا مريم إن الله قد بعثنى إليك (لأهب لك غلاما زكيا ، قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت نقيًا) أى مؤمنا مطيعا . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : علمت أن التقي ذورحة وخشية ، وهى تحسبه رجلا من بنى آدم . قال عكرمة : وكان جبريل عرض لها في صورة رجل شاب أمرد مضىء الوجه جعد الشعر سوى الخلق . قالت الحكماء : إنما أرسله الله تعالى في صورة البشر لتثبت مريم عليها وتقدر على استماع كلامه ، ولو نزل على صورته التى هو عليها لفزعته ونفرت منه ولم تقدر على استماع كلامه . فلما استعادت منه مريم (قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت إني أكون لى غلاما ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين) . . . الآية ، فلما قال لها ذلك استسلمت لقضاء الله ، فنفخ في جيب درعها ، وكانت قد وضعت عنها ، فلما انصرف عنها لبست مريم درعها ، وحملت بعيسى عليه السلام ، ثم ملأت قلنها وانصرفت إلى المسجد .

وقال السدي وعكرمة : إن مريم عليها السلام كانت تكون في المسجد ما دامت طاهرة فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد ، فبينما هي تغتسل من الحيض ، وقد اتخذت مكانا شرقيا : أي مشرقا ، لأنه كان في الشتاء في أقصر يوم في السنة :

قال الحسن : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم انتبذت مكانا شرقيا (فَأَتَّخَذَتْ) فضربت (مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا) أي سترا . وقال مقاتل : جعلت الجبل بينها وبين قومها ، فبينما هي كذلك في تلك الحالة إذ عرض لها جبريل وبشرها بعيسى ونفخ في جيب درعها . قال وهب : فلما اشتملت على عيسى كان معها ذوقرابة لها يقال له يوسف النجار ، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون ، وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم ، وكانت مريم ويوسف النجار يخدمان ذلك المسجد ، وكان لخدمته فضل عظيم ، وكانا يلبان معالجته بأنفسهما وتجميره وتطهيره ، وكان لا يعلم في زمانهما أشد اجتهادا وعبادة منهما ، وكان أول من أنكر حملها ابن عمها وصاحبها يوسف النجار ، فلما رأى الذي بها استعظمه واستفظعه ولم يدر ماذا يصنع من أمرها ؟ وكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها ، وأنها لم تغب عنه ساعة واحدة ، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل ، فلما اشتد ذلك عليه كلمها ، فكان أول كلامه إياها أن قال لها : إنه قد وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبني ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشق لصدرى ، فقالت له : قل قولا جميلا ، قال لها : أخبريني يا مريم هل نبت زرع بغير بذر؟ قالت : نعم ، قال : فهل نبتت شجرة بغير غيث؟ قالت : نعم ، قال : فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت : ألم تعلم أن الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ، والبذر إنما يكون من الزرع الذي أنبته من غير بذر ، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث ، وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق الله كل واحد منهما على حدة ، أو تقول إن الله لا يقدر أن ينبت الشجر حتى استعان بالماء . ولولا ذلك لم يقدر على إنباته؟ قال يوسف لها : لأقول هذا ، ولكني أقول : إن الله تعالى يقدر على ما يشاء يقول للشيء كن فيكون ، فقالت له مريم : ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ قال بلى . فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من أمر الله تعالى ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه ، وذلك لما رأى من كثرتها لذلك ، ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفها كل عمل كانت تعمل فيه لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها وبتوت بطنها وضعف قوتها ، وكان جبل صهيون على باب بيت المقدس . وسمعت من الثقات أن قبر داود عليه السلام فيه ، وثم كنيسة مشرفة على عين السلوان . وسألت بعض الرهبان فقال : هذا صهيون والكنيسة التي خدمت فيها مريم ويوسف هذه ،

وفد أفصح فيها عيسى ودعا الخلق إلى الله تعالى ، ثم نقل من هذه إلى القمامة ، وهي كنيسة عظيمة داخل بيت المقدس يدعون أن عيسى عليه السلام لما قُتل دُفن فيها ، وبعد ثلاثة أيام عُرِج به إلى السماء فلا ينقطع أبد الدهر منها وأنه ينزل فيها ، والله أعلم .

باب في ذكر ميلاده عليه السلام

قالوا : فلما أثقلت مريم ودنا نفاسها أوحى الله تعالى إليها أن مسجداً بيت المقدس بيت من بيوت الله تعالى الذي طهر ورفع ليذكر فيه اسمه ، فابرزى إلى موضع تأوين فيه ، فتحولت مريم إلى بيت خالتها أخت أمها أم يحيى ، فلما دخلت عليها قامت أم يحيى واستقبلتها فالتزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرت أنى حبلى ؟ قالت مريم : وأنت أيضاً شعرت أنى حبلى ؟ قالت امرأة زكريا : فإنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ، فذلك قوله تعالى (مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ) فلما وافت بيت خالتها أوحى الله إليها أنك إن ولدت بين أظهر قومك عيرونك وقذفوك وقتلوك وولدك ، فاطعنى من عندهم : أى فاخرجى . وقال الكلبي : قيل لابن عمها يوسف : إن مريم حملت من الزنا ، الآن يقتلها الملك وكانت قد سميت له ، فهرب بها يوسف فاحتملها على حمار له ليس بينها وبين الإكاف شيء ، فانطلق بها يوسف حتى إذا كان قريباً من أرض مصر فى منقطع بلاد قومها ، أدرك مريم النفاس ، فألجأها إلى أصل نخلة يابسة ، وذلك فى زمن الشتاء .

قال الكلبي : لما كان يوسف ببعض الطريق أراد قتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له : إنه من روح القدس فلا تقتلها . واختلف العلماء فى مدة حمل مريم عليها السلام ووقت وضعها عيسى عليه السلام ، فقال بعضهم : كان مقدار حملها تسعة أشهر كحمل سائر النساء ، وقيل ثمانية أشهر ، وكان ذلك آية أخرى ، لأنه لم يعش مولود ثمانية أشهر غير عيسى ، وقيل ستة أشهر ، وقيل ثلاث ساعات ، وقيل ساعة واحدة . وقال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت ووضعت ، ولم يكن بين الحمل والوضع والانتباز إلا ساعة واحدة ، لأن الله تعالى لم يذكر بينهما فصلاً ، قال الله عز وجل (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًا) أى بعيداً من قومها . وقال مقاتل : حملته أمه فى ساعة ، وصوّرت فى ساعة ، ووضع فى ساعة حين زالت الشمس من يومها ، وهى بنت عشرين سنة ، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل بعيسى .

قالوا : فلما اشد بها المخاض التجأت إلى النخلة ، وكانت نخلة يابسة ليس لها سعف ولا كرايف ولا عروق ، فاحتوشتها الملائكة ، وكانوا صفوفاً محدقين بها : أى محيطين بها ، وكانت تلك النخلة فى موضع يقال له بيت لحم ، فقالت حين اشد الأمر (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا) أى جيفة ملقاء ، فنوديت (أَنْ لَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ سَرِيًّا وَهَزِيًّا إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا

جَنِيًّا) فذلك قوله تعالى (فتاداها مِن تَحْتِهَا أَنْ لَا تَحْزَنِي) من قرأ بكسر الميم والتاء فهو جبريل عليه السلام ناداها من سفح الجبل ، ومن قرأ بفتح الميم والتاء فهو عيسى عليه السلام لما خرج من بطن أمه ، ناداها وكلمها بإذن الله تعالى . قالوا : فلما ولدت عيسى أجرى الله لها نهرا من ماء عذب بارد إذا شربت منه ، وفاتر إذا استعملته ، فذلك قوله تعالى (قد جعل ربك تحتك سَرِيًّا) وهو النهر الصغير . قال ابن عباس : ضرب عيسى ، وقيل جبريل عليه السلام برجله الأرض ، فظهر الماء ، وحييت تلك النخلة بعد يبسها ، فتدلت غصونها وأورقت وأثمرت وأرطبت ، وقيل لها (هُزِّي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ) أى حركه (تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا) غصنا طريا : قال الربيع بن خثيم : ما للنفساء عندي خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل . وقال عمرو بن ميمون : ما أدرى للمرأة إذا عسرت عليها ولادتها خيرا من الرطب ، وقرأ هذه الآية . قالت عائشة رضی الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزج التمر ويحنك به أولاد الصحابة حين يولدون . وقال بعض البلغاء في وصف التمر : علة الصغير ونهلة الكبير : ثم إن يوسف النجار عمد إلى حطب فجعله كالحظيرة حوالها بالقرب منها إذ قد أضربها البرد ، ثم أشعل لها نارا لتصطلي بها ثم كسر لها سبع جوزات كانت في خرجه فأطعمها إياها ، فمن أجل ذلك توعد النصارى النار ليلة الميلاد وتلعب بالجووز .

قال وهب : فلما ولد عليه السلام أصبحت الأصنام كلها بكل أرض منكوسة على رءوسها ، ففرغت الشياطين ولم يدروا لم ذلك ، فساروا مسرعين حتى جاءوا إلى إبليس لعنه الله وغضب عليه ، وهو على عرش له في لجة خضراء يتمثل بالعرش يوم كان على الماء ، فأتوه وقد خلت ست ساعات من النهار ، فلما رأى إبليس اجتماعهم فرع من ذلك ولم يرههم جميعا منذ فرقهم قبل تلك الساعة ، وإنما كان يراهم أشتاتا ، فسألهم فأخبروه أنه حدث في الأرض حدث ، فأصبحت الأصنام كلها منكوسة على رءوسها ، ولم يكن شيء أعون على هلاك بني آدم منها ، لأنهم كانوا يدخلون في أجوافها فتكلمهم وتدبر أمرهم ، فيظنون أنها هي التي تكلمهم ، فلما أصابها هذا الحدث صغرها في أعين الناس وأذلها ، وقد خشينا أن لا يعبدوها بعد هذا . واعلم أنا لم نكن نأتيك حتى أحصينا الأرض وقلبنا البحار وكل شيء ، فلم نزد بما أردنا إلا جهلا ، فقال لهم إبليس : فما يكون إلا أمر عظيم فكونوا مكانكم ، فطار إبليس عند ذلك ولبث عنهم ثلاث ساعات ، فرهبين بالمكان الذي ولد فيه عيسى ، فلما رأى الملائكة محققين بذلك المكان علم أن ذلك الحدث فيه ، فأراد إبليس لعنه الله أن يأتيه من فوقه . قال : فإذا رءوس الملائكة ومناكبهم إلى السماء ، ثم أراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدام الملائكة رأسية ، فأراد أن يدخل من بينهم فنهروه عن ذلك بدل هيبه حديث النبي صلى الله عليه وسلم و كَلَّ ابْنُ آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانَ فِي جَنْبَيْهِ .

بأصبعه حين يُولدُ ، إلا عيسى بن مريم عليه السلام ، حجبته الله تعالى عنه ، فذهب بطعن فطعن في الحجاب . قال وهب : فذهب إبليس لعنه الله إلى أصحابه فقال لهم : ما جئتم حتى أخصيت الأرض كلها مشرقها ومغربها وبرها وبحرها والخافقين والجو الأعلى ، وكل هذا بلغت في ثلاث ساعات ، ثم أخبرهم بمولد عيسى وقال : ما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمى ، ولا وضعتة إلا وأنا حاضرها ، وإني لأرجو أن يضل به أكثر ممن يهتدى به ، وما كان نبي أشد على وعليكم من هذا المولود ، ثم إنه خرج قوم في تلك الليلة يؤمنونه من أجل نجم طلع ، كانوا من قبل يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال ، فخرجوا يريدونه ومعهم الذهب والمر واللبن فمروا بملك من ملوك الشام فسألهم أين تريدون؟ فأخبروه بذلك . قال فما بال المر والذهب واللبن أهديتموه بهذه الأشياء؟ قالوا : تلك أمثاله ، لأن الذهب سيد المتاع كله ، وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم سيد أهل زمانه ، ولأن المر يجبر به الكسر والجرح ، وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم يشقى الله به كل سقيم ومريض ، ولأن اللبان دخانته يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره ، وكذلك هذا النبي صلى الله عليه وسلم يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع في زمانه أحد غيره ؛ فلما قالوا ذلك لذلك الملك حدث نفسه بقتله فقال لهم : اذهبوا فإذا علمتم بمكانه فأعلموني بذلك ، فإني راغب في مثل ما رغبتم فيه من أمره ، فانطلقوا حتى قدموا على مريم ، ودفعوا ما كان معهم من الهدية إليها عليها السلام ، وأرادوا أن يرجعوا إلى ذلك الملك ليعلموه بمكانه فلقبهم ملك وقال لهم : لا ترجعوا إليه ولا تعلموه بمكانه ، فانه إنما أراد قتله ، فانصرفوا في طريق آخر . وقال مجاهد : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت مع عيسى عليه السلام حدثني وحدثته ، فإذا شغلني عنه إنسان سبح في بطني وأنا أسمع ، والله أعلم .

باب في رجوع مريم بابنها عيسى بعد ولادتها إياه إلى جماعة قومها من بيت لحم قال : ثم إن جماعة من قومها لما هيا الله تعالى لأمه مريم عليها السلام أمرها ويسر الله لها أسباب ولادتها ، قال : كلى يا مريم من الرطب واشربي من الماء العذب وقرى عينا وطبى نفسا (فإمّا ترين من البشر أحداً) فسألك عن ولدك أو لامك عليه (فتولى إني نذرت للرحمن صوماً) أى صمماً ، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود وأنس ، وذلك أنهم كانوا إذا صاموا أمسكوا عن الطعام والشراب والكلام (فلئن أكلتم اليوم إنسيباً فأتت به قومها تحميلة) . قال الكنبي : احتمل يوسف النجار مريم وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يوماً حتى تعالت من نفاسها ، ثم جاء بها ، فأتت مريم تحملاً بعد أربعين يوماً ، فكلمها عيسى في الطريق فقال : يا أماه أبشرى فإني عبد الله ومسيحه ، فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين فقالوا (يا مريم لقد

جئت شيئاً قريباً) : فظيعاً عظيماً (يا أختَ هارونَ) قال قتادة : كان هارون رجلاً صالحاً من أتقياء بني إسرائيل وليس بهارون أخى موسى ، وذكروا أنه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً من بني إسرائيل ، كلهم يسمي هارون . وقال وهب : كان هارون من أفسق بني إسرائيل وأظهرهم فساداً فشبها به (ما كان أبوك) عمران (امراً سوءاً ، وما كانت أمك بغياً) أى زانية ، فمن أين لك هذا الولد ؟ فأشارت لهم مريم إلى عيسى أن كلموه ، فغضبوا وقالوا (كيف نكلم من كان في المهدي صبياً؟) قال وهب : فأتاها زكريا عليه السلام عند مناظرتها اليهود ، وقال لعيسى : انطق بحجتك إن كنت أمرت بها ، فقال عند ذلك عيسى عليه السلام ، وهو ابن أربعين يوماً (إني عبدُ الله آتاني الكتاب) . الآية ، فأقر على نفسه بالعبودية أول ما تكلم تكذيباً للنصارى وإلزاماً للحجة عليهم . قال عمرو بن ميمون : إن مريم لما أتت قومها بعيسى أخذوا الحجارة وأرادوا أن يرموها ، فلما تكلم عيسى تركوها ، قالوا : ثم لم يتكلم بشيء بعدها حتى كان بمنزلة غيره من الصبيان ، والله أعلم .

باب في ذكر خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر

قال الله تعالى (وجعلنا ابنَ مريمَ وأُمَّهُ آيَةً وَاوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) . قالوا : كان مولد عيسى بعد مضي اثنتين وأربعين سنة من ملك أغسطس وإحدى وخمسين سنة مضت من ملك الأشكانيين ملوك الطوائف ، وكانت المملكة في ذلك الوقت للملوك الطوائف ، وكانت الرياسة في الشام وعمواحيها لقيصر ملك الروم ، وكان الملك عليها من قبل قيصر هردوس ، فلما عرف هردوس ملك بني إسرائيل خبر المسيح قصد قتله ، وذلك أنهم نظروا إلى نجم قد طلع ، فعرفوا ذلك بحساب عندهم في كتاب لهم ، فبعث الله ملكاً إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد هردوس وأمره أن يهرب بالغلام وأمه إلى مصر ، وأوحى الله إلى مريم أن الحقي بمصر ، فإن هردوس إن ظفر بابنك قتله ، فإذا مات هردوس فارجمي إلى بلادك ، فاحتمل يوسف مريم وابنها على حمار له حتى ورد أرض مصر ، وهي الربوة التي قال الله تعالى (وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) .

ذكر أبو إسحاق الثعلبي في التفسير (ذات قرار ومعين) قال عبد الله بن سلام : هي دمشق . وقال أبو هريرة : هي الرملة . وقال قتادة وكعب : هي بيت المقدس . وقال كعب : هي أقرب الأرض إلى السماء . وقال أبو زيد : هي مصر . وقال الضحاك : هي عرصة دمشق . وقال أبو العالية : هي إيلياء . وقال القزاز : الأرض المستوية ، والمعين : الماء الطاهر . فأقامت مريم بمصر اثنتي عشرة سنة تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين ، وكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبها والوعاء الذي فيه السنبل في منكبها الآخر ، حتى تم لعيسى اثنتا عشرة سنة .

وروى عن محمد بن علي الباقر رضى الله عنه أنه قال : لما ولد عيسى كان ابن يوم
كانه ابن شهر . فلما كان ابن تسعة أشهر أخذت والدته بيده وجاءت به إلى الكتاب
وأقعدته بين يدي المؤدب ، فقال له المؤدب : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالها عيسى ،
فقال المؤدب : قل أجد ، فرفع عيسى عليه السلام رأسه ، فقال له : هل تدري ما أجد ؟
فعلاه بالقضيب ليضربه ، فقال : يا مؤدب لا تضربني إن كنت تدري ، وإلا فاسألني حتى
أفسر لك ، فقال له المؤدب : فسر له ، فقال عيسى : الألف : لا إله إلا الله ، والباء :
بهجة الله ، والجيم : جلال الله ، والداد : دين الله ؛ هوز ، الهاء : هي جهنم وهي
الهاوية ، والواو : ويل لأهل النار ، والزاي : زفير أهل جهنم . حطى : حطت الخطايا عن
المستغفرين . كلمن : كلام الله غير مخلوق ولا مبدل لكلماته . سعفص : صاع بصاع
والجزاء بالجزاء . قرشت : تفرشهم حين تحشرهم : أى تجمعهم . فقال المؤدب لأمه :
أيها المرأة خذى ابنك فقد علم ولا حاجة له إلى المؤدب .

أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين المفسر بإسناده عن أبي سعيد الخدرى قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن عيسى أرسلته أمه ليتعلم ، فقال له المعلم
قل : باسم الله ، فقال عيسى : وما باسم الله ؟ قال المعلم : ما أدري ، قال
عيسى : الباء : بهاء الله ، والسين : سناء الله ، والميم : مملكته جل وعلا ،
والله أعلم .

باب في صفة عيسى وحليته عليه السلام

قال كعب الأحبار : كان عيسى بن مريم رجلا أحمر مائلا إلى البياض ما هو ، سبط الرأس
ولم يدهن رأسه قط ، وكان عيسى يمشى حافيا ، ولم يتخذ بيتا ولا حلية ولا متاعا ولا ثيابا
ولا رزقا إلا قوت يومه ، وكان حينما غابت الشمس صف قدميه وصلى حتى يصبح ، وكان
يرى الأكمة والأبرص ويحبي الموتى بإذن الله ، وكان يخبر قومه بما يأكلون في بيوتهم
وما يدخرون لغد ، وكان يمشى على وجه الماء في البحر ، وكان أشعث الرأس صغير الوجه
زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة حريصا على عبادة الله ، وكان سيّاحا في الأرض حتى
طلبته اليهود وأرادوا قتله ، فرفعه الله إلى السماء ، والله أعلم .

باب في ذكر الآيات والمعجزات

التي ظهرت لعيسى عليه السلام في صباه إلى أن نبي

قال وهب : كان أول آية رآها الناس من عيسى أن أمه كانت نازلة في دار دهقان من
أرض مصر ، أنزلها بها يوسف النجار حين ذهب بها إلى مصر ، وكانت دار ذلك الدهقان
تأوى إليها المساكين ، فسرق للدهقان مال من خزانته ، فلم يهتم المساكين ، فحزنت
مريم نصيبة ذلك الدهقان ؛ فلما رأى عيسى حزن أمه لمصيبة صاحب ضيافتها قال لها :

يا أماء أتحبين ان أدله على ماله؟ قالت نعم يا بنى ، قال لما: قولى له يجمع المساكين فى داره ، فقالت مريم للدهقان ذلك ، فجمع له المساكين ، فلما اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم : أحدهما أعمى والآخر مقعد ، فحمل المقعد على عاتق الأعمى وقال له قم به ، فقال الأعمى : أنا أضعف عن ذلك ، فقال له عيسى : كيف قويت على ذلك البارحة ؟ فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام ، فلما استقل قائما هوى المقعد إلى كوة الخزانة ، فقال عيسى : للدهقان : هكذا احتالا على مالك البارحة ، لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينه ، فقال الأعمى والمقعد: صدق والله ، فردا على الدهقان ماله كله ، فأخذ الدهقان ووضعها فى خزائنه وقال : يا مريم خذى نصفه ، فقالت : إني لم أخلق لذلك ، قال الدهقان : فأعطيه لابنك ، قالت : هو أعظم منى شأنا ، ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس لابن له ، فصنع له عيدا ، فجمع عليه أهل مصر كلهم ، فكان يطعمهم شهرين ، فلما انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام ولم يعلم الدهقان بهم حتى نزلوا به وليس عنده يومئذ شراب ، فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتا من بيوت الدهقان فيه صقان من جرار ، فأمر عيسى يده على أفواهها وهو يمشى ، فكلما أمر يده على جرة امتلأت شرابا ، حتى أتى عيسى على آخرها ، وهو يومئذ ابن اثنتى عشرة سنة .

آية أخرى : قال السدى : كان عيسى عليه السلام إذا كان فى الكتاب يحدث الصبيان بما يصنع آباؤهم ، ويقول للغلام : انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ، ورفعوا لك كذا وكذا ، وهم يأكلون كذا وكذا ، فينطلق الصبي إلى أهله فيبكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشيء ، فيقولون له : من أخبرك بهذا ؟ فيقول : عيسى ، فحبسوا عنه صبيانهم وقالوا : لا تلعبوا مع هذا الساحر ، فجمعوهم فى بيت ، فجاء عيسى يطلبهم ؟ فقالوا له : ليسوا ههنا ، فقال لهم : فما فى هذا البيت ؟ قالوا خنازير ، قال : كذلك يكونون ، ففتح عنهم فإذا هم خنازير ، ففشا ذلك فى الناس ، فهمت به بنو إسرائيل ، فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها ، وخرجت هاربة إلى مصر .

آية أخرى : قال السدى : لما خرج عيسى وأمه عليهما السلام يسيحان فى الأرض إذ تركا بنى إسرائيل ونزلا فى قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما ، وكان ملك ذلك الوقت جبارا عنيدا ، فجاء ذلك الرجل يوما مهتما حزينا ، فدخل منزله ومريم عند امرأته ، فقالت لها مريم : ما شأن زوجك أراه حزينا ؟ فقالت لها : لاتسألينى ، فقالت أخبرينى لعل الله يفرج كربته على يدي ، فقالت : إن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا نوبة يطعمه ويسقيه الخمر هو وجنوده ، فإن لم يفعل عاقبه ، واليوم يؤمنا وليس عندنا سعة ؟ قالت : فقولى له لايتهم بشيء فإنه قد أحسن إلينا ، وإنى أمر ابنى أن يدعو له فيكفى ذلك ، ثم قالت مريم لعيسى ، فقال : إن فعلت ذلك يقع شر ، قالت : فلا نبالي لأنه أحسن إلينا وأكرمنا ، قال عيسى : فقولى له إذا اقرب ذلك : فاملا قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمنى : ففعل ذلك

فدعا عيسى ، فتحول ماء القدر لحما ومرقا وماء الخوابي خمر لم ير الناس مثله قط ؛ فلما جاء الملك أكل ، فلما شرب سأل من أين هذا الخمر ؟ قال له من أرض كذا وكذا ، قال الملك : فإن خمرى قد أتى بها من تلك الأرض وليست مثل هذه ، فقال له من أرض أخرى ، فلما خلط على الملك وشبه عليه قال : أخبرنى عن الحق ، قال : فأنا أخبرك ، عندى غلام ما سأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وإنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرًا ، وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام ، وكان أحب الخلق إليه ، فتمال الملك : إن رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمرًا ، ليستجاب له حتى يحيى أبى ، فدعا عيسى وكلمه فى ذلك ، فقال له عيسى : لاتفعل لأنه إن عاش وقع شر ، فقال الملك : لأبالي بعد أن أراه ، قال عيسى : إن أحييته تركونى أنا وأمى نذهب حيث نشاء ؟ قال نعم ، فدعا الله تعالى فعاش الغلام ، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح ، وقالوا : أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف ابنه علينا ، فياكلنا كما أكلنا أبوه ، فاقتتلوا وذهب عيسى وأمه .

آية أخرى : قال وهب : بينما عيسى يلعب مع الصبيان إذ وثب غلام على صبي فوكزه برجله فقتله ، فألقاه بين يدى عيسى وهو ملطخ بالدم ، فاطلع الناس عليه ، فاتهموه به ، فأخذوه وانطلقوا به إلى قاضى مصر ، فقالوا له : هذا قتل هذا ، فسأله القاضى ، فقال عيسى : لأدرى من قتله ، وما أنا بصاحبه ؟ فأرادوا أن يبطشوا بعيسى عليه السلام ، فقال لهم : اثبوني بالغلام ، فقالوا له : ما تريد منه ؟ قال : أريد أن أسأله من قتله ؟ قالوا : وكيف يكلمك وهو ميت ؟ فأخذوه وأتوا به إلى مقتل الغلام ، فأقبل عيسى على الدعاء فأحياه الله تعالى ، فقال له عيسى : من قتلك ؟ قال : قتلى فلان ، على الذى قتله ، فقال بنو إسرائيل من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، قالوا : فمن هذا الذى معه ؟ قال : قاضى بنى إسرائيل ، ثم مات الغلام من ساعته ، فرجع عيسى إلى أمه وتبعه خلق كثير من الناس فقالت له أمه يا بنى ألم أنك عن هذا ؟ فقال : إن الله حافظنا وهو أرحم الراحمين .

آية أخرى : قال عطاء : سلمت مريم عيسى بعد ما أخرجته من الكتاب إلى أعمال شتى ، فكان آخر ما دفعته إلى الصباغين ، فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه ، فاجتمع عنده ثياب مختلفات ، فعرض للرجل سفر ، فقال لعيسى إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج فى سفر لأرجع إلى عشرة أيام ، وهذه ثياب مختلفات الألوان ، وقد علمت كل واحد منها على اللون الذى يصنع به ، فأحب أن تكون فارغا منها وقت قدومى ، ثم خرج فطبخ عيسى عليه السلام جبًّا واحدا على لون واحد ، وأدخل فيه جميع الثياب ، وقال لها : كونى بإذن الله تعالى على ما أريد منك ، فقدم الصباغ والثياب كلها فى جب واحد ، فقال : يا عيسى ما فعلت ؟ قال : فرغت منها ، قال : أين هى ؟ قال فى الجب ، فقال كلها ؟ قال نعم ؟ قال كيف تكون كلها فى جب واحد ، لقد أفسدت تلك الثياب ؟ قال قم فانظر ، فقام فأخرج عيسى ثوبا أصفر وثوبا أخضر وثوبا أحمر إلى أن أخرجها على الألوان التى

أرادها ، فجعل الصباغ يتعجب وعلم أن ذلك من الله عز وجل ، فقال الصباغ للناس :
تعالوا انظروا إلى ما فعل عيسى عليه السلام ، فأمن به هو وأصحابه ، وهم الخواريون ،
والله عز وجل أعلم .

باب في ذكر رجوع مريم وعيسى عليهما السلام إلى بلادهما بعد موت هرديوس
قال وهب : لما مات هرديوس الملك بعد اثنتي عشرة سنة من مولد عيسى عليه السلام
أوحى الله تعالى إلى مريم بنحبرها بموت هرديوس ويأمرها بالرجوع مع ابن عمها يوسف
النجار إلى الشام ، فرجع عيسى وأمه عليهما السلام وسكنا في جبل الخليل في قرية يقال لها
ناصرية ، وبها سميت النصرانية ، وكان عيسى يتعلم في الساعة علم يوم ، وفي اليوم علم شهر
وفي الشهر علم سنة . فلما تم له ثلاثون سنة أوحى الله تعالى إليه أن يبرز للناس ويدعوهم إلى
الله ويضرب لهم الأمثال ، ويداوي المرضى والزمنى والعميان والمجانين ، ويقمع الشياطين
ويزجرهم ويذمهم ، وكانوا يموتون من خوفه ، ففعل ما أمره به ، فأحبه الناس ومالوا إليه
واستأنسوا به وكثرت أتباعه وعلا ذكره ، وربما اجتمع عليه من المرضى والزمنى في الساعة
الواحدة خمسون ألفا ، فن أطاق منهم أن يمشي إليه مشى إليه ، ومن لم يطق وصل إليه
عيسى عليه السلام ، وإنما كان يداويهم بالدعاء بشرط الإيمان .

ودعاؤه الذي كان يشفي به المرضى ويحجي به الموتى : اللهم أنت إله من في السماء وإله
من في الأرض ، لا إله فيهما غيرك ، وأنت جبار من في السموات ، وجبار من في
الأرض ، لا جبار فيهما غيرك وأنت ملك من في السموات وملك من في الأرض لا ملك
فيهما غيرك ، وأنت حكيم من في السموات وحكيم من في الأرض لا حكم فيهما غيرك ، قدرتك
في الأرض كقدرتك في السماء ، وسلطانك في الأرض كسلطانك في السماء ، أسألك
بأسمائك الكرام ، إنك على كل شيء قدير .

باب في قصة الخواريين عليهم السلام

قال الله تعالى (فلما أحسن عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله؟ قال
الخواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون). وقال الله عز وجل
(وإذ أوحيت إلى الخواريين) : أي ألهتهم ووقفهم (أن آمنوا بي وبرسولي قالوا
آمنا واشهد بأنا مسلمون) اعلم أن الخواريين كانوا أصفياء عيسى بن مريم وأولياءه
وأرضيائه وأنصاره ووزراءه ، وكانوا اثني عشر رجلا ، وأسماؤهم : شمعون الصفا
المسمى بطرس ، وأندراوس أخوه ، ويعقوب بن زبدي ، ويحيى أخوه ، وفيلبس ،
وبرتولوماوس ، وتوما ، ومثى العشار ، ويعقوب ابن حلفا ، ولبّا الذي يدعى تداوس ،
وشمعون القانوي ، ويهوذا الإسخريوطي عليهم السلام .

واختلف العلماء فيهم لم سموا بذلك ؟ قال ابن عباس : كانوا صيادين يصطادون السمك
فمر بهم عيسى ، فقال لهم : ما تصنعون ؟ فقالوا : نصطاد السمك ، فقال لهم : ألا تمشون
معي حتى نصطاد الناس ؟ قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : ندعو إلى الله ، قالوا : ومن أنت ؟
قال : أنا عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ، قالوا : فهل يكون أحد من الأنبياء فوقك ؟
قال : نعم النبي العربي ، فاتبعه أولئك وآمنوا به وانطلقوا معه . وقال السدي : كانوا ملاحين .
وقال ابن أرمطة : كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحوررون الثياب : أي يبيضونها ،
أخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن مصعب قال : الحواريون اثنا عشر رجلا اتبعوا عيسى
فكانوا إذا جاعوا قالوا : يا روح الله جعنا ، فيضرب بيده إلى الأرض سهلا كان أو جبلا
فيخرج لكل إنسان رغيفان ، فيأكلهما ، وإذا عطشوا قالوا : يا روح الله عطشنا ، فيضرب
الأرض سهلا كان أو جبلا ، فيخرج الماء فيشربون ؛ فقالوا : يا روح الله من أفضل منا :
إذا شئنا أطعمتنا وإذا شئنا أسقيتنا وآمنا بك واتبعتك ؟ قال : أفضل منكم من يعمل بيده
ويأكل من كسبه . قال : فصاروا يعملون الثياب بالكراء . قال ابن عون : صنع ملك
من الملوك طعاما ، فدعا الناس إليه ، وكان عيسى على قصعة ، فكانت القصعة لاتنقص ،
فقال له الملك : من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، قال الملك : إني أترك ملكي وأتبعك ،
فانطلق بمن اتبعه منهم ، وهم الحواريون ، وقيل هو الصباغ وأصحابه ، وقد مضت القصة :
قال الضحاك : سموا حواريين اصفاء قلوبهم . وقال عبد الله بن المبارك : سموا حواريين
لأنهم كانوا نورانيين عليهم أثر العبادة ونورها وبياضها وبهاؤها . وأصل الحور عند
العرب شدة البياض ، ومنه الأحور والحور . وقال الحسن : الحواريون الأنصار . وقال
قتادة : هم الذين تصلح لهم الخلافة . وقال النضر بن شميل : الحواري خاصة الرجل ومن
يستعين به فيما ينوبه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ وَحَوَارِيُّ
الرُّبَيْسِيِّ » . فهؤلاء حواريو عيسى بن مريم عليه السلام . فأما حواريو هذه الأمة فأخبرنا
الحسين بن محمد الدينوري بإسناده عن سفيان بن معمر أن قتادة قال : إن الحواريين كلهم
من قريش وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحزرة وجعفر وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان
ابن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن
العوام رضي الله عنهم أجمعين .

ذكر خصائص عيسى عليه السلام والمعجزات التي ظهرت على يديه بعد مبعثه

إلى أن رفع صلوات الله وسلامه عليه

منها تأييده إياه بروح القدس ، قال عز من قائل (وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) ونظيرها
في سورة المائدة (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى
وَالِدَتِكَ إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ) .

واختلفوا فيه ، فقال الربيع بن أنس : هو الروح الذي نفخ فيه الروح ، أضافه سبحانه إلى نفسه تكريما وتخصيصا نحو بيت الله ، وناقاة الله. والقُدُس هو الله تعالى ، يدل عليه قوله تعالى (وَرُوحٌ مِنْهُ - فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا). وقال آخرون : أراد بالقُدُس الطهارة أى الروح الطاهر ، وسمى عيسى عليه السلام روحا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ، ولم تشمل عليه أرحام الطوامث ، إنما كان أمرا من الله تعالى . قال السدي وكعب : روح القدس جبريل ، وتأيد عيسى بجبريل عليهما السلام ، هو أنه كان قرينه ورفيقه بعينه ويسير معه حيثما سار إلى أن صعد به إلى السماء . وقال سعيد بن جبيرة وعبيد بن عمير : هو اسم الله الأعظم ، وبه كان يحيى الموتى ، ويرى الناس تلك العجائب .
ومنها تعليم الله إياه الإنجيل والتوراة ، وكان يقرؤهما من حفظه كما قال الله تعالى (وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ) أى الخط . قبل الخط عشرة أجزاء ، فتسعة منها لعيسى والحكمة والتوراة والإنجيل .

ومنها خلقه الطير من الطين ، كما قال الله تعالى 'مُخْبِرًا عَنْهُ (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ) وقال تعالى (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي) فكان يصور من الطين كهية الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، ولم يخلق غير الخفّاش ، وإنما خصّ بالخفّاش لأنه أكمل الطير خلقا فيكون أبلغ في القدرة ، لأن له ثديا وأسنانا ويولد ويبيض ويبيض .

قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عنهم سقط ميتا ، ليميز فعل الخلق عن فعل الله تعالى ، وليعلم أن الكمال لله عز وجل .
ومنها إبراء الأكمه والأبرص ، كما قال الله (وَتُبْرِئِ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي) ، والأبرص : الذي به وضح ، والأكمه الذي ولد أعمى ولم ير ضوءا قط ، ولم يكن في الإسلام أكمه غير قتادة ، وإنما خص هذين لأنهما أعيا الأطباء ، وكان الغالب على زمان عيسى الطب ، فأراهم المعجزة من جنس ذلك .

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بدير فيه 'عميان فقال : ما هؤلاء ؟ فقيل : هؤلاء قوم طُلبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم ، فقال لهم : ما دعاكم إلى هذا ؟ قالوا : خفنا عاقبة القضاء ، فصنعنا بأنفسنا ما ترى ، فقال : أنتم العلماء والحكماء والأخبار والأفاضل امسحوا أعينكم بأيديكم وقولوا باسم الله ، ففعلوا ذلك فإذا هم جميعا قيام ينظرون .

ومنها إحياءه الموتى بإذن الله تعالى ، قال الله (وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي) وأحيا منهم أمواتا منهم العاذر ، وكان صديقا له ، فأرسلت أخته إلى عيسى إن أخاك العاذر يموت فأته ، وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام ، فأناه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام

فقالوا لأخته : انطلقى بنا إلى قبره ، فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صحفة مطبقة ، فقال عيسى : اللهم رب السموات السبع والأرضين السبع ، إنك أرسلتني إلى بنى إسرائيل أدعوهم إلى دينك ، وأخبرتهم أني أحبي الموتى بإذنك ، فأحى العاذر ، فقام العاذر وخرج من قبره وبقي وولد له .

ومنها ابن العجوز ، وكانت القصة فيه أن عيسى مرفى سياحته ومعه الحواريون بمدينة ، فقال : إن في هذه المدينة كنزا ، فمن يذهب يستخرجه لنا ؟ فقالوا : يا روح الله لا يدخل هذه القرية أحد غريب إلا قتلوه ، فقال لهم عيسى : مكانكم حتى أعود إليكم ، فمضى حتى دخل المدينة ، فوقف على باب فقال : السلام عليكم يا أهل الدار غريب أطعموه ، فقالت له امرأة عجوز : أما ترضى أن أدعك لأذهب بك إلى الوالى حتى تقول أطعمونى ، فبينما عيسى بالباب إذ أقبل الفتى ابن العجوز ، فقال له عيسى : أضفى ليلتك هذه ، فقال له الفتى مثل مقالة العجوز ، فقال له عيسى أما إنك لو فعلت ذلك زوّجتك بنت الملك ، فقال له الفتى : إما أن تكون مجنوننا وإما أن تكون عيسى بن مريم ، قال : أنا عيسى ، فأضافه وبات عنده ؛ فلما أصبح قال له اغد وادخل على الملك وقل له : جئت أخطب ابنتك ، فإنه سيأمر بضربك وإخراجك ، فمضى الفتى حتى دخل على الملك فقال له : جئت إليك أخطب ابنتك ، فأمر بضربه ففرض وأخرج ، فرجع الفتى إلى عيسى فأخبره الخبر ، فقال : إذا كان غد فإذهب إليه واخطب ابنته ، فإنه ينالك بدون ذلك ، ففعل الفتى ما أمره عيسى ، فضربه دون ذلك الضرب الأول ، فرجع إلى عيسى فأخبره ، فقال : ارجع إليه ، فإنه سوف يقول لك : أنا أزوجك إياها على حكمى ، وحكمى قصر من ذهب وفضة ، وما فيه من ذهب وفضة وزبرجد ، فقل له أفعل ذلك ، فإذا بعث معك أحدا فاخرج به ، فإنك سوف تجده ، فلا تحدث فيه شيئا ؛ ثم إنه دجّل على الملك فخطب ، فقال تصدّقها بحكمى ، فقال : وما حكمك ؟ فحكم بالذى سماه عيسى ، فقال نعم رضيت ، ابعث من يقبض ذلك ، فبعث معه رجلا فسلم إليهم ما سأله الملك ، فتعجب الناس من ذلك ، فسلم إليه الملك ابنته ، فتعجب الفتى من ذلك وقال : يا روح الله تقدر على مثل هذا وأنت على مثل هذه الحالة ؟ فقال له عيسى : إنى آثرت ما بينى على ما بينى ، فقال الفتى : أنا أيضا أدعه وأصحبك ، فتخلى عن الدنيا واتبع عيسى ، فأخذ عيسى بيده وأتى به أصحابه وقال لهم : هذا الكنز الذى قلت لكم ، فكان معه ابن العجوز إلى أن مات ومرّ به وهو ميت على سرير ، فدعا الله عيسى فجلس على سرير ، ونزل من على أعناق الرجال ولبس الثياب وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله ، فبقي وولد له .

ومنها ابنة العشار ، رجل كان يأخذ العشر ، فقبل له : أتحييها وقد ماتت بالأمس ؟ فدعا الله عز وجل فعاشت وبقيت وولد لها .

ومنها سام بن نوح ، قال له الخواريون وهو يصف لهم سفينة نوح : لو بعثت لنا من شهد السفينة فينت لنا ذلك ؟ فقام وأتى تلاً ، فضرب بيده وأخذ قبضة من تراب وقال : هذا قبر سام بن نوح إن شئتم أحييته لكم ، قالوا نعم ، فدعا الله باسمه الأعظم وضرب التل بعصاه وقال : احي ياذن الله ، فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب نصف رأسه فقال : أمتد قامت القيامة ؟ قال : لا ، ولكني دعوتك باسم الله الأعظم . قال : ولم يكونوا يشيرون في ذلك الزمان ، وكان سام قد عاش خمس مئة سنة وهو شاب ، ثم أخبرهم بنجر السفينة ، فقال له عيسى مت ، قال : بشرط أن يعيدني الله من سكرات الموت ، فدعا الله عيسى عليه السلام ففعل ذلك ، وقد ذكر هذا الخبر في قصة نوح عليه السلام .

ومنها عزيز عليه السلام ، قالوا لعيسى عليه السلام : أحيه وإلا أحرقناك بالنار ، وجمعوا له حطباً كثيراً من حطب الكرم ، وكانوا في ذلك الوقت يدفنون موتاهم في صناديق من حجارة مطبقة ، فوجدوا قبر عزيز مكتوباً على ظهره اسمه ، فعالجوه ليفتحوه فلم يقدروا أن يخرجوه من قبره ، فرجعوا إلى عيسى فأخبروه ، فناولهم إناء فيه ماء وقال لهم : انضحوا قبره بهذا الماء ، ففعلوا ، فانفتح الطبق فأتوا به عيسى وهو في أكفانه والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، ثم إنه نزع ثيابه عنه ، ثم جعل ينضح على جسده الماء ولحمه وشعره ينبت ، ثم قال : احي يا عزيز ياذن الله تعالى ، فإذا هو جالس ، وكل ذلك تراه أعينهم ، فقالوا : يا عزيز ما تشهد لهذا الرجل ؟ يعنون عيسى ، فقال : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فقالوا : يا عيسى ادع لنا ربك يقيه لنا ليكون بين أظهرنا حياً ، فقال عيسى : ردوه إلى قبره ، فردوه إلى قبره فعاد ميتاً ، فأمن بعيسى بن مريم من آمن وعاند من عاند . قال الكلبي : كان عيسى يحيي الموتى بياحي يا قيوم .

ومنها إخباره عليه السلام عن الغيوب ، قال الله عز وجل إخباراً عنه (وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) قال الكلبي : لما أبرأ عيسى الأكمة والأبرص وأحيا الموتى ، قالوا : هذا ساحر ، ولكن أخبرنا بما نأكل وبما ندخر ، فكان ينجر الرجل بما يأكل في غدائه وبما يأكل في عشائه .

ومنها مشيه عليه السلام على الماء ؛ يروى أنه خرج في بعض سياحته ومعه رجل من أصحابه قصير ، وكان كثير اللزوم لعيسى ، فلما انتهى عيسى إلى البحر قال : باسم الله بصحة ويقين فمشى على وجه الماء ؛ فقال الرجل القصير : باسم الله بصحة ويقين ، فمشى على وجه الماء ، فداخله العجب فقال : هذا عيسى روح الله يمشى على الماء ، وأنا أمشي على الماء ، قال : فانغمس في الماء فاستغاث بعيسى ، فتناوله عيسى من الماء وأخرجه ، وقال له : ما قلت يا قصير ، فأخبره بما خاطره ، فقال له عيسى : لقد وضعت نفسك في غير الموضع الذي وضعتك الله فيه ، ففتك الله على ما قلت ، فتب إلى الله بما قلت ، فتاب الرجل وعاد إلى مرتبته التي وضعه الله فيها ، فاتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً .

وحدثنا الإمام أبو منصور الحمشاوی بإسناده عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو عرفتتم الله حق معرفته لعلمتم العليم الذي ليس بعده جهل ، وما بلغ ذلك أحد قط ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا ، قالوا : يا رسول الله قد بلغنا أن عيسى بن مريم مشى على الماء ؟ قال نعم ، ولو ازداد خوفاً وبقينا لمشي على الهواء ، قالوا : يا رسول الله ما كنا نرى أن الرسل تقصر ، فقال : إن الله تعالى أبلغ شأننا من أن يبلغ أحد شأنه .

ذكر حديث جامع في هذا الباب

قال وهب : خرج عيسى عليه السلام يسبح في الأرض فصاحبه يهودي ، وكان مع ذلك اليهودي رغيفان ومع عيسى رغيف ، فقال له عيسى : تشاركني في طعامك ؟ قال اليهودي نعم ، فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف واحد ندم ، فقام عيسى إلى الصلاة فذهب صاحبه وأكل رغيفا ، فلما قضى عيسى صلاته قدما طعامهما ، فقال لصاحبه : أين الرغيف الآخر ؟ فقال : ما كان إلا رغيف واحد ، فأكل عيسى رغيفا وصاحبه رغيفا ، ثم انطلقا فجاءا إلى شجرة ، فقال عيسى لصاحبه : لو أنا بتنا تحت هذه الشجرة حتى نصبح ؟ فقال افعل ، فباتا ثم أصبحا منطلقين ، فلقيا أعمى ، فقال له : رأيت إن عاجلتك حتى يرد الله عليك بصرك فهل تشكره ؟ قال نعم ، فسأ عيسى بصره ودعا الله له فإذا هو صحيح ، فقال عيسى لليهودي : بالذي أراك الأعمى بصيرا كم كان معك من رغيف ؟ فقال : والله ما كان إلا رغيف واحد ، فسكت عيسى عنه ، ومرا فإذا هما بمقعد ، فقال له عيسى : رأيت إن عاجلتك فعافاك الله فهل تشكره ؟ قال نعم ، قال : فدعا الله تعالى عيسى فإذا هو صحيح قائم على رجليه ، فقال صاحب عيسى : ما رأيت مثل هذا قط ، فقال له عيسى بالذي أراك الأعمى بصيرا والمقعد صحيحا من صاحب الرغيف الثالث ؟ فحلف له ما كان معه إلا رغيف واحد ، فسكت عيسى عنه ، فانطلقا حتى انتهيا إلى نهر عجاج ، فقال عيسى : لأرى جسرا ولا سفينة فخذ بحجزتي من ورائي ، وضع قدمك موضع قدمي ، ففعل فشيا على الماء ، فقال له عيسى : بالذي أراك أمر الأعمى والمقعد وسخر لك الماء ، من صاحب الرغيف الثالث ؟ فقال : والله ما كان إلا رغيف واحد ، فسكت عيسى ؛ ثم انطلقا فإذا هما بطباء ترعى ، فدعا عيسى بطي فذبجه وشوى منه بعضا وأكله ، ثم ضرب عيسى بقمية الظبي بعصاه وقال : قم بإذن الله عز وجل ، فإذا الظبي يعدو ، فقال الرجل : سبحان الله ، فقال عيسى : بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الآخر ؟ فقال : ما كان إلا رغيف واحد ، فمرا بصاحب بقر ، فنادى عيسى : يا صاحب البقر اجز لنا من بقرك هذه عجيلا ، فقال ابعث صاحبك اليهودي يأخذه ، فانطلق اليهودي

فجاء به وذبحه وشواه صاحبه البقر ينظر إليه ، فقال عيسى : كل ولا تكسر عظما ؛ فلما فرغوا قذف بعظامه في جلده ثم ضربه بعصاه وقال له : قم بإذن الله ، فقام العجل وله خوار ، فقال له عيسى : يا صاحبه البقر خذ عجلك ، قال : ويحك من أنت ؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، قال : عيسى السحار ، ثم فر منه ؛ فقال عيسى لصاحبه بالذى أحيا العجل كم كان معك من رغيف ؟ فقال : ما كان معي إلا رغيف واحد ؛ فسكت ومضيا حتى دخلا قرية ، فنزل عيسى في أسفلها واليهودى في أعلاها ، فأخذ اليهودى عصا عيسى وقال : أنا الآن أبرئ المرضى وأحيى الموتى . قال : وكان ملك تلك القرية مريضا مُدُنفا ، فانطلق اليهودى ونادى من يتغى طبيبا حتى أتى باب الملك فأخبر بوجعه ، فقال : أدخلوني عليه فأنا أبرئه ، وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه ، فقيل له : إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ، وليس من طبيب يداويه ولا يشفيه إلا صلبه ، فقال أدخلوني عليه ، فأدخل عليه فضرب الملك بعصاه فمات ، فجعل يضرب الملك بالعصا وهو ميت ويقول : قم بإذن الله فلم يقم ، فأخذ ليصلب ، فبلغ ذلك عيسى ، فأقبل عليه وقد رُفِع على الخشبة ، فقال لهم عيسى : أرأيتم لو أحييت لكم الملك ، هل تتركون لى صاحبي ؟ قالوا نعم ، فدعا الله عز وجل فأحياه وقام ، فأنزل اليهودى من فوق الخشبة ، فقال يا عيسى أنت أعظم الناس على منة ، والله لا أفارقك أبدا ؛ فقال له عيسى : أنشدك الله الذى أحيا الظبي والعجل بعد ما أكلناهما وأحيا هذا بعد ما مات ، وأنزلك من على الجذع بعد ما صلبك كم كان معك من رغيف ؟ قال : فحلف بهذا كله وقال : والله ما كان معي إلا رغيف واحد ، فقال عيسى لابأس ؛ فانطلقا حتى أتيا قرية عظيمة خربة فيها كنز : ثلاث لَبِنَات من ذهب قد حفرتها السباع والدواب ، فقال الرجل لعيسى : هذا المال لك ، فقال عيسى : أجل واحدة لى وواحدة لك وواحدة للذى أكل الرغيف الثالث ، فقال اليهودى لعيسى : أنا صاحبه الرغيف الثالث أكلته وأنت تصلى ، فقال عيسى : هى لك كلها ، فانطلق عيسى وتركه ينظر وهو لا يستطيع أن يحمل منهن واحدة لثقلها عليه ، فقال له عيسى : دعه فإن له أهلا يهلكون عليه ، فجعات نفس اليهودى تتطلع إلى المال ويكره أن يعصى عيسى ويعجزه حمل المال ، فانطلق مع عيسى ، فبينما هو كذلك إذ مر بالمبال ثلاثة نفر فأتوا عليه ، فقال اثنان منهما لصاحبهما الثالث : انطلق إلى بعض هذه القرى فأتنا بطعام وشراب ودواب نحمل عليها هذا المال ، فلما ذهب صاحبهما قال أحدهما للآخر هل لك أن نقتله إذا رجع ونقتسم المال بيننا ؟ قال نعم ، وقال الذى ذهب في نفسه : أنا أجعل فى الطعام سما ، فإذا أكلاه ماتا وبصير المال كله لى ، ففعل فلك ، فلما رجع إليهما ووصل قتلاه ثم أكلا الطعام الذى جاء به إليهما فماتا ، وإن عيسى عليه السلام مر به وهم حوله مقتولون ، فقال : لا إله إلا الله هكذا تصنع الدنيا بأهلها ، ثم إن عيسى أحياهم بإذن الله تعالى ، فاعتبروا ومروا ولم يأخذوا من المال شيئا ، فتطلعت نفس اليهودى صاحبه عيسى إلى المال ، فقال : أعطنى المال ،

فقال هبسى : خذه لك ، فهو حظك في الدنيا والآخرة ، فلما ذهب ليحمله خُسِفَ به الأرض ، فانطلق عيسى عليه السلام .

ومنها نزول المائدة . قال الله تعالى (إذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الآية .

واختلف العلماء في صفة نزول المائدة وكيفيتها وما كان عليها ، فروى قتادة عن جابر عن عمار بن ياسر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نزلت المائدة عليها خبز ولحم ، وذلك أنهم سألوا عيسى طعاما يأكلون منه ولا ينفد ، قال : فقال لهم إني فاعل ذلك ، وإنها مقيمة لكم ما لم تحبثوا أو تخونوا ، فإن فعلتم ذلك عذبتم . قال : فما مضى يومهم حتى خانوا وخبثوا . وفي بعض الروايات أن بعضهم سرق منها وقال : لعلها لا تنزل أبدا ، فرفعت ومسحوا قرده وخنزير . وقال ابن عباس : قال عيسى لبنى إسرائيل : صوموا ثلاثين يوما ، ثم سلوا الله ما شئتم يعطيكموه ، فصاموا ثلاثين يوما . فلما فرغوا قالوا : يا عيسى إنا إن عملنا لأحد فقضينا عمله ، أطعمنا طعاما ، وإنا صمنا وجعنا ، فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، فلبس عيسى المسوح وافرش الرماد ، ثم دعا الله تعالى فقال (اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) ... الآية ، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات ووضعها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم . وروى عطاء بن السائب وغيره : أنه كانت المائدة إذا وضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليها الأيدي ، فيها كل الطعام إلا اللحم . وقال عطية العوفى : نزلت سمكة من السماء فيها طعم كل شيء . وقال قتادة : كانت المائدة تنزل من السماء وعليها ثمر من تمار الجنة ، وكانت تنزل عليهم بكرة وعشبة حيث كانوا كالمن والسلوى لبنى إسرائيل . وقال وهب : أنزل الله قيرصة من شعير وحيثانا ، فقيل لوهب : ما كان ذلك يغني عنهم من شيء ؟ قال بلى ولكن الله ضاعف لهم البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ، ويحيى آخرون فيأكلون ، حتى أكلوا بأجمعهم وفضل . وقال كعب الأحبار : نزلت مائدة من السماء منكوسة تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم . وقال مقاتل والكلبي : استجاب الله لعيسى عليه السلام فقال : إني منزلها عليكم كما سألتني ، فمن أكل من ذلك الطعام ثم لم يؤمن جعلته مثلا ولعنة وعبرة لمن بعدهم ، قالوا قد رضينا ، فدعا شمعون الصفار وكان أفضل الحواريين فقال : هل معك طعام ؟ فقال : معنى سمكتان صغيرتان وستة أرغفة ، فقال على بها ، فقطعها عيسى قطعا صغارا وقال : اقعنوا في روضة وترافقوا رفاقا بكل رفقة عشرة ، ثم قام عيسى ودعا الله تعالى فاستجاب له وأنزل فيها البركة فصار خبزا صحاحا وسمكا صحاحا ، ثم قام عيسى يمشى ، فجعل يلقي

في كل رفقة ما حملت أصابعه ، ثم قال : كلوا باسم الله ، فجعل الطعام ينكسر حتى بلغ ركبهم ، فأكلوا ما شاء الله وفضل والناس خمسة آلاف ونيف ، وقال الناس جميعا : شهدنا أنك عبد الله ورسوله ، ثم سألوهُ مرة أخرى ، فأنزل الله خمسة أرغفة وسمكتين ، فصنع بهما ما صنع في المرة الأولى ، فلما رجعوا إل قُراهم ونشروا هذا الحديث ضحك منهم من لم يشهد وقال : وبحكم إنما سحر أعينكم فمن أراد الله به الخير ثبته على بصيرة ومن أراد فتنته رجع إلى كفره ، فسحوا قرده وخنازير ليس منهم صبي ولا امرأة ، فكثروا كذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يتوالدوا ولم يأكلوا ولم يشربوا ، وكذلك كل ممسوخ . ويروى عن عطاء بن أبي رباح عن سلمان الفارسي أنه قال : والله ما تبع عيسى من المساوي ولا انهر يتبا ولا قهقهه ضحكا ولا ذب ذبابا عن وجهه ولا أخذ على أنفه مرتين شيئا قط ولا عبث قط ، ولما سأله الحواريون أن ينزل عليهم الموائد صنوفا . قال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) الآية (وارزُقْنَا) عليها طعاما نأكل (وأنت خير الرازقين) فنزلت سفرة خمراء بين غمامتين غمامة من فوقها وغمامة من تحنها ، وهم ينظرون إليها وهي تهوى منقضة حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى وقال اللهم اجعلني من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثاة وعقوبة وهم ينظرون إليها ، فنظروا إلى شيء لم يروا مثله قط ولم يجدوا ريحا أطيب من رائحة ذلك ، فقال عيسى لهم أحسنكم عملا يكشف عنها ويذكر اسم الله ويأكل منها ، فقال شمعون الصفا رأس الحواريين : أنت أولى بذلك منا ، فقام عيسى وتوضأ وصلى صلاة طويلة وبكى كثيرا ، ثم كشف المنديل عنها وقال : باسم الله خير الرازقين ، فإذا هو بسمكة مشوية ليس عليها فلوس ولا شوك فيها ، تسيل سيلانا من الدسم ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ، وحواليها من أنواع البقول ما خلا الكراث ، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون : ياروح الله أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الآخرة ؟ فقال عيسى عليه السلام : ليس ما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة ، ولكن افتعله الله بالقدرة الغالبة ، كلوا مما سألتكم بمددكم ويزدكم من فضله . قالوا : ياروح الله لو أرتينا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال عيسى : باسمكة احبي بإذن الله ، فاضطربت السمكة وعاد عليها فلوسها وشوكها ففرغوا منها ، فقال عيسى : ما لكم تسألون أشياء إذا أعطيتنموها كرهتموها ، ثم قال : فما أخوفني عليكم أن تعذبوا ، باسمكة عودي كما كنت بإذن الله ، فعادت السمكة مشوية كما كانت : قالوا : ياروح الله كن أول من يأكل منها ثم نأكل نحن ، فقال عيسى : معاذ الله أن آكل منها ، ولكن يأكل منها من سألها ، فخافوا أن يأكلوا منها ، فدعا لها عيسى أهل الناقة والمرضى وأهل البرص والجذام والمبتلّين وقال : كلوا من رزق الله ولكم المناء ولغيركم البلاء .

فأكلوا منها وصدر عنها ألف وثلاث مئة رجل وامرأة من فقير وزمين ومريض ومبتلى كلهم شبعان يتجشأ ، ثم نظر عيسى إلى السمكة ، فإذا هي كهيئتها حين نزلت من السماء ، ثم طارت المائدة صعدا وهم ينظرون إليها حتى توارت عنهم ، فلم يأكل منها يومئذ مريض إلا برئ ، ولا زمن إلا صح ، ولا مبتلى إلا عوفي ، ولا فقير إلا استغنى ولم يزل غنيا حتى مات ، وندم الحواريون ومن لم يأكل ، وكانت إذا نزلت اجتمعت الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والرجال والنساء يزدهون عليها ، فلبثت أربعين صباحا تنزل ضحى ، فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء النوى طارت صعدا وهم ينظرون حتى تغيب عنهم ، وكانت تنزل غيبا ، تنزل يوما ولا تنزل يوما كناية ثمود ، فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتي ورزقي للفقراء دون الأغنياء ، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها ، فقالوا : أترون المائدة تنزل من السماء حقا ؟ فقال لهم عيسى . هلكنم فشمروا لعذاب الله ، فأوحى الله تعالى إلى عيسى إنى شرطت على المكذبين شرطين أن من كفر بعد نزولها عذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، فقال عيسى عليه السلام (إن تعدبهم فإنيهم عبادك وإن تغفیر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فسخ منهم ثلاث مئة وثلاثون رجلا باتوا من ليلتهم على الفرش مع نساءهم في ديارهم ، فأصبحوا خنازير يسعون في الطرقات والكناسات ، ويأكلون القاذورات في الحشوش ؛ فلما رأى الناس ذلك فرعوا إلى عيسى بن مريم ، فبكوا وبكى على المسوخين أهلوم ؛ فلما أبصرت الخنازير عيسى بكت وجعلت تطوف به ، فجعل عيسى يدعوهم بأسمائهم واحدا بعد واحد فيبكون ويشيرون برؤسهم ولا يقدرون على الكلام ، فعاشوا ثلاثة أيام ثم هلكوا .

ومنها ما روى أن عيسى عليه السلام مر على رجل جالس عند قبر وكان يكثر المرور به فيجده جالسا ، فقال : يا عبد الله أراك تكثر الجلوس عند هذا القبر ، فقال : يا روح الله ، هذه امرأة لي كان من جمالها وموافقها كيت وكيت ولي عندها ودیعة ، قال : أفتحب أن أدعو الله فيحييها لك ؟ قال نعم ، فتوضأ عيسى وصلى ركعتين ودعا الله عز وجل فإذا أسود قد خرج من القبر كأنه جذع محترق ، فقال له من أنت ؟ فقال : يا رسول الله أنا رجل في عذاب منذ أربعين سنة ، فلما كنت في هذه الساعة قيل لي أجب فأجبت ، ثم قال : يا رسول الله قد مر على من أليم العذاب ما إن ودنى الله إلى الدنيا أعطيته عهدا أن لا أعصيه أبدا ، فداع الله لي ، فرق له قلب عيسى عليه السلام ودعا الله عز وجل ، ثم قال له امض فضی ، فقال صاحب القبر : يا رسول الله لقد غلظت بالقبر إنما قبرها هذا ، فدعا الله عيسى عليه السلام ، فخرجت من ذلك القبر امرأة شابة جميلة ، فقال له عيسى : أتعرفها ؟ قال نعم هذه امرأتی ، فدعا الله عيسى حتى ردها عليه ، فأخذ الرجل بيدها حتى انهبها إلى شجرة فنام تحتها ووضع رأسه في حجرها ، فربها ابن الملك ، فنظرها ونظرت إليه

وأعجب كل واحد منهما بصاحبه ، فأشار إليها فوضعت رأس زوجها عن حجرها واتبعته
الفتى ، فاستيقظ زوجها فتفقد ما فلم يجدها ، فطلبها فدل عليها ، فتعلق بها وقال امرأتى ،
فقال الفتى : هى جاريتى ، فبينما هم كذلك ، إذ طلع عيسى عليه السلام ، فقال الرجل :
هذا عيسى ، ثم قص عليه القصة ، فقال لها عيسى : ما تقولين ؟ قالت : أنا جارية هذا ،
ولا أعرف هذا ، فقال لها عيسى : ردى علينا ما أعطيناك ، قالت قد فعلت ، فسقطت
مكانها ميتة ، فقال عيسى : هل رأيتم أعجب من هذا ؟ رجل أماته الله كافرا ، ثم بعته فأمن ،
وهل رأيتم امرأة أماتها الله مؤمنة ، ثم أحيها فكفرت .

ومنها رفعه إلى السماء إذ قال الله (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك
من الذين كفروا) الآية (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول
الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . . . إلى قوله تعالى (بل رفعه
الله إليه وكان الله عزيزا حكيمًا) .

روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطا من
اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحر الفاعل ابن الفاعلة فخذفوه وأمه ،
فلما رأى ذلك عيسى دعا عليهم فقال : اللهم أنت ربى وأنا من روحك خرجت وبكلمتك
خلقت ولم آتهم من تلقاء نفسى ، اللهم العن من سبى وسب أمى ، فاستجاب الله دعاه
ومسخ الذين سبوه وأمه خنازير ؛ فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته ،
فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى ، فاجتمعوا عليه ذات يوم وجعلوا يسألونه ، فقال :
يا معاشر اليهود إن الله يبغضكم ، فغضبوا من مقالته غضبا شديدا وثاروا عليه ليقتلوه ،
فبعث الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فأدخله خوخة وواراه فى سقفها ، ورفع الله تعالى
من روزنته ، فأمر رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له فلطيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله ،
فلما دخل فلطيانوس لم ير عيسى ، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها ، فأتى الله عليه شبه
عيسى ؛ فلما خرج ظنوا أنه عيسى ، فقتلوه وصلبوه .

وقال وهب : إن عيسى لما أعلمه الله تعالى أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق
عليه ، فدعا الحوارين وصنع لهم طعاما وقال : احضرونى الليلة ، فلى إليكم حاجة ، فلما
اجتمعوا إليه من الليل عشامهم وقام بخدمهم ؛ فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم
ويوصيهم ويمسح أيديهم بثيابه فتعاضموا ذلك وتكاهوه ، فقال : ألا من رد على شينا
مما أصنع فليس منى ولا أنا منه ، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال لهم : أنا ما صنعت
بكم الليلة مما خدعتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي إلا ليكون لكم بي أسوة ، وإنكم
ترون أنى خيركم ، فلا يتعاضم بعضهم على بعض ، وليبدلن بعضكم نفسه لبعض ، كما
بدلت نفسى لكم ، وأما الحاجة التى استعنتكم عليها ، فتدعون الله لى ، وتجاهدون فى الدعاء

أن يؤخر أجلى ، فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أرسى الله عليهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء . فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ما تصبرون في ليلة واحدة وتعينونني فيها ؟ فقالوا : والله ماندرى مالنا ، لقد كنا نسهر فنكثر السهر وما نطبق الليلة سهرا وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه ، فقال : يذهب الراعى وتبقى الغنم ، وجعل يأتي بكلام مثل هذا : يعنى نفسه ، ثم قال : ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعنّني أحدكم بدرهم يسيرة ، وليأكلنّ ثمنى ؛ فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين ، فقالوا هذا من أصحابه ، فجحد وقال : ما أنا من أصحابه فتركوه ، ثم أخذوا آخر فجحدته كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه ذلك ، فلما أصبح أتى أحد الحواريين أولئك اليهود فقال لهم : ما تجعلون لى إن دلتكم عليه ؟ فجعلوا له ثلاثين درهما ، فأخذها ودلمهم عليه ، وكان شبهه لهم قبل ذلك ، فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل ، وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحي الموتى وتبرى الأكمه والأبرص ، أفلا تفك نفسك من هذا الحبل ، ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك ، ثم إنهم نصبوا له خشبة ليصلبوه عليها ، فلما أتوا به إلى الخشبة ليصلبوه أظلمت الأرض ، وأرسل الله الملائكة فحالوا بينهم وبين عيسى ، وألقى شبه عيسى على الذى دلمهم عليه واسمه يهوذا ، فصابوه مكانه وهم يظنون أنه عيسى ، وتوفى الله عيسى ثلاث ساعات ثم رفعه إلى السماء ، فذلك قوله تعالى / (إِنى مُتَوَفِّيكَ وَرَأَفِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) . فلما صلب الذى هو شبه عيسى جاءت مريم أم عيسى وامرأة كان عيسى دعا لها وأبرأها من الجنون تبكيان عند المصلوب ، فأتاهما عيسى وقال : على من تبكيان ؟ فقالتا عليك ، فقال إن الله تعالى رفعنى فلم يصبني إلا خير ، وإنّ هذا شخص شبهه لهم .

وقال مقاتل : إن اليهود وكلوا بعيسى رجلا يكون عليه رقبيا يدور معه حيثما دار ، فصعد عيسى الجبل ، فجاءه الملك فرفعه إلى السماء وألقى الله تعالى شبه عيسى على الرقيب فظن اليهود أنه عيسى فأخذوه ، وكان يقول لهم : إنى لست عيسى . إنى فلان بن فلان فلم يصدقوه وقتلوه وصلبوه . قال قتادة : ذكر لنا أن نبيّ الله عيسى قال لأصحابه : أيكم يُقذف عليه شبهتى فإنه مقتول ؟ فقال رجل من القوم : أنا يا نبيّ الله ، فتمتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعاه إليه ، وقيل إن الذى شبه بعيسى وصلب مكانه رجل إسرائيلى يسمى أشوع بن قنديرا ، والله أعلم .

ذكر نزول عيسى من السماء بعد رفعه بسبعة أيام

قال وهب وغيره من أهل الكتب : لما رفع الله عيسى عليه السلام لبث في السماء سبعة أيام ثم قال الله له : إن أعداءك اليهود أعجابوك عن العهد إلى أصحابك ، فانزل عليهم وأوصهم واهبط على مريم المجدلانية ، فإنه لم يبك عليك أحد بكاءها ، ولم يحزن عليك أحد حزنها ،

(١) في الأصل : أشوع بن قنديرا . والتصويب عن تاريخ الطبرى (١ - ٢ : ٧٤١ خبيرة تورية) .

فانزل عليها وأخبرها أنها أول من تلحق بك ، وأمرها أن تجمع لك الحواريين فتبشهم في الأرض دعاء إلى الله تعالى .

وكانت قصة مريم المجدلانية أنها كانت من بنى إسرائيل في قرية من قرى أنطاكية يقال لها مجدلان ، وكانت امرأة سالحة وكانت تستحاض فلا تطهر ، فخطبها أشرف بنى إسرائيل امتنعت ، فظنوا أنها ترفعت بنفسها عنهم ، ولم يكن ذلك ترفعا وإنما أرادت إخفاء عاتها عنهم ؛ فلما سمعت بمجيء عيسى عليه السلام وبما كان يشق الله على يديه من المرضى والزممتني أقبلت إليه رجاء الشفاء ، فلما رأت عيسى وما ألبسه الله من الهيبة استحييت وانصرفت إلى ورائه ووضعت يدها على ظهره ، فقال عيسى : لقد مسني ذوعاهة بنية حسنة ، ولقد أعطاه الله ما رجاه وطهره بطهارتي ، فأذهب الله عنها ما بها وبرأت وطهرت م فلما أمر الله عيسى بالنزول عليها بعد سبعة أيام من رفعه هبط عليها ، فاشتعل الجبل حين هبط نورا ، فجمعت له الحواريين ، فبشهم في الأرض دعاء إلى الله ، ثم رفعه الله وكساه الريش وألبسه النور وقطع منه شهوة المطعم والمشرب ، فهو يطير مع الملائكة حول العرش ، فكان إنسيا ملكيا أرضيا سماويا ، وتفرق الحواريون حيث أمرهم ، فتلك الليلة التي أهبط فيها هي الليلة التي تزخر فيها النصراني . قالوا فوجه بطرس إلى رومية ، وأندراوس ومنى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس ، وتوما ولينا إلى أرض المشرق ، وفيلبس ويهوذا إلى القيروان وإفريقية وبجبي إلى أفسوس قرية أصحاب الكهف ، واليعقوبيين إلى أورشليم وهي إيلياء أرض بيت المقدس ، وبرتولوماوس إلى الأهرابية وهي أرض الحجاز ، وشمعون إلى أرض بربر ، فأصبح كل واحد من الحواريين الذين بغتهم يحدث بلغة من أرسله عيسى إليهم . قال ابن إسحاق : ثم عمد اليهود إلى بقية الحواريين أصحاب عيسى يشمسونهم ويعذبونهم . ويطوفون بهم ، فسمع ذلك ملك الروم ، وكان صاحب وثن ، فقبل له إن رجلا كان في هؤلاء الناس الذين تحت يدك من بنى إسرائيل عدوا عليه فقتلوه ، وكان يخبرهم أنه رسول الله ، وقد أحيا لهم الموتى وأبرأ لهم الأسقام ، وخلق لهم من الطين كهيئة الطير ونفخ فيه فكان طائرا باذن الله ، وأخبرهم بالغيب وأراهم العجائب . فقال ملك الروم : فما منعكم أن تذكروا لي من أمره ؟ فوالله لو علمت خلعت بينه وبينهم ، ثم إنه بعث إلى الحواريين فانتزعهم من أيديهم ، فلما أتوه سألمهم عن دين عيسى فأخبروه خبره ، فبايعهم على دينه واستنزل شبه عيسى والخشبة التي صلب عليها فأكرمها وصانها لما مسها منه ، وغزا بنى إسرائيل فقتل منهم خلقا كثيرا ، فن هناك كانت أصل النصرانية في الروم .

وقال أهل التوراة : حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة ، وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورشليم لمضي خمس وستين سنة من غلبة الإسكندر على بابل وإلحدي وخمسين سنة مضت من ملك الإسكانيين ، وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ، ورفع

من بيت المقدس إليه ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، فكانت نبوته ثلاث سنين ، وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين ، والله أعلم .

ذكر وفاة مريم ابنة عمران عليهما السلام

قال وهب : لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى عليه السلام أخى بين الحواريين ، فأمر رجلين منهم يقال لأحدهما شمعون الصفا ، والآخر يحيى أن يلتزما أمه ولا يفارقاها ، فانطلقا ومعهما مريم إلى ماروت ملك الروم يدعونه إلى الله تعالى ، وقد بعث الله تعالى إليه قبل ذلك يونس عليه السلام ، فلما أتوه أمر بشمعون وأندراوس فقتلا وصلبا منكسرين ، وهربت مريم ويحيى ، حتى إذا كانا في بعض الطريق لحقهما الطلب فخافا ، فانشقت لهما الأرض فغابا فيها ، وأقبل ماروت ملك الروم وأصحابه ، فحفروا ذلك الموضع فلم يجدوا شيئا ، فردوا التراب على حاله وعلموا أنه أمر من الله تعالى ، فسأل ملك الروم عن حال عيسى فأخبروه به فأسلم كما ذكرنا ، والله أعلم .

ذكر نزول عيسى عليه السلام من السماء في المرة الثانية في آخر الزمان

قال الله تعالى « وَإِنَّهُ لَعَلِمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا » الآية . وقيل للحسين بن الفضل : هل تجد نزول عيسى عليه السلام في القرآن؟ قال نعم ، قوله « وكهلا » وهو لم يكن بكهل في الدنيا ، وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء .

أخبرنا أبو صالح شعيب بن محمد البيهقي بإسناده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأنبياء إخوة لِعَلَاتِ أُمَّهَاتِهِمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ، وَيُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ أَحْكَمَا عَدْلًا ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ عَلَى أُمَّتِي وَخَلِيفَتِي عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَعْرِفُوهُ فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ ، إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، سَبَطُ الشَّعْرِ ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَلَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، يَنْزِلُ بَيْنَ مَخَصِرَتَيْنِ ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِزِيرَ وَيَضَعُ الْحِزْبَةَ وَيَقْبِضُ الْمَالَ وَيُهْلِكُ مِنَ الرُّوحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ مُلْتَبِّيًا بِهِمَا جَمِيعًا ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى يَهْلِكَ فِي زَمَانِهِ الْمِدْلُ كُلُّهَا غَيْرَ الْإِسْلَامِ ، وَتَكُونُ السَّجْدَةُ وَاحِدَةً لِّلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ مَسِيحَ الضَّلَالَةِ الْكَذَّابَ الدَّجَالَ وَتَقَعُ الْأَمْنَةُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأَسْوَدُ مَعَ الْإِبِلِ وَالنَّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ وَالذَّنَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَتَلْعَبُ الصَّبِيَانُ بِالْحَيَاتِ فَلَا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ يَلْبَثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَيَتَزَوَّجُ وَيَوْلَدُ لَهُ ، ثُمَّ يَتَوَفَّى وَيُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ

وَيُدْفِنُونَهُ فِي الْمَدِينَةِ بِجَنْبِ عُمَرَ ، اقْرَأُوا إِنَّ شَيْئَكُمْ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ
لِلْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ هَهَيْدًا ، أَيْ
قَبْلَ مَوْتِ عَيْسَى ، يَعِيدُهَا أَبُو هُرَيْرَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

وَأَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْفَارِسِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِذَا أَهْبَطَ اللَّهُ الْمَسِيحَ عَيْسَى يَعِيشُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَا يَعِيشُ ، ثُمَّ
يَمُوتُ فِي مَدِينَتِي هَذِهِ وَيُدْفَنُ إِلَى جَانِبِ قَبْرِ عُمَرَ ، فَطُوبَى لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ،
يُحْشَرَانِ بَيْنَ نَبِيِّنِ » .

وَأَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ حَدَّثَنِي الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَلِيٍّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كَيْفَ يُهْلِكُ اللَّهُ أُمَّةً أَنَا فِي أَوَّلِهَا وَعَيْسَى
فِي آخِرِهَا ، وَالْمَهْدِيُّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فِي وَسْطِهَا » .

بَابُ فِي قِصَّةِ الرُّسُلِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْطَاكِيَّةِ
وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ مَلُوكِ الطَّوَّائِفِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » يَعْنِي
رَسُولَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ « إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ » ، وَاخْتَلَفُوا فِي اسْمَيْهِمَا . فَقَالَ
ابْنُ إِسْحَاقَ : فَارُوضُ وَرُومَاضُ ؛ وَقَالَ وَهْبُ : يَحْيَى وَيُونُسُ ؛ وَقَالَ مِقَاتِلُ : يَوْمَانُ
وَمَالُوسُ ؛ وَقَالَ كَعْبُ : صَادِقٌ وَصَدُوقٌ « فَكَفَّهُ بُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ » أَيْ فَقَوَيْنَا
بِرَسُولِ ثَالِثٍ ، وَهُوَ شَمْعُونُ الصَّفَارِيُّ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ ؛ وَقَالَ كَعْبُ :
اسْمُهُ شَلُومُ ؛ وَقَالَ مِقَاتِلُ : سَمْعَانُ .

قَالَتِ الْعُلَمَاءُ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ : بَعَثَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسُولَيْنِ مِنَ الْخَوَارِيزِيِّينَ إِلَى مَدِينَةِ
أَنْطَاكِيَّةِ ، فَلَمَّا قَرَّبَا مِنَ الْمَدِينَةِ أَتَى شَيْخًا بَرَعَى غَنِيَمَاتٍ لَهُ ، وَهُوَ حَبِيبُ النَّجَّارِ صَاحِبُ
يَسَّ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ : مَنْ أَنْتَا ؟ قَالَا : رَسُولَا عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُوكُمْ مِنْ عِبَادَةِ
الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ ، قَالَ : أَمَعَكُمَا آيَةٌ ؟ قَالَا نَعَمْ ، نَحْنُ نَبْرِيُّ الْمَرِيضِ وَنَشِيُّ الْأَكْمَةِ
وَالْأَبْرَصِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنْ لِي ابْنَا مَرِيضًا صَاحِبُ فَرَاشٍ مِنْذُ سَنِينَ ، قَالَا :
فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَى مَنْزَلِكَ فَتَطَّلِعْ عَلَى حَالِهِ ، فَأَتَى بِهِمَا إِلَى مَنْزَلِهِ ، فَلَمَّا نَظَرَا إِلَى وَلَدِ الشَّيْخِ وَهُوَ
فِي تِلْكَ الْحَالَةِ قَرَّبَا إِلَيْهِ وَدَعَا لَهُ وَمَسَحَاهُ بِيَدَيْهِمَا ، فَقَامَ فِي الْوَقْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ صَحِيحًا ، فَفَشَا
الْخَبْرَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَشَفَى اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِمَا كَثِيرًا مِنَ الْمَرَضِيِّينَ ، وَكَانَ فِي مَدِينَةِ أَنْطَاكِيَّةِ فِرْعَوْنُ
مِنَ الْفِرَاعِنَةِ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ يُقَالُ لَهُ سَلَاحِينُ . وَقَالَ وَهْبُ : اسْمُهُ أَبِطِيحَيْسُ وَكَانَ مِنْ مَلُوكِ
الرُّومِ . قَالُوا : فَانْتَهَى الْخَبْرُ إِلَى الْمَلِكِ ، فَدَعَا هُمَا إِلَيْهِ وَقَالَ لهُمَا : مَنْ أَنْتَا ؟ قَالَا : رَسُولَا
عَيْسَى ، قَالَ : وَمَا آيَتُكُمَا ؟ قَالَا : نَبْرِيُّ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصُ وَنَشِيُّ الْمَرَضِيِّ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى :

قال : وفيما جئنا ؟ قالوا : جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر ، قال الملك : أولنا إله سوى آلهتنا ؟ قالوا نعم ، قال من ؟ قالوا : من أوجدك بعد عدمك وآلهتك ، قال : قوما حتى أنظر في أمركما ، فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق .

وقال وهب : بعث عيسى بهذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها ، فلم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما ، فخرج الملك ذات يوم ، فكبرا ودكرا الله تعالى ، فغضب الملك فأمر بهما فحبسا ، وجلد كل واحد منهما مئة جلدة ، قالوا : فلما كذب الرسولان وضربا ، بعث عيسى رأس الخواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما ، فدخل شمعون البلد متنكرا ، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به ، فرفعوا خبره إلى الملك ، فدعاه ورضى عشرته وأنس به وأكرمه ، ثم قال له ذات يوم : أيها الملك إنه بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك ، فهل كلمتهما وسمعت قولهما ؟ فقال : حال الغضب بيني وبين ذلك ، قال : فان رأى الملك دعاهما حتى نطلع على ما عندهما ، فدعاهما الملك ، فلما حضرا بين يديه قال لشمعون استخبرهما ، فقال شمعون لهما : من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالوا : الذي خلق كل شيء ، فقال لهما شمعون : فصفاه وأوجزا ، فقالا : إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، قال شمعون : وما آيتكما ؟ قالوا : ماتمناه : نبرئ الأكمة والأبرص ، ونشفي المرضى والزمنى بإذن الله . قال : فأمر الملك فجيء بغلام مطموس العينين موضع عينيه كالجبهة ، فما زال يدعو الله تعالى حتى انشق موضع البصر ، فأخذنا بندقتين من الطين فوضعهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما ، فعجب الملك ، فقال شمعون للملك : إن أنت سألت إلهك حتى يصنع لك صنيعا مثل هذا فيكون لك الشرف وإلهك ، فقال الملك : ليس لي عنك سر ، اعلم أن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، وكان شمعون إذا دخل الملك على الصم يدخل للدخوله ويصلى كثيرا ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم ، فقال الملك للرسولين : إن إلهكما الذي تعبدانه يقدر على إحياء الميت ؟ قالوا : إلهنا يقدر على كل شيء ، فقال الملك : إن ههنا ميتا قد مات منذ سبعة أيام وهو ابن الدهقان ، وأنا آخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان أبوه غائبا ، فجاءوا بالميت وقد تغير وأروح ، فجعلنا يدعو ربهما علانية وجعل شمعون يدعو سرا ، فقام الميت وقال لهم : إني قد مت منذ سبعة أيام مشركا ، فأدخلت في سبعة أودية من النار ، وأنا أحذركم ما أنتم فيه فأمنوا بالله ، ثم قال : إن أبواب السماء فتحت لي فرأيت شابا حسن الوجه يتشفع لؤلؤاء الثلاثة ، فقال الملك : ومن الثلاثة ؟ فقال : شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه ، فتعجب الملك ، فلما علم شمعون أن قولهم قد أثر في الملك أخبر بالحال ودعاه ، فأمن قوم وكان الملك ممن آمن وكفر آخرون .

وقال كعب ووهب : بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل ، فبلغ ذلك حبيب ابن مري صاحب يس .

وقال ابن عباس ومقاتل : اسمه حبيب بن إسرائيل النجار . قال وهب : وكان سقياً قد أثر فيه الجذام ، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب مدينة أنطاكية ، وكان مؤمناً ذا صدقة ، يجمع كسبه إذا أمضى ، فيقسمه نصفين يطعم عياله نصفاً ، ويتصدق بالنصف الآخر ، فلما بلغه أن قومه قد قصدوا قتل الرسل جاءهم ، وكان قبل ذلك يكرم إيمانه ويعبد ربه في غار ، فلما أتاه خبر الرسل أظهر دينه وذكر قومه ودعاهم إلى طاعة الله تعالى كما أخبر الله تعالى في كتابه وذلك قوله تعالى (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) إلى قوله (مُهْتَدُونَ) فقال له قومه : أو أنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل ومؤمن باللههم ؟ فقال (وَمَالِي لَأَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) إلى قوله (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ) فلما قال لهم ذلك وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن أحد يدفع عنه . وقال عبد الله بن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه من دبره . وقال السدي : كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه . وقال الحسن : خرقوا خرقاً في حلقه وعلقوه في سور المدينة ودفنوه في سوق أنطاكية ، فأوجب الله له الجنة ، فذلك قوله تعالى (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ) فلما أفضى إلى الجنة الله وكرامته (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ) قالوا : فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النعمة ، وأمر جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا عن آخرهم ، فذلك قوله تعالى (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ) على غيرهم من كفار الأمم (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) أي ميتون .

أخبرنا أبو بكر الحمشاوي بإسناده عن ابن أبي ليلي عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سُبَّاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ : حِزْقِيلُ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَحَبِيبُ النَّجَّارِ مُؤْمِنٌ آلِ يَسَّ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ » .

قصة يونس بن متى عليه السلام

قبل متي أمه ، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه إلا عيسى بن مريم ويونس بن متى عليهما السلام ، وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه « لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَى » قال الله تعالى (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ

مُغَاضِباً) الآيات : قالت العلماء بأخبار القدماء : كان يونس رجلاً صالحاً يتعبد في جبل ، وكان في قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى ، وكان قومه يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهي عن الكفر والأمر بالتوحيد ، وكان يونس عليه السلام رجلاً صالحاً لا يصبر على الناس فلحق بالجليل يعبد الله تعالى فيه ، وكان حسن القراءة يستمع لقراءته الوحش كما كان لداود في زمانه ، وكان يعتربه حدة ، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله لخفة وعجلة ظهرت منه ، قال الله تعالى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وقال تعالى (ولا تكن كصاحب الحوت) لأنه كان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة ، فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل ، ولذلك السبب ذهب مغاضباً . »

واختلف العلماء في صفة مغاضبته وسبب ذلك ووقته ، فقال قوم : ذهب مغاضباً لقومه ، وهي رواية الضحاك والعمري عن ابن عباس قال : كان يونس بن متى وقومه يسكنون فلسطين ، فغزاهم ملك فسبي منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف ، وكانوا اثني عشر سبطاً فيهم النبوة والملك ، فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي أن سر إلى حزقيا الملك وقل له بوجه نبيا قويا آمينا ، فإني ألقى الخوف في قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا مع بني إسرائيل ، فقال له الملك : فمن ترى ؟ وكان في مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال : يونس فإنه قوى أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج ، فقال له يونس : هل أمرك الوحي باخراجي ؟ قال لا ، قال : هل سماني لك ؟ قال لا ، فقال : ههنا غيري أنبياء أقوياء أمناء ، فألحوا عليه فخرج مغاضباً للنبي والملك ولقومه ، فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان . وقال الحسن البصري : إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل ربه أن ينظره ليتأهب للشخص إلىهم ، فقال له : الأمر أسرع من ذلك ولم ينظره ، حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعله يلبسها ، فقيل له نحو القول الأول ، وكان رجلاً في خلقه ضيق ، فقال : أعجلني ربي أن آخذ نعلي فذهب مغاضباً . وروى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس عليه السلام فقال له : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم إن لم يتوبوا ، قال له : أئتمس دابة ؟ قال : الأمر أعجل من ذلك ، فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة فكان من أمره ما كان . فعلى هذه الأقوال كانت رسالة يونس بعد نجاته من بطن الحوت . قال ابن عباس : إنما كانت رسالة يونس بعد أن نبذه الحوت ، ودليل هذا القول أن الله تعالى ذكر قصة يونس في سورة الصافات ثم عقبها بقوله (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وقال آخرون : بل كانت قصة الحوت بعد دعاء قومه وتبليغه الرسالة وإنما ذهب عن قومه ،

مغاضبا لربه إذ كشف عنهم العذاب بعد ما أوعدهم به ، وذلك أنه كره أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب والخلف فيما أوعدهم ، ولم يعلم السبب الذي رفع به عنهم العذاب والهلاك فخرج مغاضبا ، قال : والله لأرجع إليهم كذابا أبدا ، أوعدتهم العذاب في يوم ولم يأتهم . وفي بعض الأخبار : أن قومه كان من عادتهم أن يقتلوا من جربوا عليه الكذب فلما لم يأتهم العذاب للميعاد الذي أوعدهم خشى أن يقتلوه فغضب وقال : كيف أرجع إلى قومي وقد أخلفتهم الوعد ، ولم يعلم سبب صرف العذاب عنهم لأنه كان قد خرج من بين أظهرهم لنزول العذاب . قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : بعث الله يونس بن متى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة ، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثا وثلاثين سنة ، فلم يؤمن به إلا رجلان : أحدهما روبيل وكان عالما حكما ، والآخر تنوخا وكان عبدا زاهدا . قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما : لما أيس من إيمان قومه دعا عليهم ، فقيل له : ما أسرع مادعوت على قومك ! ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى ، فإن أجابوك وإلا فإني مرسل عليهم العذاب ، فرجع ودعاهم سبعا وثلاثين ليلة فلم يجيبوه ، فقام خطيبا فيهم وقال : إني محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا ، ثم قال لهم : إن آية ذلك أن تتغير ألوانكم ، فلما أصبحوا تغيرت ألوانهم ، فقالوا لبعضهم : قد نزل بكم ما قال يونس وإنا لم نجرب عليه كذبا ، فانظروا فإن بات فيكم الليلة فاثمنوا من العذاب ، وإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم ؛ فلما كان ليلة الأربعاء ورأى يونس تغير ألوانهم علم أن العذاب نازل بهم فخرج من بين أظهرهم ، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب . قال سعيد ابن جبير : كما يغشى التراب القبر إذا دخل فيه صاحبه . وقال مقاتل : كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ميل . وقال ابن عباس : قدر ثلثي ميل . وقال وهب : أغشيت السماء غما أسود هائلا تدخن دخانا شديدا ، فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت أسطحهم ؛ فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك والعذاب ، فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه ، فقفذ الله في قلوبهم التوبة وألهمهم الرجوع إليه ، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسأهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة لله ، وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب والأنعام ، فحن بعضها إلى بعض ، وعلت أصواتهم واختلط حنينهم وعجوا وتضرعوا إلى الله وقالوا آمنا بما جاء به يونس ، فرحمهم ربهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلمهم وذلك يوم عاشوراء ، وقيل كان يوم الأربعاء للنصف من شوال . قال ابن مسعود : وبلغ من توبة أهل نينوى أن ترادوا المظالم بينهم حتى إن الرجل ليأتي إلى الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فينتلعه ويرده .

وروى صالح المري عن عمران الجوني عن أبي خالد قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم ، فقالوا له : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ قال : قولوا يا حيّ حين لا حيّ ، يا حيّ حين يحيي الموتى لا إله إلا أنت ، فقالوها فكشف الله عنهم

العذاب واستعوا إلى حين كما قال تعالى (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيْبَةً آمَنَتْ) أى فلم تخن مرة آمنت، وضع التحضيض موضع النى لأن فيه ضربا من الجحد، (فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) فى وقت اليأس عند معاينة العذاب (إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا) نفعمهم إيمانهم فى ذلك الوقت لما علم الله من صدقهم (كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) قالوا : وكان يونس قد خرج من بين أظهرهم وقام ينتظر العذاب والهلاك لقومه فلم ير شيئا ، وكان من كذب ولم يكن له بينة قتل ، قال يونس : كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم فانطلق معاتباً ربه مغاضبا قومه ، فأنى البحر كما قال تعالى (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) أى أن لن نقضى عليه العقوبة ، تقول العرب : قدر الله الشيء يقدره تقديرا ، وقدره يقدره قدرا ، وقد قرئ بهما جميعا فى قوله تعالى (نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ) وقوله تعالى (وَالَّذى قَدَرْنَا فَنَهَدَى) هذا قول أكثر المصرين . وقال عطاء : معناه فظن أن لن نصيق عليه الحبس من قول الله تعالى (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) أى ويضيق ، وقوله تعالى (وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ) .

قال ابن زيد : هو استفهام معناه : أفظن أن لن نقدر عليه ؟ وقال الحسن : معناه فظن أن يعجز ربه فلا يقدر عليه ؟ قال : وبلغنى أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضبا ربه ، فاستزله الشيطان حتى ظن أن لن نقدر عليه ، وكان له سلف وعبادة ، فأنى الله أن يدعه للشيطان ، فلما أتى يونس البحر إذا قوم يركبون سفينة فحملوه بغير أجره ، فلما دخلها احتبست السفينة ووقفت والسفن تسير يمينا وشمالا ، فقال الملاحون : إن فيها عبدا أبقا من سيده ، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر ، فاقرعوا فوقع القرعة على يونس ، فقال : أنا الآبق ، فقالوا تلى فى الماء ، فاقرعوا ثانيا وثالثا فخرجت القرعة على يونس ، فرج نفسه فى الماء ، فذلك قوله تعالى (فساهم فكان من المدحضين) . فلما وقع فى الماء وكل الله به حوتا فابتلعه ، وأوحى الله تعالى إلى الحوت : إنى لم أجعله لك رزقا، بل جعلناك له حرزا ومسكنا ، فخذه ولا تكسر له عظما ولا تحدش له لحما ، وابتلع الحوت حوت آخر ، فأهوى به إلى مسكنه فى البحر فالتقمه حوت آخر وانطلق به من ذلك المكان حتى مر به على الأبله ، ثم مر به على دجلة ، ثم انطلق به إلى نينوى ، ويقال إن الله تعالى رقق له جلد الحوت حتى كان يرى جميع ما فى البحر . فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا، فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله تعالى إليه وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر ، فسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا معروفا بأرض مجهولة ؟ قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ، فقالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد

لك منه في كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال نعم ، قال : فشفعوا له عند ذلك ، وهو قوله تعالى (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا الله لا أنت) . قال ابن عباس : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (سبحانك إني كنت من الظالمين) .

وروى سعيد بن المسيب عن سعد بن مالك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول واسمُ الله الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ دَعْوَةَ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ، فقلت : يا رسول الله هي ليونس بن متى خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ فقال هي ليونس خاصة ولجماعة المسلمين عامة إذا دعوا بها ، ألم تسمع قوله تعالى (فنادى في الظلمات) إلى قوله (وكذلك ننجي المؤمنين) ، فلما دعا به يونس وشفعت له الملائكة أمر الله الحوت فقذفه إلى ساحل نينوى كما قال الله تعالى (فتبذناه بالعرَاءِ) أي بوجه الأرض (وهو سقيم) أي عليل ضعيف كالفرخ الممعت .

واختلفوا في مدة مكث يونس في بطن الحوت ، فقال مقاتل : ثلاثة أيام ؛ وقال عطاء : سبعة أيام ؛ وقال الضحاك : عشرين يوما ؛ وقال السدي والكلبي : أربعين يوما .

فلما أخرج الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين وهو القرع ، فجعل يستظل بها ، ووكل الله به وعله تختلف إليه فيشرب منها لبنا ، فذلك قوله تعالى (وأنبتنا عليه) أي عنده (شجرة من يقطين) قالوا : فيبست الشجرة فبكى عليها ، فأوحى الله إليه : أتبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن أهلكهم . ثم ذهب يونس ، فإذا هو بغلام يرعى غنما ، فقال : من أين أنت يا غلام ؟ قال : أنا من قوم يونس ، فقال له : إذا رجعت إليهم فقل لهم إنك لقيت يونس ، فقال الغلام : إن كنت يونس فأنت تعلم أنه إن لم يكن لي بينة قتلت ، فمن يشهد لي ؟ فقال يونس : تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة وهذه الشاة ، وأشار إلى شاة من غنمه ، فقال له الغلام فرهم ، قال لهم يونس : إذا جاءكم هذا الغلام فاشهدوا له ، قالوا نعم ، فرجع الغلام إلى قومه ثم قال للملك : إني قد لقيت يونس ، وإنه يقرأ عليكم السلام ، فأمر الملك بقتله وقال كذبت ، فقال : إن لي بينة ، فأرسلوا معي أحدا يشهد ، فأرسلوا معه رجالا ، فأتى البقعة والشجرة والشاة وقال : أنشدكم بالله هل أشهدكم يونس ؟ قالوا نعم ، فرجع القوم مذعورين وقالوا للملك : شهدت له الشجرة والأرض والشاة ، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه وقال : أنت أحق بهذا المكان مني ، قال : فأقام لهم أمرهم ذلك الغلام أربعين سنة ، ثم إنهم خرجوا يلتمسون يونس فوجدوه ففرحوا به وآمنوا به ، فأقام لهم أمرهم .

يروى أن يونس عليه السلام مضى من عندهم فنزل قرية ليلا ، فأضافه رجل ، وكان ذلك الرجل قد عمل كثيرا من الفخار ، فأوحى الله إليه : يا يونس مر صاحب هذا الفخار

أن يكسر تلك الفخارات ، فقال له يونس ذلك ، فلما سمع منه ذلك شنمه وقال : شيء عملته بيدي أعيش منه وأتمتع بثمنه أنا وعبالي تأمرني بكسره ؟ فبكى يونس ، فأوحى الله إليه : هذا عمل فخارا من طين لم تطب نفسه بكسره ، وأنت طبت نفسا ووطنها على هلاك مائة ألف أو يزيدون من عبادي ، فضى يونس وهبط واديا .

قال : فاما شهدت الشجرة والأرض والشاة للغلام ، وكانت الشاة التي كانت مع الغلام قالت لهم : إن أردتم يونس فاهبطوا الوادي ، فهبطوا فإذا هم بيونس ، فانكبوا على رجله يقبلونهما وسألوه أن يدخل معهم المدينة فقال : لا حاجة لي في مدينتكم ، فبكوا وألحوا عليه فأجابهم للدخول ، فأتى بعجلة من فضة وأجلس عليها ، فتمثل له جبريل عليه السلام على سبابته وهوينادي : هذا مجلس الجبارين ، فوثب يونس عن العجلة وجعل يمشى حتى دخل معهم المدينة ، فكث مع أهله وولده أربعين ليلة ، ثم خرج سائحا وخرج الملك معه ، وصير الغلام الراعي ملكا لتلك المدينة كما ذكرنا ، فلم يزالا سائحين يعبدان الله تعالى حتى ماتا عليهما السلام ، وكانت نبوة يونس في زمان ملوك الطوائف ، والله أعلم .

باب في قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا)
 اختلف العلماء في الرقيم ، قال النعمان بن بشير الأنصاري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرقيم قال « إن ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهلبيهم فبينما هم يمشون إذ أصابتهم السماء ، فأووا إلى الكهف ، فأنحطت صخرة من الجبل عليهم فانطبقت على باب الكهف فأوصدته عليهم ، فقال قائل منهم : كل منكم يدكر أحسن عمل عمله فلعل الله يرحمنا ، فقال رجل منهم : قد عملت مرة حسنة ، كان لي أجراء يعملون عملا لي ، فاستأجرت كلال رجل منهم بأجرة معلومة ، فجاء رجل منهم ذات يوم وسط النهار فاستأجرته بشطر أصحابه ، فعمل في بقية نهاره كعمل رجل منهم نهاره كله ، فرأيت علي من الإكرام أن لأنقصه شيئا مما استأجرت به أصحابه لما اجتهد في عمله ، فقال رجل منهم : أتعطي هذا مثل ما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف النهار ؟ فقلت له : يا عبد الله ، لم أجتسك شيئا من شرطك ، إنما هو مالي أحكم فيه بما شئت ، قال فغضب وذهب وترك أجرته ، فوضعت حقه في جانب من البيت ماشاء الله ، ثم مررت بعد ذلك بقر فاشترت به فتميته فبلغت ماشاء الله ، فمررت بعد ذلك شيخ ضعيف

لا أعرفه فقال لي : إن لي عندك حقاً ، فقلت له اذكره لي حتى أعرفه ، قال فذكره ، فقلت له : إياك أبغى وهذا حقك وعرضها عليه ، فقال يا عبد الله لا تسخر بي إن لم تتصدق علي فأعطني حقي ، فقلت والله ما أسخر ، إن هذا لحقك ومالي فيه شيء ، فدفعتها إليه ؛ اللهم إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا ، فانصدع الجبل حتى أبصروا الضوء . وقال الآخر : قد عملت حسنة : مرة كان لي فضل مال وأصاب الناس شدة ، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفا ، فقلت والله ما هو دون نفسك ، فأبت علي وذهبت ثم إنها رجعت فذكرتني بالله فأبيت عليها وقلت والله ما هو دون نفسك ، فأبت علي وذهبت وذلك لزوجهما ، فقال لها زوجها أعطيه نفسك وأغيب عيالك ، فرجعت إلى تنشدني بالله فأبيت عليها وقلت والله ما هو دون نفسك ، فلما رأت ذلك أسلمت إلى نفسها ، فلما كشفتها وهممت بها ارتعدت من تحتي ، فقلت لها : ما شأنك ؟ فقالت إني أخاف الله رب العالمين ، فقلت لها : خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتهما ما تحب بما كشفتها ؛ اللهم إن كنت فعلت هذا لوجهك الكريم فافرج عنا ، فانصدع الجبل حتى تعارفنا . وقال الآخر : قد عملت حسنة : مرة كان لي أبوان كبيران ، وكان لي غم ، فكنت أطعم أبوي وأسقيهما ثم أرجع إلى غمي ، قال فأصابني يوماً غيب فحبسني حتى أمسيت فأتيت أهلي وأخذت محلي فحلبت غمي وتركتها قائمة مكانها ومضيت إلى أبوي فوجدتهما قد ناما ، فشق علي أن أوقظهما وشق علي أن أترك غمي ، فلما برحت جالسا ومحلي في يدي حتى أيقظتهما الصبح فسقيتهما ؛ اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك الكريم فافرج عنا ما نحن فيه . قال النعمان : لكأني أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان الجبل طبق ففرج الله عنهم فخرجوا .

وقال ابن عباس : الرقيم واد بين غطفان وأيلة دون فلسطين ، وهو الوادي الذي فيه أصحاب الكهف . قال كعب : هي قريتهم . وقال سعيد بن جبیر وغيره من أئمة الأخبار : الرقيم : لوح من حجارة ، وقيل من رصاص كتبوا فيه أسماء أهل الكهف وقصتهم ثم جعلوه في صندوق ووضعوه على باب الكهف ، ثم ذكر الله خبر أصحاب الكهف فقال (إذ أوى الفئدة إلى الكهف فقالوا ربنا آتينا من لدنك رحمة) . قال أهل التفسير وأصحاب

التواريخ : كان أمر أصحاب الكهف في أيام ملوك الطوائف بين عيسى وحمد عليهما الصلاة والسلام .

وأما قصتهم ، فيقال : لما ولي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة أتاه قوم من أحبار اليهود ، فقالوا يا عمر أنت ولي الأمر بعد محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، وإنا نريد أن نسألك عن خصال إن أخبرتنا بها علمنا أن الإسلام حق ، وأن محمدا كان نبيا ، وإن لم نخبرنا علمنا أن الإسلام باطل وأن محمدا لم يكن نبيا ، فقال عمر : سلوا عما بدا لكم ، قالوا : أخبرنا عن أقفال السموات ما هي ، وعن مفاتيح السموات ما هي ، وأخبرنا عن قبر سار بصاحبه ما هو ؛ وأخبرنا عن أنذر قومه لاهو من الجن ولا هو من الإنس ، وأخبرنا عن خمسة أشياء مشوا على وجه الأرض ولم يخلقوا في الأرحام ، وأخبرنا ما يقول الدراج في صباحه ، وما يقول الديك في صراخه ، وما يقول الفرس في صهيله ، وما يقول الضفدع في نقيقه ، وما يقول الحمار في نهيقه ، وما يقول القنبر في صفيره ؟ قال : فنكس عمر رأسه في الأرض ثم قال : لا عيب بعمر إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لأعلم ، وأن يسأل عما لا يعلم ، فوثبت اليهود وقالوا : نشهد أن محمدا لم يكن نبيا وأن الإسلام باطل ، فوثب سلمان الفارسي وقال لليهود قفوا قليلا ، ثم توجه نحو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حتى دخل عليه ، فقال يا أبا الحسن : أغث الإسلام ، فقال وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، فأقبل يرفل في بردة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نظر إليه عمر وثب قائما فاعتنقه وقال : يا أبا الحسن أنت لكل معضلة وشدة تدعى ، فدعا على كرم الله وجهه اليهود فقال سلوا عما بدا لكم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم علمني ألف باب من العلم ، فتشعب لي من كل باب ألف باب ، فسألوه عنها ؛ فقال على كرم الله وجهه : إن لي عليكم شريطة إذا أخبرتكم كما في توراتكم دخلتم في ديننا وآمنتم ؟ فقالوا نعم ، فقال سلوا عن خصلة خصلة ، قالوا : أخبرنا عن أقفال السموات ما هي ؟ قال : أقفال السموات الشرك بالله ، لأن العبد والأمة إذا كانا مشركين لم يرتفع لهما عمل ؛ قالوا : فأخبرنا عن مفاتيح السموات ما هي ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . قال : فجعل بعضهم ينظر إلى بعض ويقولون : صدق الفتى ؛ قالوا : فأخبرنا عن قبر سار بصاحبه فقال : ذلك الحوت الذي التقم يونس بن متى فسار به في البحار السبعة ؛ فتألوا : أخبرنا عن أنذر قومه لاهو من الجن ولا من الإنس ؟ قال : هي نملة سليمان بن داود قالت (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) قالوا : فأخبرنا عسة مشوا في الأرض ولم يخلقوا في الأرحام ؟ قال : ذلكم آدم وحواء وناقة صالح وكبش إبراهيم وعصا موسى ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول الدراج في صباحه ؟ قال : يقول الرحمن على العرش استوى ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول الديك في صراخه ؟ قال :

يقول اذكروا الله يا غافلون ؛ قالوا : أخبرنا ما يقول الفرس في صهيله ؟ قال : يقول إذا مشى المؤمنون إلى الكافرين للجهاد اللهم انصر عبادك المؤمنين على الكافرين ؛ قالوا فأخبرنا ما يقول الحمار في نهيته ؟ قال يقول : لعن الله العشار ، وينهق في أعين الشياطين ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول الضفدع في نقيقه ؟ قال : يقول سبحان ربي المعبود المسبح في لجج البحار ؛ قالوا : فأخبرنا ما يقول القنبر في صفيره ؟ قال : يقول اللهم العن مبغضى محمد وآل محمد ، وكان اليهود ثلاثة نفر قال اثنان منهم نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وثب الخبر الثالث فقال : يا علي ، لقد وقع في قلوب أصحابي ما وقع من الإيمان والتصديق وقد بقي خلة واحدة أسألك عنها ، فقال : سل عما بدا لك ، فقال : أخبرني عن قوم في أول الزمان ماتوا ثلاث مئة وتسع سنين ، ثم أحياهم الله فما كان من قصتهم ؟ قال علي رضي الله عنه : يا يهودى هؤلاء أصحاب الكهف ، وقد أنزل الله على نبينا قرآنا فيه قصتهم ، وإن شئت قرأت عليك قصتهم ، فقال : ما أكثر ما قد سمعنا قراءتكم ، إن كنت عالما فأخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء مدينتهم واسم ملكهم واسم كلبهم واسم جبلهم واسم كهفهم وقصتهم من أولها إلى آخرها ، فاحتجى علي كرم الله وجهه بريدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أخا العرب حدثني حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان بأرض رومية مدينة يقال لها أفسوس ويقال هي طرسوس ، وكان اسمها في الجاهلية أنسوس ، فلما جاء الإسلام سموها طرسوس . قال : وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم وانتشر أمرهم ، فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس وكان جبارا كافرا ، فأقبل في عساكره حتى دخل أفسوس ، فاتخذها دار ملكه وبنى فيها قصرا ، فوثب اليهودى وقال : إن كنت عالما فصف لي ذلك القصر ومجالسه ، فقال : يا أخا اليهود ابني فيها قصرا من الرخام طوله فرسخ في عرض فرسخ ، واتخذ فيه أربعة آلاف أسطوانة من الذهب ، وألف قنديل من الذهب لها سلاسل من اللجين تسرج في كل ليلة بالأدهان الطيبة ، واتخذ لشرقي المجلس مئة وثمانين كوة ، ولغريبه كذلك ، وكانت الشمس من حين تطلع إلى حين تغيب تدور في المجلس كيفما دارت ، واتخذ فيه سريرا من الذهب طوله ثمانون ذراعا في عرض أربعين ذراعا مرصعا بالجوهر ، ونصب على يمين السرير ثمانين كرسيًا من الذهب ، فأجلس عليها بطارفته ، واتخذ أيضا ثمانين كرسيًا من الذهب عن يساره فأجلس عليها هراقته ، ثم جلس هو على السرير ووضع التاج على رأسه ، فوثب اليهودى وقال : يا علي إن كنت عالما فأخبرني مم كان تاجه ؟ فقال : يا أخا اليهود كان تاجه من الذهب السبيك له تسعة أركان على كل ركن لؤلؤة تضيء كما يضيء المصباح في الليلة الظلماء ، واتخذ خمسين غلاما من أبناء البطارقة ، فنطقهم بمناطق من الديباج الأحمر ، وسروهم بسرابيل القز الأخضر ، وتوجههم ودملجهم واخلخلهم وأعطاهم عمد الذهب وأقامهم على رأسه ، واصطنع ستة غلمة من أولاد العلماء وجعلهم وزراءه ، فما يقطع أمرا دونهم ، وأقام منهم ثلاثة عن يمينه

وثلاثة عن يساره ؛ فوثب اليهودى وقال : يا على إن كنت صادقا فأخبرني ما كانت أسماء الستة ؟ فقال على كرم الله وجهه : حدثني حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم أن الذين كانوا عن يمينه أسماؤهم تملیخا ومكسلمينا ، ومحسلمينا . وأما الذين كانوا على يساره فمر طليوس وكشطوس وسادنيوس ، وكان يستشيرهم في جميع أموره ، وكان إذا جلس كل يوم في صحن داره واجتمع الناس عنده دخل من باب الدار ثلاثة غلمة في يد أحدهم جام من الذهب مملوء من المسك ، وفي يد الثاني جام من فضة مملوء من ماء الورد ، وعلى يد الثالث طائر فيصبح به فيطير الطائر حتى يقع في جام ماء الورد فيتمرغ فيه فينشف مافيه بريشه وجناحيه ثم يصبح به الثاني فيطير فيقع في جام المسك فيتمرغ فيه ، فينشف مافيه بريشه وجناحيه ، ثم يصبح به الثالث فيطير فيقع على تاج الملك ، فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بما فيه من المسك وماء الورد ، فكث الملك في ملكه ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداع ولا وجع ولا حمى ولا لعاب ولا بصاق ولا مخاط ؛ فلما رأى ذلك من نفسه عتا وطغى وتجبر واستعصى وادعى الربوبية من دون الله تعالى ، ودعا إليه وجوه قومه ، فكل من أجابه أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه ، ومن لم يجبه ويتابعه قتله ، فأجابوه بأجمعهم ، فأقاموا في ملكه زمانا يعبدونه من دون الله تعالى ؛ فبينما هو ذات يوم جالس في عيد له على سريره والتاج على رأسه إذ أتى بعض بطارقه فأخبره أن عساكر الفرس قد عشيته يريدون قتله فاغتم لذلك غما شديدا حتى سقط التاج عن رأسه وسقط هو عن سريره ، فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه إلى ذلك وكان عاقلا يقال له تملیخا ، فتفكر وتذكر في نفسه وقال : لو كان دقيانوس هذا إلها كما يزعم لما حزن ولما كان ينام ولما كان يبول ويتغوط وليست هذه الأفعال من صفات الإله ، وكانت الفتية الستة يكونون كل يوم عند واحد منهم ، وكان ذلك اليوم نوبة تملیخا ، فاجتمعوا عنده فأكلوا وشربوا ولم يأكل تملیخا ولم يشرب ، فقالوا : يا تملیخا مالك لا تأكل ولا تشرب ؟ فقال : يا إخواني وقع في قلبي شيء منعى عن الطعام والشراب والنمام ، فقالوا : وما هو يا تملیخا ؟ فقال : أطلت فكري في هذه السماء فقلت من رفعها سقفا محفوظا بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها ، ومن أجرى فيها شمسها وقمرها ، ومن زينها بالنجوم ؟ ثم أطلت فكري في هذه الأرض من سطحها على ظهر اليم الزاخر ، ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسي لئلا تميد ؟ ثم أطلت فكري في نفسي ، فقلت من أخرجني جنينا من بطن أمي ، ومن غذاني ورباني ، إن لهذا صانعا ومدبرا سوى دقيانوس الملك ؟ فانكبت الفتية على رجليه يقبلونهما وقالوا : يا تملیخا لقد وقع في قلوبنا ما وقع في قلبك فأشر علينا ، فقال : يا إخواني ما أجد لي ولكم حيلة إلا اهرب من هذا الجبار إلى ملك السموات والأرض ، فقالوا : الرأي ما رأيت ، فوثب تملیخا فابتاع تمرا بثلاثة دراهم ، وصرها في ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا ؛ فلما ساروا قدر ثلاثة أميال من المدينة قال لهم تملیخا : يا إخواناه قد ذهب عنا ملك الدنيا وزال عنا أمره

فانزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم ، لعل الله يجعل لكم من أمركم فرجا ومخرجا .
 فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبع فراسخ حتى صارت أرجلهم تقطر دما لأنهم
 لم يعتادوا المشي على أقدامهم ، فاستقبلهم رجل راع ، فقالوا : أيها الراعي أعندك شربة
 ماء أو لبن ؟ فقال : عندي ما تحبون ولكني أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم إلا هرابا
 فأخبروني بقصتكم ، فقالوا : يا هذا إنا دخلنا في دين لا يحل لنا الكذب أفينجينا الصدق ؟
 قال نعم ، فأخبروه بقصتهم ، فانكبَّ الراعي على أرجلهم يقبلها ويقول : قد وقع في قلبي
 ما وقع في قلوبكم ، فقفوا لي هنا حتى أردّ الأغنام إلى أربابها وأعود إليكم ، فوقفوا له
 فردها وأقبل يسعى ، فتبعه كلب له ؛ فوثب اليهودي قائما وقال : يا علي إن كنت عالما
 فأخبرني ما كان لون الكلب واسمه ؟ فقال : يا أخا اليهود حدثني حبيبي محمد صلى الله عليه
 وسلم أن الكلب كان أبلق بسواد ، وكان اسمه قطمير .

قال الأستاذ : اختلف العلماء في لون كلب أصحاب الكهف ، فقال ابن عباس : كان
 أتمر ؛ وقال مقاتل : كان أصفر ؛ وقال محمد بن كعب : كان من شدة حرته وصفرته
 يضرب إلى الحمرة ؛ وقال الكلبي : لونه كالثلج ، وقيل لون الحرة ، وقيل لون السماء .
 واختلفوا في اسمه أيضا ، فروى عن علي كرم الله وجهه أن اسمه ريان . وقال ابن عباس
 كان اسمه قطمير ، وهي إحدى الروايات عن علي ؛ وقال شعيب الجبائي : كان اسمه حمرا ؛
 وقال الأوزاعي : نتوى ؛ وقال مجاهد : قنطوريا ؛ وقال عبد الله بن سلام : بطيط ؛
 وقال كعب : كان أصهب واسمه تفي .

وأخبرنا ابن فتحويه بإسناده عن أبي حنيفة رضى الله تعالى عنه أن اسم كلبهم كان
 قطمور ، وقيل قطمير . أخبرني أبو علي الزهرى بإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى
 (مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) قال : أنا من أولئك القليل هم : مكسلمينا وتمليخا ومرطليوس
 وبينوس وساونوس ودانوس وكشيطوس وهو الراعي ، والكلب اسمه قطمير ، كلب أتمر
 فوق القلطي ودون الكركي . وقال محمد بن إسحاق : القلطي : الكلب الصغير ، وقال : مابني
 بنيسابور محدث إلا كتب عنى هذا الحديث ، وكتبه أبو عمرو الجبيري عنى .

رجعنا إلى الحديث . قال : فلما نظر الفتية إلى الكلب قال بعضهم لبعض : إنا نخاف
 أن يفضحنا هذا الكلب بنبيحه ، فألحوا عليه طردا بالحجارة ، فلما نظر إليهم الكلب وقد
 ألحوا عليه بالحجارة والطرده أقعى على رجليه وتمطى وقال بلسان طلق ذلك : يا قوم
 لم تطردوني وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دعوني أحرسكم من عدوكم .
 وأتقرب بذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، فركوة ومضوا . فصعد بهم الراعي جبلا وانحط
 بهم على كهف ، فوثب اليهودي وقال : يا علي ما اسم ذلك الجبل وما اسم الكهف ؟
 قال أمير المؤمنين : يا أخا اليهود اسم الجبل ناجوس ، واسم الكهف الوصيد وقيل خيرم .
 رجعنا إلى الحديث . قال : وإذا ببناء الكهف أشجار ورد وعين شجرة . فأكنوا من

الثمار وشربوا من الماء وجنهم الليل ، فأووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومد يديه عليه ، وأمر الله ملك الموت بقبض أرواحهم ، ووكل الله تعالى بكل رجل منهم ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال ، ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين .

قال ابن عباس : كانوا يقلبون في السنة مرة ، لثلاث أكل الأرض لحومهم ، ويقال إن يوم عاشوراء كان يوم تقلبهم . قال أبو هريرة : كان لهم في كل سنة تقلبتان .

رجعنا إلى الحديث . قال : وأوحى الله تعالى إلى الشمس فكانت (تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ) إذا طلعت (وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ) . فلما رجع الملك دقيانوس من عيده سأل عن الفتية ، فقيل له : إنهم اتخذوا لها غيرك ، وخرجوا هاربين منك ، فركب في ثمانين ألف فارس وجعل يقفو آثارهم ، حتى صعد الجبل وشارف الكهف ، فنظر إليهم مضطجعين فظن أنهم نيام ، فقال لأصحابه : لو أردت أن أعاقبهم بشيء ما عاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم ، فائتوني بالبنايين ، فأتى بهم ، فرموا عليهم باب الكهف بالحبس والحجارة ، ثم قال لأصحابه ، قولوا لهم يقولوا لإلههم الذي في السماء إن كانوا صادقين يخرجهم من هذا الموضع . فكثروا ثلاثمائة وتسع سنين ، فنفخ الله فيهم الروح وهووا من رقدتهم لما بزغت الشمس ، فقال بعضهم لبعض : لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله تعالى ، قوموا بنا إلى العين ، فإذا بالعين قد غارت ، والأشجار قد جفت ، فقال بعضهم لبعض : إنا من أمرنا هذا لني عجب ، مثل هذه العين قد غارت في ليلة واحدة ! ومثل هذه الأشجار قد جفت في ليلة واحدة ! فألقى الله عليهم الجوع ، فقالوا : أيكم يذهب بورقكم هذه إلى المدينة فليأتنا منها بطعام ، ولينظر أن لا يكون من الطعام الذي يعجز بشحم الخنازير ، وذلك قوله تعالى (فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا) أي أحل وأجود وأطيب ، فقال لهم تملينا : يا إخوتي لا يأتاكم أحد بالطعام غيري ، ولكن أيها الراعي ، ادفع إلى ثيابك وخذ ثيابي ، فلبس ثياب الراعي ومر ، وكان يمر بمواضع لا يعرفها وطريق ينكرها حتى أتى باب المدينة ، فإذا عليه علم أخضر مكتوب عليه : لا إله إلا الله عيسى روح الله ، صلى الله على نبينا وعليه وسلم ، فدانت الفتى بنظر إليه ويمسح عينيه ويقول أراني نأما ؛ فلما طال عليه ذلك دخل المدينة ، فمر بأقوام يتراءون الإنجيل ، واستقبله أقوام لا يعرفهم حتى انتهى إلى السوق ، فإذا هو بخباز ، فقال له : يا خباز ما اسم مدينتكم هذه ؟ قال : أفسوس ، قال : وما اسم ملككم ؟ قال : عبد الرحمن ، قال : تملينا إن كنت صادقاً فإن أمرى عجيب ، ادفع إلى بيده الدراهم طعاماً ، وكانت دراهم ذلك الزمان الأول ثقلاً كباراً ، فعجب الخباز من تلك الدراهم ؛ فرثب اليهودي وقال : يا علي إن كنت عالماً فأخبرني كم كان وزن الدرهم منها ؟ فقال : يا أخا اليهود أخبرني حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم أن وزن كل درهم منها عشرة دراهم

وثلاثا درهم ، فقال له الحجاز : يا هذا إنك قد أصبت كنزا ، فأعطني بعضه ، وإلا ذهبت بك إلى الملك ، فقال تمليخا : ما أصبت كنزا ، وإنما هذا من ثمن تمر بعته بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام ، وقد خرجت من هذه المدينة وهم يعبدون دقيانوس الملك ، فغضب الحجاز وقال : ألا ترضى إن أصبت كنزا أن تعطيني بعضه ، حتى تذكر رجلا جبارا كان يدعى الربوية قد مات منذ ثلثمائة سنة وتسخر بي ؟ ثم أمسكه واجتمع الناس ، ثم إنهم أتوا به إلى الملك ، وكان عاقلا عادلا ، فقال لهم : ما قصة هذا الفتى ؟ قالوا : أصاب كنزا ، فقال له الملك لا تخف فإن نبينا عيسى عليه السلام أمرنا أن لاناخذ من الكنوز إلا خمسها ، فادفع إلى خمس هذا الكنز وامض سالما ، فقال أيها الملك تثبت في أمرى ، ما أصبت كنزا ، وإنما أنا من أهل هذه المدينة ، فقال له : أنت من أهلها ؟ قال : نعم ، قال : أفتعرف فيها أحدا ؟ قال نعم ، قال : فسم لنا ، فسمى له نحوا من ألف رجل فلم يعرفوا منهم رجلا واحدا ، قالوا : يا هذا ما نعرف هذه الأسماء ، وليست هي من أسماء أهل زماننا ، ولكن هل لك في هذه المدينة دار ؟ فقال نعم أيها الملك ، فابعث معى أحدا ، فبعث معه الملك جماعة حتى أتى بهم دارا أرفع دار في المدينة ، وقال : هذه دارى ، ثم قرع الباب فخرج لهم شيخ كبير قد استرخى حاجباه من الكبر على عينيه ، وهو فزع مرعوب مذعور ، فقال : أيها الناس ما بالكم ؟ فقال له رسول الملك : إن هذا الغلام يزعم أن هذه الدار داره ، فغضب الشيخ والتفت إلى تمليخا وتبينه وقال له : ما اسمك ؟ قال : تمليخا بن فلسطين ، فقال الشيخ : أعد على ، فأعاد عليه ، فانكب الشيخ على يديه ورجليه يقبلهما وقاله : هذا جدتى ورب الكعبة ، وهو أحد الفتية الذين هربوا من دقيانوس الملك الجبار إلى جبار السموات والأرض ، ولقد كان عيسى عليه السلام أخبرنا بقصتهم وأنهم سيحيون ، فأتهى ذلك إلى الملك ، فركب الملك وأتى إليهم وحضرهم ، فلما رأى الملك تمليخا نزل عن فرسه وحمل تمليخا على عاتقه ، فجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويقولون له : يا تمليخا ما فعل بأصحابك ؟ فأخبرهم أنهم في الكهف وكانت المدينة قد وليها رجلان ، ملك مسلم ، وملك نصراني ، فركبا في أصحابهما وأخذا تمليخا ، فلما صاروا قريبا من الكهف قال لهم تمليخا : يا قوم إني أخاف أن إخواني يحسون بوقع حوافر الخيل والدواب وصلصلة اللجم والسلاح ، فيظنون أن دقيانوس قد غشيم فيموتون جميعا ، فقفوا قليلا حتى أدخل إليهم فأخبرهم ، فوقف الناس ودخل عليهم تمليخا ، فوثب إليه الفتية واعتنقوه وقالوا : الحمد لله الذى نجاك من دقيانوس ، فقال : دعوني منكم ومن دقيانوس (كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) قال : بل لبثتم ثلثمائة وتسع سنين ، وقد مات دقيانوس وانقرض قرن بعد قرن ، وآمن أهل المدينة بالله العظيم ، وقد جاءوكم ، فقالوا له : يا تمليخا تريد أن تصيرنا فتنه للعالمين ؟ قال : فإذا تريدون ؟ قالوا : ارفع يديك وازرع أيدينا ، فرفعوا أيديهم وقالوا : اللهم بحق ما أربتنا من العجائب

في أنفسنا إلا قبضت أرواحنا ولم يطلع علينا أحد ، فأمر الله ملك الموت فقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف ، وأقبل الملكان يطوفان حول الكهف سبعة أيام فلا يجدان له بابا ولا منفذا ولا مسلكا ، فأيقنا حينئذ بلطيف صنع الله الكريم ، وأن أحوالهم كانت عبرة أراهم الله إياها ، فقال المسلم : على ديني ماتوا ، أنا أبني على باب الكهف مسجدا ، وقال النصراني : بل ماتوا على ديني ، فأنا أبني على باب الكهف ديرا ، فاقتتل الملكان ، فغلب المسلم النصراني ، فبنى على باب الكهف مسجدا ، فذلك قوله تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) وذلك يا يهودي ما كان من قصتهم . ثم قال على كرم الله وجهه لليهودي : سألتك بالله يا يهودي أوافق هذا ما في توراتكم ؟ فقال اليهودي : ما زدت حرفا ولا نقصت حرفا يا أبا الحسن ، لاتسمنى يهوديا فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنت أعلم هذه الأمة .

وقال عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب ، وكان معهم كلب صيدهم ، فخرجوا في عيد لهم عظيم في زى وموكب ، وأخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، فخذف الله في قلوبهم الإيمان ، وكان أحدهم وزير الملك ، فأمنوا وأخفى كل واحد منهم الإيمان عن صاحبه ، فقاتلوا في أنفسهم من غير أن يظهر بعضهم لبعض : نخرج من بين أظهر هؤلاء القوم لثلا يصيبنا عقاب يجرهمهم : فخرج شاب منهم حتى انتهى إلى ظل شجرة فجلس فيه ، ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده ، فرجا أن يكون على مثل أمره من غير أن يظهر ذلك فجلس إليه ثم خرج الآخرون فجاءوا فجلسوا إليهم واجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ما جمعكم وكل واحد يكتم عن صاحبه إيمانه مخافة على نفسه ، ثم قالوا لبعضهم : ليخرج كل فتين منكم فيخلوا ثم ليفش كل واحد منكم أمره إلى صاحبه ، فخرج فتيان منهم فتواقفا ثم تكلما ، فذكر كل واحد منهما أمره لصاحبه ، فأقبلا وهما مستبشران إلى أصحابهما فقالا : قد اتفقنا على أمر واحد وإذا هم جميعا على الإيمان ، وإذا كهف في الجبل قريب منهم ، فقال بعضهم لبعض : (فأؤوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيدهم ، فناموا ثلاث مئة وتسع سنين . قال : وقد هم قومهم فطلبوهم ، فعسى الله عليهم آثارهم وكهفهم ؛ فلما لم يقدروا عليهم كتبوا أسماءهم وأنسابهم وكتبوا في لوح فلان وفلان أبناء ملوكتنا ، فقدناهم في يوم كذا في شهر كذا من سنة كذا في مملكة فلان بن فلان ، ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا : ليكونن لهذا شأن ، ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن .

وأخبرنا الحسن بن الحسين الثقفي بإسناده عن أبي جعفر الباقر قال : كان أصحاب الكهف صبارفة !

وقال وهب بن منبه : جاء حوارى من أصحاب عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف ، فأراد أن يدخلها ، فقيل له إن على بابها صنما لا يدخلها أحد إلا سجد له ، فكره أن يدخلها ، فأتى إلى حمام قريب من تلك المدينة وأجر نفسه من الحمامى وكان يعمل فيه ؛ فرأى صاحب الحمام في حمامه البركة ودرّ عليه الرزق ، فجعل يقوم عليه وتعلق به فتية من أهل المدينة ، فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدّقوه ، وكانوا على مثل حاله في حسن الهيئة ، وكان يشترط على صاحب الحمام أن الليل لى لا يحول بينى وبينه أحد ، فيصلى ، فكان على ذلك الحال حتى أتى ابن الملك الحمام بامرأة ، فدخل بها الحمام ، فعيره بها الحوارى وقال له : أنت ابن الملك وتدخل مع هذه ؟ فاستحيا ابن الملك وذهب ، ثم رجع مرة أخرى ، فقال له مثل ذلك ، فسبه وانتهره ولم يلتفت إليه ، ثم إنهما دخلا فماتا جميعا في الحمام ، فأتى الملك وقيل له : قتل صاحب الحمام ابنك ، فالتمس فلم يقدر عليه ، فقال من كان بصحبته ؟ فسموا الفتية ، فالتمسوا فخرجوا من المدينة ، ففروا بصاحب لهم في زرع ، وهو على مثل إيمانهم ، فذكروا أنهم التمسوا ، فانطلق معهم ومعه كلبه حتى آواهم الليل إلى الكهف ، فدخلوا وقالوا : نبيت ههنا الليلة ثم نصبح إن شاء الله تعالى فترون رأيكم ، فضرب الله على آذانهم ، فخرج الملك في أصحابه يطلبونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف ، وكان كلما أراد الرجل منهم أن يدخل الكهف أربع ، فلم يطق أحد أن يدخله ، فقال قائل : أليس لو كنت قدرت عليهم قتلهم ؟ قال : بلى ، قال : فابن عليهم باب الكهف واطركهم فيه يموتوا عطشاً وجوعاً ، ففعل ذلك . قال وهب : فتركهم بعد ما سدوا عليهم باب الكهف ومضى زمان بعد زمان ، ثم إن راعياً أدركه المطر عند باب الكهف ، فقال : لو فتحت باب هذا الكهف فأدخلت فيه غنمى من المطر ؟ فلم يزل يعالجه حتى فتح الباب ورد الله إليهم أرواحهم من الغد حين أصبحوا .

وقال محمد بن إسحاق : مرّ ج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى هبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت ، وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله تعالى وتوحيده ، فكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس كان عبد الأصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه في ذلك ممن أقام على دين المسيح ، وكان ينزل قرى الروم ، فلا يترك في قرية نزلها أحداً يدين دين المسيح إلا قتله ، حتى نزل مدينة أصحاب الكهف وهي أفسوس ؛ فلما نزلها كبر ذلك على أهل الإيمان فاستخفوا منه وهربوا في كل ناحية ، وكان دقيانوس قد أمر حين دخلها أن يتبع أهل الإيمان فيجمعوا إليه ، واتخذ شرطاً من كفار أهلها وجعلوا يتبعون أهل الإيمان في أماكنهم فيخرجونهم إلى دقيانوس ، فيقدمهم إلى الجامع الذى بذبح فيه للطواغيت ، فيخبرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان والذبح للطواغيت ؛ فن القوم من يرغب في الحياة ، ومنهم من يابى أن يعبد غير الله

سبحانه وتعالى فيقتل . فلما رأى ذلك أهل الشدة في الإيمان بالله جعلوا يسلمون أنفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ثم يقطعون ، ويربط ما قطع من أجسامهم على سور المدينة من نواحيها كلها ، وعلى كل باب من أبوابها حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان ، فمنهم من أقر فترك ، ومنهم من صلب على دينه وقتل . فلما رأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا ، فقاموا وصلوا واشتغلوا بالتسبيح والتقديس والدعاء ، وكانوا من أشرف الروم ، وكانوا ثمانية نفر ، فبكوا وتضرعوا وجعلوا يقولون (رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطْنَا) ربنا اكشف عن عبادك المؤمنين الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء ، وأنعم على عبادك الذين آمنوا بك . فبينما هم على ذلك إذ أدركهم الشرط ، وكانوا قد دخلوا في مصلى لهم ، فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى ويسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفتنته ، فلما رأهم أولئك الكفرة قالوا لهم : ما خلفكم عن أمر الملك انطلقوا إليه ، ثم خرجوا من عندهم ورفعوا أمرهم إلى دقيانوس ، فقالوا : نجمع الجميع وهؤلاء الفتية من أهل بيتك يسخرون منك ويعصونك ؟ فلما سمع ذلك أتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم في التراب ، فقال : ما منعكم أن تشهدوا الذبح للآلهة التي نعبد في الأرض ، وأن تجعلوا أنفسكم كغيركم ؟ ثم إنهم خيروا إما أن يذبحوا لآلهتهم كما ذبح غيرهم من الناس ، وإما أن يقتلهم الملك ، فقال مكسلمينا وكان أكبرهم : إن لنا إلهاملا السموات والأرض عظمة لن ندعو من دونه إله أبدا ، ولن نقر بهذا الذي تدعوننا إليه أبدا ، ولكننا نعبد ربنا الذي له التحميد والتكبير والتسبيح والتقديس من أنفسنا خالصا أبدا ، إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير ، وأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا ، فاصنع بنا ما بدا لك ، ثم قال أصحاب مكسلمينا لدقيانوس مثل ما قال له . فلما قالوا له ذلك أمر بهم فززع ملبوسا كان عليهم من ملبوس أعظماهم ثم قال لهم : إنكم إذا فعلتم ما فعلتم فإني سأؤخركم وأنفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة ، وما ينبغي أن أعجل لكم ذلك لأنني أراكم شبابا حديثة أسنانكم ، فلا أحب أن أهلكم حتى أجعل لكم أجلا فتراجعوا فيه عقولكم ، ثم أمر بحلية كانت معهم من ذهب وفضة فزعت عنهم ، ثم أمر بهم فأخرجوا من عنده ، وانطلق دقيانوس إلى مدينة سوى مدينتهم التي هم بها قريبة منهم لبعض أموره . فلما رأى الفتية أن دقيانوس قد خرج من مدينتهم بادروا قدومه وخافوا إذا قدم مدينتهم أن يذكرهم ، فأتمروا أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ، ثم ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له ناجلوس فيسكنون فيه ويعبدون الله تعالى ، حتى إذا قدم دقيانوس أتوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما يشاء . فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، عمد كل فتى منهم إلى بيت أبيه وأخذ نفقة فتصدقوا منها وانطلقوا بما بقي معهم من نفقتهم ، واتبعهم كلب

كان لأحدهم حتى أتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه . وقال ابن عباس : هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب على دينهم . وقال كعب : مروا بكلب فتبعهم ، فطردوه فنبج عليهم ، ففعلوا ذلك مرارا ، فقال لهم الكلب : ما تريدون مني لا تخشوا جانبي فإنني أحب أحب الله فناموا حتى أحرسكم .

رجعنا إلى حديث ابن إسحاق : فلبثوا في ذلك الكهف ليس لهم عمل إلا الصلاة والصيام والتسبيح ، وجعلوا نفقتهم إلى قتي يقال له تمليخا ، فكان يبتاع لهم من المدينة طعامهم سرا وكان من أجلدتهم وأجملهم ، فكان تمليخا يصنع ذلك ، فإذا دخل المدينة يضع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين الذين يستطعمون فيها ، ثم يأخذ درهما فينطلق إلى المدينة فيشترى طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل يذكرونهم بشيء ، ثم يرجع إلى أصحابه ، فلبثوا كذلك ما لبثوا ، ثم قدم دقيانوس المدينة ، فأمر العظماء فذبجوا للطواغيت ، ففرغ من ذلك أهل الإيمان ، وكان تمليخا بالمدينة يشترى طعاما ، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام ، فأخبرهم أن دقيانوس دخل المدينة ، وأنهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ليدبجوا للطواغيت . فلما أخبرهم بذلك فرعوا ووقعوا سجدا يدهون الله تعالى ويتضرعون إليه ويتعوذون به من الفتنة ، ثم إن تمليخا قال لهم : يا إخوتاه ارفعوا رءوسكم فاطعموا منه وتوكلوا على ربكم ، فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض من الدمع حزنا على أنفسهم فطعموا منه وذلك عند غروب الشمس ، ثم جلسوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا ، فبينما هم كذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف ، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف ، فأصابه ما أصابهم . فلما كان من الغد تفقدتهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم ، فقال لبعض قومه : لقد ساء في شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا يحسبون أنني غضبان عليهم بجهلهم ماجهلوا من أمرى ، فإنني لا أغضب عليهم إن تابوا وعبدوا آلهتى ، فقال عظماء المدينة : ما أنت بحقيق أن ترحم قوما مردة عصاة مقبمين على ظلمهم ومعصيتهم ، قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا في ذلك الأجل ولكنهم لم يتوبوا ، فلما قالوا له ذلك غضب غضبا شديدا ، ثم أرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم وقال : أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني ، فقالوا : أما نحن فلم نعصك ولا تقلتنا بقوم مردة وإنهم خالفونا وانطلقوا إلى جبل يسمى ناجلوس ، فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل لا يدري ما يصنع بالفتية ، فالتقى الله في نفسه أن يأمر بالكهف فيسد عليهم ، وأراد الله أن يكرمهم ويجعلهم آية لامة تستخلف بعدهم ، وأن يبين لهم (أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) فأمر دقيانوس بالكهف أن يسد وقال : دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعا وعطشا ، وليكن كهفهم الذي اختاروه قبرا لهم ، وهو يظن أنهم أيقاظ يعلمون ما يصنع بهم ، وقد توفي الله أرواحهم وفاة النوم

وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد بباب الكهف وقد غشيه ما غشبهم ، يقبلون ذات اليمين وذات الشمال :

قال ثم إن رجلين مؤمنين كانا في بيت الملك دقيانوس يكتبان إيمانها اسم أحدهما تندروس والآخر روباس ، ائتمرا أن يكتبا شأن الفتية وأنسابهم وخبرهم في لوح من رصاص ويجعله في تابوت من نحاس ويجعل التابوت في البنيان وقالوا : لعل الله أن يطلع على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة ، فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا اللوح ، ففعلوا ذلك وبنوا عليه . فبقي دقيانوس ما بقي ومات قومه ومات قرون بعده كثيرة ، وخلفت الملوك بعد الملوك ، ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له تندوسيس ؛ فلما ملك بقي في ملكه ثمانية وثمانين سنة ، فتحزب الناس في ملكه أحزابا ، منهم من يؤمن بالله العظيم ويعلم أن الساعة حق ، ومنهم من يكذب بها ، فكبر ذلك على الملك الصالح ، فشكا إلى الله وتضرع إليه وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق وأنهم يقولون : لا حياة إلا الحياة الدنيا ، وإنما تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، وأما الجسد فيأكله التراب ونسوا ما في الكتاب ، فجعل الملك تندوسيس يرسل إلى من كان يظن فيه خيرا ، وإنهم كانوا أئمة الحق ، فجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا أن يحولوا الناس عن الحق وملة الحواريين ؛ فلما رأى الملك الصالح ذلك دخل بيته فأغلقه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا ، فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبيكى مما يرى فيه الناس ويقول : أي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية ، ثم إن الرحمن الرحيم جل وعز الذي يكره اختلاف العباد أراد أن يظهر لهم الفتية أصحاب الكهف ، ويبين للناس شأنهم فيجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأنه يستجيب لعبده الصالح تندوسيس وأنه يتم نعمته عليه ولا ينزع منه ملكه ولا الإيمان الذي أعطاه ، وأن لا يعبد إلا الله ولا يشرك به شيئا ، وأن يجمع من كان تبدد من المؤمنين ، فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي به الكهف ، وكان اسم ذلك الرجل أولياس أن يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف ، فبنى به حظيرة لغنمه ، فاستأجر عاملين ، فجعلوا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعوا ما على فم الكهف وفتحوا عليهم باب الكهف وحجبتهم الله عن الناس ، فيزعمون أن بُشجع من يريد أن ينظر إليهم يدخل من باب الكهف ثم يتقدم حتى يرى كلهم نائما ؛ فلما نزع الحجارة وفتح باب الكهف أذن الله تعالى ذو القدرة والعظمة والسلطان محيي الموتي للفتية أن يجلسوا بين ظهرائي الكهف ، فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم ، فسلم بعضهم على بعض حتى كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون منها إذا أصبحوا من ليلتهم التي يبيتون بها ؛ ثم إنهم قاموا إلى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون ، لا يرون في وجوههم ولا أبقارهم

ولا ألوانهم شيئا ينكرونه ، إنما هم كهيبتهم حين رقدوا ، يرون أن ملكهم دقيانوس في طلبهم . فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقاتهم : بين لنا ما الذي قال الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار ، وهم يظنون أنهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون ، وقد خيل لهم أنهم قد ناموا كأطول ما كانوا ينامون في الليلة التي أصبحوا بها حتى تساءلوا بينهم ، فقال بعضهم لبعض : (كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) وكل ذلك في أنفسهم يسير ، فقال لهم تمليخا : التمس في المدينة لتذبحوا للطواغيت أو تقتلوا ، قالوا : فما شاء الله بعد ذلك فعل ، فقال مكسلينا : يا إخوتاه اعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم غدا ، ثم قالوا : يا تمليخا انطلق إلى المدينة فتسمع ما يقال عنا بها اليوم وتلطف ولا تشعرن بك أحدا ، وابتغ لنا طعاما واثنا به ، وزدنا على الطعام الذي جئنا به أمس فانه كان قليلا وقد أصبحنا جباعا ، ففعل تمليخا كما كان يفعل ، ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها ، ثم أخذ ورقا من نفقاتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربيع ، فانطلق تمليخا خارجا ، فلما مر بباب الكهف رأى حجارة مزروعة عن باب الكهف فتعجب منها ، ثم مر حتى أتى باب المدينة مستخفيا بعيدا عن الطريق تخوفا أن يراه أحد من أهلها فيعرفه ، فيذهب به إلى دقيانوس الجبار ، ولا يشعر العبد الصالح أن دقيانوس وأهله قد هلكوا قبل ذلك بثلاث مئة سنة ؛ فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة لأهل الإيمان ، فلما رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيا ، فنظر يمينا وشمالا ، ثم إنه ترك ذلك الباب وتحول إلى باب آخر من أبوابها ، فنظر فرأى مثل ذلك ، فجعل يتخيل له أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ، ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكونوا قبل ذلك ، فجعل يمشى ويتعجب ويخيل إليه أنه حيران ، ثم إنه رجع إلى الباب الذي أتى منه ، فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول : ليت شعري ، أما هذه عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها ، وأما اليوم فإنها ظاهرة لعلي حالم ، ثم يرى أنه لم ينم ، فأخذ كساءه وجعله على رأسه ، ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين أظهر أهل سوقها ، وهو يسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم ، فزاده فرقا ورأى أنه حيران ، فقام مسندا ظهره إلى جدران المدينة وهو يقول في نفسه : والله ما أدري ما هذا ، أما عشية أمس فليس على الأرض أحد يذكر عيسى إلا قتل ، وأما الغداة فأسمع كل إنسان يذكر عيسى ولا يخشى ، ثم قال في نفسه : لعل هذه المدينة ليست بالمدينة التي أعرفها ، فاني أسمع كلام أهلها ولا أعرف واحدا منهم ، والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا ، فقام كالحيران لا يتوجه وجهها ، ثم إنه لقي فتى من أهل المدينة ، فقال له : ما اسم هذه المدينة يا فتى ؟ فقال : أفسوس ، فقال في نفسه : لعل بي مسا أو أمرا أذهب عقلي ، والله يحق لي أن أبادر

الخروج منها قبل أن يصيبني شر فأهلك. هذا ما يحدث به تملیخا أصحابه حتى بين لهم ما هم فيه ، ثم أفاق وقال : والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفتن بي لكان أكيس لي ، فدنا من الذين يبيعون الطعام ، ثم أخرج الورق التي كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال : يا عبد الله بعني بهذه طعاما ، فأخذها الرجل ونظر إلى ضرب الورق ونقشها فتعجب منها ثم طرحها إلى رجل من أصحابه ، فنظر إليها ، ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل إلى رجل فيتعجبون منها ، ثم جعلوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد أصاب كنزا في الأرض منذ زمان طويل ، فلما رأهم يتشاورون من أجله فرق فرقا شديدا ، فجعل يرتعد ويظن أنهم قد فطنوا به وعرفوه ، وأنهم إنما يريدون أن يذهبوا به إلى ملكهم دقيانوس . قال : وجعل أناس آخرون يأتونه ويتعرفونه ، فقال لهم وهو شديد الفرق : انفصلوا قد أخذتم ورفق فأمسكتموها فلا حاجة لي في طعامكم ، فقالوا : يا فتى من أنت وما شأنك ؟ والله لقد وجدت كنزا من كنوز الأولين ، فأنت تريد أن تخفيه منا انطلق معنا وأرنا مكانه وشاركنا فيه نحف عليك ما وجدت ، فإنك إن لم تفعل نأت السلطان ونسلمك إليه . فلما سمع قولهم عجب في نفسه ثم قال : قد وقعت في كل شيء كنت أحذر منه ، ثم قالوا : والله يا فتى إنك لا تستطيع أن تكتم ما وجدت ، ولا تظن في نفسك أن سنخى عليك ، فتحير في نفسه وليس يدرى ما يقول لهم وما يرجع إليهم ؟ وفرق حتى ما يخبرهم بشيء ؛ فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه وطوقوه في عنقه ، ثم جعلوا يقودونه في سكك المدينة مكبلا حتى سمع به من فيها ، وقيل أخذ رجل عنده كنز ، فاجتمع عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجعلوا ينظرون إليه ويقولون : والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناها فيها قط وما نعرفه ، فجعل تملیخا ما يدرى ما يقول لهم مع ما يسمع منهم . فلما اجتمع عليه أهل المدينة فرّق ولم يتكلم ، ولو قال إنه من أهل المدينة لم يصدق ، وكان مستيقنا أن أباه وإخوته في المدينة ، وأن حسبه في أهل المدينة من عظماء أهلها وأنهم سيأتونه إذا سمعوا ، وقد استيقن أنه في عشية أمس كان يعرف كثيرا من أهلها ، وأنه لا يعرف اليوم من أهلها أحدا ؛ فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم ، فبينما هو كذلك إذ قد اختطفوه وانطلقوا به إلى رئيسي المدينة ومديريها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما أرموس واسم الآخر أسطيوس ؛ فلما انطلقوا به ظن تملیخا أنهم انطلقوا به إلى دقيانوس الملك ، فجعل يلتفت يمينا وشمالا ، وجعل الناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون والحيران ، فجعل تملیخا يبكي ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السموات والأرض أفرغ عليّ اليوم صبرا ، وأولج معي روحا منك تؤيدني به عند هذا الجبار ، وجعل يبكي ويقول في نفسه : فرق بيني وبين إخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت فيأتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فإننا قد توافقنا لنكوننّ معا

لانكفر بالله ولا تفرق في موت ولاحياة أبدا ، يا ليت شعري ما هو فاعل بي ، هل هو قاتلي أم لا ؟ هذا ما حدث به تملیخا أصحابه عن نفسه حين رجع إليهم . فأنتهى به إلى الرجلين الصالحين أرموس وأسطيوس . فلما علم تملیخا أنه لم يذهب إلى دقيانوس أفاق وسكن ما به فأخذ أرموس واسطيوس الورق ونظرا إليها وعجبا منها ، ثم قال أحدهما : أين الكنز الذي وجدت يا فتى ؟ فقال : ما وجدت كنزا ، وإنما هذه الورق ورق آباءى ونقش هذه المدينة وضربها ، ولكن والله ما أدري ما شأنى وما أدري ما أقول لكم ؟ فقال أحدهما : من أنت ؟ فقال له : تملیخا ، قال : فن أبوك ومن يعرفك بها ؟ فأنبأهم باسم أبيه ، فلم يجدوا أحدا يعرفه ، فقال له أحدهما : أنت رجل كذاب لاتنبئنا بالحق ، فلم يدر تملیخا ما يقول غير أنه نكس بصره إلى الأرض ، فقال بعض من حضر : هذا رجل مجنون ، وقال بعضهم : ليس بمجنون ولكنه يحقق نفسه عمدا لكي ينفلت منكم ، فقام أحدهما ونظر إليه نظرا شديدا وقال له : أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ، ولضرب هذه الورق ونقشها أكثر من ثلاث مئة سنة وأنت غلام شاب تظن أن تأفكنا وتسخر بنا ونحن شتمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة وولاية أمرها وخزائن هذه البلدة بأيدينا ، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار ؟ لأعذبك عذابا شديدا ، ثم أوثقتك حتى تعرفنى هذا الكنز الذى وجدت ، فاما قال له ذلك قال له تملیخا : أنبئونى عن شىء أسألكم عنه ، فإن فعلتم صدقتكم عما عندى ، فقالوا سل لا نكتمك شيئا ، قال ما فعل بالملك دقيانوس ؟ قالوا : ليس نعرف اليوم على وجه الأرض ملكا يسمى دقيانوس ، ولم يكن إلا ملكا قد هلك منذ دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة ، فقال له تملیخا : فوالله ما أجد من الناس أحدا يصدقنى على ما أقول ، لقد كنا فتية وإن الملك دقيانوس أكرهنا على عبادة الأصنام والذبح للطواغيت ، فهربنا منه عشية أمس فبتنا ، فلما انتهينا خرجت لأشترى لأصحابى طعاما وأنجس الأخبار فإذا أنا كما ترون ، فانطلقوا معى إلى الكهف الذى فى جبل ناجلوس أريكم أصحابى ، فلما سمع أرموس ما يقول تملیخا قال : يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها لكم عبرة على يد هذا الفتى ، فانطلقوا بنا معه يرينا أصحابه ، فانطلق معه أرموس وأسطيوس وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا إليهم . وكان الفتية أصحاب الكهف ظنوا أن تملیخا قد احتبس عنهم لأنه لم يأتهم بطعامهم وشرابهم فى القدر الذى كان يأتى فيه ، فظنوا أنه قد أخذ وذهب به إلى دقيانوس . فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة عندهم ، فظنوا أنهم رسل الجبار وأنه بعث إليهم ليؤتى بهم ، فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض ، ثم قالوا : انطلقوا بنا نأت أخانا تملیخا فإنه الآن بين يدي دقيانوس ينتظر متى نأتبه ، فبينما هما يقولون ذلك وهم جلوس بين ظهراى الكهف لم يشعروا إلا وأرموس وأصحابه وقوف على باب الكهف

وقد سبقهم تملیخا ، فدخل عليهم وهو يبکی ؛ فلما رأوه يبکی بكوا معه ، ثم إنهم سألوه عن شأنه فأخبرهم بنجبه وقص عليهم الحديث كله ، فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نیاما بأمر الله ذلك الزمان كله ، وإنما أوقفوا لیکونوا آية للناس وتصديقا للبعث ، ولیعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ثم دخل على أثر تملیخا أرموس فرأى تابوتا من نحاس محتوما بنحتم من فضة فقام بیاب الكهف ثم دعا رجالا من عظماء أهل المدينة ، ففحتوا التابوت فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فیهما : إن مكسلبينا و تملیخا ومرطونس وكشطونش ودایسوس وتكربوس وبطيونس كانوا فتية هربوا من ملكهم دقیانوس الجبار مخافة أن یفتنهم ، فدخلوا هذا الكهف ، فلما علم مكانهم ملكهم أمر بالكهف فسدت عليهم بالحجارة ، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم لیعلم من بعدهم إن عثر عليهم ، فلما قرءوا عجبوا وحمدوا الله تعالى الذی أراهم آية البعث فیهم ، ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسیبحه ، ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا وجوههم مشرقة لم تبیل ثيابهم ، فخرت أرموس وأصحابه سجودا وحمدوا الله الذی أراهم آية من آیاته ، ثم کلم بعضهم بعضا وأنبأهم الفتية عن الذی لقوا من ملكهم دقیانوس ، ثم إن أرموس وأصحابه بعثوا إلى ملكهم الصالح تندوسیس فاعجل لعلک تنظر آية من آیات الله تعالى قد أظهرها الله فی ملکک ، فاعجل إلى فتية بعثهم الله ، وقد كان توفاهم منذ أكثر من ثلاث مئة سنة ؛ فلما أتاه الخبر قام من السدة التي كان عليها ، وقال : أحمدك اللهم رب السموات والأرض ، تطولت علی ورحمتی برحمتک ، فلم تطفى النور الذی جعلته لآبائی وللعبد الصالح فسطیطوس الملك . فلما نبأ به أهل المدينة ركبوا إليه وساروا معه حتى أتوا الكهف . فلما رأى الفتية تندوسیس الملك ومن معه فرحوا به وخرّوا سجدا لله علی وجوههم ، وقام تندوسیس قدامهم ثم اعتنقهم وبکی وهم جلوس بین یدیه علی الأرض یسبحون الله ویحمدونه . ثم إن الفتية قالت لتندوسیس : نستودعک الله ونقرأ علیک السلام وحفظک الله وحفظ ملکک وأعاذک من شر الجن والإنس ؛ فبینما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا ، وتوفی الله أرواحهم وقام الملك إليهم فجعل ثیابه علیهم ، وأمر أن یجعل لكل رجل منهم تابوت من ذهب . فلما أمسوا أتوه فی المنام فقالوا : إننا لم نخلق من ذهب ولا من فضة ، ولكننا خلقنا من تراب فإلی التراب نصیر ، فتركنا كما كنا فی الكهف علی التراب حتى یبعثنا الله منه ، فأمر الملك حیثذ بتوايیت من ساج فجعلوا فیها وحجیهم الله حین خرجوا عندهم بالرعب ، فلم یقدر أحد أن یدخل علیهم ، وأمر الملك فجعل علی باب الكهف مسجدا یصلی فیہ ، وجعل لهم عیدا عظیما ، وأمر أن یؤتی كل سنة . وقیل إنهم لما أتوا باب الكهف قال تملیخا : دعونی أدخل علی أصحابی فأبشرهم ، فدخل علیهم وقبض الله روحه وأرواحهم وعمی علیهم مكانهم فلم یهتدوا إليه كما ذکر علی بن أبی طالب كرم الله وجهه . فهذا خبر أصحاب الكهف .

ويروى ه أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يراهم ، فقال : : إنك لن تراهم في دار الدنيا ، ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : كَيْفَ أَبْعَثُهُمْ ؟ قال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر ، وعلى الثاني عمر ، وعلى الثالث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وعلى الرابع أبا ذر ، ثم ادع الريح الرخاء المسخرة لسليمان ابن داود ، فان الله أمرها أن تطيعك ، ففعل النبي عليه الصلاة والسلام ما أمره به ، فحملتهم الريح حتى انطلقت بهم إلى باب الكهف ؛ فلما دنوا من باب الكهف قلعوا منه حجرا ، فقام الكلب حين أبصر الضوء وهراً وحمل عليهم ؛ فلما رآهم حرك رأسه وبصيص بذنبيه وأوما برأسه أن ادخلوا الكهف ، فدخلوا وقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد الله عليهم أرواحهم ، فقاموا بأجمعهم وقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقالوا : إن نبي الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ، فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما بلغتم ، ثم إنهم جلسوا بأجمعهم يتحدثون ، فأمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقبلوا دين الإسلام وقالوا : أقرئوا محمدا صلى الله عليه وسلم منا السلام ؛ ثم إنهم أخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدي ، فيقال إن المهدي يسلم عليهم فيحييهم الله تعالى له ، ثم إنهم يرجعون إلى رقدتهم فلا يقومون إلى يوم القيامة ؛ ثم جلس كل واحد منهم على مكانه وحملتهم الريح الرخاء ، فهبط جبريل عليه السلام فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما كان منهم ؛ فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال : كَيْفَ وَجَدْتُمُوهُمْ ، وَمَا الَّذِي أَجَابُوكُمْ ؟ فقالوا : يا رسول الله دخلنا عليهم وسلمنا عليهم ، فقاموا فردوا السلام بأجمعهم ، وبلغناهم رسالتك فأجابوا وأنابوا ، وشهدوا أنك رسول الله حقا ، وحمدوا الله على ما أكرمهم بخروجك وتوجيه رسلك إليهم ، وهم يقرءون عليك السلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : اللَّهُمَّ لَا تُفَرِّقْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَصْحَابِي وَأَحِبَّائِي وَاغْفِرْ لِمَنْ أَحَبَّنِي وَأَحَبَّ أُمَّتِي وَأَحَبَّ أَصْحَابِي .

مجلس : في ذكر جرجيس عليه السلام

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الضبي بإسناده عن وهب بن منبه اليماني قال : كان في الموصل ملك يقال له زادانه ، وكان قد ملك الشام كلها ودان له أهلها ، وكان جبارا

(١) قوله فحملتهم الريح الخ : هذا معارض لقوله تعالى (رب هب لي ملكا لا ينبغي

لأحد من بعدى) فليتنبه .

عاتيا ، وكان يعبد صنما يقال له أفلون ، وكان جرجيس عبدا صالحا من أهل فلسطين قد أدرك بقايا من حواربي عيسى بن مريم عليه السلام ، وكان تاجرا كثير المال عظيم الصدقة ، وكان لا يأمن ولاية المشركين عليه ، مخافة أن يفتنوه عن دينه ، فخرج يوما يريد ملك الموصل ومعه مال يريد أن يهديه إليه لئلا يجعل لأحد من تلك الملوك سلطانا عليه دونه ، فجاءه وقد برز في مجلس له ، وأمر بصنمه أفلون فنصب والناس يعرضون عليه ، وهو يعذب من خالفه بأنواع العذاب ، وقد أوقد نارا عظيمة ، فمن لم يسجد لأفلون ألقى في تلك النار ؛ فلما رأى جرجيس عليه السلام ما يصنع فرع منه وهاله وأعظمه ، وحدث نفسه بجهاده ، وألقى الله في نفسه بغضه ومجاهدته ، فعمد إلى المال الذي أراد أن يهديه له ، فقسمه في أهل ملته حتى لم يبق منه شيء ، وكره أن يجاهده بالمال وأحب أن يلي ذلك بنفسه ، فأقبل عليه وقال له : اعلم أنك عبد مملوك لا تملك لنفسك شيئا ولا لغيرك ، وأن لك ربا هو الذي يملكك وغيرك ، وهو الذي خلقك ورزقك ويميتك ويضرك وينفعك ، وإذا قال لشيء كن يكون ، وإنك إنما عمدت إلى خلق من خلقه أصم لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق ولا يغني عنك شيئا من الله ، فزينته بالذهب والفضة وجعلته فتنة للناس ثم عبدته من دون الله ، فكان من جواب الملك له أن سأله عن حاله وأمره ومن هو ومن أين هو ؟ فقال جرجيس : أنا عبد الله وابن عبده وابن أمته ، أذل عباده وأفقرهم إليه ، من التراب خلقت وإليه أصير ، فقال له الملك : لو كان ربك الذي تزعم كما تقول لرؤى أثره عليك كما رؤى أثرى على من حولي ومن هو في طاعتي ، فأجابه جرجيس بتحميد الله وتعظيم أمره ، ثم قال له : أتعدل أفلون الأصم الأبكم الذي لا يغني عنك شيئا برب العالمين الذي قامت السموات والأرض بأمره ؟ أم تعدل طوفليا وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بما نال إلياس من ولاية الله تعالى ، فإن إلياس كان في بدء أمره آدميا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فأكرمه الله تعالى حتى أنبت له الريش وكساه النور فصار إنسيا ملكيا سماويا أرضيا يطير مع الملائكة ؟ أم تعدل مخلطيس وما نال بولايتك فإنه عظيم قومك بالمسيح بن مريم ، وما نال بولاية الله تعالى ، فإن الله تعالى فضله على رجال العالمين ، وجعله وأمه آية للمعتبرين ؟ أم تعدل هذه الروح الطيبة التي اختارها الله بكلمته وفضلها على إمامه وما نالت بولاية الله بأربيل وما نالت بولايتك ، فإنها كانت من شيعتك وعلى ملتك فأسلمها الله مع عظيم ملكها حتى اقتحمت عليها الكلاب في بيتها ، فانتهشت لحمها وولفت في دمها وقطعت الضباع أوصالها فقال له الملك : إنك لتحدثنا بشيء ليس لنا به علم ، فأتينا بالرجلين اللذين ذكرتهما حتى أنظر إليهما ، فإني أنكر أن يكون هذا من أمر البشر ، فقال له جرجيس : إنما جاءك الإنكار من قبيل الغرة بالله تعالى ، وأما الرجلان فلن تراهما ولن يرياك إلا أن تعمل بعملهما فتزل منازلهما ، فقال له الملك : أما نحن فقد أعذرنا إليك وتبين لنا كذبك ، لأنك فخرت

بأمور عجزت عنها ولم تأت بتصديقها . ثم إن الملك خير جرجيس بين العذاب وبين السجود لأفلون ، فقال جرجيس : إن كان أفلون هو الذي رفع السماء ووضع الأرض فقد أصبت ونصحت لي ، وإلا فاحسأ أيها النجس الملعون . فلما سمعها الملك غضب وشتمه وسب إلهه ، وأمر بنخشة فنصبت له وجعل عليها أمشاط الحديد فخدش بها جسده حتى تقطع لحمه وجلده وعروقه ونضح عليه في خلال ذلك بالخل والخردل ، فحفظه الله من ذلك الألم والهلاك ؛ فلما رأى الملك أن ذلك لم يقتله أمر بستة مسامير من حديد ، فأحميت حتى جعلت نارا ، فسمر بها رأسه حتى سال دماغه ، فحفظ من الألم والهلاك . فلما رأى ذلك أنه لم يقتله أمر بحوض من نحاس فأوقد عليه حتى إذا جعله نارا أمر به فأدخل في جوفه وأطبق عليه ، فلم يزل فيه حتى برد حره ؛ فلما رأى ذلك لم يقتله دعا به ، فقال له : يا جرجيس أما تجد ألم هذا العذاب الذي تعذب به ؟ فقال : إن ربي الذي أخبرتك به حمل العذاب عني وصبرني لأحتج عليك ؛ فلما قال له ذلك أيقن بالشر وخافه على نفسه وملكه ، وأجمع رأيه على أن يخلده في السجن ، فقال له الملائكة من قومه : إنك إن تركته طليقا في السجن يكلم الناس أو شك أن يميل بهم عليك ، ولكن مر له بعذاب في السجن فيشغله عن كلام الناس ، فأمر به فبطح على وجهه ثم أوتده في يديه ورجليه أربعة أوتاد من حديد في كل ركن منها وتد ، وأمر بأسطوانة من رخام فوضعت على ظهره ، ثم إنه حمل على تلك الأسطوانة ثمانية عشر رجلا ، فظل يومه ذلك موتدا تحت الحجر ؛ فلما أدركه الليل أرسل الله تعالى إليه ملكا ، وذلك أول ما أیده الله تعالى بالملائكة وأول ما جاءه الوحي ، فقلع عنه الحجر ونزع الأوتاد من يديه ورجليه وأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ؛ فلما أصبح أخرجه من السجن ثم قال له : الحق بعدوك فجاهده في الله حق جهاده ، فإن الله يقول لك اصبر وأبشر فإني قد ابتليتك بعدوى هذا سبع سنين يذبك ويقتلك فيهن أربع مرات ، وفي كل ذلك أردت إليك روحك ، فإذا كان في القتلة الرابعة نقلت روحك وأوفيتك أجرک . فلم يشعروا إلا وقد وقف جرجيس على رءوسهم يدعوهم إلى الله تعالى ، فقال له الملك : يا جرجيس من أخرجك من السجن ؟ فقال : أخرجني الذي سلطانه فوق سلطانك : فلما قال له ذلك ملي غيظا ودعا بأصناف العذاب حتى لم يخل منها شيئا ؛ فلما رآها جرجيس أوجس في نفسه خيفة وجزعا ، ثم أقبل على نفسه يعاتبها بأعلى صوته وهم يسمعون . فلما فرغ من عتابه قال لهم الملك : مدوه بين خشبتين ، فدوه ، ثم إنهم وضعوا سيفا على مفرق رأسه فنشروه حتى سقط بين رجله وصار جزءين ، ثم عمدوا إلى أجزاءه فقطعوها قطعا ودعوا له سبعة أسود ضارية كانت له في جب ، وكانت صنفا من أصناف عذابه فرموا بجسده إليها ، فلما هوى نحوها أمرها الله عز وجل فخضعت برءوسها وأعناقها وقامت على برائتها تقبه الألم ، فظل يومه ذلك ميتا ، وكانت أول موته ماتها . فلما أدركه

الليل جمع الله له جسده الذي قطعوه وضم بعضه إلى بعض حتى سواه ، ثم ردد الله إليه روحه ، وأرسل الله له ملكا فأخرجه من قعر الحب فأطعمه وسقاه وبشره بالنصر ؛ فلما أصبحوا قال له الملك : يا جرجيس ، قال ليبيك ، قال له : اعلم أن القدرة التي خلق الله بها آدم هي التي أخرجتك من قعر الحب ، اخرج فالحق بعدوك وجاهده في الله حق جهاده ومت موت الصابرين ، فلم يشعر الملك وأصحابه إلا وقد أقبل جرجيس وهم عكوف على عيد لهم قد صنعوه فرحا بموت جرجيس ، فلما نظروا إلى جرجيس مقبلا . قال الملك : ما أشبه هذا الرجل بجرجيس ، فقالوا : كأنه هو . فقال الملك : ليس هو حقا ألا ترون إلى سكون ريحه وقلة هيئته ، فقال جرجيس : بل هو أنا فبئس القوم أنتم قتلتم ومثلتم ، فأحياني الله تعالى بقدرته ، فهلموا إلى الرب العظيم الذي أراكم ما أراكم ؛ فلما قال لهم ذلك أقبل بعضهم إلى بعض وقالوا : ساحر سحر أعينكم ، فجمعوا له من كان ببلاد الملك من السحرة ، فلما جاء السحرة قال الملك لكبيرهم : اعرض على من كبير سحر ما يسر عيني ، فقال : ادع لي بثور من البقر ، فلما أتى به نفث في إحدى أذنيه فانشتت باثنتين ، ثم نفخ في الأذن الأخرى فإذا هو ثوران ، ثم دعا ببذر فحرث وبذر ونبت الزرع وحصد ثم داس وذرى وطحن وغجن وخبز ، كل ذلك في ساعة واحدة وهم يرون ، فقال له الملك : هل تقدر أن تمسخ لي جرجيس دابة ، فقال الساحر : أي دابة تطلب أمسخه لك كلبا ؟ فقال الساحر ادع لي بقدر من ماء ؛ فلما أتى بالقدح نفث فيه الساحر ، ثم قال للملك اعزم عليه أن يشربه ، فشربه جرجيس حتى أتى على آخره ، فلما فرغ منه قال له الساحر : ماذا تجد ؟ قال : ما أجد إلا خيرا كنت قد عطشت فعطف الله لي بهذا الشراب وقواني به عليكم ، فلما قال ذلك أقبل الساحر على الملك وقال له : اعلم أيها الملك أنك لو كنت تقايس رجلا مثلك إذا لكنت غلبته ، ولكنك تقايس جبار السموات والأرض وهو الملك الذي لا يرام . وقد كانت امرأة مسكينة من أهل الشام قد سمعت بجرجيس وما يصنع من الأعاجيب ، فأتته وهو في أشد ما فيه من البلاء ، فقالت له : يا جرجيس أنا امرأة مسكينة ولم يكن لي مال إلا ثوران كنت أحرث عليهما فماتا ، فجئتك لترحمني وتدعو الله أن يحيي لي ثوري ، فلما سمع كلامها ذرفت عيناه ، ثم دعا الله أن يحيي لها ثوريتها ، ثم إنه أعطاهما عصا وقال لها : اذهبي إلى ثوريك فاقرعيهما بهذه العصا وقولي لهما احيا بإذن الله تعالى ، فقالت له : يا جرجيس إن ثوري قد ماتا منذ سبعة أيام ومزقتهما السباع ، وبينى وبينهما أيام ، فقال لها لو لم تجدي منهما إلا شيئا يسيرا وقرعتيه بالعصا فإنهما يقومان بإذن الله تعالى ، فانطلقت المرأة حتى أتت مصرعهما ، وكان أول شيء بدا لها من ثوريتها ذقن أحدهما وشعر أذني الآخر ، فجمعت أحدهما إلى الآخر وقرعتهما بالعصا وقالت كما أمرها ، فقام الثوران بإذن الله تعالى وعملت عليهما حتى جاءهم الخبر بذلك . فلما قال الساحر للملك ما قال ،

قال رجل من أصحاب الملك وكان أعظمهم عند الملك إنكم قد وضعتم أمر هذا الرجل على السحر ، وإنكم قد عذبتموه فلم يصل إليه عذابكم ، وقتلتموه فلم يموت ، فهل رأيتم ساحرا يدرأ عن نفسه الموت أو أحيا ميتا قط ؟ فقالوا له : إن كلامك لكلام رجل قد صبا إليه فلعله استهواك إليه ، فقال : آمنت بالله وأشهد أني بريء مما تعتقدون ، فقام إليه الملك وأصحابه بالخناجر فقتلوه . فلما رأى القوم ذلك اتبع جرجيس أربعة آلاف آمنوا ، فعمد إليهم الملك ، فلم يزل يعذبهم بألوان العذاب حتى أفناهم . فلما فرغ منهم قال لجرجيس : هلا دعوت ربك فأحيا لك أصحابك هؤلاء الذين قتلوا يجريرتك ، فقال جرجيس : ما خلى بيني وبينهم حتى حانت آجالهم ، فقال له رجل من عظمائهم يقال له مخليطس : إنك زعمت يا جرجيس أن إلهك هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وإني سأثلك أمرا إن فعلته آمنت بك وصدقتك وكفيتك ، نحن قوم حولنا أربعة عشر كرسيًا ، وهذه مائدة بيننا عليها أقذاح وصحاف من أشجار شتى ، فادع ربك ينشئ هذه الكراسي والأواني كما بدأها أول مرة ، تعود خضراء فيعرف كل عود منها أنبوتته وورقه وزهره ، فقال له جرجيس : لقد سألت أمرا عزيزا علىّ وعليك وإنه على الله هين ، فدعا الله عز وجل ، فما برحوا من مكانهم حتى اخضرت تلك الكراسي والأواني كلها ، وساخت عروقها وتلبست باللحم وتشعبت وأورقت وأزهرت وأثمرت ، فلما نظروا إلى ذلك انتدب لهم مخليطس الذي تمنى عليه ما تمنى ، فقال : أنا أعذب لكم هذا الساحر عذابا يبطل به كيدته ، ثم إنه عمد إلى نحاس فصنع منه صورة ثور له جوف واسع ، ثم حشاها نبطا وورصا صا وكبيرتا وزرنيخا ، ثم أدخل جرجيس مع الحشو في جوفها ، ثم أوقد على الصورة حتى التهب وذاب كل شيء فيها ، واختلط جرجيس في جوفها . فلما مات جرجيس أرسل الله ريحا عاصفا فلأت السماء سحابة أسود فيه رعد وبرق وصواعق ، وأرسل الله إعصارا ملأت بلادهم عجاجا وقتاما حتى اسود ما بين السماء والأرض ، فكثروا أياما متحيرين في تلك الظلمة لا يفتصلون بين الليل والنهار ، وأرسل الله ميكائيل فاحتمل الصورة التي فيها جرجيس حتى إذا أقلها ضرب بها الأرض ، ففزع من روعها أهل الشام ، فخرجوا لوجوههم صاعقين ، وانكسرت الصورة فخرج منها جرجيس حيا . فلما وقف يكلمهم انكشفت الظلمة وأسفر ما بين السماء والأرض ورجعت إليهم أنفسهم ، فقال له رجل يقال له طوفليا : لا ندرى يا جرجيس إن كنت أنت تصنع هذه الأعاجيب أم ربك ؟ فإن كان ربك هو الذي يصنع فادعه يحيي لنا موتانا التي في هذه القبور ، فإن فيها أمواتا منهم من نعرفه ومنهم من لا نعرفه . فقال له جرجيس : لقد علمت أن ما يصفح الله عنكم هذا الصفح ويربكم هذه الأعاجيب إلا لتكون عليكم حجة فتستوجبوا بها غضبه ، ثم إنه أمر بالقبور فنبشت وهي عظام رفات ، وأقبل جرجيس على الدعاء ، فما برحوا من مكانهم حتى

نظروا إلى سبعة عشر إنسانا، تسعة رجال، وخمس نسوة، وثلاثة صبية، وإذا فيهم شيخ كبير فقال له جرجيس : يا شيخ ما اسمك ؟ فقال : يا جرجيس اسمي توبيل . قال : متى مت ؟ قال : زمان كذا وكذا ، فحسبوا فإذا هو قد مات منذ أربع مئة عام ؛ فلما نظر الملك وأصحابه إلى ما فعل قالوا : ما بقي من أصناف العذاب شيء إلا وقد عذبتموه به إلا الجوع والعطش فعذبوه بهما ، فعمدوا إلى بيت عجوز كبيرة فقيرة كان لها ابن أعمى أصم أبكم مقعد ، فحصره في بيتها ، وكانوا لا يوصلون له من عند أحد طعاما ولا شرابا ؛ فلما بلغ به الجوع قال للعجوز : هل عندك من طعام أو شراب ؟ فقالت لا والذي يُخَلِّفُ به ما عهدنا الطعام منذ كذا وكذا ، وسأخرج أتمس لك شيئا ، فقال لها جرجيس : هل تعرفين الله تعالى ؟ قالت نعم ، قال إياه تعبدين ؟ قالت لا ، فدعاها إلى الله فصدقته ، ثم إنها انطلقت تطلب له شيئا ، وكان في بيتها دعامة من خشب يا بسة تحمل خشب البيت ، فأقبل على الدعاء فاخضرت تلك الدعامة وأنبت له كل فاكهة تؤكل أو تعرف حتى كان مما أنبت اللوبيا واللياز وهو مثل البردي يكون بالشام ، وظهر للدعامة فرع من فوق البيت أظله من فوقه ، فأقبلت العجوز وهو فيما شاء يأكل رغدا ؛ فلما رأت الذي حدث في بيتها من بعدها قالت : آمنت بالذي أطعمك في بيت الجوع ، فادع هذا الرب العظيم أن يشفي ابني ، فقال لها : أدنيه مني ، فأدنته فبصق في عينيه فأبصر ، ونفث في أذنيه فسبح ، فقالت له : أطلق لسانه ورجليه رحمك الله ، فقال لها : أخريه فإن له يوما عظيما . وكان الملك قد خرج يوما يسير في مدينته إذ وقع بصره على الشجرة ، فقال : إني أرى شجرة بمكان ما كنت أعرفها به ، فقالوا له : إن تلك الشجرة نبتت لذلك الساحر الذي أردت أن تعذبه بالجوع ، فهو فيما يشاء يأكل وقد شبع منها وأشبع العجوز الكبيرة الفقيرة وشفي لها ابنها ، فأمر الملك بالبيت فيهدم وبالشجرة أن تقطع ؛ فلما هموا بقطعها أبيض الله الشجرة وردها كما كانت أول مرة فتركوها ، وأمر بجرجيس فبطح على وجهه وأوتد له أربعة أوتاد ، وأمر بعجل فأوقر أسطوانا ، وجعل في أسفل العجل خناجر وشفارا ، ثم أمر بأربعين ثورا فهضت بالعجل نهضة واحدة وجرجيس تحتها ، فانقطع ثلاث قطع ، فأمر بقطعة أن تحرق فألقيت في النار حتى عادت رمادا ، فبعث بذلك الرماد وبعث معه رجلا فذرّوه في البحر ، فما برحوا عن مكانهم حتى سمعوا صوتا من السماء : يا بحر ، إن الله يأمرك أن تحفظ ما فيك من هذا الجسد الطيب ؛ فإني أريد أن أعيده كما كان ، ثم أرسل الله الرياح فأخرجته من البحر ثم جمعته حتى صار الرماد صُبرة واحدة كهيئته قبل أن يندري ، وخرج منه جرجيس مغبرا ينفض رأسه . فرجعوا ورجع جرجيس ، وأخبروا الملك خبر الصوت الذي سمعوه والريح الذي جمعته ؛ فقال له الملك : يا جرجيس هل لك فيما هو خير لي ولك مما نحن فيه ، ولولا أن يقول الناس إنك غلبتني وقهرتني لا تبعثك وآمنت بك ، ولكن اسجد لأفلون سجدة

واحدة ، واذبح له شاة واحدة ، ثم إنى أفعل لك ما يسرك ، فقال له نعم مهما شئت فعلت فأدخلني على صنمك ، ففرح الملك بقوله وقام إليه وقبل يديه ورجليه ورأسه وقال له : أعزم عليك أن تظل هذا اليوم ولا تبيت هذه الليلة إلا في بيتي وعلى فراشي وفي كرامتي حتى تستريح ويذهب عنك وصب العذاب ويرى الناس كرامتك على فأخلى له بيته ، فظل فيه جرجيس حتى إذا أدركه الليل قام يصلي ويقرأ الزبور ، وكان أحسن الناس صوتا ؛ فلما سمعته امرأة الملك استجابت له ، فلم يشعر إلا وهي خلفه تبكي ، فدعاها جرجيس إلى الإيمان ، فأمنت به وأمرها فكنمت إيمانها ؛ فلما أن أصبح الصبح غدا به إلى بيت الأصنام ليسجد لها ، فلما سمعت العجوز بذلك خرجت تحمل ابنها على عاتقها توبخ جرجيس والناس مشتغلون عنها ؛ فلما دخل جرجيس بيت الأصنام ودخل الناس معه نظروا وإذا بالعجوز وابنها على عاتقها أقرب الناس إليه مقاما ؛ فلما رآها جرجيس دعا ابن العجوز باسمه فنطق وأجابه ولم يكن يتكلم قبل ذلك قط ، ثم اقتحم عن عاتق أمه يمشي على رجله ولم يكن يطاء الأرض قبل ذلك بقدميه قط ؛ فلما وقف بين يدي جرجيس قال له : اذهب فادع لي هذه الأصنام ، وهي يومئذ سبعون صنما على منابر من ذهب وهم يعبدونها ويعبدون معها الشمس والقمر ، فقال له الغلام : كيف أدعو الأصنام ؟ فقال له : قل لها إن جرجيس يسألك ويعزم عليك بالذي خلقتك إلا ما أحببته ، فلما قال لها الغلام ذلك أقبلت تتدحرج إلى جرجيس ، فلما انتهت إليه ركض الأرض برجله فخسف بها وبمنابرها ، وخرج إبليس لعنه الله من جوف صنم منها هاربا فرقا من الخسف ؛ فلما مر بجرجيس أخذ بناصيته فخضع له ، وكلمه جرجيس فقال له جرجيس : أخبرني أيها الروح النجسة والحلق الملعون ما الذي يملكك على أن تهلك نفسك وتهلك الناس معك وأنت تعلم أنك وجندك تصيرون إلى جهنم ؟ فقال له إبليس لعنه الله : لو خبرت بين ما أشرقت عليه الشمس وبين ما أظلم عليه الليل ، وبين هلكة واحد من بني آدم وضلالته لاخترت هلكته على ذلك كله ، وإنه ليقع لي من الشهوة واللذة في ذلك مثل جميع ما يتلذذ به جميع الخلق ، ألم تعلم يا جرجيس أن الله تعالى أوجب لأبيك آدم جميع الملائكة فسجدوا له كلهم وامتنعت من السجود وقلت أنا خير منه . قال : فلما قال هذا خلى سبيله جرجيس ، فما دخل إبليس من يومئذ في جوف صنم ولا يدخله بعدها فيما يذكرون أبدا . فقال الملك : يا جرجيس غررتني وخدعتني وأهلك آلهتي ، فقال جرجيس : إنما فعلت ذلك لثعبر ، ولتعلم أنها لو كانت آلهة لامتنت مني ، فكيف ثقتك وملكك بآلهة لم تمنع نفسها مني ، وإنما أنا مخلوق ضعيف لأملك إلا ما ملكني ربي ؛ فلما قال هذا جرجيس أقبلت امرأة الملك وكلمتهم وكشفت لهم عن إيمانها ، وعددت لهم أفعال جرجيس والعباد التي أراهم الله تعالى إياها ، وقالت لهم : ما تنتظرون من هذا الرجل إلا دعوة فيخسف بكم الأرض كما خسف بأصنامكم ، الله الله أيها القوم في أنفسكم ، فقال لها الملك : ويحك يا أسكندرة ما أسرع ما أضلك هذا الساحر

في ليلة واحدة وأنا أقاسيه منذ سبع سنين فلم يظفر مني بشئ؟ فقالت له: أما رأيت الله كيف يظفره بك ويسلطه عليك فيكون له الفلاح والحجة عليك في كل موطن؟ فلما سمع كلامها أمر بها الملك عند ذلك فحملت على خشبة جرجيس التي كان علق عليها وجعلت عليها الأمشاط التي جعلت على جرجيس، فلما آلمها قالت: ادع ربك يا جرجيس فيخفف عني، فإني قد آلمني العذاب، فقال لها: انظري فوقك، فلما نظرت ضحكت فقال لها الملك: ما الذي يضحكك؟ قالت: أرى ملكين فوقى معهما تاج من حلى الجنة، ينتظران به خروج روحى، فلما خرجت روحها زيناها بذلك التاج ثم صعدا بها إلى الجنة فلما قبض الله روحها أقبل جرجيس على الدعاء وقال: اللهم أنت أكرمتنى بهذا البلاء لتعطينى منازل الشهداء، فهذا آخر أيامى الذى كنت وعدتني فيه الراحة من بلاء الدنيا، اللهم إني أسألك أن لاتقبض روحى ولا أزول من مكانى هذا حتى تنزل بهؤلاء المتكبرين من سطواتك ونقمتك ما لا قبل لهم به حتى تشفى به صدرى وتقر به عيني، فإنهم ظلموني وعذبوني فيك، اللهم وأسألك أن لا يدعوا بعدى داع فى بلاء وكرب فيذكرنى وينشدك باسمى إلا فرجت عنه ورحمته وأجبتة وشفعتنى فيه. فلما فرغ من هذا الدعاء أمطر الله عليهم نارا، فلما رأوا ذلك عمدوا إليه فضربوه بالسيوف غيظا من شدة الحريق ليعطيه الله بالقتلة الرابعة ما وعده، ثم احترقت المدينة بجميع ما فيها وصارت رمادا، فحملها الله من وجه الأرض وجعل عاليها سافلها، فمكثت زمانا من الدهر يخرج من تحتها نار ودخان منتن لا يشمه أحد إلا سقم سقما شديدا، وكان جميع من آمن بجرجيس وقتل معه أربعة وثلاثين ألفا وامرأة الملك. قال الأستاذ: وكانت قصة جرجيس فى أيام ملوك الطوائف والله اعلم.

باب فى قصة شمسون النبى عليه السلام

قال الله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) إلى قوله تعالى (خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ). أخبرنا أبو عمرو العراقى بإسناده عن ابن أبى نجيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فتعجب المسلمون من ذلك ، فأنزل الله تعالى « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر - » التى ليس الرجل فيها السلاح فى سبيل الله تعالى .

أخبرنا عبد الله الضبى بإسناده عن وهب بن منبه: أن رجلا من أهل قرية من قرى الروم يقال له شمسون بن مسوح كان فيهم مسلما من أهل الإنجيل. وكانت أمه قد جعلته نذيرا، وكان قومه أهل أوثان يعبدونها من دون الله، وكان منزله ممتا على خمسة أميال، وكان يغزوهم وحده ويجاهدهم فى الله، فيقتل منهم ويسبي ويصيب الأموال، وكان إذا قاتلهم لقبهم بالحرجفة لا يلقبهم بغيرها، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه فتعب وعطش انفجر له

من الحجر ماء عذب فيشرب منه حتى يروى ، وكان قد أعطى قوة في البطش ، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره ، فجاهدهم في الله ألف شهر يصيب منهم حاجته ولا يقدر من منه على شيء ، فاحتالوا عليه وقالوا لأناتيه إلا من قبيل امرأته ، فجعلوا لها جعلا على ذلك ، فأجابتهم وقالت : أنا أوثقه لكم فأعطوها حبلا وثيقا وقالوا لها : إذا نام فأوثق يديه إلى عنقه حتى نأتيه فنأخذه ؛ فلما نام أوثقت يديه إلى عنقه بذلك الحبل ؛ فلما انتبه من نومه جذبته بيده فوق عنقه ، فقال لها : لم فعلت ذلك؟ فقالت له : أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط ، فأرسلت إليهم وقالت لهم : إني قد ربطته بالحبل فلم يغن عنه شيئا ، فأرسلوا إليها بجامعة من حديد ، وقالوا لها : إذا نام فاجعلها في عنقه ، فلما نام جعلتها في عنقه ثم أحكمتها ؛ فلما هبّ جذبها فوقعت من عنقه ويده ، فقال لها : لم فعلت هذا؟ قالت : أجرب به قوتك ما رأيت مثلك قط ، فهل في الأرض شيء يغلبك؟ قال لا إلا شيء واحد قالت : وما هو؟ قال : ما أنا بمخبرك به ؛ فلم تزل تسأله عن ذلك وكان ذا شعر طويل كثير فقال لها : ويحك إن أمي كانت أخبرتني ألا يغلبني شيء أبدا ، ولا يغلبني إلا شعري ؛ فلما نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه ، فأوثقه ذلك ، فبعثت إلى القوم فجاءوا وأخذوه ، فجدعوا أنفه وأذنيه ، وفتقوا عينيه ، وأوقفوه للناس بين ظهرائي المدينة ، وكانت مدينة ذات أساطين ، وكان ملكهم قد أشرف عليها هو والناس لينظروا إلى شمسون وما يصنع به ، فدعا الله شمسون حين مثلوا به وأوقفوه على الناس أن يسلطه عليهم ، فأمر أن يأخذ بعمودين من عمد المدينة التي عليها الملك والناس معه فيجذبهما جميعا ، فجذبهما فانهارت المدينة بمن فيها ، فهلكوا فيها هدمًا وهلكت أيضا امرأته معهم ، ورد الله تعالى عليه بصره وما أصابوا من جسده تاما وعاد كما كان ، وكانت قصة شمسون في أيام ملوك الطوائف . والله أعلم .

باب في قصة أصحاب الأخدود

قال الله تعالى (قَتِيلَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ) الآيات روى عطاء بن ابن عباس أنه كان بنجران ملك من ملوك حمير يقال له يوسف ذو نواس بن شرحبيل ، في الفترة قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين سنة ، وكان له ساحر حاذق ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث لي غلاما أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاما يقال له عبد الله بن السامري يعلمه السحري ، فكره الغلام ذلك ولم يجد بدا من طاعة الملك وطاعة أبيه ، فجعل يتخلف عن الساحر ، وكان في طريقه راهب حسن القراءة حسن الصوت ، فقعد الغلام عنده وسمع كلامه فأعجبه ، وكان يبطئ عند الراهب ويأتي المعلم فيضربه ويقول له ما الذي حبسك ، وإذا انقلب إلى أبيه يجلس عند الراهب فيضربه أبوه ويقول له ما أبطأك؟ فشكا الغلام ذلك إلى الراهب ، فقال له الراهب : إذا أتيت المعلم فقل له حبسني أبي ، وإذا أتيت أباك فقل حبسني المعلم . وكان في تلك البلاد حية عظيمة قد قطعت الطريق على الناس فر بها الغلام وربما بحجر وقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر

فاقتلها ، فلما رماها قتلها ، فأتى الراهب وأخبره ، فقال له الراهب : أنت قتلتها ؟ قال نعم ، قال : إن لك لشأنا ، وقد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى ، فإذا ابتليت فلا تدل على ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي المرضى ؛ وكان للملك ابن عم مكفوف البصر فسمع بالغلام وقتله الحية ، فجاءه مع قائد وقال له : أنت قتلت الحية ؟ قال لا ، قال فمن قتلها ؟ قال الله تعالى ، قال : فمن الله ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب الشمس والقمر والليل والنهار والدنيا والآخرة ، قال : إن كنت صادقا فادع الله أن يرد علي بصري ، فقال له الغلام : رأيت إن رد الله عليك بصرك تؤمن بالله ؟ قال نعم ، قال : اللهم إن كان صادقا فردد عليه بصره ، فرجع إلى منزله بلا قائد ، ثم دخل على الملك ، فلما رآه تعجب منه وقال له : من فعل هذا بك ؟ فقال : الله ، قال : ومن الله ؟ قال رب السموات والأرض ، فقال له الملك : أخبرني من علمك هذا ، فأبى ؟ فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام ، فجاء بالغلام ، فقال له الملك : يا بني قد بلغ من سحرِكَ هذا ؟ فقال له الغلام : إني لأشفي أحدا وإنما يشفي الله ، فلم يزل يعذبه حتى دله على الراهب ، فجاء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فدعا بالمنشار ووضع في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقتين ، ثم جرى بابين عم الملك ، فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فشقه مثل ذلك ؛ ثم التفت إلى الغلام وقال له ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا واصعدوا به إلى ذروة الجبل فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به إلى الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وهلكوا ، ثم جاء الغلام يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال كفانيهم الله ، فغاض الملك ذلك ، فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال لهم : اذهبوا به في قرقور وهي السفينة واطرحوه في البحر ولججوا به فيه ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه في البحر وغرقوه ، فذهبوا به إلى البحر ، فقال الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ، فقال الملك : اقتلوه بالسيف ، فبنا السيف عنه ، وفشا خبره في الأرض وعرفه الناس وعظموه وعلموا أنه هو وأصحابه على الحق ، ثم إن الغلام قال للملك : إنك لاتقدر على قتلي إلا أن تفعل ما أمرك به ، فقال وما هو ؟ قال : تجمع أهل مملكتك وأنت على سريرك فتصليني على جذع وترميني بسهم وتقول : باسم الله رب الغلام ، ففعل الملك ذلك ثم رماه وقال : باسم الله فأصابه في صدغه ، فوضع يده عليه ومات ، فقال الناس : لا إله إلا الله آمنا بدين عبد الله بن السامري ولا دين إلا دينه . فلما آمن الناس برب العالمين رب الغلام ، قيل للملك : قد والله نزل بك ما كنت تحذر ، فغضب الملك وأغلق أبواب المدينة ، وأخذ أفواه

السكك وخذ أخذودا وملأه نارا ، ثم عرض الناس عليه رجلا رجلا ، فمن رجع عن الإسلام تركه ، ومن لم يرجع ألقاه في الأخدود فاحترق ، وكانت امرأة قد أسلمت فيمن أسلم ولها أولاد ثلاثة أحدهم رضيع ، فقال لها الملك : أترجعين عن دينك وإلا ألقيتك أنت وأولادك في النار ؟ فأبت ، فأخذ ابنها الأكبر فألقى في النار ، ثم أخذ الأوسط وقال لها : ارجعي عن دينك ، فأبت ، فألقى أيضا في النار ، ثم أخذ الرضيع وقال لها : ارجعي ، فأمر بإلقائه في النار فهمت المرأة بالرجوع ، فقال لها الصبي الصغير : يا أمه لا ترجعي عن الإسلام فإنك على الحق ولا بأس عليك ، فألقى الصبي في النار وأمه على أثره ، وقد روى هذا بنحو ما ذكرنا مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسين بن جعفر المذكور بإسناده عن صهيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل معناه « وَقَدْ تَكَلَّمْتُ سِنَّةً فِي الْمَهْدِ : شَاهِدُ يُوسُفَ الصَّدِّيقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَابْنُ مَاشِطَةَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ وَبِحَسْبِي بَنُ زَكْرِيَّا وَعَيْسَى بَنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبَ جُرَيْجِ الرَّأهِبِ ، وَصَاحِبَ الْأُخْدُودِ . »

وقال سعيد بن المسيب : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ ورد عليه كتاب أنهم وجدوا ذلك الغلام بنجران وهو واضع يده على صدغه ، فكلما مدت يده عادت إلى الصدغ ، فكتب إليهم عمر : وارؤوه حيث وجدتموه . وقال مقاتل : كان أصحاب الأخاديد ثلاثة : واحد بنجران اليمن ، وآخر بالشام ، وآخر بفارس ، حرقوا بالنار ، أما الذي بالشام فأنطاخيوس الرومي أحرق قوما من المؤمنين ، وأملأ الذي بفارس فهو يختنصر .

وكانت قصته ما أخبرنا عبد الله بن حامد بإسناده عن ابن أروج قال : لما هزم المسلمون أهل الإسفندهار وانصرفوا جاءهم نعي عمر ، فاجتمعوا وقالوا : أي شيء نجري على المجوس من الأحكام ، فإنهم ليسوا بأهل كتاب وليسوا من مشركي العرب ؟ فقال على كرم الله وجهه : بل هم أهل كتاب وكانوا متمسكين بكتابهم ، وكانت الحمرة قد أحلت لهم ، فتناولها ملك من ملوكهم ، فغلبت على عقله فتناول أخته فوقع عليها ، فلما ذهب عنه السكر ندم وقال لها : ويحك ! ما هذا الذي أتيت وما المخرج منه ؟ فقالت : المخرج منه ؛ أنك تخطب الناس فتقول : أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات إذا ذهب هذا في الناس تناسوا حرمة عليهم ، فقام فيهم خطيبا فقال : أيها الناس إن الله قد أحل لكم نكاح الأخوات ، فقال الناس بأجمعهم : معاذ الله أن نؤمن بهذا ، ما جاءنا بهذا نبي ولا أنزل علينا في كتاب فرجع إلى أخته وقال : ويحك ! إن الناس قد أبوا علي ، فقالت : أبسط فيهم السوط ، فأبوا أن يتقروا ، فقال لها : إن الناس قد أبوا ، قالت : فجرد فيهم السيف ، فأبوا أن يتقروا ، قالت : فخذ لهم الأخدود . ثم اعرضهم عليه ، فمن تابعتك خل عنه ، ومن أبى فأقذفه في النار . فخذ الأخدود وأوقد فيه النيران وعرض أهل مملكته على ذلك : فمن أبى

قذفه في النار ، ومن أجاب خلى سبيله ، فأنزل الله تعالى فيهم (قَتِيلَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ)
... إلى قوله تعالى (عَذَابَ الْحَرِيقِ) .

وأما الذي في اليمن فهو يوسف ذونواس بن شرحبيل بن تبع بن يشرخ الحميري ، وقد
ذكرنا قصته . وذكر محمد بن إسحاق بن بشار عن وهب بن منبه : أن رجلا كان يتي على
دين عيسى فوقع إلى نجران ، فدعاهم فأجابوه ، فخبرهم ذونواس بين النار أو اليهودية ، فأبوا
عليه ، فأحرق منهم اثني عشر ألفا . وقال مقاتل : إنما قذف في النار يومئذ سبعة وسبعين
إنسانا ؟ وقال الكلبي : كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا ، فلما قذفوا المؤمنين في
النار خرجت النار إلى أعلى شفير الأخدود فأحرقهم ، وارتفعت النار فوقهم اثني عشر
ذراعا ، ونجا ذونواس ، فسلط الله عليهم إرباطا الحبشي حتى غلب على اليمن ، فخرج
هاربا ، فاقتم البحر فأغرقه الله فيه ، وفيه يقول عمرو بن معديكرب :

أتوعدني كأنك ذو رُعينِ بأنعم عيشة أو ذونواس
وقدما كان قبلك في نعيم وملك ثابت في الناس راسي
فقد تم عهده من عهد عاد عظيم قاهر الجبروت قاسي
فأمسى أهله بادوا وأمسى ينقل في أناس من أناس

(باب في قصة أصحاب الفيل)

وبيان ما فيها من الفضل والشرف . لنينا محمد صلى الله عليه وسلم .
قال الله تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) إلى آخر السورة .
قال محمد بن إسحاق بن يسار : كان من حديث أصحاب الفيل ما ذكر بعض أهل العلم
عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس وعمن بني من علماء اليمن وغيرهم : أن ملكا من
ملوك حمير يقال له زرعة ذونواس ، كان قد تهود واجتمع معه حمير على ذلك ،
لما كان من أهل نجران فإنهم كانوا على دين النصرانية على حكم الإنجيل ، ولهم رأس
الله عبد الله بن السامر ، فدعاهم إلى اليهودية ، فأبوا فخبرهم ، فاختاروا القتل ، فخذلهم
أخدود وصنف لهم أصناف القتل ، فمنهم من قتل صبورا ، ومنهم من ألقى في النار ،
رجلا من أهل سبأ يقال له دوس بن ثعلبان ، فذهب على فرس له يركض حتى
جزهم في الرمل ، فأتى قبضر فذكر له ما بلغ منهم واستنصره ، فقال له : بعدت بلادك
ولكني أكتب لك إلى ملك الحبشة فانه على ديننا فينصرك ، فكتب له إلى النجاشي
بنصره ، فلما قدم على النجاشي بعث معه رجلا من الحبشة يقال له إرباط . فلما بعثه
له : إن دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها ، وأخرب ثلث بلادها ، وابعث إلى ثلث
ها ، فلما دخلها ناوشهم القتال فنفروا على ذي نواس واقتم به فرسه فاستعرض

به البحر فهلكا جميعا ، فكان آخر العهد به ، ودخلها إرباط فعمل بما أمره النجاشي ، فقال ذو جدن الحميري فيما أصاب أهل اليمن :

دعيني لأبأ لك لم تطيقتي
بذا عزف القيان إذا انتشينا
وشرب الحمر ليس على عارا
وإن الموت لا ينهاه ناه
ولا مترهب في أسطوان
ونعمدان الذي نبئت عنه
لمنهمه وأسفله حروث
مصاييح السليط يلحن فيه
فأصبح بعد جدته رمادا
ونخلته التي غرست إليه
وأسلم ذو نواس مستينا
لحك الله قد أنزفت ربي
إذا نسق من الحمر الرحيق
إذا لم يشكني فيها رفيني
ولو شرب الشفاء من النشوق
بناطح جلده بيض الأنوق
بنوء ممسكا في رأس نيق
وجر الموجل اللثق الزليق
إذا يمسي كرمضان البروق
وغير حسنه لب الحريق
يكاد البسر يهصر بالعدوق
وحذر قومه ضنك المضيق

قال : فأقام إرباط باليمن وكتب إليه النجاشي أن اثبت بجندك ومن معك ، فأقام حيناً ، ثم إن أبرهة بن الصباح ساخطه في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين ، فكانت معه طائفة ، ومع أبرهة طائفة ، ثم تراخفا ، فلما دنا بعضهم من بعض أرسل أبرهة إلى إرباط إنك لن تصنع شيئاً فلاتلق الحبشة بعضها على بعض ، ولكن اخرج إلى فأبنا قتل صاحبه انضم إليه الجند ، فأرسل إليه إنك قد أنصفت ، ثم إنهما خرجا وكان إرباط جسيماً عظيماً وسبياً في يده حربة ، وكان أبرهة رجلاً قصيراً حاذراً حليماً ، وكان ذا دين في النصرانية وكان خلف أبرهة . وزير له يقال له عتودة ؛ فلما دنوا رفع إرباط الحربة فضرب بها رأس أبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وجبينه وأنفه وشفته ، فلذلك سمي أبرهة الأشرم ؛ فلما رأى عتودة ذلك حمل على إرباط فقتله ، فاجتمع الجيش على أبرهة ، فبلغ النجاشي ما صنع أبرهة فغضب عليه ، وحلف لا يدع أبرهة حتى يجز ناصيته ويطأ بلاذه ، ثم إنه كتب إلى أبرهة : إنك عدوت على أميري فقتلته بغير أمرى ، وكان أبرهة رجلاً مارداً ؛ فلما بلغه قول النجاشي حلق رأسه وملاً جراباً من تراب أرضه وكتب إلى النجاشي : أيها الملك إنما كان إرباط عبدك وأنا عبدك اختلفنا في أمرك ، وكنت باعلم أمر الحبشة وأسوس له ، وكنت أردته أن يعتزل فأبى فقتلته ، وقد بلغني الذي حلف عليه الملك وقد حلقت رأسي وبعثت به إليك وملاّت جراباً من تراب أرضي وبعثته إليك ليطأه الملك فيبرّ قسمه ؛ فلما انتهى إليه ذلك رضى عنه وأقره على عمله وكتب إليه : بأن اثبت بمن معك من الجند . ثم إن أبرهة بنى كنيسة بصنعاء يقال لها القليبس ، ثم إنه كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك

بصنعاء حنيسة لم بين الملك مثلها قط ، ولست متبها حتى أصرف إليها حج العرب . فسمع بذلك رجل من بني مالك بن كنانة ، فخرج إلى القلبيس فدخلها ليلا ، فقتل فيها تهاونا بها وتغضبا للكعبة ، فبلغ ذلك أبرهة ، ويقال إنه أتاها ناظرا إليها فدخلها فوجد العذرة فيها ؟ فقال : من اجترأ على هذا ؟ فقبل فعل هذا رجل من العرب من أهل ذلك البيت الذي يحجونه ، سمع بالذي قلت فصنع هذا ، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها ، فخرج سائرا من الحبشة إلى مكة وأخرج معه الفيل ، فبلغ ذلك العرب فأعظموه وفطّعوها به ، ورأوا جهاده حقا عليهم ، فخرج ملك من ملوك حير يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه ، فقاتله ، فهزمه وأخذ ذو نفر فأتى به أبرهة ، فقال له : أيها الملك لا تقتلني فإن استبقائك لي خير لك من قتلي ، فاستجابه وأوثقه ، وكان أبرهة رجلا حلما ، ثم خرج سائرا حتى إذا دنا من ديار خثعم خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم ، وهما شهران وناهش ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه فهزموهم وأخذ نفيل أسيرا ، فقال له أيها الملك إني دليلك بأرض العرب فلا تقتلني ، وها أنا أنادي على قومي بالسمع والطاعة لك فاستبقاه وخرج معه يده ، حتى إذا مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث الثقفي في رجال من ثقيف ، وقال له : أيها الملك إنما نحن عبيدك فليس لك عندنا خلاف ، وليس بيننا هذا الذي تريد ، يعني به اللات ، إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فبعثوا أبا رغال مولاهم ، فخرجوا حتى إذا كانوا بالمغمس مات أبو رغال فهو الذي ترجم قبره العرب ، وبعث أبرهة من المغمس رجلا من الحبشة يقال له الأسود ابن مفسود على مقدمة خيله ، فجمع إليه أموالا ، وأصاب لعبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثنى بعير ، ثم إن أبرهة بعث حناطة الحميري إلى أهل مكة سفيرا ، فقال له : سل عن شريفها ثم أبلغه أني لم آت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حناطة حتى دخل مكة ، فلقى عبد المطلب بن هاشم ، فقال له : إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه ، إنما آتى لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم ، فقال عبد المطلب : سنخلى بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبين ذلك فهو كذلك ، فوالله ما لنا به قوة . قال : فانطلق معي إلى الملك ، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة له كان راكبا عليها ، وركب معه بعض بنيه حتى قدم المعسكر ، وكان ذو نفر صديقا لعبد المطلب فأتاه فقال له : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال : ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية ، ولكني سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فإنه صديق لي ، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع إليه من الخير ، ويعظم منزلتك وحظك عنده . قال : فأرسل إلى أنيس فأتاه ، فقال له : إن هذا سيد قريش صاحب عبر مكة ، يعطي ويطعم الناس من السهل والجبل والوحش والطيور في رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك

مثنى بعير ، فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لي ، وإن أحب ما يصل إليه من الخير . ثم إن أنيسا دخل على أبرهة هو وعبد المطلب ، فقال له : يا أيها الملك هذا سيد قريش وصاحب غير مكة الذي يطعم الناس في السهل والجبل والطير والوحش في رءوس الجبال ، وقد جاءنا غير ناصب لك حربا ولا يخالف عليك ، يستأذن عليك وأنا أحب أن تأذن له فيكلمك ، فأذن له ، وكان عبد المطلب رجلا جسما وسما ، فلما دخل عليه جلس بين يديه ، فأقامه وأجلسه معه على السرير ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ؟ فقال له الترجمان ذلك ، فقال له عبد المطلب : حاجتي أن يرد علي مثنى بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنت أعجبتي حين رأيتك ، ولقد زهدت فيك الآن ، فقال له ولم ؟ قال : حيث جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك لأهدمه لم تكلمني فيه وتكلمني في مثنى بعير أصبتها ؟ فقال له عبد المطلب : قل له أنا رب هذه الإبل ، ولهذا البيت رب سيمنه منك ، قال : ما كان ليمنه مني ، فقال له : أنت وذاك ، ثم أمر له بإبله فردت عليه . قال محمد بن إسحاق : وكان فيما يزعم بعض أهل العلم أن عبد المطلب قد ذهب إلى أبرهة بعمر بن معديكرب بن الدليل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة ، وهو يومئذ سيد بني كنانة وخويلد بن وائلة الهذلي وهو يومئذ سيد هذيل ، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة ، على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى أن يرجع .

قال : فلما ردت الإبل على عبد المطلب ، رجع فأخبر قريشا الخبر ، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في رءوس الجبال تخوفاً عليهم من مَعْرَةِ الجيش إذا دخل ، ففعلوا ذلك ، ثم أتى عبد المطلب إلى الكعبة فأخذ حلقة الباب وجعل يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا فامنعهم أن يخربوا قراكا
وقال أيضا :

لاهم إن المرء يمنع ، حله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبيهم ومحالمهم أبدا محالك
جروا جموع بلادهم والقبيل كى يسبوا عيالك
هدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدا لك

ثم إن عبد المطلب ترك الحلقة وتوجه في بعض الوجوه مع قومه ، وأصبح أبرهة بالمغمس وقد تهباً لدخول مكة وعبي جيشه وهياً فيله ، وكان اسم الفيل محمودا ، وكان من قبل النجاشي بعثه إلى أبرهة ، وكان فيلا لم ير مثله في الأرض عظما وقوة وجسما . وقال الكلبي : لم يكن عندهم إلا ذلك الفيل الواحد ، فلذلك قال الله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك

بأصحابِ الفيلِ) . وقال الضحاک : كانت الفيلة كثيرة ، ويقال كان معه اثنا عشر فيلا ، وإنما وحد (١) على هذا التأويل لوفاق رءوس الآى ، ويقال نسبهم إلى الفيل الأعظم قال : فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم فأخذ بأذنه وقال : ابرك محمود ، أو ارجع راشدا من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ، فبرك الفيل ، فبعثوه فأبى أن يقوم : فضربوه بالمعول في رأسه فأبى ، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه ورفعوه ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعا إلى أنين فسام بهرول ، ثم وجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ثم وجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم ، ثم إن نفيلاً خرج من عندهم وصعد في الجبل وأرسل الله تعالى طيرا من البحر كأمثال الخطاطيف مع كل طير منهم ثلاثة أحجار : حجران في رجله ، وحجر في منقاره أمثال الحمص والعدس ؛ فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم فلم تصل تلك الحجارة أحدا إلا هلك ، وليس كل القوم : أصابت ، فذلك قوله تعالى (طيرا أبابيل) أى متفرقة من ههنا وههنا : قال ابن عباس : كان له خراطيم كخراطيم الطيور وأكف كأكف الكلاب . وقال عكرمة كان لها رءوس كراءوس السباع ولم تر قبل ذلك ولا بعده . وقال الربيع : لها أنياب كأنياب السباع . وقال سعيد بن جبیر : طير خضر لها مناقير صفر . وقال أبو الجوزاء أنشأها الله في الهواء في ذلك الوقت (ترميهم بحجارة من سجيل - أى سنككل (٢) . قال ابن مسعود : صاحت الطيور ورمتهم بالحجارة وبعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها قوة ، فما وقع منها حجر على جنب رجل إلا خرج من الجانب الآخر ، وإذا وقع على رأس رجل خرج من دبره (فجعلتهم كعصف ماكول) أى كزرع قد أكل حبه وبقى تبنة : فلما رأت الحبشة ذلك خرجوا هارين يتندرون الطريق الذى جاءوا منه ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق ، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمه :

أين المفسر والإله الطالب والأشرم المغلوب غير الغالب
وقال أيضا في ذلك :

ألا حيث عنا يا ردينا نعيمناكم مع الإصباح عينا
رديسة لو رأيت ولن تربه لدى جنب المحصب ما رأينا
إذن لعذرتني وحمدت أمرى ولم تأسى على ما فات بينا
حمدت الله إذ عانيت طيرا ونخت حجارة ترمى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن على للحبشان دينا

وذكر زياد عن عبد الله بن عمر أن طير الأبايل كانوا أقبلوا من قبل البحر لرجال

(١) قوله وإنما وحد الخ (المراد أن الأفراد في الآية على هذا القول لوفاق رءوس الآى :

(٢) قوله أى سنككل (لفظ فارسي ، معربه : سجيل .

للهند، ترميهم بحجارة أصغرهما مثل رءوس الرجال وأكبرها كالإبل البزل، مارمت أصابت
وما أصابت قتلت، ونفيل ينظر إليهم من بعض تلك الجبال، وقد خرج القوم وصاح
بعضهم على بعض، فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل، وبعث الله
تعالى على أبرهة داء في جسده فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة أتبعها أنملة
وقبح ودم، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فيما بقي من أصحابه، فمات حتى
انصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جر حديث أصحاب الفيل هو أن فئة من قريش
خرجوا تجارا إلى أرض النجاشي، فساروا حتى دنوا من ساحل البحر، وفي سندها حرقف من
أحقافها به بيعة للنصارى تسميها قريش الهيكل، ويسميها النجاشي وأهل أرضه الماسرخسان،
فزل القوم في سندها، فجمعوا حطبا وأججوا نارا واشتوا لحما؛ فلما ارتحلوا تركوا
النار كما هي في يوم صائف، فعجت الرياح فاضطرم الهيكل نارا، وانطلق الصريخ إلى
النجاشي فأخبروه، فأسف عند ذلك غضبا للبيعة، فبعث أبرهة لهدم الكعبة، وكان بمكة
يومئذ أبو مسعود الثقفي، وكان مكفوف البصر بصيف بالطائف ويشتوي بمكة، وكان رجلا
نبيها نبيلًا عاقلا، وكان لعبد المطلب خليلا، فقال عبد المطلب: يا أبا مسعود: هذا يوم
لا نستغنى فيه عن رأيك، فما رأيك؟ فقال أبو مسعود لعبد المطلب: اعمد إلى مئة من
الإبل فاجعلها هديا لله تعالى، وقلدها نعلا وأثبتها في الحرم، لعل بعض هؤلاء السودان
يعقر منها فيغضب رب هذا البيت، فيأخذهم، ففعل ذلك عبد المطلب، فعمد القوم إلى
تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها، وجعل عبد المطلب يدعو، فقال أبو مسعود:
إن لهذا البيت ربا سيمنعه، فقد نزل تبع ملك اليمن بصحراء هذا البيت، وأراد هدمه فنعاه
الله وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام؛ فلما رأى ذلك تبع كساه القباطي البيض وعظمه ونحر له
جزرا. ثم قال أبو مسعود لعبد المطلب: انظر إلى بحر اليمن هل ترى شيئا؟ فقال: أرى
طيرا بيضا نشأت من جانب البحر وحلقت على رءوسنا، فقال له: هل تعرفها؟ فقال
عبد المطلب: والله ما أعرفها ما هي بنجدية ولا تهامية ولا عربية ولا شامية، وإنما تطير
بأرضنا غير مؤنسة؛ قال: ما قدرها؟ قال: أمثال اليعاسيب في مناقيرها حصى كأنها
حصى الخداف قد أقبلت كالليل المظلم يتبع بعضها بعضا، أمام كل فرقة طير يقودها أحمر
المنقار أسود الرأس طويل العنق، فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركبت فوق
رءوسهم؛ فلما توافت الرجال كلها بجياهم أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها
مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، ثم لأنها رجعت من حيث جاءت. فلما أصبح
عبد المطلب وأبو مسعود انحطا من ذروة الجبل، فمشيا ربوة فلم يؤنسا أحدا، ثم إنهما
مشيا فلم يسمعا حسنا، فقالا لبعضهما: بات القوم سامدين فأصبحوا نياما؛ فلما دنوا من
معسكر الفيل فإذا هم خامدون، وكان الحجر ينزل على بيضة أحدهم فيفجرها ويقطع

في دماغه ويحرق القليل والدابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه ، ثم إن عبد المطلب أخذ فأسا وحفر حتى أعمق في الأرض فلأها من الذهب الأحمر والجوهر الجيد ، ثم حفر لصاحبه حفرة فلأها ، ثم قال لأبي مسعود : هات خاتمك وأخبرك فاختر ، فإن شئت أخذت حفرتي ، وإن شئت أخذت حفرتك ، وإن شئت فهما لك معا ، فقال له أبو مسعود اختر لي على نفسك ، فقال عبد المطلب : إني جعلت أجود المتاع في حفرتي فهو لك ، ثم جلس كل واحد منهما على حفرتة ، ونادى عبد المطلب في الناس فرجعوا وأصابوا من فضائها حتى ضاقوا بذلك ذرعا ، وساد عبد المطلب بذاك على قريش وأعطته الرياسة ، فلم يزل أبو مسعود وعبد المطلب غنيين من ذلك المال إلى أن ماتا .

وقال الواقدي بأسانيد : غزا النجاشي إرباط في أربعة آلاف إلى اليمن فغلب عليها ، فأكره الملوك واستذل الفقراء ، فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة الأشرم أبويكسوم ، فدعا إلى طاعته فأجابوه ، فقتل إرباط وغلب على اليمن ، فرأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج ، فسأل أين تذهب الناس ؟ فقيل : يحجون بيت الله بمكة ، قال فما هو ؟ قالوا من حجر ، قال فما كسونه ؟ قالوا ما يأتي من ههنا من الوصائل ، فقال : والمسيح لأبني خيرا منه ، فبنى لهم بيتا بالرخام الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، وحلاه بالذهب والفضة وحفه بالجواهر ، وجعل له أبوابا عليها صفائح الذهب ومسامير الذهب ، ورصعها بالجواهر وجعل فيها ياقوتة حمراء وجعل لها حجابا ، وكان يوقد بالمنديل ويلطخ جدرانها بالمسك حتى تغيب الجواهر ، وأمر الناس بحجه ، فحجه كثير من قبائل العرب سنين ، ومكث فيه رجال يتعبدون ويتنسكون ، فأمهل نفيل الخثعمي حتى كان ليلة من الليالي لم ير أحدا يتحرك فجاءه بعذرة فلطخ بها قبلته وألقى فيه الجيف ، فأخبر أبرهة بذلك ، فغضب أبرهة غضبا شديدا وقال : إنما فعلت العرب ذلك غيظا لأجل بيتهم ، ثم إنه قال لأنقضنه حجرا حجرا . ثم إنه كتب إلى النجاشي يخبره بذلك ، ويسأله أن يبعث إليه بفيله محمود ، وكان فيله لم ير مثله في الأرض عظما وجسا وقوة ، فبعثه إليه ، فغزا البيت كما ذكرنا إلى أن قال : أقبلت الطير من البحر أباييل ، مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران في رجله ، وحجر في منقاره ، فقذفت الحجارة عليهم لاتصيب شيئا إلا هشمته ، وبعث الله سيلا أتى عليهم ، فذهب بهم إلى البحر ، فألقاهم فيه ، وولى أبرهة ومن معه هاربا ، فجعل أبرهة يسقط عضوا عضوا حتى مات . وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم فنجا ، وأما الفيلة الأخر فتشجعت فحصبته وهلكت ، وهو أول وقت رؤى عليه الجحدرى والحصبة .

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك :

إن آيات ربنا بينات ما يمارى بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبسو كأنه معفور
حواله من رجال كندة فتبا ن مصالبت في الحروب صفور

غادروه وقد تولوا سراعا كلهم عظم ساقه مكسور
وقال الكلبي : لما أهلكهم الله بالحجارة لم يفلت منهم إلا أبرهة الأشرم بن بكسوم ،
فسار وطائر يطير فوقه ، ولم يشعر به حتى دخل على النجاشي ، فأخبره بما أصابهم ،
فما ستم كلامه حتى رماه الطائر فسقط ميتا ، فأرى الله النجاشي كيف كان هلاك أصحابه ،
وقال الواقدي : كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وآمن
به . واختلفوا في تاريخ عام الفيل ، فقال مقاتل : كان أمر الفيل قبل مولد النبي صلى الله
عليه وسلم بأربعين سنة . وقال عبيد بن عمير والكلبي : كان قبل مولده بثلاث وعشرين
سنة . وقال آخرون : كانت قصة الفيل في العام الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه
وسلم . وعلى هذا أكثر العلماء وهو الصحيح ، يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الجوزي قال :
حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت ، حدثنا الزبير بن موسى عن أبي الجوزاء قال : سمعت
عبد الملك بن مروان يقول لغياث بن أشم الكناني : يا غياث أنت أكبر أم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر مني وأنا أسن منه ،
ولد رسول الله عليه الصلاة والسلام عام الفيل ووقفت بي أمي على روث الفيل . ويدل
عليه أيضا ما روى أن عائشة رضي الله عنها قالت : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين
مقعدين يستطعمان .

فلما كفى الله أمر أصحاب الفيل عظمت العرب قريشا وقالوا : هم أهل الله ، وإن الله
قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم .
والله عز وجل أعلم وأحكم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . آمين .

بحمد الله وحسن توفيقه ، والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه . تمت الطبعة الرابعة لكتاب :

قصص الأنبياء ، المسمى عرائس المجالس

لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ، المعروف بالثعلبي

مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برياسة الشيخ : أحمد سعد علي

القاهرة في ٦ ذى القعدة ١٣٧٤ هـ
٢٧ يونيو ١٩٥٥ م

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

فهرس

صحيفة

٢ خطبة الكتاب

باب في ذكر بعض وجوه الحكمة
في تخصيصه أخبار الماضين على سيد
المرسلين

٤ مجلس في صفة خلق الأرض ، وفيه
سبعة أبواب

الباب الأول في بدء خلق الأرض وكيفيتها
٦ الباب الثاني في حدود الأرض ومسافتها
وأطباقها وسكانها

٨ الباب الثالث في ذكر الأيام التي خلق
الله تعالى فيها الأرض

الباب الرابع في ذكر أسمائها وألقابها
٩ الباب الخامس في ذكر ما زين الله به
الأرض

١٠ الباب السادس في عاقبتها وما لها وآخر
حالتها

الباب السابع في وجوه الأرض
المذكورة في القرآن

١١ مجلس في ذكر خلق السموات وما
يتصل به ، وفيه سبعة أبواب

١٢ الباب الأول في بدء خلق السموات
الباب الثاني في جواهرها وأجناسها
الباب الثالث في هيئتها وحدودها
الباب الرابع في أسمائها وألقابها

١٤ الباب الخامس في ذكر الأيام التي
خلق الله فيها الأنبياء

صحيفة

١٥ الباب السادس في ذكر ما زين الله
به السموات

١٧ الباب السابع في ذكر ما لها وآخر
حالتها

١٨ مجلس في ذكر خلق الشمس والقمر
وصفة سيرهما وبدء أمرهما ومعادهما

٢٤ مجلس في قصة آدم عليه الصلاة والسلام
وهو يشتمل على أبواب كثيرة

الباب الأول في ذكر وجوه من الحكمة
وخلق آدم عليه الصلاة والسلام

٢٦ الباب الثاني في خلق آدم عليه الصلاة
والسلام وكيفيته وصفته

٢٨ الباب الثالث في صفة نفخ الروح فيه

٢٩ الباب الرابع في صفة خلق حواء عليها
السلام

٣٠ الباب الخامس في ذكر امتحان الله
آدم عليه السلام وما كان منه في ذلك

٣٤ الباب السادس في حال آدم بعد هبوطه
إلى الأرض وما كان منه

٤١ الباب السابع في ذكر هبوط إبليس
لعنه الله إلى الأرض ، وحاله فيها
بعد اللعنة

٤٢ الباب الثامن في ذكر ما روى من
الأخبار فيمن تراءى له إبليس فرآه
عبانا وكلمه شفاها

صحيفة

- ۴۳ الباب التاسع في قصة قابيل وهاويل
 ۴۷ الباب العاشر في ذكر وفاة آدم عليه السلام
 ۴۸ باب في ذكر الخصائص التي خص الله بها آدم عليه السلام
 ۴۹ مجلس في ذكر نبي الله إدريس عليه السلام
 ۵۰ قصة هاروت وماروت
 ۵۴ مجلس في قصة نوح عليه السلام
 ۶۰ ذكر خصائص نوح عليه السلام
 ۶۱ مجلس في قصة هود عليه السلام
 ۶۶ مجلس في قصة صالح عليه السلام
 ۷۲ مجلس في قصة إبراهيم عليه السلام والنمرود وهو يشتمل على أبواب الباب الأول في مولد إبراهيم عليه السلام
 ۷۴ الباب الثاني في خروج إبراهيم عليه السلام من السرب ورجوعه إلى قومه
 ۷۹ الباب الثالث في ذكر مولد إسماعيل وإسحق عليهما السلام، ونزول إسماعيل وأمه هاجر الحرم، وقصة بئر زمزم
 ۸۴ الباب الرابع في القول على بقية قصة زمزم
 ۸۵ الباب الخامس في صفة بناء الكعبة وبدء أمرها إلى وقتنا هذا
 ۹۱ الباب السادس في ذكر أمر الله تعالى خليه إبراهيم عليه السلام بذبح ولده
 ۹۳ قصة الذبيح وصفته، وفعل سيدنا إبراهيم بابنه عليهما السلام

صحيفة

- ۹۵ الباب السابع في هلاك النمرود بن كنعان وقصة بنائه الصرح
 ۹۷ الباب الثامن في ذكر وفاة سارة وهاجر، وذكر وفاة أزواج إبراهيم وولده
 الباب التاسع في ذكر وفاة إبراهيم عليه السلام
 ۹۸ الباب العاشر في ذكر خصائص إبراهيم عليه السلام
 ۱۰۰ مجلس في ذكر بعض أخبار إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم عليهما السلام
 ۱۰۲ مجلس في قصة لوط عليه السلام
 ۱۰۷ مجلس في قصة يوسف بن يعقوب وإخوته عليهم الصلاة والسلام، وفيه بابان
 ۱۴۸ الباب الأول في ذكر نسبه عليه الصلاة والسلام
 الباب الثاني في صفة يوسف عليه الصلاة والسلام وحليته ونعت خلقه وصفة صورته
 ۱۱۰ القول في القصة
 ۱۴۳ مجلس في قصة موسى بن ميثا بن يوسف عليه السلام
 مجلس في ذكر بقية عاد وقصة شديد وشداد، وصفة إرم ذات العماد
 ۱۴۹ مجلس في ذكر قصة أصحاب الرس
 ۱۵۳ مجلس في ذكر قصة نبي الله أيوب وبلائه عليه السلام
 ۱۶۳ مجلس في قصة ذي الكفل عليه السلام

- ١٨٨ الباب الثاني عشر في ذكر آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومقتلها
- ١٨٩ الباب الثالث عشر في بناء الصرح
- ١٩٠ الباب الرابع عشر في ذكر الآيات التي ابتلى الله بها فرعون وقومه الخ
- ١٩١ باب في صفة تنزيل هذه الآيات وتفصيلها وكيفيتها
- ١٩٢ فصل في بعض ما ورد من الأخبار الغريبة في الجراد
- ١٩٦ الباب الخامس عشر في قصة إسراء موسى عليه السلام ببني إسرائيل ، وخبر فلق البحر لهم
- ٢٠٠ الباب السادس عشر في قصة ذهاب موسى إلى الجبل لميقات ربه ، وصفة إيتاء الله تعالى له الألواح الخ
- ٢٠٤ فصل في نسخة العشر الكلمات التي كتبها الله تعالى لموسى نبيه الخ
- ٢٠٨ باب في ذكر قصة بني إسرائيل وهارون مع السامري حين اتخذ لهم العجل
- ٢١٣ باب في قصة قارون حين عصى ربه
- ٢١٧ باب في قصة موسى حين لقي الخضر وما جرى بينهما من العجائب
- ٢٢٠ فصل في ذكر جمل من أخبار الخضر عليه السلام وأحواله
- فصل في بدء أمر الخضر عليه السلام
- ٢٣١ باب في ذكر قصة عاميل قتيل بني إسرائيل وقصة البقرة

- ١٦٤ مجلس في قصة شعيب النبي عليه السلام
- ١٦٦ مجلس في ذكر صفي الله ونجيبه موسى بن عمران عليه السلام ، وهو يشتمل على أبواب
- الباب الأول في ذكر نسبه عليه السلام
- الباب الثاني في ذكر مولده عليه السلام
- ١٧٢ الباب الثالث في ذكر حلية موسى وهارون عليهما السلام
- الباب الرابع في قصة قتله القبطي وخروجه من مصر ووروده مدين
- ١٧٤ الباب الخامس في دخول موسى مدين وترويح شعيب ابنته إياه
- ١٧٥ الباب السادس في ذكر نعت عصا موسى وبدء أمرها
- ١٧٦ الباب السابع في صفة المنار التي كانت له فيها
- ١٧٨ الباب الثامن في ذكر خروج موسى عليه السلام من مدين وتكليم الله إياه في الطريق ، وإرساله إلى فرعون واستعانه بأخيه هارون ، وكيفية ذهابهما إلى فرعون لتبليغ الرسالة
- ١٨٢ الباب التاسع في ذكر دخول موسى وهارون على فرعون
- ١٨٤ الباب العاشر في قصة موسى وهارون مع فرعون والسحرة ، وخروجهم يوم الزينة في القضاء للمغالبة
- ١٨٧ الباب الحادي عشر في قصة حزقيل مؤمن آل فرعون وامراته ومقتله وأولاده رضى الله عنهم أجمعين

- | صحيفة | صحيفة |
|--------------------------------------|----------------------------------------|
| ٢٦٥ ذكر قصة الملك طالوت وإتيان | ٢٣٤ باب في ذكر بناء بيت المقدس |
| التابوت وحرب جالوت وما يتعلق به | والقربان والتابوت والسكينة ، وصفة |
| ٢٦٦ قصة التابوت وصفته وابتداء أمره | النار التي كانت تأكل القربان الخ |
| إلى انتهائه | ٢٣٦ باب في ذكر مسير بني إسرائيل إلى |
| ٢٦٩ باب في قصة شمويل حين أوحى الله | الشام حين جاوزوا البحر ، وصفة |
| إليه أن يأمر طالوت بالمسير إلى قتال | حرب الجبارين الخ |
| جالوت مع بني إسرائيل وصفة نهر | فصل في فضل الشام وأهله |
| الابتلاء | ٢٣٧ ذكر قصة بلعام بن باعوراء |
| ٢٧٠ باب في ذكر أمر داود ونخبر جالوت | ٢٤٠ باب في ذكر النقباء الذين اختارهم |
| وصفة قتله | موسى ليكونوا كفلاء على قومهم |
| ٢٧٢ ذكر بقية قصة طالوت وما كان منه | ٢٤١ فصل في ذكر حمل من أخبار عوج |
| إلى داود عليه السلام بعد قتل جالوت | ابن عنق وأحواله |
| ٢٧٥ مجلس في خلافة داود عليه السلام | ٢٤٣ باب في ذكر النعمة التي أنعم الله |
| وما يتعلق بها | بها على بني إسرائيل في التيه الخ |
| باب في ذكر نسبه | ٢٤٦ باب فتح أريحا ونزول بني إسرائيل |
| ٢٧٥ باب في ذكر صفته وحليته | الشام |
| ٢٧٩ باب في ذكر ما خص الله تعالى به | قصة وفاة هارون عليه السلام |
| نبيه داود عليه السلام من الفضل الخ | ٢٤٧ ذكر وفاة موسى عليه السلام |
| ٢٧٩ باب في قصة داود عليه السلام حين | ٢٥٠ مجلس في ذكر الأنبياء والملوك الذين |
| ابتلى بالخطيئة وما يتصل بذلك | قاموا بأمر بني إسرائيل بعد يوشع |
| ٢٨٧ باب في ذكر خروج ابن داود على | وقصة كالب عليه السلام |
| أبيه وما كان من أمرهما | ذكر خبر حزقيل عليه السلام |
| باب في قصة أصحاب السبت | ٢٥٢ باب في قصة إلياس عليه السلام |
| ٢٨٩ باب في قصة داود وسليمان عليهما | ٢٥٩ قصة اليسع عليه السلام |
| السلام في الحرث | ٢٦١ مجلس في قصة ذي الكفل عليه السلام |
| ٢٩٠ باب في قصة استخلاف داود ابنه | ٢٦٢ مجلس في قصة عيلي وشمويل الخ ، |
| سليمان ، وذكر بدء أمر الخاتم | وهي تشتمل على أبواب كثيرة |
| ٢٩٢ باب في ذكر وفاة داود عليه السلام | فصل في سياق الآية ومقدمة القصة |
| مجلس في قصة سليمان عليه السلام | ٢٦٣ القول في بدء أمر شمويل وصفة |
| وما يتعلق به | نبوته صلى الله على نبينا وعليه وسلم |

صحيفة

٢٩٢ باب في صفته وحليته عليه السلام

باب فيما خص الله به نبيه سليمان

عليه السلام حين ملكه من أنواع

المناقب والمواهب وغير ذلك

٣٠٤ حديث القبة

٣٠٥ قصة مدينة سليمان عليه السلام التي

كان يسافر بها في الهواء

صفة كرسي سليمان عليه السلام

٣٠٦ صفة بيانه وبدء أمره

٣١١ باب قصة بلقيس ملكة سبا ،

والهدهد وما يتصل به

٣١٣ صفة القصر الذي بنته بلقيس

٣١٤ صفة عرشها

٣٢٢ باب في ذكر غزوة سليمان عليه

السلام أبا زوجته الجرادة ، وخبر

الشیطان الذي أخذ خاتمه من يده ،

وسبب زوال ملكه

٣٢٦ باب في ذكر وفاة سليمان عليه السلام

٣٢٨ مجلس في قصة بختنصر وما يتصل به

٣٢٩ قصة شعيب عليه السلام

٣٣٣ قصة أرميا عليه السلام

٣٣٨ قصة دانيال عليه السلام -

٣٤٠ خبر وفاة دانيال عليه السلام

٣٤٣ باب في ذكر الذي مرّ على قرية

وهي خاوية على عروشها

٣٤٥ باب في ذكر تمام قصة عزيز عليه

السلام وحاله بعد ما رجع إلى قومه

٣٤٧ مجلس في ذكر غزوة بختنصر العرب

وقصة يوحنا وخراب حضور

صحيفة

٣٤٨ مجلس في ذكر لقمان الحكيم عليه

السلام ، وذكر بعض مواعظه وحكمته

ووصيته لابنه

٣٤٩ باب في ذكر بعض ما روى من

حكم لقمان ومواعظه المذكورة

في القرآن

٣٥٢ مجلس في قصة بلوقيا

٣٥٩ مجلس في ذكر قصة ذي القرنين

عليه السلام

باب في نسبه ولقبه عليه السلام

٣٦ باب في قصة ذكر بدء أمره وسبب

استكمال ملكه

٣٦١ باب في ذكر الحوادث التي كانت

في أيام ذي القرنين بعد قتل دارا

ووصف مسيره إلى البلاد والآفاق

٣٦٤ باب في صفة سدّ ذي القرنين وما

يتعلق به

٣٦٧ باب في دخول ذي القرنين الظلمات

مما يلي القطب الشمالي لطلب عين الحياة

٣٧٠ مجلس في قصة زكريا وابنه يحيى

ومريم وعيسى عليهم السلام

٣٧١ نسب زكريا عليه السلام

باب في ذكر مولد مريم عليها السلام

وخبر تحريرها

٣٧٤ باب في مولد يحيى بن زكريا عليه

السلام

٣٧٦ باب في صفته وحليته عليه السلام

فصل في نبوته وسيرته وذكر زهده

وجهدته

صحيفة

- ٣٩٥ ذكر حديث جامع في هذا الباب
٤٠١ ذكر نزول عيسى من السماء بعد
رفعه بسبعة أيام
٤٠٣ ذكر وفاة مريم ابنة عمران عليهما
السلام
ذكر نزول عيسى عليه السلام من
السماء في المرة الثانية في آخر الزمان
٤٠٤ باب في قصة الرسل الثلاثة الذين
بعثهم عيسى عليه السلام إلى أنطاكية
وذلك في أيام ملوك الطوائف
٤٠٦ قصة يونس بن متى عليه السلام
٤١١ باب في قصة أصحاب الكهف
٤٢٨ مجلس في ذكر جرجيس عليه السلام
٤٣٥ باب في قصة شمسون النبي عليه
السلام
٤٣٦ باب في قصة أصحاب الأخدود
٤٣٩ باب في قصة أصحاب الفيل ، وبيان
ما فيها من الفضل والشرف لسيدنا
ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم

صحيفة

- ٣٧٨ باب في مقتله عليه السلام
٣٨٠ ذكر مقتل زكريا عليه السلام
٣٨١ مجلس في مولد عيسى عليه السلام
وفي حمل مريم وما يتصل به
٣٨٣ باب في ذكر ميلاده عليه السلام
٣٨٥ باب في رجوع مريم بابنها عيسى
عليه السلام بعد ولادتها إياه إلى
جماعة قومها من بيت لحم
٣٨٦ باب ذكر في خروج مريم وعيسى
عليهما السلام إلى مصر
٣٨٧ باب في صفة عيسى وحليته عليه السلام
باب في ذكر الآيات والمعجزات التي
ظهرت لعيسى عليه السلام في صباه
إلى أن نبئ
٣٩٠ باب في ذكر رجوع مريم وعيسى
عليهما السلام إلى بلادهما بعد موت
مردوس
باب في قصة الحوارين عليهم السلام
٣٩١ ذكر خصائص عيسى عليه السلام
والمعجزات التي ظهرت على يديه بعد مبعثه
إلى أن رفع صلوات الله وسلامه عليه



قصص الأنبياء

المستمى

عزائس الجاهليين

تأليف

أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري

المعروف بالثعلبي

المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية

الطبعة الرابعة

تمتاز بضبط الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة

دار القلم للطباعة

بيروت - لبنان